لوي فرديناد سيلين

موت بالتقسيط

رواية

ترجمة:
حسن عودة

التكوين

ها نحن ما نزال وحيدين، كلّ ما حولنا بطيء جداً، ثقيل جداً، حزين جداً... سأغدو عجوزاً عما قريب، وستحلّ النهاية أخيراً. جاء إلى حجرتي أناس كثيرون. قالوا أشياء. لم يقولوا لي شيئاً مهماً. ثم مضوا، غدوا هرمين، بائسين، بطيئي الخطى، وكل منهم في ركن من أركان العالم.

أمس، في الساعة الثامنة ماتت السيدة بيرينج، حارسة العمارة. هبت خلال الليل عاصفة هوجاء، ارتجت أركان المنزل فوقنا. كانت عذبة وصديقة مخلصة. غداً سيدفنونها في مقبرة شارع الصفصاف. كانت هرمة حقاً، في أرذل العمر. قلت لها منذ أول يوم سعلت فيه: "لا تتمددي على الأخص!... امكثي جالسة في سريرك!" كنت في ريب من أمرها، ومن ثم قضي الأمر... ومن ثم اللعنة.

لم أزاول الطب دائماً، ذلك الخراء. سأكتب لهم بأن السيدة بيرينج قد ماتت، سأكتب لأولئك الذين عرفوها. ترى أين هم؟ أود لو أن هدير العاصفة يعلو ويعلو، أود لو أن السقوف تنهار، لو أن الربيع يمضي ولا يعود، وأن يختفي منزلنا ويتلاشى.

كانت السيدة بيرينج تعرف أن جميع الأحزان تجيء من الرسائل. ما عدت أعرف لمن أكتب... كل أولئك الذين عرفتهم نأوا بعيداً... بدلوا أرواحهم، لكي يخونوا أكثر، وينسوا أكثر، ويتحدثوا دائماً عن شيء آخر.

سيأخذون كلبها الأحول، كلب السيدة العجوز بيرينج، سيقودونه بعيداً..

كل حزن الرسائل، منذ عشرين عاماً، كان يحط عندها. إنه راخم هناك وسط رائحة الموت الطري، بطعمه الحامض الرهيب... إنه يفرّخ.. يطوف هناك... يعرفنا، ونحن نعرفه الآن. ولن يبارحنا قط في يوم من الأيام. عليّ أن أطفئ النار في الحجرة العلوية. ترى، لمن سأكتب؟ لم يبق لي أحد. لم يبق هناك كائن يتلقى برفق روح الموتى اللطيف.. كي يتحدث بعد ذلك إلى الأشياء برقة أكثر.. فصبر جميل!

في لحظات الاحتضار الأخيرة، لم تعد حارستي العجوز قادرة على النطق بكلمة. كانت تختنق، وهي تمسك بيدي.. دخل ساعي البريد، رآها تموت، شهقة صغيرة، وانتهى كل شيء. كثير من الناس جاؤوا إليها فيما مضى، ليسألوها عني ثم مضوا بعيداً، بعيداً جداً، غابوا في مطاوي النسيان، يبحثون لأنفسهم عن روح. رفع ساعي البريد قبعته. سيكون بوسعي أن أعبّر عن كل مقتي. أعلم، بأنني سأفعل ذلك فيما بعد إن لم يعودوا. أفضّل أن أروي حكايا. سأروي حكاية عن أنهم سيعودون قاصدين قتلي، من أربعة أقطار العالم. سينتهي الأمر حينئذ. وسأكون راضياً كل الرضى...

❋ ❋ ❋

في المشفى حيث أعمل، في مبرة لينوتي يخالط ذهني ألف فكرة سيئة بشأن القصص التي أرويها... قريبي جوستين سابايو صريح بهذا الخصوص: يتوجب عليّ أن أغير نوعي. كان هو الآخر طبيباً أيضاً،

على الضفة الأخرى من السين. في منطقة "شابيل جونكسيون". لم يتح لي يوم أمس الذهاب لزيارته. كنت أود أن أحدثه عن السيدة بيرينج، لكنني انشغلت حتى وقت متأخر جداً. تلكم مهنة شاقة، مهنة الطب، تقديم النصائح والاستشارات. هو الآخر يكون منهكاً عند المساء. الجميع تقريباً يطرحون أسئلة مضجرة، لا طائل من

الاستعجال، ينبغي أن نكرر عشرين مرة تفاصيل العلاج. إنهم يستمتعون في جعلنا نتكلم ونتكلم، حتى يستنفدوا كل قوانا... وهم لن ينفذوا أياً من تلك النصائح، على الإطلاق. ولكن لشد ما يخشون من ألا نرهق أنفسنا من أجلهم، فلا ينفكون يلحّون حتى يكونوا أكثر اطمئناناً، وهذا يعني المحاجم، وفحوص الأشعة، والتحاليل... كنا نقلّبهم تقليباً من قمة رأسهم حتى أخمص أقدامهم... نقيس كل شيء... ضغطهم الشرياني، ومن ثم بلاهتهم... ما برح جوستين، يفعل ذلك، منذ ثلاثين عاماً في "الجونكسيون"... أما مرضاي، ثقلائي، فأنا أفكر في إرسالهم ذات صباح إلى "فيليت" (سوق اللحوم في باريس)، منذ بكرة الفجر كي يشربوا من الدم الساخن، حتى تزهق أرواحهم... لا أعرف حقاً ماذا يمكنني أن أفعل كي أثير نفورهم، وينفضّوا عني.

عزمت أول أمس على الذهاب لزيارة جوستين. كانت قريته على مبعدة عشرين دقيقة من بيتي بعد عبور السين. لم يكن الجو رائقاً ولكنني انطلقت إليه مع ذلك، وفي نيتي أن أستقلّ الحافلة المتجهة إلى قريته. تعجلت الانتهاء من مناوبتي، وانسللت من جناح التضميد، وإذا بامرأة تميزني وتتشبث بي.كانت نبرة صوتها بطيئة ممطوطة، أشبه بنبرة صوتي، وذلك من أثر التعب، يخالطها بحة مجروحة، من أثر الكحول، إنها تتباكى الآن،تريد أن تجرني معها. "تعال يا دكتور، أتوسل إليك، ابنتي الصغيرة، أليستي!...بيتنا في شارع رانسيين، على بعد خطوتين من هنا!..." لم أكن ملزماً بالذهاب معها. كنت في الواقع قد فرغت من استشاراتي!... ألحت المرأة وعاندت... صرنا خارج المشفى... حسبي ما رأيت من مرضى ومسقومين...فمنذ فترة ما بعد الظهر كنت قد رتقت فتوق ثلاثين مزعجاً... وبلغ مني التعب كل مبلغ... ألا فليسعلوا! فليبصقوا دماً! فلتتخلع عظامهم! فليتفسخوا!

فليطيروا في الجو مدفوعين بثلاثين ألف غاز من مؤخراتهم!... لقد لقيت منهم برحاً شديداً!... ولكن البكّاءة تشبثت بي، تعلقت بعنقي بكل ما لديها من قوة، نفثت فيَّ قنوطها عابقاً برائحة النبيذ الأحمر... ما كان لدي القوة على مقاومتها. لن تتركني بأي صورة من الصور. لعلني حين نبلغ شارع كاس الطويل والخالي من المصابيح أوجّه لها ركلة قوية على إليتها، ثم أولي الفرار.. ولكن شجاعتي خانتني... ونفّست كالبالون... ثم استأنفت أغنيتها. "ابنتي الصغيرة!.. أتوسل إليك يا دكتور!... صغيرتي أليس!... أنت تعرفها؟..." لم يكن شارع رانسيين قريباً... وهو يحوّل وجهة سيري. كنت أعرف هذا الشارع الممتد خلف مصانع الكابلات... كان صوتها يصلني وسط غشاوة الظلمة التي تحيط بي... "لا يدخل علينا سوى إثنين وثمانين فرنكاً في الأسبوع... ولنا ولدان!... بالإضافة إلى زوجي الفظيع وأنا!... هذا مخزٍ، يا عزيزي الدكتور!...".

كان صوتها يسيل بوهن شديد، كنت أعرف هذا جيداً. تفوح منها رائحة نتنة تخرج من أنفاسها المخاطية...

وصلنا أمام بيتها.

صعدت الدرج. وجلست أخيراً... كانت الصغيرة تضع نظارة على عينيها.

اقتربت من سريرها. كانت تلهو بدميتها مع ذلك. سأسليها أنا بدوري. بوسعي أن أكون مسلياً إذا أردت ذلك...لم يكن وضع المحبوبة الصغيرة بالغ الخطورة... كانت تتنفس بصعوبة شديدة... من جراء احتقان رئوي بالتأكيد... أضحكتها، فضاقت أنفاسها وكادت تختنق. طمأنت الأم، فاغتنمت الخبيثة الفرصة، فيما كنت أخبط تائهاً داخل جحرها، كي تستشيرني هي بدورها، بصدد كدمات فوق فخذيها. رفعت تنورتها، فرأيت بقعاً رخامية هائلة، وحروقاً عميقة،

ناجمة عن ملقط الجمر. ذلك ما كان يفعله زوجها العاطل عن العمل. وصفت لها علاجاً... ثم جعلت أؤرجح الدمية القبيحة بخيط من خيوطها على نحو مضحك، كانت تروح وتجيء، تصعد وتهبط حتى مقبض الباب... كنت أوثر ذلك على أن أخوض في أي حديث.

وضعت السماعة على صدر الصغيرة، كان ثمة حشرجات متواصلة تنبعث منه. غير أن وضعها لم يكن خطراً جداً... طمأنت الأم ثانية، كررت الكلمات ذاتها. هذا ما يرهقك... كانت الطفلة تضحك من أعماقها، فعاودها الاختناق. كان عليّ أن أوقف حركة الدمية، بعد أن رانت الزرقة على وجهها... لعلها مصابة بالدفتيريا؟ ينبغي رؤيتها غداً؟ وفحص عينة من دمها؟.

عاد البابا، مع فرنكاته الاثنين والثمانين، لم يكن لديه من الشراب سوى قليل من السدر، ما من قطرة من النبيذ. "لا أشرب سوى ملء قدح منه، إنه مدر للبول!" أوضح لي في الحال، وشرب من فم الزجاجة، أراني ذلك... شاطرته السرور، لأن وضع صغيرته لم يكن مقلقاً. أما أنا، فكانت الدمية هي التي تستهويني... كنت أشد إرهاقاً من أن أهتم بالكبار وبتشخيص أسقامهم. خبثاء حقيقيون هؤلاء الكبار! لن أعالج أياً منهم قبل حلول الغد.

لم أكن أبالي بأن أتصرف برصانة أمامهم. شربت نخب صحتهم ثانية. كانت زيارتي مجانية، جهداً إضافياً بالتأكيد... أعادتني الأم إلى حروق فخذيها. فأعطيتها رأياً نهائياً. ومن ثم فقد نزلت الدرج، وإذا بكلب أعرج يقف على الرصيف، تبعني دون استئذان. الجميع يتعلقون بي هذا المساء.

كان كلباً صغيراً، ذا شعر أسود يخالطه بياض. تائهاً كما بدا لي. يا لهما من جاحدين، ذانك العاطلان عن العمل في الأعلى، لم يشيعاني

حتى الباب. كنت متيقناً من أنهما سيعاودان الشجار، وسمعتهما يتبادلان السباب. فليغرز إذن ملقط جمره كله في إستها! لعل ذلك يصلحها ويعلّمها ألا تزعجني!

انعطفت يساراً نحو كولومب، وما يزال الكلب الصغير يتبعني... بعد أزنيير، تمتد منطقة "الجونكسيون" ثم بيت قريبي جوستين، ولكن الكلب الصغير كان يعرج بشدة. ويرمقني بنظراته. ابتأست لرؤيته يجرجر نفسه على هذا النحو. آثرت أن أعود إلى المشفى في النهاية. رجعت عبر جسر بينو، مروراً بتخوم المصانع. لم يكن المشفى قد أوصد أبوابه حين وصلت... قلت للسيدة هورتنس: " قدمي الطعام للكلب الصغير. ليبحث أحد عن قطعة لحم... في الساعة الأولى من صباح الغد سنجري اتصالاً بشأنه... سيأتون من "جمعية الرفق بالحيوان" لأخذه بسيارة. سنضطر لاحتجازه هذا المساء". ثم انطلقت حينئذ مطمئناً. ولكنه كان كلباً فزعاً. كان قد تلقى ضربات موجعة. الشارع شرير وعديم الرحمة. ففي الغد، حين فتحنا النافذة، لم يشأ أن ينتظر. قفز منها إلى الخارج، كان خائفاً منا أيضاً. ظن بأننا عاقبناه. لم يكن يدرك شيئاً مما يجري. ما عاد له ثقة بأحد على الإطلاق. رهيبة مثل هذه الأحوال.

***

كان جوستين يعرفني عن قرب. منذ أيام شبابه ما برح يسدي إلي نصائح ثمينة. كان خبيراً بأساليب الإنشاء الجميلة. لذا فقد أمكنني الركون إلى آرائه. كان بريئاً كل البراءة من الحسد. زاهداً في هذا العالم. لا يطلب منه الكثير. منذ زمن بعيد استقر في أعماقه أسى حب مغدور. لا يرغب في التخلي عنه، كان نادراً ما يتحدث عنه. كانت تلك امرأة طائشة علق بها. كان جوستين قلباً فريداً. ولن يتغير ما بقي حياً.

من وقت إلى أخر كان يتناول جرعة صغيرة من الخمر.

كان النعاس عذاباً مبرِّحاً بالنسبة إلي. ولو أنني أسلمت نفسي للنـوم دائماً لما كتبت سطراً واحداً.

"بوسعك أن تروي قصصاً لطيفة مسلية.. من وقت إلى آخر.. كان هـذا رأي جوستين... ليست الحياة قـذرة دومـاً..." كـان رأيـه صـائباً إلى حـدٍّ كبير.. ثمة هوس كان يتملكني، موقف متحيز تجاه الحياة.، والدليل أنـني حين كان الطنين يغشى أذنيّ، أكثـر ممـا يغـشاهما الآن. وكانـت الحمـى توافيني في الليل والنهار، كنت أقل سوداوية بكثير... كنت أصـنع أحلامـاً زاهية جداً. السيدة فيتروف، سكرتيرتي، كانت توجه إليّ أيضاً الملاحظـة ذاتها. كانت تعرف عذاباتي حـق المعرفـة. حـين يكـون المـرء مـسرفاً في السخاء، فإنه يبدد كنوزه. ويفقدها إلى غير رجعـة... كنـت أقـول لنفسي إذن: "البغي فيتروف، هي التي خبـأت قصـصي في مكـان مـا..." تحـف حقيقية بديعة... نبذ من الأساطير... نشوة خالصة... سأذهب منـذ الآن في هذا الاتجاه، رحت أقلّب أوراقي عالياً سافلاً، كي أتأكـد أكثـر... ولكـني لم أجد شيئاً... اتـصلت بـديلوميل، ناشـري، لكـم أود أن أكـون عـدوه اللدود... كم أتمنى أن تحشرج روحه تحت سـيل الـشتائم... إنـه بحاجـة إلى ذلك لإصلاحه!... ولكنه لم يكن يأبـه لـذلك فهـو يملـك الملايـين. أجابني بأن عليّ أن آخذ إجازة من عملي... وصلت فيتروفي أخيراً. كنـت أرتاب بها. كانـت لـدي أسـباب وجيهـة لـذلك. سـألتها، أيـن وضـعت مخطوطي الجميل؟ اقتحمتها بغتـة، علـى هـذا النحـو. كـان لـدي، على الأقل، من الأسباب ما يجعلني أشتبه بها.

تقع مبرة لينـوتي أمـام الكـرة البرونزيـة، في بـورت بيريـر. كانـت فيتروف تـأتي إلى مكـتبي هنـاك لتعيـد إلي أوراق مخطوطـاتي. كنـت أستقبلها كل يوم تقريباً بعد أن أكون قد انتهيت من مرضاي. أما المـبرة

فكانت عبارة عن مبنى صغير. مؤقت، وواطئ منذ أن بدأ نشاطها الخيري. لم يكن العمل فيها يروق لي. كانت الساعات تمضي رتيبة مملة. كان لينوتي الذي أسسها مليونيراً بالغ الثراء، يريد أن يتعالج فيها الجميع مجاناً، وأن يصبحوا أفضل حالاً دون أن يدفعوا نقوداً. كم هم مزعجون، محبو البشر هؤلاء. كنت أفضّل عملاً صغيراً في البلدية... إعطاء لقاحات بهدوء... وظيفة صغيرة بناء على شهادة التأهيل... وحتى في حمام عام... نوعاً من معاش في المحصلة. آمين. ولكنني لست شرموطاً، ولا خليط الدماء، ولا ماسونياً، ولا خريجاً من دار المعلمين. ليس في طوقي أن أروّج نفسي، كما أنني كثير النكاح، ولا أتمتع بسمعة طيبة... منذ خمس عشرة سنة وأنا متهم في هذه المنطقة في أنظار الجميع، لا يرونني إلا مدافعاً عن نفسي، أما الحثالات الأشد تفاهة فكانوا يتمتعون بكامل الحرية، ويضمرون لي كل الاحتقار. سأكون سعيداً أيضاً بألا أطرد من العمل. ولكن الأدب كان يعوضني عن كل ذلك، ليس لي أن أشكو. كانت الأم فيتروف تطبع رواياتي على الآلة الكاتبة. لقد ارتبطت بي منذ زمن بعيد كنت أقول لها: "اصغي إلي يا سيدتي العزيزة، إنها المرة الأخيرة التي أشتمك فيها... إذا لم تعثري على قصتي، يمكنك القول بأنها النهاية. نهاية صداقتنا. ما من تعاون تسوده الثقة!... ما من خبز وملح!... ولا ثياب!... ولا فاصوليا!...".

كانت حينئذ تنخرط في النحيب. وفيتروف قبيحة أنّى نظرت إليها. وجهها قبيح وعملها قبيح أيضاً. كنت قد قطعت عهداً بأن أتكفلها منذ كنت في انكلترا. وجررتها معي من هناك. تلكم نتيجة قسم أقسمته ذات يوم. لم يكن تعارفنا بالأمس القريب. كانت ابنتها أنجيل في لندن هي التي جعلتني أقسم على مساعدتها طوال حياتها. يمكنني القول بأنني قد أوليتها كل اهتمامي. ووفيت بوعدي. هذا يعود إلى زمن

الحرب. كانت في المحصلة تعرف الكثير من الأشياء. حسن. لم تكن ثرثارة في الأصل، ولكنها تتذكر... أنجيل، ابنتها: كانت أنجيل طبيعة تلقائية نقية. يصعب التصديق بأن أمها يمكن أن تغدو بمثل هذه الحقارة. انتهت أنجيل نهاية مأساوية. سأروي كل هذا إذا ما اضطررت إليه. كان لأنجيل أخت أخرى هي صوفي البليدة البلهاء. تقيم في لندن، وابنة أخت صغيرة هي ميرييل. تقيم معنا هنا. وتجمع عيوب الأخوات. خبيثة شريرة، توليف حقيقي.

حينما انتقلت من رانسي، وجئت إلى بورت بيرير رافقتني الاثنتان كلتاهما. لقد تبدلت أحوال رانسي بعد رحيلي عنها، لم يبق أثر للقلعة تقريباً. ثمة ركام هائل من الأنقاض السوداء المحطمة، يجري إزالتها من وسط الردم المشبع بالرطوبة. واقتلاع أرومات الشجر الهائلة. كل شيء فيها يمضي إلى زوال، وتبتلع المدينة لثتيها الشائختين. كانت شركة ب. و. بي. هي التي تقتحم الخرائب الآن. مندفعة كالإعصار. لن يبقى هناك عما قريب سوى أنصاف ناطحات سحاب من الطين النضج. هذا ما سوف نراه قريباً. كنت في نزاع دائم مع فيتروف بشأن الضنك وضيق المعاش. كانت تزعم بأنها عانت أكثر مني. كان هذا غير واقعي. بصدد الغضون والتجاعيد كان هذا صحيحاً بالتأكيد. فقد تغضن جلدها أكثر مني بكثير! وغزته تجاعيد مالها من نفاذ. أخاديد مقززة حفرتها السنون في اللحم. "سيكون على ميرييل منذ الآن أن ترتب أوراقك!".

خرجت معها من المشفى، رافقتها حتى رصيف مينيم. كانتا تسكنان معاً، قريباً من مصنع شوكولاه بيترونبل، في فندق الميريديان.

كانت حجرتهما غاصة بركام لا يصدق، من الأشياء التافهة والزينة الرخيصة، ومن الثياب الداخلية على الأخص. لم تقع عيناي إلا على ما هو رث، وبالغ الرخص.

كان لكل من السيدة فيتروف وابنة أختها ردفان هائلان. كانتا تمتلكان ثلاثة حقن، بالإضافة إلى مطبخ كامل وحوض من الكاوتشوك. مركونة كلها بين السريرين، وجهاز تبخير ضخم لم تتمكنا يوماً من ضخ بخاره. لاأريد أن أستفيض في اغتياب فيتروف، لعلها لقيت في حياتها من الخيبات أكثر مما لقيت. كان هذا ما يهدئ روعي دائماً. ولو كنت على يقين بأنها خلاف ذلك لانهلت عليها ضرباً مبرحاً.كانت قد أودعت في جوف المدخنة آلة الخياطة، لم تكن قد انتهت من تسديد ثمنها... كما تدعي. لم أكن أعطيها أجرة مرتفعة على طباعة أوراقي. هذا صحيح أيضاً... خمسة وستين سنتيماً على الصفحة الواحدة. غير أن هذا كان يتراكم في النهاية. ولاسيما أنها كانت ذات أحجام هائلة.

كان في عينيها حول، ما رأيت أقبح منه قط. كنت أتأذى من النظر إليه.

ولكن هذا الحول كان يكسبها مزية في ألعاب الورق. وخاصة في لعبة التاروت. كانت تبيع جوارب حريرية لزبوناتها الصغيرات...وتقبض ثمنها على أقساط. وحين يساورها الشك أو التفكير خلف زجاج نوافذها كانت تسرح بأنظارها مثل جرادة بحرية حقيقية.

منذ أن بدأت تطبع أوراقي على آلتها صار لها نفوذ في الأنحاء المجاورة. كانت تعرف كل الأزواج المخدوعين، تشير لي نحوهم عبر النافذة. وتعرف أيضاً المجرمين الثلاثة "لديّ الأدلة!" قدمت لها فوق ذلك جهازاً قديماً لقياس ضغط الدم. من نوع لوبري، وعلمتها طريقة سهلة لتدليك دوالي ساقيها، كل هذا كان يضاف إلى أجرتها. كان طموحها الذي تهفو إليه هو السماح بالإجهاض. أو الاشتراك في ثورة دامية يشيع فيها صيتها في كل مكان، وتتحدث عنها الصحف.

لا أستطيع قط أن أصف نفوري واشمئزازي حين كنت أراها تنقب في بازارها المهلهل. على امتداد العالم بأسره، كان هناك شاحنات تدهس في كل دقيقة أناساً لطفاء ودودين... كانت الأم فيتروف تفوح برائحة أشبه برائحة البهار. تلكم هي حال النساء الصهباوات. يخيل إلي أن قدر هؤلاء الشقراوات ليس مختلفاً عن قدر الحيوانات. قدر بهيمي، قدر مأساوي، كامن في الشعر. كنت أرغب في أن أطرحها أرضاً حين كنت أسمعها تتحدث بحمية واندفاع، تروي ذكرياتها. ولما كانت تحمى ويستبد بها الشبق، كان يصعب عليها أن تجد ما ينقع غلتهاإلا من رجل ثمل، وفي حلكة الليل الدامس أيضاً. لم تنل حظاً من وليمة الحياة! كنت أرثي لحالها من هذا الجانب. أما أنا فقد بلغت درجة زلفى في معارج الصبابة واللذة. وجنيت القطوف دانيات. ولم تكن هي تنظر إلى ذلك بعين الرضى أيضاً. لذا فحين يأتي اليوم الذي لا مفرَّ منه سيكون في جعبتي تقريباً ما أسدد به فاتورة موتي... كان الجمال هو موردي ومعاشي الذي أجري عليه. التهمت من الجمال، ومن الجمال البديع، بلا حدود. خليق أن أعترف بذلك على رؤوس الملأ.

لم تكن تدخر شيئاً من المال. كل هذا كان محسوساً، ولا حاجة للبرهان عليه. ولكي تسد رمقها وتستمتع أيضاً كان ينبغي أن تحاصر الزبون، بإدهاشه أو إثارة تعبه، كان ذلك جحيماً لا يطاق.

بعد الساعة السابعة مساء. على جري العادة. كان العمال المياومون من ذوي الدخل المحدود يعودون إلى بيوتهم. وفيما تكون نساؤهم منهكات بآنية الطبخ، يتلوى الذكر مع موجات الأثير الصادرة من المذياع. حينذاك تلقي فيتروف بروايتي الجميلة جانباً، كي تخرج للبحث عن رزقها. ومن درج إلى درج تسعى لاصطياد زبائنها،

عارضـةً علـيهم جواربهـا الحريريـة. المخرمـة، وصـدراتها الـصوفية الرخيصة. قبل الأزمة الاقتصادية كان بمقدورها أن تقاوم بسبب التـأثير الذي تمارسه على زبائنها، والطريقة التي تدهشهم بها. أمـا اليـوم فـإن بضاعتها الرخيصة ذاتها تقدم كترضية للخاسـرين المدمـدمين في لعبـة البونتو. لم يعد ثمة نزاهة أو استقامة. حاولت أن أشرح لها بـأن الـذنب يعود إلى اليابانيين الصغار الذين يملـؤون الـسوق. لم تكـن تـصدقني. اتهمتها بإتلاف قصتي الجميلة عن عمد، وسط أقذارها.

- إنهـا تحفـة فنيـة! كنـت أضـيف، سـنعثر عليهـا إذاً بالتأكيـد! فضحكت مقهقهة... وشرعنا نقلّب معـاً ركامـاً مـن الأمتعـة الرخيـصة المهلهلة.

وصلت ابنة الأخـت أخـيراً، متـأخرة جـداً. ينبغـي رؤيـة ردفيهـا! فضيحة حقيقية مجلجلة... تغضنت تنورتها بـين الإليـتين... كـي تـبرز التفاصـيل جيـداً. علـى غـرار أوكورديـون مفتـوح. لم يـضع قـط أي تفصيل. العامل العاطل عن العمل الذي يغمره القنوط. تتملكـه شـهوة ساعرة. ولكنه لا يملك مالاً ليدعوها إليـه... يـستحوذ عليـه المـشهد. "مؤخرتـك"، كـانوا يلقـون إليهـا... في وجههـا تمامـاً. مـن أطـراف الأروقة. لفرط انتعاظهم دون طائل. أما الفتيان الذين وهبوا طلعة أبهى فكانوا أقدر على التهامها، ودغدغـة غـرورهم في الحيـاة. لم تتوصـل هي، إلا في وقت متأخر، إلى مقاومـة إغـوائهم!... بعـد العديـد مـن الكوارث... أما الآن فهي تلهو وتتسلى.

لم تعثر هي أيـضاً علـى أسـطورتي الجميلـة. مـا كانـت تبـالي قـط بـ"الملك كريغولد" كنت أنا وحدي مـن يعذبـه ذلـك. كانـت مدرسـة "البتيت بانييه" مرتع مجونها وأهوائها المنفلتة، غـير بعيـد عـن الـسكة الحديدية، في منطقة بورت رانسيون.

لم تكن عيونهما تفارقني حينما كان يتملكني الغضب. وحين أحار في معرفة ما يجول في رأسيهما يشتد غضبي حتى الذروة! فأرتجف، ويستحوذ علي الخوف، وتصطخب الأفكار في رأسي. ما يدهشني الآن هو أنهما تخافان من أن أنسحب من حياتهما. أتساءل ماذا ستفعلان لو رحلت عنهما؟ كنت مطمئناً بأن الخالة لا تبرح تفكر في ذلك. فحين كان يجري على لساني أي حديث عن السفر كان وجهاهما يختلجان فيما تتظاهران بالابتسام.

إضافة إلى مؤخرتها المذهلة، كان لميرييل عينان مترعتان بالشاعرية. كانت لحاظها خلابة، ولكن أنفها كان صلباً كالجلمود. عقوبة حقيقية. وحينما كنت أريد إذلالها أقول لها: "دعك من المزاح يا ميرييل! إن لك أنف رجل!..." كانت تجيد أيضاً رواية حكايات شائقة. لها ولع بذلك مثل بحّار. كانت تبتكر ألف شيء كي تبعث السرور في نفسي في البداية. ثم لكي تؤذيني فيما بعد. كان الإصغاء إلى الحكايات الجميلة، مكمن ضعفي. ولكنها كانت تتجاوز الحدود. كان العنف يشوب علاقتنا حتى ليكاد يفصمها، ولكنها كانت تستحق التأديب ألف مرة. بل وتستحق أن أطرحها أرضاً، أقرت بذلك في النهاية. كنت متسامحاً جداً معها في الحقيقة... فما عاقبتها إلا لسبب وجيه... الجميع يشهدون بذلك... الأشخاص الذين يعرفون...

* * *

يمكنني أن أكرر مع ذلك، دون أن أبالغ، بأن جوستين سابايو لم يكن ينتف شعر رأسه كي يشخص علل مرضاه. كان يوجه أنظاره إلى الغيوم.

فحينما كنت أغادره كان يرفع بصره إلى الغيوم، ثم يقول: "يقيناً يا فرديناند، سيكون اليوم يوم أوجاع المفاصل، أراهن بمئة قرش!"... كان يقرأ كل ذلك على صفحة السماء. ولم يجانب الصواب تقريباً في

يوم من الأيام، فقد كان ملماً كل الإلمام بأحوال الجو. وبمختلف الطبائع والأمزجة.

- آه! هذه موجة حر أعقبت أياماً ندية باردة, انتبه! يمكنك القول بأن الكالوميل (عقار ملين) هو الدواء الناجع! اليرقان متغلغل في ذرات الجو! ها قد تغير اتجاه الريح... وغدت شمالية غربية! سيعقب ذلك البرد والمطر الغزير!... وتتفشى النزلة الصدرية طوال خمسة عشر يوماً. لا طائل من أن يدققوا كثيراً!... إذا ما عهد إلي أمر علاجهم سأصف لهم الدواء وأنا في سريري!... الواقع يا فرديناند أنهم يجيئون إلينا بقصد الثرثرة!... يمكن تبرير ذلك بالنسبة إلى الأطباء الذين يتاجرون بالمهنة، ولكن ما شأننا نحن الآخرون؟ من ذوي المعاش الشهري؟ ما الذي يعنيه ذلك؟... سأعالج هؤلاء الثقلاء من دون أن أراهم. من مكاني هنا بالذات! سيضيق تنفسهم لا أكثر ولا أقل، لن يقيئوا أكثر، ولن يكونوا أقل اصفراراً، ولا أقل احمراراً. ولا أقل شحوباً. ولا أقل بلادة... تلكم هي الحياة!... إن شئتم الصواب، فقد كان جوستين حقاً على صواب.

- هل تظنهم مرضى؟... هذا يئن... وذاك يتجشأ... وهذا يترنح... وذاك ينز قيحاً من دماملِه... هل ترغب في أن تخلي صالة انتظارك منهم؟ وفوراً؟ وحتى من أولئك الذين يختنقون من القشع الذي يسد مجاريهم؟... اعرض عليهم حضور فيلم سينمائي!... ادعهم إلى شراب مجاني في البار المقابل... وسترى كم يبقى منهم... إذا ما أرهقوك بملاحقتهم فلأنهم يشعرون بالضجر. فأنت لا ترى واحداً منهم عشية الأعياد. ما ينقص هؤلاء التعساء، إليك رأيي، إنما هو الانشغال بشيء ما، وليس الصحة.. كل ما يبتغونه هو أن تسليهم. وتبهجهم، وتثير فضولهم بشأن تجشؤاتهم... وغازاتهم..

وضرطاتهم... أن تكشف لهم عن صلات بينها... عـن حمّيـات.. عـن قرقرات في الأحشاء، عن أشياء غريبة غير معروفه!... أن تسترسل في الحديث.. أن يتولاك الحماس.. مـن أجـل ذلـك أنـت حـصلت علـى الدبلومات... آه! أن يتلهى المرء بموتـه فيمـا هـو يختلقـه. ذلكـم هـو الإنـسان. يـا فردينانـد! لابـل إنهـم سـيحافظون علـى سـيلانهم، وسفلـسهم، وعلـى تـدرنات سـلهم، فهـم في حاجـة إليـه! وهـم لا يعيرون أية أهمية لمثانتهم المسلـسة، أو لـشرجهم الملتـهب! ولكنـك إذا عنّيت نفسك مزيداً من العناء، إذا عرفت كيف تستهوي فـضولهم، فـإنهم سـينتظرونك كـي يموتـوا بـين يـديك، تلـك هـي مكافأتـك! سيلاحقونك حتى النهاية... وحين يعاود المطر الهطـول فـوق مـداخن مصنع الكهرباء، يعلـن لي جوسـتين! "إنهـا نوبـات عـرق النـسا، يـا فردينانـد!.. إذا لم يـأت عـشرة مرضـى اليـوم فـسأعيد دبلـومي إلى دويون!" ولكن حـين كـان الهبـاب الأسـود يتجـه إلينـا مـن الـشرق، منحدراً من المنطقة الأشد جفافاً، فوق أفران بيترونيـل كـان جوسـتين يسحق هبابة فوق أنفه ويقول: أود أن أكون منيكاً، أنـت تـسمعني، إذا لم يبصق المصابون بذات الجنب هذه الليلة خثرات من دمهم! تبـاً!... سيوقظونني أيضاً عشرين مرة!...".

في بعض الأمسيات كان جوستين يبسّط الأمور تماماً. كـان يتـسلق كرسياً أمام خزانة الأدوية الضخمة, ويوزع أدوية صيدليته على مرضاه مباشرةً ومجاناً ودون مظاهر احتفالية.

- أنت تحسين بالخفقان ؟ هل أكلت فاصوليا خـضراء؟... كـان يـسأل مريضته التعسة. - لـيس لـدي خفقـان - ... لـديك حموضـة في المعـدة إذن؟... وفقـدان في الـوزن؟...- أجـل: قلـيلاً... - خـذي إذن مـن هـذا الدوء فأنا أظن... ذّوبيه في ليتـرين مـن المـاء... سـيجعلك هـذا ضـخمةً

جداً!... والمفاصل؟ هل تسبب لك آلاماً؟... أليس لديك بواسير؟ وبرازك طبيعي؟ إليك إذن تحميلات بيبيه!... ديدان أيضاً؟ هل لاحظت ذلك؟... خذي خمساً وعشرين نقطة من شربة ميروبول... عند النوم!...

كان يقترح كل ما يراه مناسباً... ويملك في جعبته حلولاً لكل الاضطرابات. وكل الهواجس والوساوس. والوقع إن أي مريض لا يخلو قط من الطمع، فما دام بمستطاعه أن يرمّ ما شاء من القذارات فهو لا يطلب أفضل من هذا، ويسره أن يولي الأدبار بعد ذلك، خائفاً جداً من استدعائه.

بمساعدة هبة ربانية. كان جوستين مثلما رأيته يختزل إلى عشر دقائق استشارات كانت ستدوم ربما ساعتين على الأقل حافلتين بالحذر والتحوط. ولكنني ما عدت قط قادراً على أن أتعلم طريقته في اختصار الوقت. كان لدي أسلوبي الصغير الخاص.

كنت أرغب بالتحدث معه حول قصتي الأسطورية. كنا قد عثرنا على بدايتها تحت سرير ميرييل. وحين أعدت قراءتها شعرت بالخيبة. لقد مرَّ زمن طويل قبل أن تعود إلي مقطوعتي الغنائية. وحين يطوي النسيان عمل المخيلة سنين طويلة. يغدو أشبه بعيد مهجور تخلى عنه أصحابه... ولكنني في النهاية سأجد لدى جوستين رأياً حرّاً ونزيهاً. وأقحمته على الفور في جو الأسطورة.

– جوستين، قلت له على هذا النحو. ما كنت في يوم من الأيام بليداً مثلما أراك اليوم. لقد خبلتك الظروف، والمهنة، والظمأ، والامتثال الأشد وبالاً... أفلا تستطيع مرة أخرى. ولو لبرهة صغيرة أن ترقى إلى أفق الشعر؟... اقفز بقلبك وقضيبك قفزة صغيرة إلى هذه الحكاية الملحمية. إنها تراجيدية بالتأكيد، ولكنها مفعمة بالنبالة... ومتوهجة!... هل تعتقد أنك قادر على ذلك؟...

كان جوستين يظل ساكناً بلا حراك فوق كرسيه، أمام عينات الأدوية، المصفوفة في الخزانة المفتوحة... لم يكن ينطق بكلمة... ولم يشأ أن يقاطعني...

- الحكاية تدور، أوضحت له. حول جواندور العظيم، أمير كريستاني... وصلنا في حديثنا إلى اللحظة التي كان فيها يحتضر، مثخناً بالجراح، ينزف دمه من عشرين جرحاً، فقد مني جيش جواندور بهزيمة ساحقة... وخلال المعركة والتحام الفرسان وقعت عينا الملك كروغولد ذاته على جواندور... فانقض عليه وشطره بسيفه... لم يكن كروغولد متوانياً... فهوينزل قصاصه بيده... لقد خانه جواندور... وحام شبح الموت فوق جواندور، وشارفت شمسه على الغروب... أصغ إلي قليلاً ياجوستين:

تلاشى ضجيج المعارك مع آخر أضواء النهار... كان حراس الملك كروغولد يتوارون بعيداً... وتصاعدت من الظلال حشرجات الاحتضار من جرحى الجيشين... غالبين ومغلوبين يسلمون أرواحهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وشيئاً فشيئاً ابتلع الصمت الأنات والحشرجات، خمدت أكثر فأكثر، ثم تلاشت...

"منسحقاً تحت ركام من جثث جنوده. كان جواندور العظيم ما يزال ينزف دماً... وعند الفجر وقف الموت أمامه.

- هل فهمت يا جواندور؟

- فهمت أيها الموت! فهمت منذ بداية النهار... أحسست داخل قلبي، وفي ذراعي أيضاً، وفي أعماق عيون رفاقي. وحتى في خطو حصاني، أحسست بسحر حزين وبطيء كان يحمل إلي النعاس... أحسست بأن نجمتي كانت تنطفئ بين يديك الجليديتين... كل شيء

ممعن في الفرار! أيها الموت! أيتها الحسرات العظيمة! إن عاري ثقيل!... انظر إلى هذه الأجساد التعيسة!... أبدية من الصمت تعجز عن تسكين آلامها!...

- ليس ثمة عذوبة في هذا العالم يا جواندور! لا شيء سوى الأسطورة!... كل الممالك تنتهي إلى حلم!...

- أمهلني أيها الموت! بعضاً من الوقت...يوماً أو يومين! أريد أن أعرف من الذي خانني...

- الجميع يخونون يا جواندور... ليست الأهواء وقفاً على أحد، والحب على الأخص، ليس إلا زهرة الحياة في حديقة الشباب.

وأمسك الموت الأمير برفق... ما عاد يبدي مقاومة... تسرب وزنه قليلاً قليلاً... وغرقت روحه في حلم عذب... حلم كان يراوده غالباً حينما كان صغيراً، في المهد الوثير، في حجرة الورثة الأمراء. بالقرب من مرضعته المورافية (فرقة مسيحية) داخل قصر الملك رينيه...".

كانت يدا جوستين متدليتين بين ركبتيه.

- أليس هذا جميلاً؟ سألته.

كان الشك يساوره. لم يكن راغباً في تجديد ذابل نشاطه. كان يقاوم ما استطاع. أراد أن أشرح له كل شيء من جديد... لماذا؟... وكيف؟... ليس الأمر بهذه السهولة... ألاترى أنه هش مثل فراشة، أقل شيء يعصف به ويبدده. إنه يدنسك. ثم ما الذي نجنيه من ذلك؟ لم ألح في السؤال.

***

كي أنسق خيوط أسطورتي، سيكون بوسعي ربما أن أستهدي برأي أشخاص مرهفي الإحساس، ارتاضوا على توهج المشاعر... على تحسس مئات الفروق بين درجات الحب...

ولكنني أفضل أن أتدبر الأمر وحدي في النهاية.

غالباً ما يكون الأشخاص المرهفو الإحساس عاجزين عن الاستمتاع. لكأنهم يجلدون بالسياط حين يستمعون إلى تلك الأشياء، وهم لا يتقبلونها أبداً. قلت لجوستين سأصف لك قصر الملك كروغولد.

"... مسخ مخيف في قلب الغابة، كتلة راخمة، مفرطة الأبعاد، مقدودة من الصخر، معجونة بالعطن والأقذار، نضد شوهاء من أفاريز وطنف بارزة... وأبراج أخرى... ومن بعيد، من هناك صوب البحر تلوح ذرى أشجار الغابة، متموجة، خافقة فوق الأسوار الأولى".

"الحارس يحدق بعينين جاحظتين خوفاً من أن يشنق... يقف في الأعلى، في أعلى مكان من القصر... فوق ذروة مورهاند، برج الخزينة، حيث يشهق العلم خافقاً مع هبوب الريح... متقلداً سلاحه الملكي. ثعبان مقطوع الرأس، ينزف من عنقه المبتور! ألا تعساً للخونة! جواندور يكفّر عن ذنبه!...".

ما عاد بوسع جوستين سماع المزيد. فقد وافاه النعاس... وذبلت أجفانه... وهوّم في النوم أيضاً. نهضت لأغلق عيادته، وقلت له: "إنني ذاهب! هلم معي لنتنزه على ضفة السين!... هذا سينعشك..." كان يفضل البقاء ساكناً... ... استجاب لإلحاحي أخيراً، وقرر الذهاب. اقترحت عليه تناول فنجان صغير من القهوة على الضفة الأخرى لجزيرة الكلاب... وهناك، عاوده النعاس رغم القهوة. كان

يكتنفنا جو ماتع، هذا صحيح! كانت الساعة تقارب الرابعة، تلكم هي اللحظة الحالمة للمقاهي والحانات... أمامنا على الطاولة ثلاث زهرات اصطناعية في إناء من القصدير. كل شيء منسي على الرصيف. حتى العجوز السكير الجالس على طاولة البار استسلم قانعاً بأن المعلمة صاحبة البار لم تعد تصغي إليه. لم أشأ أن أعكر هدوء جوستين. ستوقظه القاطرة القادمة من دون ريب. تركت القطة سيدتها العجوز الثرثارة، وذهبت لتتدبر شؤونها.

بالطريقة التي بسط بها جوستين راحتيه وهو نائم، كان من السهل رؤية مستقبله. ثمة شعر على زندي الإنسان وثمة الإنسان كله. كان خط الحياة فوق راحة جوستين هو الأقوى، بينما كان خط الحظ لدي أنا، هو الأقوى بالأحرى. لن يقيض لي إذن أن أعمر طويلاً في هذا الوجود... أتساءل، ترى، متى سيحين أجلي؟ ثمة حز في أسفل إبهامي... هل سيحدث ذلك بسبب انفجار شريان صغير في دماغي؟ في أخدود رولانديك؟... أم في الثنية الصغيرة لأرومة الدماغ. غالباً ما شاهدت ذلك المكان الصغير مع ميتيتوا في مستودع الجثث... إنه يفضي إلى شلل دماغي مفاجئ، وهو ليس سوى فجوة صغيرة كرأس الدبوس في الغشاء السنجابي للأخاديد... منه تخرج الروح، ويخرج الفينول أيضاً وكل شيء. أم لعل أجلي سيحين، للأسف من جراء تشكل نسيج إسفنجي في المستقيم... سأضحي بالكثير من أجل ذلك الشريان... في صحتك!... كنت أمضي مع ميتيتوا، ذلك المعلم الحقيقي، العديد من أيام الآحاد، نقلّب، على هذا النحو في الأخاديد. كي نعرف كيف مات أصحابها... كان ذلك يستهوي المعلم العجوز... كان راغباً في تكوين فكرة عن ذلك. ولكنه كان يتمنى لنفسه انغماراً هادئاً بالدم لبطينيه معاً حينما تدق ساعته... كان رجلاً مكللاً بالمجد والشرف!...

"الميتات الألذ، انتبه جيداً مع ذلك يا فرديناند، كان ميتيتوا يقول لي، هي التي تنشب براثنها في نسجنا الأشد حساسية..." كان كلامه مفعماً بالمادة الدسمة، وبالإتقان والبراعة، على غرار الرجال من زمن شاركو. لم يفده في شيء التنقيب في أخدود رولانديك، وفي أرومة الدماغ، وفي النواة السنجابية... فقد مات بالقلب أخيراً، ميتة فاجعة... من جراء ذبحة صدرية عنيفة، دامت عشرين دقيقة. مئة وعشرين ثانية ظل مع كل ذكرياته الكلاسيكية، وقراراته، ومع مثاله قيصر... ولكنه خلال ثماني عشرة دقيقة كان يطلق صرخات حادة. كما لو كانوا يستأصلون حجابه الحاجز، وجميع أحشائه الحيَّة... كما لو كانت عشرة آلاف شفرة تفري وتينه.. وهو يحاول أن يتقيأها أمامنا... لم يكن ذلك هزلاً. كان يزحف بسبب ذلك فوق أرض الصالة... ويضرب صدره بيديه حتى ليكاد يحطمه... ويزأر زئيراً وحشياً فوق بساطه... رغم حقن المورفين. كان صراخه يتردد في الطوابق العليا ويصل إلى الخارج... ثم انتهى تحت البيانو... كانت شرايين عضلة قلبه تنفجر واحداً بعد الآخر على غرار جيتار غريب. من المؤسف أن المرء لا ينجو من ذبحة صدرية. كان ميتيتوا يملك من الحكمة والنبوغ ما يكفي العالم بأسره.

كان خليقاً أن نكف عن التأمل. فبعد قليل سيحين استقبال مرضى الزهري. كان علينا أن نستقبلهم في بورنوف، على الضفة الأخرى من الغارين. انطلقنا كلانا، حينما صفرت سفينة القطر مثلما توقعت تماماً. كانت تلك هي اللحظة التي لا بد فيها من الفرار. كنمط من البشر كان مرضى الزهري، على جانب من الحذق والأرابة. ففيما ينتظر المصابون منهم بالسيلان والمصابون بالسفلس دورهم لتلقي الحقن كانوا يجنحون إلى التعارف... في البداية، كان يخيم على الجميع جو من الكدر، ثم ما يلبث أن ينقشع ليحل محله جو من الانشراح

والحبور. كانوا يخرجون في ليالي الشتاء الباردة ليتبولوا على عجل، في ناصية الشارع، على مقربة من المسلخ. كان هؤلاء الأنواع من المرضى متعجلين دوماً إلى أبعد الحدود، أكبر خوفهم هو العجز عن الانتصاب في الفراش العائلي. حينما كانت الأم فيتروف تأتي لرؤيتي هناك تلاحظ كل هذه الأمور... كان الشبان اليافعون حين يشعرون بالبوادر الأولى للحرقة في القضيب يصابون بكآبة شديدة، كان ذلك يصدمهم بعنف. كانت فيتروف تنتظرهم لدى خروجهم... تدغدغ مشاعرهم، عازفة على أوتار قلقهم ووحشتهم... "هذا يسبب لك حرقة شديدة، أليس كذلك يا فتاي الصغير؟ أعرف هذا الداء... وقد عالجته... أعرف منقوعاً مدهشاً من الأعشاب... تعال معي إلى المنزل وسأعد لك كوباً منه..." وبعد قدحين أو ثلاثة من القهوة بالكريما كان الفتى يقضي منها وطره.

لم تكن فيتروف تؤمن بالعواطف. كانت محاكمتها للأمور متمهلة، ولكنها صحيحة. كان علينا من أجل الذهاب إلى بورنوف أن نستقل حافلة الباص "ما يزال لديك خمس دقائق!" قال لي جوستين. لم يكن متعجلاً. جلسنا في أحد المقاهي المشرفة على درابزين الجسر.

على هذا الرصيف، في الشارع 18 كان والداي الطيبان يجريان على معاشهما البائس عبر الإتجار ببضائع رخيصة مهلهلة من سقط المتاع، في شتاء عام 1898، هذا يعيدنا إلى أزمان بعيدة.

كانا يملكان حانوتاً لبيع "موضات، وزهور، وأرياش زينة". لم يكونا يملكان من تلك الموضات سوى ثلاث قبعات معلقة على الواجهة الزجاجية الوحيدة. غالباً ما حدثاني عنها. في العام الذي ولدت فيه، في شهر أيار، تجمد السين. كنت أنا الربيع. وبحكم المقادير أم من دون حكمها، فإن المرء يسأم من تقدم العمر، ومن

رؤية التبدلات الطارئة على البيوت، وأرقام الشوارع، والترامات، وعلى مشتري القبعات، مما تحفل به حياة المرء. أكان ثوباً نسائياً قصيراً، أم قبعة مشقوقة، أم خبزاً، أم سفينة بعجلات، أم وسائل الطيران، فالأمر سيان! لأن كل ذلك يبدد ألفتك بالأشياء وعلاقتك الحميمة بها. ما عدت أرغب بالتغيير. لدي الكثير من الأشياء التي أشكو منها ولكنني تآلفت معها واقترنت بها، كان وضعي باعثاً على الرثاء، كنت أتوق بالقدر نفسه إلى أن تأسن مياه السين ويغمرها العفن. وحين يأتي من سيبدل الفانوس المعقوف في ناصية شارع 12 فسيملأ قلبي أسى. نحن مؤقتون، ذلكم لا مراء فيه، ولكننا وقّتنا ما يكفي من الأشياء كي نتنبه إلى هذه الحقيقة.

تلكم القوارب، تلوح لأنظارنا من رصيف المقهى لكل منها قلب الآن. يخفق بقوة وعنف، وسط الصدى الأسود لعقود الجسور. هذا يكفي، لقد أشفيت على الانحلال، ما عدت أشكو قط، خليق أن أتحاشى المزيد من القلق والوساوس. إذا ما جرفتنا الأشياء، ومضت بنا حيث تمضي، مهما بدت لنا سيئة، فسنموت موتاً شاعرياً، سيكون موتنا سهلاً مريحاً. انحاز جوستين إلى رأيي، وقد طاف به طيف من الافتتان والعجب. كان يلجأ فقط إلى الشراب كي يخلد إلى النسيان. حسن. كان شارباه الغاليّان يحتفظان دوماً بقطرات من البيرة والحسرات.

بصدد الزهري كان عملنا يتألف من استخدام أقلام ملونة، نخط بها فوق ورقة عريضة أولاً بأول... كان هذا كافياً. قلم أحمر: نوفار... أخضر: زئبق!... هيا إذن! والروتين يتكفل بالباقي... روتين وافٍ للغاية... لم يعد ثمة سوى حقن الصلصة في الإليات، أو في ثنايا الأذرع... كانت الأبر تنفذ كما لو في الزبدة... أخضر!... أذرع!...

أصفر!... إليات!... أحمر... إليات مزدوجة!... مؤخرة مشقوقة!... إليات مزدوجة أيضاً، بزموت! مومس! أزرق! وريد نزاز! متعفن!... سروال مزدوج!... سدادة قطن!... إيقاع لا يكل ولا يفتر. رشقات تتدفق من القضبان، ورشقات أخرى وبعدها رشقات أيضاً... خيوط قيحية لانهاية لها... الملقط معنّى مكدود! بولانار! قضبان تقطر! تنز! قيحا! تنزخيطاً صمغياً متضخماً، كرتوناً متصلباً! سيلان! يدفق بنحو مائل! السلفس! ملكة العالم! عرشها الفرج، محمّى في الصيف كما في الشتاء يلسع البرد أولئك المضيّعين الذين يرتابون! ثم يثقون بألف وصفة توصف للمنكوحين، كي يحزموا أمرهم بنحو أفضل، ودون تأخير!... جوليان لم ير على الورقة سوى الأزرق... لم يعد... كذب علينا! استطاره الفرح... الأحليل مملوء بالإبر! غيزو مشقوق تماماً. الجرح في الفتحة! غائص في العمق!...

هو ذا "الملف 34"، ملف الموظف ذي النظارات السوداء، الخجول، والماكر الصغير، يلتقط سفلسه عن عمد. كل ستة شهور، يمضي إلى ساحة أمستردام، يكفر عن أخطاء قضيبه... يفرغ شفراته الجارحة في فروج فتيات الإعلانات الصغيرات الغبيات... تلك كانت صلواته! كما يقول... إنه ميكروب هائل، "صاحب الملف 34"! كتب على جدران حماماتنا!: "أنا وحش المهابل المرعب... نكحت أختي الكبرى... خطبت اثنتي عشرة مرة!" إنه زبون منتظم دقيق المواعيد، صامت ولين العريكة، وسعيد دائماً بالعودة إلينا.

ذلكم كان بفتيكنا، أقل مشقة من ردم سكة الحديد.

لدى وصولنا إلى بورنوف، قال لي جوستين: "قل لي إذن يا فرديناند، قبل قليل، وبينما كنت أغط في النوم... لا تحاول أن تكذب علي... قرأت خطوط يدي... ما الذي رأيته إذن؟".

كنت أعلم علم اليقين ما كان يقلقه، كان كبده مبعث قلقه منذ أمد بعيد، غلاف كبده الحساس، إضافة إلى كوابيسه الفظيعة... كان التشمع قد استتب فيه.

كنت غالباً ما أسمعه في ساعات الصباح يتقيأ في المغسلة... طمأنته، ماذا عسى يفيده القلق. كان المرض قد استفحل. المهم أن لا يفقد عمله.

في الجونكسيون، كان جوستين قد تبوأ موقعه في مكتب المساعفة الاجتماعية بعد تخرجه فوراً. كان ذلك بفضل عملية إجهاض صغيرة، لا يمكنه إنكار ذلك، أجراها حينذاك لخادمة كانت محظية لمستشار في البلدية محافظ جداً... أقام جوستين في منزل قريب من المشفى، منتوفاً مثل جرذ. جرت عملية الإجهاض بهدوء. لم تكن يده ترتجف بعد. وفي المرة الثانية، قام بالعملية نفسها لزوجة عمدة البلدة، وانتهت بنجاح أيضاً!... وعرفاناً بجميله لقّب جوستين طبيب الفقراء.

في البداية، كان جوستين محط إعجاب الجميع، في كل ما يقوم به. ثم جاء عليه زمن فقد ذلك الإعجاب. سئم الجميع من سحنته ومن أساليبه... ما عادوا يطيقون حضوره. حينئذ جعلوه شغلهم الشاغل. وسيلقى منهم جوستين برحاً شديداً. هزؤوا برأسه، ورشقوه بكل التهم تقريباً. فمنذ تلك اللحظة صارت يداه قذرتين، وهو يخطئ في مقادير الدواء، ولا يفقه بالعقاقير السامة... وتفوح من فمه روائح نتنة... ويلبس حذاء بأزرار. ولما أن أثقلوه بضروب الإهانة صار يخجل من الخروج إلى الناس، وكرروا مراراً بأن في مقدورهم أن يطردوه مثل ضرطة. ثم غيروا رأيهم أخيراً، وصار موضع تغاض وتسامح منهم، دون أي سبب طارئ سوى أنهم تعبوا من إحساسهم بأنه قبيح جداً وخرع جداً.

كل أوساخ المقاطعة، وحسدها، وضغنها انصبت فوق رأسه. الفظاظة الحاقدة للكتبة العاملين في غرفته كان يحسُّ بها تصفعه. الحموضة التي تصيب 140 ألف كحولي في دائرة القضاء لدى استيقاظهم في الصباح. النخامات والاحتقانات المؤلمة لـ"6422" مصاباً بالسيلان لم يفلح في إيقاف سيلانهم، الارتعاشات المبيضية لـ"4346" امرأة في سن اليأس وانقطاع الطمث، القلق اللجوج لدى "2266" مصاباً بفرط التوتر الشرياني، الازدراء الوقح لدى "722" صفراوياً ممروراً مصاباً بالشقيقة. الوسواس القهري لدى 47 مدوّداً بالدودة الشريطية، أكثر من "325" أماً لأطفال تلتهم أحشاءهم حيات البطن، الحشد المضطرب، القطيع الهائل من المازوخيين المفعمين بشتى الوساوس، المصابين بالأكزيما، والزلال، والسكري، ونتانة البدن، والارتعاشيين، والمصابات بالتهاب المهبل، والعديمي النفع، "المدنفين جداً"، و"المدنفين قليلاً"، والمصابين بالإمساك، والحمقى النادمين، كل هذه الحمأة، كل هذا العالم اللجب من السفاحين الذين لا يقر قرارهم كان يرتد على سحنة جوستين، وينهمر كالشلال أمام نظارتيه، منذ ثلاثين عاماً، صبحاً ومساء.

في منطقة "الجونكسيون شابيل" كان جوستين يقيم وسط البؤس المدقع ذاته، فوق مركز أشعة X، كان لديه ثلاث غرف. مبنى مشيد بالحجارة الضخمة، لا يفصل بينه وبين السين أي حاجز، كما نرى اليوم. كان المبنى بحاجة إلى حواجز أعلى بعشر مرات مما في بناما كي يحمي نفسه من عوادي الحياة، وإلى هويسات صغيرة غير مرئية. كان جوستين يقيم فيه منذ افتتاح المعرض الكبير، منذ الأيام الرائعة لمركز طيران ارجنتوي.

كان جوستين بين الحين والحين يسعى إلى تهوية حياته قليلاً، فيصطحب معه إلى بيته فتاة حسناء. ولكن ذلك لم يكن ديدنه غالباً. كان أساه العميق يعاوده بعد أن استقر في أعماقه وغدا جزءاً من سريرته. بعد لقائنا الثالث... صار جوستين يؤثر الإفراط في الشراب... كان ثمة حانة في الجهة الأخرى من شارعه: واجهتها الخضراء، والقيثارة التي تصدح فيها أيام الآحاد كانتا توفران جواً لطيفاً للجلوس فيها وتناول البطاطا المقلية التي تعدها الخادمة على نحو لا يضاهى. كان شراب الجنيول يلهب جوف جوستين. أما أنا فما عاد بوسعي معاقرة الشراب منذ أن لزم الطنين أذني في الليل والنهار. كان ذلك ينهكني ويمضني، ويضفي علي سيماء مريض بالطاعون. كان جوستين في بعض الأحيان يضع السماعة على صدري ويتنصت إلى ما يدور في داخله، دون أن يفضي إلي بما يفكر به. كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي يتكتم عليه. كنت أنا مدنفاً أيضاً. ينبغي الإقرار بذلك.

كان يعرف حالتي، ولا ينفك يشجعني: "هيا يا فرديناند، اقرأ لي قصتك! فأنا أصغي! لا تتعجل كثيراً بالقراءة! لا تقم بحركات. هذا يتعبك، ويضع غشاوة على عيني".

"الملك كروغولد، وجنوده الشجعان، وغلمانه، وأخوه الأرشيدوق، وكهنة المعسكر، وسائر بلاطه انقلبوا بعد المعركة إلى خباء كبير وسط المعسكر. لم يعثروا على الصليب الذهبي الثقيل، هدية الخليفة، أثناء استراحة المحاربين... كان الصليب يتوج السرادق الملكي. قائد الموكب الملكي، المسؤول عن حراسة الصليب طحن كما يطحن الجص. اضطجع الملك، يريد أن ينام... كان ما يزال يعاني من آلام جراحه. لم يغمض له جفن. جافاه النوم... شتم الجنود الذين يغطون في الشخير، نهض من مرقده. وتخطى النائمين، سحق

بقدميه الأيدي، خرج من الخباء... لسعه البرد القارس، كان يعرج، ولكنه مشى مع ذلك. كان صف العربات الطويل يطوّق المعسكر، ورجال الحراسة يغطون في النوم. سار كروغولد محاذياً خندق الدفاع... وهو يكلم نفسه. تعثر وكاد يسقط، ولكنه تمالك نفسه في اللحظة المناسبة وانتصب قائماً. ثمة شيء يتلامع لعينيه في قاع الخندق، نصل ضخم يرعش في العتمة. ثمة رجل يحمل الشيء اللامع بين يديه. رمى كروغولد نفسه فوق الرجل، قلبه على بطنه، وقيد يديه. إنه واحد من جنوده. ذبحه بشفرة سيفه القصير مثل خنزير. "هوق! هوق!" قرق السارق من فوهة عنقه. وتخلى عن كل شيء. انتهى الأمر. انحنى الملك، التقط الصليب الذي أهداه إليه الخليفة، صعد إلى حافة الخندق. ونام وسط الضباب... لقي السارق عقابه العادل".

* * *

في تلك الحقبة من الزمن حدثت الأزمة. كدت أطرد من عملي بالمشفى. بسبب الوشايات أيضاً.

لوسي كيريبين هي التي أخبرتني بذلك. كانت تبيع القبعات في شارع مونكونتور، وكان يجتمع عندها العديد من الأشخاص، يخوضون في النميمة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. وقد أنهت إلي بطائفة من النمائم الكريهة، المسمومة إلى أبعد حد. ما كان لأحد أن يفعل ذلك سوى ميرييل.. ولم يخب ظني... كانت محض نمائم بالتأكيد، بعيدة عن الحقيقة، تدور كلها حول حفلات جنس جماعي كنت أقيمها مع زبوناتي في الحي. شائعات بذيئة في المحصلة. شعرت لوسي كيريبين بسرور غامر بعد أن رشح مني العرق قليلاً... كانت حسودة.

انتظرت إذن عودة ميرييل. اختبأت في ممر فيفيان الضيق. كان ينبغي أن تمر من هناك. لم أكن أجني ما يكفي من النقود كي أتفرغ للكتابة... كان من الممكن أن أغرق في الفاقة من جديد. ما كنت قط أشعر بالطمأنينة. رأيتها قادمة من بعيد، وما إن مرت أمامي حتى أهويت على عجيزتها بصفعة قوية جعلتها تقفز عن الرصيف، أدركت على الفور مغزى حركتي، ولكن ذلك لم يجعلها تتكلم. كانت تنتظر اللقاء بخالتها. لم تشأ أن تعترف، القحبة، بأي شيء على الإطلاق.

هذه الطريقة في نشر الإشاعات كانت، ترمي إلى إثارة قلقي. أسرعت في الغد إذن إلى مراضاتها. لم تكن الخشونة مفيدة، ولاسيما مع ميرييل، كان ذلك يجعلها أشد شراسة وخبثاً. كانت تريد أن تتزوج، بي أو بأي رجل غيري. لقد سئمت من العمل في المصانع. ففي سن السادسة عشرة كانت قد أمضت سبعة أعوام وهي تعمل في الضاحية القريبة. في معمل لإنتاج السكاكر.

"هذا يكفي" أعلنت ميرييل. وداعاً للـ"هابي سوس" (نوع من السكاكر، يمصها الأطفال) وداعاً للملبّس الإنكليزي، كانت قد فاجأت المدير في وضع يخدش الحياء. آه! يا للمصنع الجميل. طوال شهور ستة وهي تلقي إلى الخارج بالجرذان الميتة من داخل القبو الكبير المكتظ بملبس اللوز. وفي سانت أوين اتخذتها رئيسة عمال خدناً لها. كانت تنهال عليها بالضرب في المراحيض. ثم هربتا من المصنع سوياً.

فهمت ميرييل العاصمة وقوانينها... ولكنها لم تكن قد امتلكت بعد قواعدها الخاصة. في ملجأ الأيتام، في مارتي - سور - واز كان الأطفال يجدون الطعام والهواء النقي والأحاديث الطيبة، كانت قد أفلحت في الميتم في تطويرملكاتها. ففي العيد السنوي للفيدراليين

(الشيوعيين) رفعت رأس اللجنة المشرفة عالياً. كانت هي التي حملت صورة لينين فوق عصا طويلة، وسارت بها من كورتين حتى البيرلاشيز. وقد ذهل أولئك الحمقى لفرط ما كانت مختالة ومزهوة. وفيما كانت الرايات الزاهية تخفق مرفرفة، كانت هي تعبئ البوليفارد خلفها كي يردد النشيد الأممي.

الأنصار الصغار في منطقة موزيت الذين كانت تخالطهم لم يعرفوا ما الذي كانوا يحملونه بأيديهم. ولأنها كانت ما تزال قاصرة، فإنها لم تكن تقيم وزناً للآداب الاجتماعية. كانت تسير حينذاك خلف روبرت وجيجين وغاستون. ولكن هؤلاء الصغار كانوا موشكين على الوقوع في محن حقيقية. كانت ستوقعهم في حبائلها.

ما كان بإمكاني أن أتوقع من فيرتوف وابنة أختها الكثير من الأشياء. كانت العجوز على الأخص تعرف أكثر بكثير مما يمكن أن تستخدمه في يوم من الأيام.

كنت أسكّن جأشها بالنقود. ولكن الصغيرة كانت تطلب المزيد. كانت تريد كل شيء. وإذا ما تكلفت معها الرفق واللين، بدا لها ذلك مريباً باعثاً على الشك. سأصطحبها إلى الغابة، قلت لنفسي. كانت تكنّ لي الضغينة والموجدة. لا معدى لي عن إثارة اهتمامها. كنت أنوي ذلك في الغابة. سأروي لها قصة جميلة، وسأداعب غرورها.

- استأذني من خالتك... ستعودين قبل منتصف الليل... انتظريني في مقهى بيزانس!

انطلقنا سوياً إلى الغابة.

حين بدأنا السير من بورت دوفين كان مزاجها أكثر انشراحاً. كانت مولعة بالأحياء الراقية. ففي فندق الميريديان، حيث تقيم مع خالتها،

كان البق مصدر رعبها. وحينما كانت تجد نفسها في مجمع صغير يضمها، وتضطر إلى خلع قميصها، فإن لسعات البق حينئذ كانت تشعرها بالخجل. كانوا جميعاً يعرفون المطهرات التي تكوي الجلد... لم تكن ميرييل تحلم سوى بمهد يخلو من القمل والبق... ولو ذهبت الآن إلى خالتها فإنها ستدهن جلدها بالمطهرات. كانت تعتمد في معاشها على خالتها، ولكنني كنت أعرف فتى صغيراً من زعران فال دوغراس، اسمه بيبرت، كان يزعم أيضاً بأنه يعيلها. ثم انتهى بيبرت إلى الانضمام للشيوعين. كان يقرأ روايتي "رحلة".

حينما اقتربنا من الكاسكاد شرعت أحدثها حديث النجي للنجي...

"أعلم بأن لك صديقاً موظفاً في البوليس، ليس كمثله أحد في امتشاق السوط...".

تطلقت أساريرها حينئذ لدى سماعها كلامي المبهرج، واعترافاتي، وروت لي كل شيء. ولكننا حين بلغنا الكاتيلون لم تعد تجرؤ على التقدم خطوة. كان الظلام يخيفها. وداخلها الاعتقاد بأنني كنت أجرها إلى قلب الغابة لتأديبها. تحسست قاع جيبي كي تتأكد من أنني لم أكن أحمل مفرقعة. فلم تجد شيئاً، ثم تحسست من الخلف. وبسبب مرور السيارات بنا اقترحت عليها الذهاب مباشرة إلى الجزيرة كي نتحدث هناك على راحتنا. كانت فتاة لعوباً، ولكنها لم تكن تستمتع بسهولة، وكان الخطر يفتن لبها. كان مجذافا القارب يضربان النهر على غير هدى، ولا ينفكان يشتبكان بالأغصان، ويخبطان، ويقلبان، ويحطمان القناديل الصغيرة.

- أنصت إلى البط، إنه يختنق بالبول المختلط بالماء.

- ميرييل، قلت لها، بعد أن استقر مقامنا في القارب، أنا أعلم بأنك بارعة في نسج الأكاذيب... أما الحقيقة فلا تعنيك من قريب أو من بعيد.

- أنا، أجابتني. لو أنني أردد فقط ربع ما أسمعه!...

- حسن، قاطعتها، إن قلبي طافح بالتسامح، وبالضعف أيضاً... ليس بسبب جسدك، ولا بسبب وجهك الذي يحمل هذا الأنف... بل إن مخيلتك هي التي تشدني إليك... لدي فضول شديد تجاه المشاهد المثيرة! ستروين لي قصصاً خليعة... وسأشركك في أسطورتي الجميلة... سنوقع باسمينا معاً إذا شئت ذلك... مناصفة؟ وستكسبين النقود.

كانت تحب الحديث عن النقود... عرضت عليها كل جوانب المشروع... أكدت لها بأنه سيكون هناك أميرات في كل مكان، يرفلن بأثواب المخمل الفاخر... الموشاة بالتطريز والمخرمات، مزدانات بثمين الفراء والجواهر... مما لم يخطر على قلب بشر... اتفقنا على كل ما يختص بالديكور، وبالثياب أيضاً. وإليكم أخيراً كيف بدأنا حكايتنا.

"ها نحن أولاء في بريدون، من منطقة اللوار، لحظة بدء المباريات..".

"كانت المدينة مستعدة لاستقبال الوفود. والفرسان البواسل يختالون بملابسهم الفاخرة... ها هم أؤلاء المصارعون العراة... والمهرجون. عرباتهم تمر... تخترق الحشود... الفطائر توضع في الأفران... كوكبة من الفرسان مدججون بأسلحة مرصعة... قدموا من بعيد جداً... من الشمال... ومن الجنوب... واندفعوا في سباقات جسورة..".

"هو ذا ثيبو الشرير، شاعر التروبادور، يصل ذات صباح إلى بوابة المدينة. عبر الدرب المحاذي لمجرى النهر. متعباً مكدوداً... يبحث في بريدون عن ملجأ يفيء إليه، وغطاء يتغطى به... كان يجدّ في إثر جواد، الابن الماكر لوكيل الملك، جاء ليذكره بالفعلة الشنيعة التي ارتكبها، حين قتل أحد رجال الحراس في باريس، بالقرب من جسر شانج، أيام كانا طالبين في المدرسة.

اقترب ثيبو... وصل إلى معبر سانت جنفياف وهناك رفض بشدة دفع ضريبة العبور... اشتبك في عراك بالأيدي مع موظف المعبر... هرع رجال الشرطة... طرحوه أرضاً، وجرّوه بالقوة... هو ذا مكبل القدمين والمعصمين، يرغي ويزبد، في أسمال رثة، قادوه أمام نائب الملك تحدث إليه، بحدة ونزق، وأفضى بالقصة الشنيعة...".

أثارت نبرة صوتي بهجة ميرييل، كانت تود أن نضيف بعض الإضافات. مرَّ وقت طويل في أخذ ورد دون أن نصل إلى اتفاق. كان علينا أن نعود أخيراً.

في ممرات باغاتيل، لم نصادف سوى بضعة أزواج يتسكعون. كانت ميرييل قد شعرت ببعض السلوى. رغبت في أن نفاجئهم... تركنا أسطورتي الجميلة كي نخوض في نقاش ساخن حول ما إذا لم يكن لدى النساء رغبة عارمة في أن يغوين بعضهن؟... إذا لم تكن ميرييل مثلاً تتوق إلى العبث مع رفيقاتها؟.. ولاسيما الغيد الأماليد منهن؟ الظبيات الصغيرات؟... ميرييل التي كانت متينة البنيان كمصارع بكفليها... وحوضها...

كانت صغيرتي ميرييل، تترقى في معارج السحر والفتنة. وهي تنهل ما شاء لها من سينماي... فجأة حذرتها: "إذا ثرثرت مرة أخرى في نانسي... فسأجعلك تبتلعين حذاءك!..." وأمسكت بها تحت مصباح الغاز... فاتخذت هيئة الظافر. وخطر لي بأنها ستشيع في كل مكان بأنني قدتها إلى غابة بولونيا مثل وحش قاتل! تملكني الغضب حينئذ، ودار في خلدي بأنني أسرفت مرة أخرى في الرقة والملاطفة! فلطمتها لطمة قوية... ولكنها ضحكت هازئة... كأنما كانت تتحداني.

من الغياض، من الأجمات، من كل مكان، برز الناس، كي يبدوا إعجابهم بنا، اثنان اثنان، أربعة أربعة، جماعات جماعات. يحملون

الجزر بأيديهم، السيدات مشمرات عن سيقانهن، يمشين خلفهم وقدامهم، جريئات، طائشات، متخففات من الرزانة والاحتراس...

"هيا يا فرديناند" كانوا يشجعوني جميعاً. مصدرين جلبة عارمة. ترددت أصداؤها في الغابة. "اضرب ابنتك الصغيرة بقوة! لعل ذلك يجعلها فتاة طيبة!" وجعلني ذلك قاسياً عنيفاً وأنا أستمع إلى تحريضهم.

لاذت ميرييل بالفرار، وهي تطلق عواء حاداً، جريت خلفها حتى نال مني التعب والإرهاق. قذفتها بركلات عنيفة من حذائي بين إليتيها. رنت رنيناً ثقيلاً ومكتوماً. كان هناك أيضاً حشد من فسّاق رانولاغ. يتدفقون بالمئات، تجمعوا في المقدمة كاشفين عن قضبانهم، وبعيداً كانوا يعدون كاشفين عن أدبارهم...

آلاف وآلاف كانوا يجتاحون المرجات الخضر، يتدفقون عبر صفوف الأشجار. ومن أعماق الليل كان يتوافد آخرون دونما انقطاع... نساء يرتدين أسمالاً بالية... أثداؤهن رجراجة مكشوفة... صبية صغار دون سراويل... يتشقلبون، يراوحون في مكانهم. يقفزون في الهواء... يتعلقون بأغصان الأشجار... وخلف عربات الطعام... عجوز شمطاء... إنكليزية أخرجت رأسها من نافذة سيارة صغيرة حتى كادت أن تنفصل عن مقعدها، كانت تلح علي أن أسرع في الجري... ما رأيت قط عيوناً تفيض بالسعادة مثل عيونها... "برافو! برافو! أيها الفتى الرائع!" صاحت بي بملء صوتها... "برافو! ستتشق لها إستها!" سيكون هناك حشد غفير في السماء بين النجوم، يحيا العِلم المسيحي.

كنت ما أزال أحث خطاي، أعدو بأسرع من سيارتها، باذلاً كل جهدي لتنفيذ ما عزمت عليه، كان عرقي ينضح سيولاً! وفيما أنا مندفع كنت أفكر في وظيفتي... وأنني موشك على فقدانها بالتأكيد.

تثبطت عزيمتي، وصحت: "ميرييل! رحماك! أنا مغرم بك! هلا انتظرتني أيتها القذرة؟ ألا تصدقيني؟".

حين وصلت الجموع إلى قوس النصر، انخرطت في رقص دائري. كان الحشد الفوضوي يجد في أثر ميرييل. وفي كل مكان كان هناك عدد كبير من الموتى. وكان الآخرون يتخاطفون أعضاءهم. رفعت الإنكليزية سيارتها فوق رأسها، بأطراف يديها! برافو! برافو! قلبت حافلة الباص. تعطلت حركة المرور حين عبر الشارع ثلاثة أرتال من الحرس الوطني، مدججين بالأسلحة. المجد لنا إذن. طار ثوب ميرييل، فوثبت العجوز الإنكليزية على الفتاة و أمسكت بثدييها، انبجسا، تدفقا. سائلاً أحمر قانياً. انهارتا، أثارت كلتاهما عجيجاً هائلاً، أمسكت إحداهما بخناق الأخرى، وانطلقت شرارة هيجان هائل.

كانت ألسنة اللهيب ما تزال تتصاعد من تحت قوس النصر، تتقاطع، تتجاوز أطرافها النجوم، ثم تتبدد في السماء. وعبق الجو برائحة الجامبون المدخن... هي ذي ميرييل تقترب من أذني أخيراً، وتقول لي: "فرديناند، يا عزيزي، أنا أحبك!... كن على يقين، أنت غني بالأفكار!" تساقط مطر من اللهيب فوقنا. أخذ كل منا قطعة كبيرة منه... دسسناها في فتحة البنطال وهي تنش وتزوبع. توشحت السيدات بباقات من النار. وهجع الجميع بعضهم يحتضن البعض الآخر.

25 ألفاً من عناصر البوليس كنسوا ساحة الكونكورد. لم يعد أحد يحضن أحداً. كان ذلك محرقاً جداً، كان عابقاً بالدخان. كان ذلك هو الجحيم.

***

أمي والسيدة فيتروف، إلى جانبها، كان يتملكهما القلق، كانتا تغدوان وتروحان في الحجرة مترقبتين أن تخف نوبة الحمى التي داهمتني. كانت سيارة الإسعاف قد نقلتني من الغابة، ممدداً فوق سرير شبكي، عبر جادة مكماهون، كان رجال البوليس قد لاحظوا وضعي فيما هم يمرون على دراجاتهم.

كان الطنين يلازم أذنيّ كلتيهما، بحمى أو من دونها، بحيث ما عاد بوسعي أن أفهم من أمره شيئاً. منذ الحرب ما انفك هذا الطنين يقرع أذنيّ، حتى لكأن لوثة تطاردني، منذ أكثر من إثنين وعشرين عاماً. كان هذا لعمري ثقيل الوطأة. وقد جرَّبت معي لوثة الطنين هذه ألفاً وخمسمئة ضجة، مالبثت أن تحولت إلى هدير هائل مصطخب. ولكن هذياني بات أسرع منها. لقد تزوجتها، امتلكتها في النهاية. هوذاك، كنت أتلفظ بحماقات، أرقيها بكل أنواع الرقى، كي أجبرها على نسياني. أما الموسيقا فكانت خصمي اللدود، كانت تستقر في أعماق أذني، ثم ما تلبث أن يعتريها الفساد... ولا تنفك تعذبني... وتخبلني بنفير أبواق مزدوجة، معاندة ليل نهار. كان لدي كل ما يسري في الطبيعة من ألوان الضجيج، من أنغام الفلوت إلى هدير نياغارا... أنى توجهت يرافقني طبل وجوقة من الأبواق... أنقر على آلة التريانكل أسابيع بكاملها... ولا ينافسني أحد بالبوق، كنت أمتلك وحدي أيضاً مطْيَرة كاملة تضم ثلاثة آلاف وخمسمئة وسبعة وعشرين عصفوراً، ما تكف عن الضجيج لحظة... كنت أنا نفسي أورغات الكون... كل ما فيّ مزود بأورغ، لحمي وذهني وأنفاسي... غالباً ما كنت أبدو منهكاً مهدوداً، تصطرع في رأسي الأفكار، وتتقلب. حتى أضيق بها ذرعاً. ألّفت أوبرا الطوفان. وحينما تسدل الستائر يدخل قطار منتصف الليل إلى المحطة... تصطفق عشرات الكؤوس وتنهار.

يتسرب البخار من أربعة وعشرين صماماً... تقفز سلسلة القاطرات فوق السكة، حتى قاطرة الدرجة الثالثة. وفي داخل القاطرات الكبيرة المفتوحة ثلاثمئة موسيقي، يتعتعتهم السكر، يمزقون الجو بخمسة وأربعين مدرجاً موسيقياً دفعة واحدة.

منذ إثنين وعشرين عاماً يهمّ كل مساء من أماسيّ باختطافي، في منتصف الليل بالضبط... ولكنني أعرف أنا أيضاً كيف أقاومه... باثنتي عشرة سمفونية تعزفها الصنوج وحدها، وبشلالين هادرين من الفلوتات... وقطيع كامل من الفقمات بحيث كنت أحترق على نار هادئة... ذلكم شغل كاف لرجل أعزب... اللهم لا لوم ولا تثريب. تلكم حياة ثانية، حياة تخصني وحدي.

ما أقوله الآن، إنما لأوضح أن عارضاً من حُمَّى قد ألمَّ بي في غابة بولونيا. غالباً جداً ما أثير صخباً حين أتحدث. لأنني أتحدث بصوت مرتفع. كثيراً ما يُطلب مني بأن أخفض صوتي. كنت على الرغم مني ألوث مستمعي قليلاً برذاذ لعابي... كنت بحاجة إلى بذل جهود مضحكة للاهتمام بجلسائي. كانوا يغيبون عن ناظري بسهولة، فأنا دائماً منشغل الخاطر. كنت في بعض الأحيان أتقيأ في الشارع، فيتوقف حينئذ كل شيء، وتغمرني السكينة تقريباً، ولكن سرعان ما تبدأ الجدران بالاهتزاز، وترجع السيارات القهقرى، وأرتجّ مع الأرض بأسرها... فلا أتفوه بكلمة. وتبدأ الحياة من جديد. أنا ناظر المحطة الشيطانية. وفي اليوم التالي الذي لن أعود فيه موجوداً في المحطة، سيرون كيف سيخرج القطار عن سكته. السيد بيزوند، بائع الضمادات، الذي قدمت له بعض الخدمات الصغيرة، سيجدني أشد شحوباً أيضاً، سيسلم أمره إلى الأقدار.

كنت أفكّر بكل ذلك وأنا راقد في سريري فيما كانت أمي وفيرتوف تتجولان حولي، باب الجحيم داخل الأذن ليس سوى ذرة حقيرة لا شأن لها، لو أزيحت بمقدار ربع شعرة... لو تم تحريكها ميكروناً واحداً فقط. ونُظر من خلالها، لانتهى الأمر! حسب المرء حينئذ! سيظل هامداً إلى الأبد! أنت مستعد؟ أنت غير مستعد؟ هل لديك القدرة؟ ليس الموت مجانياً! ثمة كفن جميل مطرز بقصص ينبغي عرضها أمام سيدة السماء. لا بد من الزفرة الأخيرة، للمرة الأخيرة. ليس الجميع منذَرين بذلك. ينبغي بذل أقصى الجهود مهما كلف الأمر. أما أنا فسأكون مستعداً عما قريب، قادراً على مواجهة موتي... سأسمع قلبي للمرة الأخيرة وهو يقول: بفووت! هشاً مسترخياً... ثم فلاك! ثم ينتفض بعد أن ينتفض وتينه... مثلما يحدث داخل خرطوم ماء قديم... تلكم هي النهاية. سيفتحونه، فوق طاولة مائلة كي يتأكدوا... لن يروا أسطورتي الجميلة، ولا صفارتي أيضاً... ستغشاني صفرة الموت... ذلكم ما جرى يا سيدتي... سأقول لها... فأنت أول العارفين.

* * *

عبثاً كنت غارقاً في غيبوبة. كانت ميرييل تعود إلى ذاكرتي مع ذلك...

كنت واثقاً من أنها خليقة أن تثرثر بكل ما يخطر لها على بال.

"آه! سيقولون في الجونكسيون. يا لهذا الفرديناند من إنسان كريه لا يطاق! يذهب إلى الغابة كي يلاط!... (نظراً إلى أنهم يغالون دوماً). وفوق ذلك فهو يصطحب معه ميرييل!... إنه يفسق بجميع

الفتيات!... لا بد من أن نشكوه إلى العمدة!... لقد دنس وظيفته! إنه مغتصب للفتيات، ومثير للشغب!...".

على هذا النحو! كنت أغلي وأفور داخل سريري، تخايلني تلك الأراجيف. كنت أنضح عرقاً من كل أنحاء جسمي على غرار علجوم. شاعراً بالاختناق بسبب ذلك... كنت أتلوى... مكافحاً بقوة... طوحت بجميع الأغطية. وجدت لدي بعضاً من قوة فاجرة. من الصحيح مع ذلك أن الساتيرات تطاردنا (وحوش خرافية)!... كان الألم يسري في كل أنحاء جسمي! وظل هائل ما ينفك يغشى بصري... أشبه بظل قبعة ليونس... القبعة التي يعتمرها الأنصار... ذات الحواف الواسعة جداً على غرار ملعب للدراجات... كانت حرية أن تحجب عني النور... إنه بواترا ليونس! يقيناً إنه هو! فهو يتبعني منذ زمن طويل... يبحث عني ذلك الفتى! يمر على مقر الولاية أكثر من مرة بعد الساعة الثامنة عشرة...، يبذل الجهود، يكافح مع التلاميذ المبتدئين. كرس حياته دفاعاً عن الإجهاض... لم أكن أعجبه... كنت أزعجه... إنه يريد قتلي. كان قد اعترف بذلك...

يعمل ليونس كاتباً للحسابات في المستشفى... يضع أيضاً حول عنقه رباطاً عريضاً.كان يحجب عني جانباً من النوم بقبعته... أعتقد أن الحمى ما تزال تشتد وتتصاعد... سأنفجر وشيكاً لا محالة... إنه شخص ماكر ليونس بواترا، غالباً ما يغدو خبيثاً أثناء الاجتماعات... كان بوسعه أن يعوي ساعتين كاملتين. أثناء الابتزازات المتبادلة بين الفيدراليين. ما من أحد يستطيع إسكاته. وإذا ما جرى أي تعديل على اقتراحه، استشاط غضباً من أجل

كلمة واحدة. فلا ينفك يجأر جؤاراً لا يضاهيه كولونيل. إنه متين البنية مثل خزانة جدارية. لا يباريه أحد في التبجح والمباهاة، ولا في طول القضيب أيضاً، فحين كان ينعظ والعياذ بالله، يغدو قضيبه صلباً مثل ست وثلاثين عضلة من ذوات الرأسين... سعادته، والحق يقال، مصنوعة من حديد. إنه يعمل سكرتيراً لنقابة عمال الأسقف القرميدية، في فانف لاريفولت. وهو سكرتير منتخب، وأصدقاؤه فخورون به، رغم أنه كسول جداً، عنيف جداً، إنه أجمل قوادي العمل.

لم يكن مسروراً مع ذلك. كان يضمر لي حسداً، لأفكاري، لكنوزي الروحية، للمهابة التي أتمتع بها، للطريقة التي أخاطب بها بلقب "دكتور". كان ينتبذ مكاناً هناك بين السيدات، ينتظر عن قرب... ما الذي أقرره؟... متى ألملم صرتي وأرحل عن هذه الدنيا أخيراً؟... لم أكن رجلاً صالحاً، لا لشيء إلا لكي أغيظه... سأبقى على الأرض!... سأتحول إلى معجزة!... سأعانقه أيضاً كي يفطس من جراء العدوى!...

من الطابق الذي فوقنا كانت تنثال إلينا أصداء أصوات... صنوف شتى من الضجيج... إنه معلم الموسيقا يلقي دروسه... يزاول تدريباته... إنه قلق... لا بد أنه وحيد... دو!... دو!... دو!... ليست الأمور على ما يرام!... سي!... سي!... بعد قليل أيضاً... مي!... مي!... ري!... كل شيء يمكن أن ينتظم!... و تنطلق من ثم نغمات سريعة متعاقبة إلى اليسار!... ثم نغمات إلى اليمين... سي دييز!... تباً!.

من نافذتي تلوح باريس لعين الناظر... تبدو ممتدة في الأسفل،

ثم تبدأ في التسلق... نحونا... نحو مونتماتر... سقوف تتدافع، مدببة، جريحة، نازفة على امتداد الأضواء، شوارع تغمرها الزرقة، الحمرة، الصفرة، وفي القاع، بعيداً، يلوح السين، وسحب الضباب الشاحبة. سفينة قطر تأخذ طريقها عبر النهر... مطلقة نداءات تعبى... وأبعد من ذلك أيضاً كانت الهضاب... والأشياء تنعقد فوق بعضها... وها سيأخذنا الليل. أهي حارسة عمارتي من يدق على الجدار؟

كي تصعد حارستي إلى شقتي، خليق أن أكون منهكاً كل الإنهاك. كانت الأم بيرنيج من الكبر بحيث يصعب عليها صعود أدراجي... ترى، من أين يمكنها الخروج؟... اجتازت حجرتي على مهل شديد... لم تلمس قدماها الأرض... ما كانت تنظر قط إلى اليمين أو إلى الشمال... خرجت من النافذة وسط الفراغ... هي ذي ترحل في قلب الظلمة فوق المنازل... وتمضي بعيداً بعيداً.

* * *

ري!... فا!... صول دييز!.. مي!... تباً! لن ينتهي ذلك أبداً. لا شك أن التلميذ هو الذي يعيد الكرة... حينما تسري الحمى في الأوصال تغدو الحياة رخوة مثل جوف حمار... يغوص المريض في دوامة من الأحشاء. كنت أسمع أمي تمعن في الحديث... تروي سيرة حياتها للسيدة فيتروف... تعيد وتكرر كي تدرك الأخرى كم كنت صعباً!... مبذراً!... لاهياً!... كسولاً!... وأنني لم أكن بأية صورة من الصور مثل أبي... الذي كان بالغ الدقة خلال حياته... مثابراً جداً... مكافحاً حتى النهاية... منكود الحظ إلى أبعد حد... والذي مات في الشتاء الماضي... نعم... لم تحدثها عن الأطباق التي كان يحطمها

فوق رأسها... كلا! ري، دو، مي! ري بيمول!... إنه التلميذ يعيد قراءة النوتة بصعوبة... يتسلق العلامات ذات السنين... يمر بين أصابع المعلم... ينزلق... ولا يخلص أبداً... كان هناك دييزات كثيرة تحت أظافره... "اضبط الإيقاع" صرخت بملء صوتي.

لم ترو أمي أيضاً كيف كان أوغست، يجرها من شعرها عبر خلفية المخزن، وهي حجرة صغيرة جداً، أضيق من أن تتسع لشجاراتهما الصاخبة...

لم تفه أمي بكلمة حول ذلك... كنا نعيش حياة شاعرية... لم يكن ينغصنا سوى ضيق المعاش ورقة الحال حسب، ولكننا كنا متحابين إلى أبعد حد. ذلكم ما كانت ترويه أمي. كان أبي يحبني بالغ الحب. حساساً للغاية لكل ما يتعلق بسلوكي... ولكن ضروب القلق... وأوضاعي المحفوفة بالخطر، وتحولاتي الفظيعة عجّلت بموته... بسبب وطأة الحزن بالطبع... فقد كان ذلك يثقل قلبه... فلااان! على هذا النحو تُروى الحكايات... كل هذا كان معقولاً إلى حد ما، ولكنه حافل مع ذلك بركام من الأكاذيب القذرة المقززة... ولفرط ما كانت الشريرتان كلتاهما ناشطتين في حشو جعبتيهما بالأضاليل، فقد طغى ضجيجهما على ضجيج البيانو... كان بوسعي أن أتقيأ كما يحلو لي.

لم تتوان فيرتوف أيضاً عن الخوض في مستنقع الأكاذيب... أتت على ذكر تضحياتها... وأن ميرييل هي حياتها كلها!... لم أكن أفهم كل ما تقولانه... كان علي الذهاب لأتقيأ في المرحاض... إضافة إلى ذلك، كنت بالتأكيد مصاباً بحمى المستنقعات... حملتها معي من الكونغو... كنت متقدماً في كل شيء...

حينما عدت إلى سريري، كانت أمي في ذروة حديثها عن أيام خطبتها لأبي في كولومب... حين كان أوغست يقود دراجة نارية... لم تكن الأخرى قد اكتفت... وجعلت تلمّع نفسها على نحو دنيء مقزز... وكيف أنها تتفانى لإنقاذ سمعتي في مبرة لينوتي... آه! آه! آه! نهضت حينئذ... فخارت قواي... ما عدت أقوى على الحركة... ملت فقط على الجانب الآخر من السرير كي أتقيأ... ما دمت غارقاً في بحران ثقيل فقد وجدت من الأفضل أن أتقلب في عالم قصصي وحكاياتي... رأيت ثيبو الشاعر التروبادوي... إنه بحاجة ماسة إلى المال... كان ينوي قتل والد جواد... بالناقص أب... رأيت في سقف الغرفة مباريات رائعة بالسيوف... رأيت رماحين يشتبكون... رأيت الملك كروغولد نفسه... يصل من الشمال... مدعواً إلى بريدون مع سائر رجال البلاط... رأيت ابنته واندا الشقراء الفاتنة... كنت أرتجف بشدة رغم أنني مبلل بالعرق... كان جواد عاشقاً مولهاً... تلك هي سنة الحياة!... لا بد لي من أن أنقلب على جنبي... تقيأت فجأة سائلاً مُرّاً أصفر. كنت أزمجر خلال محاولاتي الشاقة... سمعتني عجوزاي مع ذلك... فأقبلتا نحوي، وأصلحتا وضعي، صرفتهما عني مرة أخرى... فعاودتا هذرهما في الرواق. ولكنهما بعد أن أثخنتاني بالذم والتجريح فاءتا إلى نفسيهما وجنحتا إلى تلطيف عباراتهما... وعاملتاني بشيء من الرفق... كانتا متعلقتين بي في كثير من الأمور... راجعتا فجأة ما لديهما من أفكار ومعلومات... كانتا قد انساقتا بعيداً وأطلقتا لنفسيهما العنان... كنت أنا من يقدم لهما النقود. لم تكن أمي تكسب الكثير من عملها لدى السيد بيزونند، بائع الضمادات الشهير، لم يكن دخلها يكفيها... كان من العسير

عليها في هذا السن أن تأمن غائلة البؤس من العمولة التي تتقاضاها. كنت أنا أيضاً من يعيل السيدة فيتروف وابنة أختها إضافةً إلى ما يدخل إليهما من أعمالهما الحاذقة. فجأة، أخذتا حذرهما وشرعتا تتلويان كالأفعى...

"إنه خشن... طائش!... ولكنه يحمل قلبه على كفه..." لا بد من الاعتراف بذلك... بالطبع. ينبغي توفير القسط الشهري ونفقة المعاش... ينبغي الكف عن التلفظ بالحماقات... فاءتا إلى الهدوء والسكينة. لم تكن أمي عاملة... كانت تكرر ذلك. تلك هي صلاتُها... إنها تاجرة صغيرة... كانت عائلتنا تهلك كل يوم على شرف التجارة الصغيرة... لم نكن عمالاً ثملين ومغرقين بالديون... آه! لا. على الإطلاق !... ينبغي عدم الخلط... ثلاثة حيوات، حياتي وحياتها وحياة أبي على الأخص أزهقت على مذبح التضحيات... لم نكن نعرف أيضاً إلام ستؤول... لقد دفعناها سداداً لجميع الديون.

كانت أمي تعنّي نفسها أشد العناء لتأمين عيشنا... كانت مضطرة إلى تشغيل مخيلتها... تبددت حياتنا... وتبدد ماضينا أيضاً. كانت تكدح منذ نعومة أظفارها... انتشلتنا قليلاً من حضيض البؤس... ولكن أوضاعنا ما لبثت أن انهارت على نحو مشؤوم!...

كانت تنفجر في غضب عارم إذا ما سمعتني أسعل فقط، لأن والدي كان يمتلك صدراً متيناً ورئتين قويتين... ما عدت راغباً في رؤيتها... إنها تزهق روحي! تريد أن أهذي معها... لست إبناً صالحاً... سأسبب لها تعاسة! أريد أن أهذر أنا أيضاً... دو! مي! لا! التلميذ ينطلق من جديد... المعلم يستريح... إنه مسترخ في كرسيه

الهزاز... كم أتمنى أن تأتي خادمتي إيميل... كانت تجيء في المساء لترتيب شؤون بيتي... وهي لا تتكلم كثيراً... لم أعد أراها! عجباً! مهلاً إنها هنا... ستطلب مني أن أشرب جرعة من الروم... إلى جانبي كانت الثملات الثلاث يزعقن...

- إنه مصاب بحمى شديدة، أنت تعلمين!... أنا قلقة جداً! كررت أمي ثانيةً.

- إنه لطيف بالقياس إلى غيره من المرضى... جأرت فيتروف بدورها. أما أنا فكنت أتلظى في أتون من الجمر، جررت نفسي إلى النافذة.

على خط متعامد مع كوكب الزهرة كانت سفينتي تخبط في العتم، مجهزة بأشرعة حتى سرير النهر... اندفعت يميناً صوب الأوتيل ديو... كانت المدينة بأسرها واقفة على الجسر، يغمرها الهدوء... كل الموتى كنت أعرفهم... وأعرف أيضاً ذاك الذي يدير دفة السفينة... قبطانها، كنت أخاطبه دون كلفة... فهم أستاذ الموسيقى أخيراً... عزف بصوت خفيض اللحن الذي كنا بحاجة إليه... "بلاك جو"... من أجل أن نوغل بعيداً في الرحلات البحرية... من أجل أن نملك الوقت... والريح... والأكاذيب... إذا فتحت النافذة سيشتد البرد فجأة... غداً سأقتل السيد بيزونند الذي نكسب منه عيشنا... بائع الضمادات، داخل حانوته... أتمنى أن يرحل... ولكنه لا يخرج أبداً... سفينتي تتوجع متهالكة فوق بارك مونسو... أشد بطئاً من الليل... لا شك ستصطدم بالتماثيل... ذانكما شبحان يطوفان في الكوميدي فرانسيز... ثلاث موجات عاتيات يجرفن قناطر ريفولي... الصافرة تعوي داخل

نوافذي...فتحتُ بابي... فغارت الريح إلى الداخل... هرعت أمي جاحظة العينين... وانهالت علي باللوم... بأنني أتصرف كعادتي بصورة طائشة!... اندفعت فيتروف!... ورشقتني بطائفة من النصائح... ثرت حانقاً... أوسعتهما شتماً... سفينتي متأخرة. هاتان المرأتان تفسدان كل شيء... إنها تمخر مسرعة، هذا معيب! هي ذي تميل على جانبها الأيسر مع ذلك... ليس ثمة أرشق منها تحت القلوع... قلبي يتبعها... خليقٌ بهاتين المرأتين الشريرتين أن تجريا خلف الجرذان التي تعطل مناورة السفينة. لن تستطيع قط أن تساحل الشط لفرط ما كانت حبال رفعها مشدودة!... لا بد من إرخاء الحبال... لا بد من سحب ثلاث بكرات قبل الوصول إلى "الساماريتين"! أعلنت هذا بأعلى صوتي... ها إن غرفتي ستتداعى!... سددت أقساطها في النهاية! سددت كل شيء! قرشاً قرشاً! من حطام وجودي العاهر... تغوطت في بيجامتي... لوثت قميصي الداخلي... ساءت حالتي كثيراً، سأفلت معدتي فوق قلعة الباستيل. "آه! لو كان أبوك هنا!"... سمعت هذه الكلمات... فتولاني الغيظ! هي ذي مرةً أخرى! استدرت إليها. وصفت أبي بأنه كومة من العفن... كنت ألهث بقوة!... "لم يكن هناك من هو أقذر منه في العالم كله! من دوفايل وحتى كابريكون..." تولاها الذهول في البداية! جمدت في مكانها! كانت ترتعد، ثم تمالكت نفسها، ووصفتني بأنني أقذر من طيز. ما عدت أعرف أين أضع نفسي. كانت تذرف دموعاً سخينة، وتتقلب على فراش من الغصص والكروب، ثم نهضت على ركبتيها، وانتصبت واقفة، وهاجمتني بمظلتها.

تداعيت تحت ضربات المظلة الثقيلة، على أم رأسي، وانكسر مقبض المظلة في يدها، ثم انخرطت في النحيب. ألقت فيتروف بنفسها بيننا. "إنها تفضل أن لا تراني قط مرة أخرى"!... هكذا حكمت علي! لقد زعزعت سريري بأكمله... كانت ذاكرتها هي كل ما خلفه لها والدي، وملء طنابر من الكروب. كانت ذكراه تستحوذ عليها، وكلما مر الزمن على موته، كلما زاد حبها له. كانت أشبه بكلبة لا تكف عن العواء. ولكنني لم أكن لأوافقها، حتى لو كلفني ذلك موتي. عاندت، وكررت بأنه كان منافقاً مخادعاً، فظاً ورعديداً في جميع مواقفه! عاودت الهجوم، كانت ستقتل نفسها من أجل أوغستها، كنت على وشك أن أنهال عليها ضرباً. سحقاً! لم أكن مصاباً بالملاريا على سبيل المزاح. قذفتني بالشتائم، واحتدم غضبها، دون أن تراعي حالتي، انحنيت حينئذ، وشمرت تنورتها وقد بلغ حنقي كل مبلغ. رأيت ربلة ساقها ناحلة مثل عصا، مجردة من اللحم، وقد تغضن جوربها. كان ذلك مقززاً... كنت قد رأيته مراراً من قبل، وتقيأت فوقه دفعةً كبيرة...

"أنت مجنون يا فرديناند! تراجعت إلى الخلف وهي ترتعش!... ثم ولت الأدبار! أنت مجنون، صاحت بي مرة أخرى من الدرج".

ترنحت قليلاً، ثم تمددت على السرير، سمعتها تعرج حتى أسفل الدرج. ظلت نافذتي مفتوحة على مصراعيها... فكرت بأوغست. كان يحب القوارب أيضاً... كان فناناً في واقع الأمر... لقد جافاه الحظ... كان يرسم، من وقت إلى أخر عواصف نكباء فوق لوحي الاردوازي.

مكثت الخادمة جالسة على حافة السرير... قلت لها: "نامي هنا

بثيابك... فنحن على سفر... لقد فقد قاربي كل أضوائه عند محطة ليون، سآمر القبطان أن يعود إلى رصيف أراغو، حينما سنصعد إلى المقاصل... على رصيف ماتين..."

ضحكت إيميلي من كلامي... لم تكن تعرف المكر والحيلة...

"غداً. قالت لي... غداً!..." ورحلت عائدة إلى ابنها الصغير.

حينئذ، غدوت وحيداً حقاً!...

حينئذ، رأيت آلاف وآلاف الزوارق الصغيرة تعود متهاديةً على الضفة اليسرى من النهر... في داخل كل منها ميت صغير ذاوٍ تحت شراعه... وتحت حكايته... وأكاذيبه كي يوجه الشراعَ للريح...

* * *

يمكنني التحدث عن القرن الأخير، فقد شهدت نهايته. مضى ذلك القرن على الطريق الذاهب إلى أورلي... شوازي - لو - روا... صوب بيت الخالة أرميد التي كانت تقيم في رونجي. خالتنا الكبرى، جدة العائلة.

كانت تتحدث عن أشياء كثيرة، ما عاد أحد يتذكرها. في فصل الخريف، كنا نختار أحد أيام الأحد للذهاب لزيارتها، قبيل أن تحل الشهور الأشد زمهريراً. ثم لا نعود نزورها إلا في الربيع، فتتملكنا الدهشة حينئذ لأنها ما تزال بعد على قيد الحياة.

لشد ما تكون الذكريات القديمة ملحاحة مقاومة للفناء... ولكنها هشة عطوبة... أذكر بما يشبه اليقين أننا كنا دائماً نستقل عربتنا من أمام الشاتليه، وهي عربة تجرها الخيول... كنا أنا وأبناء الأعمام نتسلق

العربة، ونجلس في مقاعد الطبقة العلوية. كان والدي يمكث في المنزل. كان أبناء الأعمام يمزحون، قائلين بأننا لن نجد الخالة أرميد، في رونجي، هذه المرة، فلأنها من دون خادمة، ولأنها وحيدة في بيتها فسوف تقتل نفسها بالتأكيد، إذا داهمها الطوفان، ولن ندري بذلك إلا بعد فوات الأوان.

على هذا النحو كانت العربة تعلو بنا وتهبط على امتداد الطريق إلى شوازي، عبر الطريق النهري. كان ذلك يستغرق ساعات طويلة، فكنت أعب الهواء ملء رئتي. وكان علينا العودة بالقطار.

لدى وصولنا إلى المحطة الأخيرة، كان ينبغي أن نحث الخطى! ونجتاز الشوارع المبلطة العريضة، كانت أمي تجرني من يدي كي أسير على إيقاع خطوها. كنا نلتقي بآباء وأمهات آخرين قادمين أيضاً لرؤية العجوز. كانت أمي تجد عنتاً في تثبيت عقصة شعرها، وغلالتها، وقبعتها القشية، ودبابيسها. وحين كانت غلالتها تتندى بالعرق كانت تعلكها بأسنانها بحنق. كانت الجادات المفضية إلى بيت الخالة محفوفة من الجانبين بأشجار الكستناء الكثيفة الأغصان، والتي لم أتمكن من التقاط ثمارها. لم يكن لدينا دقيقة واحدة نضيعها... وبعيداً جداً عن الطريق كانت الأشجار والحقول وتلال الردم، وكتل المدر، وبعدها براري الريف، وأبعد من ذلك كانت البلدان التي لا نعلم عنها شيئاً... الصين، ثم لا شيء على الإطلاق.

لفرط ما كنا متعجلين في الوصول، كنت أبول في ثيابي، وفوق ذلك، كنت أحبس الغائط في مستقيمي. ولبثت أحبسه على هذا النحو حتى تطوعت في الجيش لفرط ما كنت متعجلاً طوال فترة صباي، كنا نبلغ البيوت الأولى مبللين بالكامل، كانت تلك قرية مبهجة. تأكدت

من ذلك بعد أن زرتها قبل حين، بأركانها الصغيرة الهادئة، وأزقتها، وطحالبها، ومنعرجاتها، وصنوف أجبانها الأصلية. كنا نكف عن الضحك والمزاح حينما نصل أمام باب حديقتها الشبكي، الذي كان يصرُّ صريراً حاداً. كانت الجدة قد باعت كل "أدوات زينتها" إلى مخزن تامبل على امتداد خمسين عاماً... كانت دارها في رونجي هي كل رصيدها.

كانت الجدة تظل قابعة في إحدى الحجرات، فوق مقعدها، منتظرة أن يأتي أحد لزيارتها. وكانت تغلق مصاريع نوافذها بعد أن ضعف بصرها.

كان منزلها مبنياً على الطراز السويسري، الذي يمثل حلم تلك الحقبة. في البداية ثمة حوض متقن البناء تنسلق داخله أسماك صغيرة... وبعد خطوات كان هناك درج يفضي إلى مدخل حجرتها. ثم يغوص الزائر وسط الظلمة، كنت أحس بشيء يلامس وجهي. "اقترب، لا تخف يا صغيري فيرديناند!..." كانت تدعوني إليها كي تداعبني، لم أكن أعترض أبداً. كانت زاوية فمها باردة وخشنة ورطبة، وذات طعم فظيع. كان الآباء يضيئون شمعة ويتحلقون حول العجوز ليخوضوا في ثرثرات لا نهاية لها. وحين يرون الجدة تحتضنني يزداد حماسهم، كنت مع ذلك أشمئز من تلك القبلة الوحيدة... ومن السير بسرعة شديدة أيضاً، ولكنها حين تشرع في الحديث يضطر الجميع إلى التزام الصمت. لم يكونوا يعرفون بماذا يجيبونها، لم تكن الجدة تتحدث إلا بصيغة الماضي الذاتي، التي بطل استعمالها منذ زمن، وهي صيغة كفيلة بإسكات الجميع. لقد آن الأوان لرحيل الجدة منذ زمن بعيد.

في الموقد الذي خلفها لم تشعل النار في يوم من الأيام "الموقد معطل فهو بحاجة إلى سحب المزيد من الهواء..." والحقيقة أن ذلك كان ذريعة للتوفير.

قبل أن نودع أرميد كانت تقدم لنا الكاتو والبسكويت الجاف في وعاء محكم الإغلاق. لم يكن يفتح إلا مرتين في العام. كان الجميع يرفضون بالطبع... لم يكن هناك أولاد غيري... كانت جميع الحلوى المعجونة بالزبدة من نصيبي!... وفي سورة فرحي بالتهامها. كنت أنط بالضرورة... كانت أمي تقرصني بسبب ذلك... فأنفلت بسرعة نحو الحديقة، بخفة وحيوية دائماً، وأبصق ما في فمي داخل حوض الأسماك...

في قلب الظلمة، وراء الخالة، خلف مقعدها، كان يرقد هناك كل الذين مضوا وغابوا. كان هناك جدي ليوبولد الذي لم يعد من بلاد الهند، كانت هناك العذراء ماري، والسيد برجراك، وفيلكس فور، ولوستوكرو، وصيغة الماضي الذاتي.

كنت أترك الجدة، تقبلني مرة أخرى لدى مغادرتنا... ثم يرفضّ الجمع فجأة، بعد أن نعبر الحديقة على عجل. أمام الكنيسة كنا نغادر أبناء الأعمام والخالات، وأولئك الذين كانوا يصعدون شطر جوفيسي. كانوا يطلقون جميع الأنسام فيما هم يعانقوني، تنفث شعورهم وقمصانهم روائح زنخة. كانت أمي تعرج مزيداً من العرج بعد أن ظلت جالسة ساعة كاملة، وسرى التنميل في قدميها.

لدى مرورنا أمام مقبرة ثياس كنا ندلف إلى الداخل. كان لنا ميتان أيضاً يرقدان في نهاية أحد الممرات. وما نكاد نلقي نظرة خاطفة على

قبريهما حتى نولي الفرار مثل لصوص، كان الليل يهبط سريعاً على توسين. فكنا نحث السير للحاق بكلوتيد وغوستاف وغاستون عند مفرق إيبين. كانت أمي تسير في المؤخرة بسبب ساقها الملفوفة بالصوف، متعثرة في كل مكان. وقد التوى مفصلها أيضاً حينما حاولت حملي أمام تقاطع السكة.

لم نكن نأمل بشيء في ذلك الليل سوى الوصول إلى حانوت الصيدلي. بلغنا الشارع الكبير. إنه الإشارة إلينا بالفرار... فعبر الأعماق الساطعة لقناديل الغاز، كانت أصوات الموسيقا تنبعث من الحانات. كانت أبوابها تترنح. فما ننفك نحسُّ بالخطر، ونعبر بسرعة إلى الرصيف الآخر. كانت أمي تخاف من السكارى...

كانت محطة القطار من الداخل أشبه بعلبة ضخمة، تعبق صالة انتظارها بالدخان، ويترجح من سقفها قنديل زيتي. المسافرون يسعلون، ويبصقون حول الموقد، متكدسين، منطوين على أنفسهم للمحافظة على دفئهم. هوذا القطار، يطلق هديراً مدوياً، أشبه برعد حقيقي، يكاد يقتلع كل شيء، يتململ المسافرون، مرهقين أيما إرهاق، يندفعون كالإعصار إلى أبواب القاطرة. كنا أنا وأمي الراكبين الأخيرين. وقد تلقيت صفعة كي أترك قبضة يدي هادئة أثناء الزحام.

كان علينا أن ننزل في إيفري، انتهزنا فرصة وجودنا هناك كي نمرَّ ببيت العاملة، السيدة هيروند، التي كانت ترتق مخرمات الدانتيل، وجميع مطرزات حانوتنا، ولاسيما القديمة منها، والهشة، والتي يتعذر صباغتها.

كانت تقيم في طرف إيفري تقريباً، في كوخ حقير في شارع

باليس، حيث بوشر العمل بمخطط أولي للبناء وسط الحقول، اغتنمنا الفرصة لزيارتها وحثها على الإسراع في إنجاز الأعمال المطلوبة. لم تكن قط تنجز أي عمل في أوانه. كانت زبوناتنا شرسات غضوبات بحيث لم نكن نتجاسر على مقابلتهن. وفي كل مساء تقريباً كنت أرى أمي تذرف الدموع بسبب عاملتها، وبسبب المخرمات التي لم تعد. وإذا ما حردت زبونتنا بسبب إخلالنا بموعد تسليمها مخرمات فالانسي، فإنها لم تكن تعود إلينا طوال سنة بكاملها.

كان السهل الممتد وراء إيفري أشد خطراً من الطريق إلى الخالة أرميد، ما كان ثمة مجال للمقارنة. كنا نلتقي أحياناً بزعران داعرين، يتعرضون لأمي بأقذع الشتائم. وإذا ما التفت خلفي تلقيت منها صفعة قوية: وحينما كان الوحل يغدو بالغ الرخاوة واللزوجة، بحيث نكاد نفقد أحذيتنا فيه، نكون قد ابتعدنا كثيراً، كان كوخ السيدة هيروند يساحل أرضاً بوراً، وحين رآنا كلبها أطلق نباحاً حاداً، فلاحت لنا نافذتها حينذاك.

كانت المفاجأة تتملك عاملتنا في كل مرة، وتستولي عليها الدهشة لرؤيتنا فتنهال عليها أمي باللوم والتعنيف، فتجأر بالشكوى ما وسعها ذلك، وفي النهاية تنفجر كلتاهما بالنحيب. أما أنا فكنت أنتظر خارجاً، أسرح بنظري في الأمداء البعيدة، حيث الظل الثقيل المنبسط حتى النهاية يعانق أرصفة السين، ويغطي قطعاً لا حصر لها من الأراضي المفروزة للبناء.

كانت عاملتنا ترتق مخرماتنا على ضوء مصباح كحولي، فيصطبغ وجهها بلون الدخان الأسود، وتكل عيناها بسبب التحديق المستمر

وشحة الضوء. كانت أمي تحثها على استبداله بمصباح الغاز. "هذا ضروري بالتأكيد" وتؤكد على ذلك حين تغادرها.

والحق أن إصلاح بضعة شرائط تخريم صغيرة من نسيج أشبه ببيت العنكبوت كان يتلف شبكية العين. لم تكن أمي توجه إليها ملاحظاتها بدافع المصلحة حسب، بل وبدافع الصداقة أيضاً. والواقع أنني مازرت كوخ السيدة هيروند في أي يوم من الأيام إلا في عتمة الليل.

"أسلمه لكم في أيلول!" كانت تؤكد في كل مرة، وكانت تلك كذبة تجريها على لسانها كي لا نمعن في الإلحاح. ورغم عيوبها كانت أمي تقدرها بالغ التقدير.

كانت الزبونات السارقات مصدر رعب أمي. أما السيدة هيروند فكانت أمينة، ليس كمثلها أحد في الشرف والأمانة. لم تغبننا قط بسنتيم واحد في أي يوم من الأيام. ورغم فقرها المدقع لم تكن تطمع بشيء مما نعهد به إليها والذي يعادل كنوزاً: مخرمات فينيسية كاملة لحلل القداس، ماعادت موجودة حتى في المتاحف. وفيما بعد، حين كانت أمي تتحدث عنها في مجالسها الحميمة، يوافيها الحماس، وتفيض عيناها بالدموع. "كانت ساحرة حقيقية، تلك المرأة! كانت أمي تعترف، من المؤسف أنها لم تكن تحافظ على كلمتها! لم تكن تسلمني العمل في ميعاده في أي يوم من لأيام!..." لقد ماتت الساحرة قبل أن تضيء كوخها بمصباح الغاز، ماتت من التعب، اختطفتها جائحة الأنفلونزا، والأسى أيضاً بالتأكيد، بسبب زوجها الذي كان زير نساء... ماتت أثناء الولادة... أتذكّر لحظة دفنها، كان ذلك في البوتيت إيفري، لم يكن يرافق نعشها سوى نحن الثلاثة، أنا ووالدي والزوج الذي لم يكن مغتماً على الإطلاق. كان رجلاً بهي الطلعة،

شرب بكل قروشها. كان يظل سنوات بكاملها في البار، في ناصية شارع غيون، وبعد عشر سنين كنا ما نزال نراه هناك ثم اختفى عن الأنظار.

حين كنا نغادر كوخ العاملة، لم نكن نتوقف عن الجري، حتى اوسترليتز، ثم نستقل عربة تخب بنا خيولها حتى الباستيل. على مقربة من سيرك الشتاء كانت تقوم ورشة آل ويرزم، وهم نجارون من الألزاس. كان جميع أفراد العائلة يعملون في الورشة. كل قطع أثاثنا الصغيرة، من أدوات خشبية ومناضد مزخرفة كان ويرزم هو من عدل طرازها القديم. ومنذ عشرين عاماً لم يكن يعمل عملاً آخرلجدتي ولأشخاص آخرين سوى الترصيع والتعديل. لم يكن ترصيع الخشب يصمد قط مع الزمن، وكان ذلك يثير جدالات لا تنتهي، كان ويرزم هذا فناناً حقيقياً، صانعاً لا نظير له. كان جميع آل ويرزم يقيمون في المنجرة، زوجته، وخالته، وأخو زوجته وابنا عم له وأولاده الأربعة، لم يكن هو أيضاً دقيقاً في مواعيد تسليم العمل على الإطلاق. كانت نقطة ضعفه تكمن في ولعه بصيد السمك، كان عادة ما يمضي أسبوعاً في قنال سان مارتين، مهملاً توصيات الزبائن. كانت أمي تغضب ويعلو وجهها الاحمرار. وكان هو يرد بشيء من الغطرسة بعد أن يقدم اعتذاراته. كان جميع أفراد عائلة ويرزم ينفجرون بالبكاء. كنا نحن الاثنين فقط نجعل أفراد العائلة التسعة يبكون. كانوا مبذرين متلافين مثل سلال مثقوبة. ولفرط ما كانوا يتهاونون في تسديد أجرة مسكنهم فقد اضطروا إلى الرحيل واللجوء إلى دغل قريب من شارع كولينكور.

كان كوخهم قائماً وسط مستنقع للأوحال، لم نكن نصل إليه إلا بالسير فوق ألواح خشبية. كنا نادي من بعيد بملء أصواتنا، ثم نتوجه شطر مصباحهم. ما كان يضايقني عندهم هو رائحة إناء الغراء الذي كانوا يضعونه في الهواء خارج الكوخ، ولا ينفك يفور ويرتج فوق الموقد على الدوام. وذات يوم قررت قلبه على الأرض، وحين علم والدي بذلك، أخبر أمي على الفور، بأنني لابد سأخنقه ذات يوم، وأن هذه كانت إحدى رغباتي الدفينة، هذا ما كان يراه.

أما ما كان لطيفاً ومحبباً لدى آل ويرزم فهو أنهم لا يحملون أية ضغينة. فما إن تنتهي عبارات التعنيف واللوم، وندفع لهم بعض النقود، حتى يعاودوا الغناء من جديد. ما من شيء مأساوي بالنسبة إليهم. كان أولئك الكادحون غير مبالين ولا متبصرين بالعواقب. لم يكونوا جادين على منوالنا. كانت أمي تعتبر هذه المواقف نماذج سيئة كي تثير خوفي. ولكنني كنت أجدهم في غاية اللطف، كنت أغفو باطمئنان داخل منجرتهم، وكان لابد من هزي بعنف كي أصحو وأعدو معها حتى الشارع العام، كي نستقل عربة "سوق الخمور". وفي داخل العربة كنت أحسني مفتوناً بالعين الكريستالية الضخمة التي تنشر أشكالاً من الضوء فوق صف المقاعد المنجدة. كان ذلك بالنسبة إلي أشبه بالسحر.

كانت الخيول تخب في شارع الشهداء، فيتنحى الجميع عن طريقها كي نعبر، وحين نصل إلى الحانوت نكون متأخرين جداً مع ذلك.

كانت جدتي، والدة أمي، تلوذ بركنها داخل المخزن، فيما يغطس والدي أوغست رأسه داخل قبعته حتى القاع، رائحاً غادياً مثل أسد فوق عبارة سفينة، كانت أمي تسترخي فوق مقعد خشبي. إنها مذنبة، ما من طائل في تبرير موقفها، كل ما فعلناه على الطريق لا يعجب

أحداً، لاجدتي ولاأبي. كنا أخيراً نغلق الحانوت... ونقول لجدتي بتهذيب فائق "إلى اللقاء"، وننطلق ثلاثتنا جميعاً إلى النوم. كان علينا أن نمشي مسافة طويلة للوصول إلى منزلنا، في الجهة الأخرى من "البون مارشيه".

لم يكن والدي ليناً رقيق الحاشية وحين يصل إلى المخزن آتياً من مكتب عمله يبدأ بتبديل أكثر من قبعة من قبعات البحارة فوق رأسه، كان حلمه أن يغدو قبطاناً يشق عباب اليم، وقد جعله حلمه الخائب هذا خشناً حاد المزاج.

كان منزلنا الواقع في شارع بابيلون، مطلاً على كنيسة "ليميسيون". كنا نسمع الخوارنة ينشدون التراتيل معظم النهار، وقسطاً من الليل، وحين كانوا ينهضون لترتيل مزاميرهم. لم يكن يتاح لنا رؤيتهم بسبب السور الذي ينتصب أمام نافذتنا بالضبط، ويحجب عنا النور.

كان والدي يعمل كاتباً في مكتب "الكوكسينيل انساندي" للتأمين ضد الحريق، ولكنه لم يكن يكسب الكثير من النقود.

حين كنا نجتاز حدائق التويللري كان يضطر غالباً إلى حملي على ظهره. كان رجال الشرطة في ذلك الزمن عظيمي الكروش، وكانوا يلبثون متسمرين تحت أضواء المصابيح.

كان السين يثير دهشة الأطفال. حين كانت الريح تتلاعب بالأضواء المنعكسة على صفحة مياهه، فتجعلها ترتعش، وحين تمور الدوامات العظيمة في القاع مطلقة هديراً عالياً. كنا ننعطف أخيراً نحو شارع فانو كي نصل إلى منزلنا. وحين كنا نشعل المصباح الغازي، كان هناك كوميديا أخرى. لم تكن أمي تعرف كيف تشعله، فكان أبي يقلبه، مجدفاً شاتماً محطماً في كل مرة كبسولة الإشعال والقميص المخرم.

كان والدي أشقر ضخم الجثة، غضوباً لأتفه الأسباب، له أنف كبير أشبه برضيع مكوّر ينتصب فوق شاربين عظيمين. كان يدحرج حدقتيه القاسيتين حينما يتملكه الغضب. لم يكن يفكر سوى بالشجارات، وكان في جعبته المئات منها. لم يكن يكسب في مكتب التأمين سوى مئة وعشرة فرنكات في الشهر.

حين أراد الالتحاق بسلاح البحرية، كانت قرعته طوال عشر سنوات ترميه في سلاح المدفعية. لطالما رغب في أن يكون قوياً، مرفهاً، محترماً. كانوا يعاملونه في مكتب الكوكسينيل كشيء فائض عن الحاجة. كانت كرامته الجريحة تعذبه وكذلك رتابة العمل. لم يكن لديه شيء خاص به سوى قارب صغير، وشاربيه، وهواجسه. ومع ولادتي غرق هو وأمي في قرارة البؤس.

لم نكن نجد ما نأكله أحياناً. كانت أمي تكشط قاع القدور والمواعين. لم تكن ترتدي سوى تنورة داخلية خوفاً من أن يخلّف الطبخ بقعاً على ثيابها. كانت تذرف دموعاً سخينة لأن أوغستها لم يكن يقدر نواياها الطيبة حق قدرها، ولا المشقات التي تتكبدها في التجارة. كان يجتر تعاسته فوق قطعة من القماش المشمع. ومن وقت إلى آخر كان يتخذ هيئة من فقد توازنه. فكانت تحاول دائماً أن تهدئ من روعه، ولكن ما إن تجذب المصباح المعلق بالسقف وتمسك كرته الصفراء المغلفة بشبكة حتى ينفجر على الفور في سورة من الغضب. "كليمانس! هيا، تباً، سوف تشعلين حريقاً! قلت لك مراراً بأن تمسكيه بيديك الاثنتين". كان يطلق صرخات مخيفة، حتى ليكاد يشق لسانه من فرط هياجه وسخطه. وبينما هو يرتجف كان لونه يغدو قرمزياً، وينتفخ جسمه في كل مكان، وتتدحرج حدقتاه مثل تنين. كان

النظر إليه مريعاً. كان الخوف يتملكنا أنا وأمي. أخيراً كان يكسر أحد الأطباق، وبعدها نذهب إلى النوم.

"أدر وجهك إلى الجدار أيها الصغير القذر! لا تلتفت!" لم أكن أرغب بالالتفات... كنت أدرك... كنت أشعر بالخجل... كان ذلك بسبب ساقي أمي المكشوفتين النحيلة والسمينة... كانت ما تزال تظلع من غرفة إلى أخرى... وكان هو يبحث عن أعذار... ولكنها كانت تصر على إنهاء غسل الآنية... مترنمة بلحن صغير كي تفرج الجو المشحون...

والشمس من خلال ثقوب السقف

تهبط إلى بيتنا...

كان والدي أوغست يقرأ صحيفة الوطن في تلك الأثناء، جالساً بالقرب من سريري الشبيه بالقفص. وحين جاءت إليه لتعانقه، انقشعت العاصفة وثاب إلى رشده. ونهض إلى النافذة، متظاهراً بالبحث عن شيء في قاع الفناء. ثم أطلق ضرطة صاخبة إيذاناً بالانفراج.

أطلقت هي أيضاً ضرطة صغيرة، من باب التعاطف، ثم انسحبت بكياسة إلى أعماق المطبخ.

بعد ذلك، كانا يغلقان باب غرفتهما... بينما كنت أنا أرقد في صالة الطعام. كانت تراتيل الكهنة تهوّم فوق الجدران، وفي شارع بابيلون كله ما عاد ثمة سوى حصان يقرع بحوافره بلاط الشارع... بوم! بوم! كانت تلك عربة متأخرة.

* * *

من أجل القيام بأعباء تربيتي، انخرط والدي في أعمال إضافية. كان مديره لامبرنت يثقله بكل ضروب الإذلال. تعرفت إلى هذا اللامبرنت، كانت صهبة بشرته قد حالت إلى شحوب واصفرار، كان له شعر ذهبي طويل، وبضع شعرات فقط في ذقنه تقوم مقام اللحية. كان لوالدي أسلوب رفيع في الكتابة. كانت أناقة أسلوبه تأتيه دونما أي جهد. كانت طبعاً متأصلاً فيه. ولكن تلك الموهبة كانت تزعج لامبرنت، وقد انتقم من والدي طوال ثلاثين عاماً. وجعله يعيد كتابة كل الرسائل تقريباً.

حينما كنت ما أزال صغيراً جداً، في أحضان مرضعتي، في بيتو، كان والداي يأتيان لرؤيتي أيام الأحد. كان هناك الكثير من الهواء الطلق. كانا قد سددا سلفاً جميع نفقاتي، ولم يستدينا قرشاً واحداً في يوم من الأيام، وحتى في أحلك سكرات الحاجة والخيبة. ولكن في كوربوفوا فقط، حيث يقع الحانوت، ولفرط ما كابدا من الهموم، وحرما نفسيهما الكثير من الأشياء، بدأت أمي بالسعال، حتى ما عاد يفارقها. ولم ينقذها سوى محلول البزاق، على طريقة الدكتور راسباي.

كان السيد لامبرنت يرتاب بأن والدي يستخدم أسلوبه الأنيق في الكتابة لتحقيق طموحات غير عادية.

من بيت مرضعتي في بيتو، ومن حديقتها تتراءى باريس بأكملها لعين الناظر، وحين كان والدي يأتي لرؤيتي كانت الريح تشعث شعر شاربيه. تلكم كانت أولى ذكرياتي.

بعد الإفلاس الذي ضرب سوق الأزياء في غوربوفوا اضطر والداي إلى أن يعملا عملاً مضاعفاً، وأن يبذلا جهوداً مضنية، هي

كبائعة لدى جدتي، وهو في العمل قدرما يستطيع من ساعات إضافية في "الكوكسينيل". ولكنه كلما كان يتفنن بأسلوبه الجميل كلما كان لامبرنت يجده قبيحاً. ولكي يتفادى ذلك الضغن انصرف إلى العمل بالرسم المائي. كان ينجز رسومه مساء بعد تناول الحساء. وقد اصطحبني معه إلى باريس. كنت أراه، فيما بعد، يرسم بالأسود، وبالألوان أيضاً، زوارق على الأخص، وسفناً تمخر المحيط، ذات ثلاث صوار، تدفعها ريح عاتية. كان ذلك هو اختصاصه... وفيما بعد شرع يرسم ذكرياته في سلاح المدفعية، بطاريات مدفعية تصلي نيرانها. ورسم أيضاً أساقفة، بناء على طلب الزبائن... بسبب أثوابهم الزاهية، ورسم أخيراً راقصات ذوات أفخاذ هائلة. كانت أمي تمضي لعرض تلك التشكيلة من الرسوم خلال ساعات الغداء، على باعة اللوحات في المعارض. لقد عملت أمي كل شيء من أجل أن أعيش، ما كان ينبغي لها أن تلدني.

في بيت جدتي، في شارع مونتورغوي، وبعد كارثة الإفلاس، كانت أمي تبصق دماً في الصباح فيما هي تعرض بضاعتها، مخفية مناديلها عن الأعين... كانت جدتي تظهر أمامها فجأة... "كليمانس، امسحي عينيك!... البكاء لا يصلح الأمور!...". وكي نصل إلى السوق في ساعة مبكرة جداً، كنا ننهض مع الفجر، فنجتاز التويللري، بعد الانتهاء من ترتيب شؤون البيت، وكان والدي يرتب الفراش.

لم يكن الوضع مبهجاً خلال النهار. كثيراً ما كنت أعول باكياً ساعة أو أكثر بعد الظهر. وفي المخزن كنت أتلقى من الصفعات أكثر مما أتلقى من الابتسامات. كنت أعتذر لسبب أو لغير سبب. أعتذر عن كل شيء.

كان علينا أن نحتاط من سرقة أشيائنا ومن تحطيمها. فتلك النفايات التافهة كانت هشة للغاية. لقد هشمت أنا عن غير قصد أطناناً من سقط المتاع ذاك. كل ما هو عتيق مثير للنفور والتقزز. كنا مع ذلك نستخدم بعضاً منها أواني للطعام. تلك النفاية الكئيبة التي غبر عليها الزمن كانت منتنة، شائهة، كنا نبيعها طائعين أو كارهين، وكان ذلك يخبلنا ويبلد أحاسيسنا. كنا نقرع آذان الزبون بشلال من الأكاذيب... حول مزاياها النادرة، دون أي رحمة. كان ينبغي أن يقتنع بما نقدمه من حجج، وأن يفقد حسه السليم. وحين يتخطى العتبة يكون مبهوراً بكأس أثري من طراز لويس الثالث عشر، أو بورقة من حرير مخرمة على هيئة كلب أو قطيط. لشد ما كنت أشمئز من أولئك الأشخاص الكبار الذين كانوا يحملون إلى بيوتهم مثل تلك الأشياء.

كانت جدتي كارولين تختبئ أثناء العمل خلف لوحة "الإبن الضال"، وهي لوحة ضخمة من خيوط التطريز. كانت عين كارولين تتابع الأيدي أنّى تحركت. فالزبونة فاجرة مثلها مثل الجميع، وكلما كانت أرفع مقاماً كلما كانت أبرع في السرقة. أما اللوحة فهي عبارة عن رسوم صغيرة منضدة فوق بعضها فوق رقعة كبيرة من نسيج شانتيلي. تحفة فنية داخل إطار جذاب جداً.

لم نكن نتعرق تحت أضواء المخزن... فيما الشتاء غادر كل الغدر، بسبب دوائر الأثواب المطرزة، والمخامل والفراء ونسيج البالداكين الحريري، التي تعادل ثلاثة أمثال محيط الأثداء... ومن الأكتاف تنسدل أيضاً كل أنواع جلود البوا المجلوبة من أقاصٍ بعيدة، وسيول من الموسلين المتموج... والطيور المتجمعة في حداد هائل... تتبختر الزبونة كالطاووس، تغير على أكداس النفايات، قارقة كدجاجة، ثم

تعود على رؤوس أقدامها، فتبعثر الأكداس، تلتقط الأشياء من هنا وهناك، مماحكة على سبيل الاستمتاع. ولكي نحدس بما تشتهيه كانت عيوننا تجحظ في التشكيلة المعروضة في المخزن، ولا تتوقف الجدة عن السير بعكس التيار، تذهب إلى صالة المبيعات بالجملة، وتنقض على تلك الأمتعة الرخيصة، ثم تعود محملة بكل شيء، بلوحات زيتية، بأحجار الجمشيت، بغابة من الشمعدانات، وأقمشة قطنية مقصبة، وأحجار الكابوشان الكريمة، وحقّات القرابين، وحيوانات مصبرة محشوة بالقش، وأسلحة، ومظلات شمسية، وفظاعات يابانية مذهبة، وفستقيات من أمكنة أبعد أيضاً، ركام تافه من أشياء لم يعد لها أسماء، ولا يعلمها إلا علام الغيوب.

تهش الزبونة وتبش وسط هذا الكنز المبعثر من كسر الخزف، ثم يعاد تجميع الكومة خلفها. هذا ينقلب، وذاك يطنطن، وآخر يدوّم. والزبونة لم تدخل إلا للاطلاع والفرجة، فالسماء تمطر في الخارج، وهي تريد أن تحتمي من المطر. وحين تشبع نهمها للفرجة، تولي الأدبار مع وعد بالعودة. لا بد من الشروع حينئذ بجمع كل تلك النفايات المبعثرة.كنا نركع على ركبنا، وننحني إلى الأسفل، لنسحب الأشياء من تحت الأثاث. وحين نجمع كل شيء... المناديل، والتحف المزخرفة، والزجاج المعرق، وكل ما كنا نتجر به، نطلق حينها زفرة حرى.

تسترخي أمي، تمسّد ساقها التي سرى بها ألم صامت كلياً، لفرط ما وقفت عليها. هو ذا يبرز من الظل، قبل لحظة الإغلاق بالضبط زبون متهيب، يدخل بهدوء، يشرح طلبه بصوت خفيض جداً، يريد أن يبيع بأي سعر شيئاً صغيراً، ذكرى من عائلته. يبسط الصحيفة،

فتحملق العيون فيه لتخمين سعره، ثم تغسل تلك اللقية في مغسلة المطبخ. سيكون الدفع غداً صباحاً، ينصرف، قائلاً بصوت هامس لا نكاد نسمعه "إلى اللقاء"... تمر حافلة بانتيون كورسيل كالإعصار أمام المخزن.

يصل أبي قادماً من مكتبه. ينظر إلى ساعته متابعاً كافة الثواني، يرين عليه القلق وسوء المزاج. ينبغي الآن أن نسرع ما وسعنا الإسراع.

يخلع أبي قبعته، ويتناول عمرته المعلقة على الجدار.

علينا أيضاً أن نلتهم طبق المعكرونة الشريطية، ثم نمضي بعد ذلك لتسليم البضاعة.

* * *

كنا نغلق المخزن أخيراً. لم تكن أمي طاهية ماهرة. كانت تعد لنا مع ذلك يخنة غليظة. وحينما لا يكون هناك "ثريد بالبيض" فليس أمامنا سوى المعكرونة. ما من رحمة أو شفقة. بعد المعكرونة نلبث هادئين قليلاً، نفكر من أجل معدتنا. تحاول أمي أن تسلينا، أن تفرج كربنا. وإذا لم أجب على أسئلتها، فإنها تلح علي بلطف... "أنت تعلم، لقد طبختها بالزبدة!"، الغرفة مضاءة بقنديل غاز شاحب، شحيح الضوء بحيث لا نكاد نميز الصحون بوضوح بسبب الظلمة.

تعاود أمي ملء الصحون بالمعكرونة، برباطة جأش، كي تحثنا على التهام المزيد. كنا بحاجة إلى جرعة من النبيذ الأحمر مع كل لقمة كي لا نتقيأها.

كانت الغرفة التي نتناول فيها طعامنا، تستخدم للغسيل أيضاً، ولخزن البضاعة الرثة، كان لدينا منها أكداس مكدسة، عرمات

شاهقة، تلك التي لم يعد ينفع معها الرتق والترميم، والتي يتعذر بيعها، أو عرضها، قباحات منفرة تتقزز منها النفس، ستائر كتانية لكوى الأبواب والنوافذ تتدلى وسط حساء النفايات. ومعزق لأعشاب الجنائن لا أدري من أين أتى، مع سلة ظهرية ضخمة. كان ذلك يشغل نصف الغرفة. في النهاية كنا نعيد طبق المعكرونة كي نتذوق لحسة من المربى.

منذ أن أقمنا في غوربوفورا، لم تعد الجدة ووالدي يتبادلان الحديث. كانت أمي لا تكف عن الثرثرة خوفاً من أن يتراشقا بالأشياء. ما إن تستقر المعكرونة في بطوننا، ويسري طعم المربى في حلوقنا حتى نبدأ المسير. كنا نلفّ الأشياء المباعة بأغطية للملابس. كانت تلك الأشياء على الدوام تقريباً قطع أثاث للصالات، وآنية وسكريات أحياناً. كان والدي يثبت الصرة فوق قذاله ثم ننطلق إلى الكونكورد.

ما إن نبلغ الفونتين جيكلوز حتى ينتابنا شعور بالخوف أنا وهو: كان الليل بظلمته الحالكة يهبط علينا ونحن نسير صعداً عبر الشامبزيلزيه. كان أبي يدب على الأرض مثل لص. كنت أجد عنتاً في متابعته، حتى لكأنه كان يرغب في أن يضيعني.

كنت أود لو أنه يكلمني خلال مسيرنا، كان يدمدم فقط بشتائم موجهة إلى أشخاص مجهولين، وما إن نصل إلى الليتوال حتى يكون العرق قد غسله غسلاً. كنا نتوقف لحظة من الزمن. كان علينا بعد أن نصل أمام منزل الزبون أن نبحث عن مدخل الخدم.

حين كنا نسلم البضاعة في حي أوتوي على ضفة السين، يغدو أبي أكثر لطفاً وبشاشة، ولا ينظر إلى ساعته إلا لماماً. كنت أتسلق درابزين النهر، فيشرح لي حركة سفن القطر... والأضواء الخضراء، وصفارات

السفن وهي تتجاوب فيما بينها... "ستكون عما قريب في البوان دوجور!" كانت إحدى السفن الصغيرة قد أثارت إعجابنا... تمنينا لها النجاح في مناورتها...

كنا نعبر "الليتيرن" عادة في أوقات المساء، كان هذا الحي يغدو كريهاً في تلك الأوقات، ولاسيما نساؤه. كان والدي يشعر بالذعر منهن. منذ انطلاقنا يكون متحفزاً مستفزاً. أتذكر الآن ظروفاً عصبية تعرضنا لها خلال عبورنا شارع ديمور. أمام الكنيسة وجه إلي ركلة قوية من قدمه كي أجتاز الشارع ركضاً. وحين وصلنا إلى بيت الزبونة لم يعد بإمكاني أن أحبس دموعي "أيها الصغير القذر، كان يصيح في وجهي، سأجعلك تبكي، ليسَ من دون أسباب!..." ثم يرتقي الدرج خلفي حاملاً طاولته العالية القوائم. لقد أخطأنا الباب. أثرنا فضول جميع خادمات الحي. كنت أحرن مثل عجل... أفعل ذلك عن عمد، قاصداً أن أزعجه! يا لها من فضيحة. عثرنا أخيراً على جرس باب الزبونة، استقبلتنا الوصيفة، وانتبهت إلى ما أنا فيه من تكدر. ثم وصلت المعلمة يسبقها حفيف ثوبها: "أوه! يا للصغير الخبيث! يا للوغد! لقد أغضب أباه!" لم يعد هو يعرف أين يندس. كان بوده أن يختبئ في درج الطاولة. أرادت الزبونة أن تواسيني. صبت لأبي قدحاً من الكونياك، وقالت له: "امسح إذاً يا صديقي سطح الطاولة حتى يصبح لامعاً! أخشى أن يكون المطر قد ترك بقعاً عليه..." قدمت له الخادمة خرقة، وبدأ أبي العمل. عرضت عليَّ السيدة حبة سكاكر، وقادتني إلى غرفتها. وجاءت الخادمة أيضاً. اضطجعت الزبونة حينئذ فوق سجف من الدانتيلا، ورفعت مئزرها فجأة، فكشفت لي عن فخذيها، فخذين ضخمين، وعن عجيزتها.. المتوحشة!.

"هاك يا صغيري!... تعال يـا حبـيبي!..." كانـت تـدعوني بـصوت رخيم جداً... رقيق للغاية... لم يخاطبني به أحد في يوم من الأيام.

لم تعد الخادمة تتمالك نفسها من الضحك، وهو ما منعني من أن أستجيب للسيدة. ولّيت الفرار عبر المطبخ. كان بيد والدي البخشيش لم يجرؤ على وضعه داخل جيبه، كان يحدق فيه. كانت الخادمة ما تزال مستغرقة في الضحك. "ألا تريد أن تمص إذاً؟" قالت لوالدي. فقفز عبر الدرج لا يلوي على شيء. لقد نسيني، كنت أعدو خلفه في الشارع، أنادي عليه بملء صوتي: "بابا! بابا!" ولم ألحق به إلا في ساحة التيرن. جلسنا هناك، كان الجو بارداً. لم يشأ أن يعانقني. كان يشد على يدي.

"نعم يا صغيري!... نعم يا صغيري!..." كان يكرر بينه وبين نفسه على هذا النحو... كنت جامداً أمامه... كان لديه قلب في النهاية... وأنا أيضاً كان لي قلب. ولكن الحياة لا تأبه بالقلوب. عدنا أدراجنا عبر شارع بابيلون مباشرة.

* * *

كان والدي لا يثق بشطحات الخيال. لا يفتأ يحدث نفسه وحيداً في الأركان والزوايا. لم يكن يرغب أن ينساق بعيداً مع أحلامه. كان الضرام يلتهمه من الداخل.

في الهافر، حيث ولد، كان ملماً بكل ما يتعلق بالسفن. كان ثمة اسم يعبر ذاكرته مراراً، القبطان ديروان، الذي كان يقود سفينة "الفيل دو تروا". لقد رأى مركبه ذات يوم يبحر منطلقاً من حوض البار، ثم لم يعد قط. غرق المركب بما فيه ومن فيه في عرض البحر قرب سواحل فلوريدا. "ياله من مركب رائع ثلاثي الصواري!".

ثمة مركب آخر هو "غوندريولان"، نرويجي، كان محمّلاً بأحمال زائدة، اصطدم بجدار الهويس. كان والدي لا ينفك يتحدث عن مناورته الفاشلة، ويتذكر الحادث برعب طوال عشرين عاماً... ظل حانقاً بسبب ذلك... كان ينزوي في ركن من الأركان، ويغرق في اجترار الذكريات.

أخوه أنطون كان شخصاً آخر مختلفاً. كان قد قهر بعنف كل حماساته للسفر والتجوال، بطريقة بطولية حقاً. ولد هو أيضاً بالقرب من سيمافور الكبرى... وحينما مات أبوهما اتجه إلى العمل كأستاذ للبلاغة، واختص بـ"الأوزان والمقاييس" اللغوية. وحظي بموقع مستقر حقاً. ولكي يطمئن تماماً تزوج من آنسة مختصة بعلوم الإحصاء. ولكن زواجه هذا حدّ كثيراً من رغباته الدفينة... كان يحتفظ بالريح داخل جلده. لم يكن يشعر بأنه مختف بنحو كاف، وما برح منذ ذلك الوقت يصغر ويتضاءل.

كان يأتي مع زوجته لزيارتنا في يوم رأس السنة الجديدة. ولفرط ما كانا حريصين على التوفير فقد كان طعامهما سيئاً جداً. لم يكونا يتحدثان إلى الناس، بحيث أنهما بعد أن ماتا لم يعد أحد من أهل الحي يتذكرهما. وما أثار دهشتنا هو أنهما انتهيا ماسونيين، هو بسبب السرطان، وهي بسبب التقشف والزهد. وقد صادفنا زوجته، لابلانش بعد موته، في البوت شومون. كانا معتادين على قضاء عطلهما هناك. أمضيا أربعين عاماً معاً، وهما ينتحران ببطء يوماً بعد يوم.

أما أخت والدي، العمة هيلين، فلم تكن من المعدن ذاته. جرت مع كل الرياح، وطوفت في الآفاق. ارتحلت إلى روسيا. وغدت مومساً في سانت بطرسبورغ. وفي غفلة من الزمن امتلكت كل شيء، عربة فاخرة وثلاث زلاجات على الجليد، وضيعة بكاملها لها

وحـدها، مـسجلة باسمهـا. جـاءت لزيارتنـا في الباسـاج، مـرتين متتـاليتين، مزينـة بالريـاش والجـواهر، بهيـة مثـل أمـيرة، طافحـة بالسعادة، وكل شيء. ثم انتهت نهايـة مأسـاوية بعـد أن أطلـق عليهـا الرصاص أحد الضباط. لم تكن تقاوم أي إغراء، كانت كتلة من لحم، وشهوات، وموسيقا، كان أبي لا ينفـك يفكـر بهـا. وقـد استخلـصت والدتي بعد أن علمت بوفاتها: "يا لها مـن نهايـة فظيعـة جـداً. ولكنـها النهاية الطبيعية لإنسانة أنانية!".

كان لي خال أيضاً هو أرتـور، لم يكـن أيـضاً مثـالاً يحتـذى. كـان لحمه زاخراً بالشهوات هو أيضاً. كـان والـدي يـشعر نحـوه بنـوع مـن الميل، بضعف خـاص. عـاش حيـاة بوهيميـة حقيقيـة، علـى هـامش المجتمع، في حجرة درج قصية عن الناس. برفقة إحـدى الخادمـات، تعمـل في المطعـم المقابـل للمدرسـة العـسكرية. وبفـضلها، ينبغـي الاعتراف، أمكنه أن يأكل جيداً. كان أرتور خلي البال، مجبـولاً علـى اللامبـالاة. بعثنـون يـزين وجهـه، وبنطـال مخملـي، وحـذاء مـدبب كالقرن، وغليون ضامر شيِّق. ما كان القلق ليساوره قط. كـان لـه ولـع بإثارة الإعجاب وأسر قلوب النساء. غالباً ما كان يقع مريـضاً، وتـسوء حالته على نحو خطير، في موعـد القـسط الـشهري لأجـرة مـسكنه، ويظل راقداً مع صويحباته ثمانية أيام بكاملها. حينما كنا نذهب لزيارتـه يوم الأحد لم يكن دائماً حفياً بنا، وعلى الأخص بأمي، كان يـضايقها أحياناً، وكان ذلك يخرج عجوزي عن طوره، ويقـسم بمئـة وعـشرين ألف شيطان بأنّه لن يعود قط لزيارته في أي يوم من الأيام.

"هذا الأرتور في الحقيقة، له تصرفات مشينة!..." كنا نعود لزيارتـه مع ذلك.

على ضوء نافذته الصغيرة، كان يرسم قوارب فوق لوحه الخشبي الكبير، ويخوتاً يحف بها الموج من كل جانب. ونوارس محلقة حولها. كان ذلك نسيجه... ومن وقت إلى آخر كان ينسخ رسوماً عن كاتالوجات، ولكنه كان غارقاً في الديون بحيث كان ذلك يجرده من كل شجاعته. وحين لا يفعل شيئاً يكون بالغ المرح.

على مقربة من حي الكافاليري حيث يقيم، كنا نسمع عزف جميع الأبواق، كان أرتور يحفظ ألحانها عن ظهر قلب، ويحفظ جميع الألحان الراقصة. كان يردد بصوته كل لازمة وكل دور، ويبتكر ألحاناً ماجنة. كانت أمي وصديقته خادمة المطعم يرددن خلفه "أوه!... أوه!..." وكان ذلك يثير حفيظة والدي بسبب صغر سني وصوناً لبراءتي.

أما أغبى أفراد العائلة فكان الخال رودولف بالتأكيد. كان معتوهاً تماماً. يضحك بلطف وهدوء حينما يكلمه أحد، ولا ينفك يحدث نفسه ويجيب على أسئلته. ويستمر حواره هذا ساعات. كان يهوى فقط العيش في الهواء الطلق. لم يشأ قط أن يجرِّب العمل في مخزن أو مكتب أو حتى كحارس، ولو خلال الليل. بصدد طعامه، كان يفضل البقاء خارجاً، جالساً على مقعد. كان يرتاب بالبيوت وجدرانها الخانقة. وإذا ما استبد به الجوع، ولم يتدبر أمر طعامه، يعود إلى المنزل، ويمضي أمسيته هناك، ولكنه يكون مفعماً بالخيبة والإحباط.

كان النداء على الركاب في المحطات يشكل مورد رزقه. تلك هي مهنة اجتذاب الزبائن نحو العربات. وقد عمل بها أكثر من عشرين عاماً. كان يحرك أناس المدينة كما يحرك المهرج دميته بالخيوط. يعدو مثل أرنب خلف العربات والأمتعة ما وسعه العدو. أما ذروة نشاطه فكانت لحظة عودة الناس من العطلات. كان عمله هذا يسبب له جوعاً

وعطشاً دائمين. فكان الحوذيون يتقبلونـه قبـولاً حـسناً، ويدعونـه إلى مشاركتهم طعامهم، فيجلس إلى المائدة على نحو يثير الـضحك. ومـا يلبث أن ينهض حاملاً قدحه، فيقرعـه بأقـداحهم. ثم يـصدح بأغنيـة، ويتوقف في منتصفها، وينفجـر في ضـحكة مجلجلـة دون أي سـبب، مبللاً فوطته باللعاب.

كنا نرافقه إلى بيتـه وهـو مـا يـزال يـضحك. كـان يقيم في شـارع لوبيك، في نزل "بـوي دو دوم" داخـل خـص قمـيء أقـيم في الفنـاء. أشياؤه المهلهلة ملقاة على الأرض, لم يكـن لديـه كرسـي واحـد ولا طاولة. وحين افتتح المعـرض الكـبير غـدا شـاعر "تروبـادور" (شـاعر جوال في القرون الوسطى). كان يقوم بدعاية صـاخبة لجنـاح "بـاريس القديمة" واقفاً على الرصيف أمام الحانـات ذات الجـدران الكرتونيـة. كانت ثيابه عبارة عن رقع من كل الألوان. "هيـا! هيـا!" للفرجـة علـى "القرون الوسطى". كان يدفئ نفسه بالصياح، وبضرب نعليه بـالأرض. وفي المساء، حين يأتي إلى بيتنـا للعـشاء، متبرجـاً بثيابـه الكرنفاليـة، كانت والدتي تشعل له المدفأة خصيـصاً، لتدفئـة رجليـه المتجمـدتين دوماً. وقد عقّد الأمور بإقامتـه علاقـة مـع إحـدى الفاسـقات، تـدعى روزين، ذات شعر مستعار، تعمل في حانة من حانات المعـرض ذات جدران كرتونية ملونة. كانـت روزيـن شـقية بائـسة، تنفـث الـدم مـن رئتيها، و قد دامت علاقته بها ثلاثـة أشـهر، ماتـت بعـدها في غرفتـه داخل النزل. رفض أن ينقلها إلى المقـبرة. كـان يغلـق عليهـا البـاب، ويعود في المساء لينام إلى جانبها، ولكن تعفن الجثـة كـشف الأمـر، فاستشاط غضباً. لم يكن يدرك أن الأشياء تنتن وتتعفن. وقـد تم دفنـها عنوة. كان يريد أن يحملها هو نفسه على ظهره بكـلاب معقـوف حـتى مقبرة بانتين.

أخيراً عاد إلى لوثته الدعائية مقابل الإيسبلاند. كانت أمي ساخطة بشدة. "بهذه الثياب التي تشبه أقنعة المساخر، ومع هذا البرد القارس! إنها جريمة حقاً!". كانت قلقة على الأخص لأنه لم يكن يرتدي معطفه الذي أعطاه له والدي. فكانت ترسلني لأطمئن على أوضاعه، ولم يكن سني يسمح لي بالدخول إلى المعرض دون أن أدفع ثمن بطاقة الدخول.

كان رودولف هناك، خلف الحاجز الشبكي، يتجول على غرار شاعر تروبادوري. وحين يراني يطفح وجهه بابتسامة مشرقة: "صباح الخير، صباح الخير يا صغيري ؟ أنت رأيت روزينتي ألِيس كذلك؟..."، كان يشير لي إلى ما وراء السين... كان السهل كله يبدو نقطة وسط الضباب... "هل تراها؟" وكنت أقول له "نعم" لم أكن أعاكسه. وكنت أعود لأطمّن والديّ بأن رودولف في غاية التعقّل!

في نهاية عام 1913، رحل رودولوف مع سيرك جوال... ما استطعنا قط معرفة ماذا حل به، وما عدنا رأيناه بعد ذلك في أي يوم من الأيام.

* * *

ارتحلنا عن شارع بابيلون، كي نبدأ تجارتنا في حانوت جديد، كنا ما نزال نسعى إلى تكوين ثروة صغيرة. استقر بنا المقام في باساج بيرزيناس، بين البورصة، والبوليفارات في مسكن طابقي مؤلف من ثلاث غرف فوق بعضها، تتصل فيما بينها بدرج لولبي. كان الحانوت في الطبقة السفلية. كانت أمي تتسلق الدرج دونما توقف، معتمدة على رجل واحدة. تا! خطوة! تام! تا! خطوة! تام.مستندة إلى درابزين الدرج. كان ذلك يثير أعصاب والدي لدى سماعها صاعدة نازلة. كان عكر المزاج

بسبب الساعات التي لم تكن تمضي، فلا يبرح ينظر إلى ساعته، بالإضافة إلى الماما، وساقها الهشة، فكان يثور لأتفه الأسباب.

في الأعلى، كانت آخر غرفة من مسكننا، مطلة على الفضاء عبر واجهة زجاجية، مغلقة بقضبان حديدية خوفاً من اللصوص والقطط. كانت تلك غرفة نومي، وكان بوسع أبي أن يرسم فيها لوحاته حين يعود من تسليم البضاعة. كان يتفنن في رسومه المائية، وحينما ينتهي كان يتظاهر بالنزول غالباً ليعود على نحو مفاجئ ليصيبني بالصدمة. كان يختبئ في الدرج، ولكنني كنت أكثر خفة منه، لم يفاجئني سوى مرة واحدة. كان يجد مع ذلك ذريعة لضربي، فتنشب بيننا معركة. وأخيراً كنت أطلب منه الصفح على وقاحتي... على سبيل الكوميديا، غير أن اشتباكنا لم يكن حقيقياً على الإطلاق.

كان هو من يحتج بدلاً عني. وحين ينتهي من تأديبي كان يلبث طويلاً خلف واجهة الزجاج يتأمل النجوم، والفضاء، والقمر، والليل، محدقاً إلى الأعلى، كأنه داخل كوثل سفينة. كنت أعرف ذلك، كأنما كان هو قبطان الاتلانتيك.

إذا ما قطعت أمي تأمله، طالبة منه النزول، كان يدمدم من جديد. كنت أسمعهما يتصادمان في الظلمة، داخل قفص الدرج، بين الطابق الأول والثاني، كانت تتلقى منه لطمات، ورشقات من الشتائم. تا!غا! دام! تا! غا! دام! فتهبط إلى الغرفة الأرضية متباكية تحت وقع شتائمه، وتنهمك في حساب ما لديها من بضاعتها المهلهلة. "لا أريد أن تزعجوني بعد الآن! تباً! ماذا فعلت إذن بحق السماء؟" كان صوتها يتردد في جنبات الغرفة، وفي أعماق المطبخ الضيق. وكان أبي يتجرع قدحاً من النبيذ الأحمر ولا ينبس أحدهما بكلمة... وكان هو من يخلد إلى الهدوء.

خلال ساعات النهار، كنت أظل إلى جانب الجدة. كانت تعلمني مبادئ القراءة. لم تكن هي نفسها ملمة بها إلماماً كاملاً، فقد تعلمت جدتي في وقت متأخر جداً، بعد أن أنجبت عدداً من الأبناء. لا يمكنني القول بأنها كانت رقيقة أو عطوفة، ولكنها لم تكن تتكلم كثيراً. وقد زاد ذلك الآن إلى حد كبير. ثم إنها لم تصفعني في أي يوم من الأيام. كانت جدتي تمقت والدي، ولا تطيق رؤيته، بسبب أوامره، ووساوسه الحادة، وفورات غضبه من المعكرونة، وكل طبول إزعاجه المدوية. كانت تعتبر ابنتها مغفلة أيضاً لزواجها بمثل هذا الطيز، الذي لا يتقاضى سوى سبعين فرنكاً شهرياً في مكتب التأمين. أما بالنسبة إلي، أنا الصبي، فلم تكن تعرف بوضوح ما الذي كان عليها أن تشعر به تجاهي. كانت تراقبني دوماً. لقد كانت في الواقع طبيعية قوية حازمة.

حين انتقلنا إلى الباساج، ظلت تقدم لنا يد المساعدة زمناً طويلاً، بما تبقى لديها من نقود، ومما كانت تكسبه من عملها في التجارة. لم نكن نضيء سوى واجهة زجاجية واحدة من الحانوت، تلك التي أمكننا تجهيزها ببضاعتنا... كان هذا يضفي جواً كئيباً على التحف والآنية المزخرفة والأشياء العتيقة المرصوفة على عرض الواجهة، من نفايات تافهة، وخرز أبيض، مما كنا نكسب به معاشنا... كنا نقاوم غوائل الزمان بتقليص النفقات... وبمساعدة المعكرونة الشريطية دائماً. وبأقراط أذني أمي التي كانت ترهنها نهاية كل شهر. كنا دائماً على شفا حفرة من الانهيار، ولم نحصد في أي يوم من الأيام سوى الخيبة والإخفاق.

أما ما كان يدر علينا نزراً قليلاً من الإيرادات فهو ما كنا نقوم به من ترقيع وإصلاح لقاء أي ثمن، وبأرخص سعر في السوق. كنا نسلّم تلك الأشياء لأصحابها في كل وقت لقاء أربعين قرشاً، هي كل كسبنا

من تلك الأعمال، كنا نذرع حديقة سانت مور ذهاباً وإياباً.

"لن يلبث الشجعان أن يظفروا مهما طال الوقت"! كانت أمي تـردد مازحة. كانت قوتها تكمن في تفاؤلها. غـير أن الـسيدة هيرونـد كانـت تغالي في التأخير. ومع كل انتظـار كـان هنـاك دراما، كـان خليقـاً أن نفجر جميعاً بسبب ذلك. فبعد عودة والدي من مكتبه، كان يشرع في التململ منذ الساعة الخامسة، ولا يبرح ينظر إلى الساعة بين أصابعه.

"أكرر لك يا كليمانس، للمرة المئة... إذا كانت هذه المرأة تخـتلس شيئاً فما الذي سنؤول إليه؟ إن زوجها يبيع كل شيء بأي ثمن!... وهو لا يغادر الماخور. أعلم ذلك حق العلم!... هذا معروف للجميع!...".

كان يصعد إلى غرفة الطابق الثالث. ولا يكف عن الـزئير. ثم يهـبط إلى الحـانوت. ويتحـول سـجننا بمـساحته الـصغيرة إلى أكورديـون حقيقي. كان يتضخم من أسفله إلى أعلاه.

كنت أمضي إلى شـارع البيراميـد أرقـب وصـول الـسيدة هيرونـد. فإذالم أرها قد وصلت مع صرتها التي كانت أكبر منـها، أنقلـب علـى أعقابي مهرولاً، خائباً. ثم أمضي مرة أخـرى راكـضاً أيـضاً، وأخـيراً، كما لو أن كل شيء قد انتهى، كما لو أن السيدة هيروند قد غرقـت أو جرفها الطوفان، كنت أقع عليها في عرض شارع تيريز، لاهثـة وسـط دوامة من الحشود، متدحرجة تحت صرتها الضخمة. كنت أجرهـا إلى الباساج. وحين تصل تنهدّ داخل الحانوت. كانت أمـي تجـأر بالحمـد إلى السماء. وكان أبي يعرض عنها، غير راغب في رؤيتها. كان يـصعد إلى غرفته العلوية، ينظر في ساعته مع كل خطوة، مؤججاً وساوسـه، متهيئاً لهول آخر، مستعداً لمواجهة طوفان لن يتأخر طويلاً.

* * *

وقعنا في شر ورطة عند آل بيانيز. انطلقت أنا وأمي إليهم لعرض تشكيلتنا من المخرمات والغيبور، لاختيار هدية زواج.

كانوا يقيمون في قصر فخم مقابل جسر سولفيرينو. أتذكر الآن ما صعقني وأثار اندهاشي منذ الوهلة الأولى. أوان خزفية بالغة العلو، بالغة الضخامة، بحيث يمكن لأي كان أن يختبئ داخلها. كانوا قد وضعوها في كل مكان. كان هؤلاء القوم أغنياء جداً. أدخلونا إلى الصالون، كانت السيدة الجميلة بيانيز وزوجها في انتظارنا. استقبلانا بلطف وبشاشة. وعلى الفور بسطت أمي بازارها أمامهما... فوق السجاد، وركعت على ركبتيها. فقد كان ذلك أدعى إلى راحتها، وانهمكت في الصراخ حتى بح صوتها، غير مبالية بما يجر عليها ذلك من وبال. كان الزوجان يتجرجران بتثاقل. لن يقررا شيئاً كما يبدو، كانا يتصنعان حركات ومجاملات متكلفة.

كانت السيدة بيانيز، بمئزرها المزين بالشرائط، تسترخي فوق الديوان. أما زوجها فقد دفعني إلى الخلف، مربتاً على كتفي بنحو ودي، كان يتملقني قليلاً، في حين كانت أمي الجاثمة على الأرض تكد بكل ما لديها من طاقة، تفرش تلك النفاية من الدانتيلا، ترفعها وتلوح بها... وفيما هي كذلك أفلتت جديلتها المعقوصة خلف رأسها، ونضح وجهها بالعرق. كان من المنفر النظر إليها. كانت تلهث، مخبلة، ولا تنفك ترفع جوربيها المتهدلين وجديلتها المشعثة، والتي كانت تسقط مراراً فوق عينيها.

اقتربت السيدة بيانيز مني، كانت هي وزوجها يتسليان بمضايقتي، فيما كانت أمي تتكلم دون توقف. ولكن كلامها المعسول كان من دون طائل. كنت سأستمتع داخل بنطالي، ولكنني رأيت السيدة بيانيز تخطف منديلاً، بلمح البرق، وتحشره بين ثدييها. "أهنئك من كل

قلبي! لديك حقاً يا سيدتي صبي لطيف جداًا!" كان ذلك من قبيل التغطية على فعلتها. ثم ما عاد لدى الزوجين رغبة بأي شيء. لملمنا بسرعة صررنا. كانت قطرات كبيرة من العرق تسح على وجه أمي. ولكنها كانت تبتسم مع ذلك. لم تكن تحب إغضاب أحد... "سيكون ذلك في مرة أخرى!... كانت أمي تعتذر بتهذيب فائق، أشعر بالأسف لأنني لم أستطع إغراءكم باختيار أي شيء!...".

في الشارع العام، وأمام مدخل الزقاق سألتني هامسة عما إذا كنت قد رأيت السيدة تخفي المنديل داخل مشد صدرها، فأجبتها، لا.

"سيمرض والدك بسبب ذلك. هذا المنديل لأحد زبائننا، ونحن نعرضه بشرط رده إلى أصحابه إذا لم يبع. إنه من "المخرمات الغاليسيّة"! هو لآل غريغويه! وليس لنا! ولكن تخيل! إذا ما استعدته منها فسوف أفقدها كزبونة!... وكل صديقاتها معها!... يا لها من فضيحة!..."، "كليمانس، لديك أسرار تخفينها، عيناك تفضحانك! أنت خضراء يا تعيستي! ومتشنجة. ستهلكين في جولاتك هذه!...".

كانت تلك أولى الكلمات التي نطق بها والدي لدى وصولنا.

ولكي لا يبعد نظره عن ساعته، فقد علقها في المطبخ، فوق قدر المعكرونة. كان ما يزال ينظر إلى أمي "أنت داكنة الوجه فعلاً يا كليمانس!"، كانت عيناه لا تبارحان الساعة، كي ينتهي من البيض، ومن اليخنة، ومن المعجنات، ومن كل تعب، ومن المستقبل. ما عاد يريد شيئاً منها.

"سأعد الطعام" اقترحت أمي، لم يكن يريد أن تمس شيئاً. ولو أنها لامست زجاجة النبيذ لأثار ذلك اشمئزازه أكثر... "يداك قذرتان! هيا! أنت منهكة القوى!" شرعت حينئذ تعد المائدة، فسقط صحن من يدها. فهاج والدي وماج، وهب إلى النجدة. كانت غرفتنا صغيرة جداً

بحيث كنا نصطدم ببعضنا كيفما تحركنا. ما كان هناك البتة متسع لغضب مثل غضبه. كانت الأطباق تتصادم وتتدافع فوق الطاولة، ودخلت الكراسي في رقصة فالس، وحدثت بلبلة فظيعة. كان أحدهما يصطدم بالآخر، ثم نهضا متخنين بالضربات. تحولنا جميعاً إلى ما يشبه الكراث بالزيت. كانت اللحظة مؤاتية للاعتراف...

"في المحصلة أنت لم تبيعي شيئاً؟ كل هذا العناء ضاع سدى؟ يا صديقتي البائسة!...".

وأطلق تنهيدة حرّى. لقد أخذته الشفقة بها. كان يرى المستقبل مستنقعاً من البراز. لن نخرج منه في يوم من الأيام...

حينئذ، اعترفت له أمي بكل ما جرى دفعة واحدة... وبأن منديلاً قد سرق منا... وبسائر الظروف.

"كيف؟ لم يعد يفهم! ولم تزجري السارق! استسلمت هكذا لينشل منك ثمرة عملنا؟" وضاق عنه جلده حتى كاد يتمزق لفرط احتداده... وتفتقت سترته في كل مكان مطرطقة بصوت مسموع... "هذا فظيع!" كان يطلق زعيقاً حاداً. كانت أمي تنبح مع ذلك بأنواع من الاعتذارات... ولكنه لم يعد يصغي. وأمسك حينئذ سكينه وغرزها بقوة داخل الطبق، فتهشم قعره، وسالت مرقة المعكرونة في كل مكان "لا! لا! لقد فاض بي الكيل!" كان يتحرك هنا وهناك، مرغياً مزبداً، وراح يهز خزانة الأطباق. كما لو أنها شجرة خوخ صغيرة. وما لبث أن هوى جرف من الآنية.

اقتربت السيدة ميهون، بائعة المشدات في الحانوت المقابل، من نوافذنا كي تضحك ملء أشداقها. إنها عدوة مجبولة على عداوتنا. تكرهنا منذ الأزل. وفي الحانوتين اللذين يليان حانوت السيدة ميهون، فتح بائعا الباروكات، اللذان يبيعان الكتب المستعملة، فتحا نافذتيهما

على اتساعهما، ما كانا بحاجة إلى إزعاج نفسيهما، اكتفيا بالاتكاء على إفريز النافذة لكي يستمتعا بالفرجة. ستتلقى أمي وجبة من الضرب والركل، هذا أكيد. أما من جهتي، فلم أكن أفضّل واحداً منهما على الآخر. بصدد الصراخ والغباء، فأنا أجدهما متعادلين... إنها تضرب بنحو أضعف، ولكن أكثر غالباً. ترى، من منهما كنت أفضّل أن يخرَّ صريعاً؟ أعتقد أنه البابا.

لن يتركاني أرى ما سيحدث. "اصعد إلى غرفتك، أيها الصغير القذر... اذهب إلى النوم! واتل صلاتك".

كان يجأر، وينقض على كل ما تقع عليه يده، ويتفجر حمماً. يقذف بأواني المطبخ كالقنابل. لم يبق فوق المسامير أي شيء... جميع الخردوات تحولت إلى قذائف. هذا ينفجر... وهذا ينبجس... وذاك يدوي... ركعت أمي على ركبتيها تلتمس العفو من السماء. فأطاح بالطاولة بركلة واحدة من قدمه، فانقلبت على أمي.

"اهرب يا فرديناند" كان ما يزال لديها الوقت كي تهتف بي. قفزت من مكاني. مررت عبر شلال من الزجاج والأنقاض... اصطدم بالبيانو. وكان مودعاً عندنا كرهن لإحدى الزبونات... لم يعد يعرف نفسه, تراجع على أعقابه. فهدرت ملامس البيانو مدوية... ثم جاء دور أمي... كانت هي التي تتلقى الضربات الآن... كنت أسمعها من غرفتي وهي تعوي:

"أوغست! أوغست! دعني!..." ثم يلي ذلك اختناقات قصيرة.

هبطت ثانية بعض الدرجات لأرى... كان يجرها على امتداد درابزين الدرج. وكانت هي تتشبث به، وتضغط على عنقه. وهذا ما أنقذها. كان هو من تخلص منها... فانقلبت، وهوت على الدرج.

كان جسدها يقفز فوق الدرجات قفزات رخوة. وحين بلغت أسفل الدرج نهضت... فانسحب هو حينئذ، وخرج من المخزن... انطلق إلى الخارج لا يلوي على شيء. أفلحت هي في النهوض على قدميها، ودخلت إلى المطبخ، ملطخة الشعر بالدماء. غسلت شعرها، ثم غرقت في النحيب، تخنقها الغصة... ثم قامت إلى الحطام فكنسته... كان يعود في مثل هذه الحالات متأخراً جداً. وقد ثاب إلى الهدوء والسكينة.

* * *

كانت جدتي تدرك بأنني في حاجة إلى التسلية. وأن بقائي المتواصل في الحانوت ليس ملائماً لصحتي. ولدى سماعها والدي الملتاث يجأر بحماقاته، كانت تشعر بألم يعتصر قلبها. اشترت لي كلباً صغيراً كي أتمكن من اللهو قليلاً فيما كنت أنتظر الزبائن. أردت أن أفعل معه كما يفعل أبي. كنت أضربه ضرباً عنيفاً حينما نكون وحيدين، فكان يمضي عني وهو يئن تحت أحد المقاعد، وينام هناك كي يلتمس الصفح مني. كان يفعل مثلما كنت أفعل بوجه الضبط.

لم يكن ضربه يفرحني، كنت أفضّل أن أعانقه. ثم أنتهي أخيراً بمداعبة شعره بيدي، فكان يتوتر حينئذ. كان يرافقنا إلى كل مكان نذهب إليه.وحتى إلى السينما، في صباح أيام الخميس. كان جدتي تدفع عني أجرة السينما أيضاً. كنا نظل جالسين ثلاث حفلات متتالية، بالأجرة نفسها، فرنك واحد لكل مقعد. صامتين تماماً، دون جملة واحدة، دون موسيقا، دون أن نتلفظ بحرف، سوى خرير الآلة. كنا ننزعج من كل شيء عدا الغرق في النوم والاستغراق في الأحلام. وهو ما كان يحدث في فيلم "رحلة إلى القمر" ما أزال أحفظه عن ظهر قلب.

في أيام الصيف، لم يكن غيرنا، أنا وكارولين في الصالة الكبيرة في كثير من الأحيان. كانت العاملة في نهاية العرض تشير لنا بأن علينا أن نخلي مقاعدنا. كنت أنا من يوقظ الكلب وجدتي... ونسرع من ثم وسط الجمهور، وعبر البوليفارات وازدحام المرور. وفي كل مرة كنا نتأخر في الوصول إلى البيت. كنا نصل لاهثين.

"هل تحب هذا؟" كانت كارولين تسألني، ولم أكن أجيبها بشيء، فأنا لا أحب الأسئلة الشخصية. كان الجيران يزعمون قائلين: "هذا الولد منطو على نفسه".

في أحد أركان "باساجنا"، فيما نحن عائدان، كانت تشتري لي أيضاً من البائعة الجالسة إلى مدفأة قدميها "المغامرات الجميلة المصورة". كانت تخبئها لي داخل سروالها، تحت ثلاث تنورات سميكة. لم يكن والدي يرغب في أن أقرأ مثل هذه الترهات، لأنها تفسد الأولاد حسب زعمه، ولا تهيئهم للحياة، وبأن علي بالأحرى أن أتعلم الألفباء في كتب أكثر جدية.

كنت على أبواب السنة السابعة من عمري. وعما قريب سألتحق بالمدرسة، لا ينبغي للمرء أن يضل الطريق... سيذهب الأطفال الآخرون في الحوانيت المجاورة، عما قريب أيضاً. لقد مضى أوان الهزل. كان أبي يلقي علي مواعظ صغيرة حول الأمور الجادة في الحياة، حينما يعود من تسليم البضاعة.

لم تكن الصفعات كافية مع ذلك.

* * *

لأن أبي كان يتوقع بأنني سأغدو لصاً، من دون أدنى شك، كان يزعق مثل بوق ذي أنبوبين. كنت قد أفرغت محتويات السكرية مع

كلبي توم، ما بعد ظهيرة أحد الأيام، ولم ينس أحد فعلتي قط. كان لي عيب آخر أيضاً ظل يلازمني دوماً، وهو أنني كنت آخر القذرين. لم أكن أنظف مؤخرتي في المرحاض، ما كان لدي الوقت لذلك. كان لي عذري. كنا متعجلين دائماً غاية الاستعجال... فكنت أنظفها دائماً على نحو سيئ. كانت تنتظرني صفعة دوماً، فكنت أسرع كي أتفاداها... لم أكن أغلق باب المرحاض كي أسمع صوت من يناديني. فأتغوط مثل عصفور بين عاصفتين.

كنت أقفز من طابق إلى طابق، لم يكونوا يعثرون علي... وهكذا كنت أحتفظ لأسابيع عدة ببعرة في استي، وأحسب دائماً حساب الرائحة الكريهة المنبعثة مني، فأضطر إلى أن أنأى بنفسي قليلاً عن الناس.

"إنه قذر مثل ستة وثلاثين خنزيراً... ليس لديه أي احترام لنفسه. لن يكسب قوته في يوم من الأيام، وسيطرده كل أرباب العمل!"... كان يرى مستقبلي قاتماً "إنه يفوح بالنتانة! سنحمل عبأه على كاهلنا إلى الأبد".

كان أبي يبتّ في كل الأمور بثقة وجزم. يرى بعيداً. وكان يعزِّز كلامه ببعض المفردات اللاتينية... ولم تكن أمي تعرف كيف تجيبه.

على مسافة قريبة منا في الباساج تقيم عائلة مجلد للكتب، لم يكن ولداها يخرجان من بيتهما بالمرة.

لم تكن الأم، وهي بارونة، وتدعى دوكارافال، لم تكن ترغب على الأخص في أن يتعلم ولداها الكلمات البذيئة. كانا يلعبان معاً طوال العام خلف النوافذ، يضعان أنفيهما في أفواه بعضهما بعضاً، وأياديهما أيضاً.

كانت سحناتهما أشبه بهندباء حقيقية.

كانت أمهما السيدة دوكارفال تذهب مرة واحدة في السنة لزيارة أهلها المقيمين في بيريغورد. وكانت تروي للجميع بأن والديها يستقبلانها في المحطة. مع عربتهم المطهمة، وأربعة خيول تسابق الريح. وأنهم كانوا يجتازون معاً أراضي لا نهاية لها... وفي الطريق إلى القصر كان الفلاحون يهرعون نحو العربة ليركعوا لدى مرورها. هكذا كانت تقول.

وفي إحدى السنوات اصطحبت طفليها الاثنين. وعادت في الشتاء وحدها، متأخرة جداً عما اعتادت عليه سابقاً. وهي ترتدي ثياب الحداد. ما عاد أحد يرى وجهها المغطى بالنقاب. ولم تقدم أي تفسير على الإطلاق. صعدت إلى غرفتها في الطابق العلوي لتنام، ولم تعد تتحدث إلى أحد.

كانت صدمة الانتقال إلى جو آخر عنيفة جداً بالنسبة إلى ولديها اللذين لم يكونا يخرجان قط. ماتا في الهواء الطلق!... وقد جعلت هذه الكارثة جميع سكان الباساج يمعنون التفكير بأسبابها ونتائجها. لم يعد أحد يتحدث إلا عن الأوكسجين في شارع تيريز الذي يجتاز ساحة غيون، طوال أكثر من شهر...

***

أتيحت لنا نحن أيضاً فرصة الذهاب إلى الريف مراراً. لم يكن الخال إدوارد يرغب بأكثر من أن يدخل السرور إلى قلوبنا. كان يقترح علينا القيام بنزهات، ولكن والدي كان يرفض بإصرار، ويجد دوماً ذرائع للتهرب. ما كان يريد أن يصبح مديناً لأحد. كان هذا مبدؤه.

كان الخال إدوارد رجلاً عصرياً، ناجحاً جداً في شؤون الميكانيك، كان صناعاً ماهراً في الأساس، يصنع بأصابعه العشرة كل

ما يرغب به. لم يكن مبذراً متلافاً. كان يرغب في أن يجرنا معه أينما ذهب، غير أن أصغر نزهة كانت تكلف مع ذلك مبلغاً طائلاً بالضرورة... "مئة قرش بكاملها، تقول أمي، تذوب حالما نصبح خارج البيت!"

غير أن حكاية آل كارفال الحزينة تركت أثراً عميقاً في الباساج بحيث توجب اتخاذ تدابير عاجلة. اكتشف قاطنو الباساج فجأة أن الجميع كانوا شاحبين ممتقعين. وجرى تبادل النصائح بين الحوانيت والمخازن. ما عاد أحد يفكر إلا بالمكروبات وبالكوارث الوبيلة للعدوى. كان الأطفال يرغبون بالخروج من عزلة الأسر. كان عليهم ابتلاع زيت كبد الحوت المدعم على نحو مضاعف، من القوارير أو من الخزانات الكبيرة. غير أن ذلك لم يعد بنفع كبير، بنحو ظاهر. كان الزيت يثير تجشؤهم. وغدت سحناتهم بسببه أشد اخضراراً. لقد أضعف هذا الزيت شهيتهم للطعام، لأنهم لم يكونوا يخرجون إلى الهواء الطلق.

لابد من الاعتراف بأن الباساج كان بؤرة للعفونة على نحو لا يصدق. لقد جرى بناؤه كي يهلك الناس فيه، ببطء ولكن على نحو حتمي، بين بول الكلاب الصغيرة، وروث الحيوانات، والبصاق، والغاز المتسرب. كان أكثر عفونة من أي سجن. فمن تحت زجاج النوافذ الصغيرة، في الأسفل كانت الشمس تصل باهتة حتى لتنكسف أمام ضوء شمعة, بدأ الجميع يشعرون بالاختناق، وغدا الباساج واعياً باختناقه المشين... ما عاد أحد يتحدث إلا عن الريف، عن الجبال والوديان، والأعاجيب.

تطوع الخال إدوارد للخروج بنا في يوم أحد، والتنزه برفقته حتى حدود فونتين بلو. واستسلم والدي للاقتناع أخيراً، وبادر إلى تهيئة ثيابنا ومؤونة الرحلة.

كانت دراجة إدوارد الثلاثية العجلات، وهـي أول دراجـة اقتناهـا، ذات سيلندر واحد، قصيرة وسمينة مثل مـدفع مـن مـدافع الحـصار، وفي مقدمتها نصف عربة من عربات الجياد القديمة.

نهضنا في صـباح يـوم الأحـد ذاك، أبكـر مـن المعتـاد، وغـسلت مؤخرتي وأسبغت غسلها. انتظرنـا سـاعة في المكـان المتفـق عليـه في شارعِ غيونِ حتى تصل الدراجة العتيدة. لم يكـن الانطـلاق إلى نزهتنـا عملاً سهلاً. فقد شرع ستة منا على الأقل في دفع الآلة بدءاً مـن جـسر بينو. وبعد ملء الخزان بالوقود، صار يتسرب من المضخة ويـسيل في كل مكان. كان المقود يطلق تجشؤات قوية، وانبعثت فرقعات فظيعـة. عزونا ذلك إلى عارضة العربة الأمامية، وإلى سير نقل الحركـة. تعلقنـا فوق العربة ثلاثة أو ستة... وأخيراً حدثت فرقعة مدوية!... ها قـد بـدأ المحـرك يـدور. ولكـن النـار اشـتعلت فيـه مـرتين... فـسارعنا إلى إطفائها... وقال خالي: "هيا أيتها السيدات، اصعدن الآن. فقـد سـخن المحرك حسبما أعتقد، يمكننا الإنطلاق..." كانت الشجاعة تكمـن في البقاء فوق العربة. اندفع حشد المتنزهين، وثبتونا أنا وجـدتي كـارولين وأمي، أوثقونا إلى المقعد، وحزمونا بطريقـة غـدونا معهـا مـشدودين داخلِ أطمارنا ووسط أعتدة الدراجة بحيث أن لساني وحده كـان حـراً طليقاً. وقبل انطلاقنا تلقيـت صـفعة صـغيرة قويـة مـع ذلـك حـتى لا يساورني الاعتقاد بأن كل شيء مباح.

شـبت الدراجـة الثلاثيـة في البدايـة كالحـصان ثم هـوت علـى عجلاتها... وأنشأت ترمح مرتجـة رجـتين، ثـلاث رجـات... ثم دوت فرقعات مخيفة، وحازوقات، فتراجع الحشد مذعوراً. وخيل للجميع بأن كل شيء قد انتهى... ولكن العربة ما لبثت أن تسلقت شارع ريومور مهتزة اهتزازات عنيفة... كان أبي قد اسـتأجر دراجـة هوائيـة... اغتـنم

فرصة الصعود كي يدفع بدراجته عربتنا الآلية من الخلف... كان أقل توقف يعني تعطلاً نهائياً... كان خليقاً أن يدفعنا حتى النهاية. وعند حديقة الكنيسة توقفنا قليلاً، ثم انطلقنا بضراوة شديدة. كان خالي يسكب الشحم فوق الدواسة، وعبر قضبان المدوس، وفوق السلسلة النقالة، وعلى جميع قطع الدراجة. وكان الشحم ينعصر كما في سفينة شحن. وفي داخل العربة المقفلة كانت الأزمة قد بلغت ذروتها. فقد اضطربت أمعاء أمي وألمَّ بها مغص شديد. وإذا ما وافاها الإسهال، إذا ما توقفنا فربما تكون نهاية المحرك... أو أنه سيختنق، وسيخيب رجاؤنا!... قاومت أمي ببسالة. كان خالي جاثماً فوق جحيمه على غرار غواص كثيف الشعر. كان محاطاً بألف شرارة، لا يفتأ يناشدنا من فوق مقوده بأن نتشبث بالأمتعة. كان والدي يتبعنا، ويهرع لنجدتنا، ملتقطاً أولاً بأول كل ما يفلت من الدراجة. قطعاً صغيرة من المقود، مسامير كبيرة، وصلات صغيرة، قطعاً معدنية كبيرة. كنا نسمعه يشتم مجدفاً مطلقاً صيحات أعلى من فرقعات الدراجة.

كانت المصيبة بانتظارنا حين بلغنا الشوارع المبلطة... فقد أطاحت بلاطات شارع كلينيانكور بالسلاسل الثلاث... وحطمت مطبات شارع فانف النوابض الأمامية. فقدنا المصابيح والبوق الذي يشبه فك الأفعى لدى عبورنا بالقنوات الصغيرة المحفورة في شارع فيلليت. وحين بلغنا بيكبوس والطريق العريض، ولفرط ما فقدنا من الأشياء فإن والدي أهملها وأعرض عن التقاطها...

كنت ما أزال أسمعه يجدف وراءنا "بأنها نهاية الكون! الليل سيداهمنا قريباً!".

كان كلبي توم يسبق مغامرتنا. كان ثقب عضوه يكشف عن آثار خطواته. فقد أتيح له الوقت ليبول في كل مكان. لم يكن الخال إدوارد

حاذقاً فحسب، كان ملماً إلماماً لا حد له بكل أنواع الرأب والإصلاح. وفي نهاية نزهتنا كان هو الذي عالج كل شيء بيديه. كان الميكانيك طوع أنامله، كان يلعب كالمشعوذ أثناء الاهتزازات بساعد المقود، ويلهو بتسربات الوقود مثلما بمكبس المضخة. كان من المدهش رؤيته وهو يقوم بحركات بهلوانية. ومع ذلك فقد كان كل شيء يفلت في لحظة من اللحظات عبر الطريق... وحينئذ ينحرف مركبنا، وينفلش مقودنا، ونمضي جميعاً إلى أول حفرة تصادفنا. فينبعج المركب، وينضح بالوقود، ويطلق شخيراً عظيماً في قاع الحفرة المملوءة بالأقذار والوحول. كان والدي يلحق بنا وهو يجأر جئيراً حاداً. وحين لفظت مركبتنا العتيقة آخر حشرجة، بوووها!... وانتهى حينئذ كل شيء. أطلق والدي رشقة من الشتائم!

كنا قد لوثنا البرية بالشحم الأسود المقزز، ولكننا خرجنا سالمين من النعش الذي كان يضمنا، وطرحنا في السين كل شيء ليصل إلى أزنيير، مستقره الأخير. كان والدي في شغل شاغل، حتى أن ربلتي ساقيه برزتا بقوة تحت جوارب الصوف المقلمة... كان علينا تبريد المحرك، استخدمنا من أجل ذلك دلواً صغيراً من الكتان قابلاً للتمدد. كنا ننشل به الماء من النبع. كانت دراجتنا الثلاثية العجلات قد خرجت من المصنع كسيارة للفصول الأربعة. وحين كنا نقوم بدفعها تمزقت ثيابنا لكثرة مافيها من كلاليب وقطع مدببة تبرز من كل اتجاه...

عند حاجز النهر، دخل خالي ووالدي إلى الحانة وأفرغا في جوفهما زجاجة خمر من الصنف الممتاز. أما أنا والسيدات فتهالكنا مدمدمين فوق مقعد مقابل الحانة، بانتظار كؤوس الليمونادة. كان الجميع منهكين. كنت أنا من حصد النتائج في النهاية. كانت نذر العاصفة تلوح للجميع، فقد كان أوغست مصمماً على أن يفجر نوبة

غضبه، وراح يبحث عن ذريعة صغيرة. كان مبهور الأنفاس، ينخر مثل كلب بلدوغ. ما كان هناك أحد غيري يمكن أن يستخدمه ذريعة. لم يكن في طوقه أن يهاجم الآخرين لأنهم سيتصدون له بعنف. لقد شرب من عرق البيرنو القوي. وليس ذلك من عادته... كان هذا غريباً غير مألوف... وحين رآني أشد حزام بنطالي توجّه إلي بتأديبه الصارم، فاعترض خالي طريقه، وحال بيني وبينه. وهذا ما هيج سخطه أكثر.

فيما نحن عائدون، أتيحت له الفرصة، وانهال علي بأقسى الصفعات. كان هناك دوماً عند الحاجز، جمع غفير من الناس، فتعمدت أن أطلق عقيرتي بالنواح، قاصداً أن أزعجه ما وسعني ذلك. كنت أؤلب الناس عليه، وأتدحرج تحت الطاولات. حتى جعلته يشعر بخجل فظيع، وعلاه الاحمرار من قمة رأسه إلى أخمص قدميه. كان لايحب لفت الأنظار إليه، ولكنني كنت عازماً على أن أجعله ينفجر غيظاً. ثم انطلقنا عائدين نجرجر أذيال الخيبة متكومين فوق الآلة الوحشية.

غالباً ماكانت تنشب شجارات كثيرة لدى عودتنا من النزهات، بحيث كان خالي يستسلم ويتراجع.

"بالنسبة إلى الصغير. كان خالي يقول، لاشك أن الهواء الطلق مفيد له بالتأكيد. ولكن سيارتنا تثير أعصابه!...".

* * *

الآنسة ميهون، في الحانوت المقابل بالضبط، كانت خبيثة شرسة الطباع على نحو لا يُصدَّق. كانت تبحث لنا عن حجج وأعذار، كي تكيد لنا أعظم الكيد، لما في طبعها من حسد. كانت تجارتها بمشدات الصدر قد لاقت رواجاً، مع ذلك. كانت تبيع منها بكثرة. فلكونها عجوزاً، اكتسبت أيضاً منذ أربعين عاماً زبونات مخلصات لها غاية الإخلاص، وأمهات لفتيات يافعات، فتيات ما كن يكشفن نحورهن لأي كان.

كان توم يسمم الأجواء. بسبب العادة التي درج عليها في التبول على واجهات الحوانيت... لم يكن توم وحده يفعل ذلك، كانت جميع الكلاب الصغيرة في الجوار تبول أكثر من توم بكثير، فقد كان الباساج مرتع لهوها ونزهاتها.

اجتازت ميهون الشارع عن قصد، قادمة نحونا لتتحدى أمي، وتفجر لها فضيحة صاخبة. وصاحت بملء صوتها بأن من الدناءة أن نسلك هذا السلوك المشين بتلويث واجهتها الزجاجية من قبل كلبنا الصغير الأجرب... كانت أصداء كلماتها تتردد بقوة في جنبات الحانوت، وتصل إلى النافذة الزجاجية في أعلى البناء. وكان المارّون يأخذون جانب الدفاع عنا. وثارجدل صاخب مشؤوم. ورغم أن جدتي متزنة في كلامها فقد ردت عليها بقسوة وعنف.

حينما عاد والدي من مكتبه، وعلم بما جرى تملكه غضب مسعور، لم نشهده قط من قبل. كان يدحرج حدقتيه المخيفتين جداً باتجاه واجهة العجوز الشمطاء، حتى لقد ساورنا الخوف من أن يخنقها. وقفنا جميعاً في وجهه، تشبثنا بمعطفه... ولكنه غدا قوياً مثل دراجة ثلاثية العجلات، كان يجرجرنا داخل المخزن... ويزأر زئيراً تتردد أصداؤه في الطابق بأنه سيمزق بائعة المشدات الجهنمية تلك... "ما كان ينبغي أن أخبرك بذلك!" كانت أمي تقول له منتحبة. ثم انتهت الأمور على خير.

* * *

خلال الأسابيع التي انقضت على ذلك، شعرت بأنني أكثر هدوءاً واطمئناناً. كان والدي منشغلاً أيما انشغال. فما أن يجد نفسه حراً للحظة من الزمن حتى ينظر بعين الحسد صوب ميهون. وكانت هي من جهتها، تفعل الشيء نفسه. كانا يراقبان بعضهما، من خلف

الستائر من طابق إلى طابق. وحين كان يعود من المكتب، يتساءل عما كان بإمكانها أن تفعل. لقد وجدا نفسيهما وجهاً لوجه. فحين تكون ميهون في مطبخها، في الطابق الأول، كان هو يتوارى في ركن من مطبخنا، مدمدماً بتهديدات مريعة...

"انظري! لن تتسمم أبداً تلك الجيفة المنتنة!... لن تفطس!... لن تبتلع طقم أسنانها! هيا! إنها ترتاب بالقدح المكسور!... أيتها العفونة!...".لم يكن يكف عن الشخوص ببصره إليها. حتى لقد أهمل كلياً تهذيب غرائزي... وقد أراحني ذلك على أي حال.

لم يكن الجيران يجرؤون كثيراً على تشويه سمعتهم بالتبول في الباساج. كانت الكلاب تبول في كل مكان، وعلى واجهاتهم أيضاً، وليس على واجهة ميهون بوجه خاص. كان عبثاً رش الكبريت، فقد كان باساج بيريزيناس نوعاً من كهريز، كان البول يجتذب المتبولين، كان يبول علينا كل من شاء ذلك، وحتى الأشخاص الراشدون. وخاصة حين تمطر السماء فوق الشارع. كانوا حينئذ يدخلون الباساج من أجل ذلك. وفي القناة الصغيرة المتصلة بمعبر بريمورغوي كانوا يخرون بكثرة. سيكون من العبث ربما أن نشكو من ذلك، فقد غدا زبائننا هم المتبولون غالباً، مع كلابهم أو من دونها.

أخيراً لم يعد أبي يكتفي بالسخط على ميهون، فصار يصب جام غضبه على جدتي:

- هذه العجوز القذرة، انظري، مع كلبها النتن، سأخبرك بما تخطط له!... أنت لا تعرفين!... إنها ماكرة!... إنها خؤون غدارة!... متواطئة مع ميهون! كلاهما تكيدان لتوجيه ضربة غادرة لنا!... ليس منذ الأمس! آه! يا للجيفتين القذرتين!... لماذا؟ أنت تسألينني أيضاً؟ لكي تخرجاني عن طوري! هوذا! هوذا كل شيء!...

- ولكن يا أوغستي، هيا، أؤكد لك!... أنت تختلق أفكاراً، تجعل من الحبة قبة!...

- أفكار، أنا؟ قولي إذن بنحو مباشر أنني أخرّف!... أغربي عني! أفكار! آه! يا كليمانس! عجباً! أنت عصية على الإصلاح! الحياة تمضي وأنت لا تتعلمين شيئاً! إنهما تعذباننا! إنهما تدوساننا! تهزأان بنا! تسربلاننا بالعار! وماذا لديك لتجيبيني؟ أنني أبالغ!... لقد طفح الكيل!

وأطلق فجأة زفرات عميقة. كان دوره الآن.

* * *

لم يكن غيرنا في باساج بيريزيناس من يمتلك طاولة بقائمة واحدة، وآنية زجاجية ومقاعد صغيرة، وكراسي مضلعة من طراز لويس السادس عشر. انحاز منافسونا العاملون في الرتق واللفق إلى صف ميهون. كان علينا أن نتوقع كل شيء منهم. لم يعد والدي يعرف طعم النوم بسبب ذلك. كان الكابوس الذي يجثم على صدره هو تنظيف البقعة المربعة الواقعة أمام حانوتنا، والبلاطات التي كان ينبغي أن يغسلها كل صباح قبل ذهابه إلى المكتب.

كان يخرج بسطله ومكنسته، وممسحته، بالإضافة إلى جاروفه الصغير الذي يستخدمه لإزالة أكوام البراز، كان يزلقه تحتها، وينتزعها مع نشارة الخشب. ذلكم أسوأ إذلال لرجل بمستوى تثقيفه. براز! كان يتجمع منه المزيد دائماً ولاسيما أمام حانوتنا، بالطول مثلما بالعرض. كانت تلك مؤامرة بالتأكيد.

كانت ميهون، من نافذتها، في الطابق الأول تضحك ملء شدقيها وهي ترى والدي يصارع وسط أكوام السلح والروث والبراز، كانت

تطفح بالسرور طيلة النهار. أما الجيران فكانوا يهرعون لعد أكوام البعر التي خلّفها البشر والدواب.

كانوا يتراهنون فيما بينهم، بأنه لن يتمكن من رفع كل تلك الأكوام.

أما هو فكان يتعجل ما وسعه ذلك. ويعود بسرعة كي يرتدي قبعته وربطة عنقه. كان عليه أن يكون قبل الآخرين في مكتب التأمين من أجل فتح البريد.

كان البارون ميفيز، المدير العام، يعتمد عليه اعتماداً كلياً.

* * *

في تلك الفترة حدثت المأساة في بيت آل كورتيلين، من ساكني الباساج. مأساة الأهواء المشبوبة، نشرتها جميع الصحف.وخلال ثمانية أيام تقاطرت حشود غفيرة، مدمدمة، مجترة تفاصيل ما حدث، باصقة أمام حانوتهم.

غالباً جداً ما كنت أرى السيدة كورتيلين. كانت أمي تزين لها صداراتها الإيرلندية وشرائط التخريم. أتذكر جيداً أهدابها الطويلة وعينيها المفعمتين بالعذوبة. ونظراتها الساحرة التي كانت ترمقني بها أنا، الطفل. كنت أرتعش غالباً بسببها.

خلال عملية القياس، كانت تكشف عن أكتافها ونحرها، وحين تمضي إلى بيتها، لم أكن أفوّت الفرصة أبداً، كنت أقفز إلى الحمام في الطابق الثالث، وأتلذذ بالتهام عريها، ثم أهبط الدرج بعيون متهجة.

داخل منزلهم كانت تنشب دائماً مشاحنات صاخبة. كان ذلك

بسبب الغيرة. لم يكن زوجها يريد لها أن تخرج من البيت. كان هو من يخرج دائماً. كان ضابطاً قديماً، أسمر صغيراً غضوباً. كانا يعملان في تجارة الكاوتشوك في الحانوت 147، وفي الأنابيب المطاطية والآلات، والمواد الأخرى.

كان الجميع يرددون في الباساج، بأنها كانت أجمل من أن تدير مثل هذا الحانوت. وذات يوم عاد غيورها فجأة، فوجد جميلته في الطابق الأول تتحدث مع سيدين. وقد سبب له ذلك صدمة عنيفة إلى حد أنه سحب مسدسه وأطلق النار عليها أولاً ثم على نفسه بعد ذلك، وضع المسدس في فمه وأطلق رصاصة واحدة. ومات الاثنان كل منهما بين ذراعي الآخر.

لم يكن قد غاب عن الحانوت أكثر من ربع ساعة.

* * *

كان لدى والدي مسدس من النوع المرخص، يخبئه في درج طاولته الليلية. كان ذلك المسدس أشبه بمدفع في ضخامته. وقد أعاده الآن إلى الخدمة.

كان من الممكن لدراما آل كورتيلين أن تقدم لوالدي فرصة لهياج الأعصاب، وأسباباً لأقذع الشتائم، ولكنها خلافاً لذلك، جعلته ينغلق على نفسه. وما عاد يكلمنا تقريباً.

لم يكن البراز قد نقص فوق بلاط مدخلنا، وأمام بابنا. كان كل هؤلاء الذين يمرون يخلّفون الكثير منه ومن البصاق المنتشر هنا وهناك بحيث كان البلاط يغدو دبقاً. كان والدي ينظف كل شيء، دون أن ينبس بكلمة. لقد طرأت تغييرات على عاداته بحيث أن أمي بدأت تراقبه حين كان يغلق على نفسه باب الغرفة، ويظل هناك ساعات

بكاملها. أهمل تسليم التوصيات، ولم يعد يرسم أبداً. كانت تنظر إليه من ثقب المفتاح، فيما هو يمسك المسدس بيده، ويدير طاحونته، فكنا نسمع صوت "كلوك! كلوك!"... كان يتدرب عليه كما يبدو.

ذات يوم، خرج وحده من البيت، وحين عاد كان معه رصاصات. علبة بكاملها. فتحها أمامنا، كي نراها بوضوح. لم يقل كلمة واحدة. وضعها إلى جانب طبق المعكرونة. وحينئذ ركعت أمي على ركبتيها وحبت نحوه، وقد تملكها الرعب، وتوسلت إليه أن يرمي المسدس في القمامة. لم يأبه لتوسلاتها أبداً، كان عنيداً، حتى أنه لم يجبها، وتخلص منها بعنف. شرب وحده ليتراً كاملاً من النبيذ الأحمر. لم يكن يريد أن يأكل. وحين ضايقته أمي بإلحاحها دفعها بعنف، فاصطدمت بخزانة الحائط، وانسحب إلى القبو، وأغلق بابه عليه.

سمعناه يطلق النار: بنغ! بنغ! بنغ! كان يطلق على مهل. كان الرصاص يلعلع، ويخلف صدىً هائلاً. لا شك أنه كان يطلق على البراميل الفارغة. كانت أمي تصرخ متوسلة إليه، حتى بح صوتها من الصراخ أمام شقوق الباب.

- أوغست! أوغست! أرجوك! فكر بالصغير، فكر بي! ناد على أبيك يا فرديناند.

- بابا! بابا! رحت أعوي بدوري.

سألت نفسي، ترى منذا الذي كان سيقتله؟ ميهون، جدتي كارولين، أم الاثنتين معاً، كما لدى آل كورتيلين؟ سيكون من الضروري أن يجدهما سوياً؟

بنغ! بنغ! بنغ! لم يكن يتوقف على الإطلاق... وهرع الجيران، وهم يظنون بأن هناك مجزرة.

صعد أخيراً. ولفرط ما أطلق الرصاص من مسدسه، فقد نفد الرصاص من جعبته... وحين رفع رتاج الباب كان يرين على وجهه شحوب أشبه بشحوب الأموات. أحطنا به من كل جانب، ونحن نسنده. ألقى نفسه فوق كنبة من طراز لويس الرابع عشر وسط الحانوت. كنا نكلمه برفق وهدوء. وكان الدخان ما يزال ينبعث من مسدسه المتدلي من يده.

حين سمعت السيدة ميهون صوت تلك القذائف أفلتت معدتها في تنانيرها... عبرت الشارع كي تستطلع ما يحدث. وهناك وسط حشد الناس زعقت بها أمي بكل ما خطر ببالها. غير أنها لم تجرؤ على الرد.

"هيا ادخلي! تعالي لتري بعينيك! انظري يا سيدتي! أية حالة أوصلته إليها! رجل شريف! أب لعائلة! ألا تخجلين إذاً! آه! أنت امرأة حقيرة"!...

كان الفزع قد تولى ميهون، فولت مسرعة إلى بيتها. وشيعها الجيران بنظرات شزراء، وشدوا من أزر أبي "لدي إحساس بالوضع!" كان السيد فيزيو يلوك كلماته بهدوء. كان بائعاً للغلايين. خدم في البحرية سبع سنوات. كان يهدئ من روع أبي.

لفّت أمي السلاح بصحائف سميكة ثم بشال هندي.

صعد أبي لينام، وقامت أمي بحجامته. لم تفارقه الرعدة طوال ساعتين على الأقل.

"تعال يا صغيري!... تعال!" قالت لي أمي على انفراد.

كان الوقت متأخراً، عدونا عبر شارع بيراميد حتى جسر رويال... تلفتنا يمنة ويسرة لنرى إن كان أحد يراقبنا، ثم ألقينا بالسلاح وسط الماء.

عدنا بسرعة أيضاً. وقلنا لوالدي بأننا أوصلنا الجدة كارولين إلى بيتها.

في صباح الغد شعر أبي بآلام شديدة في ظهره. كان يجد مشقة بالغة في النهوض. وخلال ثمانية أيام على الأقل كانت أمي هي التي تنظف البلاطات أمام حانوتنا.

حين أعلن عن افتتاح المعرض أبدت جدتي ارتيابها الشديد. فالمعرض السابق الذي افتتح عام 1882 لم يتمخض عن شيء ذي قيمة، اللهم إلا بوار التجارة الصغيرة. كما أغرى الحمقى بإنفاق نقودهم شطر بطر. ولم يبق من الضجيج الهائل الذي أثاره، ومن القلقلة، ومظاهر العظمة، سوى قطعتين أو ثلاث قطع من الأرض العراء، وأكوام من خثارة الجص مثيرة للتقزز الشديد، لم يرغب أحد بعد عشرين عاماً في رفعها من مكانها... من دون أن نذكر وباءين إثنين جلبهما الهنود الأمريكيون، والهمج، والزرق، والصفر، والكستنائيون معهم وتركوها لنا.

ما من ريب في أن المعرض الجديد سيكون أيضاً أسوأ بكثير. ستنتشر بالتأكيد جائحة الكوليرا. كانت جدتي تؤكد ذلك.

قبل المعرض، كان الزبائن يجمعون توفيراتهم، ويحشون جيوبهم بالنقود، ويتسلحون بألف بهرجة وبهرجة. كانوا ينتظرون الافتتاح. يالهم من طغمة قذرة من الأوغاد المدمدمين، أما أقراط الماما فلم تغادر المونت دي بيتيه.

"إن كان المقصود إخراج الفلاحين من قراهم، فما علينا سوى أن نهيئ لهم حفلات راقصة في ميدان تروكاديرو!... إنه واسع بما يكفي للجميع. ما من حاجة في أن تشق المدينة بطنها من الأعلى إلى الأسفل، وأن ينسد مجرى السين!... ليس هذا سبباً للتبذير، أم لأن الناس لم يعودوا يجدون تسلية! ولكن لا."

على هذا النحو كانت جدتي كارولين تعلل الأمور. وحالما خرجت قدح أبي زناد فكره، وطفق يتساءل، ترى ما الذي كانت تبتغيه بهذا الكلام اللاذع.

كان يكتشف في كلامها معنى عميقاً... تلميحات شخصية... أنواعاً من التهديد المبطن... وكان يتخذ على الفور موقف الدفاع...

"أنا أمنعك من أن تتحدثي معها في شؤوني الخاصة على الأقل!... المعرض؟ هل تريدين يا كليمانس أن أقول لك ذلك؟ إنه ذريعة! ما تريده أمك؟ هل ترغبين في معرفته؟ إيه حسناً، لقد أحسست به على الفور. إنها تريد طلاقنا!... هوذا ما تريده"!...

من بعيد، في زاوية الحجرة كان يشير إلي، أنا الجاحد العاق! الانتهازي الصغير الخبيث... الذي يترزق على حساب تضحياته... أنا... وبرازي على مؤخرتي... ودماملي... وحذائي الذي لا يرتوي ظمؤه للترقيع... كنت هناك... كنت معنياً بالنتائج. أنا، تيس المحرقة في جميع الخيبات...

-آه! تعساً لك، تعساً ألف مرة. لو لم يكن هذا الصغير موجوداً! آه! ماذا تقول؟ الطلاق! أفٍ لك! آه! يمكنني أن أؤكد لك بأن الطلاق كان ربما سيتم منذ زمن طويل! وليس الساعة! أنت تسمعني! على الفور. طز إذن! لو لم يكن هذا النذل الصغير موجوداً –سوف لن تلح أمي كثيراً- يمكنك أن تصدقني! طلاق! آه! طلاق!...

كان يتقبض، ويتشنج مرتعشاً، قد تلبسه الشيطان، كما في السينما. ولكنه شرع يقسم أغلظ الأيمان.

- آه! أقسم بألف رعد مجلجل! الحرية! آه! التفاني؟ نعم! نكران الذات؟ نعم! الحرمان؟ آه! آه! كل شيء! ومرة أخرى. والمزيد دوماً من أجل هذا الملوث بالخراء! آه! آه! الحرية! الحرية!...

كان محتجباً خلف مزلاق الباب، وطفق يدق صدره دقات كتيمة عنيفة، فيما هو يصعد الدرج. وكانت أمي تختلج كأنما غشيتها غاشية الموت. بسبب كلمة وحيدة "طلاق".

- ولكنني أعمل كل ما في وسعي يا أوغست! ولكنك تعلم هذا جيداً! إنني أبذل قصارى جهدي! أزحف على أربعة، أزحف على عشرة، أنت ترى ذلك بعينيك! ستنفرج أمورنا! أقسم لك. أتوسل إليك. ذات يوم، سنذوق طعم السعادة نحن الثلاثة جميعاً.

- وأنا أيضاً، أعمل كل ما في وسعي! هيه! آه! أجابها من أعلى الدرج. هذا شيء لا يطاق!...

استسلمت أمي لحزنها، ثم أطلقت وابلاً من جديد.

- سنربيه تربية صالحة! سترى! أقسم لك يا أوغست! هدّئ أعصابك! سيدرك الأمور فيما بعد!... سيبذل كل جهد ممكن أيضاً... سيكون مثلنا! سيكون مثلك! سترى! سيكون مثلنا!... أليس هو صغيري؟...

* * *

انطلقنا من جديد لتسليم البضاعة لأصحابها، ورأينا في إحدى زوايا الكونكورد بوابة المعرض قد شيّدت، مثل نصب تذكاري مهيب. كانت في غاية الدقة والإتقان مزينة بالنقوش والزخارف من أعلاها إلى أسفلها، حتى لتبدو مثل جبل مكلل بثوب زفاف. وفي كل مرة كنا نمر بها كنا نرى أعمال الإنشاء الجديدة.

نزعوا أخيراً الصقالات الخشبية، وغدا كل شيء مهيئاً لاستقبال الزائرين... لم يكن أبي مسروراً في البداية، ثم ذهب مع ذلك وحده في أحد أيام السبت.

ما أدهش الجميع، هو أن أبي كان مسحوراً بزيارته تلك إلى المعرض... سعيداً منشرحاً، مثل طفل زارته الجنيات.

جميع الجيران في الباساج، ما عدا ميهون بالطبع، جاؤوا إليه مسرعين كي يحدثهم عما رآه. وحتى الساعة العاشرة ليلاً كان ما يزال جالساً في المخزن يفتن ألبابهم. بحديثه. ففي أقل من ساعة قضاها داخل محيط المعرض، كان قد رأى كل شيء، وزار كل شيء، وفهم كل شيء، وأكثر من ذلك أيضاً، بدءاً من أحواض الثعابين السوداء وحتى صالات عرض الآلات. من القطب الشمالي وحتى أكلة لحوم البشر.

أقر فيزيو، النوتي الذي كان قد طوّف في بلدان كثيرة، بأن هذا المعرض رائع كل الروعة، وأنه ما كان ليصدق أذنيه... رغم أنه كان خبيراً بالأمور. أما خالي رودولف الذي عمل منذ الافتتاح في أعمال الدعاية، مرتدياً ثياب شاعر تروفيري، فلم يكن لديه شيء ليرويه للآخرين. كان هو أيضاً يجلس مع الآخرين، بثيابه المبهرجة، يماحك دونما سبب. كان يتسلى بصنع قدور من الورق، وينتظر تقديم الحساء.

كانت السيدة ميهون تقف خلف نافذتها بالغة القلق لرؤية كل أولئك الجيران يجتمعون عندنا على هذه الصورة. كانت تتساءل عما إذا كان ذلك سينتهي ذات يوم بمكيدة. أما جدتي فكانت مشمئزة من هذا الهياج الذي تملك والدي. وطوال ثمانية أيام لم تأت إلينا أبداً. وفي كل مساء كان والدي يبدأ روايته من جديد، ويزينها بأحداث جديدة. وقد حصل خالي رودولف على بطاقة دعوة مجانية فانطلقنا ثلاثتنا معاً في يوم أحد، وألقينا بأنفسنا وسط الحشد.

في ساحة الكونكورد وأمام البوابة الكبيرة دفعتنا الحشود بقوة، وقذفتنا إلى الداخل. وجدنا أنفسنا في حال من الذهول في جناح الآلات. كارثة حقيقية معلقة داخل كاتدرائية شفافة مبنية من خزائن زجاجية تناطح السحاب. لم نعد نسمع صوت أبي لفرط ما كان الضجيج عالياً مصماً. كان يتكلم مع ذلك بأعلى صوته. كان البخار ينبجس طافراً من جميع حواف الصالة. كان هناك قدور هائلة تشمخ مثل ثلاثة مبانٍ، وروافع فولاذية متوهجة تندفع نحونا بحمولتها من قاع الجحيم. ما عدنا نتمالك أنفسنا أمامها وساورنا الخوف، فخرجنا من جناح الآلات، ومررنا أمام عجلة هائلة. ولكننا فضلنا ضفاف السين.

ما أثار فضولنا هو تلك المصطبة الشاسعة الأبعاد والتي بدت لنا مدهشة وقد رصف فوقها صفان ضخمان من الكاتو والحلوى بالكريما الشهية. شرفات مكتظة تكدس فيها الغجر ملتفين بالأعلام وسط الموسيقا، وملايين القناديل الصغيرة المضاءة في عز الظهيرة. كان ذلك تبذيراً. لقد كانت جدتي على حق. سرنا خلف بعضنا مسرعين دوماً، بعضنا معلّق بالبعض الآخر. كنت أجد نفسي وقد ارتفعت رجلاي عن الأرض. كان الغبار كثيفاً بحيث لم أعد أرى اتجاه سيرنا. كنت أبتلع سحباً منه وأبصقها من جديد كتلاً أشبه بالإسمنت... وصلنا أخيراً إلى "القطب الشمالي"... كان هناك مستكشف بالغ اللطف، يشرح للجمهور عن محتويات الجناح، ولكن على نحو أشبه بالمسارة، خافت الصوت، متدثراً بفرائه، بحيث لم نسمع أي شيء من كلامه تقريباً. ولكن والدي أوضح لنا الأمور. ظهرت الفقمات حينئذ كي تأكل شيئاً، ثم شرعت تبعق بأصوات عالية لأنها لم تجد ما تأكله. انسحبنا مرة أخرى.

في الجناح الكبير المخصص لأنواع الشراب شاهدنا من بعيد جداً أكواب عصير البرتقال متقاطرة خلف بعضها. كانت الأكواب المجانية مصطفة على امتداد مدرج صغير نقال، وكان يفصلنا عنها جمهور هائج مندفع نحوها. كانت حلوقنا قد جفت وبلغ العطش مداه. ولو أننا غامرنا بالتوجه نحوها فلن نجد منها كوباً واحداً. انسللنا من باب آخر... وذهبنا إلى جناح سكان المستعمرات الأصليين...

لم نر سوى واحد منهم خلف حاجز شبكي، كان يتناول بيضة برشت. لم ينظر إلينا نظرة واحدة، كان يولينا ظهره. هاهنا حيث يسود الهدوء عاد أبي إلى الثرثرة بكثير من الحماس. كان راغباً في إطلاعنا على العادات الغريبة لسكان البلدان المدارية. ولكنه لم يستطع أن يكمل حديثه. كان الزنجي قد مل من الوقوف، وعاد إلى كوخه، بعد أن بصق باتجاهنا... أما أنا فلم أعد أرى شيئاً. ما عاد بمقدوي أن أفتح فمي... فقد انسدت مجاريّ التنفسية لفرط ما استنشقت من الغبار. اندفعنا نحو المخرج، تسلمنا دوامة إلى دوامة أخرى. كنت ما أزال أتعرض للوطء بالأقدام وللصدم العنيف بالأجساد حتى بلغنا ساحة الأنفاليد. لم نعد نعرف بعضنا لشدة ما عانينا من السحق والتدافع، وما ران على وجوهنا من الشحوب بسبب الإعياء والانفعالات. انسللنا على عجل نحو سوق سانت هونوريه. وفي الطابق الأول من بيتنا شربنا كل ما في المطبخ من ماء.

هرع جيراننا الأقربون، وعلى الأخص النوتي فيزيو، وبائع العطور في الحانوت 27، وبائعة القفازات السيدة غراتا، ودوريفال بائع الحلوى، والسيد بيروكيير، جاؤوا جميعاً على الفور يحبسون الأخبار، يلّحون علينا بأن نحدثهم عما رأيناه في زيارتنا إلى المعرض، ولا يبرحون يستزيدون... ما إذا كنا قد دخلنا جميع

الأجنحة؟ وما إذا كانوا لم يضيعونني في الزحام؟... وكم أنفقنا من النقود؟ في كل جناح؟...

أنشأ والدي يروي لهم الأحداث بألف وخمسمئة تفصيل من التفاصيل... الصحيحة... والأقل صحة... كانت أمي مسرورة غاية السرور. لقد نالت مكافأتها... هاهو ذا أوغستها يحوز لمرة واحدة على التقدير والاعتبار، ويجذب إليه الاهتمام... كانت فخورة جداً به بسبب ذلك... كان يجلس بعجرفة أمام الجميع... وكانت تعرف بأنه يهرف بالأكاذيب... غير أن ذلك كان جزءاً من المعلومات... إنها لم تعان من أجل لا شيء... لقد ضحت من أجل شخص مهم... من أجل روح... تلكم هي مناسبة قول ذلك. كان البيادق الآخرون فاغري الأفواه. وكان مرد ذلك إلى الإعجاب.

كان أبي يصنع لهم كيفما اتفق سراباً وأوهاماً عذبة. كانوا يبتلعونها بالتأكيد مثلما يتنفسون... وخيم على حانوتنا جو سحري... كان مصباح الغازقد انطفأ، ولبث هو وحده، يقدم لهم مشهداً مذهلاً أكثر بألف مرة من أربع دزينات من المعارض... ولكنه لم يكن يريد المصباح!... كان يريد شموعاً فحسب!... كان أصدقاؤنا من تجار الصفائح الحديدية الصغار يجلبون معهم شموعهم من أعماق غرف الأدراج التي يقيمون فيها. وكانوا يعودون كل مساء ليستمعوا إلى أبي، ويستزيدونه دوماً.

كانت تلك فتنة بلاحدود.، ما عرفوا شيئاً أروع منها. ستسقط ميهون في النهاية، مريضة في أعماق هريها بسبب ذلك، وقد ساورتها مشاعر شتى... كانوا يرددون على مسامعها كل شيء، حتى أقل كلمة جرت على لسان والدي...

في اليوم الخامس عشر على وجه التقريب لم يعد بوسعها أن تقاوم... نزلت من طابقها وحيدة، واجتازت الباساج... كما لو كانت شبحاً... كانت ترتدي قميصها الليلي. قرعت بيدها على واجهتنا الزجاجية. فالتفت الجميع حينئذ. لم تفه بكلمة واحدة. ألصقت ورقة على الزجاج. كانت الرسالة قصيرة مكتوبة بحروف كبيرة... كذاب...

انفجر جميع الحاضرين بالضحك. وتلاشى السحر سريعاً... وآب كل منهم إلى بيته... أما البابا فما عاد لديه شيء يقوله.

* * *

الشيء الوحيد الذي كنا نباهي به في مخزننا هو طاولة الوسط ذات القائمة الواحدة من طراز لويس الخامس عشر. قطعة الأثاث الوحيدة التي كنا نثق بها حقاً. طالما ساومنا الزبائن على بيعها، ولكننا لم نكن نقبل. إذ لن يكون بوسعنا التعويض عنها.

كان آل بريتونتيه، وهم من زبائننا المعروفين في المحلة، قد شاهدوها منذ مدة وطلبوا منا استعارتها من أجل إعداد المسرح لعرض مسرحية كوميدية سيقومون بتمثيلها مع بعض الأشخاص الآخرين من الحي، داخل فندقهم الخاص. سيشارك في التمثيل آل بيانيز، وآل كورمانش، وآل دورانج الذين كانت بناتهم مصابات بحَوَل شديد. وعديدون آخرون أيضاً كانوا من زبائننا أكثر أو أقل، مثل آل جيروند وآل كامادور وآل دولامبيست... قصارى القول، وجه السحارة في مجتمع الباساج، وقد حددوا موعد الافتتاح يوم الأحد القادم... كانت السيدة بريتونتيه واثقة من تحقيق نجاح على خشبة مسرحها.

جاءت إلى حانوتنا أكثر من عشرات المرات من أجل الطاولة. فلم يعد بوسعنا رفض طلبها، كان ذلك عملاً من أعمال البرِّ والإحسان.

كي لا يصيب طاولتنا أي مكروه، قمنا نحن أنفسنا بنقلها صباحاً، ملفوفة بثلاث بطانيات، فوق عربة تجرها الجياد. وفي الساعة المحددة للعرض عدنا لنحتل مقاعدنا نحن الثلاثة... وقد احتل كل منا مقعداً صغيراً لا ظهر له بالقرب من المخرج.

تأخر فتح الستارة كثيراً، ولكن الجو كان مفعماً بالسحر والفتنة. السيدات بكامل زينتهن كن يتصنعن ألف بهرجة وتعاظم. فائحات بالعطور حتى ليفقدن المرء رشده... تعرفت أمي على جميع الأشياء الجميلة التي اشترينها من حانوتها. سترات البوليرو، والياقات، وتخريمات الشانتيل. تذكرت أيضاً أسعارها. كانت مفتونة وهي ترى النساء يتبرجن بها... كم كانت تلك التخريمات ملائمة، كم كانت رائعة فوق قدود النساء. كانت أمي مستلبة اللب حقاً.

قبل مغادرتنا للحانوت تلقيت إنذاراً بأنني إذا ما اصطحبت معي روائحي فسأطرد على الفور. بادرت إلى غسل مؤخرتي على نحو سابغ، حتى كدت أسد فوهة المرحاض، وغسلت قدميّ أيضاً حتى أصبحتا نظيفتين داخل حذائي الضخم.

جلس الناس أخيراً، وطلب من الجميع الصمت. والتفّت الستارة حول نفسها. فبانت طاولتنا... منتصبة وسط المسرح... مثلما كانت في حانوتنا بالضبط... وهو ما طمأننا جميعاً على سلامتها... نقرة صغيرة على البيانو... ثم بلغت أسماعنا حوارات الممثلين... آه يا للنبرة الجميلة. جميع شخصيات المسرحية يروحون ويغدون متبخترين تحت الأنوار الساطعة... إنهم مذهلون حقاً... كانوا يتجادلون... يتشاجرون... يتملكهم الغضب... ولكنهم يثوبون إلى الفتنة والإغواء. كنت مسحوراً كلياً... وددت لو أنهم يكررون حوارهم مرات ومرات. كان يشق علي أن أفهم كل شيء... ولكنني كنت مسلوباً جسداً وروحاً... كان كل ما

يلمسونه... أقل حركة من حركاتهم. الكلمات اليومية الأكثر تداولاً، كل ذلك يغدو بالنسبة إلي أشبه برقى حقيقية... التهبت الأكف من حولنا بالتصفيق، أما أنا ووالداي فلم نجرؤ على ذلك.

فوق خشبة المسرح عرفت السيدة بيانيز، كانت بهية الجمال حقاً. ميزت أيضاً فخذيها، ورجرجة ثدييها. كان جسدها يميس داخل مئزر شفيف، وقد غاصت فوق ديوان مجلل بسجف سميكة من الخز، خائرة القوى، تشهق بالبكاء... كان دورانج، زبوننا الآخر هو الذي جعلها تئن باكية... كان يؤنبها بقسوة. حتى لم تعد تعرف إلى أين تولي وجهها... ولكن الرجل الفظ، مرَّ من خلفها، واغتنم فرصة بكائها فوق حافة طاولتنا، والأسى الذي يعتلج في فؤادها ليختطف منها قبلة... ثم مضى في ملاطفنها وتدليلها... ليس كما يجري في بيتنا... وحينئذ أقرت بهزيمتها... وانقلبت برشاقة على الكنبة... فأعاد الكرة وقبلها من فمها... فغشي عليها... وزفرت زفرة الموت... يا له من أداء رائع!... أما هو فكان يهز عجيزته...

استحوذت علي الدراما بحق... التهذيب الرفيع، التناغم العميق الغامر... فيض من الرؤى تهز القلوب.

كانت طاولتنا، إن شئنا الإنصاف، منتصبة هناك بجلال لا نظير له، جميع الأيدي والمرافق والبطون خلال المسرحية كانت تأتي إليها، لتصقلها وتلمعها... أمسكتها بيانيز بقوة إلى حد أننا سمعنا طقطقتها عن بعد. أما أقسى معاملة عوملت بها فكانت من دورانج الجميل ذاته. ففي لحظة مأساوية للغاية أراد أن يجلس فوقها، ففارت دماء أمي في أوردتها، ولكنه قفز عنها لحسن الحظ، على الفور تقريباً... وخلال الاستراحة كانت أمي قلقة، مما إن كان ذلك سيتكرر... استوعب والدي كل ما تضمنته المسرحية من أفكار، لكنه كان أكثر انفعالاً من أن يحدثنا عنها...

كنت أنا أيضاً مبهوراً. لم تلامس شفتاي الشراب السكري، ولا قطع الحلوى الصغيرة المقدمة ممن حولنا. كان هؤلاء القوم معتادين على خلط المأكولات بالانفعالات السحرية... كل شيء ممكن لدى قرود السانغوين هؤلاء! شرط أن يلتهموه التهاماً... ليس بوسعهم أبداً أن يكفوا عن ذلك. فهم يأكلون كل شيء في الحفلة ذاتها، الوردة والخراء الذي يلطخ أرجلهم.

بعد الاستراحة عدنا إلى المسرحية... وانقضى الفصل الثاني مثل حلم... ومن ثم فقد انتهت المعجزة... وعدنا إلى رحاب الأشياء والبشر العاديين.

فوق مقاعدنا، كنا ننتظر ثلاثتنا. لم نكن نتجرأ على التفوه بكلمة... كنا ننتظر بفارغ الصبر أن ينسحب الجمهور كي نسترد طاولتنا... جاءت إلينا امرأة، وطلبت منا البقاء لحظة قصيرة... كنا نريد ذلك فعلاً... شاهدنا الستارة ترتفع، رأينا جميع الممثلين الذين اشتركوا في المسرحية، جالسين الآن حول طاولتنا، يلعبون الورق معاً. آل بيانيز، وآل كولومانش، وآل برينونتيه، وآل دورجان، وموظف البنك العجوز كروانغ... كانوا ملتفين حول الطاولة، يقابل بعضهم بعضاً...

وكروانغ هذا عجوز صغير مضحك، كان يأتي غالباً إلى شارع مونتورغوي لزيارة جدتي، كان لطيفاً للغاية، غزت جلده التجاعيد. كان يتعطر بعطر البنفسج، تفوح رائحته القوية في كل أرجاء الحانوت. لم يحتفظ في حياته سوى بشيء واحد، كان مدار اهتمامه: حبال الجرس الإمبراطوري.

بدأت لعبة الورق فوق طاولتنا على نحو ودي تماماً. كانوا يتبادلون الأوراق بلطف، ثم ما لبثوا أن احتدوا بعض الاحتداد. وبدؤوا يتحدثون بألفاظ أكثر خشونة، ليس كمثل ما كانوا يتحدثون فوق

خشبة المسرح. ما عادوا يتحادثون من أجل الضحك والمزاح. كانوا يجيبون بعضهم بالأرقام. الأوراق تصطفق فوق الطاولة مثل صفعات. خلف والدي كانت بنات دورانج يَحوِلن عيونهن بنحو فظيع. الأمهات، والأزواج، كل منهم غارق داخلَ ذاته، متشنج، ملصق كرسيه بالجدار، ما عادوا يجرؤون حتى على التنفس. كان اللاعبون يبدلون أماكنهم بإيعاز خاص. وفوق الطاولة كانت النقود تتكدس. تتجمع على هيئة أعمدة... كان العجوز كراونغ يحرث الطاولة بكلتا يديه... أمام آل بيانيز كانت كومة النقود ما تزال تتضخم، وتنتفخ أكثر... مثل بهيمة... كان لونهم يغدو، بسبب ذلك، قرمزياً... أما آل بريتونتيه فعلى العكس... كانوا يخسرون نقودهم، وقد غدوا شاحبين كلياً. لم يعد أمامهم قرش واحد... كان والدي يمتقع لونه أيضاً، وتساءلت عما تراه سيفعل الآن! انقضت ساعتان على الأقل ونحن ننتظر أن ينتهوا. كانوا قد نسونا...

نهض آل بريتونتيه فجأة. وعرضوا رهاناً جديداً... قصرهم في النورماندي! أعلنوا ذلك جهاراً... على ثلاث دورات من الورق... كان كروانغ هو الذي ربح... لم يبد عليه أنه سعيد بذلك... ثم نهض بريتونتيه، الزوج، من جديد... وتمتم على هذا النحو: "أراهن على الفندق... الفندق الذي نحن فيه..."

كانت أمي أشبه بمن أصابته صاعقة... قفزت مثل نابض دون أن يتمكن والدي من إيقافها... تسلقت المسرح وهي تظلع... كان صوتها مشحوناً بانفعال شديد، توجهت إلى كبار اللاعبين قائلة:

"أيها السادة والسيدات، لا بد لنا من أن نغادر نحن وولدنا الصغير... ينبغي أن ينام... سنأخذ طاولتنا..." لم يعترض أحد من اللاعبين. كانوا قد فقدوا رشدهم والتاثوا كلياً... طفقوا يحدقون في

الفراغ الممتد أمامهم... رفعنا طاولتنا... حملناها بسرعة الريح... كنا خائفين من أن ينادونا من جديد.

حين بلغنا جسر سولفيرينو، توقفنا قليلاً، التقطنا أنفاسنا برهة من الزمن.

بعد مرور سنوات كان والدي يروي تلك الأحداث، مرفقاً حديثه بإيماءات هزلية... لم تكن أمي تطيق سماع تلك الحكاية... كانت تثير فيها انفعالات حادة. كان أبي يحدد دائماً الموقع الهام لطاولتنا. مكانها بالضبط وسط المسرح، حيث كنا قد شاهدنا الملايين والملايين من الأموال، وسائر أمجاد إحدى العائلات وجميع القصور تتلاشى في غمضة عين.

* * *

مع جدتي كارولين، كانت عملية تعليمي بطيئة للغاية. ورغم ذلك فقد تمكنت ذات يوم من أن أعد إلى المئة، وحتى أن أجيد القراءة أفضل منها. كنت مستعداً لتعلم حساب الجمع. كان ذلك أوان ذهابي إلى المدرسة.

جرى اختيار مدرسة المحلة، في شارع جونور، على بعد خطوتين من سكننا، بعد مفرق فرانك بورجوا. كان بابها داكن اللون جداً.

كنا نسلك رواقاً طويلاً للوصول إلى الصف. كان صفنا يطل على فناء صغير، يليه سور شاهق جداً، موغل في الارتفاع، بحيث كان يحجب عنا زرقة السماء. وكي لا ننظر إلى أعلى نحن التلاميذ، كان هناك أيضاً حافة بارزة من صفائح معدنية تشكل سقيفة. لم يكن ينبغي لنا أن ننشغل إلا بالواجبات المدرسية، ونتحاشى إزعاج المعلم. لا أكاد أتذكر ذلك المعلم. كل ما أذكره الآن نظارتيه المثبتتين فوق أنفه، وخيزرانته الطويلة، وردنيه اللذين كان يتكئ عليهما فوق قمطره.

كانت الجدة هي التي رافقتني خلال الأيام الثمانية الأول. وفي اليوم التاسع سقطت مريضاً، فأعادتني آذنة المدرسة في منتصف فترة ما بعد الظهرإلى البيت. ما إن وصلت إلى الحانوت حتى داهمتني نوبة إقياء حاد ما عدت أتخلص منها.

كان جسمي كله ينوء تحت وطأة حمى شديدة... وارتفاع حاد في درجة الحرارة حتى بت أعتقد بأنني غدوت شخصاً آخر. كنت أشعر أيضاً بشيء من الراحة حينما يخف الإقياء قليلاً. ساورت الشكوك أمي في البداية، وراحت تزعم بأنني قد التهمت قطعاً من النوغا... لم يكن هذا نسيجي... كانت ترجوني بأن أتماسك. أن أرغم نفسي على التوقف قليلاً عن الإقياء... واجتمع علي خلق كثيرون في الحانوت. وحينما كانت ترافقني إلى المرحاض، كانت تخشى من أن ألوث لها مخرماتها. تفاقمت حالتي أكثر، حتى تقيأت مقدار طست كامل، وشرع رأسي يغلي ويفور. لم أعد أستطيع إخفاء سروري... فقد امتلأت مخيلتي بدعابات وخواطر مضحكة مرّت منذ زمن بعيد.

كان لي دوماً رأس ضخم، أكبر بكثير من رؤوس الأولاد الآخرين. لم أستطع يوماً أن أعتمر البيريه. وصار ذلك الوضع المريع يثير فزع أمي. فكلما كنت أتقيأ، كلما كان قلقها يتعاظم.

"هل تعتقد يا أوغست بأنه سيحمل لنا مرض السحايا!... سيكون هذا نصيبنا أيضاً!... لم يعد ينقصنا سوى هذه المصيبة!... ولكنها ستكون الأدهى والأمرّ!...". توقفت عن الإقياء أخيراً... ولكن حرارتي بلغت قصاراها... راقني ذلك إلى حد بعيد... ما كنت أعتقد يوماً بأن من الممكن أن يجول في رأسي كل هذا القدر من الخواطر، تخيلات ونزوات غريبة. في البداية، رأيت كل شيء أحمر... مثل غيمة مثقلة بالدم... توقفت وسط السماء... ثم تفككت واتخذت شكل

زبونـة... ذات قـدّ هائـل!... وحجـم جبـار... شـرعت تلقـي علينـا أوامرها... مـن أعـالي الفـضاء... كانـت تنتظرنـا... معلقـة على هـذا النحو... تشير إلينا... بأن نسرع جميعاً... بـأن نهـرب مـن الباسـاج... حالاً!... كلنا سوياً!... ما من ثانية نضيعها!.

ثم هبطت إلى الأرض، وتقدمت حتى واجهتنا الزجاجيـة... كانـت تغمـر باساجنا بأكمله... راحت تتبختر متعجرفة. ما كانت تريد أن يظـل أي حـانوتي في حانوته، ولا أي من جيراننـا داخـل بيتـه... وحـتى ميهـون جـاءت معنـا. نبتت لها ثلاث أياد، داخل أربعة قفازات... ورأيـت بأننـا كنـا نمـضي بمـرح وخفة. كانت الكلمات ترقص حولنـا مثلمـا حـول ممثلـي المـسرح... وكـان هناك إيقاعات حادة... غير متوقعة، أنغام رخيمة... تصعب مقاومتها.

دست الزبونة العظيمـة الجـرم يـديها في مخرماتنـا... واختطفتـها مـن واجهتنـا، دون أن تحـاول إخفـاء ذلـك. ولفّـت جـسدها بمخرمـات الدانتيلا، وبجميع الوشاحات، وبكمية من حلل القداس تكفـي لعـشرين خورياً... كان جسدها يتضخم أكثر وسط الأهداب والمخرمات.

جميع التافهين الصغار في الباساج... باعة المظلات... وفيزيو بـائع أكيـاس التبـغ... وآنـسات محـل الحلـوى... كـانوا ينتظـرون الـسيدة كورتيلين المشؤومة... كانت واقفة هناك غير بعيد عنـا... مـسدسها في جرابه مضمخ بالعطور... كانت تنفث بخاراً حولها... السيدة غونوبـو، ذات الخمار، والتي ظلت حبيسة بيتها منذ سنين عديدة بـسبب عينيهـا الرمداوين، كانت تتشاور الآن مع الحـارس الـذي يرتـدي قبعـة ذات قرنين. كانا يتشاوران الآن، مرتديين ثياباً جديدة كما لو أنهمـا في يـوم عيد. والصغير غاستون نفسه، وهـو ابـن مجلـدين للكتـب توفيـا منـذ زمن، عاد الآن خصيـصاً... كـان يرضـع مـن ثـدي أمـه، نائمـاً على ركبتيها بهدوء، ينتظر أن يأخذوه في نزهة. كانت أمه تحتفظ بدولابه.

ظهرت العمة أرميد من صوب مقبرة ثياس، وصلت على عربة تجرها الجياد إلى نهاية الباساج... جاءت لتقوم بجولة... غدت هرمة جداً منذ الشتاء المنصرم، لم يعد لها وجه على الإطلاق، لا شيء سوى عجينة رخوة احتلت مكان وجهها... عرفتها مع ذلك من رائحتها. مدت ذراعها للماما. كان أبي أوغست مستعداً تماماً على نحو مسبق مثلما هي عادته دائماً. ساعته معلقة حول عنقه، ضخمة مثل منبه الصباح، يرتدي ثياباً خاصة جداً. سترة طويلة، وقبعة بحار، ودراجة ايبونيت، وجوربين يشدان على ربلتي ساقيه. وكان غودين ما ينفك يضايقني، واضعاً زهرة في عروة سترته. كانت أمي المسكينة مرتبكة جداً، لا تبرح تجامله. أما السيدة ميهون، الخبيثة، فكانت تحمل كلبي توم فوق قبعتها ذات الريش، تسير به متوازنة، وتجعله يعض جميع المارين في الطريق.

كلما كنا نتقدم مقتفين أثر الزبونة الضخمة، كان حشدنا يتزايد باستمرار. كنا نتدافع بخشونة خلف خطاها... كانت السيدة تتضخم دوماً... تضطر إلى الانحناء كي لا تحطم واجهة حانوتنا الزجاجية... عامل الطباعة الذي يطبع بطاقات الدعوة قفز خارج قبوه، في اللحظة التي كنا نمر فيها، كان ينقل طفليه الصغيرين من مكان إلى آخر في سيارة صغيرة، غدونا مشرفين على الموت أيضاً... تدثرنا بأوراق بنكية، من فئة المئة الفرنك فقط... كانت كلها نقوداً مزورة... كانت تلك حيلة لتهريبها... بائع الآلات الموسيقية في المحل 34، الذي كان يملك غرامافون، وستة ماندولينات وثلاثة مزامير وبيانو لم يشأ أن يترك منها شيئاً، أراد أن يحمل معه جميع آلاته، كانت معلقة على واجهة زجاجية. بذل جهداً كبيراً، ولكنها انهارت جميعها محدثة دوياً هائلاً.

من كـواليس مقهـى غرينبيـه مونـدين المواجـه لنـا ذي الـرقم 96، خرجت أوركسترا كاملة مـن العـازفين... تجمعـوا بعيـداً عـن السيدة العملاقة، وأطلقوا عجيجاً هائلاً من آلات ثلاثية، كمنجات، مزامير، وهاربات، كانوا ينفخون داخلها ويحركون أقواسـهم بإتقـان، وقـوة، جعلت الأموات يزعقون طرباً...

العاملات ذوات القبعات الرخوة قفزن بحيويـة، أنيقـات، نحـيلات، منتشرات هنا وهناك، يتمايسن بـأثوابهن البرتقاليـة... الأخـوات العجـائز الـثلاث، في الحـانوت 48 اللـواتي لبـدن داخـل حـانوتهن، منـذ إثـنين وخمسين سنة، واللواتي كن لطيفات جداً، صبورات جـداً مـع زبونـاتهن دائماً، أفرغن حانوتهن دفعـة واحـدة مـن الزبونـات بـضربات قويـة مـن هـراوة... زبونتـان شكـستان لفظتـا أنفاسـهما علـى الرصـيف، مبقـورتي البطن. اشـتد رعـب العجـائز الـثلاث وحمـي إسـتهنّ وانطلقـن يـسابقن الريح... كان يهطل من السيدة الهائلة الحجم أشياء في كل مكان... تحـف وأوانٍ خزفية مسروقة. كانت تنهمر مـن جميـع طيـات ثوبهـا... ثم أفلتـت قطع حليها... كانت تلقيها أولاً بأول... وأمام حانوت سـيزار، الجـواهري شرعت ترتق ثوبهـا، وغطـت جـسدها بعقـود وجـواهر مزيفـة... انفجـر الجميع بالضحك من ذلك المشهد... ثم نثرت بملء راحتيها طبقاً مملـوء بأحجار الجمشيت عبر الفضاء، فغدا لون الجميع بنفـسجياً. ونثـرت مـن وعاء آخر أحجار الزبرجد فثقبت الواجهة الزجاجيـة الكـبيرة حـتى غـدت كالغربال... وفي الحال تحول لون الجميع إلى لون أصـفر... حـين اقتربنـا مـن نهايـة الباسـاج... وجـدنا أمامنـا حـشداً غفـيراً، كـان موكبنـا يعـدو مسرعاً... بائعة الورق في الحانوت 86، والتي كنت قد سرقت منها عـدداً من الأقلام تعلقت بسروالي، وشرعت الأرملة التي تبيع الخـزائن القديمـة تبحث داخله عن قضيبي... لم أعد أضـحك... كـان بـائع المظـلات هـو الذي أنقذني منهما، وخبأني تحت مظلته.

إذا ما ميزتني العمة أرميد مرة أخرى بين الحشد، فسيتحتم علي أن أقبلها على وجهها الشبيه بقالب الجبن.

كان الخال إدوارد، بدراجته الثلاثية العجلات هو الذي يتبع أبي الآن. كان ينظر إلى الإسفلت عن قرب من فوق دراجته التي كانت تعلو به وتهبط. قفزت حصاة كبيرة من الطريق واستقرت في منخره. كان محرك دراجته يهدل بنعومة مثل يمامة، ولكن عيني إدوارد كانتا تتجرجران في نهاية خيطين، فوق الطريق كي يتأكد من أنه لم ينس شيئاً... أمام مقوده، اضطجعت العمة أرميد وسط المخدات تتحدث مع سيد أسود. كان يحتضن ميزان حرارة أكبر مني بأربعة أضعاف... كان هذا هو طبيب جزر الكناري. جاء ليفحصها، كان ينبجس من وجهه المرهق ألف ذرة مشعة. حين رآه جيراننا تعروا وأنزلوا سراويلهم حتى أقدامهم، وأظهروا مؤخراتهم، فبصق الطبيب داخلها... لم يكن لديه متسع من الوقت كي يتوقف طويلاً. اندفعنا معاً صوب المخرج... واكتسحنا البوليفارات...

حين اجتزنا ساحة الفاندوم هبت زوبعة عاتية فاتسعت أبعاد جسد الزبونة الهائلة. وعند دار الأوبرا تضاعف حجمها ضعفين... مئة ضعف!... اندفع الجيران مثل الفئران للاختباء تحت تنانيرها. وما كادوا يلبدون، حتى ارتدوا مذعورين، ثم عادوا من جديد ليختبئوا داخل الأعماق... وقد أثار هذا بلبلة عارمة.

كلاب الباساج الصغيرة انطلقت تبول في كل مكان، وتسلح أيضاً. كانت تقفز فوق المؤخرات، تعضعض بقوة. السيدة جوفين، بائعة العطور في الحانوت 72، كانت تحتضر أمامنا تحت تل من الزهور ذات اللون الخبازي. زهور الياسمين... كانت تختنق... ومر فوقها ثلاثة أفيال وطئت ببطء جسدها المحتضر، فسالت منه ألف ساقية صغيرة من العطور. تجمعت في مجرى واحد.

الصبيان الأربعة العاملون في حانوت الحلواني لارجنتوي كانوا يحملون له مسرعين تبغ غليونه من المخزن المشهور "تبوغ المسلمين". لم يكن يشعل غليونه إلا بعد الساعة السادسة... كانوا قد هدموا له جانباً من الفرن القريب من سوق سانت هونوريه كي يوسعوا محله... هدموا الجانب الأيمن القريب من سوق الدجاج، ثم الجانب الأيسر أيضاً القريب من سوق الأسماك.

كان علينا أن نتقدم مع ذلك! وخاصة السيدة العملاقة، عملاقنا، التي كان ثدياها كوكبين مشعين... هاهنا انزلقت قدمي ووقعت أرضاً... حاول والدي عبثاً أن يسندني... علقت يده بين قضبان دراجته... فعض ذنب توم. كان توم ينط، ويعوي أمامنا، ولكن دون أن يثير أية ضجة.

أوقفني الحارس على قدميّ. لم يكن يرتدي سوى سترة طويلة، تدلى من أسفلها فتيل طويل... فتيله الذي كان يشعل به مصابيح الغاز. أضحكنا كثيراً بذيله الذي كان يدخله عميقاً في أنفه، حتى نهايته.

حين اجتزنا شارع ريفولي تعثرت الزبونة واصطدمت بأحد الأكواخ، فهدمت أحد المباني، انهار المصعد حينئذ، وثقب لها عينها... مررنا فوق أنقاض المبنى في شارع جونور، وهو شارع مدرستي، برز لي وجه صديقي الصغير إميل اورجات الأحدب... عرفته دائماً محدودباً ومخضوضراً أيضاً مع بقعة خمرية كبيرة مكان أذنيه. لم يكن قبيحاً أبداً، كان جميلاً، غض الإهاب، متأنقاً، وكنت مسروراً بلقياه.

كل الناس الذين عرفناهم من قبل كانوا يركضون الآن معاً داخل أعماق السيدة، داخل بنطالها، عبر الشوارع والأحياء المنضغطة تحت تنانيرها... كانوا يذهبون أنَّى تذهب، متزاحمين أكثر فأكثر. لم تعد

أمي تترك يدي. كنا ما ننفك نحث السير، وحين بلغنا الكونكورد أدركت بأن السيدة كانت تقودنا إلى المعرض... لقد غمرتنا بعطفها، رغبت بأن تسلينا قليلاً.

كانت السيدة، الضخمة، قد وضعت يدها على جميع الأموال، صارت كل نقود أصحاب الحوانيت مخبأة في حقائبها، لذا توجب عليها أن تدفع النقود من أجل دخولنا إلى المعرض. كانت الحرارة تزداد دائماً بالقرب من السيدة... لمحت ما بين دوائر أثوابها وبعيداً صوب البطانة ألوفاً من الأشياء معلقة هناك، كل الأشياء المسروقة في العالم بأسره... وفيما أنا أعدو عثرت بشيء فوقعت على أم رأسي. نتأت لي حدبة صغيرة. عثرت بالمرآة البيزنطية الصغيرة التي طالما بحثنا عنها طوال شهور في شارع مورجونتوي... ولو أنني استطعت لصحت معلناً عن هذه اللقية... ولكنني ما كنت لأتمكن من التقاطها لفرط ما كنت منعصراً بين الأجساد. كانت تلك هي اللحظة التي أدرك فيها الجميع بأن عليهم أن يتماسكوا قليلاً. فقد وجدت الحشود نفسها حينئذ محصورة بين مصاريع البوابة الضخمة، الشاهقة نحو السماء مثل الجديلة... ولأننا لم ندفع رسم الدخول شعرنا بخوف شديد... ولكننا وجدنا أنفسنا، لحسن الحظ مدفوعين إلى الداخل تحت ضغط سيل جارف من تنانير السيدة، انسحقت أجسادنا، اختنقنا، زحفنا على بطوننا تماماً... كانت الزبونة هي التي هبطت نحونا من عليائها لحظة عبور البوابة. ربما كانت تلك هي النهاية؟... ربما كنا الآن تحت مياه السين؟ وجاءت أسماك القرش لتطلب منا قرشاً صغيراً؟ لم يحدث إطلاقاً أن دخل أحد مكاناً دون أن يدفع أجرة الدخول... وأطلقت حينئذ صرخة حادة جداً، ثاقبة جداً جفلت على إثرها المرأة العملاقة، فشمرت دفعة واحدة أطراف تنانيرها... وبنطالها... حتى

قمة رأسها... حتى السحب... وهبت عاصفة قوية، ريح جليدية مرت تحتها جعلتنا نعوي من البرد... لبثنا متجمدين فوق الرصيف، مرتعدين، متروكين وسط الكرب الشديد. وحلقت الزبونة فوق أكوام الردم، والزوارق الثلاثة... ولفرط شحوب جميع سكان الباساج، لم أعد أعرف منهم أحداً. خدعت العملاقة الجميع باختلاساتها البارعة... ما عاد المعرض موجوداً. لقد انتهى منذ زمن بعيد... كنا نسمع الذئاب تعوي على امتداد مجرى الرين...

كانت تلك لحظة ارفضاض الجمع... ولكنهم كانوا جميعاً يفرون في فوضى واضطراب.. ونبت لنا عدد من الأقدام... حتى أنني أنا الصغير، سحقت بها العجوز ميهون.

شمرت أمي ثيابها وراحت تعدو... ولكن سرعتها كانت تتباطأ شيئاً فشيئاً... بسبب ربلتي ساقها اللتين أصبحتا فجأة أرفع من خيطين... ومشعرتين في الوقت ذاته... كانت إحداهما تتعثر بالأخرى مثل عنكبوت... كنا ندحرجها أمامنا، نكرجها كرجاً مثل كرة... ولكن العربات ظهرت فجأة... مندفعة بسرعة جنونية عبر شارع رويال... العربات الزرقاء، والخضراء، والصفراء... كانت عجلاتها تقرقع في البداية. ثم طارت عدة الأفراس بعيداً جداً عبر الساحة، ووصلت حتى أشجار التويللري... أدركت المخاطرة على الفور، فصرخت، وناديت وجمعت الناس لأدلهم إلى أين يذهبون لالتقاطها... كان الجميع يعدون باتجاه معكوس، عبر رصيف اورانجي... لم يكن بوسعي أن أفعل شيئاً! كان خالي ادوارد البائس منسحقاً تقريباً مع دراجته البترولية على قاعدة تمثال بوردوليز... ثم ظهر فيما بعد عند محطة سولفيرينو. كان صندوق عدته مربوطاً مثبتاً فوق مؤخرته مثل حلزون... اصطحبناه معنا... كان عليه أن يزيد من سرعته، بسبب مئات السيارات...

عند قاعدة عمود جان دارك، لمحت، عبر وميض برق خاطف، خالي رودولف وعلى وجهه ابتسامة عريضة... كان يبيع ثيابه التروفيرية بالمزاد... لم تكن اللحظة مناسبة لإزعاجه... كانت الطريق المرصوفة بالحصباء محفّرة... وانفتحت هوة عميقة في ذلك المكان... ابتلعت كل شيء... مررت فويق الهوة... متعلقاً بمحفظة يد الخالة أرميد... قبل أن تختفي بلحظة... في داخل المحفظة لآلئ صغيرة كتب على غلافها "ذكرى سعيدة" وداخل الغطاء عينها الزجاجية. ضحكنا جميعاً من فرط الدهشة. غير أن سيلاً عرماً من الرعاع وصلوا من كل حدب وصوب. جاؤوا بأعداد غفيرة هذه المرة بحيث ملؤوا شارع تيريز، إلى ارتفاع الطابق الثالث... تسلقنا ذلك التل من اللحم المنضغط، فأطلق دمدمة بلغت أصداؤها قبة السماء.

ولكن من أجل الوصول إلى بيوتنا كان يتحتم علينا أيضاً أن نحني أربع شباك من القضبان المعدنية، تسد طريقنا تماماً... شرع ألف منا... مئة ألف يدفعون البوابة الثقيلة... ولكن دون طائل... كانت القضبان تنحني ثم تعود إلى وضعها في الحال. تاركة في أفواهنا طعماً كطعم الكاوتشوك... كان شبح من الأشباح قد خبأ المفتاح... إنه يريد قضيب واحد منا وإلا فإنه لن يعطينا المفتاح، ألححنا عليه... "تباً... إذن" أجابنا... ناديناه مرة أخرى... كنا عشرة آلاف ندفع بالبوابة.

عبر أصداء شارع غومبوست تناهت إلينا مئة ألف صرخة موجعة... صرخات الجموع التي سحقناها على امتداد ساحة غيون... واندفعت العربات بهياج مجنون... وتواصلت الفانتازيا... مسرح الأوديون أحاط به حشد من الصعاليك الجامحين... بانثيون كورسيل انهار من الخلف... وانتثرت ألف قطعة منه... وصلت حتى واجهتنا. كان

والدي إلى جانبي يئن صارخاً "لو كان معي بوق فقط"... كـان يخمش جلده في غمرة يأسه. انطلق عارياً بخطى سريعة، مشى صاعداً باتجاه بنك فرنسا. هـوذا جـاثم فـوق الـساعة الكـبيرة... كـان ينتـزع عقـرب الدقائق. ثم نزل عن ظهر الساعة وهو يحمله بيده. وطفق يعبث به فوق ركبتيه... كان ذلك يفتنه... يملؤه بـالحبور... كـان بإمكاننـا أن نتسلى معـاً. ولكـن هـي ذي كوكبـة مـن فرسـان الحـرس قادمـة مـن شـارع ميهـول... دفعـت، حطمـت، قلبـت البوابـة المـشبكة بالقـضبان... فانهدت بأكملها لحسن الحظ! اشتعلت النار في محورهـا، فاحترقـت العربة الضخمة وبدأ هيكلها يفرقع... انهال قائـد العربـة علـى حوذيـه بالسوط. ثم انطلقا مسرعين... عبر شارع مولين. كانا يثيران، يؤججـان النار وسط الإعصار... اصطدم الإعصار، ثم ارتد، ثم انبجس سـاحقاً جـدران الكوميـدي فـرانس... واشـتعل كـل شـيء حينئـذ... تطـاير السقف، ارتفع، حلق عالياً متوهجاً صوب الـسحب... كانـت الفنانـة الجميلة داخل مسكنها، مكبة على أشعارها، تحفظ أبياتاً بكاملها عـن ظهر قلب قبل أن تظهر علـى خـشبة المـسرح. نظفـت دميتـها جيـداً، قلبتها، أرجحتها داخل سريرها... ثم أطلقت صرخة حادة... لقـد أتـى البركان على كل شيء...

لم يبق شيء في العالم سوى نارنا نحن... لـون أحمـر رهيـب جاء يعنفني عبر الدهور، حاملاً قضيباً معـدنياً زلـزل بـه كـل شـيء...كان يمزق قلقي... يلتهم من أعماق جمجمتي مـا يـشبه الثريـد الـساخن... مستعملاً القضيب المعدني كملعقة... وهو لـن يغـادرني قـط في يـوم من الأيام.

***

لم أسترد عافيتي إلا بعد زمن طويل. لبثت نقاهتي تسير متمهلة أيضاً شهرين كاملين. كان المرض الذي ألم بي ثقيلاً... وخلّف فوق جلدي بثوراً ودمامل... كان الطبيب يعودني غالباً. وقد ألح أيضاً على إرسالي إلى الريف... كان قول ذلك سهلاً جداً، ولكن لم يكن باليد حيلة. كنت أغتنم أية فرصة كي أملأ رئتي بالهواء الطلق.

حينما كان شهر كانون الثاني يهل علينا كانت جدتي كارولين تذهب إلى أزنيير لتقبض إيجار دارين لها هناك. اغتنمت أنا هذه الفرصة السانحة كي أرافقها. كانت تملك هناك دارين من لبن وآجر، في شارع بليزانس. إحداهما صغيرة والآخرى متوسطة المساحة، كانتا مؤجرتين لعائلتين من العمال. كان ذلك كل دخلها، ثروتها، توفيرها...

انطلقنا معاً أنا وجدتي. كان علي أن أسير الهوينا. فقد لبثت واهناً لوقت طويل أيضاً، أرعف لسبب ودون سبب، كنت ضاوياً، جلد وعظم. لدى نزولنا أمام المحطة، كان علينا السير مباشرة، في جادة ميهوب... ساحة كارنو... ثم ننعطف يساراً لدى وصولنا إلى دار العمدة، وبعد ذلك نجتاز الحديقة العامة.

في بولو دروم، بين السور الشبكي والشلال كان يجتمع مجموعة من العجائز الخرفين الممتعين، المفعمين بالحيوية، عجائز ممراحين ومتقاعدين، محتجين على الدوام... كنا نجدهم في كل مرة يلعبون البولينغ، وهي لعبة تحتاج إلى حضور ذهن حقيقي... يتبادلون فيها التوريات والتلميحات، كنت أدرك جيداً أساليبهم الماكرة، شيئاً فشيئاً. كان تبولهم العجيب، هو الأكثر مدعاة للضحك... كانوا يذهبون مسرعين خلف شجرة، كل واحد بدوره... ويعانون مشقة عظيمة في التبول. "ستذهب لتخلص من قملك!..." على هذا النحو

كانوا يقولون لبعضهم، فيما يواصل الآخرون لعبتهم معاً... كنت أجد فيهم جاذبية لا تقاوم. وأطلق ضحكات مجلجلة بحيث كانت جدتي تنزعج مني... ومع نسمات الشتاء العليلة، والمكوث واقفاً زمناً طويلاً، والإصغاء إلى توريات العجائز كان هناك ما يزيح عن الصدر أثقال الهموم والآلام...

لم تكن جدتي تضحك كثيراً، ولكنها كانت تود من كل قلبها أن ألهو وأمرح... لم يكن الوضع مسلياً في داريها... كانت جدتي تدرك ذلك جيداً... كانت مرافقتي لها متعة غير مكلفة. كنا نمكث قليلاً أيضاً... وأخيراً وبعد مشاهدة لعبة البو لنغ كنا نغادر العجائز الصغار، والليل موشك على الهبوط؟

كانت دارا كارولين واقعتين خلف سهل ماريشير... ذلك السهل الذي كان يمتد في ذلك الحين حتى بنوك المزاد...

كي لا نغوص في الوحل والبراز، ولا نخبط وسط أكوام السماد، كنا نتقدم، أحدنا خلف الآخر فوق صف من الألواح الخشبية، كان ينبغي لنا أن ننتبه كي لا نخرب أحواض الغراس المرتبة على هيئة مواكب... كنت ما أزال أضحك خلفها... محافظاً على توازني فوق عبّارة الألواح الخشبية، متذكراً الأجوبة السريعة الحاضرة لدى العجائز الصغار... "هل تسليت إذن بقدر ما تسليت اليوم؟ كانت تسألني... قل يا فرديناند؟".

لم أكن أحب الأسئلة... كنت أقطب جبيني في الحال... لا بد من الاعتراف بأن سؤالها كان يثير تعاستي.

كنا نصل أخيراً إلى شارع بليزانس، حيث تقع دارا جدتي. كان عملنا الحقيقي يبدأ منذ تلك اللحظة. فمن أجل قبض الإيجار الشهري

كان ثمة دراما... وتمرد من المستأجرين. في البداية كانوا يتظاهرون بالفقر والضنك، ومن ثم فلم نكن نقبض كامل الأجرة... على الإطلاق... كانوا يقاومون بنحو مخاتل... فمضختهم مكسورة دوماً... وحماماتهم لم تعد تعمل... وكان ثمة نقاشات مضجرة لا تنتهي... ولا ينفكون يطلقون عقيرتهم بالصياح بصدد كل شيء، وقبل أن تتفوه الجدة بكلمة واحدة... كانوا يجأرون بمر الشكوى... بسبب جميع نوافذ الدار... يطالبون بأن نفتحها لهم... وعلى الفور... يتملكهم الخوف من أن نفرغ ما في جيوبهم... ولا يبرحون يبعقون كي لا نتحدث عن إيصالات الدفع التي لم يكونوا يطيقون رؤيتها... كان مرحاضهم مسدوداً تماماً. يفيض حتى الشارع... وينسد في الشتاء بسبب الجليد، ويتقصف مع قطعة الجليد لدى أقل ضغطة لفتحه. وفي كل مرة كانت الحصيلة لا تتعدى ثمانين فرنكاً. كانوا يلوثون كل شيء بالأقذار، أولئك الجثث... ذلكم هو انتقام المستأجرين. كانوا فوق ذلك لا يفتؤون يلدون الأطفال... وفي كل مرة كان هناك أطفال جدد، أقل فأقل ستراً لعوراتهم... أو عراة كلياً... ينامون في قاع خزانة الحائط.

أما أشد أولئك المستأجرين سكراً وقذارة فكانوا يعاملوننا كنفاية عفنة... كانوا جميعاً يراقبون جهودنا أثناء فتح المرحاض... يذهبون معنا إلى القبو... وحينما نبحث عن قضيب الأسل لإدخاله في سيفون المرحاض... ينتهي الهزل ويبدأ الجد، كانت الجدة تشمر ثيابها عالياً وتثبت أطرافها بالدبابيس، ما عدا قميص النوم، ثم تبدأ العمل... كنا بحاجة إلى كثير من الماء الساخن... ننقله في إبريق استعرناه من محل الإسكافي المقابل. لم يكن المستأجرون يرغبون بأي ثمن في أن يقدموا أي شيء لنا. وفي لحظة معينة تبدأ كارولين بنكش أعماق المرحاض، غارزة قضيب الأسل بقوة لتنظيف المجرى من البضاعة

المتراكمة... لم يكن قضيب الأسل وافياً بالحاجة. فكانت تغوص بيديها الاثنتين. كان المستأجرون يحضرون جميعاً مع أسراب أطفالهم، ليتفرجوا إن كنا سنستطيع تعزيل خراءهم وأوراقهم... وخرقهم... كانوا يتعمدون سد المجرى. لم يكن ثمة ما يثبط همة كارولين... كانت امرأة جسورة لا تهاب شيئاً.

حين أدرك المستأجرون، بعد أن تكللت جهود كارولين بالنجاح، بأن المجرى قد استأنف الجريان اعترفوا بجهدها... وعزموا على أن لا يظلوا مدينين... وانتهوا بأن أبدوا شيئاً من العرفان... وقدموا لنا قدحاً من الشراب. كانت الجدة تقرع قدحها بأقداحهم... لم تكن تحمل لهم أي ضغن أو موجدة... كنا نتمنى لهم سنة طيبة... بأريحية ولطف... ولكن ذلك لم يكن يدفعهم إلى سداد ما عليهم من ديون. كانوا أناساً بلا ذمة... ولو افترضنا أنها طردتهم، على سبيل المثال فلن يعدموا الوسيلة للانتقام منها قبل أن يخرجوا من كوخهم. لقد خرقوا من قبل جدران الكوخين وحولوها إلى ما يشبه الغربال... وحينما كنا نزور تينك الدارين كانوا يحاولون منعنا من الدخول، ويغلقون الأبواب في وجوهنا. لم تكن مسايرتنا لهم تفيد في شيء أبداً... فهم لم يكفوا عن فعل ذلك. كنا نحمل معنا الملاط خصيصاً... والأنابيب والعوارض، والجدران، والأرضيات الخشبية، ولكنها ما تلبث أن تتحول إلى فتات وأنقاض... ولكن حوض المراحيض هو ما كانوا يصبون عليه جام حقدهم أكثر. كان مشقوقاً من كل أطرافه. كانت الجدة تبكي حينما ترى ذلك... وكانوا يفعلون الشيء ذاته بسور الحديقة المشبك بالقضبان المعدنية... كانوا يثنونها ويجعلون عاليها سافلها حتى لتبدو أشبه بنبتات عرق السوس... وحين عينت لهم جدتي حاجبة عجوزاً بالغة اللطف، لم تبق أكثر من ثمانية أيام، ثم

ولت الفرار، مذعورة... ففي أقل من أسبوع صعد إليها مستأجران اثنان ليخنقاها... وهي في سريرها... من أجل بعض الحصر...

تانك الداران اللتان أتحدث عنهما، ظلتا على حالهما مع مرور الزمن. ولكن ما تغير هو اسم الشارع، فقد كان اسمه "بليزانس" وصار "مارن"... كانت تلك هي الموضة الدراجة في إحدى الفترات.

عديد من المستأجرين مروا، فرادى، وعائلات بأكملها، وأجيالاً... لم يكفوا يوماً عن صنع الثقوب، والجرذان أيضاً، والفئران الصغيرة، والجداجد والبق. لم نعد أنا وجدتي من يسد لهم الخروق والصدوع، كان خالي ادوارد هو من استأنف كل ذلك. ولفرط ما كان هؤلاء السكان يعانون من الضنك فقد تحولوا إلى مصافي حقيقية... ما عاد أحد منهم يدفع إيجاره. كان المستأجرون قد شاخوا، وسئموا من الجدال... وسئم خالي أيضاً بالطبع، وحتى المراحيض سئمت هي أيضاً... ولم تعد قابلة للتصدع، إذ لم يعد فيها أي شيء، صارت موئلاً للنفايات. كانوا يضعون داخلها عرباتهم اليدوية، ومرشات الماء، وأكياس الفحم. وقد أتى حين من الدهر، لم نعد نعرف بوجه الضبط، من كان يسكن تينك الدارين... فقد دخلتا في التنظيم، وستختفيان من الوجود... كنا نظن أن في داخلهما أربع عائلات... ربما كانوا برتغاليين، على الأرجح...

ما من أحد حمل على كاهله عبء إعالة جدتي. لقد حمّلت نفسها من المشاق أكثر مما تطيق، ولم يعد عليها ذلك بأي طائل... بسبب ذلك ماتت في النهاية... ففي شهر كانون الثاني ظلت أكثر من المعتاد تسكب المرة تلو المرة، الماء البارد تارة، ثم الماء المغلي تارة أخرى لفتح مراحيض المستأجرين... متعرضة لتيار هوائي غادر، فيما هي تضع الكتان داخل المضخة، وتذيب الجليد في صنابير المياه.

كان المستأجرون يتجمهرون حولنا حاملين شموعهم، كـي يقدموا لنا ملاحظاتهم ويروا ما إذا كان العمل سيؤدي إلى نتيجـة. أمـا الأجرة فقد طلبـوا إمهـالهم فتـرة مـن الـزمن. كـان علينـا أن نعـود إليـهم في الأسبوع المقبل... وعدنا أدراجنا إلى المحطة.

حال وصولنا إلى كوة التذاكر شعرت جـدتي بالـدوار، فاسـتندت إلى الدرابزين... لم يكن ذلك من مألوف عادتها... اجتاحت جسدها رعـدات شديدة. اجتزنا الساحة ثانية، ودخلنا إلى مقهى، وفيما نحن ننتظـر موعـد انطلاق القطار تناولنا شراباً ساخناً. وحين وصلنا إلى سانت لازار، حيـث تقيم، ذهبت على الفور إلى فراشها... لقد انهارت قواهـا دفعـة واحـدة، وانتابتها حمى، خبيثة جداً، مثلما جرى لي في الباسـاج. ولكنـها وقعـت حينئذ فريسة لنزلة صدرية ومن ثم لالتهاب رئوي... كان الطبيـب يعودهـا صبحاً ومساء... ولكن مرضها تفـاقم إلى درجـة خطـيرة. بحيـث لم نعـد نعرف بماذا نجيب الجيران حين يسألوننا عنها.

كان الخال إدوارد يتحرك كالمكوك بين الحانوت وبـين مـسكنها... كان مرضها يزداد سوءاً... ما عادت تريد ميزان الحرارة، بل ما عـادت تريد أن تعرف درجة حرارتها. ظلت محتفظة بصفاء ذهنـها. كـان تـوم ينام تحت المقاعد، ما عاد يبدي حراكاً. كان لا يكاد يأكل شـيئاً، مرَّ خالي بالحانوت حاملاً قارورة كبيرة من الأوكسجين.

ذات مساء، لم تعد أمي إلى العشاء... وفي صباح الغد، والظلمـة لما تزل تسربل الكون، أيقظني خالي بريشة هزها فوق وجهي، وطلـب مني أن أرتدي ثيابي بـسرعة. وأخـبرني بـأن علـي أن أذهـب معـه كـي أعـانق جدتي... لم أكن قد استوعبت الأمر بعـد جيـداً... كنـت مـا أزال نـصف نائم... سرنا مسرعين... اجتزنا شارع روشـي... واتجهنـا صـوب الطـابق فوق الأرضي... لم تكن الحاجبة نائمة... هرعت تحمل لنـا مـصباحاً ينير

طريقنا في الرواق... وفي الأعلى، داخل الغرفة الأولى كانت أمي راكعة على ركبتيها تنتحب مسندة رأسها إلى كرسي. كانت تئن أنيناً خافتاً. وتتمتم بعبارات مفعمة بالألم... فيما ظل أبي واقفاً... دون أن يتفوه بكلمة... كان يذهب حتى الدرج، ثم يعود، ولا ينفك ينظر في ساعته... وينكش شاربيه... حينئذ لمحت الجدة في سريرها في الغرفة المجاورة... كانت تتنفس بصعوبة بالغة، وتشهق بقوة، موشكة على الاختناق... كانت تصدر جلبة تثير القشعريرة... خرج الطبيب من غرفتها... وفوق سريرها رأيت كم كانت تصارع من أجل أن تتنفس... كانت بالغة الاصفرار والحمرة، حتى لكأن وجهها في تلك اللحظة، بما فوقه من عرق، أشبه بقناع يوشك أن يذوب... نظرت الجدة إلي بثبات ولكن بحب أيضاً... طلبوا مني أن أعانقها. اتكأت على السرير، فأشارت إلي أن لا... وابتسمت ابتسامة واهنة... أرادت أن تقول لي شيئاً... كان ذلك يمزق أعماق حنجرتها... وما كان له من نهاية... توصلت مع ذلك إلى أن تقول لي شيئاً، بأرق ما وسعها ذلك... "اعمل جيداً يا صغيري فرديناند!" همست بذلك همساً... لم أشعر بالخوف منها... كنا متفاهمين في العمق... كان كلامها صحيحاً على كل حال. وقد عملت ما وسعني العمل... لم يكن ذلك يخص واحداً منا بعينه...

كانت تريد أيضاً أن تقول شيئاً لأمي. "كليمانس، يا فتاتي الصغيرة... انتبهي جيداً... لا تتقاعسي... أرجوك..." تمكنت من لفظ هذه الكلمات أيضاً... ثم اختنقت أنفاسها... وأشارت إلينا أن نبتعد... فخرجنا إلى الغرفة المجاورة... لبينا رغبتها... كنا نسمعها تحشرج... كان احتضارها يملأ الشقة... بقينا ساعة على الأقل، مضطربين على هذا النحو، مفعمين بالتوتر، عاد الخال إلى غرفتها. كان راغباً في رؤيتها، ولكنه لم يجرؤ على مخالفة رغبتها. دفع مصراع الباب فقط. صرنا نسمعها أكثر...

اعتراها نوع من الفواق... انتصبت أمي واقفة دفعة واحدة... وصدر عنها صوت أوك! كما لو أن أحداً حز عنقها بسكين. وخرت على الأرض كتلة يابسة، سقطت إلى الخلف فوق البساط، بين الكنبة وبين خالي... كانت يدها متشنجة فوق فمها... حتى لم يعد بوسعنا تحريكها.

حينما استعادت وعيها صاحت "ماتت الماما..." ولم تكف عن الصراخ... ما عادت تعرف أين هي... ظل خالي للعناية بها... بينما عدنا نحن إلى الباساج، داخل عربة جياد صغيرة.

أغلقنا حانوتنا. أسدلنا جميع الستائر. كما لو كنا شاعرين بنوع من الخجل، كما لو كنا مذنبين آثمين. لم نعد نجرؤ على أن نحرك ساكناً كي لا نفرّط بأسانا... كنا نبكي مع أمي ونحن جالسون على المائدة... ما عدنا نحسُّ بالجوع. ما عاد لدينا رغبة بأي شيء... لم نكن نشغل حيزاً كبيراً، وتمنينا مع ذلك لو استطعنا أن نصغر ونصغر دائماً... أن نطلب العفو من أحد. من جميع البشر... كنا نسامح بعضنا بعضاً... كنا نتوسل أن نحب بعضنا بعضاً حباً عظيماً... كنا خائفين أن نفقد أنفسنا أيضاً... إلى الأبد... مثلما فقدنا كارولين.

حان موعد الدفن... تحمل خالي وحده جميع التكاليف... وقام بكل الإجراءات. وتجشم الكثير من المشقة والإرهاق، ولكنه لم يكن يظهر ذلك لأحد. لم يكن منفتحاً... وجاء إلينا ليأخذنا من الباساج، في لحظة حمل الجسد بوجه الضبط.

جاء الجميع... الجيران... وأناس فضوليون... ليقولوا لنا: "ليهبكم الله الصبر والشجاعة!" توقفنا في شارع دوفيل لالتماس بعض الزهور... اخترنا أفضل ما كان موجوداً منها... لم نختر سوى الورود، كانت تلك أزهارها المفضلة...

* * *

لم نتعود قط على غيابها، وحتى والدي فارقته سكينته واتزانه... ما عاد لديه من يناكده سواي... ورغم أنني قد أبللت من مرضي، فقد كنت ما أزال واهناً بحيث ما عدت مفيداً في شيء... ولفرط ما كان يراني كامداً شديد الشحوب، كان يتردد في تعذيبي.

كنت أتهالك من كرسي إلى كرسي... فقدت ستة كيلو غرامات من وزني خلال شهرين إثنين. كنت أتقلب في خمولي وسقمي، وأتقيأ كل زيت كبد الحوت...

لم تكن أمي تفكر بغير فجيعتها، وغاص الحانوت في طوايا الإهمال على نحو يائس. ما عدنا نبيع تحفاً أو آنية مزخرفة... ولا حتى بأبخس الأثمان... كان خليقاً أن نكفّر عن تبذيرنا الجنوني خلال ذلك المعرض... كان جميع الزبائن متصلبين معاندين. يطلبون إصلاح أقل ما يمكن من مخرماتهم، ويتراجعون من أجل مئة قرش...

كانت أمي تظل ساعات دونما حراك، مقعية فوق ساقها الهشة، في وضع غير مؤاتٍ، مذهولة عن نفسها... وحين تنهض، كان ذلك يسبب لها ألماً شديداً. بحيث تظل تعرج أينما تحركت... كان والدي حينذاك يذرع الطوابق بعكس الاتجاه الذي تسلكه أمي، لا لشيء إلا لكي لا يسمعها تئن، لأنه سيغدو بسبب ذلك أشبه بكلب دينغو مجنون...

كنت أتظاهر بأنني ذاهب لقضاء حاجتي، وأمضي للاستمتاع ببعض الإثارة اللذيذة... كنت أشد على قضيبي قليلاً. غير أني ما عدت قادراً على الانتصاب...

بالإضافة إلى الدارين اللتين آلت ملكيتهما إلى إدوارد، تركت جدتي ثلاثة آلاف فرنك أورثتها لنا... غير أن هذه النقود كانت مقدسة... ذلك ما قالته أمي على الفور... ما كان ينبغي لنا التصرف

بها على الإطلاق. كانت قد باعت قرطي أذنها بثمن زهيد، وذاب ثمنهما في القروض والسلف، أحدهما في كليشي والآخر في أزنيير...

مع ذلك فإن مخزوننا المكدس في الحانوت، من سقط المتاع غدا عديم القيمة، خلقاً، زرياً، وما عاد صالحاً للعرض بأية صورة من الصور.

كانت الجدة أيضاً تتدبر أمرها، تجلب لنا "بضائع برسم الأمانة"... نفايات من السلع كان التجار يقبلون بتسليفها لجدتي، أما نحن فكان الأمر مختلفاً... كانوا لا يثقون بنا... لم يكونوا يعتبروننا حاذقين أكفاء... كنا نفقد ريشنا يوماً بعد يوم...

حين كان والدي يعود من المكتب، يمعن التفكير في البحث عن حلول... حلول بالغة الشؤم، بات هو نفسه يعد الثريد. ما عادت أمي قادرة على ذلك... كان يقشر الفاصولياء... ويردد بأننا ننتحر داخل فرن كبير مفتوح. كفت أمي عن القيام بأي فعل... كان يعيد ذلك إلى "الماسونيين"... ويعلن موقفه ضد دريفوس!... وضد جميع المجرمين الآخرين الذين يتآمرون بضرواة على مصيرنا.

لقد فقدت أمي توازنها... بدت حركاتها غريبة... كنا نعرف خرقها ورعونتها. أما الآن فصارت تسقط كل شيء على الأرض. كانت تكسر ثلاثة صحون كل يوم... ولم تعد تتخلص من آفة العشاء التي ألمت ببصرها... كانت تقف مثل السائر في النوم... وفي المخزن كان يداهمها الخوف. ما عادت تطيق أن يزعجها أحد. فكانت تظل منزوية طوال الوقت في الطابق الثاني...

ذات مساء، وبينما هي ذاهبة إلى النوم، ولم يعد أحد منا يتوقع زيارة أي كان، إذا بالسيدة هيروند قادمة. شرعت تدق باب الحانوت، وهي تنادي... كنا قد نسيناها منذ زمن. ذهبت لأفتح لها

الباب. لم تكن أمي راغبةأن تسمع أية كلمة منها. كانت ترفض حتى أن تكلمها... دارت ببطء حول مطبخها، فقال لها أبي حينئذ:

- إيه حسناً يا كليمانس، ألم تقرري بعد؟.. أنت تعلمين بأنني سأرسلها إليك !... فكرت أمي لحظة ثم نزلت. حاولت أن تحسب عدد مخرمات الدانتيلا التي أعادتها السيدة هيروند... فلم تفلح في ذلك... كان حزنها قد بلبلها تماماً... شوش الأفكار، والأرقام في رأسها... فاضطررنا أنا وأبي إلى مساعدتها. بعد ذلك، صعدت لتنام...ولكنها نهضت من فراشها، وهبطت الدرج أيضاً وظلت طوال الليل ترتب بهياج شديد كل ما في المخزن من سقط المتاع.

في الصباح كان كل شيء منظماً أفضل تنظيم... غدت أمي شخصاً آخر... ما كنا نعرفه في يوم من الأيام... لقد شعرت بالخجل من نفسها دفعة واحدة...

فلأنها وجدت نفسها أمام السيدة هيروند في حالة مزرية، ولأن الأخرى رأتها محطمة على هذا النحو، فقد أحست بخجل رهيب!

- حينما أفكر بكاروليني المسكينة!... وبالقوة التي كانت تبديها حتى اللحظة الأخيرة! آه لو رأتني في الحالة التي كنت فيها!.

تصلبت أمي دفعة واحدة، وخططت لألف مشروع طوال ساعات الليل... ما دامت الزبونات ما عدن يأتين إلينا، إيه حسناً.يا صغيري فرديناند، سنذهب نحن للبحث عنهن!... وحتى في بيوتهن أيضاً !...سيهل الفصل الجميل عما قريب. سنغلق الحانوت بعض الوقت... ونذهب لبيع بضاعتنا في الأنحاء المجاورة... في شاتو... وفيرينيه... وبوجيفال... هناك حيث الفيلات الجميلة على مد النظر... الجميع هناك لطفاء للغاية... سيكون هذا مسلياً أكثر من بقائنا هنا

نعاني اليأس والملل!... ننتظر الزبونات من غير طائل!... إضافة إلى أنك، على هذا النحو، ستستنشق الهواء العليل!

* * *

لم تكن طريقتنا في البيع خارج الحانوت تعني لوالدي شيئاً ذا بال... كان يراها مغامرة محفوفة بالمخاطر!... كان ذلك يرعبه حين يفكر فيه. ويتنبأ لنا بأسوأ المطبات...فنحن لن نفعل شيئاً بالتأكيد سوى تمريغ بضاعتنا بالوحل والأوساخ!... إضافة إلى أننا سنعرض أنفسنا للإهانة والتجريح من باعة تلك المناطق... تركته أمي يتحدث على هواه... كانت مصممة كل التصميم.

والواقع أنه ما عاد أمامنا خيار آخر! لم نعد نأكل سوى وجبة واحدة بدل اثنتين، وأبدلنا منذ وقت طويل عيدان الثقاب بأوراق الصر، لإشعال نار الفرن.

وفي صباح أحد الأيام، حين دقت ساعة الانطلاق، اندفعنا صوب المحطة. كان والدي يحمل صرة عظيمة، حراماً كبيراً محشواً ببضائع شتى... كل ما بقي في مخزوننا من الأشياء الأقل قبحاً وهلهلة. رحنا أنا وأمي نجرجر أنفسنا، حاملين علباً كرتونية. وفوق رصيف سانت لازار، كرر والدي على مسامعنا كل مخاوفه من مغامرتنا، ثم انسل عائداً إلى المكتب.

في تلك الأيام كان الذهاب إلى شاتو يعد رحلة حقيقية. وجدنا أنفسنا جالسين فوق كومة البضاعة، والظلام ما يزال يلف المدينة... رشونا ناظر المحطة بصليب وعلم صغير فسمح لنا بالبقاء... حصلنا على حامل خشبي، ونصبناه فوراً في موقع مناسب... بين صاحبة محل للجزارة ومربٍ للطيور الصغيرة. كنا هكذا في نجوة من الأنظار.

وراءنا، كان بائع الكاتو منهمكاً في صناديق كرزه، كان يجدنا غرباء عن المكان مع ذلك السيل الجارف من الأشياء النسائية الرخيصة، والتي كان منظرها يوحي بالاشمئزاز!...

لم يكن ممر المشاة ذاك هو الأفضل، ولكنه مع ذلك كان قريباً من الحديقة، مظللاً بأشجار زيزفون زاهية الخضرة. ولما حان الظهر هلّت الزبونات، يتخطرن ببهرجة عظيمة... كان خليقاً أن نحبس أنفاسنا في صدورنا خلال تلك اللحظات، فلدى أول زفير كن يطرن بعيداً، ويمضي كالإعصار حفيف أثوابهن، وقبعاتهن المزخرفة بالدانتيلا، وشالاتهن الصغيرة، ودوائر فساتينهن. لم يكن أسهل عليهن من أن ينسللن، ينقشعن مثل غيوم.كنا نثبتهن بملاقط وكلابات. كان محمل بضاعتنا كقنفذ يمسك فرائسه بأشواكه... كانت الزبونات يطفن حولنا مفعمات بالنزوات، مثل فراشات، يتبعهن خادمة أو خادمتان... كن يعدن أيضاً... فتسعى أمي إلى إغوائهن بمعسول الكلام... تحاول إغراءهن بمطرزاتها، أو بسترات الرقص الطويلة، أو بمخرمات الدانتيلا "تقليد بروكسل" أو بالنفائس الرهيفة للسيدة هيروند

- كم هو جميل أن نلتقي بك هنا!... في هذا السوق المقام في الهواء الطلق!... ولكن هل لديك مخزن؟... اسمحي لي إذن ياسيدتي ببطاقتك!... سنأتي إليك بالتأكيد!...

ثم ينصرفن إلى مكان آخر، محفحفات بأثوابهن... دون أن نفلح في بيعهن شيئاً ذا بال... كانت تلك كلمتهن الأخيرة.

بين وقت وآخر كانت تهب زوبعة فتحمل مخرماتنا وتلقيها في دكان الجزار القريب فوق شرائح اللحم... فكان يكشر معبراً عن اشمئزازه.

لكي نصمد بنحو أفضل، كان من الضروري أن نجلب من باريس تمثالاً نصفياً ذا قاعدة ثابتة لترويج لقانا النفيسة... زخارف الموسيلين والساتان الحلزونية... ألف ترهة من الترهات والسفاسف العديمة القيمة. ولكي نحافظ بين أكوام الخضار وكروش الحيوانات على ذوق رفيع من طراز لويس الخامس عشر، وعلى جو راق مهيب، كنا نصطحب معنا إلى الضاحية قطعة أثرية حقيقية. تحفة فنية صغيرة، خزانة صغيرة بأدراج من خشب الورد... كنا نودع شطائرنا داخلها.

كان خوفنا من زخات المطر أكبر من هبات الرياح. كان سائر متاعنا الرخيص يتحول إلى ما يشبه الكريب المكرنش!... يسيل منه خضاب صلصالي عبر عشرين ساقية... فيغدو الرصيف من جرائها دبقاً... كان يتحتم أن نجفف كل ذلك بإسفنجة... وحين كنا نعود إلى البيت كانت هيئتنا زرية جداً. لم نكن نشكو أبداً أمام والدي.

في الأسبوع التالي ذهبنا إلى انجين، وفي بعض أيام الخميس إلى كلينيا نكور... في مدخل الضاحية... كنا نحط رحلنا بالقرب من سوق البراغيث... كنت أحب كثيراً هذه الأسواق المتنقلة. كانت تبعدني عن المدرسة. وكان الهواء الطلق ينعشني ويبث الحيوية في عروقي... وحينما كنا نلتقي بوالدي في المساء كان يثير في نفسي النفور والكراهية... لم يكن راضياً على الإطلاق... كان يأتي للقائنا في المحطة... كنت أنقل على الفور الخزانة الصغيرة لأضعها فوق نباتات الخطمية كي أراه يقفز قليلاً حين يحملها.

في كلينيا نكور كان زبائننا مختلفين كل الاختلاف. كنا نبسط نفاياتنا الرثة، الأرخص، والأسوأ، تلك التي كانت مخبأة في القبو منذ سنوات، ونبيعها بسعر الفجل...

في سوق البراغيث ذاته، تعرفت على الصغير باولو، كان يعمل أجيراً لدى بائعة خرداوات، يفصلها عن مبسطنا صفان من الباعة خلفنا. كان باولو يبيع الأزرار على امتداد الجادة القريبة من مدخل الضاحية. كان يتجول في السوق مسنداً لوحاً صغيراً إلى بطنه، مشدوداً إلى عنقه بخيط. "ثلاثة عشر زراً بقرشين، سيدتي..." كان أصغر مني، ولكنه أكثر حنكة بكثير... وعلى الفور صرنا أصدقاء. ما كان يعجبني في بوبول هو أنه لم يكن يلبس حذاء في قدميه، لا شيء سوى لوحين خشبيين رقيقين مربوطين بشرائط، وكان ذلك يسبب له تآكلاً في قدميه، كنت أخلع حذائي، في النهاية، حينما كنا نقوم بنزهة على امتداد التحصينات.

كان يبيع مجموعات أزراره بسرعة، دزينات من الثلاثة عشر زراً. لم يكن يجد الوقت الكافي كي ينظر إليها، العظمية منها والصدفية... ثم نصبح حرين بعد ذلك.

بالإضافة إلى عمله هذا، كان له عمل آخر كي يجمع القروش. "هذا سهل" أوضح لي... حينما لم يعد بيننا أسرار، خلف أكوام ردم الحصن 18، وداخل نفق الترام أمام فيلليت كان له لقاءات قصيرة مع بعض الكتبة والجزارين المخنثين كان يقضي لهم وطرهم، عرض علي أن أتعرف عليهم. مر زمن طويل جداً قبل أن أذهب إلى هناك... كان بالإمكان جني خمس فرنكات وأحياناً أكثر.

خلف الكشك، أراني، دون أن أطلب منه بعض المشاهد المثيرة. كان بوبول محظوظاً. وفي إحدى المرات جنى خمسة عشر فرنكاً في ليلة واحدة.

كي أهرب من البيت، كان علي أن أكذب، كنت أزعم أنني ذاهب لشراء بطاطا مقلية. كانت أمي تعرف بوبول جيداً، ما كان لها أن تشتبه

به بأية صورة من الصور. لم تكن تمانع في أن أخالطه. كنا نهرب مع ذلك معاً. فنتسكع حتى غونيس. كنت أجده صلباً لا يقهر، وحين كان يعتريه بعض الخوف كانت تجتاح جسده رعدة قوية. ويمتص فجأة لسانه، فترتسم على وجهه تكشيرة غريبة. صرت أقلده في النهاية لفرط ما تجولت معه.

كانت معلمته بائعة الخرداوات تلبسه، قبل أن ينطلق، سترة مضحكة، خاصة جداً، كما لو أنها مصنوعة لقرد، مغطاة كلها بالأزرار، أزرار ضخمة، وأزرار صغيرة، بالآلاف، من الأمام ومن الخلف، طقم كامل من عينات الأزرار الصدفية والمعدنية والعظمية.

كان ولع بوبول هو شراب الابسنت. كانت معلمته تصب له قدحاً صغيراً منه في كل مرة يعود فيها وقد باع جميع أزراره. كان ذلك يمنحه الشجاعة. وكان يدخن من تبغ الجيش، كنا نلف سكائرنا بأنفسنا بورق الجرائد... لم يكن يعاف ذلك، كان خنزيراً حقيقياً. كنا نتراهن معاً على كل الرجال الذين نلتقيهم في الشارع كم ينبغي أن يكون حجم متاعهم. لم يكن بمقدور أمي أن تبتعد عن نفايتها، ولا سيما في مثل تلك المحلة. صرت أهرب أكثر فأكثر، وإليكم ما حدث بعد ذلك:

كنت أعتقد أن بول مستقيم، صادق ومخلص، ولكنني كنت مخدوعاً به. فقد تصرف بنذالة. كان يحدثني دائماً عن أن لديه بارودة. لم أكن أفهم كثيراً ما الذي يعنيه. وقد اصطحب ذات يوم بارودته، كانت نوعاً من نقافة مطاطية ذات شعبتين مقوستين من أجل صيد الدوري. وقال لي: "سنجربها الآن، وبعد ذلك سنثقب واجهة زجاجية!...لم يكن هناك ما هو أسهل من ذلك في تلك الجادة. وبعدها سنصوب على شرطي!..." هكذا إذن! يا لها من فكرة! مررنا

بالقرب من المدرسة، فقال لي: "سنبدأ من هنا!..." كان التلاميذ يخرجون من صفوفهم في تلك اللحظة، وكان ذلك ملائماً للهرب. قدّم لي بارودته... فألقمتها حصاة كبيرة، وجذبت المطاط حتى نهايته، وقلت لبوبول: "انظر إذن إلى فوق!" وكلاك! بنغ!... با تا تراك!... أصابت الحصاة الساعة الجدارية، فتطاير كل شيء هشيماً حولها... ظللت متجمداً في مكاني مثل أبله، لم تصدق أذني الضجة التي أحدثها ميناء الساعة الذي تحول إلى فتات. وهرع المارون في الشارع نحوي... فاحترت كيف أذهب، وصرت مثل جرذ...شدوني جميعاً من أذني. فصرخت: "بوبول"... ذاب بوبول، ما عاد له أثر. جروني إلى حيث تقف أمي، وسلقوها بألسنة حداد، كان عليها أن تسدد ثمن الساعة المحطمة، وإلا فإنهم سيدخلوني السجن. أعطتهم اسمها وعنوانها... عبثاً كنت أشرح لهم: "بوبول!"... ولفرط ما نالني من الصفعات لم أعد أرى ما كان يحدث.

في البيت، وقعت الواقعة مرة أخرى، إنهال علي والدي بركلات ثقيلة من بوطه، كان يصوبها إلى أضلاعي، مشى فوقي، عراني من ثيابي، وطفق يصرخ بأنني سأقتله... وبأنني ينبغي أن أكون في السجن، ومنذ زمن بعيد!... توسلت إليه أمي، شدته من ثيابه، جرجرها وراءه، كانت تزعق "بأن الذين يدخلون السجن يصبحون أكثر وحشية" كنت أسوأ من كل ما يتصورانه... كنت قيد شعرة من المشنقة... هذا ما جلبته لنفسي!... كان هناك علاقتي ببوبول، ولكن كان هناك الهواء الطلق أيضاً والنزهات، لم أبحث عن أي أعذار.

***

ظللنا أسبوعاً كاملاً على هذا المنوال، في هياج مسعور. كان أبي يتفجر غضباً، ولفرط ما كان محتقناً كنت أخشى دوماً من هجوم

وشيك، جاء خالي إدوارد خصيصاً من رومينفيل كي يهدئ من سورته. ما كان لخالي أرتور أي تأثير عليه، لم يكن جدياً بما فيه الكفاية، أما رودلف فكان بعيداً. كان يجوب المقاطعة مع سيرك كابيتول.

ارتأى الجيران والأقارب، وجميع أهل الباساج بأن من الضروري لي أن أتناول مطهراً للمعدة، ووالدي أيضاً، لأن ذلك سيكون مفيداً لكلينا. فخلال بحثهم عن أسباب ما حدث، انتهوا إلى الاستنتاج بأن الديدان هي، بلا ريب، السبب الرئيسي الذي جعلني شريراً على هذا النحو... وجعلوني أتجرع مادة من المواد فصرت أرى الأشياء صفراء ثم كستنائية، ولكنني شعرت بالأحرى بالهدوء والسكينة، أما تأثيرها على والدي فكان أقوى، فقد ظل ثلاثة أسابيع على الأقل صامتاً صمتاً مطبقاً، ولكنه كان فقط يرشقني من بعيد، بين وقت وآخر، بنظرات حادة مرتابة. كنت دائماً عذابه، صليبه...ثم كررنا جميعاً أنا وأبي وأمي تناول المطهر، لكل واحد منا مطهّره، تناول هو ماء جانو، وتناولت أنا زيت الخروع، وتناولت هي منقوع الراوند، ومن ثم فقد قرروا بعد ذلك أن لا نعود أبداً إلى البيع في الشوارع والجادات، لأنها ستسبب ضياعي. وهكذا جعلت الأمور مستحيلة بغرائزي المجرمة.

رافقتني أمي إلى المدرسة مع ألف توصية، انتابها اضطراب فظيع حين وصلنا شارع جونور. لقد أنذرها الناس في الحي بأن المدرسة لن تحتفظ بي أكثر من ثمانية أيام. ومع ذلك فقد لبثت فيها مطمئناً قرير العين، ولم يطردوني. لم أكن أتعلم شيئاً. ذلكم هو الواقع. كانت المدرسة تثير قنوطي. لم يكن المعلم، بعثنونه يكف عن جعلنا نرمّ مسائله. كنت أتطير لمجرد رؤيته.فلأنني بادئ ذي بدء جربت مع بوبول الطواف والتجوال، صار يقززني كلياً أن أظل جالساً هكذا ساعات طويلة مرغماً على الإصغاء إلى قصص الاكتشافات والمخترعات.

في باحة المدرسة، كان الأطفال يحاولون إزالة صدأ نفوسهم، ولكن جهودهم كانت باعثة على الرثاء، كان السور الشاهق أمامهم يسحق كل شيء. وكانت الرغبة بالضحك تتلاشى داخلهم. كانوا يعودون إلى الصفوف يلتمسون علامات جيدة.. تباً!

لم يكن في المدرسة سوى شجرة واحدة. وفوق غصن من غصونها كان يحط عصفور واحد، لم يكن الأولاد يكفون عن رشقه بوابل من الحجارة وبكل أنواع النقافات حتى سقط صريعاً، فالتهمته القطة خلال الفرصة. كنت أحصل على علامات متوسطة، يساورني الخوف دوماً من الرسوب والعودة إلى الصف ذاته. كان مظهري الحسن يلقى التقدير والإعجاب. صحيح أن الغائط كان يلوث مؤخراتنا جميعاً، ولكنني كنت أنا من علم الأولاد أن يتبولوا في زجاجات صغيرة داخل الصف.

في الحانوت كانت الأنات والشكايات متواصلة على الدوام. كانت أمي تجتر أحزانها ليل نهار. تغتنم أية فرصة لاستذكار أمها، كل تفصيل صغير. فإذا دخل شخص ليعرض آنية أو حلية لحظة الإغلاق، فإنها تنفجر في البكاء... وتنبح بحسرة... "لو كانت والدتي ما تزال على قيد الحياة! هي التي كانت تعرف جيداً كيف تشتري..." أفكار كئيبة مشؤومة...

كان لنا صديقة عجوز، عرفت كيف تغتنم أحزان أمي السوداوية، تدعى السيدة ديفون. كانت في عمر العمة أرميد تقريباً. جمعت هي وزوجها بعد حرب عام 1870 ثروة طائلة، من بيع القفازات المبطنة بصوف الخراف الصغيرة في باساج بانوراما. كان لهما مخزن هناك واسع الشهرة، ومخزن آخر في باساج سومون. كانا يشغّلان في مخزنهم، في إحدى الفترات ثمانية عشر موظفاً. "لم يكن ينقطع سيل الناس الداخلين والخارجين" طالما حدثتنا جدتي عن ذلك. كانت

النشوة تستبد بالزوج لفرط ما كان يحقق من الأرباح. ولكنه فقد على حين فجأة كل شيء في قناة بناما. في مثل تلك الأزمات يفقد الرجال مقاومتهم، فبدلاً من أن يستدرك الزوج الموقف لاذ بالفرار بعيداً مع إحدى الغانيات، بعد أن باع كل ما تبقى لديه بخسارة. وحلّ الإملاق بعد ذلك. كانت السيدة ديفون تعيش في ضنك شديد. كانت موسيقاها هي ملجأها الوحيد لم يكن قد بقي لها سوى بعض الموارد الهزيلة التي لا تغني ولا تسمن، ما تكاد تكفي لإطعامها، وليس في كل الأيام. كانت تستفيد من معارفها لسد غائلة الجوع. لقد تزوجت عن حب برجل القفازات، لم تولد في حمأة التجارة، كان أبوها واحداً من ولاة الإمبراطورية. كانت تعزف على البيانو عزفاً يأخذ بمجامع القلوب. لم تكن تخلع قفازيها الخفيفين خوفاً على يديها الناعمتين الرقيقتين، ولا قفازيها السميكين في الشتاء، المطرزين بزهور الأضاليا. فقدكانت متأنقة على الدوام.

دخلت ذات يوم إلى حانوتنا، لم تكن قد زارتنا منذ زمن بعيد. كان موت الجدة قد آلمها كثيراً، لم تكن تصدق أنها ماتت! "رحلت في ربيع العمر" كانت تكرر بعد كل جملة؟ كانت تتحدث عن كارولين بتحنان كبير، عن ماضيهما، عن زوجيهما، عن جادة سومون، وعن البولفارات... بكثير من التلوينات والتعليقات اللذيذة. كانت بالغة الرقي حقاً. لمست ذلك بوضوح... وكلما أفاضت بحديثها كلما غدا كل شيء مثل حلم عذب سريع الزوال. لم تكن ترفع غلالة وجهها، ولا قبعتها، كي تحافظ على نضارة وجهها كما تقول، وخاصة من أجل شعرها المستعار. عند العشاء لم يكن لدينا قط الكثير من الطعام، وقد دعوناها مع ذلك، ولكنها في اللحظة التي انتهت فيها من طبق الحساء، رفعت غلالة وجهها وقبعتها، وكل بازارها... وجرعت ما تبقى من الحساء في قاع الطبق... كانت تجد ذلك ملائماً أكثر...

بسبب طقم أسنانها من دون شك. كنا نسمعها تحركه في فمها... كانت تتحاشى الأكل بالملاعق، وتحب الكراث حباً شديداً، ولكن كان ينبغي أن نقطعه لها قطعاً صغيرة... كان هذا يثير جلبة مزعجة. حينما انتهينا من الطعام لم تكن راغبة بعد بالمغادرة، غدت خفيفة مرحة، وجلست إلى البيانو، وهو لزبونة رهنته عندنا ثم نسيته. لم يكن مدوزناً غير أنه كان ما يزال يعزف بصورة حسنة.

لما كان والدي يتضايق من كل شيء، فقد كانت الجوزة العجوز تثير أعصابه أيضاً بحركاتها وإيماءاتها. ولكنه شعر بالرضى، مع ذلك، حين عزفت بعض الألحان.مثل "لوسي دو لا ميرمور"، وعلى الأخص لحن "ضوء القمر".

صارت تزورنا غالباً، لم تكن تنتظر دعوتنا... كانت تدرك وضعنا المشوش. فحين نكون منهمكين في ترتيب الحانوت كانت تصعد إلى الأعلى، في أقل من لمحة عين، وتجلس إلى مقعد صغير، وتبدأ بفالسين أو ثلاثة، تعزف بعدها "لوسي" و "ويرذر"، كان لديها ذخيرة لا تنفد من الألحان، كل ألحان "شاليت" و "فورتينو". وحينئذ نضطر إلى الصعود. لم تكن تتوقف قط عن العزف إلا حين نجلس إلى الطعام، وحين تلمحنا مقبلين تقول "كوكو!..." وخلال العشاء كانت تذرف الدموع بلطف شديد حين تبكي أمي. ولكن دون أن يضعف ذلك من شهيتها. لم تكن المعكرونة الشريطية تزعجها، كانت طريقتها في طلب المزيد تشعرني بالذعر. وفي كل مكان تذهب إليه كانت تهيج الذكريات الغافية لدى بائعات أخريات، محزونات أكثر أو أقل، في هذا المخزن أو ذاك، كانت تعرف قليلاً أو كثيراً جميع الذين ماتوا في الأحياء المجاورة، في ماي، وفي غيون، ولم يعدم ذلك أن يوفر لها حاجتها من الطعام.

كان لها وقوف تام على قصص جميع عائلات الباساج، فضلاً عن أنه ما كان أحد يضاهيها حين يكون هناك بيانو. كان عمرها ينوف على التاسعة والسبعين، ومازال بمقدورها أن تغني "فاوست" بعد اتخاذ بعض الاحتياطات، فقد كانت تعلك كرات من الصمغ كي لا يبحّ صوتها... مشكّلة جوقة بمفردها، باستخدام يدها كبوق. "مجد لا يموت!"... كما تفلح في القرع بأقدامها فيما هي تعزف لحناً من الألحان.

في النهاية، لم نكن نتمالك أنفسنا لفرط ما نضحك، كانت الضحكة تنفجر من أنوفنا. لم تكن الأم ديفون تتوقف عن القهقهة لحظة. كان لها طبيعة فنان. كانت أمي تشعر بالخجل، ولكنها كانت تضحك مع ذلك، وكان هذا يواسيها ويخفف كربها.

***

لم يعد باستطاعة أمي الاستغناء عنها، على الرغم من عيوبها، ومن مكرها. كانت تصطحبها إلى كل مكان تذهب إليه. وفي المساء كنا نرافقها حتى بوابة بيسيتر، لتعود بعد ذلك إلى بيتها في كريميلين سيراً على الأقدام.

في أيام الأحد صباحاً، كانت تأتي إلينا من أجل الذهاب معاً إلى المقبرة. كانت مقبرة عائلتنا هي مقبرة "الأب لاشيز". لم يكن والدي يدخل إليها قط. كان يحسُّ بالرعب من القبور. لم يكن يتجاوز الروند بوان، مقابل الروكيت. كان يقرأ جريدته هناك بانتظار خروجنا.

كنا نتعهد ضريح جدتي بالرعاية الفائقة. كنا نحمل معنا أحياناً كل زهور الليلك، وأحياناً أخرى كل زهور الياسمين، ونحمل الورود في كل مرة. كان ذلك هو الترف الوحيد للعائلة. كنا نغير أصص زهوره ونجلو بلاطه. أما داخل السرداب فكان أشبه بمسرح عرائس، بتماثيله

الصغيرة الملونة، وبأغطيته من الدانتيلا الحقيقية. كانت والدتي تسرف في العناية به. فقد كان ذلك عزاؤها. تتفنن في تجميله وتزيينه من الداخل.

بينما كنا نحن نقوم بالتنظيف كانت أمي لا تكف عن النحيب. لم تكن كارولين قد طال عليها العهد تحت التراب. كنت أفكر دائماً بأزنيير.. وكيف كنا أنا وجدتي نعنّي أنفسنا هناك عبثاً من أجل المستأجرين. كنت أراها ماثلة دوماً أمام ناظري. كنا عبثاً نعيد تلميع المدفن وغسله أيام الأحد، كان ينبعث من أعماقه مع ذلك رائحة صغيرة غريبة، أشبه برائحة الفلفل. رائحة نافذة، خشنة، تسري في كل ركن من أركانه. وحين تشمها مرة، فإنك تشمُّها بعد ذلك أنَّى توجهت، على الرغم من الزهور... فهي تنبعث من داخل عطرها ذاته... خلفك تماماً... تصيبك بالدوار... كما لو أنها منبعثة من ثقب... تخال بأنك لا تشمُّها... ومن ثم فها هي ذي تكتنفك!... كنت أنا من يذهب إلى طرف الممر ليرش ماء الإبريق فوق أصص الزهر، وحين أنتهي من ذلك... ينحبس الكلام في حلقي... ويطفو فوق قلبي شيء من أثرها... كنا نغلق باب المدفن... نتلو صلاتنا... ونعاود النزول إلى باريس.

لم تكن السيدة ديفون تكف عن الثرثرة، فيما نحن نسير، وعن النهوض باكراً، وعن الانهماك في ترتيب الزهور فوق القبر، وعن التباكي زمناً طويلاً، كان ذلك يفتح شهيتها... كانت تعاني أيضاً من مرض السكري، وما ينفك الجوع ينهش أمعاءها... فما إن نصبح خارج المقبرة حتى تعاودها الرغبة في الطعام. ولا تكف عن الحديث عنه. كان ذلك يغدو وسواساً حقيقياً "هل تعرفين يا كليمانس ما الذي أتوق إليه؟ من دون شراهة!... قطعة صغيرة مربعة من لحم الفالانتين فوق رغيف صغير ليس جافاً جداً. ما رأيك أنت في ذلك؟"

لم تكن أمي تجيب بشيء. كانت مرتبكة مشوشة. أما أنا فكانت تجتاحني الرغبة فجأة بأن أقيء كل ما في معدتي في المكان ذاته... ما عدت أفكر قط في شيء سوى بالإقياء... كنت أفكر بالفالانتين برأس كارولين الذي لا بد أن يكون مملوءاً به الآن تحت التراب... بكل الديدان، السمينة جداً، الضخمة التي تدب على قوائم، والتي كان لا مفر من أن تقرض... من أن تعج داخله... كل العفونة... ملايين الديدان التي تدب داخل ذلك الصديد المنتفخ. تفوح رائحتها مع الريح.

كان أبي واقفاً هناك... وقد وجد ما يكفيه من الوقت كي يسندني خلف الشجرة بعد أن تقيأت كل شيء... تقيأت كل ما في أمعائي فوق السور الشبكي... لم يقم أبي سوى بقفزة واحدة... لم يتحاش كل سيل القيء المتدفق...

"آه! أيها السافل!..." صرخ بي. كان بنطاله قد تلوث تماماً... كان الناس ينظرون إلينا. وقد اعتراه خجل شديد، وانصرف وحده على عجل من الجهة الأخرى صوب الباستيل. ما عاد يريد أن يعرفنا. دخلت مع السيدتين إلى مقهى صغير لأتناول كأساً من منقوع الزيزفون كي أتماسك... كان هذا المقهى صغيراً مقابل السجن بالضبط.

وفيما بعد، كنت أمر غالباً من هناك. كنت أشاهد المقهى في كل مرة، ولكنني ما كنت أرى أحداً داخله على الإطلاق.

* * *

كانت الديون قد أثقلت كاهل الخال أرتور، فمن شارع كامبرون وحتى شارع غرينيل لم يبق أحد لم يستدن منه. ولم يرد لأحد ديناً قط، حتى غدت حياته لا تطاق. كيس مثقوب. وفي ليلة من الليالي رحل سراً

عن مسكنه، بمساعدة أحد أصدقائه. حزما بازارهما فوق عربة يجرها حمار، وغادرا باتجاه الضواحي. وقد مرا بنا ليخبرانا، فيما كنا نائمين.

كانا قد وقعا على بيت، ليس بوسع أحد أن يهتدي إليه ويزعجهما، فوق تلة اتيسمون. وفي اليوم التالي انكفأ الدائنون نحونا، ولم يعد أولئك القساة الغلاظ يفارقون الباساج، وذهبوا إلى مكتب أبي أيضاً. كانت تلك فضيحة مجلجلة. وانقلب أبي إلى وحش كاسر، وراح يبحث عن مسدسه.

- أية نفاية قذرة! أية طغمة حقيرة! أي أوباش قذرين جميع أفراد هذه العائلة! ما من دقيقة أرتاح فيها! لقد جاؤوا ليزعجوني حتى في المكتب!... قضى إخوتي عمرهم في الأعمال الشاقة! وباعت أختي فرجها في روسيا! وحمل ابني كل الرذائل والعيوب! لكم أنا جميل! آه! لكم أنا مسيح!..." لم تجد أمي ما تقوله، ما عادت ترغب في النقاش. كان بوسعه أن يتسلى بالشكوى ما شاء له ذلك.

كان الدائنون متأكدين بأن والدي رجل شريف... ما عادوا يتزحزحون قيد أنملة، ما عادوا يفارقون مخزننا. كنا نجد مشقة بالغة في توفير لقمة عيشنا... وإذا ما سددنا ديون خالي فسنهلك ربما عن آخرنا...

"سنذهب إليه الأحد القادم!... اتخذ أبي قراره حينئذ. سأكلمه كلام رجل لرجل بكل ما أفكر به تجاهه!...".

انطلقنا عند الفجر لنضمن وجوده في البيت، كي لا يكون قد خرج واختفى أثره... في البداية، ضللنا طريقنا إلى بيته... ثم اهتدينا إليه أخيراً... كنت أظن أنني سأجد الخال أرتور منهاراً، شاعراً بالندم، يتملكه الهلع، في زاوية مظلمة من أحد الكهوف، يطارده ثلاثمئة دركي، يقضم جرذاناً منقوعة بالخل... مثلما يحدث في قصص

"الصور الجميلة" لهاربين من سجن الأشغال الشاقة... كان خالي أرتور شيئاً آخر... وجدناه جالساً إلى مائدة في حانة "آديل الجميلة". احتفى بنا تحت غصون أيكة ظليلة. كان يشرب خمراً فاخرة، بالـدين، ومـن دون كسر!... نبيذاً أحمر ممسكاً... كان يبـدو هانئـاً قريـر العين... لم يكن في يوم من الأيام أفضل مما هو عليه الآن... كان يثير المرح فيمن حوله جميعاً... وجدناه شخصاً لا يـضاهى... هرعنـا نحـوه للاستماع إليه... لم يكن هناك في "آديل الجميلة" مثل هذا العدد مـن الزبـائن في أي يوم من الأيام... جميع الكراسي كانت مشغولة، وتجمع عدد كـبير من الأشخاص فوق درج الحانة... جميع الملاكين العقـاريين الـصغار حتى منطقة خوفيزي... وسائر صيادي الأسمـاك في قطـاع الـشلالات كانوا يرتقون درج "آديل الجميلة" كـي يـشربوا ويـصغوا إلى مـا يرويه الخال أرتور... وهم لم يضحكوا يوماً مثلما كانوا يضحكون الآن.

كان لدى خالي مـا يرضـي جميـع الأذواق! سـائر الألعـاب، وسـائر الألهيات... والنقاشات!... والأحاجي!... بـين الأشـجار!... ومـن أجـل السيدات... كان الخال آرتور هو المـرح عينـه، لقـد فـتن الجميـع، كـان يبذل جهده، ويـستخدم مهاراتـه بـشتى الطـرق... ولكنـه لم يكـن يخلـع قبعته، ولا وشاح الفنانين الكستنائي! وحتى في غمرة قيظ الـصيف. كـان يتصبب عرقاً... لم يغير شيئاً في مظهره... حذاءه المـدبب كمنقـار الـبط، وبنطاله المخملي المقلم، وربطة عنقه العريضة، ورقة الخس...

ولميله إلى الخادمات، فقد غوي ثلاثـة منـهن، سـعيدات للخدمـة وللحب... لم يعد راغباً بأن يحدثه أحد عن أيـام بؤسـه في فـوجيرارد. لقد أصبحت تلك الأيام نسياً منسياً. كان يبني كل حياته من جديـد!... لم يـدع أبي يكمـل حديثـه... ويـسترسل في حماقاتـه... كـان يعانقنـا واحداً واحداً... طافحاً بالسرور لرؤيتنا من جديد.

"آرتور! هل تريد أن تنصت إلي لحظة!... دائنوك تعلقوا ببابنا!... من الصباح وحتى المساء!... أرهقونا بالمطالبة بديونهم!... هل تسمعني؟" كان آرتور يكنس بحركة من يده كل هذه الاستذكارات التعسة، فكان أبي ينظر إليه مثلما ينظر إلى أبله بائس عنيد... كان يشفق عليه بالمحصلة!. "هيا، تعالوا جميعاً من هنا!... هلم يا أوغست! سنتحدث عن ذلك فيما بعد! سأريكم أجمل المشارف المطلة على المنطقة... سانت جيرمان لا قيمة لها بالمقارنة مع هذه المطارح!... هناك أيضاً طريق صغيرة شديدة الانحدار... تلك الطريق إلى اليسار وبعدها قبة الخضرة... وفي النهاية هناك، يقع مشغلي!...".

كان يسمي كوخه على هذا النحو... كان موقعاً هادئاً حقاً. أطللنا من كوخه على الوادي بكامله... على مجرى السين حتى فيلينوف سانت جورج وعلى تخوم غابات سينار من الجهة الأخرى. لم يكن أحد يحلم بأفضل من هذا. كان آرتور محظوظاً، لم يكن يدفع أية أجرة، ولا درهماً وحداً، زاعماً أنه كان يحرس بركة ماء لأحد الملاّك.

لم تكن البركة تمتلئ إلا في الشتاء، أما في الصيف فكانت تجف تماماً. كان يحوز على رضى السيدات اللواتي يقمن معه. لقد حرر أولئك الخادمات من الحاجة... كان يتوفر لديه ما يأكلنه وبوفرة!... من الخمر الممسّكة كما في الحانة، ومن السجق والخرشوف، بكميات وفيرة، والتي كانت أمي تحبها كثيراً. لم يكن تعيساً على الإطلاق... حدثنا عن كيفية تأمين طلباته... من الحانات والبقاليات والأفران "هم يقدمون لي ما يفيدني وأنا أقدم لهم ما يمتعهم!" على هذا النحو كان يرى الحياة... كانت جدران كوخه مغطاة برسوم لأسماك الزنجور، والكوماك، باللون الأزرق والأحمر القرمزي... وبلوحة لـ"البحارة الحسناء" لصديقة غسالة ذات نهدين لامعين

متلألئين... فكرة بارعة جداً. كان المستقبل مأموناً... يمكنه أن يستمتع ما شاء له الاستمتاع.

قبل أن نذهب إلى القرية، طمر في التراب ثلاث أو أربع جرار كبيرة مملوءة بالأطعمة وبالنبيذ الأبيض. طمرها في أحد الأثلام على غرار كنز... لم يكن يرغب في أن يترك خلفه أي أثر. كان يرتاب بالأشخاص الذين يعبرون المكان. وكتب على باب كوخه بالطبشور "لن أعود أبداً".

نزلنا إلى هويس النهر. كان يعرف جميع النوتيين... سرنا مسافة طويلة فوق طريق منحدر عمودياً. كانت أمي تظلع خلفنا، وحين وصلنا كانت مهدودة القوى، لبثت جالسة على أحد التخوم المشرفة. شاهدنا سفن القطر، وحركة الزوارق الصغيرة في البركة وقد اتخذت مظهراً بالغ الإثارة، رهيفاً على غرار أقداح زجاجية أمام الأسوار، لا تجرؤ على الدنو من أي مكان.

بصق عامل الهويس المنتفخ تبغه ثلاث مرات، خلع سترته، نظف حنجرته ودمدم فوق المزلاج اليدوي، اهتز باب الهويس ذي المحاور، وأطلق صريراً، وأقلع على دفعات صغيرة... ضغطت الدوامات بقوة، فتسرب الماء من المصراعين واستسلما أخيراً... فاندفع ماء النهر بقوة... وأطلقت "الارتميز" صفرة طويلة... فتهادى موكب المراكب العائم فوق النهر...

من بعيد، كانت تلوح فيلينوف سانت جورج... صفوف من المصاطب الرمادية لقرية ايفيت خلف التلال... وفي الأسفل، ينبسط الريف، السهل الفسيح... والريح متحفزة للوثوب... تعابث النهر... تعذب الحوض العائم... ويسمع من أعماق الوادي اللانهائية الأنغام

الثلاثية للأغصان وسط المياه... منبعثة من كل اتجاه... وبين الفينة والفينة تموج النسمات العليلة... لم يعد ثمة مكان للحديث عن الديون... ما عاد أحد يذكرها... كانت روعة الجو قد أسكرتنا... فخضنا مع الخال آرتور في الهذر والثرثرة... كان راغباً أن يقطع بنا النهر، ولكن أمي رفضت النزول إلى القارب... فصعد هو وحده زورقاً صغيراً بمجذافين، وشرع يعرض علينا مواهبه. كان يجذف بعكس تيار المياه. شعر والدي بالانتعاش وأغدق عليه ألف نصيحة، وحثه على الأخذ بالحذر والتحوط. وحتى أمي التعيسة، انتابها الحماس، ولكنها كانت تخشى ما هو أسوأ. كانت تعرج وهي ترافقنا على امتداد الضفة.

أزعج الخال أرتور الصيادين، كانوا ينشرون اليرقات من فوق مقاعدهم الحجرية... وقد أوسعوه شتماً وتعنيفاً، كان يخبط بمجذافيه خبط عشواء وسط النيلوفر... ولكنه واصل التجديف، كان ينضح بالعرق مثل ثلاثة مصارعين، ثم استدار بزورقه ومرَّ داخل المعبر الضيق، كان عليه أن ينحرف بسرعة نحو الدعامات الخشبية، ليلوذ عن طريق "تويوز العظيمة". ثم لاحت من بعيد القاطرة "زهرة البحار" تتقدم متهادية، مطلقة هديراً هائلاً... كانت تغوص عميقاً في قاع النهر... فترفع إلى السطح كل شيء... الطمي والجثث وأسماك الزنجور، وتلطخ الضفتين وتدك جدرانهما في آن معاً... كانت تنشر الخوف والوبال في كل مكان تمر فيه.

مجموعة القوارب الصغيرة الراسية على الضفاف، انقلبت على أوتادها... وعم الخراب ثلاثة أحواض... فحلت الكارثة بالقوارب! ها هي ذي "زهرة البحار" تظهر من تحت الجسر، فيرتج هيكله من القاع وحتى أطنافه البارزة، وسائر خردة وقاذفات وأعتدة الجحيم.

كانت تسحب خلفها عشرين قارباً على الأقل مملوءة ببقايا الفحم الحجري، لم تعد تلك اللحظة بالنسبة إلى خالي لحظة زهو وتباه...أمسك بأحد حبال القنب، لم يكن لديه الوقت الكافي لبلوغ الضفة... ورفع الموج المتلاطم قاربه عالياً، فسقطت قبعته الجميلة في المياه العكرة... انحنى قليلاً، أراد بذل المزيد من الجهد... فقد مجدافه... فطار صوابه... قاوم... وترنح... وسقط في الماء على طريقة "المبارزات الليونية"، سقط إلى الخلف، على ظهره!... ولحسن الحظ فقد كان يجيد السباحة... اندفعنا نحوه، وشرعنا نعانقه ونهنئه على سلامته. كانت "القيامة" قد ابتعدت، متجهة شطر ريز ـ أورانجي، ناشرة أهوالاً أخرى.

التأم الشمل من جديد في "بيرت دوغوجون"، ملتقى عمال الهويس، هنؤوا بعضهم بعضاً وانخرطوا في الشراب. ما كاد خالي أرتور يجفف ملابسه حتى جمع حوله كل معارفه... كان لديه فكرة... إنشاء نادٍ باسم "رفاق الشراع". كان الصيادون أقل حماساً... جمع خالي الاشتراكات... وهبَّ الأصدقاء الصغار لعناقه... لبثنا حتى موعد الحساء... وتحت المصابيح المتلألئة، وبين البعوض والثريد، انطلق خالي يغني أغنيته العاطفية: "قال لي شاعر..." ما من أحد من الحضور كان يرغب في أن يعود خالي إلى بركته التي يحرسها... استأثروا به جميعاً. وما عاد هو يعرف أين يذهب بنفسه.

انطلقنا عائدين إلى المحطة. انسللنا من المقهى بهدوء. كان خالي ما يزال يصدح... ولكن والدي لم يكن مسروراً... ولا سيما حين كان يمعن التفكير... كان منكفئاً على ذاته... حاقداً بشدة على نفسه لأنه لم يقل للخال ما كان يريد قوله... لقد فقد ثقته بنفسه وعاد بأفكاره مرة أخرى إلى آرتور. كان يمتلك قارباً بشراع حقيقي... شراع صغير مثلث

في المقدمة... كان الخال يتمايل وهو يغني "سول ميو"، فيتردد صدى أغنيته الجميلة بعيداً. كان بالغ الفتنة. ولكن ذلك كان أكثر مما يحتمله أبي... لم يعد ممكناً البقاء، كنا قد انسللنا قبل الشراب، مثل جبناء... دون أن يرانا أحد ونحن نخرج... وما عدنا قط إلى زيارته ثانية. ماعاد من الممكن مخالطته... فقد كان خالي يفسدنا...

بعد عمله عشر سنوات بالضبط في مكتب التأمين، حصل والدي على إجازة لمدة خمسة عشر يوماً مدفوعة الأجر.

لم يكن من المعقول أبداً أن نذهب هكذا ثلاثتنا لقضاء العطلة... كان ذلك يكلف مبالغ طائلة... ولكن الصيف كان فظيعاً، والحر الشديد يكاد يهلكنا في الباساج، ولاسيما أنا الذي كنت بالغ الشحوب والوهن. كنت أعاني من قصور في النمو، ولم أعد قادراً على الوقوف على قدمي بسبب فقر الدم. وقد وجد الطبيب وضعي مقلقاً حين ذهبنا لاستشارته... "ما يحتاجه ولدكم من الهواء الطلق ليس خمسة عشر يوماً فقط بل ثلاثة أشهر!..." ذلك ما قاله الطبيب.

"باساجكم هذا، قال لنا أيضاً، أشبه ببيت زجاجي تفوح فيه العفونة... لن تجنوا منه فجلاً! إنه مبولة حقيقية... عليكم الخروج منه!...".

كان بديهياً أن تعود أمي من عيادة الطبيب باكية... كان علينا توفير مبلغ إضافي. لم نكن نرغب أن نمد يدنا إلى ثلاثة الآلاف فرنك التي ورثناها عن جدتي... قرر والدي إذن العودة إلى الأسواق: ميرس... وأونيفال، ودييب على الأخص... كان علي أن أعدهم بأن أظل هادئاً تماماً... وأن لا أحطم ميناء الساعات... ولا أسمع كلام الصبيان السيئي التربية، ولا أبتعد عن أمي بوصة واحدة... أقسمت على كل ما

طلبوه مني... بأن أبقى عاقلاً ومعترفاً بجميلهما أيضاً... وأن أبذل جهداً بعد العودة من الأسواق كي أنجح في السرتفيكا...

بعد أن اطمئنا من جهتي، أعلنا بأن في وسعنا الانطلاق. أغلقنا باب الحانوت وقررنا الذهاب في البداية إلى دييب، حاسبين حسابنا أنا وأمي لشهر كامل. كانت السيدة ديفون تأتي إلى البيت من وقت إلى آخر لترى ما إذا كان ثمة ما يثير الشبهة أثناء غيابنا... أما والدي فسيلتحق بنا فيما بعد، قاطعاً الطريق على دراجته، وسيمضي أسبوعين إثنين معنا.

ما إن وصلنا إلى دييب، حتى تدبرنا أمرنا، أنا وأمي بسرعة فائقة، لم نصادف كثيراً من المتاعب، في الحقيقة. أقمنا فوق مقهى "ميزانج". حشيّتان على الأرض، عند موظف في البريد. أما الإزعاج الوحيد فكان حوض المغسلة، والذي كان يفوح برائحة كريهة.

حين هممنا بعرض بضاعتنا في الساحة الكبيرة، انتاب الخوف أمي فجأة. كان معنا مجموعة من الأواني المزخرفة، والمطرزات، وترهات أخرى رجراجة، تنقلب بسهولة. كان من المجازفة غير المأمونة وضع كل ذلك في الهواء الطلق، وسط مدينة لا نعرفها... وبعد إمعان التفكير، فضلنا الذهاب بأنفسنا خلف الزبونات. كان ذلك مضنياً جداً، ولكنه أقل مجازفة من التعرض للسرقة... ومن أقصى الاسبلاندر إلى أقصاها، قبالة البحر، كنا نقرع الأبواب، باباً باباً. وهو ما كان يتطلب جهداً شاقاً. كان متاعنا ثقيلاً باهظاً. كنا ننتظر أمام الفيلات، فوق مقعد مقابل، كان هناك أوقات ملائمة لقرع الأبواب، حين كانوا ينتهون من طعامهم... لابد أيضاً من سماع أصوات عزفهم على البيانو... وهاهم يدخلون الآن إلى الصالون.

كانت أمي تقفز من مقعدها حينئذ، تنط إلى الجرس... كانوا يستقبلونها استقبالاً حسناً أو سيئاً... ولكنها كانت تفلح في بيعهم شيئاً مع ذلك...

عببت من الهواء كثيراً، ولفرط ما استنشقت منه غدوت ثملاً... وفي الليل أيضاً كان ذلك الهواء النقي يوقظني. لم أعد أرى سوى أيور وفروج، وقوارب، وأشرعة... كان الغسيل فوق الحبال، يرفرف أمامي. فيصيبني مرآه بمغص شديد... هذا ينتفخ... وذاك يهيّج. كل بناطيل الجارات...

كنا نتحاشى البحر، ونحرص كل الحرص على العبور في الشوارع الصغيرة المحمية. كانت العاصفة البحرية تصيبنا بالهذيان. أما أنا فلم أعد أكف عن التهيج والاضطراب.

في الغرفة الملاصقة لغرفتنا كان هناك ابن وكيل تجاري. كنا نكتب جميع واجباتنا المدرسية معاً... اختبرني قليلاً في ممارسة العادة السرية، كان يرتعش أكثر مني. كان يأتي إلى دييب كل عام، فكان يعرف إذن كل أنواع السفن. أطلعني على جميع تفاصيلها وتجهيزاتها وقلوعها... المراكب الثلاثية الصواري... والرباعية الصواري... وسفن الصيد... كان ذلك يشغفني، بينما كانت أمي تطرق أبواب الفيلات...

تعرفنا أنا وأمي فوق الشاطئ على بائع جوز الهند وعلى إحدى البائعات المتجولات،... لفرط ما رأيناها تدب تحت ثقل صرتها... في داخل تلك الصرة كان هناك مطرزات. نماذج كثيرة، وأعمال مشغولة للسيدت، ومكاوٍ للثياب... كانت تبيع أيضاً كلى وجلود أرانب، ومفارش صغيرة.

خلال جولتنا كنا نحاذر الاقتراب من المرفأ أيضاً، بسبب الصوى والحبال التي يتعثر العابر بها بسهولة شديدة. لم يكن هناك مكان غادر مثل تلك المطارح. وإذا ما سقط العابر في الطين، فسيبتلعه حتماً، وسيظل عالقاً في جوفه. ثم تأتي السرطانات لتلتهمه، ولن يقع أحد له على أثر...

كانت صخور الشاطئ خطرة أيضاً. ففي كل عام تنسحق عائلات بكاملها تحت الصخور، بسبب طيش أو كبوة، أو شرود تعيس... وإذا بالجبل ينقلب فوقك... لم نكن نجازف إلا القليل، فلا نخرج كثيراً من الشوارع. وفي المساء، وبعد تناول الحساء مباشرة كنا نعاود قرع أجراس البيوت، خلال جولة واسعة على امتداد جادة الكازينو.

كنت أنتظر أمي أمام الفيلات، على مقعد خارج الفيلا. فأسمع أمي في الداخل، يبح صوتها لفرط ما تتكلم... كانت تحمّل نفسها عناء شديداً... كنت أعرف كل الحجج التي تدلي بها... وكنت أعرف أيضاً جميع الكلاب الضالة... كانت تأتي، وتنخر، ثم تنسحب سريعاً... وأعرف كل الباعة المتجولين... تلك هي الساعة التي يعودون فيها مع عرباتهم الصغيرة... يسحبونها، يدفعونها، وقد برّح بهم التعب... ما من شخص يلتفت إليهم، ما عادوا يتضايقون أو يتذمرون... كانوا ينفثون كربهم فوق عرباتهم... ويدفعونها دفعة أيضاً حتى الزاوية الأخرى من الرصيف... المنارة تحملق في الليل. يسفح ضوؤها فوق الرجل الطيب... مدحلة الرمال تمتص الحصى... ينهرس... تدحل أيضاً... يتقصف... تعود... يهمد...

* * *

علمنا من الإعلانات المعلقة في الشوارع بأن سباقاً للسيارات سيجري بعد انتهاء معرض الخامس عشر من آب. وهذا قمين بأن يجتذب عدداً كبيراً من الناس، ولاسيما من الانكليز. قررت أمي البقاء في هذه المدينة بضعة أيام أخرى. لم نكن محظوظين كثيراً. فقد تعكر الجو طوال شهر تموز، مما اضطر الزبونات إلى البقاء في البيوت يتسلين بالرتق والتطريز، وهو ما أعاق تجارتنا بقبعات الشارلوت المزينة بالدانتيلا، وسترات البوليرو الطويلة والأشغال النسائية... هذا إن كن يشترين أيضاً!... ولكنهن لبثن يرقعن بسطهن وفرشهن!... ويثرثرن أحياناً على الشاطئ أكثر مما في قلب المدينة، شأنهن شأن النساء المدينيات اللواتي لا يتحدثن إلا عن الخادمات وعن الخراء...

كن يتمرغن في كسل وبلادة حقيقيين، يرحن ويجئن عشرين مرة... متسكعات حول موديلاتنا.

لم يعد أبي واثقاً بما نقوم به، كان يبدي قلقه وتذمره في الرسائل التي يرسلها إلينا. كان يعتبرنا خائبين كلياً. كنا قد بددنا أكثر من ألف فرنك... أجابته أمي بأن يسحب من الميراث. كان ذلك بطولة حقيقية، ولكنه ربما يؤول إلى نهاية سيئة. كنت أرى سوء الحظ يحيق بي. كتب لنا بأنه قادم إلى المدينة، فانتظرناه أمام الكنيسة. ثم ظهر أخيراً على دراجته ملطخاً بالوحل.

كنت أعتقد بأنه سيرهقني من أمري عسراً، سيجلب لي المصائب. وهيأت نفسي لصراع ثيران عنيف... ولكن لا شيء من ذلك... كان يبدو، على العكس، سعيداً لأنه وسط عالم جديد، ولأنه وجدنا هناك. وهنأني بالأحرى على سلوكي وعلى طلعتي المشرقة. تأثرت كثيراً. واقترح، هو نفسه القيام بجولة نحو المرفأ. كان متبحراً في

شؤون السفن، يتذكر كل شيء عنها منذ أيام فتوته، خبيراً بمناوراتها. تركنا أمي تذهب مع متاعها، وانطلقنا معاً نحو الأحواض. أتذكر جيداً المركب الروسي الثلاثي الصواري، الناصع البياض، وهو يتجه نحو المضيق الذي غمره المد.

كان يمخر عرض البحر منذ ثلاثة أيام، شاقاً بطن الأمواج العاتية... يغمر الزبد أشرعته الأمامية... كان محملاً بشحنة هائلة من الروافد الخشبية، تلال شاهقة منها تتكدس فوق كافة جسوره، أما أنباره فكانت ملأى بالثلج فقط، مكعبات ضخمة لامعة من أجل بيعها للمقاهي... ذهبنا لاستقباله أنا ووالدي، سرنا من المنارة الصغيرة وحتى الحوض الذي سيرسو فيه. كان رشاش الماء يعيق حركته، كان دوقله الهائل يشق الماء بقوة... رأيت القبطان أيضاً، أشبه ببوذا ضخم يزعق ببوقه، عشر مرات، زعيقاً قوياً مثل والدي! تراكض نوتيوه متسورين أكبال الأعمدة كالأرانب. تسلقوا بخفة إلى الأعلى فوق جميع الصواري والأشرعة، وحبال الرفع... خيل إلينا خلال الليل بأنه سيصطدم بالصخور...

غطس والدي رأسه داخل قبعته... لم نعد إلى كوخنا إلا في الليل... كان ثمة ثلاثة صيادين يتحادثون، يتردد صدى أصواتهم عند مدخل الميناء.

كانت أمي قلقة لتأخرنا. وجدناها تنتظر عند مقهى "البتيت سوري"... لم تبع شيئاً ذا قيمة... لم نكن نبالي نحن الآخران إلا بالأسفار في عباب اليم.

* * *

كان والدي يجيد السباحة، مولعاً بالاستحمام. أما أنا فلم يكن ذلك يعني لي شيئاً كثيراً. لم يكن شاطئ ديبب جيداً للسباحة. أخيراً، كانت تلك أيام العطلة! وكنت على الأخص قد غدوت أشد قذارة مما كنت عليه في الباساج.

لم يكن لدينا في غرفتنا في "ميزانج" سوى طست صغير لنا نحن الثلاثة. توقفت كلياً عن غسل قدميّ، فصارتا تصدران رائحة نتنة، أشبه برائحة حوض المغسلة.

كان الاستحمام في البحر هو الشجاعة بعينها. ترتفع الأمواج، مستشيطة هادرة، سافية مئة ألف حصاة، تهدر، وتنسحق، ثم تنهشني.

كنت أنتفض منكشط الجلد، مرتعشاً كالريشة، رازحاً تحت وطأة الألم... عالم من الحصباء يدغدغ كل عظامي وسط ندف الأمواج المزبدة. كان رأسي هو الذي يصطدم في البداية، يتأرجح، يندك وسط لجٍ من الرمل والحصى، كل ثانية هي الأخيرة من عمري... أما والدي، بسروال سباحته المخطط فكان يجهد رئتيه وسط واديين عميقين هادرين شكّلهما الموج المتلاطم... يلوح لي من بعيد... وهو يتجشأ... يفرغ كل جهده، يتلفظ بحماقات. تطوح به موجة كالمدحلة، تقلبه، ثم ترتفع عالياً أشبه بالنوغا... ها هو يلبط برجليه مثل ضفدع... ثم لا يعود ينهض من عمق الهوة، إنه هالك لا محالة... ترتطم بصدري حينئذ رشقة كاسحة من الحصى... تغربلني... تغوص بي... يتملكني الهلع، يسحقني المد المندفع، يسحبني أيضاً، ثم يقذفني فأجد نفسي متمدداً عند قدمي أمي... فتهم بأن تمسك بي، أن تنتشلني... فيمتصني الموج ويفصلني عنها... يذهب بي بعيداً... فتطلق صرخة رهيبة، ويهرع كل من على

الشاطئ... ولكن كل جهد مني كان سدى... تجمع السباحون، هاجوا وماجوا... حينما دفعتني موجة غاضبة إلى القاع، ثم طفوت محشرجاً فوق السطح... لمحت في أقل من لمعان البرق بأنهم يتحدثون عن غرقي وهلاكي... كانوا متجمعين هناك بكل صنوف الألوان، خضر وزرق وصفر، وليمونيون... كنت أدوم وسط اللج... ثم لم أعد أتبين شيئاً. أحسست بطوف يشد على عنقي، يكاد يخنقني... جروني على الصخور... مثل حوت من حيتان العنبر... وضعوا عشب الجروح فوق وجهي، غطوني بنبات العطاس... اكتويت تحت الكمادات... والتدليكات العنيفة، ثم لفوني بثلاثة مآزر.

كان الجميع يحيطون بي حينئذ... يشرحون الموقف.. كان البحر أقوى من أن أقاومه! جيد جداً! عظيم. ما طلبت يوماً أكثر من هذا!... ذلكم ما يفعلونه بالأضحية... من أجل تنظيفها تنظيفاً جيداً.

* * *

عشرة أيام كانت قد انقضت من إجازة والدي، ستنتهي بعد أسبوع، وسيعود إلى المكتب. لدى تفكيري بذلك كان ينتابني مغص شديد... ليس ثمة دقيقة نضيعها.

بصدد البيع، فقد غدا شحيحاً جداً دفعة واحدة، بحيث كان يلزمنا الكثير من الهلع كي نقرر القيام برحلة... كي نبحر ثلاثتنا إلى انكلترا... كانت العودة القريبة إلى الباساج تقض مضاجعنا... وتضغط على أعصابنا إلى أقصى حد...

ارتحلنا مع شروق الشمس. لم نكد نجد الوقت لتناول القهوة بالكريما... أما المبلغ الذي وفرته جدتي... فقد انتهى أمره... كنا قد بددنا نصفه...

وصلنا إلى المركب مبكرين... احتللنا أضيق مكان على ظهره، سرحنا بأنظارنا على مدى الأفق بلهفة غامرة... كان علي أنا، من موقعي أن أكون أول ما يميز الشواطئ الأجنبية... كانت الريح رخاء، والجو صافياً، ولكن ما إن ابتعدنا قليلاً حتى غابت المنارة عن أنظارنا، وبدأت الرطوبة تلفحنا... غدا المركب أرجوحة حقيقية فيما هو يشق العباب... وما لبثت أمي أن لاذت بمكان منعزل على جسر المركب يرتفع حتى الخصر... وبدأت تتقيأ... كانت هي أول من تقيأ عبر الجسر... لقد خلق ذلك شعوراً بالفراغ لحظة من الزمن.

"اهتم بالولد يا أوغست!" وجدت أمي متسعاً من الوقت كي تجأر... لم يكن ثمة ما هو أفضل لإنهاكها.

أشخاص آخرون بدؤوا حينئذ يقاومون باستماتة، فوق ظهر المركب، وعلى الدرابزين كي يحافظوا على توازنهم بعكس حركة المركب. كانوا يتقيؤون على هواهم، لم يكن هناك سوى مرحاض واحد في زاوية الممشى، كان مكتظاً بأربعة متقيئين، خائري القوى يضغطون على خصورهم. كانت أثباج البحر تنتفخ بقوة، شاهقة في الفضاء، ومع كل اصطفاق للموج كان ثمة دفقة قيء شديدة، يطلقها اثنا عشر راكباً على الأقل، يبدو عليهم اليسر والامتلاء مع ذلك، كان وابل القيء قد طوح بنقاب أمي مبللاً تماماً، وسقط على فم سيدة في الطرف المقابل. منهكة من التقيؤ... ما عاد ثمة مقاومة، انهمرت في الفضاء القريب المربيات... وسلطات الخضار... والدجاج المشوي... والقهوة بالكريم... وسائر اليخنات المخلوطة بالبهار متدفقة من الحلوق!...

فوق الأرض الخشبية، كانت أمي راكعة على ركبتيها، تجاهد بكل قواها، وتبتسم بترفع، واللعاب يسيل من فمها.

أنت ترى، قالت لي، وهي تهتز اهتزازاً شديداً... أنت ترى أيضاً يا فرديناند بأنه ما يزال بعض الطون عالقاً بمعدتك!... سنبذل الجهد معاً لإفراغه. بواه!... و، بواه!...كانت أمي على خطأ! إنها الفطيرة!... كنت أعتقد بأن في وسعي أن أخرج من جوفي بطاطا مقلية... ببذل المزيد من الجهد... بإفراغ كل ما في أحشائي وقذفها هناك من على الجسر... حاولت... كافحت... تماسكت... وانقذف رشاش عنيف فوق الدرابزين، مفرقعاً صاعداً، منبجساً، منهمراً، كانساً المسافة ما بين جسري السفينة... وعام الزبد... مرغياً، مدوماً، مختلطاً بكل الأقذار... كنا نعيد ابتلاعه... ثم نقذفه... ومع كل ارتداد تتسرب الروح... ثم نستعيدها مع صعود سيل دافق من البلغم والأقذار، تسيل من حلوقنا ومن أنوفنا، مالحة، تجاوز الأمر كل الحدود!... أحد الركاب راح يلتمس الصفح... ينادي السماء أن تنزل عليه الرحمة!... إنه يبذل أقصى الجهود!... يفرغ من جوفه شراب توت العليق!... ينظر إليه بفزع... وقد انحولت عيناه... لم يبق في جوفه أي شيء على الإطلاق!... يود لو يتقيأ عينيه... كان يجاهد من أجل ذلك... استند إلى الصارية... حاول أن يخرجهما من محجريهما... كانت أمي على وشك أن تنهار على الدرابزين... بعد أن تقيأت نفسها كلياً... ثم خرجت جزرة من حلقها... وقطعة من الدهن... وذيل سمكة بكامله...

في الأعلى، قريباً من القبطان، كان ركاب الدرجة الأولى والثانية يحنون جذوعهم كي يفرغوا أحشاءهم، كان قيؤهم يهطل نحونا كالشلال... ومع كل دفقة قيء كنا نتلقى وجبات بكاملها... كانوا يسوطوننا بالفضلات وبقطع من اللحم داخل أكياس شبكية... فيصعد كل هذا عالياً بفعل الزوابع، ويرقّش أكبال الأعمدة... ويتعالى هدير البحر حولنا، وتنشب معركة الزبد... كان والدي منهمكاً بغثياناتنا،

معتمراً قبعته المعلقة أسفل ذقنه.. وقد بدا متهلهلاً جذلاً. كان محظوظاً لأن لديه قلب بحار! وما برح يقدم لنا نصائح مفيدة، راغباً بأن نحني جذعنا أكثر. بأن نركع المزيد من الركوع... اقتربت منا إحدى المسافرات... كانت تحوم حول أمي... لقد أفرطت في الطعام كي تتقيأ على نحو أفضل... دنا كلب صغير أيضاً، ولفرط ما كان مريضاً فقد أفلت كل ما في بطنه على تنورتها... ثم انقلب على ظهره، وأرانا بطنه... انطلقت من المراحيض صيحات رهيبة... إنهم الأشخاص الأربعة الحبيسون داخلها والذين ما عاد بإمكانهم التقيؤ على الإطلاق، ولا التبول، ولا بذل أي جهد أيضاً... كانوا مرغمين على الانكباب فوق فتحة المرحاض... يناشدون أي شخص أن يقتلهم. وما يزال المركب يشب ويقنطر دون توقف... بعناد أكثر دائماً، ثم يغوص ثانية... ليستقر بثبات وسط الهوة... وسط الخضرة الداكنة، ثم يتأرجح ثانية بكل هياكله... يهيجك ثانية، ينتن قاع بطنك...

بالقرب منا رجل قصير ممتلئ، متغطرس حقيقي، يساعد زوجته على التقيؤ داخل دلو صغير. يشجعها قائلاً:

"هيا يا ليوني!... لا تمنعي نفسك!... إنني هنا!... أمسك بك." أدارت المرأة رأسها حينئذ دفعة واحدة باتجاه الريح... وقذفت بكل شرائح العجل المبقبقة في فتحة بلعومها فوق رأسي... وتسربت قطع الفاصولياء والطماطم إلى فمي وداخل أسناني، أنا الذي لم يعد في أحشائي ما أتقيؤه... هاأنذا مرة أخرى وبعد أن تذوقت الطعم قليلاً... تصعد أحشائي إلى حلقي... الشجاعة، الشجاعة!... وانفتح السد!... شعرت بكتلة هائلة تضغط على لساني وتسحبه بقوة... وصعدت كل أمعائي إلى فمي. دنوت من المرأة متلمساً طريقي... زحفنا كلانا بهدوء، تشبثنا ببعضنا... سقطنا على الأرض... تعانقنا... وطفق كل

منا حينئذ يقيء على الآخر. حاول والدي الطيب والـزوج فصلنا عن بعضنا. كانا يسحبان كل منا من جهته.. لم يفهما الأمور قط...

فلندع الضغائن الخبيثة تفلت من عقالهـا! بـوواه!... ذلـك الزوج كان وقواقاً عنيداً!... سنتقيأ عليه معاً أنا وزوجتـه!... طوقـت جميلته بربطات كاملة من المعكرونة الشريطية طول كل منها ألـف متـر... مع عصير البندورة... وشراب السـدر، كـان قـد مـضى عليهـا في جوفي ثلاثة أيام... وأعطتني، بالمقابل، جبنها الأصفر المثقب... فامتصصت أليافه... أمي المشدودة إلى الحبال... زحفت خلـف قـشعها... جرّت الكلب الصغير إلى حضنها. تلّوينـا معـاً أنـا وزوجـة الرجـل القـوي... شـدوني عنـها بوحـشية... كـي أبتعـد عـن أحـضانها... انهـالوا على مؤخرتي بركلات قوية من أحذيتهم... كان الـزوج ملاكمـاً مـن الـوزن الثقيل... أراد والدي ملاطفته... وما كاد يـتلفظ بكلمـتين اثنـتين حتى عاجله الزوج بلكمة قوية على بطنه جعلته يسقط فوق بكرة المركـب... ولم يكتف بذلك... قفز الرجل القوي فوق صلب والدي... وحطم له فكه... ثم أقعى فوقه يريد إخماد أنفاسـه... كـان أبي يـنزف بغـزارة... ويختلط دمه بالقيء... ترنح بجانب الـسارية، ثم خـر علـى الأرض... ولم يتوقف الزوج عند هذا الحد... فقد انتـهز فرصـة ترنحي لينقض علـي... انزلقـت أمامـه... فقـذفني إلى الحمامـات... بنطحـة كـبش حقيقية... ارتطمـت... محطمـاً البـاب... سـقطت بـين أنـاس خـائري القوى غارقين في سبات عميق... تقلبت فـوق كومـة مـن الأجـساد... انحصرت بينهم... لم يكن أي منهم يرتدي سرواله الـداخلي! شـددت حبل الباب، فوقعت فيما يشبه القبر! انهرست داخل برميل... ولكنهم لم يتوقفوا عن الشخير... لم أعرف حتى إن كنت حيّاً أو ميتاً.

* * *

أيقظت صفارة المركب الجميع من خدرهم وسباتهم. تعلقوا بصنابير المياه. وأطّلوا من الكوى. لاحت أرصفة الميناء مثل دانتيلا عظيمة من الأوتاد... ها قد شاهدنا انكلترا، هبطنا في الجانب الآخر من البحر.

كان ثمة صخور شاطئية أيضاً، تليها خضرة على مد النظر، بدت أشد دكنة وأكثر خشونة مما يقابلنا منها مباشرة... كان الماء هادئاً وديعاً الآن... يسهل التقيؤ فيه... غير أن المحرض كان قد هدأ.

كنا نرتعد، تصطك أسناننا حتى تكاد تتحطم. كانت أمي تبكي مرتجة لفرط ما تقيأت... أما أنا فكانت الحدبات تغطي كل أنحاء جسمي... كان الصمت المطبق يخيم على صفوف الركاب، ويتملكهم الوجل والقلق من الرسو. لن تكون الجثث ربما أكثر تهيباً وخشية.

ثبتت المرساة مركبنا، بعد أن ارتج رجتين أو ثلاث. ثم استقر. بحثنا عن بطاقاتنا... وما إن اجتزنا نقطة الجمارك حتى رتبنا هندامنا. واضطرت أمي إلى أن ترفع تنورتها كي نجتاز السواقي الجارية. كان والدي قد تعرض للضرب المبرح حتى أنه فقد طرف شاربه. تظاهرت بعدم النظر إليه، ولكن عينه كانت محاطة بهالة سوداء. كان يمسحها بمنديله... ثم هدأ روعنا شيئاً فشيئاً. كانت الطريق تترنح مثلنا أيضاً. سرنا بمحاذاة حوانيت صغيرة أشبه بحوانيتنا هناك، ذات مصاريع مبرقشة، وأدراج صغيرة بيضاء.

كانت أمي تحث خطاها ما وسعها ذلك، لم تكن تريد أن تؤخرنا، ولكنها كانت تعرج خلفنا بعيداً. كنا نفكر بفندق، بغرفة نلوذ بها على الفور كي نرتاح... لحظة من الزمن... لن نذهب الآن أبداً إلى لندن، كنا مبللين حتى العظام... وسنلقي بأنفسنا إلى التهلكة بالتأكيد إذا ما غامرنا

مزيداً من المغامرة... ثم إن أحذيتنا لن تصمد طويلاً. كانت قد تشبعت بالماء، والوحول، وصارت تصدر أصواتاً كقطيع من الدواب.

تعرفنا على فندق... كان اسمه مكتوباً على الواجهة بأحرف ذهبية. ولكن ما إن غدونا أمامه حتى داهمنا خوف شديد... فتحولنا إلى الجهة الأخرى. وسرنا تحت وابل من المطر لا يكف عن الهطول. كان سعر أرخص الفنادق يملأ قلوبنا بالرعب. كنا نخاف تبديد النقود. دخلنا صالة للشاي... وحين جلسنا وقعت أنظارنا على حقيبتنا... لم تكن هذه حقيبتنا ذاتها!... ففي غمرة الفوضى، في الجمارك أخذنا خطأ حقيبة أخرى بدلاً من حقيبتنا!... عدنا مسرعين... كانت حقيبتنا قد اختفت!... سلمنا الحقيبة الأخرى إلى صاحب المحطة... وهكذا لم نعد نملك شيئاً!... كان ذلك زيادة في نكد الطالع. لم يحدث قط مثل هذا مع أحد سوانا!... كان هذا صحيحاً، بمعنى من المعاني... وقد لاحظه والدي أيضاً... لم يعد لدينا ما نغير به ثيابنا... ولا حتى قميص واحد! كان علينا أن نواصل السير مع ذلك... بدأنا ثلاثتنا نلفت الأنظار داخل البلدة. كنا نرتعد تحت سيل المطر المنهمر، وهو ما أضفى علينا هيئة المتشردين. لم يعد من الحكمة السير في الطريق العام... سلكنا طريقاً لا على التعيين... يبتدىء أوله بعد البيت الأخير...

"برنغتون"!... كان ذلك هو اسم أقرب مدينة... رأيناه مكتوباً على ظهر إحدى الشاخصات. كانت تبعد عنا أربعة عشر ميلاً... ولما كنا مشائين جيدين، فقد كان حرياً أن لا يخيفنا ذلك. ولكننا لم نكن قط نمشي معاً... كان والدي يتقدمنا دائماً... لم يكن فخوراً جداً بنا... وعلى الرغم من أنه كان مغسولاً بالمطر، ملطخاً بالطين، أشبه بالمفلوج، فقد كان ينأى عنا ما وسعه النأي... كان يتأذى حين نلزق به، فيترك مسافة بيننا وبينه.

كانت أمي قد تدلى لسانها خارج فمها لفرط ما كانت تجد مشقة في جر ساقها. كانت تتألم مثل كلبة عجوز.

انعطفت الطريق عند خاصرة الشاطئ الصخري، كنا نشق طريقنا وسط شآبيب المطر. وأسفل منا، كان المحيط يهدر، في أعماق اللجة المترعة بالغيوم والهوى السحيقة.

أرخى والدي حواف قبعته البحرية حتى فمه. كان مشمعه الواقي من المطر يضفي عليه أشكالاً شتى. وبدت مؤخرته مثل بصلة.

أما والدتي فقد تخلت عن قبعتها المزينة بطيور الخطاف وبكرزات صغيرة. لجأنا إلى دغل متكاثف... فأقبلت النوارس الهاربة أمام العاصفة تنعق حولنا. من المؤكد أنها كان تشعر بالدهشة لمرورنا نحن أيضاً وسط السحب الماطرة... كنا مأخوذين برشق المطر. نتشبث بطيف عابر من السعادة... ورحنا نضرب على غير هدى، على حواف الصخور وفوق الآكام ووسط أرض بور، وأراض أخرى... لا نهاية لها... كان والدي قد اختفى وسط السحب... قد ذوبه الوابل المنهمر بالتأكيد... كنا نراه دائماً يلج في البعد، تتضاءل قامته أكثر فأكثر فيما هو يثبت قدميه فوق المنحدر الآخر.

سنرتقي هذا السفح أيضاً يا فرديناند! وبعدها سأستريح، هل تظن بأنه يرى مدينة "بريشتون"؟ هل تعتقد بأنها ما تزال بعيدة؟ لقد أشفت شجاعتها على التلاشي. كان جلوسها متعذراً، فقد كنا نغوص في بحر من الطين. شمرت أطمارها وكشفت عن ذراعيها المرتفعين نحو السماء،. وانتفخت أثوابها الصوفية على غرار قربة... ثم ما لبثت أن انثنت ساقها، وارتخت تحت ثقل جسدها... فانقلبت متدحرجة حتى أسفل الوهدة، وعلق رأسها، انحصر بين الكتل الطينية... ما عاد

بإمكانها الإتيان بحركة... كانت تطلق فقاعات على غرار علجوم... ذلكم هو مطر انكلترا... أشبه بأوقيانوس معلق بين السماء والأرض... كنا نغرق شيئاً فشيئاً.

ناديت على أبي طالباً النجدة، صرخت بكل ما أوتيت من قوة... كانت أمي تنوء تحت وطأة وضعها المنقلب عالياً سافلاً! كنت أجذبها بعنف شديد، محاولاً سحبها إلى الأعلى... ولكن عبثاً... ثم وصل مستكشفنا مع ذلك، كان منذهلاً من مشهد الغيوم التي سدت الأفق. بذلنا معاً جهوداً مضنية... سحبناها إلى الأعلى. هززناها ذات اليمين وذات الشمال، انتزعناها من حمأة الطين... كانت تبتسم مع ذلك، لقد أحدثت رؤية أوغستها غبطة غامرة لديها. وبدأت تسأله عن أخباره... عما إذا كان قد تألم كثيراً؟... وما الذي رآه في نهاية الريف الصخري؟ لم يجبها بشيء... طلب منا بأن نسرع حسب... أن نعود من فورنا إلى المرفأ... مئة طلعة أيضاً ومئة نزلة... حتى ضاقت أنفاسنا، ولم نعد نتبين طريقنا لفرط ما عفت عليه العواصف... لمحنا الأضواء... أضواء المرفأ والمنارات. كان الليل يجلبب الكون بظلمته. مررنا ثانية أمام الفندق ذاته، زاحفين مترنحين... لم نكن قد أنفقنا شيئاً من النقود... لم نلتق بأحد في الطريق. ما عاد لدينا ثوب واحد... بل أسمال تنسلت خيوطها. كان مظهرنا يشي بالإنهاك الشديد. رأف بنا بحارة المركب وسمحوا لنا بالانتقال إلى الدرجة الثانية. وطلبوا منا أن نذهب لنتمدد... ثم عاد بنا المركب إلى دييب. ولدى وصولنا إلى محطة القطار نمنا فوق المقاعد... كان علينا العودة إلى باساجنا مباشرة... وفي القطار أيضاً حدثت بيننا أيضاً مشاحنات ساخنة بسبب الإمساك الذي أصاب أمي.

- منذ ثمانية أيام لم تخرجي شيئاً من معدتك!... أخشى إذن أن لا تخرجي في يوم من الأيام.

- ولكنني سأخرج في البيت.

كان رهاب أمي أن لا تخرج إلى المرحاض بانتظام. وسواسها المستحوذ عليها، انسداد المسالك. لم تعد تفكر إلا في غائطها. وفي الممر داخل القطار استطعنا أخيراً أن نجفف ثيابنا، ولكننا أصبنا ثلاثتنا بالزكام، تخلصنا من الورطة بأقل الخسائر، كان والدي يحتفظ بكدمة زرقاء حول عينه. كان يبدو مع ذلك مثل حصان، أو كأنه كان بعيداً لحظة الانفجار.

كانت السيدة ديفون شديدة الفضول. تواقة إلى معرفة كل شيء. جميع تفاصيل مغامرتنا... كانت هي أيضاً قد سافرت إلى انكلترا لحضور حفل زواج. ولكي تسمع جيداً ما نرويه توقفت عن العزف على البيانو... في ذروة لحن "ضوء القمر".

السيد فيزيو أيضاً كان شرهاً لسماع الاكتشافات. ومرَّ الخال إدوارد ومعه توم ليسمع أخبارنا... كان في جعبتنا أيضاً أنا وأمي انطباعات صغيرة... ولكن أبي لم يكن يرغب في أن نرويها... فقد أمسك حبل الكلام وحده، ولم يتركه من يده قط... حتى ليخيل لسامعه بأنه قد رأى أشياء خارقة للعادة... وحوادث أغرب من الخيال... لم تسمعها أذن من قبل... حوادث لا تخطر على بال أحد قط... في نهاية الدرب... في الأسفل بعد الريف الصخري... حينما كان متلفعاً بالغيوم... بين برينغتون وبين العاصفة الماطرة.. حيث كان منعزلاً تماماً!... ضائعاً بين الأعاصير... بين السماء والأرض...

لم يعد يشعر الآن بالضيق، كان يقرع أسماعهم بأعاجيبه... يبتكر

حكايات من رأسه، ما وسعه الابتكار!... لم تكن أمي تكذبه... كانت سعيدة جداً دائماً، مادام يحقق نجاحاً... "أليس كذلك يا كليمانس؟" كان يسألها حين كانت الكذبة تقف في حلقه... كانت توافق، وتسلم بكل ما يقوله... كانت تقول بينها وبين نفسها بأنه يبالغ، ولكن ماذا يهم مادام ذلك يجلب له السعادة.

- ولكن ألم تذهبوا إلى لندن؟ سأل السيد ليروزيت، بائع النظارات في الحانوت 37 والذي كان ساذجاً كالأطفال، وكان يستورد عدسات نظاراته من هناك...

- بلى! ولكن إلى ضواحيها فقط... رأينا ما هو جوهري!... أعني المرفأ! إنه الشيء الوحيد الذي له أهمية في الواقع! زرنا بعض الضواحي... لم يكن لدينا سوى بضع ساعات فقط. ولم تعترض الماما مع ذلك... وانتشر هرج ومرج حينما بدأ والدي يصف كيف تعرض المركب للغرق... وكيف تم إنزال السيدات منه على الصخور بواسطة رافعة... وجعل يختلق الأكاذيب واحدة بعد الأخرى... وكيف كنا نتنزه في لندن مع العائلات التي نجت من الغرق... كانوا أجانب في معظمهم... وانساق البابا بعيداً!... فراح يقلد لهجتهم.

في كل الأمسيات بعد العشاء كان هناك حفلات قصّ جديدة، سرابات خادعة... وسرابات أيضاً!... وبدأت السيدة ميهون من جديد تغلي وتفور داخل حانوتها... مقابلنا. لم تجتز الشارع هذه المرة... كنّا نثير لغطاً مزعجاً حتى الموت... فكانت تشغّل غرامافونها كي تشوش على والدي حديثه... وترغمه على التوقف... ولكي نكون أكثر اطمئناناً بالفعل، أغلقت أمي واجهة المخزن وأرخت الستائر كليّاً... وحينئذ جاءت ميهون لتنقر بيدها على زجاجنا، متحدية أبي أن يخرج إليها، ويتفاهم معها قليلاً...

اعترضت الماما طريقه... واستاء جميع الجيران استياء عظيماً... وانحازوا جميعهم إلى صفنا... كان لهم ولع بالرحلات... وذات مساء، لدى عودتنا من تسليم البضاعة... لم نسمع قط ميهون ولا غرامافونها... كان الرواد يصلون واحداً بعد الآخر... ولما أن جلس الجميع في خلفية المخزن، وبدأ أبي قصته، بطريقة مختلفة تماماً، إذا بضجة مصمّة تنطلق من عند العجوز ميهون... باتاتارك!... تلتها فرقعات مدوية... ولمعت حزمة ضوء هائلة بهرت عيوننا! كان الانفجار قريباً من الحانوت! وطار الباب من مكانه! وحينئذ رأينا الحيزبون تومئ إيماءات غريبة وسط المكان، وهي تحمل مشعلاً وأسهماً نارية! ثم أضرمت النار في البارود!... فصفرت الأسهم، ودومت عالياً. ذلكم كل ما وجدته كي توقف المخيلة الجامحة. كانت هائجة هياج الشيطان! ودبت النار في تنانيرها. ثم راحت تضطرم. اندفعنا بسرعة! لنخمد النار في الستائر، فأطفأناها! ولكنها أتت على حانوتها وعلى حمالات صدورها! ثم وصل الإطفائيون مستنفرين!... منذ ذلك اليوم لم نر الجثة النتنة على الإطلاق!... قادوها إلى شارنتون! وظلت هناك دائماً! ما من أحد رغب بعودتها! فقد وقعوا عريضة من أول الباساج إلى آخره يشهدون فيها على أنها مجنونة، ولا أحد يطيق رؤيتها ثانية.

***

عادت الأيام الكالحة، ما عدنا نتحدث عن العطلات، ولا عن الأسواق في المدن البعيدة، ولا عن إنكلترا... دندنت واجهتنا الزجاجية تحت وقع المطر المنهمر، وأوصد باساجنا أبوابه على رائحة الحموضة التي يطلقها العابرون، والكلاب الصغيرة الهائمة.

لقد حلّ الخريف...

عدت إلى تلقي الصفعات، على اليمين وعلى الشمال لأنني أرغب باللعب أكثر مما أرغب بالتعلم. لم أكن أفهم في الصف شيئاً ذا أهمية. واكتشف والدي بأنني كنت غبياً حقاً. كان البحر قد وسّع من أفقي. ولكنه جعلني أكثر خمولاً أيضاً. كنت أضيع وقتي في اللهو، فعاد أبي إلى نوباته الفظيعة، وكال لي التهم بأنني كنت قميئاً خرعاً. وعادت أمي إلى التشكي والأنين.

ألم الكساد بتجارتها حتى باتت مستحيلة. كانت الموضات ما تنفك تتبدل. وعادت النساء إلى الصدرات المصنوعة من البتستة الرقيقة، كي يبرزن حمالات صدورهن، وإلى عقص شعورهن بحلقات دائرية بارزة. اتجهت السيدة هيروند، أثناء هذه الجلبة إلى التعديل والتبديل. فصنعت سترات البوليرو من القماش الإيرلندي الذي يقاوم البلى عشرين عاماً. ولكن ذلك للأسف، لم يكن سوى نزوات طائشة! فبعد معرض "الجائزة الكبرى" عُلقت السترات فوق أسلاك معدنية، وغدت واقيات للحماية من أشعة الضوء. كان الإعياء ينال أحياناً من السيدة هيروند، فتخلط بين الطلبات وهكذا كانت تسلمنا مريلات صغيرة مطرزة في حين أننا ننتظر منها ألحفة من الريش... ويالها من دراما حينئذ... كانت الزبونة تتميز من الغيظ، وتهدد بالمحاكم. كان قنوطنا يبلغ ذروته، كنا نتحمل جميع التعويضات والخسائر، وشهرين كاملين من المعكرونة الشريطية... وعشية تقدمي لامتحان السرتفيكا ثار بركان في الحانوت. فقد صبغت السيدة هيروند بالأصفر الفاقع ثوباً كان مع ذلك بمثابة فستان زواج! كادت تلك الضربة أن تطيح بنا. فقد كانت الغلطة شنيعة! كان بوسع الزبونة أن تلتهمنا التهاماً. على الرغم من أن المطلوب كان مكتوباً بوضوح على ورقة مفكرة!... كانت السيدة هيروند تنتحب منهارة فوق أمي. وكان أبي يزأر من غرفة الطابق الأول:

- آه! ستظلين دائماً كما أنت! طيبة جداً دائماً! ألم أنبهك بما يكفي؟ بأنهن سيلقين بنا في هاوية الفقر! جميع عاملاتك! آه! افترضي بأنني اقترفت ربع خطأ فقط في مكتب التأمين... آه! لشد ما أرى نفسي نظيفاً في المكتب! كانت فرضيته من الخطورة بحيث كان يشعر معها بالدوار!... كان يغدو شاحباً!... فكنا نجلسه ونهدئ من روعه!... وينتهي الأمر!... استأنفت تدريباتي على الحساب... كان والدي هو الذي يجعلني أكرر وراءه... لم يكن علي إذن أن أقول شيئاً، كان يشوشني لفرط ما يتخبط في شروحاته. وكنت أسيء فهم كل شيء... ولم أكن أفهم شيئاً ذا بال... كنت أخرج من اللعبة تماماً... كان يدقق في عيوبي، فيجدني عصياً على الإصلاح... وكنت أجده أنا مغفلاً جداً... كان يعود إلى الدمدمة أثناء قيامي بعمليات القسمة، ويستحوذ عليه الارتباك والتشوش... كان يضربني على أنفي... ويقتلع أذني من مكانها... زاعماً بأنني ألهو وأتسلى، وأسخر من سحنته.

وحينما كانت أمي تأتي للحظة من الزمن، كان سخطه يتضاعف. ويصرخ بأنه يريد أن يموت!.

❊ ❊ ❊

صبيحة امتحان السرتفيكا أغلقت أمي الحانوت كي تتفرغ لتشجيعي. كان الامتحان يجري في مدرسة الحي، بالقرب من سانت جيرمان لوكزيروا، في سقيفة المدرسة ذاتها. كانت توصيني أثناء الطريق بأن أثق بنفسي. يالها من لحظة احتفالية! وكانت تفكر بكارولين، فيدفعها ذلك إلى التباكي أيضاً.

حول الباليه رويال، جعلتني استظهر حكايات لافونتين، وقائمة بأسماء المديريات... وفي الساعة الثامنة تماماً، كنا هناك أمام البوابة

الحديدية المشبكة من أجل التسجيل للامتحان. كانت العناية بادية على ثياب الأطفال. كانوا جميعاً قد خضعوا للتنظيف والتلميع، ولكنهم كانوا متوترين للغاية، وأمهاتهم أيضاً.

بدأنا بامتحان الإملاء. ثم أعقبه امتحان المسائل الحسابية. لم يكن ذلك صعباً جداً فقد تذكرت الأجوبة، كنت كما لو أنني أنسخ نسخاً. كنا نحن في عداد الراسبين في امتحانات الفصل الأول في الخريف. كان ذلك تراجيدياً بالنسبة إلينا جميعاً تقريباً... نحن الذي كنا نريد أن نحصل على تعليمنا الابتدائي وحسب. في الامتحان الشفهي. وقعت، لحسن الصدف، بين يدي رجل طيب عظيم البدانة، تغطي أنفه الثآليل. ويضع حول عنقه ربطة عريضة. كان من نمط الخال أرتور، لكنه لم يكن فناناً مثله... كان صيدلانياً، في شارع غومبوست. وكان هناك أشخاص يعرفونه. طرح علي سؤالين عن النبات... لم أكن أعرف أي شيء عنهما... فأجاب هو نفسه... كنت في غاية الارتباك والخجل. ثم سألني بعد ذلك عن المسافة بين الشمس والقمر، ثم الأرض... فلم أجرؤ على التفوه بكلمة، كان عليه أن ينقذني مرة أخرى. وحينما سألني عن الفصول تمتمت بأشياء غامضة، لأنني كنت ملماً على نحو أفضل قليلاً... والحق أنه لم يكن متشدداً... كان يكمل كل الأجوبة بدلاً عني.

حينئذ، طرح علي السؤال حول ماذا سأفعل في المستقبل، إذا ما نلت شهادة السرتفيكا؟.

- سأدخل ميدان التجارة، قلت بتهيب.

- ولكن التجارة عمل شاق يا صغيري!... أجابني... يمكنك ربما أن تنتظر أيضاً؟ ربما سنة أخرى أيضاً؟.

ما من ريب في أنـه لم يجـدني قويـاً... واعتقـدت فجـأة بـأنني قـد رسـبت... كنـت أفكـر بـالعودة إلى البيـت، وبالـدراما الـتي كانـت ستحدث بسبب ذلك. شعرت بدوار يجتاحني، واعتقدت بأنني سـأقع مغشياً علي، لفرط ما اشتد وجيب قلبي... وجعلـت أتـشبث بكـل مـا تقع عليه يداي... ورأى العجوز شحوبي...

- ولكن يا صغيري... قال لي... كن مطمئناً إذن! كل هـذا لـيس بـذي أهمية! أنا سأنجحك... ستدخل الحياة! ما دمت مصراً جداً هكذا!.

كنت أثبت نفسي على المقعد، مقابـل الجـدار، علـى مـسافة مـن المعلم. مضطرباً مع ذلك غاية الاضطراب. وأتساءل إن لم يكـن ذلـك كذبة سهلة... كي يتملص مني المعلم العجوز. كانت أمـي تقـف أمـام الكنيسة في الساحة الصغيرة، تنتظر النتائج...

لم ينته الجميع من الامتحان... فقد بقـي هنـاك أطفـال. كنـت الآن أرى أولئك الأطفال الآخرين يغمغمـون بمـا تلقنـوه مـن قبـل، فـوق الطاولة... خارطة فرنسا. القارات...

حينما قال لي المعلم تلك الكلمات بشأن دخولي في الحياة، رأيت رفاقي الصغار كما لم أرهم من قبل. كان جزعهم من الرسـوب يثبتـهم إلى الطاولة. كانوا يتلوون كما لو أنهم داخل شرك.

ترى، هل كان هذا يدخل الطفل إلى ميدان الحياة. كـانوا يحـاولون في تلـك اللحظـة أن يكفـوا عـن كـونهم أطفـالاً. وتعكـس وجـوههم الجهود التي يبذلونها كي يظهروا بمظهر الرجال.

كانوا متجمعين حول بعـضهم بعـضاً تقريبـاً، مرتـدين الـصدارات المدرسية... كان هؤلاء الأولاد مثلي باعة صـغاراً في مركـز المدينـة، يبيعون أشياء صغيرة هنا وهنـاك، أجـسادهم هزيلـة ضـاوية وعيـونهم

جاحظة، يلهثون مثل كلاب صغيرة، جاهدين للإجابة على أسئلة معلميهم المسنين...

كان الآباء يقفون على امتداد السور، يراقبون ما يجري... يرسلون نظرات صوب أولادهم، أشبه بمطارق ثقيلة، أو بموجات تزلزل أفئدة الصغار.

كان الصبية يتعثرون في إجابتهم مع كل سؤال... متقلصين أكثر فأكثر... فيما المعلم العجوز ماضٍ في طرح الأسئلة دون كلل... كانوا يجيبون على أسئلة العالم بأسره... تلكم كانت دورة امتحان الأغبياء... كانت الأمهات محمرات الوجوه بشدة... يهددن بألف صفعة... وكان هذا ينذر بمجزرة داخل البيت... وفي النهاية نجح جميع الأطفال في الامتحان... لم يعد ثمة سوى توزيع الجوائز... كان ذلك أجمل فصول المعجزة... لقد نجح الجميع أخيراً! أعلن ذلك المفتش الأكاديمي من على المنصة. كان له كرش ضخم تتدلى فوقه حلية كبيرة مربوطة بسلسلة، تقفز فوق كرشه بين كل جملة وجملة. كان يتلعثم قليلاً، ويخطئ في قراءة جميع الأسماء... غير أن ذلك كان قليل الأهمية...

اغتنم المفتش الفرصة كي يلقي بعض الأقوال الرقيقة... القلبية للغاية... والمفعمة بالتشجيع... أكد لنا بأننا إذا ما سلكنا، فيما بعد، درب الحياة، درب الوجود بطريقة باسلة بما يكفي، فبإمكاننا أن نطمئن إلى أننا سنكافأ بالتأكيد.

بلت في سروالي وتغوطت أيضاً، صرت أتحرك بصعوبة. لم أكن الوحيد الذي فعل ذلك. جميع الأولاد كانوا يمشون بشكل منحرف، ولكن أمي شمت الرائحة وهي تضمني إلى صدرها... كانت رائحتي على درجة من النتانة بحيث كنا مضطرين إلى أن نسرع الخطا. ما

استطعت أن أقول "وداعاً" لرفاقي الصغار... كانت الدروس قد انتهت... استأجرنا عربة تجرها الخيول كي نعود بنحو أسرع.

لفح وجهينا تيار هوائي... كانت بلاطات الشارع تتقلقل تحت العربة على نحو غريب مضحك على امتداد الشارع. تحدثت أمي عن كارولين "كم كانت ستشعر بالسعادة لرؤيتك ناجحاً!... آه! لو أنها تراك الآن!...".

كان والدي ينتظرني في الطابق الأول.وقد أطفأ جميع الأضواء! النتائج! كان قد أعاد وحده ترتيب البضائع على الواجهة، الثريات... كان جسده كله يرتعش.

- أوغست! لقد نجح!... هل تسمعني؟... لقد نجح بسهولة!...

استقبلني بذراعين مفتوحتين... أشعل الأضواء كي يراني، كي ينظر إلي بحب. كان متأثراً إلى أبعد حد... وراح شاربه يرتعش بكامله.

"هذا جيد يا صغيري! لقد سببت لنا الكثير من الألم! والآن، أنا أهنئك!... ستدخل الحياة... المستقبل أمامك!... إذا اتخذت القدوة الحسنة! وسلكت الطريق السوي!... وعملت!... وتعبت!...".

التمست منه المعذرة لأنني كنت خبيثاً دائماً، وعانقته بود. كنت فقط أفوح بالنتانة بحيث بدأ يشم.

- "آه! كيف؟ ودفعني عنه... آه! الخنزير!... قرد السانغوين القذر!... ولكنه ملوث كله بالغائط!... آه! كليمانس!... كليمانس!...خذيه إلى فوق، أرجوك!... سأنفجر غضباً! إنه مقزز!..." وكانت تلك نهاية البوح بالعواطف.

نظفتني أمي تنظيفاً جيداً، وضمختني بماء الكولونيا.

وفي اليوم التالي، بدأت البحث عن محل تجاري ذي شأن وسمعة كي أبدأ العمل بالتجارة. عن مكان يسود فيه الحزم والصرامة، ولا يترك لي الحبل على الغارب.

"لكي يتعلم المرء جيداً، ينبغي أن يتم ذلك بحزم! ذلكم كان رأي الخال إدوارد، كان له عشرون عاماً من الخبرة. وقد أيده الجميع في ذلك".

* * *

التجارة إنما هي العرض على نحو جيد، ذلكم هو الأمر الجوهري. فالموظف الذي يهمل نفسه ولا يهتم بمظهره يثير خجل أرباب عمله... من حذائك يتم تقييمك والحكم عليك!... فلا تبخلن على قدميك.

في "البرنس ريجنت" أمام الليهال يقع محل الأحذية العريق ذو المئة عام... لم يكن من الممكن أن أرغب بأفضل من ذلك. شهرة على مرِّ السنين لأشكال الأحذية الغريبة والمدببة الرأس... "منقار البط" من النوع الأنيق، يجعل الأظافر تدخل في لحم أصابع قدميك. اشترت لي أمي من هذا المحل زوجاً من الأحذية عصيّاً على البلى. ثم مررنا بعد ذلك على المحل المقابل "الكلاس ميرنانت" للملابس الجاهزة... اغتنمنا فرصة التصفيات، كان ينبغي الانتهاء من تجهيزي.

اشترت لي ثلاثة بناطيل جيدة جداً، متينة للغاية، اخترناها أكبر من مقاسي بقليل كي تصمد عشر سنوات على الأقل. كنت ما أزال أنمو بسرعة. أما السترة فكان لونها أشدُّ دكنة. وكنت أحتفظ بردنين منذ أيام جدتي. كان خليقاً أن أتخذ سمت الجد والرصانة. بالنسبة إلى القبات أيضاً كان ينبغي أن نحسن الاختيار... فمن خلال عرض القبة يكتسب المرء هيبة إن كان فتياً ونحيفاً. والتأنق الوحيد المسموح به هو ربطة

العنق الخفيفة، الفراشة من النوع الجاهز. وسلسلة الساعة بالطبع، ذات اللون المسمَّر أيضاً من أجل المآتم. صار في حوزتي كل ذلك. غدوت لائقاً، معروفاً في الحي. كان والدي يحمل ساعة أيضاً، ولكنَّها مطلية بالذهب. كانت عبارة عن ميقات للوقت... فكان يحسب فوقها الثواني، ويسحره منظر عقربها الكبير الذي يدور بسرعة، ولكنه كان يتوقف لدى النظر إليه ولو لساعات.

قادتني أمي هي ذاتها إلى السيد بيرلوب، بائع الوشاحات الموشاة في شارع ميشوديير كي تقدمني إليه لعلّه يشغلني في حانوته.

ولأنها كانت موسوسة ومترددة، فقد أخبرته مسبقاً... بأنه سيتعب ربما معي، وبأنني سأربكه، وبأنني كسول جداً، وغير مطيع بالمرة، وطائش بعض الطيش. كانت تلك أفكارها عني... رغم أنني كنت أعمل دائماً ما في وسعي، ثم نبهتهم إلى أنني أنكش أنفي باستمرار، وبأن ذلك كان ميلاً متأصلاً لدي، وأوصتهم بأن يؤنبوني، فلطالما حاولت إصلاحي هي وأبي دون أن يظفرا بطائل... وفيما كان السيد بيرلوب يصغي إلى هذه التفاصيل، راح يقص أظافره بهدوء وتمهل... ظل محافظاً على رصانته وانشغاله. كان يرتدي صدرة غريبة مرصعة بنحلات ذهبية... أذكر أيضاً لحيته المروحية، وقبعته المدورة ذات الكنار المقصب، والتي لم يخلعها احتراماً لنا.

وأخيراً أجاب، بأنه سيحاول أن يدربني، لم يلق إلي نظرة واحدة، فإذا أظهرت استعداداً حقيقياً، وفطنة وحماسة... إيه حسناً، سيرى... فكرت بأنهم ربما سيرسلوني بعد أشهر من التدرب داخل الحانوت للعمل خارجه... مع وسيط تجاري... أحمل علب العينات... مما سيجعلني ألتقي بالزبائن... ولكن قبل أن أخوض المغامرة، سيكون من الضروري في البداية أن يعرف ما الذي كنت أصلح له، وما إذا

كـان لـدي حـس تجـاري!... أو ميـل إلى أن أكـون موظفـاً، ومـدى كفاءتي... وإخلاصي.

غير أنه بعد كل الذي قالته أمي، سيظل كل هذا مشكوكاً به...

كان السيد بيرلوب وهو يتحدث يمـشط شـعره، ويجعـده. متأملاً مظهره الجانبي في مرايا معلقة في كل مكان... كـان قـد أضـفى علينا شرفاً باستقباله لنا... كررت له أمـي بعـد ذلـك مـراراً بأنـه قـد غمرنـا بفضله وتمنت لو وجه إلينا بعض الأسئلة.

"بيرلوب وولده" لم يكونا يستقبلان أحداً أياً كـان. لا المـستخدمين تحت التجربة، ولا حتى المستخدمين بالمجان.

في اليوم التالي، عند الساعة السابعة بالضبط كنت في شارع ميشوديير، أمام ستائر المحل. ساعدت على الفور الـصبي المكلـف بالتـسوق بإدارة مقود الدراجة... كنت أريد أن أظهر على الفور حميتي للعمل.

لم يكن بيرلوب بالطبع هو الذي اهتم ببـدايات عملـي. إنـه الـسيد لافيلونج. كان هذا الرجـل وأيَّـم الحـق زبـدة كـل القـذارات. يتبعـك كظلك، دون كلل ولا ملل، طوال النـهار ليغـدر بـك، منـذ اللحظة الأولى التي تطأ فيها أرض المخزن... ثم لا يعود يكف عـن اقتفائـك، منتعلاً نعلاً خفيفاً صامتاً، أشبه باللبد... متلوياً خلفك كـالأفعى، مـن بهو إلى بهو، ماداً ذراعيه، مستعدتين للانقـضاض عليـك، لتطرحـك أرضاً... متربصاً بأي سيكارة... بأصغر عقب سيكارة... بـأي مـستخدم منهك يجلس ليلتقط أنفاسه...

ما إن نزعت عني معطفي حتى بادرني على الفور:

- أنا رئيسك هنا... ما اسمك؟

- فرديناند، يا سيدي.

ـ أحذرك إذن... ما من تهريج في هذا المحل! بعد شهر من الآن، إذا لم تعمل جيداً كما ينبغي... سأكون أنا، هل تسمعني بوضوح، من يلقي بك خارجاً! هو ذاك! هذا واضح؟ هذا مفهوم؟

ما إن قال ذلك، حتى توارى كالشبح بين أكداس العلب الكرتونية. كان يتمتم دائماً بأشياء... وحين تظنه ما يزال بعيداً، فإنه يكون على مسافة شعرة منك... كان محدودب الظهر. يلتصق بالزبونات من الخلف... كان المستخدمون يرتجفون هلعاً منه من الصباح وحتى المساء. أما هو فكان يحتفظ ببسمة على وجهه. ولكنها لم تكن حينئذ بسمة عادية... بل نتانة حقيقية.

* * *

كانت الفوضى والبلبلة تعم أكداس البضاعة الرخيصة، وتتجلى على نحو أسوأ في النسيج الحريري أكثر مما في أي نسيج آخر. فكل أثوابه، بمختلف عروضها وقياساتها وعيناتها تنتثر، وتتشابك وتلتف على بعضها إلى ما لا نهاية... كان ذلك منفراً للنظر. وما إن يحل المساء حتى يكون هناك أكداس هائلة، مختلطة، متشابكة على غرار أدغال.

طوال النهار، كانت البائعات الجوالات، وعاملات الخياطة الصغيرات النزقات يأتين ليقرقن عند مباسط الأقمشة. وما يفتأن ينبشن، ويسحبن، ويلطخن، هذيان دونما حد، فوضى عارمة، تموج وتتلوى متدلية تحت المناضد.

بعد الساعة السابعة، يبدأ لف الأثواب على بكراتها. عالم هائل من الفوضى المنقطعة النظير. كنا نختنق وسط أكوام الأقمشة الرخيصة والزخارف النسائية التافهة. سيل عرم معربد من البضائع غير المتجانسة. آلاف وآلاف من الألوان... نسيج الموار المتموج،

والساتان الصقيل، والتول الرقيق الشفاف... كانت الزبونات الثرثارات يعدن للمساومة على هذا المتاع الرخيص. كان ذلك أكثر من مجزرة. لم يعد ثمة علب كرتونية فارغة، كل الصناديق امتلأت حتى الجمام. كنا نرهق أنفسنا حتى الموت... ويتضاعف الإرهاق بسبب جميع أوغاد المخزن من الموظفين السمان ذوي الشعور الملساء، أو الذؤابات المسترسلة على الجباه.

كان على الصبيان المتدربين إعادة لف الأقمشة على البكرات، وتعليق الوشاحات على مشاجبها، ولف الشرائط الرفيعة. كل أولئك المبتدئون كان يناط بهم، لم الحبال والمخامل، والتفتة... جميع تلك المرقة، ذلك الجرف الرخو من الأشياء غير المباعة وما يكادون ينتهون من ترتيب كل ذلك حتى يصل موزعون آخرون، بائعون بالأمانة، فيعاودون هدم كل شيء!... ويلقون بكل عملنا أدراج الرياح.

بسحناتهم العكرة، وفوضاهم الهائلة، ونزقهم القذر، كانوا يبحثون دوماً عن ألوان أخرى متألقة، لم تكن موجودة عندنا.

بالإضافة إلى ذلك، كنت أنوء تحت وطأة أعمال رتيبة مكررة، وتعليمات مضنية، كان علي أن أصعد وأهبط كالمكوك إلى العنابر الاحتياطية، خمسين مرة على الأقل كل يوم. كانت تلك العنابر في الطابق السابع، كنت أصعد متأبطاً جميع العلب الكرتونية. أحمالاً باهظة من النفايات الرثة، خليطاً مشوشاً من البردعات، أو من الفضلات والبقايا. جميع الأشياء المردودة كانت تعود إلي، سائر مظلات الأبواب، من المقاسات الكبيرة، كل موضات فصل الصيف المنصرم، كنت أنقلها إلى الطابق السابع. كان عملاً مرهقاً حقاً إلى أبعد الحدود، كافياً لقتل حمار. كانت ياقتي المنشاة "الفراشة" أثناء العمل الشاق تحز رقبتي حزاً، حتى أذنيّ. رغم أنها كانت منشاة بطبقتين من النشاء.

عاملني السيد لافيلونغ بقسوة فظيعة، وبنوايا غادرة. فما إن تصل زبونة حتى يعطيني إشارة بأن أغرب عن وجهه. كان ينبغي أن لا أظل حوله أبداً... لم أكن خليقاً أن تقع علي الأنظار، بسبب الغبار الكثيف جداً داخل المستودعات الذي كان يغطي ثيابي، والتعرق الغزير الذي يغسلني. كنت ملطخاً من أخمص قدمي حتى ذؤابة شعري، ولكني ما أكاد أتركه حتى يلح في طلبي من جديد لأنني تواريت عن أنظاره. لم يكن هناك وسيلة لإرضائه.

أما المزعجون الآخرون فكان ذلك يجعلهم يتلوون من الضحك، من الطريقة التي كنت أدبُّ فيها على الأرض، والسرعة التي أنتقل بها من طابق إلى طابق. لم يكن لافيلونج يريد لي أن أرتاح لحظة.

" تلك هي قوة الشباب. تلك هي الرياضة!..." على هذا النحو كان يعاملني وما أكاد أهبط من الطوابق العلوية حتى يدفع إلي صرة أخرى!... هيا أيتها الدمية! أنا أعرفك جيداً!.

لم نكن نرتدي بلوزة في تلك الفترة داخل المخزن، ما كان ذلك ملائماً. ومع تلك الأعمال وأمثالها بدأ الاهتراء يظهر في نسيج سترتي الجميلة.

"أنت تبلي من الثياب أكثر مما تكسب!" هكذا كانت أمي تعبر عن قلقها. ما كان ذلك مستغرباً ما دمت لا أقبض أي أجر على الإطلاق. من الصحيح أن المتدربين المبتدئين في بعض المهن يدفعون المال كي يتعلموا. كنت محظياً، في المحصلة لأنني لا أدفع شيئاً. لم يكن يحق لي أن أتشكى في تلك اللحظة. كان الزملاء يلقبونني بالسنجاب لفرط ما كنت أظهر حمية في التسلق نحو المستودعات. ولكن ذلك لم يحل دون أن يسيء لافيلونج معاملتي دائماً. لم يكن يستطيع أن يغفر لي لأنني دخلت مخزن آل بيرلوب، لا لشيء إلا أنه كان يتأذى من رؤيتي. لم يكن يطيق النظر إلى وجهي، كان عازماً على تثبيط عزيمتي.

وجد لافيلونج أيضاً ما يقوله حول حذائي. بأنني كنت أثير بسببه الكثير من الضجة على الأدراج. صحيح أنني كنت أقرع الدرج بكعبي أحياناً... فقد كانت نهايتا الحذاء تسببان لي ألماً شديداً، ولاسيما عند المساء. كانت قدماي تغدوان مثل جمرتين متقدتين.

"فرديناند! كان يبادرني، أنت شخص مزعج! أنت تثير هنا، وحدك من الجلبة أكثر من رتل من العربات!" كان يغالي كثيراً.

كانت سترتي تهترئ من كل مكان. كنت أتلف البدلات بسرعة كبيرة... لذا فقد تحتم صنع بدلة أخرى، بتصغير بدلة قديمة للخال إدوارد... لم يكن يقر لأبي قرار. كان يشعر بكرب يشتد أكثر فأكثر داخل مكتب العمل... فخلال عطلته كان الأوغاد الآخرون من الموظفين قد اغتنموا فرصة غيابه كي ينهشوه نهشاً بالنمائم والوشايات.

كان السيد لامبرنت، رئيسه، يصدِّق كل ما يقولونه، كلمة كلمة. كانت توافيه نوبات من آلام المعدة. وحينما يشتد عليه الوجع، كان يرى نموراً في السقف... وكان ذلك يعقِّد الأمور.

لم أعد أعرف كيف أتصرف كي أنال الإعجاب في مخزن بيرلوب. فكلما تسلقت الدرج بسرعة كلما شنأني لافيلونج بشدة. لم يعد يستطيع احتمال وجودي.

في الساعة الخامسة، حين كان يذهب للاستمتاع بتناول الكريما، كنت أهتبل الفرصة في المستودع فأخلع حذائي فترة قصيرة. كنت أفعل ذلك أيضاً في المرحاض حين يكون خالياً. وإذا بالأغبياء الآخرين يهرعون دفعة واحدة للوشاية بي إلى القرد. كان لافيلونج يندفع نحو المرحاض قاطعاً مئة متر بلمحة عين. كنت هاجسه... وينقض علي في الحال.

"هل ستخرج؟ أيها الماكر الصغير! عجباً! أهذا ما تسميه بالعمل؟... بأن تحوص هنا وهناك في كل زاوية وركن!... هكذا ستتعلم؟ أليس كذلك؟ كسول! وتلعب بذيلك!... أهذا هو منهج الفتوة!...".

كنت أفرُّ من وجهه إلى مخبأ آخر، في مكان آخر، كي أتيح لقدميّ أن تتنفسا قليلاً. فأضعهما تحت صنبور الماء. كنت أصارع، بصدد حذائي، على جميع الجبهات. فوالدتي التي ضحت من أجل شرائه لم تقتنع قط بأنه ضيِّق جداً. كان ذلك كسلاً مني أيضاً، برأيها! بسبب سوء نيتي! لم أكن على حق أبداً.

فوق، في العنابر، حيث كنت أترنح تحت وطأة أحمالي، كان يعمل الصغير أندريه. كان يصلح العلب الكرتونية، ويكتب الأرقام فوقها بالدهان والفرشاة. بدأ أندريه العمل منذ السنة الفائتة. كان يسكن بعيداً، في إحدى الضواحي، يقطع مسافة طويلة على قدميه للوصول إلى المخزن.

كان عليه أن يصحو في الخامسة صباحاً، كي لا يبدد النقود على الترامات. يجلب معه سلة طعامه، مقفلة بقضيب معدني وقفل.

في الشتاء لم يكن يتحرك من مكانه أبداً، كان يأكل طعامه في العنبر، ولكنه كان يتناول زاده في الصيف فوق مقعد في الباليه رويال. كان يخرج قبل ساعة كي يصل إلى هناك ساعة الظهر بالضبط، كي يسمع قصف المدفع. كان ذلك يفتنه.

لم يكن يظهر للملأ كثيراً أيضاً. كان مصاباً بزكام دائم، لا يكف عن التمخط حتى في شهر آب.

كانت أطماره بالية أكثر من أطماري. لم يكن يستر جسمه سوى

خرق بالية. وبما أنه كان هزيلاً جداً، وكان أنفه مملوءاً بالرغام، وكان يفأفئ ويتأتئ دون أن يقول شيئاً، فإن المتدربين الآخرين في المخزن كانوا يبحثون عن حجج وأعذار كي يوسعوه ضرباً... كان يفضل البقاء في الأعلى. فما من أحد كان يصعد إليه ليتحداه.

كانت خالته، فوق ذلك، هي التي تقوم بتربيته. كانت تقسو عليه أيضاً، لاسيما أنه كان يبول في سريره، رشقات فظيعة. كان يحدثني عنها بالتفصيل. لم تكن تبولاتي في السرير تعد شيئاً بالقياس إليها. كان يلح علي أن أذهب معه إلى الباليه رويال، كي يريني الفتيات. زاعماً بأنه كان يكلمهن. كانت عصافير الدوري تتقافز حوله، تلتقط فتات خبزه، ولكني لم أكن أستطيع الذهاب معه، كان علي العودة إلى البيت دون أن أتأخر دقيقة واحدة. فقد أقسم أبي بأن يحبسني في إصلاحية روكيت إذا علم بأنني أتسكع في الطرقات.

في موضوع النساء، كان أبي صارماً إلى أبعد حد. وإذا ما اشتبه بأن لدي أدنى رغبة بالدنو منهن أو ملامستهن يغدو وحشاً ضارياً. كان ذلك كافياً كي أرتعش هلعاً. كان يذكرني بذلك كل يوم كي أتحاشى أدنى تلميح أو إشارة. كان يرتاب بالصغير أندريه... ويرى بأن لديه نوازع الطبقات الشعبية الدنيا، وبأنه سليل أسرة من السوقة... أما أنا فلم أكن الشيء نفسه. كان لي أبوان شريفان، لذا ينبغي علي بأن أنسى أندريه. كان يذكرني كل مساء أيضاً بأنني كنت أعود من محلات بيرلوب منهكاً للغاية، مضطرباً. كنت أتلقى أيضاً صفعة قوية إذا ما حاولت أن أرد قليلاً!... كان ينبغي أن لا أنحط وأفسد! فقد كنت أملك غرائز دنيئة لا يدري أحد من أين جاءتني!... وحين أخالط الصغير أندريه وأستمع إليه فسأغدو قاتلاً بالتأكيد. كان أبي على يقين من ذلك. ثم إن عيوبي الشائنة، في الأساس، كانت جزءاً من خيباته، وأسوأ تعاسات قدره...

كان لدي عيوب شنيعة. كان هذا مؤكداً ومفجعاً. ذلكم هـو الأمـر. لم يعد يعرف أي سبيل لإنقاذي. ولم أعد أعرف أي سبيل للتكفير عـن عيوبي. ثمة أولاد عصيون على الإصلاح.

كان الصغير أندريه يصدر رائحة كريهـة، أشـد نتانـة مـن رائحـتي. رائحة من غرق في فقر مدقع. كان يفسد جو العنبر. وكانت خالته تجـز له شعره بمقصها فيبدو كما لو أن عشباً يغطي رأسـه، مـع خـصلة مـن الأمام.

ولفرط ما كان يستنشق الغبار، فقد غدت الأقذار داخل أنفـه أشـبه بالصمغ، ولم تعد تفارق أنفه قط. كانت تسليته المحببـة أن يجرفهـا ثم يلتهمها بعد ذلك بهدوء، ولما كان يتمخط بأصابعه الملوثة بالـدهان، وبالأقذار، فقد غدا تماماً أشبه بزنجي.

كان على الصغير أندريه أن يرقّم كل يوم ثلاثمئة علبة من الكرتون، على الأقل... كانت حدقتاه تتسعان كي يـرى الأرقـام بوضـوح داخـل الحجرة المظلمة. لم يكن بنطاله يثبت على خصره إلا بخيوط ودبابيس على منوال لفائف الأطفال الرضع.

منذ أن عملت بعتل الأحمـال، لم يعـد هـو يـنزل إلى المخـزن في الأسـفل، كـان ذلـك أدعـى إلى راحتـه. كـان يتحاشـى الـضربات والـصفعات، فيـدخل إلى المحـل عـبر الفنـاء متـسللاً خفيـة عـن الحاجب، ويصعد درج الخادمات. وإذا كان هناك الكثير من التـرقيم، كنت أتأخر لأساعده، وفي تلك اللحظات كنت أخلع حذائي.

في خلوتنا تلك كنا نتبادل الأحاديـث آمنين مطمئنين. منتبـذين مكاناً بين عارضتين خشبيتين، في منجى من مهـب الهـواء، بـسبب زكام أنفه الدائم.

بخصوص قدميه، كان أندريه محظوظاً. فهو لم يعد ينمو. كان له أخوان يعيشان عند خالة أخرى، وظلت أخواته في أوبرفييه مع والدهما العجوز الذي كان يعمل مسجِّلاً لعدادات الغاز في المنطقة... لم يكن يرى ابنه قط تقريباً. ما كان لديه الوقت.

كنا أحياناً نكشف عن عضوينا لبعضنا. إضافة إلى ذلك كنت أنقل إليه أخباراً عما كان يحاك في أجنحة المخزن، وعن الأشخاص الذين كانوا على وشك أن يسرَّحوا من العمل، كان هناك دوماً من هو معرَّض للطرد... كان أولئك الأفظاظ لا يفكرون إلا بأن يزيح بعضُهم بعضَهم الآخر عبر الوشايات المسمومة، ومن ثمَّ فقد كانوا يتحدثون عن ست وثلاثين طريقة لرؤية فرج الزبونات حينما يجلسن لبرهة من الزمن.

كان هناك العديد من الفاسقات بين البائعات المتجولات، كن يرفعن أحياناً عن عمد، ساقهن إلى الأعلى فوق مرقاة كي يكشفن للأنظار عن ربواتهن، ثم ينسحبن ضاحكات بهزء... وقد أرتني واحدة منهن مطاطتي جوربها في أعلى فخذيها بينما كنت ماراً بالقرب منها، وأسمعتني أصوات مصٍّ من بين شفتيها... صعدت إلى الأعلى كي أقص على الصغير أندريه ما رأيت وسمعت... وتساءلنا كلانا، ترى، ما عسى أن يكون طعم مصَّة من بين فخذيها. وما إذا كان يصدر من بينهما عصير؟ أصفر؟ أحمر؟ ما إذا كان هذا كاوياً؟ وكيف عسى أن يكون فخذاها. صرنا نحن أيضاً نصدر أصواتاً من لساننا ولعابنا مقلدين صوت التقبيل. غير أننا كنا ننجز في كل ساعة خمساً وعشرين إلى ثلاثين علبة. علمني الصغير أندريه غرز الدبابيس، وهو العمل الأساسي في تثبيت العلب من الأطراف. كنا نغرز الدبابيس في كل جهة على غرار الأشواك... كان ينبغي الحذر من تلويث الطيات الملساء. لا بد من غسل الأصابع في البداية. كانت تلك تقنية حقيقية.

* * *

في المنزل كان والداي على يقين بأنه لن يطول بي العهد في مخزن بيرلوب، وأن بدايتي كانت فاشلة. كان لافيلونج يلتقي بأمي هنا وهناك، في الحي بينما هي خارجة لتسليم بضاعتها، فيبادرها بالهجوم: "آه ياسيدتي. ولدك، إنه ليس شريراً بالتأكيد، ولكنه طائش!... آه! كم كنت على حق!... رأس من دون دماغ!... لا أدري في الحقيقة ماذا سنفعل به!... لا يستطع أن يلمس شيئاً!... إنه يقلب كل شيء!... آه! على رسلك!...".

كانت تلك أكاذيب صارخة. كانت ظلماً فادحاً، كنت أشعر بذلك بعمق. لأنني كنت بريئاً منها كل البراءة. هذه الأراجيف العفنة كانت من أجل أن أشتغل مجاناً!...كان مستفيداً من والديّ... لأنهما كانا ما يزالان يعيلانني... وهو يحطُّ من شأن عملي كي يشغلني بلا مقابل. سيكون من العبث أن أقول أو أن أفعل شيئاً، فعجوزاي لن يصدقاني إذا ما اعترضت... كانا فقط ينهالان علي بمزيد من الشتم والتعنيف...

الصغير أندريه الذي كان زرياً إلى حد يثير الشفقة، كان يقبض، مع ذلك، خمسة وثلاثين فرنكاً في الشهر. لم يكن عرضة للاستغلال مثلي... كان أبي نهباً للقلق الممض لدى تفكيره بمستقبلي. أين سيكون بإمكاني أن أتوظف؟ لم يعد يستوعب الأمر... لم أكن صالحاً للعمل في المكاتب... سأكون أيضاً أسوأ منه هو ذاته بلا ريب!... لم أحصل قط على ما يكفي من التعليم... وإذا ما أعرضت عن التجارة فتلكم خيبة الأمل الكبرى! كان يبدو كما لو أنه في حالة من الحداد... كان يلتمس النجدة. غير أنني لم أكن مقصِّراً أو متوانياً... كنت أجبر نفسي على إظهار الحماس... أصل إلى المخزن قبل ساعات من بدء العمل... كي أنال الحظوة والتقدير، وأغادر بعد جميع العاملين، ومع ذلك لم يكن يلحظني أحد... لم أكن أفعل سوى بلاهات... كنت أشعر بالذعر... يتلبسني الشعور بالذنب في كل الأوقات.

كان ينبغي المرور بمثل هذا الظرف كي تتنفس وسواسك... كي يمرَّ عبر أحشائك، ليستقر في القلب.

كثيراً ما ألتقي الآن بساخطين محتجين... ليسوا سوى أغبياء بائسين... رفاق صغار. باحثين فاشلين عن اللذة... إنه تمرد الضعيف العاجز... الذي يعمل دون أجر، يعمل بالمجان... مجاذيف خلفية حقيقية.

هو ذا قادم من لامكان... يأتي ربما من المدرسة... من البيوت... من الريح... إنه الحقد الحقيقي، يخرج من الأعماق... من الفتوة الغضة، التي يجتثها العمل دونما حماية. وحينذاك فإن هذا الحقد الذي يفرخ الموت والشقاء، يتغلغل في الأعماق، وينتشر مع ذلك في كل مكان. سيعصر عصيره فوق الأرض بما يكفي ليسممها، ويفجر فوقها الخبث والقسوة بين الأموات، وبين الأحياء.

في كل مساء، حينما أعود إلى البيت، تسألني أمي مرات ومرات عما إذا كنت قد حصلت على إجازة؟ كانت دائماً تتوقع الأسوأ. وخلال تناول الحساء كنا نطرق الموضوع ذاته من جديد، كان ذلك هو الموضوع الذي لا ينضب معينه. إذا ما كنت سأكسب رزقي في يوم من الأيام؟...

لفرط ما كان الحديث يجري على هذا النحو، كان الخبز على المائدة يخلِّف لدي نتائج مريعة.لم أعد أجرؤ على أن أطلب شيئاً منه. كنت أسرع في الانتهاء من الطعام. كانت أمي تأكل بسرعة أيضاً، ولكن تعجلي كان يزعجها مع ذلك:

"فرديناند! أقول لك مرة أخرى. أنت لا ترى كيف تأكل! أنت تلتهم كل طعامك دون أن تمضغه، تزدرد كل شيء مثل كلب! انظر إلى سحنتك! لقد غدا جلدك شفافاً! مخضراً!... كيف تريد أن يفيدك ذلك! نحن نفعل كل ما بوسعنا من أجلك! ولكنك تبدد غذاءك دون فائدة!"

* * *

في العنبر العلوي، كان الصغير أندريه يستمتع ببعض الهدوء. لم يكن لافيلونج يصعد إليه أبداً تقريباً. فما دام يخربش أرقامه فإن أحداً لم يكن يزعجه كثيراً.

كان لأندريه ولع بالزهور، تلك هي غالباً حال ذوي العاهات، كان يجلبها معه من البرية، ويضعها في زجاجات... يزين بها جميع عوارض العنبر. ذات صباح جاء حاملاً باقة كبيرة من زهر الزعرور، وحينما رآه العمال الآخرون اعتبروا بأنه يقترف عملاً مخلاً بالنظام. ولفرط ما همسوا في أذن لافيلونج فقد صعد بنفسه إلى الأعلى ليتأكد... فما كان من أندريه إلا أن ألقى بالباقة كلها في الفناء شاعراً بالغصة والألم.

في الأسفل داخل أجنحة المتجر الواسعة، لم يكن هناك سوى حمقى، ولاسيما موظفو الشحن والتصدير. ما عرفت قط أنذالاً أكثر ولعاً بالوشاية منهم، وأشد مكراً ونفاقاً. لم يكونوا يفكرون قط بشيء خارج عملهم في إعداد الرزم وشحنها.

أحد هؤلاء المستخدمين، ويدعى ماغادور الكبير، وهو المسؤول عن شحنيات باريس، كان هو الأسوأ بين هؤلاء البلهى. كان يثير حفيظة أندريه ضدي. ويثلم سمعتي عنده... كانا غالباً ما يسيران معاً، من بوابة ليلاس وحتى المخزن... وقد حقق لأندريه كثيراً من الفوائد كي يقلبه ضدي... لم يكن ذلك صعباً، لأن أندريه كان قابلاً للتأثر بسرعة. ففي الركن الذي ينزوي فيه وحيداً طوال ساعات كان من السهل أن ينكفئ على نفسه ويعذبها، كان يكفي بعض الكلام المعسول، ووضعه قليلاً موضع الدفاع، حتى لا يعود يتلبث في أحكامه... أياً كانت الكذبة التي تلقى على مسامعه. دخلت عليه، فوجدته مضطرباً..

- هل صحيح يا فرديناند؟ سألني. هل صحيح بأنك تريد أن تحتل مكاني؟.

حينما أواجه عادة بعدوان مفاجئ، أفقد القدرة على الفهم والإدراك... وأبدو كالأحمق تماماً. وقد أربكتني هذه المفاجأة واستأنف...

- آه! أرجوك، هيا! لا تتعب نفسك! جميع من في المخزن يعرفون ذلك! أنا الوحيد الذي لم يكن يشك بهذا!... أنا المغفل، هذا كل ما في الأمر.

وحينئذ، فإن أندريه الذي كان شاحباً بالأحرى، غشيته صفرة شديدة. والذي كان قبيحاً بأسنانه المفلجة، ومخاطه، لم يعد من الممكن النظر إليه على الإطلاق بعد أن تملكه الانفعال والتأثر. كان وجهه مصفراً تماماً، وشعره مقنفذاً كالأشواك ورائحته تملأ المستودع. ما عاد من الممكن التحدث إليه بكلمة واحدة. كان يجللني بالكثير من الخزي.

كنت أفضّل مئة مرة بأن يرمى بي على الفور خارج باب المخزن على أن يرتاب بي بأنني أريد أن أحتل مكانه... ولكن أين سأذهب بعد ذلك؟ كان الموقف يحتاج إلى قرارات صعبة... تتجاوز كل إمكانياتي... حريّ بي، على العكس، أن أتشبث بعملي، وأن أبذل كل طاقتي، وأن أبرئ نفسي... حاولت أن أردَّه عن خطئه. ولكنه لم يعد يصدقني. كان الآخر القذر، ماغادور، قد غسل دماغه.

بدءاً من تلك اللحظة صار أندريه يرتاب كل الريبة بأبسط نواياي. كان يخشى أن أكرر محاولتي لإقصائه عن مكانه. كان يذهب وحده إلى المرحاض، متعمداً، كي يدخن بهدوء. ولم يعد يحدثني عن الباليه رويال.

بين صعودين إلى الطابق السابع، كي يملؤوا لي شحنات البضاعة، كنت أنطوي على نفسي تحت السقف الخشبي. فأخلع حذائي وبدلتي، منتظراً أن ينتهوا من ذلك.

كان أندريه يتظاهر بأنه لا يراني. كان يصطحب معه إلى عنبره "المغامرات الجميلة المصورة". يقرأها وحده! كان يفتحها فوق الألواح الخشبية... فإذا ما كلمته، وحتى بأعلى صوتي تظاهر بأنه لا يسمعني. كان يكبُّ على أرقامه، يدهنها بفرشاته، كل ما كنت أقوله أو أفعله كان يبدو له مريباً. كنت خائناً في نظره. فلو أنه فقد مكانه هذا، كما كان قد حدثني مراراً، فإن خالته ستؤدبه تأديباً عنيفاً ينتهي به إلى المستشفى... ذلكم هو الأمر. كان هذا مما لا جدال فيه. غير أنني ما عدت أتحمل أن أغدو في نظره وغداً قذراً.

- قل لي إذن، يا أندريه، كنت أقول له، وقد أعيتني الحيل. كان عليك مع ذلك أن تدرك بأنني لا أريد أن أقصيك عن مكانك!...

لم يكن يجيبني بشيء أيضاً. كان يواصل تمتمته، فيما هو ينظر إلى صوره، ويقرأ بصوت مرتفع... فأقترب منه... لأشاهد أيضاً ما ترويه القصة، كانت تلك قصة الملك كريغولد... كنت أعرفها جيداً منذ زمن بعيد... منذ أيام جدتي كارولين. وقد تعلمت القراءة فيها. لم يكن لديه سوى جزء واحد قديم من القصة المصورة.

- قل لي إذن يا أندريه، كنت أعرض عليه، أنت تعلم بأنني أعرف تتمة القصة كلها! أعرفها عن ظهر قلب.

كان صامتاً باستمرار، لا يجيب بأي شيء، ولكنه مع ذلك تأثر بكلامي بعض التأثر... وبدا عليه الاهتمام... لم يكن لديه الجزء الآخر من الحكاية.

- أنت ترى بأنني أتابع أحداث القصة...

واغتنمت على الفور الفرصة المؤاتية "جميع سكان كريستياني لاذوا بالكنيسة، داخل الكاتدرئية، تحت القباب، كل قبة منها أكبر بأربع مرات من نوتردام... ركعوا جميعاً على ركبهم... في الداخل... أنت تسمعني؟... كانوا يشعرون بالرعب من الملك كريغولد... يطلبون الصفح من السماء لأنهم زجوا بأنفسهم في تلك الحرب... ودافعوا عن جواندور... الأمير المتمرد!... ما عادوا يعرفون أين يضعون أقدامهم. كانوا مئة ألف تحت القبة!... ما عاد أحد يجرؤ على الخروج! ما عادوا يعرفون كيف يصلّون لفرط ما كان يتملكهم الفزع. كانوا يغمغمون جميعاً! الشيوخ، والتجار، والأمهات، والخوارنة، والجبناء، والأولاد الصغار، والنساء الجميلات، والأساقفة، ورقباء الشرطة. تغوطوا كلهم في سراويلهم، وانحنوا حتى لامست رؤوسهم أقدام بعضهم بعضاً... خليط هائل، كان ينخر ويئن. ما عادوا يجرؤون حتى على التنفس لفرط ما كانت تلك الساعة عصيبة... كانوا يتوسلون... يتضرعون... بأن لا يحرق الملك كل شيء...أن يكتفي ببعض الضواحي فقط... أن لا يحرق كل شيء عقاباً لهم!... الأسواق، كانوا يشددون أكثر على الأسواق! ومخازن الغلال، والميزان الكبير، وبيت الكاهن، وقصر العدل، والكاتدرائية!... والقديسة كريستياني... الأكثر رقة بين جميع القديسات! ما عاد أحد منهم يعرف أين يضع جسده! لفرط ما تقلصوا. ما عادوا يعرفون أين يختبئون...

"تعالى حينئذ، من الأسفل، من خلف الأسوار هدير مصطخب، يتقدم نحو المدينة... تلكم طلائع جيش الملك كروغولد. زوبعة سنابك الخيل الثقيلة يتردد صداها فوق جسر ليفيس... آه! أجل بالتأكيد. أولئكم هم خيالة الموكب المرافق للملك... الملك كروغولد

الذي وصل أمام بوابة المدينة... منتصباً فوق ركـاب فرسـه... وتنـاهى إلى الأسماع صـليل ألـف سـلاح... سـلاح الفرسـان الـذين اجتـازوا ضاحيةَ ستانيلاس... كانت المدينة المترامية الأطراف تبدو خاوية علـى عروشها. لا أحد من سكانها مثلَ أمام الملك... وها هـو ذا رهـط مـن الخدم يفتح الباب الثقيـل... لم يكـن قـطُّ واسـعاً بمـا يكفـي لـدخول الجيش... اختنقت حركة مرور الفرسان عبره... فدكت الأسوار العاليـة من كل جانب... وتهـاوى كـل شـيء!... انـدفعت العربـات والفيـالق والبرابرة والمنجنيقات والفيلة يرافقها نفير الأبواق. تدفقوا عـبر الثغـرة المفتوحة في السور... المدينة بأسـرها خرسـاء، مرتعـدة... الأبـراج، والأديرة... والمساكن... والحوانيت. ما من شيء يتحرك...".

"توقف الملك كريغولد عنـد أولى درجـات الكنيـسة. وقـد تجمـع حوله ثلاثة وعشرون كلباً من كلاب الحراسة، لا تنفك تنبح، وتثـب، وتتسلق. إنـه سـرب كلابـه الـذائع الـصيت في قتـال الدببـة والـثيران البرية... اجتازت تلك الكلاب غابـات بكاملـها... مـن الألـب وحـتى جبال الكارابات... ورغـم العجـيج الهـادر سمـع كروغولـد أصـوات التراتيل... المنبعثة من الحشد المتكدس، اللائذ تحت القبـة... تراتيـل الصلاة السوداء... انفتحت أبـواب الكنيـسة علـى مـصاريعها... فـرأى كروغولد حينئذ... في أعمـاق الظـل حـشداً يعـج كالديـدان أمامـه... تعنْقد بعضه على بعض... شعب لاجئ بالكامل... خـاف الملـك مـن الخيانة... لم يشأ أن يدلف إلى الـداخل... كانـت الأورغـات ترعـد... يتدفق هديرها عبر الرواقات الثلاثة... الحذر الحـذر!... هـذه المدينـة خائنة!... وستظل خائنة!... ألقى الأمر إلى قائد شرطته بـإخلاء جميـع القباب فوراً... انقض ثلاثة آلاف مـن الحـراس، يبعجـون الأجـساد، يثخنونها بالطعنات. يخلعون العظام، كـان الـشمل يتبـدد، ثم يتـشكل

حـول الـسيافين... ينـسحق علـى الأبـواب... يتكتـل في المحـيط والأطـراف. والـسيافون ماضـون في الـضرب والطعـن... أي جهـد للخلاص كان بـلا طائـل... كـان الملـك ينتظـر فـوق صـهوة جـواده الضخم الغزير الشعر... الجواد يقرع الأرض بسنابكه... الملـك يلتـهم قطعة لحم كبيرة... فخذ خروف، ينهشها بأسنانه المعوجة... يمزّقها... يجتاحـه هيـاج مـسعور... لم ينتـه الـسيافون بعـد داخـل الكنيـسة؟... ينتصب الملك ثانية فوق ركابه... إنـه الأقـوى بـين القـوم... يـصفر... ينادي... يجمع رهط الكلاب حوله... يلوح بكتلة اللحم الكـبيرة فـوق تاجه... ثم يقذف بها في الهـواء... بعيـداً في قلـب الظلمـة... فتـسقط وسـط الكنيـسة بـين الأجـساد الجاثيـة... يثـب رهـط الكـلاب بقـضه وقضيضه عاوياً، منبجساً في كل مكان... يمزق الأجساد شذر مـذر... ينحـر الرقـاب... ينتـزع اللحـم... فيكتـسح الهـول الرهيـب المهـج والأفئدة... ويتعالى عجيج القوم حتى السماء... يتدفق مـوج الأجـساد المضطرب، باتجاه الأروقـة... يـتحطم الـسيل، المنـدفع نحـو جـسر ليفوس على الأسوار... ينسحق هناك تحت طعنات الرمـاح وعجـلات العربات... يخلو الطريق الآن أمـام الملـك... الكاتدرائيـه كلـها ملـك يده... يدفع جواده، يدخل، يأمر بأن يـصمت الجميـع... الكـلاب... والناس... والأورغات... والجنـود... يتقـدم مـسافة، يجتـاز الأروقـة الثلاثة... يمتشق بهدوء... حسامه البتـار... ويرسـم بـه إشـارة صـليب كبيرة... ثم يقذف به بعيداً جداً في الهواء... ليسقط وسـط المـذبح!... لقد انتهت الحرب!... يتقدم أخوه الأسـقف... يركـع علـى ركبتيـه... ويرتل نشيد الإيمان".

هوذا... ما من ضرورة للادعاء، لقد فعل هذا فعله مع ذلك. فالـصغير أندريه كان سيطلب ربما أن أروي له تتمـة الحكايـة... أن أضـيف المزيـد

من التفاصيل... كان مغرماً جداً بالحكايات الجميلة... ولكنه كان يخشى أن أؤثر فيه... كان يغمغم داخل علبته الكرتونية... ويعبث ببعض قطع صغيرة من الزنك على شكل دمى... لم يكن يرغب في أن أستميل قلبه... وأن نعود أصدقاء من جديد كما كنا من قبل...

بعد الظهيرة ذاتها، صعدت إليه أيضاً مع حمولة أخرى... لم يعد إلى الحديث معي أبداً... كنت منهكاً جداً، جلست على الأرض. كنت أرغب بالتأكيد في أن يكلمني. قلت له: "اسمع يا أندريه، أنا أعرف أيضاً المقطع الآخر بكامله حينما رحل جميع التجار، متوجهين إلى فلسطين، مع ثيبو، للاشتراك في حملات الصليب... وتركوا حراسة القصر... حكاية شاعر التروبادور مع الأميرة واندا. أنت لا تعرف شيئاً من هذه الأشياء؟ من الممتع سماعها! انتقام واندا على الأخص، الطريقة التي غسلت فيها عارها بالدم... وكيف سببت الخزي والهوان لأبيها".

فتح الصغير أندريه أذنيه. لم يكن يريد أن يقاطعني، ولكنني سمعت حفيفاً عبر الممر. كنت راغباً بالاحتفاظ بسحر الأشياء. وفجأة رأيت من زجاج النافذة الصغيرة رأس لافيلونج... قفزت من مكاني... لا بد أنه كان صاعداً في اللحظة المناسبة ليمسكني... ميزته بوضوح من خلف الزجاج... انتفضت بشدة... لبست حذائي بسرعة... أشار نحوي فقط بإشارة صغيرة...

"جيد جداً! جيد جداً يا فرديناند. سنسوي الأمر بيننا فيما بعد! لا تتحرك الآن من مكانك يا فتاي!...".

لم يتأخر الرد. ففي الغد وصلت إلى البيت ظهراً. فأخبرتني أمي:

- فرديناند، بدأت كلامها على الفور... كانت مقتنعة كل الاقتناع، مسلّمة كل التسليم، السيد لافيلونج خرج للتو من هنا!... هو

شخصياً! هل تعرف ما الذي قاله؟... لم يعد يريدك في المخزن! هوذا! إنه لأمر مستهجن! كان مستاء منك سابقاً. ولكن استياءه بلغ الذروة الآن! لبثتَ، كما قال لي، ساعات مختبئاً في المستودع!... بدلاً من أن تتابع عملك!... أنت تفسد الصغير أندريه!... لقد فاجأك جالساً عنده! لا تنكر!... تروي له حكايات! وحكايات بذيئة مقززة أيضاً!... لا يمكنك أن تقول العكس! مع ولد من أبناء الشعب! ولد لقيط! السيد لافيلونج يعرفنا منذ عشرٍ سنوات، لحسن الحظ يا إلهي! وهو يعرف قيمتنا حق المعرفة. إنه يجلّنا ويحترمنا ويكنُّ لنا التقدير والاعتبار... طلب مني أن أمر على المخزن لآخذك... من قبيل الاحترام لنا، فهو لن يطردك... حتى لا يعرضنا لهذه الإهانة!... آه! حينما أقول لوالدك!... سيقع مريضاً بسبب ذلك.

في تلك اللحظة وصل! جاء مباشرة من المكتب. وما إن فتح الباب، حتى أعادت على مسامعه القصة... وفيما هو يستمع إلى ملابسات ما حدث كان يمسك بالطاولة خوفاً من السقوط... لم يكن يصدق أذنيه... كان ينظر إلي من الأعلى إلى الأسفل، ويرفع كتفيه... فيهبطان تحت وطأة الغيظ... أمام مثل هذا الغول لم يعد ثمة ما يمكن فهمه! لم يكن يزمجر... لم يعد يلطم أيضاً... كان يتساءل بينه وبين نفسه كيف سيتحمل؟... لقد خرج من اللعبة، كان يترجح فوق كرسيه... "هوم!... هوم!... هوم!... "شرع يهمهم فقط رائحاً غادياً... ثم قال أخيراً مع ذلك...:

"أنت ما تزال إذن أكثر تشوهاً، وأشد مكراً، وأعظم حقارة مما كنت أتصور، يا فرديناند؟".

بعد ذلك نظر إلى أمي، كان يشهدها على أنه لم يعد هناك ما يمكن محاولته... وأنني كنت عصياً على الإصلاح...

أما أنا، فقد لبثت مذهولاً، وطفقت أبحث في أعماقي، ترى أية اثام شنيعة، أية انحرافات خارقة كان بإمكاني أن أقترفها في النهاية؟ لم أكن أعثر على أي شيء بنحو مؤكد... وحرت في أمري... كنت أجد الكثير منها. لم أكن متأكداً من أي شيء...

فضَّ والدي الاجتماع العائلي، وصعد إلى غرفته. كان يود أن يفكر وحده... نمت تلك الليلة تحت وطأة كابوس مخيف... كنت أرى دائماً الصغير أندريه وهو يروي قباحات شنيعة عني للسيد بيرلوب.

في الغد عند الظهر، ذهبنا أنا وأمي لالتماس شهادة عمل... وقدمها لنا السيد لافيلونج شخصياً... إضافة إلى ذلك أراد أن يكلمني...

- فرديناند! قال لي على هذا النحو. أنا لن أطردك... مراعاة لوالديك الطيبين... هما اللذان استعاداك!... بمحض إرادتهما! هل تدرك الفرق؟... إنني أشعر بالألم، صدقني، وأنا أراك تغادرنا. كل ما في الأمر هو أنك أشعت بسوء سلوكك الكثير من عدم الانضباط في كل الأقسام!... أنا، مسؤول عن العمل!... كما تعلم، أعاقب بقسوة! هذا صحيح!... ولكن هذا الإخفاق سيجعلك تفكر بجدية! والقليل الذي تعلمته سينفعك بالتأكيد، في مكان آخر! لن تضيع منك أية تجربة! ستتعرف على معلمين آخرين. ربما يكونون أقل تسامحاً أيضاً. إنه درس كنت بحاجة إليه... إيه حسناً! وها أنت ذا تعلمته يا فرديناند، فليكن مفيداً لك!... في عمرك كل شيء يمكن تعويضه!.. وضغط على يدي مصافحاً بكثير من الاقتناع. كانت أمي قد غلبها التأثر على نحو يعزُّ على الوصف... وأخذت تمسح عينيها.

- هيا اعتذر يا فرديناند، طلبت مني آمرة فيما نحن ننهض استعداداً للخروج... إنه ما يزال غلاماً يا سيدي، ما يزال غلاماً، أشكرك مرة ثانية يا سيد لافيلونج لأنك أعطيتنا رغم كل شيء شهادة ممتازة... أنت لا تستحقها يا فرديناند، أنت تعرف!.

- لا بأس عليك يا سيدتي العزيزة، ما من شيء يستحق الذكر. لا شيء قطعاً، أؤكد لك. هذا من أبسط الأمور! ليس فرديناند أول فتى يبدأ بداية غير موفقة! هيه! على رسلك! لا. بعد عشر سنوات من الآن، انتبهي، سيكون هو نفسه، أنا على يقين من ذلك، من سيقول لي، لي أنا، شخصياً: "سيد لافيلونج، لقد أحسنت صنعاً! أنت إنسان صالح! بفضلك أنت فهمت ووعيت!"... ولكنه اليوم، يكنُّ لي الضغن!... ولكن هذا طبيعي جداً!... فبادرت أمي إلى نفي ذلك... ربّت على كتفي وأشار لنا إلى باب الخروج.

في اليوم الثاني عينوا مستخدماً آخر في العنبر... علمت بذلك... ولكنه لم يكمل ثلاثة أشهر. كان يسقط عند كل درابزين، لفرط ما كان ينهكه العمل ويستنفد قواه.

ولكن هذا لم يبين ما إذا كنت مذنباً أو بريئاً... كنت قد غدوت معضلة حقيقية للعائلة بأسرها. وقد سعى الخال إدوارد إلى إيجاد عمل آخر لي في ميدان السمسرة، كي أبدأ بداية جديدة، ولكن ذلك لم يعد ميسراً بالنسبة إليه... كان حرياً أن أغير اللعبة.

كان لدي ماض غير محمود... ومن الأفضل عدم الحديث عنه. كان هذا ما جرى الإجماع عليه.

***

ما إن خفَّ وقع الصدمة حتى عاد والدي إلى هذيانه... وبدأ من جديد يحصي سائر عيوبي. واحداً واحداً... كان يبحث عن عيوب قارّة في أعماق طبيعتي، كما لو أنها ظواهر عجيبة... ويطلق صيحات شيطانية... ثم تعتريه الارتعاشات ثانية... كان يرى نفسه ضحية اضطهاد لكرنفال من الغيلان... ويتلفظ بترهات حمقاء... كان حاقداً على كل الميول والأذواق... على اليهود... وعلى الدساسين المتآمرين... وعلى الوصوليين... وعلى الماسونيين بوجه خاص... لا أدري ما الذي كانوا يفعلونه له... كان يطارد في كل مكان أفكاراً ووساوس ثابتة. مكافحاً وسط الطوفان، بحيث كان ينتهي إلى نسياني...

كان يهاجم لامبرنت، الكريه الممعود... والبارون ميفيز، مديره العام... يهاجم أي شخص أو أي شيء لا على التعيين، متململاً، فائراً، مصدراً جلبة فظيعة تجعل جميع الجيران يضحكون.

كانت أمي تجرجر نفسها خلفه... لم يكن يكف عن الزعيق... كان يعود إلى الاهتمام بمصيري، ويكتشف لدي أسوأ العلامات المنذرة بالويل والثبور... علامات الفسق والفجور. قصارى القول، لقد غسل يديه مني، مثلما غسل بيلاطوس يديه من دم المسيح!... كما كان يقول... وأراح ضميره...

كانت أمي تنظر إليَّ... إلى "شيطانها الرجيم" مستسلمة بانكسار وحزن... ما عادت تريد أن تتركني لحظة... فما دام بديهياً بأنني سأنتهي إلى حبل المشنقة فإنها سترافقني حتى النهاية.

* * *

في الباساج لم يكن بيننا شيء مشترك واحد داخل العائلة سوى القلق على المعاش. كان يثقل قلوبنا إلى أبعد حد، فمنذ أنفاسي الأولى شعرت به... كانوا قد ألقموني على الفور ذلك الشعور... كنا جميعاً مسكونين به، كل من في البيت.

كان الهلع قاراً في الروح. ففي كل غرفة من غرف البيت كان الخوف من الإخفاق يسيل على الجدران... كنا نلتهم الخوف فتغص به حلوقنا، نواريه عن أنفسنا مع كل وجبة طعام. نبرم كالخذروف خلال جولاتنا لتسليم البضاعة، ننط كالبراغيث، يمنة ويسرة عبر أحياء باريس، من ميدان موبيرت إلى الليتوال. يتملكنا الفزع من أن نتلوث في حمأة الرذيلة، والخوف من القسط الشهري لأجرة البيت، ومن عامل الغاز، ومن شبح الغرامات... ولم يسنح لي الوقت في يوم من الأيام أن أنظف مؤخرتي في المرحاض لفرط ما كان ينبغي علي أن أجري بسرعة.

منذ طردي من مخزن بيرلوب، اعتراني، أنا وحدي، بالإضافة إلى ذلك جزع شديد من أن لا أنهض في يوم من الأيام... عرفت بؤساء وعاطلين عن العمل، بالمئات، هنا، وفي كل أنحاء العالم، عرفت رجالاً كانوا على وشك أن يصبحوا متسولين، بعد أن فقدوا القدرة على المقاومة!.

كانت متعتي في الوجود، متعتي الحقيقية، والحق يقال، هي أن أكون أسرع من القرود، أما بصدد التوازن، فكنت أحدس بالسقطة المهلكة قبل حدوثها... فأحتاط لها قبل وقت طويل جداً... كنت أستشعر العمل المطلوب قبل أن أدعى إليه... في الوقت الذي أكون فيه مشغولاً فيه بعمل صغير آخر. ليس ربُّ العمل سوى جيفة قذرة، لا يفكر إلا في طردك... والهول الذي يسكن الأعماق هو أن تجد نفسك ذات يوم

مطروداً دون وظيفة... لقد حملت دوماً أنا صغيرة. تحملت لا أدري أية أعمال قذرة مقززة. كنت أنقرها كالعصفور أو كما تشك إبرة اللقاح. لم أكن أبالي ماهي... أتسكع بها عبر الشوارع، وعبر الجبال، وسط مهاوي البؤس. تحملت تلك الأعمال الغريبة المضحكة والتي لم يكن لها شكل، ولا لون، ولا طعم... سيان عندي... كل ذلك ما كان له أية أهمية. فكلما كانت تقززني أكثر، كلما كنت أشعر بالطمأنينة...

لقد كرهت جميع الأعمال، فلماذا سأضع فروقاً بينها؟... لن أكون أنا من يكيل لها المدائح، سأخرى عليها إذا ما تركوني وشأني، ليس الشرط الإنساني شيئاً آخر مختلفاً...

* * *

كان الخال إدوارد يحقق نجاحاً مطرداً في أعمال الميكانيك. كان يبيع في الأرياف على الأخص، مصابيح السيارات وقطع الغيار. كنت لسوء الحظ أصغر سناً من أن أرافقه في أسفاره. كان علي أن أنتظر. كان ينبغي أيضاً مراقبتي في كل ما يمكن أن أقوم به...

بصدد مشكلتي لم يكن الخال إدوارد متشائماً كثيراً، لم يكن يرى الأمور قد وصلت إلى الحد الذي يستعصي على الإصلاح. كان يقول بأنني إذا لم أكن أصلح في عمل ثابت، فربما سأكون بالمقابل، موظفاً ممتازاً، متفوقاً، كممثل تجاري.

كان ذلك يستحق التجربة... المسألة مسألة مظهر. ثياب فاخرة على الأخص... ولكي أكون أكثر تلاؤماً أيضاً، فقد كبروني عامين إثنين. كانت لدي ياقة من السيلوليد الشديد الصلابة. كنت قد أتلفت الياقات الأخرى. ألبسوني أيضاً غيترين رماديين فوق حذائي كي تبدو قدماي أصغر قليلاً. كل ذلك كان يترك والدي متشككاً، فهو ما عاد واثقاً من

مستقبلي. وأدلى الجيران بدلوهم، وتنافسوا في تقديم النصائح. لم يقدموا شيئاً مهماً حول مهنتي الجديدة... وحتى حارس الباساج، لم يكن مشجِّعاً لي... كان يدخل إلى جميع المخازن لحظة إضاءة المصابيح، لينشر النمائم والأقاويل. كان يكرر لكل من حوله بأنني سأنتهي مثل سمكة رنكة مدخنة، كما انتهى أبي، حسب زعمه، ولا أصلح بوجه الضبط إلا لإزعاج الناس... لحسن الحظ، كان هناك فيزيو، النوتي الذي كان مع ذلك، أكثر طيبة وتعاطفاً. كان يقدِّر جهودي، ويدعم الرأي المعاكس، بأنني لم أكن فتى خبيثاً. دارت حول ذلك أحاديث ونقاشات مستفيضة... ولكنني كنت ما أزال واقفاً على الرمال. في حاجة إلى العثور على ربِّ عمل.

كان السؤال في تلك اللحظة يدور حول من هو المعلم الذي سأغدو ممثلاً له؟ كانت أعظم رغبة لأمي أن أغدو جواهرياً... كان ذلك يدغدغ غرورها. موظف عتيد، أنيق الملابس... يقلب الجواهر بين يديه خلف طاولته الجميلة. غير أن مسألة الأمان بالنسبة إلى الجواهري مسألة دقيقة وحساسة وتبعث على الخوف أيضاً، فالجواهري لا ينفك يرتجف دائماً وأبداً خوفاً على حليه وجواهره، ولا يعود يعرف طعم النوم خشية أن يتعرض للسرقة! أو للخنق، أو للحريق!... آه!...

ثمة شيء ضروري أيضاً ضرورة ماسة، إنه الأمانة المطلقة! لم يكن ثمة ما نخشاه من هذا الجانب على الإطلاق. مع والدين مثل والديّ، المفرطين في التدقيق، والمهووسين بالسمعة المشرِّفة في أعمالهما: كان لدي ضمانة ذات هيبة!... كان بإمكاني أن أقدِّم نفسي أمام أي معلم! وحتى المعلمين الأكثر توجساً ووسواساً، والأشد حَوَلاً سيكونون مطمئنين لي كل الاطمئنان... ففي عائلتنا كلِّها، ما من أحد قطُّ عرف سارقاً، سارقاً واحداً، حسبما يذكر الجميع!.

ما دمنا قد أجمعنا رأينا، فقد أصبحت طريقنا ممهدة. انطلقت أمـي لاقتناص فرصة لدى أولئك الذين كان لها معرفة بهم... والـذين كـانوا بحاجة إلى موظف... ولكن على الرغم من مظهري الحسن كـان مـن الصعب حقاً أن أجد من يشغِّلني، حتى على سبيل التجربة.

تم تجهيزي من جديد، لجعلي أشدَّ جاذبية. غدوت باهظ التكلفة مثـل مريض مصاب بعاهة. كنت قد أبليت بـدلتي، وفتقـت حـذائي مـن كـل جانب... كان لدي بالإضافة إلى الغيتر الملائـم زوج جديـد مـن الأحذيـة من الماركة الإنكليزية، برومفيلد، بنعلين سميكين جداً، أشبه بغواصـتين حقيقيتين مصفحتين، جرى اختياره بقياس مضاعف حتى يتحمـل سـنتين على الأقل. لقد صارعت طويلاً ضد ضيق الأحذية، والتواء المفاصل.أمـا الآن فقد غدوت أشبه بغواصة على البوليفارات.

ما إن تم ترميم كلٍّ الثغرات حـتى أقلعنـا في اليـوم التـالي، أنـا وأمـي صوب العناوين التي كان الخال إدوارد قـد أعطاهـا لنـا، والـتي حـصلت عليها أمي من الأصدقاء. كانت السيدة ديفون تحرس الحـانوت كـل يـوم من الصباح وحتى الظهر، خلال الفتـرة الـتي كنـا نخـرج فيهـا أنـا وأمـي للبحث عن وظيفة. ما كان ينبغي أن أتـسكع هنـا وهنـاك، طمأنـت أمـي. قرعنا أبواب شارع ماري بأكمله، باباً بعد باب، والشوارع المتفرعة عنـه، شارع كينكامبوا، وشارع غالانـت، وشـارع أورس، والفييـه دوتامبـل... كل تلك النواحي، يمكنني القول، أننا كسحناها طابقاً طابقاً.

كانت أمي تعرج خلفي... تـا! غـا! داك! تـا! غـا! داك!... كانـت تعرضني على العائلات، وعلى متعهدي الأعمال الصغار في الحانـة، مقعين خلف أكواز شرابهم... كانت تعرضني بلطف وتهـذيب... مثـل ماعون مـنزلي... عامـل صـغير مـريح جـداً... غـير متطلـب... مفعـم بالحميـا، والطاقـة، والمهـارة... ومـن ثم فهـو يعـدو بـسرعة علـى

الأخص. مفيد جداً، في المحصلة، مدرب أفضل تدريب، مطيع إلى أبعد حد... ومع كل دقة صغيرة على الأجراس، كانوا يشقون الباب... مرتابين في البداية. السيكارة معلقة بالفم... كانوا يعاينونني من خلف نظاراتهم... ينظرون إلي من طرف عيونهم... لم يكونوا يجدونني جميلاً... وأمام قمصانهم الفضفاضة المنتفخة تشرع أمي بإطلاق أغنيتها الصغيرة:

- ألستم بحاجة أحياناً إلى ممثل تجاري في ميعة الصبا؟ يا سيدي... أنا أمُّه، حرصت على مرافقته... إنه لا يطلب شيئاً سوى أن يعمل بجد وإخلاص... إنه شاب صغير مناسب جداً. وفوق ذلك، فالأمر سهل. يمكنكم أن تأخذوا معلومات عنَّا... نحن نقيم منذ اثنتي عشرة سنة، في باساج بيرزيناس. لقد تربى في التجارة منذ طفولته!... والده يعمل في مكتب التأمين على الحريق... أنتم تعرفونه ولا شك؟... نحن لسنا أثرياء، ولكننا لسنا مدينين بقرش واحد... نحن نحافظ على شرف العمل الذي نعمل فيه... أبوه في مكتب التأمين...

في كل صباح، بوجه عام، كنا نطرق قرابة خمسة عشر باباً، من جميع الصنوف والألوان... مرصعين، جواهريين، صناع سلاسل، صانعي دفوف، وحتى صاغة الفضة المذهبة، الذين انقرضت مهنتهم، ونقاشين للحجارة الكريمة.

كانوا ينظرون إلينا بطرف عيونهم، يضعون عدساتهم المكبرة كي يرونا على نحو أفضل... فيما إذا كنا لصوصاً... أو قطاع طرق هاربين من السجن!... وحين كانوا يطمئنون إلينا يصبحون لطيفين بل ومجاملين. خلاصة الأمر أنهم كانوا يريدون شخصاً... ولكن ليس الآن! لم يكونوا يتحملون التبذير في النفقات... كانوا يذهبون إلى المدينة بأنفسهم. يقاومون الخراب من خلال العمل وسط عائلاتهم،

يعملون داخل ورشاتهم الصغيرة... فوق في الطابق السابع. في شبه كهوف أو نخاريب. كانت بيوتاً جميلة فيما مضى... لقد انتهت المظاهر البراقة الآن. كان الجميع يتكدسون داخلها. الزوجة، والأطفال، والجدة. الجميع مكبون على العمل... بالإضافة إلى مساعد متمرن في قليل من الأحيان قبل أعياد الميلاد.

حينما كانت أمي تيأس من إقناعهم، على الرغم من محاولتها إغرائهم بكل السبل. كانت تعرض عليهم أن يشغلوني مجاناً... فكان ذلك يثير غضبهم، كانوا يتشنجون بعنف، ويغلقون الباب في وجوهنا. كانوا يرتابون بالتضحيات، ويعتبرونها علامة أدعى إلى الشبهة. كانت أمي تدعم عرضها بالحديث عن عامل الثقة والأمانة، غير أنَّ ذلك لم يكن يبدو مجدياً كثيراً. كانت تعرضني بكل بساطة كمتدرب مبتدئ في أعمال الترصيع ونقش القطع المعدنية الصغيرة؟ ولكن ذلك كان بلا طائل، فقد فات الأوان... لن تجيد أناملي قطُّ مثل هذا العمل. ما عاد بوسعي أن أعمل إلا كممثل تجاري، ألهث خارج الحوانيت، واللعاب يسيل من فمي، مجرد شاب حدث السن. لقد خاب مستقبلي بكل المعاني...

حينما كنا نعود إلى المنزل، كان والدي يسألنا عن الأخبار، ولفرط ما كنا نعود بخفي حنين، كان يغدو أشبه بكلب دنغو. كان يتخبط كل مساء، وسط السرابات الفظيعة، ورأسه محشو بما يكفي لتأثيث عشرين ملجأً...

أما أمي، فلفرط ما تسلقت الطوابق فقد اعوج ساقاها... كان هذا يجعلها مضحكة بحيث لم يعد بوسعها أن توقف الإعوجاج. كانت ترسم تكشيرات فظيعة على وجهها حين نجلس حول المائدة. كان ذلك يسبب ألماً ممضّاً في فخذيها... كانت التشنجات تبرح بها كل التبريح.

كنا نندفع، مع ذلك، في ساعة مبكرة مـن اليـوم التـالي صـوب عناوين جديدة... نحو شارع ريومور، وشارع غرينيتا... والباستيل والجونور... ونحو الفوج، علـى الأخـص... وبعـد انقضاء شهور عديـدة، علـى هـذا النحـو، مـن الاسـتجداء، وتـسلق الأدراج، والتردد على البيوت، وانبهار الأنفاس، وقبض الريح، كانت أمي تتساءل، مع ذلك، عمّا إذا لم يكن مكتوباً على جبيني بأنني لـست سوى متمرد صغير، ولد فاسد غير صالح لـشيء؟... لم يعـد لـدى والدي أي شك في ذلك... كان على يقين منـه منـذ زمـن طويـل... وكان يعزز يقينه مـساء حينمـا نعـود، مجرجـرين أذيـال الخيبـة... مذهولين، مبهوري الأنفاس، مهدودي القوى، مـبللين مـن رأسنا وحتى أخمص قدمينا بالعرق والأمطار.

"يبـدو أن توظيفـه أصـعب مـن تـصفية جميـع مـا في مخزننـا مـن بضائع!... ولكـن هـذا يـا كليمـانس، أنـت تعلمـين، كـرب جهنمي فعلاً!".

لم يكـن مثقفـاً علـى الإطـلاق، كـان يـستطيع أن يقـارن ويـستنتج حسب.

تفتقت بدلتي السابقة من كل الأنحاء. كانت بقع كـبيرة قـد ظهـرت فوق ركبتي. أدراج البيوت، إنما هـي المـوت بعينيـه. لحسن الحظ، كنت أستعير قبعة قديمة من قبعات أبي، كان لنا القياس ذاتـه، ولأنها لم تكن طرية كنت أحـتفظ بهـا في يـدي طـوال الوقـت. وقـد أبليت إطارها... كان من المريـع، في تلـك الحقبـة، التقيـد بمـا درج عليـه الرجال المهذبون...

* * *

عثر لي الخال إدوارد أخيراً على عنوان يبشر بالفرج. كان سوء طالعنا قد غدا شنيعاً. ما عدنا نعرف كيف نولي وجوهنا. وذات يوم، مع ذلك، انحلت العقدة!... جاء الخال إلينا عند الظهر، مشرق الأسارير، متوقد الحيوية، كان واثقاً من مسعاه. كان قد رأى الشخص المطلوب ذاته، معلم النقش والترصيع. وهذا الشخص سيوظفني بالتأكيد! لا جدال في ذلك.

كان المعلم يدعى غورلوج، يقيم في شارع ايلزيفير، في شقة في الطابق الخامس. كان يعمل، بوجه خاص، في ترصيع الخواتم والمشابك والأساور، فضلاً عن التصليحات البسيطة. كان يصلّح ما يقع في يده، ويحصل على رزقه من يوم إلى يوم. لم يكن رجلاً صعباً، كان في متناول الجميع...

أوحى لنا الخال إدوارد بالثقة، فأسرعنا بالذهاب إليه، حتى أننا لم نكمل وجبتنا. وفي أقل من دقيقتين كنا عنده... ركبنا الحافلة حتى البوليفارات. شارع ايلزيفير... الطابق الخامس... كان آل غورلوج ما يزالون حول المائدة حينما قرعنا الجرس. كانوا يأكلون الثريد أيضاً، قصعات طافحة حتى الجمام، وإلى جانبها المعكرونة مع بريشة الجبن، وبعض الجوز في النهاية. كانوا بانتظار زيارتنا. كان خالي قد أثنى علي أحسن الثناء. استقبلونا بحفاوة... لم يجمّلوا صورة الوضع، ولا حاولوا الإدعاء... كانوا يمرون بأزمة عضوض في تسويق حليِّهم المرصعة... أكدوا ذلك على الفور... كانوا يتقلبون في الإملاق منذ إحدى عشرة سنة.. بانتظار أن تتحسن الظروف والأحوال، كانوا يحركون السماء والأرض، ولكن الفرج لم يلح في الأفق... كان الزبائن يفكرون في شيء آخر... فوقع هؤلاء في عسر شديد.

كان السيد غورلوج متماسكاً مع ذلك، صامداً صموداً راسخاً... لم يكن قد فقد الأمل بعد. كان أنيق الملبس، على غرار الخال أرتور... مثل فنان فخور، مع عثنون يزين وجهه، ورباط عنق عريض، وحذاء متطاول، وقميص خارجي ملطخ ببقع الخمر الرخيصة... كان يجلس براحة... يدخن سكائره، فلا يكاد يُرى خلف نفثات الدخان، فكان يهوّي عليها بيده.

أما السيدة غورلوج فكانت تجلس قبالته، أخفض منه قليلاً، على مقعد دون ظهر، وقد انسحق ثدياها على منضدة العمل. كانت لحيمة في كل أنحاء جسمها. كان لحمها لذيذاً يفيض من إزارها. كانت تكسر حبات الجوز بقبضتها، ترفع يدها عالياً جداً ثم تهوي على الحبة بضربة ساحقة، يمكنها أن تفلق قطعة أثاث بالطول. كانت تهز بضربتها أركان المشغل... كانت طبيعة قوية... نمطاً قديماً... عرفتها فيما بعد... كانت من النوع الذي يروقني للغاية.

لم نأت على ذكر الراتب. كنا نتوجس خيفة من أن نبدو متطفلين. سيأتي هذا فيما بعد. كنت أعتقد بأنه لن يقدم لي شيئاً، غير أنه اتخذ قراراً في اللحظة التي نهضنا فيها كي نغادر، فقد توجه إلي قائلاً بأنني أستطيع أن أعتمد على راتب ثابت قدره خمسة وثلاثون فرنكاً في الشهر... من ضمنها أجرة الانتقال... وسيكون لدي، فضلاً عن ذلك، أمل بعائد إضافي إذا ما أفلحت بجهودي الخاصة في ترقية حرفة النقش والترصيع. كان يجدني صغيراً بعض الشيء، ولكن ذلك ما كان له أهمية، ما دمت أملك الحمية والحماس... متدرباً على الحرف... مولوداً في حانوت تجاري!... كان ذلك اتفاقاً مرضياً للغاية... ثمرة للنوايا الحسنة...

عدنا إلى الباساج مفعمين بالحماس، يلوح فوق رؤوسنا قوس قزح حقيقي. أكملنا وجبتنا، أتينا على طبق المربيات بكامله، وتجرع أبي ثلاثة أقداح من الخمر، ثم أطلق ضرطة عالية. لم يعد يحدث له ذلك منذ زمن تقريباً... عانقنا الخال أرتور... لقد دفعت الريح الأشرعة بعد العسر الشديد.

* * *

في اليوم الثاني، وصلت في ساعة مبكرة إلى ايلزيفير كي أستلم مجموعتي من القطع المرصعة. ومن الطريقة التي بدا لي فيها السيد غورلوج مسترخياً، واندهاشه من رؤيتي ظننت أنه قد نسيني... كان جالساً أمام نافذته المفتوحة على مصراعيها، يتأمل أسطح المباني... ممسكاً بين ركبتيه قدحاً كبيراً من القهوة بالكريما... لم يكن يقوم بأي عمل، كان هذا واضحاً. كان المنظور الممتد أمامه يمتعه ويسليه. آلاف الفناءات في شارع ماريه... كان يرنو نحوها بنظرة ضبابية غائمة... شارداً كأنه في حلم... كان المشهد يفتنه بالتأكيد. دانتيلا جميلة من ألوح الاردواز... وسيول من الأشعة تنصب فوقها... الألوان المتشابكة والمتداخلة... وكل تعرجات المزاريب، ثم عصافير الدوري المتقافزة، والأدخنة المحمومة في لجج الظلال الشاسعة.

أشار لي بأن أصمت، وأصغي إلى الأشياء أيضاً... أن أنظر إلى ذلك الديكور، لم يكن راغباً في أن يزعجه أحد، خليق أن يكون قد وجدني ثقيلاً بعض الشيء. ومطّ شفتيه.

من الأعلى إلى الأسفل كان ثمة حول الفناء، وعلى ارتفاع جميع النوافذ، ما يشبه مسرحاً للعرائس... تنبجس السحنات مترصدة، شاحبة، صلعاء، ضخمة. هذا يبعق. وذاك يحتج، وذاك يصفر. وترتفع جلبات أخرى أيضاً. مرشة ماء تهوي متقلبة. تقفز فوق

الأرض، مصطدمة بحجارة التبليط الكبيرة... تنزلق عساليج الجيرانيوم. وتنفجر أوراقه فوق الشرفة، بصمت أخرس. تبرز الخادمة من كهفها، تشق الفضاء بصراخها. النجدة! إلى القاتل! إلى الأشرار المجرمين!... وينشب العراك داخل الغرفة الصغيرة... ويهرع جميع الرعاع إلى النوافذ، هائجين... يبصقون... يتحدون بعضهم بعضاً عبر الفراغ... الجميع يزعقون ويقذفون الشتائم. لا أحد يعرف من كان منهم على حق.

تعلق السيد غورلوج بالنافذة، عازماً أن لا يضيع ذرة مما يجري. المشهد يفتنه ويستحوذ عليه... وحين هدأت الضجة، شعر بالأسف... أطلق تنهيدة... وتنهيدة أخرى... ثم التفت إلى خبزته المطلية بالزبد والمربى... صبَّ من جديد قدحاً آخر من القهوة... وقدم لي قدحاً أيضاً.

- فرديناند، قال لي أخيراً. علي أن أكرر لك أيضاً بأن عملك كوكيل تجاري لمنتجات مشغلي لن يكون وظيفة سهلة دون تعب... لقد عمل عندي من قبل عشرة وكلاء... كانوا فتياناً نشيطين جداً، شجعاناً للغاية... أنت الثاني عشر في الحقيقة. لأنني أنا أيضاً كما ترى، حاولت القيام بذلك... أخيراً!... عد إذن في الغد!... لا أشعر اليوم بأنني على ما يرام... آه! ثم، عجباً، ابق لحظات أيضاً!... سيصل السيد أنطوان بعد هنيهة... سيكون من الأفضل ربما أن أعرفك عليه؟ آه! بل اذهب مع ذلك!... سأقول له بأنني عينتك مندوباً... سيكون هذا مفاجأة له!... فهو لا يحب المندوبين! إنه صانعي الأول... رئيس المشغل في الواقع!... هو ذو مزاج صعب! آه! هذا صحيح! سترى ذلك على الفور! لقد قدم لي العديد من الخدمات! آه! لا بد من الاعتراف!... سأعرفك أيضاً بالصغير روبرت، عاملنا

المتمرن... إنه لطيف جداً! ستتفاهمان بالتأكيد! هو الذي سيعطيك مجموعتك من المرصعات... إنها في الخزانة السفلية... مجموعة فريدة... سترى ذلك... ولكنها ثقيلة الوزن بعض الشيء، فهي تزن ما بين أربعة عشر وخمسة عشر كيلو غراماً... إنها ليست سوى نماذج... من النحاس، ومن الرصاص... أما القطع الأولى فيعود تاريخها إلى أيام والدي!... كان لدى والدي تحف جميلة! فريدة! فريدة! رأيت في مشغله قلعة تروكاديرو... مرصعة بكاملها باليد، يعلوها إكليل! هل تدرك ذلك؟ لدي صورة فوتوغرافية لها، سأريكها ذات يوم.

اكتفى غورلوج بما زودني به من توضيحات... ثم عاوده قرفه. بذل بعض الجهد أيضاً... وضع ساقيه فوق الطاولة... وأطلق تنهيدة عميقة... كان يلبس خفاً مطرزاً، رأيت أيضاً قططاً صغيرة تدور حوله...

- إيه حسناً! يا فرديناند!... انقل تحياتي إلى والدتك... حين تمرّ بحاجبتي قل لها بأن تتصل ببائع الفحم في الحانوت 62... وأن تطلب لي "فندق الأميرالات الثلاثة"... لنرى ما إذا كان أنطوان مريضاً... إنه فتى غريب الأطوار... ربما حدث له شيء؟... لم يعد إلى المشغل منذ يومين... ستنادي علي من الفناء. قل لها أن تبحث في الدليل... عن فندق الأميرالات الثلاثة!..." وقل لها بأن ترسل لي الحليب... فالمعلمة ليست على ما يرام!... وأن ترسل لي الصحيفة!... أية صحيفة لا يهم!... أو بالأحرى، "الصحيفة الرياضية"!.

* * *

لم أر مجموعة المرصعات في اليوم الثاني، مع ذلك، وإنما في اليوم الذي تلاه... كان غورلوج متواضعاً... قال لي بأن وزنها خمسة عشر كيلو غراماً... كانت تزن الضعف على الأقل. كان قد دلني بغموض على بعض طرائق العرض... لم يؤكد على أي شيء، مع

ذلك... ولم يشدِّد على أية طريقة منها بنحو خاص. سأفعل أنا ما أراه مناسباً... إنه يعتمد على حسن ذوقي... كنت أتوقع أشياء قبيحة، ولكنني أعترف بأنني صدمت وتراجعت حينما رأيت عن قرب كل تلك العدة... كانت شيئاً لا يصدق... ما رأيت طيلة حياتي مثل هذا القبح، ومثل هذا الكم من التهاويل دفعة واحدة... مخاطرة... جحيم حقيقي.

كل ما رأيته كان باعثاً على الاشمئزاز... ليس ثمة سوى وجوه مكشرة شوهاء، وكرات مجوفة، مسبوكة من رصاص، محزّزة، قبيحة، منفرة. كل ما في فن الرمزية من بحران... مشاهد من كوابيس... جزيرة ساموتراس من الصمغ... آلهات مجنحة ببندولات صغيرة... ميدوزات معلقة بأفاع على شكل أطواق... حيوانات خرافية أيضاً!... مئة من الصور الرمزية منقوشة على الخواتم أشد بشاعة بعضها من بعض... رأيت فيها رغيفاً فوق دف... كل ذلك من أجل تعليقه في الآذان؟ كان ذلك عصيّاً على التصديق. ثم هل ينبغي أن يشتريه الناس؟ نعم؟ يا إلهي! نعم؟ كان لدي في الواقع كل ما يحتاجه التنانين والأبالسة، والشياطين والهامات. كل أشكال الفزاعات المروعة... ما يؤرق عالماً بأسره... كل هيجانات مشفى للمجانين وما ينجم عنها من ترهات... كنت أتنقل ما بين القبيح والوحشي... حتى في مخزن جدتي. في شارع مونتورغوي، فإن النفايات الأشد زنخاً وقبحاً كانت وروداً بالقياس إلى ما أراه هنا...

لن أفلح في كسب رزقي بمثل هذه الفظاعات. بدأت أفهم البلهاء العشرة قبلي، لا بد أنهم حصدوا الخيبة وقبض الريح. فمثل هذه السلع التي تقشعر لها الأبدان ما عاد لها مكان في السوق... لقد جرى إخفاؤها عن العيون بهلع منذ أواخر الرومانتيكيين... ترى هل عرضت هذه المجموعة الشيطانية أمام أعين العائلة لحظة توزيع الإرث؟ ربما، ولكن بكثير من الحيطة والاحتراس... فعرض مثل هذه الأباريز الغريبة أمام

أشخاص لم يسبق إخطارهم يعد مغامرة محفوفة بالمخاطر... كان من الممكن أن يعتقدوا بأنهم يتعرضون للإهانة!... وحتى غورلوج... وهذا يعني لا أحد! ما عاد يجرؤ أن يتحدى الأذواق الدارجة. لقد تركت البطولة لي أنا!... لسحنتي البائسة... كنت المندوب الأخير الذي يعرض هذه المجموعة. ما من أحد ثبت في هذا العمل أكثر من ثلاثة أسابيع...

كان غورلوج مقتصراً على أعمال الإصلاحات الصغيرة، للحفاظ على المشغل ريثما تعود الموضة إلى سابق عهدها... كان يحتفظ بمعارف هنا وهناك، داخل الحوانيت. أصدقاء من أيام الرواج السعيدة أبوا أن يخذلوه أو يتركوه ينهار. كانوا يرسلون إليه حليهم الفضية لإصلاحها عند الحاجة... إصلاحات كريهة مملة، لم يكن يلمسها بيده، بل يضعها كلها بين يدي أنطواننا. أما هو فكان يختص بالنقش والترصيع... لم يشأ أن يلوث يديه على هذا النحو بأعمال سفلية، وأن يفقد طبقته وسمعته من أجل قروش زهيدة. ما من سبيل لثنيه عن ذلك، كان حازماً في هذا الخصوص.

منذ الساعة التاسعة كنت أجتاز شارع ايلزيفير... ثم أغوص في باريس على الفور، مسلحاً بحماستي وبكيلو غرامات من العينات... فما دمت منذوراً للعمل في الخارج، فقد توجب علي أن أسير ما وسعني السير!... كان هذا من اختصاصي. من الباستيل إلى المادلين... مسافة طويلة جداً كان علي أن أجتازها... جميع البوليفارات... سائر متاجر الحلي، واحداً واحداً، دون حساب الشوارع الفرعية، بلا كلل ولا تثبيط... فلكي أعيد إلى الزبائن ذوق النقوش والمرصعات كنت سأشق القمر، سأبتلع "تنانيني". كنت أنتهي إلى أن أصطنع أنا نفسي جميع التكشيرات، فيما أغذ السير... ولشدة هوسي كنت أعاود الانتظار على مقاعد وكلاء المبيعات، أمام صالة المشترين.

انتهيت أخيراً إلى الاعتقاد بتجدد الإقبال على المنقوشات والمرصعات. آمنت بذلك! تباً! لم أعد أرى حتى زملائي العارضين الآخرين. كانوا يفغرون أفواههم من الدهشة والغيظ حينما يسمعون من يهتف باسمي من داخل صالة الشراء. وحينما كان يحين دوري أمام كوة العرض، كنت أقترب بظرف وبشاشة، حلواً كالشهد، وأخرج حينئذ من خلف ظهري، بهدوء علبة حليي، الأقل قبحاً وفظاعة... وأضعها فوق الطاولة الصغيرة... كان الزبون الفظ لا يحمّل نفسه، في تلك اللحظة عناء الكلام. كان يشير لي بحركة منه بأن أنصرف... وبأنني كنت حقاً نذلاً صغيراً...

كنت أتوغل أبعد حينئذ. ليس ثمة متحمس واحد. وبحسب الوقت والفصل كنت أنضح العرق من كل مسامي، ويضنيني الظمأ. ما أبرح أطرق باب أصغر الحوانيت، وأحقر الساعاتيين المتظاهرين بالورع، المتقلصين داخل حوانيتهم في أطراف الضواحي، بين كوز شرابهم وقنديل زيتهم.

من الشابيل إلى المولينو، جبت المسافة كلها. لمست اهتماماً بمنتجاتي لدى أحد الحرفيين في بيروفيت، وجامع خرق في سانت مور. عدت أدراجي صوب أولئك الذين يغفون مسترخين حول الباليه رويال والقابعين منذ أيام ديمولين (خطيب سياسي فرنسي) تحت قناطر مونتبانسييه... أولئك التجار الذين ما عادوا يؤمنون بالتجارة، والذين غدوا متصلبين، شاحبين وراء مباسط بضاعتهم التي أكل الزمان عليها وشرب... ما عادوا يريدون أن يعيشوا ولا أن يموتوا. حثثت الخطى نحو الأوديون، في محيط المسرح. كان يقبع هناك آخر الصاغة البرناسيين، على شفا الهلاك أيضاً بسبب الكساد والمجاعة. يبتلعون الغبار. كان لديهم نماذجهم أيضاً، جميعها من الرصاص، متشابهة

تقريباً، تكفي لصنع ألف نعش لهم. وأطواق أخرى ميثولوجيـة... مثـل هذا الركام والتعاويذ كان من الوزن والكثافة بحيث تكـاد الأرض أن تنخسف تحته وتبتلعه مع مكاتبهم... كانت لديهم أكداس تـصل حـتى أكتافهم... كانوا يتوارون خلفهـا، ويغـدون أشـبه بـالغجر. لم يعـودوا يجيبونني بكلمة. كنت أوجس خيفة منهم مع ذلك...

كنت أتابع السير نحو الضواحي، وحين يستبد بي الحمـاس لـصيد الزبائن، كنت أضل طريقي بعيداً جداً عن البيت. كان يدركني الليـل، فأشعر بالضياع أحياناً، فأدفع بسرعة لإحدى العربات كي لا أعود مـع ذلك متأخراً جداً. من الخمسة والثلاثين فرنكاً كان والـداي يتركـان لي خمسة عشر منها، وكانت تتبدد في الانتقـال بواسـطة العربـات. كنـت أغدو، من غير تعمد، وإنما بقوة الأشـياء مبـذراً بعـض التبـذير. مـن البداهة أنه كان ينبغي، من حيث المبدأ، أن أسير على قدمي... ولكـن حذائي كان يهترئ حينئذ!...

***

كان السيد غورلوج يعبر هو أيضاً وباسـتمرار شـارع الـسلام، مـن أجل التصليحات. كان سيثير ربما إعجـاب المعلمـات مـن صـاحبات الحوانيت. ولكن ما كان يحول دون نيل إعجـابهن الكامـل هـو أنـه لم يكن نظيفاً جداً، بسبب لحيته. كانت دوماً مملوءة بالقشرة، أو بمـرض القشرة، كما كان يسميه.

كنت ألمحه غالباً يلوذ خلف باب عريض، وينـهمك في الحـك... بحدة. ثم يستأنف طريقه مبتهجاً. كان يحمل في جيبه، علـى الـدوام، بـضعة خـواتم، لتعديلـها، ومـشبكاً مـن أجـل لحامـه... أو إصـلاح مغلاقه، وسلسلة لتقصيرها... وتحفة صغيرة... وأخـرى... بمـا يكفـي لنفقات مشغلنا. لم يكن شرهاً جداً.

كان أنطوان هو الوحيد الذي يتكفل بكل هذه القطع الصغيرة. لم يكن غورلوج يمسها، وحينما كنت أصعد البوليفارات، كنت ألتقي بغورلوج، ألمحه عن بعد... لم يكن يمشي كما الآخرين. كـان الجمهـور من حوله يثير اهتمامه... فيطـرف بعينيـه في شـتى الاتجاهـات... كنـت أرى قبعته تدور حول رأسه. كان يلفت الأنظار هـو أيـضاً بـصدرته المزدانـة بـدوائر صغيرة ملونة، كان واحداً من الفرسان الملكيين.

- إيه حسناً يـا فردينانـد!... أنـت لا تتوقـف عـن الهجـوم؟ وافـر النشاط دائماً؟ كيف الأحوال؟ هل هي على ما يرام؟

- جيدة جداً! جيدة جداً! سيد غورلوج!...

كنت أشد قامتي كي أجيبه، على الرغم من الوزن الباهظ لأبـاريزي المرصعة... لم يكن حماسي يفتر. كنت فقط أغدو نحيلاً أكثـر فـأكثر، لأنـني لم أكـن أكـسب شـيئاً، ولا أبيـع شـيئاً، وأسـير دائمـاً حـاملاً مجموعتي الثقيلة جداً... ما عدا عضلات سـاقيّ بـالطبع، فقـد كانـت قدماي تكبران أيضاً، وكانت روحي تكـبر... ومـن كـل مكـان. كنـت أغدو أرفع وأسمى...

* * *

حينما كنت أعود من عرض مجموعتي، كنـت أقـوم أيـضاً بـبعض المشتريات، والمهمات من أجل المشغل، لدى متعهد أو لدى آخـر، وأبحث عن علب صغيرة. كل ذلك كان في الشارع ذاته.

كان الصغير روبرت المساعد المتدرب، منـشغلاً بـصقل الترصـيعات الصغيرة، وإعطاء الجاهزة منها مظهراً جانبياً، أو كنس المـشغل أيـضاً. لم يكن الانسجام سائداً تماماً لدى آل غورلوج. كانوا يتصايحون ويتـشاتمون وجاهاً، وبنحو أقوى مما كان يحـدث عنـدنا في البيـت، ولا سـيما بين

أنطون والمعلم، كان الخلاف يدور حينئذ حول قطع نقدية زهيدة. كان أنطون يحتج دوماً لأي سبب من الأسباب. غير أنه كان سيد نفسه. لم يكن في المشغل عمال آخرون غيره. "مشغلكم القذر هذا، كان بإمكانك أن تضعه في إستك. قلت لك ذلك ألف مرة على الأقل..."

على هذا النحو كانوا يتخاطبون. أما الآخر، فكان يرسم تقطيبة مضحكة على وجهه، ويهرش لحيته حينئذ، ويقضم القشرة الصغيرة المتساقطة منها، لفرط ما يكون منفعلاً.

كان أنطوان يغدو، في بعض الأمسيات بالغ الهياج والسخط بحيث كان يهدد بقذف كوبه في وجه غورلوج... كنت أعتقد في كل مرة بأنه سيذهب إلى غير رجعة... ثم لا يذهب إطلاقاً... لقد غدا ذلك عادة مألوفة مثلما يحدث عندنا في المنزل.

ولكن السيدة غورلوج لم تكن تنفعل مثل أمي... غير أن ذلك لم يكن يعيقها عن نسج الفضائح، وإطلاق الصرخات المدوية... أما الصغير روبرت، فما إن تأخذ الأمور منحى تراجيدياً حتى يختبئ بسرعة تحت طاولة العمل... دون أن يضيع شيئاً من صراع الثيران، ودون أن يعرض نفسه أبداً للسحق والتهشيم. بعد أن يصنع لنفسه خبزة مطلية بالمربى.

وفي يوم السبت حينما لا يعود ثمة علف فائض لتسديد حصة أنطوان، كنا نعثر، مع ذلك في اللحظة الأخيرة داخل أحد الأدراج على قرش صغير لإنهاء حسابه... وسيلة أو أخرى. كنا نجد أيضاً داخل خزانة المطبخ الكبيرة نجدة إلهية... مجموعة من أحجار العقيق... ذخيرة عجيبة غريبة!... كانت تلك موردنا الأخير!... ذخيرة الميثيولوجيات!... ما عاد ثمة مجال للتردد.

كنت أذهب، في أسابيع القحط الشديد، حاملاً كيلوغراماً منها، لبيعه بثمن بخس في أي مكان كان... ولأي شخص كان... في قرية سويسرية... أو في الكنيسة المقابلة.. أو عند بوابة الكرملين... كانت حصيلة ذلك دوماً، مئة قرش.

منذ نهاية عهد الترصيع، ما عاد قط لدى غورلوج غرام واحد من الذهب... كنا نعيد التصليحات التي نجمعها، دون تأخير إلى أصحابها خلال الأسبوع. لم يكن لدى أحد ثقة أكثر مما ينبغي... كنت أقوم أيام السبت بتسليم هذه القطع المرممة ثلاث مرات أو أربع، في ساحة الفوج، وفي شارع رويال، بخطوات موقعة أيضاً! كان التعب حينذاك يأخذ مني كل مأخذ. قصارى القول أنني بدأت أدرك بعد وقت طويل بأن من المسئم أن يكون المرء عاملاً، كان لديّ فقط علامات على ذلك فيما مضى. في الساعة السابعة مساء، في عزّ الصيف. لم يكن الجو قد أصبح رطباً حول "البواسونيير" حين أنتهي من مهماتي. أذكر أنني في الوالاس، تحت ظل الأشجار، كنت أتناول قدحين أو ثلاثة من العصير، أقف من أجلها في طابور... ثم أجلس لحظة لالتقاط أنفاسي فوق درج المسرح. كان ثمة متسكعون في كل مكان يبحثون أيضاً عن رزقهم... كان المكان مجمّعاً حقيقياً للمتسولين والنشالين. وعارضي الإعلانات ومتسلمي رهانات السباق، وباعة البسطة الصغار، والبلطجيين، والعاطلين عن العمل من جميع الأصناف والألوان، أعداد غفيرة، بالدزينات... كانت الأحاديث تدور بينهم عن "الرهانات" الصغيرة التي يمكن أن يكسبوها في السباق، وعن خيول الرهان، وأخبار سباق الدراجات.

كان اللحن المتداول هو الماتشيش، لازمته معروفة وشائعة... كان الجميع يصفّرونه متخطرين حول الأكشاك... كنت أترقب فرصة كي

أتبـول... ثم أعـود إلى تقـاطع الـشارع. كـان الغبـار يبلـغ أوج كثافتـه بالقرب من أعمال الإنشاء في التامبل... كانوا يحفرون نفقاً للميتـرو... بعدئذ كانت تلوح لي الحديقة الصغيرة ذات الخضرة اليانعة، ثم شارع غرينيتا، ثم شارع بوبورغ... وبعدها شارع ايلـزيفير. علـى هـذا النحـو كنت أمضي فترة السابعة مساء، في الطرف الآخر من الحي.

❋ ❋ ❋

الصغير روبرت، العامل المتمرن، كانت والدته تقـيم في ايبرنـون. كان يرسل إليها كلَّ أجرته، اثني عشر فرنكاً في الأسبوع، فـضلاً عـن أنه كان يأكل في المشغل. كان ينام تحـت طاولـة العمـل فـوق حـشية يطويها بنفسه كل صباح. التزمت جانب الحذر مع الصبي، محتاطاً إلى أبعد حد، لم أرو له قط حكايات، كنت أود أن أظل يقظاً متنبهاً.

أما أنطوان، العامل الوحيد، فقد كان هـو الأشـدُّ قـسوة وفظاظـة. يوجه الصفعات للصبي دون أي سبب، ولكن المكان كان يعجبـه مـع ذلك، لأنه بدءاً من الساعة السابعة كـان يخلـد إلى الهـدوء والراحـة، ثم يتسلى صاعداً نازلاً على الدرج. كان هنـاك الكـثير مـن القطـط في الفناء، لا ينفك يحمل إليها بقايا الطعام، وحين يـصعد الطوابـق كـان ينظر بفضول إلى جميع أقفال الأبواب، تلك كانت تسليته الكبرى.

حين تعارفنا أكثر حكى لي كل شيء عن مغامراتـه. وأراني الطريقـة التي كان يسترق من خلالها النظر من الحمام، إلى النـساء وهـن يـبلن في مرحاض درجنا. ثقبـان في دعامـة البـاب كـان يغلقهمـا بـسدادات صغيرة. وهكذا فقد رآهن جميعاً، والسيدة غورلوج أيضاً. كانـت هـي الأكثر فجوراً حسبما كان قد لاحظ، مـن الطريقـة الـتي كانـت تـشمر بها ثيابها.

كان أنطوان متلصصاً بالفطرة. كان فخذا السيدة غورلوج يبدوان له أشبه بنصبين تذكاريين، ركيزتين هائلتين. وكان لها شعر حول فرجها، من الكثافة والطول بحيث كان يبدو أشبه بالفرو. كان الشعر يغطي كل سرتها... وقد رآها الصغير روبرت أيضاً في لحظات طمثها... كانت تلطخ كلّ ثيابها بالدم لفرط ما كانت تنزف بغزارة، وتلوث المرحاض بكامله.، بحيث لا يخطر في تصور أحد مثل هذا النزف الخارق... كان أنطوان يعدني بأن يرينيها ذات يوم وأن يطلعني على شيء آخر أدهى وأمر. كان قد ثقب ثقباً آخر، ثقباً رهيباً قطعاً، في جدار غرفة نومها، يطل على سريرها بالضبط، وكان هناك موضع ثالث للتلصص أيضاً... فبالصعود فوق الفرن في زاوية المطبخ، واستراق النظر عبر الكوة الزجاجية، يمكن حينئذ رؤية سريرها بكامله.

كان روبرت يتسلق الفرن متعمداً، ويتطاول على رؤوس أصابع رجليه ليشاهد الزوجين غورلوج غالباً، وهما يتضاجعان، وفي اليوم الثاني كان يروي لي كل شيء. ولكنه لم يعد يتماسك فوق الفرن... كانت عيناه تظلان مغلقتين لفرط ما كان يجلد قضيبه.

كان الصغير روبرت يمارس فسقه على خيوط الذهب الشعرية... كان يدخل أطرافها في أدق الترصيعات بواسطة مبرد صغير بحجم الشعرة... ثم يلون القطعة باللون البرونزي... كانت خيوطه الشعرية أشبه بشبكة الشعر... أو بنسيج عنكبوتي حقيقي. ولفرط ما كان يحدّق ببصره فوق قطعه الصغيرة كان يرهق عينيه، فكان يتوقف حينئذ، ويرش أرض المشغل بالماء.

لم يكن أنطوان يتقبل منه أي شيء ولا يقيم له أي وزن. ولم يكن يستطيع أن يستلطفني أنا أيضاً. كنا نريد أن نقبض عليه متلبساً وهو يلتهم المعلمة. كان يبدو أن ذلك قد حدث بالفعل... كان روبيرت

يؤكد ذلك دائماً، ولكنه ليس متيقناً من ذلك... لم يكن هذا ربما سوى محض إشاعات. على المائدة، كان أنطوان شرساً لحظة تناول الطعام. لم يكن أحد يملك أن يعارضه. كان يستشيط غضباً لدى أقل ملاحظة، ويحزم أدواته. فيعده غورلوج بزيادة... عشرة فرنكات... وحتى مئة قرش...

- اذهب واخرَا! كان يرد فجأة على غورلوج التعيس... ها أنتذا جعلتني أعرق!... أنت لا تملك بالأحرى حذاء في قدميك!... علام تعتمد إذن كي تعدني؟... أكاذيب أيضاً؟

- لا تحتد، يا أنطوان! أؤكد لك بأن الأحوال ستتحسن!... ذات يوم!... أنا على يقين من هذا!... عمّا قريب... وأقرب مما تظن.

- سيتحسن جلد خصيتيّ نعم!... ستتحسن الأحوال حينما أغدو مطراناً!...

على هذا النحو كانا يتخاطبان. ما عاد لنزاعهما من حدود. كان المعلم يتحمل كل شيء بسعة صدر. كان يساوره خوف من أن يغادره أنطوان إلى غير رجعة. لم يكن يرغب بأن يعمل أي شيء بيديه هو، لم يكن يريد أن يلوث يديه بتلك الأعمال الحقيرة. وبانتظار عودة الروح إلى مهنة الترصيع، كان كل سعادته تكمن في ارتشاف القهوة بالكريم، والنظر عبر النافذة فيما هو يدخن غليونه... يراقب بانوراما ماريه... ولاسيما حين تمطر السماء قليلاً. كان يزعجه أن يتحدث معه أحد منا... يمكننا أن نفعل كل ما نشاء ما دمنا لا نطلب منه شيئاً. قال لنا ذلك بصراحة هو نفسه: "افعلوا إذن ما تشاؤون كما لو أنني غير موجود هنا!".

* * *

لم أكن أعثر قط على مشترين لبضاعتي. لا بالجملة ولا بالمفرق... كانت تظل فوق ذراعي بأكملها... وعلى الرغم من أنني بذلت كل الجهود... وجبت كل المسافة من الماديلين وحتى بيليفيل... وجربت كل شيء... لم أترك باباً إلا وطرقته، عاجلاً أو آجلاً، من الباستيل وحتى سانت كلود... وطفت بجميع أسواق التجارة الرخيصة، وبكل الساعاتيين، من شارع ريفولي وحتى مقبرة بانيو... أقل يهودي كان يعرفني، جميع الأيور والفروج، كل الصاغة... فلم أحصد أبداً سوى الخيبة والإخفاق... ما كانوا يريدون أي شيء... لم يكن من الممكن أن يدوم ذلك طويلاً... حتى التعاسة تكلّ أيضاً...

وأخيراً، جاء يوم نفضت فيه غبار اليأس. فقد وقعت على معجزة، كانت ماثلة أمامي في ناصية شارع سانت لازار... كنت أمر بها مع ذلك كل يوم، فما لفتت نظري، ولا توقفت عندها... كانت حانوتاً للتحف الصينية... على بعد مئة متر من ترينيتي... كان خليقاً أن ألاحظ، مع ذلك، بأن لهؤلاء القوم ولع بالعبوس والتكشير. ليس العبوس الخفيف، بل العبوس القمطرير! كانت الواجهات الزجاجية تكتظ بتلك التكشيرات! ليس لإثارة الضحك، فقد كانت مريعة حقاً، من نوع تماثيلي في الواقع... كانت في غاية القبح على كل حال، ولكنها كانت بالأحرى عبارة عن سمندلات... وتنانين طائرة... وبوذات (جمع بوذا) ذوي كروش ضخمة، مذهبة بالكامل... تجيل حدقاتها بحنق شديد... كانوا في الداخل، يدخنون خلف قاعدة أحد الأعمدة... "أفيون الأحلام"، وكان ثمة صفوف من القربينات والبلطات تصل حتى السقف... وسجف مخملية مهدبة، وأطواق ذات وميض، مما يثير الضحك. ومن السقف كانت تهبط أعداد كبيرة من الزواحف تنفث نيراناً صوب الأرضية الخشبية... متلوية فوق

الأعمدة... ومئة مظلَّة معلقة فوق الجدران المتوهجة بحرائق مشبوبة، وعلى مقربة من الباب انتصب شيطان، بقياس طبيعي، تحيط به علاجيم، عيونها جاحظة يتلامع داخلها عشرة آلاف فانوس.

ما داموا يبيعون مثل هذه الأشياء، فقد خطرت لي الفكرة... أشبه بنفحة إلهام... سيمكنهم فعلاً أن يحبوا أيضاً بضائعي الشخصية الصغيرة...

استنفرت حينئذ شجاعتي، واجتزت سجف الباب... مع رؤوسي المخيفة... عرضتها على الأنظار... تلعثمت في البداية... ثم أدليت في النهاية بخطابي المنمق.

كان الرجل أشبه ببندقة صغيرة. مشدود الرأس، له صوت معلمة عجوز، كان بالغ الدهاء، ضئيل القامة، يرتدي ثوباً من حرير مشجر، وبابوجاً خفيفاً. كان قرداً آسيوياً حقيقياً، دعك عن قبعته الرخوة... لم يقل شيئاً ذا بال في البداية... ولكنني أحسست بأنني رقت له قليلاً بتشكيلتي الكبرى من الرقى والتعاويذ... وطلاسمي... وجميع ميدوزاتي اللولبية... ومشابكي من جلود جزيرة ساموتارس... كانت تلك الحلوى لذيذة بالنسبة إلى صيني!... كان خليقاً أن يأتي من الصين ليتذوق تشكيلتي المتناسقة.

أخيراً، تخلى عن تحفظه. بل وانفعل بنحو صريح... ثار حماسه... وتهلل وجهه... وتلجلج بنفاد صبر. وقال لي فجأة: "أعتقد يا فتاي العزيز بأنني أستطيع أن أفعل شيئاً من أجلك..." كان ينغم صوته أيضاً.

كان يعرف هاوياً يقيم بالقرب من اللكسمبورغ... هوسيد بالغ اللياقة والتهذيب... عالم حقيقي... له ولع بالحلي المصنوعة بفنية رفيعة وأسلوب راق، على غرار مقتنياتي تماماً. إنه من منشوريا، وقد

جاء إلى هنا في إجازة... وقد وصف لي نمطه من الرجال... علي أن لا أتحدث إليه بصوت مرتفع... فقد كان يكره كل أنواع الضجيج... أعطاني عنوانه... لم يكن مقيماً في فندق فخم. لم يطلب مني الصيني لنفسه سوى "نفحة" إذا أحرزت النجاح... ليس سوى 5%... لم يكن ذلك باهظاً... وقّعت على وريقته الصغيرة التي تضمنت اتفاقنا... لم أضع ثانية واحدة. هرعت نحو شارع مارتير، مستقلاً حافلة "أوديون".

* * *

عثرت على الهاوي... عرضت عليه علبتي، وقدمت نفسي. نزعت الأغلفة عن عيناتي، فأبدى دهشة وانشداداً أكثر من الآخر. كان هو أيضاً يرتدي ثوباً طويلاً. بدا مبهوراً بما عرضته عليه... وتحدث ببلاغة بعد اكتشافه هذه الأشياء الجميلة...

أراني حينئذ على خارطته، من أين جاء... من طرف العالم... وحتى من مكان أبعد أيضاً. إلى اليسار في هامش الخريطة... كان موظفاً متنفذاً، يقضي إجازته في باريس. يريد أن يعود إلى بلده بحلية معينة، ولكنه فقط يريد أن يرصعها... كان يعرف أيضاً نموذجه. ويصر على نسخه قطعاً... كان علي أن أنجز له حلية على غرار هذا النموذج... وياله من طلب حقيقي. دلني أين يمكن أن أذهب لأنسخ له النموذج. كان ذلك في متحف غاليريا، في الطابق الثاني، في الخزانة الوسطى... لم يكن من الممكن أن أخطئ، رسم لي رسماً صغيراً، وكتب لي اسم النموذج بحروف كبيرة: "ساكيا موني" ومعناه... إله السعادة... كان يريد أن تكون حليته نسخة طبق الأصل عنه، مع دبوس لتعليقها فوق ربطة عنقه، لأنه هناك، كما أخبرني: "أرتدي على الطريقة الأوروبية... فأنا من يسهر على العدالة!"

كانت تلك فكرة عظيمة... كان لديه ثقة كاملة. أعطاني مئتي فرنك من يد إلى يد، كي أشتري المعدن الثمين... كان ذلك ييسر الأمور أكثر... على هذا النحو لن نضيّع الوقت.

لقد أدرت رأس البوذا، بالتأكيد، أنا نفسي، حين أعطاني فرنكاته المئتين. وغرّني ذلك كثيراً... كنت أترنح وأنا أرتقي البوليفار. كدت أن أعرض نفسي للدهس لفرط ما غام بصري وغشيته غشاوة ثقيلة.

وصلت أخيراً إلى شارع إيلزيفير... رويت مغامرتي بكاملها... كان ذلك حظاً لم نحلم به!... لقد عادت الحياة إلى حرفةالترصيع! مثلما تنبأ غورلوج... وشربنا الأنخاب معاً! وعانقني الجميع!... وتصالحوا بعد طول خصام...

* * *

ذهبنا إلى المتحف معاً برفقة غورلوج لرسم نموذج التمثال الصيني. كان لافتاً للنظر داخل خزانته الزجاجية الصغيرة، وحيداً تماماً، ومطمئناً فوق كرسي صغير. كان يتسلى وحده، وإلى جانبه صولجان...

لبثنا وقتاً كافياً هناك. نسخنا التمثال. اختزلنا المخطط الإجمالي إلى جزء من مئة... ثم أعددنا نموذجاً تمهيدياً صغيراً... حدث كل ذلك على نحو باهر، ثم انطلقنا أنا وروبرت إلى شارع فرانسور، نحو متجر اليهودي السويسري، لشراء ذهب من عيار 18 بمئة فرنك دفعة واحدة. ولعملية لحمها بمشابك بخمسين فرنكاً... أعددنا تلك السبيكة الصغيرة إعداداً جيداً. شبكناها من الجانبين داخل علبة... منذ أربع سنوات لم يحتفظ أحد بالمعدن الثمين في شارع ايلزفير ليلة واحدة... حينما انتهى إعداد القالب أرسلناه إلى السباك لصب المعدن الثمين داخله... ولكن المحاولة أخفقت ثلاث مرات متتالية!... كان

ينبغي تكرار المحاولة.. لم يفهم السباكون السبب على الإطلاق... كان الوقت يمضي... وساورنا القلق... ثم أفلحوا مع ذلك. لم يكن القالب سيئاً بوجه عام... بدأ الإله الصيني يأخذ شكله... لا بد الآن من إنهائه، وصقله جيداً، والبدء بنقشه وترصيعه.

في تلك اللحظة بوجه الضبط... حدث حادث مزعج... جاء رجال الدرك في طلب غورلوج، وأبلغوه بأن عليه الذهاب تواً لأداء خدمته الاحتياطية لمدة ثمانية وعشرين يوماً... وهزَّ المنزل بأسره الانفعال والتوتر. كان قد استنفد كل مهل التأجيل الممكنة... ما كان ليوقف قط أعماله الكبيرة... وقد تحتم عليه الآن أن يترك من يده "إله السعادة" الصيني إلى أجل قادم... لم يكن شيئاً يمكن تلفيقه بصورة ما... كان ينبغي إتقانه والتفنن فيه...

ما دام لم يعد بمستطاع غورلوج الحصول على تأجيل، فقد قرر أن يقوم أنطوان بإكمال العمل في تمثال الإله... وأن ينجزه على مهل... وأن أكون أنا من سيسلمه... لم يبق لنا من أجر أتعابنا سوى مئة فرنك... لهذا فإن غورلوج هو من سيذهب بنفسه ليقبضها! حدد ذلك بوضوح ودون لبس!... بعد عودته من خدمته الاحتياطية... كان يشعر في قرارة نفسه بريبة قوية.

إذا راق العمل لرجلنا الصيني، فسنصنع له أشياء أخرى. عدداً من الساكياموني، جميعها من الذهب! لن نتأخر لحظة عن تلبية طلبه. كنا نرسم المستقبل بلون وردي... هي ذي نهضة مهنة النقش والترصيع تنبعث من جديد، ستأتي ربما من الشرق الأقصى... آه! كان درجنا بكامله يدندن بقصتنا. جميع حرفيي المبنى كانوا مذهولين، يسيل لعابهم حسداً، لم يكونوا يصدقون أعينهم وهم يرون الحظ يقبل علينا. كانوا يتحدثون في كل مكان بأننا تلقينا شيكات من بكين.

ظل غورلوج يتباطأ ويتجرجر حتى اللحظة الأخيرة، كان يتناوب مع أنطوان على التمثال الصغير. كان هناك تفاصيل غريبة عجيبة، بالغة الضآلة، بحيث لم تكن ترى حتى بالعدسة المكبرة. سواء فوق كرسيه الصغيرة... أم على الصولجان. أم من أجل تلك البسمة الصغيرة للغاية التي ترتسم على محياه... كان من الصعب تنفيذ ذلك! كانا يقرضان أيضاً حبيبات صغيرة بمقراض حاد، صقيل، أشبه بظفر. ما عاد ينقصه شيء تقريباً... كان نسخة بالغة الدقة عن تمثال المتحف!

كان من الأفضل مع ذلك، أن يعيد أنطوان النظر والتمعن فيه، وأن نرجئ تسليمه أربعة أيام أو خمسة... حتى يكون عملاً بالغ النقاء والتهذيب.

حزم غورلوج أمره أخيراً، كان عليه أن ينطلق، فقد عاد رجال الدرك ثانية... رأيته في اليوم الثاني، حينما وصلت إلى المشغل، يرتدي لباس جندي، شاكي السلاح... كان يلبس معطفاً فضفاضاً، وحذاء بزرين، أطرافه مرفوعة على شكل قمع ورقي من أقماع البطاطا المقلية... وقبعة، وشرابة خضراء، وبنطالاً أصفر ملائماً...

على هذا النحو نزل الدرج... كان الصغير روبرت يحمل كيسه. كان الكيس معبأ بعناية، ثلاثة قوالب من جبنة كممبر أولاً، وأشياء أخرى، كان الجميع يبدون ملاحظات حولها، ليتران من النبيذ الأبيض، وزجاجات صغيرة من الجعة أيضاً، وتشكيلة من الجوارب، وقميصه التريكو الليلي للنوم خارج البيت.

نزل جميع الجيران من الطوابق أفواجاً، بثياب العمل، بأحذية قديمة مهترئة، كانوا يبصقون هنا وهناك بكثافة. غطوا مماسح الأرجل ببصاقهم، تمنوا له شجاعة طيبة. رافقته حتى محطة الشرق، كان الرحيل يكدره

كثيراً، ولا سيما في اللحظة عينها التي جاء فيها ذلك الطلب. كرر لي تعليماته. كان قلقاً للغاية بسبب عدم تمكنه من إنهاء العمل بنفسه. أخيراً، قال لي: "إلى اللقاء"... وأوصاني بأن أكون متعقلاً. سار في الاتجاه الذي تشير إليه اللافتة الإعلانية. كانت جميع المنافذ مزدحمة بالكتبة والموظفين، كان البعض يدمدمون محتجين لأننا كنا نسد عليهم الطريق فيما نحن نتبادل الكلمات المعسولة... كان خليقاً أن أنصرف...

لدى وصولي إلى شارع ايلزيفير استوقفتني الحاجبة حينما مررت أمام الشرفة وسألتني:

- هيه، قل لي إذن. تعال إلى هنا يا فرديناند!... قل لي إذن، هل سافر؟ اتخذ قراره مع ذلك! إيه حسناً لقد فكر أخيراً!... لن يشعر بالبرد هناك! سيشعر بالحر كثيراً! أخذ معه، لحسن الحظ، ما يشربه. سيتكدر ولا شك لابتعاده عن الأعمال! سحقاً! الوغد! سينضح بالعرق مغفلك المخدوع...

كانت تقول لي ذلك كي تجرني إلى التهجم عليه. كي تدفعني إلى الكلام قليلاً. لم أجبها بشيء. بحسبي ما سمعته من نمائم ووشايات. آه! نعم إذن! لقد غدوت شكاكاً إلى أبعد حد... كنت على حق. ولكن ليس بما يكفي من الحذر والارتياب مع ذلك... فما حدث بعدئذ أثبت لي هذا.

* * *

منذ أن رحل المعلم، لم يعد الصغير روبرت يتمالك نفسه. كان يرغب بكل الوسائل أن لا تتأخر عودته. أما أنطوان والمعلمة فقد انعقدت حبالهما وعلق كل منهما بالآخر. كان يقول بأن هذا سيحدث عاجلاً أما آجلاً. وأنه كان محتماً. كان متلصصاً بطبيعته.

خلال الأسبوع الأول. لم نلاحظ حدوث شيء ذي بال... أما بشأن العمل في المشغل فكنت أنا من يذهب الآن، إلى شارع بروفانس، وعبر البوليفار لجمع التصليحات من الزبائن... ثم أعود بما جمعته، كان هذا كافياً في الحقيقة. ما عدت أتجول بمجموعتي، فقد غيرَّ هذا بالأحرى من عملي.

كان أنطوان يواصل العمل على الراهب البوذي الصغير، متفنناً فيه إلى حدٍّ الإبهار. كان حاذقاً. وهكذا، ففي الأسبوع الثاني غيرت المعلمة فجأة طريقتها في التعامل معي. هي التي كانت نائية ومتحفظة بالأحرى، ولم تكن تكلمني قط بحضور غورلوج، غدت لطيفة ودودة دفعة واحدة، صارت تعاملني بود دونما كلفة. كنت أحس في البداية بأن ذلك يبعث على الريبة، وأخيرا زايلتني الدهشة مع ذلك، وفكرت بأن هذا ربما عائد إلى أنني غدوت أكثر نفعاً؟... وأنني كنت أجلب بعض الأعمال الصغيرة؟... رغم أن تلك الأعمال لم تكن تعود بالنقود. لم يكن ثمة فاتورة واحدة.

كان غورلوج الشكاك دوماً قد أعلن بصراحة ووضوح بأنه لا أحد منا كان مخولاً بقبض فاتورة واحدة! وأنه سيذهب هو بنفسه ليقبض تلك الفواتير حالما يعود.

وصلت ذات صباح في ساعة مبكرة، فوجدت السيدة غورلوج مستيقظة تتجول في المشغل، متظاهرة بأنها تبحث عن شيء ما بالقرب من منضدة العمل... كانت تستر جسدها بقميص حمام خفيف يصدر حفيفاً مسموعاً. أحسست بأن تصرفها كان غريباً، وفريداً... دنت مني وقالت:

- فرديناند! حينما تعود هذا المساء من جولتك في السوق. أرجو أن تتلطف وتحمل لي باقة صغيرة من الزهور. هل يمكنك ذلك؟

فالزهور تخلق البهجة في المنزل... وأصدرت تنهيدة عميقة أيضاً... منذ رحيل زوجي ماعاد لدي الشجاعة على النزول.

كانت تتخطر حولي هازة ردفيها، محاولة إغوائي. كان هذا واضحاً. كان باب غرفتها مفتوحاً على مصراعيه. ورأيت سريرها... لم أبد أي اعتراض، ولم تبدر مني أية محاولة... كان الآخران قادمين من الحانة... أنطوان وروبرت. لم أرفع الكلفة معها قط.

في المساء حملت إليها ثلاث زهرات من زهور الفوانيا. ذلك كل ما أمكنني شراؤه. ما عاد ثمة قرش في الصندوق. كنت أعرف بأنني لن أسترد ثمنها,

ومن ثم فإن أنطوان، غدا بدوره لطيفاً وحميماً إلى أبعد حد. هو الذي تشاجر معي وشتمني قبل أسبوع... غدا الآن شخصاً فاتناً، ما عاد يريد حتى أن أنزل من المشغل، أو ألمّ التصليحات. قال لي:

- استرح قليلاً!... ابق في المشغل بعض الوقت... تسلَّ هنا ببعض الأعمال الصغيرة!... وفيما بعد يمكنك أن تقوم بجولتك!...

كنا نضيع الوقت هدراً، فدبوس الإله الصيني كان قد غدا جاهزاً... بعد أن عاد من الصقل. كنت أنا من سيسلمه. وفي تلك اللحظة بالضبط، تلقت المعلمة رسالة من غورلوج... يوصي فيها بأن لا نتعجل في تسليمه. وأن نحتفظ بالحلية في المنزل. وأن ننتظر عودته بعض الوقت. لأنه هو من سيسلمه إلى الصيني الصغير... وبانتظار ذلك. يمكنني إذا شئت أن أعرض الحلية الجميلة على بعض الهواة من الزبائن.

دفعة واحدة، فقدت الهدوء والاطمئنان! كان الجميع معجبين بالتمثال الصيني الصغير. تحفة حقيقية... كان متقن الصنع فوق ترسه الصغير. "ساكيا موني" من الذهب الخالص!... من عيار 18، وعلى

الأخص في تلك الفترة الصعبة! ما كان من الممكن أن نحلم بأفضل من ذلك!... جميع الجيران والمعارف جاؤوا ليكيلوا لنا التهنئة والمديح... كان ذلك مدعاة فخر للمشغل... لن يجد زبوننا الصيني ما يشكو منه!... لن يعود غورلوج قبل عشرة أيام... وهو ما أتاح لي بعض الوقت كي أعرضه في الحوانيت...

- فرديناند! نصحتني المعلمة. دع الحلية هنا إذن هذا المساء، داخل درجك... لن يمسه أحد! أنت تعلم! وغداً صباحاً ستستعيده!.

كنت أفضل أن أحتفظ به في جيبي، أن أحمله معي إلى المنزل. لأن ذلك أدعى إلى الحيطة والحذر. وضعت له دبوسين إثنين، أحدهما صغير جداً والآخر ضخم، واثنان صغيران من كل جهة... شكلْتُها كلها في قاع جيبي... كان الجميع يقولون "لن يضيعه أبداً!".

❋ ❋ ❋

كان مشغلنا مسقوفاً بألواح الاردواز، التي تشع حرارة لاهبة، وحتى في نهاية أيلول كان الحرُّ ما يزال خانقاً جداً بحيث لم نكن نكف عن الشراب.

في قيظ ما بعد الظهيرة، لم يكن أنطوان يخلد لحظة إلى الهدوء. كان يرفع عقيرته بالغناء، فيتردد صوته في أعماق الفناء ويصل حتى كوخ حاجبة العمارة. كان يجلب معه زجاجات الإبسنت وكمية من البسكويت، فنتناول جميعاً وجبتنا الصغيرة. كنت أنا وروبرت. نقوم بتبريد الزجاجات تحت مياه حنفية الدرج. كان يجلبها بالدين، سلالاً ملآنة، ولكن فقط مقابل كمبيالات... كان البقالون أوغاداً. لقد اكتنفتنا جميعاً لوثة من الجنون، بمعنى ما... ما من أحد كان يثوب إلى رشده. وكل ذلك بسبب حمّارة القيظ، وبسبب الحرية.

كانت المعلمة تأتي لتجلس معنا، فيتخذ أنطوان مكانه مقابلها. كنا نضحك ونحن نراهما يجسان بعضهما. كان يدخل يده تحت تنورتها باحثاً عن مطاط جوربها. ثم يرفع لها تنورتها، وكانت هي تتضاحك هانفة مثل عنزة. لم تكن تفعل شيئاً لإيقافه أو ردعه لفرط ما كانت مستثارة متهيجة... أخرج لها ثدييها، فظلت هكذا أمامه مسحورة. صبَّ لي ولروبرت كل ما بقي في الزجاجة، فجرعنا الكأس حتى الثمالة. كان شراب الإبسنت أفضل من خمرة بانيول. سكرنا جميعاً في النهاية، وتملكنا جنون الحواس. رفع أنطوان جميع ثياب المعلمة دفعة واحدة! إلى ما فوق رأسها!... وانتصب واقفاً أيضاً. ثم دفعها عارية إلى غرفتها. لم تكف هي عن الضحك... كانت غارقة في ضحك مجنون... أغلقا الباب عليهما... وما لبثت أن بدأت تقرق، ثم لم تتوقف عن القرق بعد ذلك.

أما نحن، أنا وروبرت، فقد حانت اللحظة التي نرتقي فيها الفرن كي نتابع المشهد، كان المرقب مختاراً بعناية. كل شيء كان تحت أنظارنا... ليس ثمة مجال للخطأ. دفع أنطوان في الحال المرأة الجسيمة لتجثو على ركبتيها...

كان بالغ العنف والخشونة، كنت أتساءل ما إذا كان سيقتلها؟ ويزهق روحها حيث هي؟ انهال عليها بصفعة عنيفة فيما كان يتعبطها. كانا يزأران كوحشين كاسرين... وكانت هي تمسك بقدمه... وتولى روبرت الفزع، وما عاد يتمالك نفسه. فهبطنا عن مرقانا وجلسنا إلى طاولة المشغل، كي نستعيد هدوءنا وسكينتنا... لقد اكتفينا بما شاهدناه!... فقد كان ذلك خطيراً... كانا يواصلان الكوريدا (مصارعة الثيران). نزلنا إلى الفناء... بحثنا عن سطل الماء والمكنسة، تظاهرنا بأننا نقوم بتنظيف المشغل... ثم عدنا إلى حاجبة العمارة، كنا نفضّل أن لا نظل هناك، حينما سيخنقها.

ما كان ثمة دراما ولا جثة... فقد خرجا جذلين غاية الجذل... كان علينا أن نتعود على ذلك!...

في الأيام التي تلت صرنا نجلب تموينا من كل مكان، من ثلاثة بقالين في ثلاثة شوارع مختلفة لم نكن نعرفهم بعد... كل صنوف المأكولات، مع زجاجات البيرة وخمر "مالفوزين" الفوارة وكلها بالدين. لقد غدونا أوباشاً حقيقيين.

كنت ألتمس الأعذار كي لا أتناول الطعام مع عجوزيّ في البيت. كان شارع ايلزيفير قد تحول إلى موئل حقيقي للمرح. لم نكن نتوقف عن التهام الأطعمة حتى التخمة. ما عدنا نبالي بشيء أبداً. وفي فترة ما بعد الظهيرة، عند الساعة الرابعة كنا ننتظر كلانا أنا وروبرت، بدء الكوريدا... ما عدنا نشعر بالخوف، ولكن أثر المشهد كان يخف أيضاً.

* * *

كان بقالو شارع بيرس أول من أثار لنا فضيحة مجلجلة... ما عادوا يرضون بأن يسلفونا الطعام والشراب... كانوا يأتون ليطالبونا بحساب فواتيرهم... كنا نسمع وقع أقدامهم على الدرج... ولم نكن نرد على ندائهم وقرعهم على الباب...

كانوا ينزلون إلى حاجبة العمارة... ويثيرون هناك ضجيجاً مروعاً... غدت حياتنا لا تطاق. كان أنطوان والمعلمة يخرجان دائماً. ويذهبان ليأكلا ما لذ وطاب في الخارج. يرفعان أعلام القراصنة في كل مطاعم الحي... لم أكن آتي على ذكر ذلك في البيت أمام والديّ... لأنه سيقع فوق رأسي في النهاية... سيتخيلان بأنني أنا من كان يرتكب كل هذه الحماقات!.

كانت الحلية هي أكثر ما يهمني!... الساكيا موني المصنوعة كلها من الذهب. لم أكن أتركها تتعرض للأخطار والمجازفات. لم تكن

تخرج غالباً إلى النور! كنت أحتفظ بها بورع شديد مخبأة في أعماق جيبي. مقفلاً عليها أيضاً بدبابيس، لم أكن أظهرها لعيني أحد. ما عاد لدي أي ثقة... كنت أنتظر عودة المعلم.

في المشغل، لم نكن أنا وروبرت نكلف أنفسنا بأي عمل... ولم يعد أنطوان يفعل أي شيء تقريباً. فبعد انتهائه من لهوه مع المرأة الكبيرة المضحكة كان يعود ليمازحنا. شعثنا المشغل وقلبنا كل ما فيه عالياً سافلاً. وفي ساعات ما بعد الظهيرة كانا ينامان طوال ساعات.

ذات مساء، حدثت الدراما! لم نكن قد أغلقنا الباب بالرتاج... كان الوقت وقت تناول العشاء، وكان الدرج يشهد حركة صعود ونزول دائبين... وإذا بنا نفاجأ بأحد أصحاب المطاعم الساخطين، الأشد خبثاً من الجميع، تسلق الدرجات أربعاً أربعاً!... ولم ندرك ما جرى إلا بعد فوات الأوان! دفع الباب، ودخل، فوجد العاشقين النائمين كليهما، أنطوان والمرأة الجسيمة! كان يدمدم حينئذ على نحو أسوأ من فقمة!... وقد صعد الدم إلى عينيه... كان عازماً على أن يضرب أنطوان فوراً! وأشهر مطرقته الثقيلة... وخيل إلي بأنه سيهوي بها على رأسه...

صحيح أننا كنا مدينين له بمبلغ كبير... خمسة وعشرين ليتراً على الأقل من النبيذ الأبيض والنبيذ الروزي... ومن المشروبات الفاخرة وحتى الممزوجة بالخل... وتحول المكان إلى ساحة قتال... كان الأمر بحاجة إلى ثمانية رجال للتمكن من إيقاف الغول... استنجدنا بجميع أصدقائنا... وأظهر أنطوان حمية نادرة، أصيب بكدمتين كبيرتين، واحدة زرقاء والأخرى صفراء...

عند أسفل الدرج، في الفناء ظل يواصل تهديدنا. ويقذفنا ذلك الملتاث بكل النعوت: نصابين!... قذرين!... منايك!...

- انتظروا لحظة، أيها الأوغاد! ستسمعون أخباري!... ولـن تتـأخر كثيراً، أيها الأوساخ!... انتظروا مفوض الشرطة بعد قليل.

شرعت رائحتنا تزكم الأنوف.

***

في اليوم التالي، في فترة ما بعد الظهيرة، قلـت لروبـرت: "قـل لي إذن، أيها الصبي! لا بد لي من أن أنزل الآن. لقد أتى أحد آل تراكـارد هذا الصباح طالباً بروشهم الـذهبي، كـان خليقـاً أن نـرده إلـيهم منـذ ثمانية أيام على الأقل!...". "حسناً، أجابني روبرت، وأنا، أيضاً علـي أن أخرج... لدي موعد مع صديق في شارع "ماتان".

تدحرجنا كلانا على الدرج... لم يكن أنطوان والمعلمة قد عادا مـن فطورهما.

لما بلغنا الطابق الثاني سمعناها وهي تصعد الـدرج... لاهثـة لهاثـاً شديداً، متخمة مهتاجة، كانا قد التهما الكثير من الطعام بالتأكيد...

- إلى أين أنت ذاهب يا فرديناند؟.

- سأقوم بمهمة صغيرة... في نهاية البوليفارد... لرؤية زبونة.

- آه! دعك الآن مـن الـذهاب إلى هنـاك! لـدي كلمتـان أريـد أن أقولهما لك.

حسن... رافقتها إلى الأعلى... وانسل روبرت إلى موعده. مـا كـدنا ندخل البيت حتى أغلقت الباب خلفنا، أغلقت كل شـيء. وأحكمـت رتاجي الباب أيضاً... سبقتني قليلاً، ودخلت غرفتها، ثم أشـارت إلي بالقدوم أيضاً... دنوت منها... تساءلت، ما الذي ستنتهي إليه الأمـور. بدأت تدغدغني... وتنفخ في أنفي... "آه! آه!" كانـت تقـول لي. كـان ذلك يبهجها.

"آه! أيها النجس! يبدو أنك كنت تراقب من ثقوب الجدار، أليس كذلك؟ آه! قل لي إذن بأن هذا ليس صحيحاً؟...".

مدت يدها فجأة إلى أسفل بطني، وبدأت تفرك وتفرك...

"سأقول لأمك عن ذلك، أوه! مهلاً! مهلاً! يا خنزيري الصغير! يا خنزيري الصغير العزيز!...

كانت تصرف بأسنانها... تتثنى وتتأوه... أخذتني بلهفة بين ذراعيها. وأدخلت لسانها الجميل إلى فمي، وقبلتني قبلة داعرة، فرأيت ستاً وثلاثين نجمة من نجوم الظهر... أجبرتني على الجلوس بجانبها على السرير... ثم انقلبت على ظهرها، ورفعت ثيابها مرة واحدة..

"المس... هيا المس هنا إذن!" كانت تقول لي.

وضعت يدي على بطنها.

"هيا، ألحت علي، هيا! يا خليلي الكبير!... هيا... نادني لويزون! لويزونك!... يا وغدي الصغير. نادني، قل!...".

"نعم لويزون!"... قلت لها.

شعرت بالتقزز مع ذلك... أمسكت بكلتا أذني... وأرغمتني على الانحناء... على النزول برأسي حتى لامس طبيعتها... ثم حنت جذعي بقوة. جعلتني أحضنها... كان لذلك في البداية طعم السمك، ثم غدا بعد ذلك أشبه ببوز كلب.

"هيا، يا حبيبي!... هيا، أنت شجاع! شجاع!..."هيا اخلع ثيابك! أمرتني، اخلع لي كل هذا! دعني أرى جمال جسدك الرشيق! بسرعة! بسرعة! أوه، السافل الصغير الضخم... لن يعود بعد الآن يراقب من الثقوب!..".

كانت مصاصة دماء حقيقية... لم أكن أجرؤ على نزع ثيابي، نزعت الغل الذي كان يضغط على عنقي... ثم خلعت سترتي وصدريتي... كانت هي التي علقتها بالقرب من السرير، على ظهر الكرسي، لم أشأ أن أنضو بقية أسمالي، مثلما كان يفعل أنطوان، كنت أعلم أن مؤخرتي ملطخة بالغائط، وقدميّ مسودتان من الأقذار... كنت أشم، أنا نفسي رائحة نتانتي... ولكي أتحاشى إلحاحها ارتميت عليها بسرعة خاطفة، "متظاهراً بأنني عاشق ولهان". وتولاني القرف... كانت تنفخ في وجهي، فيعبق أنفي حينئذ بأنفاسها المشبعة بروائح الثوم... وجبن الروكفور... كانا قد أكلا النقانق على الغداء.

"أوه! ولكن ينبغي أن أغتسل!..." خطر لها ذلك فجأة، وبقفزة واحدة كانت خارج الغرفة... سمعتها تشخ في المطبخ... وجعلت تنبش تحت المغسلة... وهي تصيح بي: "انتظرني، لولو!" حينذاك لم أطلب بقية الحساب، قفزت إلى بدلتي... وأدركت مصراع الباب بسرعة السهم، دفعته قليلاً، وإذا بي فوق قرص الدرج... هبطت الدرجات أربعاً أربعاً... والتقطت نفساً عميقاً... بلغت الشارع... لقد حان وقت التفكير... كنت أتنفس بجهد ومشقة... مشيت متمهلاً باتجاه البوليفارات.

حينما وصلت إلى الامبيغو... جلست هناك أخيراً! التقطت صحيفة من الأرض، كنت سأبدأ القراءة فيها... ولكن لا أدري لماذا... تحسست جيبي، قمت بتلك الحركة دون وعي مني... أخذت شهيقاً... تحسست ثانية، فلم أجد الحلية... تحسست الجيب الآخر... النتيجة نفسها! لم تعد معي!...تبخرت حليتي وذهبت أدراج الرياح! فتشت بدقة أكثر فأكثر... قلبت كل بطانات بدلتي... وسروالي الداخلي... الوجه... والقفا... ما من خطأ!... دخلت المراحيض...

خلعت كل ثيابي... قلبتها قطعة قطعة... لا شيء على الإطلاق!... ما من غشاوة تحجب بصري!... وتدفق الدم في أوردتي... جلست على الدرجات!... تائهاً مثل جرذ!... قلبت ثيابي من جديد... أعدت الكرة!... لم أكن أصدق ذلك... تذكرت بوضوح كامل بأنني شكلت الحلية بالدبابيس... في أعماق جيبي الداخلي. كنت أحس بوجودها أيضاً حينما نزلت الدرج أنا وروبرت. كانت الدبابيس قد خرجت من جيبي!... لم تفلت هكذا من تلقاء نفسها، وتذكرت فجأة الطريقة الغريبة التي كانت تمسك بها رأسي طيلة الوقت... كي لا أرى الجهة الأخرى من الكرسي؟... كانت تعمل إذن بيد واحدة... أدركت هذا على دفعات... وسرى الخوف في عروقي... دبَّ فيَّ الهلع... وقفز قلبي من بين ضلوعي... وطفق يقرع بأقوى من حوافر ستة وثلاثين حصاناً من أحصنة العربات... كان رأسي يهتز بقوة... لم يكن هذا يفيد في شيء... أعدت التنقيب في ثيابي... كان من المستحيل أن تسقط حليتي! أن تنزلق هكذا من جيبي على الأرض بعد أن بكلتها بالدبابيس! ولكن لا!... كان هناك ثلاثة دبابيس... من النوع الذي لا ينفتح بسهولة... ولا تفلت هكذا لوحدها. ولكي أتاكد مما إذا كنت لا أحلم، مضيت إلى شارع ايلزيفير... لم يبق هناك أحد في الأعلى!... انصرفوا جميعاً... انتظرت على الدرجات... حتى الساعة السابعة، إذا ما كانوا سيعودون؟... ولكن أحداً لم يصعد الدرج...

كنت أحاول، على هذا النحو أن أتحقق من الكلمات المتفرقة التي جرت على لسانها، ومن الأحداث التي مرَّت. تذكرت كل شيء قليلاً قليلاً... إذا كان أنطوان هو من فعل ذلك؟ والصغير روبرت إذن؟ إذاً كان الجميع قد دبروا المكيدة؟... بالإضافة إلى المرأة الضخمة... حينما نهضت واقفاً لم أعد أحس بساقيّ... كنت أمشي في الشارع

كالسكران... كان المارة يلتفتون نحوي... لبثت مختبئاً تحت نفق سانت دينس... ما عدت أجرؤ على الخروج من الجحر... كنت أرى العربات من بعيد، تتموج تحت وهج الحر... غارقاً في سكرات الذهول والخبل... عدت متأخراً جداً إلى الباساج... تذرعت بألم في بطني... وضعت حداً للأسئلة... جافاني النوم طيلة الليل لشدة ما أصابني من المغص والإسهال... وفي الغد ذهبت في ساعة مبكرة، لفرط ما كنت متلهفاً إلى معرفة الحقيقة...

***

في المشغل، حال وصولي، أمعنت النظر في وجوه الثلاثة جميعاً... لم يكن يبدو عليهم ما يثير الشبهة... لا الفاسقة... ولا أنطوان... ولا الفتى!... وحين أعلنت لهم بأنني فقدت الحلية... نظروا إلي مبهوتين! بدوا مصعوقين...

- كيف، يا فرديناند؟ هل أنت متأكد؟ هل فتشت في بيتكم؟... ابحث إذن في جيوبك!... نحن لم نعثر هنا على شيء!... أليس كذلك يا روبرت؟ ألم تر شيئاً؟ الصغير هو الذي كنس الأرض!... ستكنس مرة أخرى أيضاً.

لفرط ما أسمعوني مثل هذا الكلام، بدوا لي من القسوة والوحشية بحيث أنني انخرطت في النحيب... ورأيتهم حينئذ في المرآة يتبادلون إشارات صغيرة... آثر أنطوان أن لا ينظر إلي، كان يدير لي ظهره، متظاهراً بأنه يشحذ مسنّه... وظلت هي تواصل كلامها المعسول، محاولة أن تجعلني أغالط نفسي، وأتناقض في كلامي.

- ألا تذكر حين كنت في بيت تراكارد؟ قلت لي بأنك ذهبت إلى هناك؟... ألا يكون قد سقط عندهم؟ هل أنت متأكد؟.

كنت كمن يخض الماء ليستخرج منه الزبدة... كان هذا كريهاً مقززاً، تفوح منه رائحة الرذيلة وكل الخبائث... لم يكن لي أي مفزع ألجأ إليه... لن يصدقني أحد إذا ما رويت الأشياء مثلما جرت... ما الذي كان سيفيده ذلك؟...

- سيعود المعلم بعد غد... وحتى ذلك الوقت، حاول أن تعثر عليه!... روبرت سيساعدك!... ذلك ما اقترحته علي القحبة... لقد ضعت الآن تماماً ولن ينقذني أحد!... فإذا رويت ما حدث بيني وبين المعلمة، فسيعتبرونني نصاباً محتالاً، وحشاً مخيفاً، نذلاً لا خلاق له... أحاول أن أبرئ نفسي بتلطيخ سمعة معلمتي الطيبة... دون أن يكون لدي حشمة أو حياء... سيكون ذلك ذروة الوقاحة... سيكون فرية عظيمة... قذارة ما بعدها قذارة... لم أحاول أن آتي على ذكر ذلك من قريب أو من بعيد... ما عاد لي رغبة بذلك أيضاً... ما عاد بمقدوري أن آكل أي شيء على الإطلاق... كان رأسي مغلقاً... وأفكاري، وفمي، وقلبي...

لاحظت أمي وضعي الغريب، حين رأت سحنتي المكفهرة. كانت تتساءل عما يمكن أن يكون قد أصابني من مرض؟... كان الخوف قد استفحل في داخلي... لشد ما كنت أرغب في أن أختفي وأتلاشى... أن أضوي وأذوب بحيث يزول كل أثر لي من الوجود...

أما أبي فكان يوجه إلي ملاحظات لاذعة... "أفلا تكون عاشقاً بالصدفة؟... أفلا يكون هذا أوان الربيع؟... هل تفتحت البراعم على غصنك؟..." وسألني مرة في أحد أركان البيت: "هل أنت مصاب بالسيلان؟..." ما عدت أعرف كيف أهدئ نفسي، ولافي أي ركن ألوذ...

كان غورلوج الذي تأخر عن موعد عودته، قد اختـار طريقـاً آخـر. كان يتسكع من مدينة إلى مدينة... وقد وصل يوم الأربعـاء، فيمـا كنـا ننتظـر قدومـه يـوم الأحـد... وفي صـباح الغـد، حـين صـعدت إلى العمل، رأيته في المطبخ يشحذ شفراته ومبـارده. لبثـت جامـداً خلفـه على هذا النحو وقتاً طويلاً... ما عدت أجرؤ على التحـرك قيـد أنملـة في الممر... كنت أنتظر أن يكلمني. كانت روحي قد بلغـت الحلقـوم. لم أعد أعرف ماذا أريد أن أقول. لا ريب أنه قد علـم بـالأمر. مـددت يدي لأصافحه مع ذلك، فنظر إلي شزراً بطرف عينه... دون أن يلتفـت إلي... ثم عاد إلى أدواتـه. مـا عـدت موجـوداً. حينئـذ غـصت داخـل المشغل. كان الخوف يشلني، بحيـث تركـت في قـاع الخزانـة نـصف مجموعتي كي أولي الفرار بأقصى سرعة... ما من أحد أتى علـى ذكـر الحليـة. كـانوا جميعـاً هنـاك داخـل الحجـرة. مـستغرقين في تـدوير آلاتهم... خرجت دون أن أتفوه بكلمة واحدة... مـا عـدت أعلـم أيـن سأولي وجهي. ولحسن الحظ فقد كنت معتاداً على ذلك. كنت أمـشي كما لو في حلم... وفي شارع ريومور كنت أنضح بـالعرق رغـم الـبرد القـارس... وفي ميـدان التـزلج طفقـت أنتقـل مـن مقعـد إلى آخـر... حاولت مع ذلك الدخول إلى أحد المخازن، ولكـنني لم أسـتطع أبـداً لفرط ما كنت أرتعد فرقاً عند مقبض الباب... كنت عاجزاً عن فتحه... كان يخيل إلي بأن الناس جميعاً يتعقبونني ويجدّون في أثري...

لبثت على هذا النحو ساعات... طوال فترة الـصباح. ثم فتـرة مـا بعـد الظهر أيضاً، متنقلاً دوماً من مقعد إلى آخر، حتى بلغت حديقـة لوفـوا... كنت أتكئ علـى واجهـات المحـلات. لم أعـد قـادراً علـى الـسير، ولا راغباً في العودة إلى منزل غورلوج... كنـت أفـضل العـودة إلى والـديّ... على الرغم من أن ذلك كان مرعباً أيضاً... ولكنهما كانا أقرب إلى المكـان

الذي أنا فيه، غير بعيد عن حديقة لوفوا... من الغريب مع ذلك أن لا يعود بوسع المرء أن يتنفس إلا في مطارح رهيبة مفزعة...

درت دورة أخرى أيضاً، دورتين، متمهلاً حول بنك فرنسا، بثيابي الرثة المهلهلة... ثم استجمعت شجاعتي وعدت إلى الباساج... كان أبي على مسافة خطوة من بابنا... كان ينتظرني بالتأكيد. كانت الطريقة التي طلب فيها مني الصعود قد أزالت كل شك لدي. لاحت في الأفق نذر عاصفة نكباء. فمنذ اللحظة الأولى بدأ يتعتع ويلجلج بقوة واندفاع كما لو كان يطلق بخاراً بدل الكلمات. لم أعد أفهم شيئاً... سوى أنه كان ينفث شهباً ثاقبة... كانت قبعته تتقلقل فوق رأسه كما لو بفعل زوبعة... كانت تطير في كل الاتجاهات... فما يبرح يهبدها بقوة بجمع يده، حتى ليكاد يفخت رأسه... كان وجهه ينتفخ ويغدو قرمزياً تماماً... وترتسم فوقه أخاديد كابية اللون... ثم ما يلبث أن يتغير لونه ويغدو بنفسجياً.

ما كان يجذب أنظاري نحوه هو تحول لونه إلى الأزرق... أو إلى الأصفر فجأة. واجتاحتني موجة من الذهول بحيث لم أعد أحس بشيء... كان يهوي بقبضته على الأثاث... يحمله ويلوح به يريد أن يحطمه... وخلت أنه سيلقي بكل شيء في الهواء... كان يعض أيضاً على لسانه بقوة وحنق بالغين. حتى غدا لسانه أشبه بسدادة لحمية منفوخة ومضغوطة، موشكة على الانفجار... ولكنها لم تنفجر على الإطلاق. ثم هدأ قاع البركان... وراح يهمد ببساطة... وكده الكد حتى ما عاد يقوى على التنفس...

انطلق فجأة إلى الخارج، اندفع نحو الشارع، وراح يعدو في الباساج. كان سيطير ربما لفرط ما كان ينفخ الهواء... لم يكن يلوي على شيء... كان منظره كريهاً منفراً...

بقيت أمي معي، تهذر بكل صنوف الحماقات... وبتفاصيل البلية التي حلت بنا... غارقة بأفكارها، وبقناعاتها القديمة...

جاء السيد غورلوج، تحدث إليهما ساعتين... كان يعرف كل شيء... حكى بالتفصيل الممل... وصف ما سيؤول إليه مصيري. "هذا الولد سيسبب لكم الشقاء!... إنه فاسد صغير!... شقي صغير!... وضعت ثقتي به!... ثم بدأ يتشاطر علي...".

كانت تلك أقواله الأخيرة!... خافت أمي أن يلجأ إلى العدالة... وأن يوقفني البوليس على الفور... لم تجرؤ على أن تجيب بشيء... لم يكن لديها أدنى شك بأنني كنت محتالاً مخادعاً... كان من الأفضل لي أن أعترف على الفور... بأنني قد أضعتها على الأقل... بأنني كنت أماحك... كنت أزعج معلمي... كان هذا هو الافتراض الأقل قذارة!... وعلى أي حال، فإنهما سيسددان ثمن الحلية شيئاً فشيئاً. كان ذلك أمراً مؤكداً!...

- من الذي أعطاك مثل هذه القدوة؟ كانت تسألني وسط سيل من الدموع. ما الذي فعلته إذن بتلك الحلية؟... قل، هيا! يا صغيري! لن نأكلك بسبب ذلك!... لن أكرر كلمة واحدة على مسامع أبيك!... أقسم لك!... هيا ألا تصدقني؟ سنذهب لنراها معاً.... إن كنت أهديتها إلى امرأة! قل لي بسرعة قبل أن يعود! لعلها سترضى بأن تعيدها إليك لقاء مبلغ صغير من المال؟... أنت تعرفها جيداً؟ ألا تظن بأنها ستقبل؟... سنسوي الأمر مع ذلك بنحو من الأنحاء! لن نقول كلمة لأحد!...

كنت أنتظر أن يتوقف كل هذا الهذر. لعلي أستطيع أن أشرح لها... ولكن أبي عاد في تلك اللحظة بالذات... لم يكن غضبه قد

أفـرغ بعـد... فقـد انهـال بالـضرب علـى الطاولـة، بكلتـا قبضتيه المغلقتين! نافثاً البخار دوماً... وإذا ما توقف عن ذلك لحظة، فإنه يلبطها بقدمه من الخلف! كان غضبه قد استفحل، وصار يرمح مثل حصان، كان يرفس الجدران بقوة، فتهتز الغرفة بكاملـها... وحين يسترخي لحظـة يغـدو رهيبـاً. انهـارت خزانـة الأطبـاق بمـا فيهـا، واستمرت الزوابع والانهيارات طيلة الليـل... كـان يـشب عالياً ثم يسقط على يديه وقدميه!... عاوياً مثل كلـب دينغـو. كـان كلاهما يعويان معي وضدي، ما بـين الهيجانـات ونوبـات الغـضب... ولم أكن أرد بكلمة واحدة...

في نهاية العرض، عادت أمي إلى استجوابي مـن جديـد... كانت تريد أن أعترف لها... لم أكن أجيب بشيء... كانت تبكي راكعـة قـرب سريري كما لو كنت ميتاً. متمتمة بصلواتها... دائبة على التوسل إلي... كانت تريد أن أعترف لها على الفور... أن أقول لها إن كان هناك امرأة قد أخذت الحلية!... كي نذهب سوياً لرؤيتها...

- أقول لك. بأن المعلمة هي التي أخذتها!... صرخت أخيراً. كنـت على شفا الانهيار! تفوه!

- آه! اخرس أيها الشقي الصغير!... أنـت لا تعـرف مقـدار الأذى الذي تسببه لنا بكلامك هذا!...

ما عاد من المجدي الإصرار... وماذا يفيد الحـديث إلى مثـل هـذه الدمامل؟ كانا ما يزالان مصفّحان أكثر من كل حمّامات أزنـيير. ذلكم هو رأيي.

* * *

كانت تلك محنة رهيبة، مع ذلك. لبثت ردحاً طويلاً في غرفتي، خمسة أيام أو ستة لا أبرحها. كانا يرغماني على النزول لتناول الطعام... كانت تناديني عشر مرات، ثم تصعد إلي في النهاية. ما عدت أريد شيئاً على الإطلاق، ما عدت راغباً في أن أتحدث على الأخص. كان والدي يكلم نفسه، ينساق في مونولوجات طويلة. متذمراً محتجاً بصوت مرتفع. لم يكن يكف عن ذلك. وكل ما تبقى كان لعنات... على القدر... وعلى اليهود... وعلى سوء الحظ، وعلى المعرض... وعلى الماسونيين...

حينما كان يعود من تسليم الطلبات، يصعد إلى مرسمه في غرفتي... ويستأنف العمل برسومه المائية. كان ذلك ضرورياً ضرورة قصوى... كنا بحاجة ماسة إلى النقود. كان لا بد من تسديد غورلوج... ولكن لم يعد في طوقه الدأب والمثابرة. كان ذهنه يشرد بعيداً... فما إن يلمس ريشته حتى تتهيج أعصابه بحدة. وتنكسر عصا الريشة بين يديه. كان يحس بالتوتر والهياج إلى حد أنه كان يفتت ريشة الحبر الصيني قطعاً متناثرة... وأوعية الألوان أيضاً... فتندلق الألوان في كل مكان... ما عاد ثمة وسيلة لتهدئته... فلمجرد شعوره بأنني إلى جانبه كان يرفس بقدمه كل شيء. وحينما كان يلتقي بأمي يعود إلى انفجاراته الصاخبة، مثيراً ذعرها وقلقها.

- إذا ما تركته، يا صديقتي البائسة، يتسكع في الشارع نهارات بكاملها، بحجة تعليمه التجارة، فلن نخلص من بلاياه! آه، لا، إذن! يمكنني أن أقسم لك! نحن لسنا إلا في البداية! إنه لن ينتهي كلص! وإنما كقاتل! هل تسمعيني؟ قاتل! لن أعطيه سوى ستة أشهر فقط حتى يخنق واحدة من النساء المتكسبات! أوه! إنه يمضي قدماً فوق المنحدر الجميل!... أوه! مهلاً! لم يعد ينساب فوقه انسياباً! ولكنه

يقفز قفزاً! إنه يعدو مسرعاً! جامحاً مطلق العنان! أنا أراه! ألا ترينه أنت؟ ولكنك لا تصدقين شيئاً! أنت عمياء! وليس أنا! لا! آه! لا! ليس أنا!...

وها هنا يأخذ نفساً عميقاً... كان يفتنها بكلامه...

- هل تريدين أخيراً أن تصغي إلي؟ هل ترغبين بأن أوضح لك ما يلوح وشيكاً في الأفق؟ لا؟ أنت لا تطيقين سماع ذلك؟...

- لا، أوغست! أتوسل إليك!...

- آه! آه! أنت خائفة من الاستماع إلي!... إذن هل تعرفين؟... كان يمسكها من معصميها، كان ينبغي أن لا تفلت منه... ينبغي أن تسمع كل شيء بوضوح.

- سنكون نحن من سيقتلهما ذات يوم! هل تسمعيني؟ سيعاقبنا يا حلوتي!... أنا أتنبأ بذلك!... آه! أنا أحذرك بما يكفي، تباً!... إن لي ضميراً نقياً!... آه! قسماً وألف قسماً، أعلن ذلك على الملأ! دائماً وأبداً! تفو!.

كان يزرع في قلب أمي خوفاً. كاد يفقدها عقلها. لقد فقدت تماسكها تماماً... بعد أن دوخها، وأجهز عليها كلياً.

- أريد فعلاً أن يخنقني وأرتاح! بكل تأكيد! ولكنني لست مغفلاً. قسماً بالمواخير!... تدبري أنت أمرك كما تشائين!... لأنك أنت من سيكون المسؤول عن كل ذلك!.

ما عادت تدري ما تقول ولا ما تفعل، تحت وقع هذه التنبؤات الوحشية الفظيعة، وفي غمرة اختلاجات حزنها وقلقها، صارت تمضغ أطراف شفتيها فينزف منها الدم بغزارة. كنت هالكاً لا محالة. وكان

"بيلاطوس" يعيد الكرة، يلطخ الغرفة كلها برشاش لعناته، كان يغسل يديه من ابنه القذر، بماء دافق، من صنبور مفتوح على آخره. ويطلق جملاً لاتينية بكاملها، كانت ترد إلى ذهنه في اللحظات العصبية. على هذا النحو، كان يقف في مطبخنا الصغير، يقذفني باللعنة والحرم، مفخماً كلامه بلغة قديمة رنانة. ثم يتوقف ليستريح، ويشرح لي في أثناء ذلك، بسبب جهلي ونقص معرفتي، معنى "الإنسانية"...

كان هو يعرف كل شيء، بينما لم أكن أنا أعرف سوى شيء واحد، هو أنني بعير أجرب، ما عاد من الممكن الاقتراب مني، قذراً بالغ القذارة، خليقاً بالاحتقار من البشر ومن كل الأشياء، وحتى من الأخلاق الرومانية، ومن شيشيرون، ومن الإمبراطورية بأسرها ومن جميع القدماء. كان أبي يعرف كل هذا... ما عاد يساوره أدنى شك... كان يعوي مثل ابن عرس... ولم تتوقف أمي عن النحيب، لفرط ما كان يعيد ويكرر المشهد. كان يفعل ذلك كما لو أنه يمثل دوراً على خشبة المسرح. كان ممسكاً صابونة مرسيليا الثقيلة المربعة، منهمكاً بخطبته كل الانهماك... مومئاً في كل الاتجاهات... كان يترك الصابونة مرات عديدة... دون أن يتوقف عن خطبته، ثم يستعيدها من جديد... ويلوح بها... غالباً ما كانت تنزلق من يده... وتقفز لتستقر تحت البيانو... فننبطح جميعاً لالتقاطها... ننبش عنها بالمكنسة، بضربات قوية من مقبضها... تفو!... أي ماخور!... أي رعود!... كنا نصطدم ببعضنا بعنف... ندخل المكنسة بكاملها في عيون بعضنا... ثم ينتهي كل ذلك بمعركة... ويتراشق كلاهما بالسباب وبكل النعوت القذرة... كان يجعلها تحجل حول الطاولة.

وكانا ينسياني لحظة من الزمن.

***

لفرط ما كانت أمي ترتعد قرفاً، فقد فقدت كل رصانتها... كانت تروح وتغدو في الباساج، وفي النواحي المجاورة لتثرثر حول حالات الإنمساخ التي ألمت بي... كانت تلتمس النصائح من الآباء الآخرين... أولئك الذين يعانون أيضاً المتاعب مع أولادهم... الخائبين خلال تدريبهم في المهن... وكيف تدبروا الأمر بعد ذلك.

"أنا مستعدة كل الاستعداد، كانت أمي تضيف، لأن أقوم بكل التضحيات... سنمضي... تعساً لنا! حتى النهاية!...".

كان كل هذا بليغاً للغاية، لكنه لم يكن ليخرجني من المغطس الذي غطست فيه. كنت دائماً متبطلاً دون عمل.

بدأ الخال إدوارد، الحاذق الأريب، والذي كان واسع الحيلة، بدأ يقرع الأبواب. كان قد لاحظ الإرباك الذي سببته، فأسأم جميع أصحابه تقريباً بالحديث عن ترهاتي وخيباتي... حتى ضاقت نفسه وغزاها الملل. كنت أصطدم بكل العقبات... كان فيّ شيء ما غريب... لذا فقد بدأ هو أيضاً يضيق ذرعاً بي.

أما الجيران، فما كان أشد شغفهم بحكايتي الدرامية... وزبائن الحانوت أيضاً. ما إن كانوا يتعرفون علي قليلاً حتى تجعلهم أمي شهوداً... كان ذلك يزيد في تعقيد الأمور. وحتى السيد لامبرنت في مكتب التأمين انتهى بأن تدخل في الأمر... والواقع أن أبي ما عاد يغمض له جفن حتى غدا أشبه بمحتضر مشرف على الموت. كان يصل إلى المكتب، منهكاً جداً ويسير مترنحاً في جميع الأروقة، حاملاً بريده من طابق إلى طابق... وكان صامتاً فوق ذلك. لقد بدا صوته أجش لفرط ما كان يصرخ مطلقاً حماقاته.

"حياتك الخاصة يا صديقي لا تعنيني في شيء. ليس لي شأن بها! ولكنني أريد مع ذلك أن تؤدي واجبك بنحو كامل... أية هيئة لك الآن!... لم تعد تستطيع الوقوف على قدميك يا ولدي. سيكون عليك العناية بنفسك! ما الذي تفعله إذن خارج المكتب؟ أنت لا تخلد إلى الراحة أبدا؟" على هذا النحو كان يوبخه.

"آه يا صديقي! أهذا كل شيء؟ لو كنت أنا مكانك! آه إذن! سوف لن أبالي قط!... وكيف!... بكل أقاربي وعلاقاتي!... بكل الأبناء وأبناء الأخوة! بامرأتي! ببناتي. لثمانية عشر أب من آبائي. ولكني لو كنت مكانك!. ولكني سأبول على العالم! على العالم بأسره! هل تسمعني جيداً! أنت رخو يا سيدي! هذا كل ما يمكنني أن أراه!".

على هذا النحو كان لامبرنت يفهم الأمور. ودائماً بسبب قرحة معدته، على بعد إصبعين من بوابة المعدة... كانت تبرّح به كل مبرّح... لم يكن العالم بالنسبة إليه سوى أسيد هائل... لم يكن عليه سوى أن يكد ليغدو هو بأكمله "بيركاربونات"... كان يكابد طيلة النهار، يبتلع منها ملء طنابر. دون أن يفلح في إطفاء لهيبها. كان يشعر كما لو أن سيخاً محمى في أسفل مريّه يكوي أحشاءه... وعما قريب، لن تعود سوى ثقوب مفتوحة... تمر عبرها نجوم مع كل حزقة يتحزقها. ما عادت حياته تطاق... وبعد أن اطلعا، هو وأبي على كروب بعضهما اقترحا أن يتبادلا فيما بينهما...

"عجباً، أنا سآخذ فعلاً قرحتك! وكل ما تريد شرط أن تخفف عني هم ولدي! ألا ترضى بذلك؟".

كان والدي، على هذا النحو، يضع دائماً العذابات المعنوية فوق العذابات الجسدية... مهما كانت شديدة الوطأة... هكذا كان دأب

الرومان، وهكذا كان يفهم كل محن الوجود... متوافقاً مع ضميره... على الرغم من كل شيء، وفي غمرة أفدح الكوارث!... ما من تسوية لديه! ما من تعلات! ذلكم كان قانونه!... مبرر وجوده! "الضمير لي! ضميري" كان يهتف بذلك في كل مناسبة... حينما كنت أضع إصبعي في أنفي... وإذا ما قلبت المملحة. كان يفتح النافذة عن عمد كي يمتع جميع الجيران أنظارهم بمرآي...

لفرط ما رآني الخال إدوارد في همّ ونَصَب، تتقاذفني الوعود الخلابة بالعثور على عمل في كل الاتجاهات، فقد رقّ لي في النهاية. كان رجلاً في منتهى الطيبة. كنت أتخبط في قاع البؤس والقلق... عاود اتصالاته من جديد، وعثر لي على وسيلة... كانت حيلة لي للهرب... ألا وهي تعلم لغة من اللغات الأجنبية...

أعلن الخال أن من الضروري أن أعرف لغة أجنبية واحدة على الأقل... كي أحتل مكاناً في ميدان التجارة... وأن يتم هذا على الفور... لأن ذلك ضرورة لا غنى عنها... كان أصعب ما في الأمر هو الحصول على موافقة عجوزيّ... فمثل هذا الاقتراح لم يخطر لهما على بال... غير أن إدوارد كان يعلل اقتراحه بنحو مقنع... ما عدنا معتادين في كوخنا على الإصغاء إلى الرأي السليم... كانت تلك مفاجأة فريدة...

لم ينهج خالي سبيل الإلحاح والعناد... كان بالأحرى ميالاً إلى الإقناع والاسترضاء، ما كان يؤمن بالقوة... كان يعتقد بأنها لن تؤدي إلى نتيجة... عرض الأمر عليهما كلمة بعد كلمة...

"أما أنا، فلا يبدو لي بأن فرديناند يفعل ذلك عن عمد كي يكون مزعجاً بهذه الصورة... إنه لا يحمل نوايا سيئة، لقد راقبته دائماً...

ولكنه بالأحرى مرهَق بـالغ الاضـطراب... لا يفهـم جيـداً مـا يطلـب منه... لا بد أن يكون هذا بسبب "الغدد"... سيكون مـن الـضروري أن يخرج إلى الهواء الطلق وأن يقضي فيه وقتاً كافياً...".

"إن طبيبكم نصحه بذلك... أنا، سأرسـله إلى إنكلتـرا... سـأبحث لـه عن مدرسة داخلية مناسبة... عن مكان ليس مكلفاً جداً... ولا بعيـداً جـداً على الأخص... ما قولكمـا؟ وحينمـا يعـود سـيتكلم اللغـة الانكليزيـة... وسيكون من السهل توظيفـه. سـوف أعثـر لـه علـى مكـان مـا في تجـارة المفرق، في مكتبة... أو في متجر للقمصان... حيث لا يعرفه أحـد... أمـا غورلوج فينبغي نسيانه، ولن يعود أحد إلى الحديث عنه!...".

لم ينظر والداي بجدية إلى الاقتراح الذي استمعا إليه... قلبـاه علـى وجوهه ورازا حسناته وسيئاته... لقد بوغتا بـذلك... في البدايـة، كـان هناك كل المجازفات، ولاسيما النفقات... لم يبق مما تركتـه كـارولين كارث سوى ألف فرنك، وكـان مـن نـصيب الخـال إدوارد... وعلـى الفور قدم خالي المبلغ... وضـعه علـى الطاولـة... سـيعيدانه لـه مـتى تمكنا من ذلك... لم يشأ أن يتصرف بنوع من التكلف... لم يرغـب أن يحرر ورقة بالمبلغ... "فلتقررا! حسم الأمـر... سـأعود لأراكمـا غـداً. سأقوم من الآن، باستعلاماتي الخاصة...".

بلغ الانفعال مداه... لم يشأ والـدي أن يتراجـع قيـد أنملـة... كـان متشبثاً برأيه بإصرار، بأن كل هذا المـال سـيذهب أدراج الريـاح، وأن ذلك كان تبذيراً، فضلاً عن كونه مغامرة مجنونـة... وبـأنني إذا أفلـتّ أسبوعاً واحداً من مراقبته اليقظة فـسأغدو أسـوأ قطّـاع طـرق... كـان متيقناً من ذلك! لم يكن يريد أن يغيِّر رأيه... سأرتكب جريمة قتـل في إنكلترا بعين السرعة التي سأرتكبها في باريس! ذلك أمر لا مرد لـه!... مهيأ سلفاً!... يكفي أن يترك لي الحبل على الغارب شهراً واحـداً! آه!

آه! لكم نحن تواقون إلى المصائب! ستكتنفنا عمّا قريب! والمزيد منها! ستنهشم! ونغرق في الديون! سنأخذ سبيلنا إلى السجن!... شطط على طوال الخط... والنتائج؟... مريعة! لن يكون أناس هذه العائلة يقظين بما يكفي، أذكياء بما يكفي! هؤلاء التعساء! سيذوقون الأمرّين ذات يوم! والنساء حينئذ؟ سأنكحهن كلهن! هذا بسيط جداً!... "قولي لي على الفور بأنني أخرّف!"...

أصر على رأيه بأن مصيري هو سجن روكيت (سجن للمحكومين بالإعدام من اليافعين) ما كان بمقدور أحد أن يعاكسه. كان يرى بأن هذا هو السبيل الوحيد، الوسيلة الوحيدة، الشيء الوحيد لكبحي... وتجاربي السابقة إذن؟... أما عادت كافية؟ بيرلوب؟ غورلوج؟ وميناء الساعة؟... ألم أبرهن بما يكفي بأنني كنت آفة حقيقية؟ كارثة وشيكة؟... لا ريب في أنني سأوردهم مورد الهلاك... وهو يترقب ذلك منذ زمن طويل! ولقد صمم والدي على ذلك وما إن يصمم على شيء!... حتى يهاجمنا مثل قيصر... حين كان يواجه وحده جيوش الغاليين... كان يغلق مدخل المطبخ بكل حركاته، وكل صيحاته... كان يتصدى لكل شيء، ويزعزع كل شيء.

كان يندفع نحو الحنفية...يمتص الماء المتدفق من فتحتها، فيتبلل برشاش الماء، ويلمع جلده أيضاً... لم يكن يجفف وجهه ويديه، فلا يبرح الماء يقطر منه لفرط ما كان متعجلاً ملهوفاً لأن نحسب حساب ألف شرك! ونتدبركل جوانب الموضوع... البعيدة عن التصور! المخيفة! الغريبة عنا! كل ما ليس في الحسبان، كل ما يدق عن الوصف في مثل هذه الرحلة التي اقترحها خالي! هذه المجازفة الشيطانية! ذلكم هو الأمر!...

* * *

عاد الخال إدوارد بعد يومين إلى الباساج حاملاً أخباراً طيبة. لقد وجد كلية مناسبة! ما كان بإمكاننا أن نرغب بأفضل منها، ممتازة من كل النواحي... لاسيما من أجل نوعي أنا، وطبيعتي، وأوضاعي العصية على الإصلاح... مشيدة فوق ربوة... لا تكف نسائمها عن الهبوب. تحيط بها حديقة، ويجري من تحتها نهر... تقدم وجبات غذائية ممتازة... لقاء أجور متواضعة جداً... من دون مبالغ إضافية ولا مفاجآت!... وأخيراً وفوق كل شيء نظام صارم إلى أبعد حد... ورقابة مضمونة... لم تكن بعيدة جداً عن الشاطئ، في مدينة روشتسر بوجه التحديد... كانت إذن على بعد ساعة من فولكستون.

على الرغم من هذه المزايا العديدة، كان أبي ما يزال على موقفه الرافض الممانع. كان يماطل... ويماحك لسبب ودون سبب. لبث محتفظاً بشكوكه... أعاد قراءة الإعلان الصغير مئتي مرة. لم يكن راغباً في تغيير رأيه بأننا كنا ماضين إلى الكارثة!... ما كان لديه ظل من شك. في البداية، كان من الجنون اقتراض المال...وحتى من خالي إدوارد!... فسداد غورلوج سيكون عملاً يحتاج إلى قامة هرقل!... إضافة إلى أجرة البيت، والضرائب، وعاملة الرتق واللفق... لا شك أنهما سيهلكان من أجل توفير مثل هذه الدفعات الباهظة. كان بحاجة إلى من يقرصه من فخذه كي يصدق بأننا نرغب بشيء إضافي آخر، يتطلب المزيد من التوفير... وأكثر ما أدهشه هو أن أمي قد ضلت وغوت هي بدورها؟... كان ذلك هذراً خالصاً... ماذا؟ إذن؟ ألم يكن خليقاً أن تمعن التفكير؟ كيف تقولين؟ بأنني متصلب. هل تجدين موقفي إذن خارجاً عن المألوف؟ كلامي! ولكن هل سيكون دوري إذن؟ أن أنصاع للقول نعم! لكل الثرثرات الفارغة!... على هذا النحو؟... وعند أول هذر أسمعه؟ أن أقول هيا إذن! ولكنني واعٍ

مدرك للعواقب! إنني مسؤول! ألست أنا الأب؟... نعم أم خراء؟ وماذا يهم إدوارد في النهاية؟ سيكون بعيداً، فيما بعد! سيغسل يديه! أما أنا، فسأكون هنا دوماً!... مع قاطع طريق فوق ظهري! ولكن نعم! ولكن نعم! أنا أبالغ؟ أواه!... قوليها على الفور! قوليها، بأنني غيور! ولكن نعم! ولكن نعم! كلامي مبالغ فيه! هيا إذن!...

- ولكن لا، يا عزيزي! ولكن هيا!...

- اخرسي! آه! اخرسي، بلهاء! دعيني أتابع ما أشرحه لك! أما عاد بمقدوري أن أقول أي شيء هنا؟ أنت تتكلمين طيلة الوقت! كيف؟ هذا الخسيس! هذا القرصان الصغير! هذا الفاجر، لم يشعر بأدنى تأنيب للضمير من جراء تلك الفعلة الشنعاء! تلك النذالة القذرة الشائنة! ها هو ذا! يلهو براحة!... يتحدانا كلينا!... ولكن كلامي جائر في رأيك! يجعلك تقرعين الأرض بمؤخرتك!... ولكن هذا مخيف!... لمجرد كلمة واحدة من إدوارد! هذا المهرج الأحمق. ما عدت تتحدثين إلا عن السفر! عن الهبات السخية! ولكن نعم! وهيا إذن! نفقات جديدة! ترهات خالصة!... هذيانات جنونية!... لوثات لا نظير لها!... ولكن فكري قليلاً. يا صديقتي البائسة، بأننا لم نسدد بعد القرش الأول من غرامته!... هل تسمعيني؟...غرامته!... ولكن هذا لا يمكن تخيله!... ولكن هذا فظيع!... إلى أين نحن ذاهبون؟ إنني أهذي! هذا مقزز!... نحن نتخبط في العبث واللامعقول! ما عاد بمقدوي أن أحتمل! سيقتلني هذا عما قريب!...

انسحب الخال إدوارد منذ بداية الحفلة. كان قد رأى نذر العاصفة... فترك أوراقه وانسحب.

- سأمر غداً بعد الظهر!... ستكونون قد اتخذتم قراركم بلا ريب!...

تخلص خالي بأيسر السبل، ولكن لم يكن هناك ما يمكن عمله... فوالدي كان يغلي ويفور. كنا قد حركنا، بمشروع سفري هذا، كل مأساته... تعلق بقوة بالظروف... كان يراها محفوفة بالصعوبات والمخاطر... كان يروح ويجئ مثل وحش ضار. وكانت أمي تظلع خلفه... لا تفتأ تكرر الحديث عن المزايا المذكورة في الإعلان... الأجور المعتدلة جداً... والمراقبة الصارمة للغاية... والإطعام الكامل... والهواء النقي!... الكثير من الهواء!...

- أنت تعلم جيداً بأن إدوارد هو الرصانة عينها... أنت لا تقدره حق قدره... لكنك تدرك مع ذلك بأنه ليس طائشاً... ليس فتى مندفعاً جامحاً... إنه لا يتورط هكذا دون تبصر... وحينما يقول كلمته... فهو لا يقولها جزافاً أبداً... أنت تعلم ذلك، هيا! مع ذلك!... يا أوغست! هيا يا عزيزي!...

- لا أريد أن أكون مديناً لأحد بأيٍّ شيء!...

- ولكن إدوارد ليس أي أحد!...

- هذا سبب إضافي! اللعنة!

- إذن سنكتب له ورقة... كما لو أنه غريب عنا!...

- لست أبالي كثيراً بالأوراق! تباً.

- ولكنه لم يخدعنا في يوم من الأيام...

- إنه يزعجني، أخوك، هل تسمعينني!... أنت تسمعينني، تباً، إنه يزعجني كل الإزعاج! هذا واضح كفاية! إنه مغفل أيضاً أكثر من الآخرين!... وأنت تزعجينني أكثر أيضاً!... هل تسمعوني؟ كلكم!

كان يغدو بالغ الاحتقان وهو يلفظ هذه الأقوال بحيث كان رأسه ينتفخ ويطلق نفثات من البخار، فتنفجر كلماته في النهاية. وكانت هي حينئذ

متعلقة بثيابه، لاتفلته قيد بوصة. كانت عنيدة... وراحت تتشبث بالزوايا... وتجر ساقها ممسكة بكل الكراسي من حولها، متشبثة بالحواجز.

- أوغست! أوه! لكم آذيتني! كم أنت قاس! أوه! يالعرقوبي! انتهى أمره! لقد لويته!.

لبثت تعول طوال ساعة...

عاوده الغضب عندئذ. فجعل يحطم الكراسي بضربات من بوطه. اجتاحه جنون ساعر! كانت هي تتبعه، مع ذلك، أينما ذهب... لا يهم أين... وحين راح يصعد الدرج... كان ذلك يرهقها... أكثر فأكثر... تا! غا! دام! تا! غا! دام! كنت أسمع قرقعتها فوق الدرجات... لعله سيقتلها عند بئر الدرج... لعله سيدخل في جحر فأرة... كانت تلقي إلي بإشارات على الماشي... بأنه قد بدأ يتراخى... ويفقد مقاومته مع كل خطوة... ما عاد قادراً على مواصلة السير... كان يهرب منها كما لو أنَّها كومة أقذار... "دعيني! دعيني، هيا يا كليمانس!... أرجوك! دعيني، سحقاً لك! قذارة! جيفة! لن تكفّا كلاكما أبداً عن تعذيبي! أنني أتقيأ من كل هرائكم!. اللعنة! أنت تسمعيني إلى النهاية!...

ولكن أمي الطيبة لم تكن تبالي، كانت منهوكة كلياً... لم تكن تريد أن تفلته. كانت تشده إليها ممسكة بعنقه، معانقة شاربيه، غامرة جفونه بالقبل... وأحدثت قبلاتها فيه تشنجاً حقيقياً. كانت تبصق في أذنيه أيضاً مزيداً من الرجاء والتشجيع... حتى اختنقت أنفاسه في النهاية، وتبلل وجهه برذاذ لعابها ومعانقتها. ما عاد قادراً على الوقوف، فانهار على الدرجات. وفي تلك اللحظة انبرت تتحدث عن صحته، عن حالته المقلقة... "وأن الجميع قد لاحظوا... كم كان شاحباً..." وحينئذ بدأ يصغي إليها...

- سيتكالب عليك المرض، يا عزيزي البائس، حين تستسلم لمثل هذه الحالات... وإذا ما سقطت مريضاً! ما الذي سيحل بنا جميعاً؟ ما الذي ستؤول إليه حالنا؟... من الأفضل، أوكد لك، أن يبتعد... إنه يسبب لك الشقاء ببقائه هنا!... لقد لاحظ إدوارد ذلك بوضوح... قاله لي قبل أن يخرج...

- ما الذي قاله لك إذن، إدوارد؟.

- لن تكون أحوال زوجك على ما يرام! إذا استمر في هياجه بهذا النحو... إنه يغدو كل يوم أكثر هزالاً... جميع من في الباساج لاحظوا ذلك، كلهم يتحدثون به...

- هل قال لك هذا بوجه الضبط؟.

- نعم يا عزيزي، نعم، أوكد لك!... لم يكن راغباً أن أكرره على مسامعك... أنت ترى كم هو رقيق الشعور... أنت ترى، أؤكد لك بأنك مرهق... إذن؟ هل تريد فعلاً، قل؟...

- ماذا؟...

- ولكن أن يذهب الولد!... أن يتركنا نتنفس قليلاً!... أن نبقى نحن الاثنين كلانا... ألا تريد؟...

- آه! هذا لا! آه! لا! لا أيضاً! تباً! لا! لا أيضاً.

- ولكن هيا، أوغست! فكر! إذا ما متُّ من الحزن الذي تسببه لنفسك، فما الذي سيفيدنا ذلك!...

- أموت، أنا؟ آه! مهلاً! الموت؟ أوه! ولكني لا أطلب سوى ذلك! أن أموت! وبسرعة! على رسلك!. إذن فأنت تتحدثين عن شيء لا أبالي به! ولكن هذا هو ما أشتهيه، الموت!... آه! قسماً بالرب.

لقد تملص، تفادى الضربة، أطاح بأمي كليمانس... هو ذا يقف من جديد ويبدأ بالزعيق... لم يكن قد فكر بذلك... بالموت! تباً... بموته!... ها هو ذا يرتعد بقوة... يهتز جسمه بكامله، رتّب هندامه قليلاً... واندفع نحو المغسلة! يريد أن يشرب جرعة، تا را! فلاك!!! انزلقت قدمه! واصطدم رأسه بصوان المائدة!... سينقلب لا محالة على ظهره... غاص في الصوان... قفز بعيداً عن خزانة الصحون...، كان يصرخ بملء صوته... لقد أتلف حنجرته... يريد أن يتمسك بشيء... وانهار كل بازارنا فوق رؤوسنا.. جميع الأواني، والأدوات، والشمعدان... مثل شلال... مثل جرف هار... ما عدنا نرى بعضنا بعضاً... كانت أمي تصرخ بين الأنقاض... "بابا! بابا! أين أنت؟... أجبني! بابا!..." كان متمدداً بطوله، منقلباً على قفاه... رأيت حذاءه، بارزاً فوق بلاطات المطبخ الحمراء!...

- بابا! أجبني، تكلم؟ أجب! تكلم يا عزيزي!...

- تباً، لن أشعر بالهدوء في يوم من الأيام!... لا أطلب منكم شيئاً، تفوه!...

* * *

كلّ والدي أخيراً، وانتهى إلى أن يقول نعم... وكان لأمي ما أرادت... ما عاد في طوقه أن يصارع. صار يقول بأن الأمر لديه سواء. بدأ كذلك يتحدث عن الانتحار... عاد إلى مكتبه، لم يعد يفكر إلا بنفسه، لقد غادر اللعبة، كان يخرج كي لا يلتقي بي. يتركني وحدي مع أمي. كانت هي الآن من استأنف الاعتراضات... والطلبات المضجرة... كانت تأتيها أفكار على حين فجأة، فترى من الواجب أن تعرضها علي، أن تخرجها إلى النور كي أستفيد منها، كي أتزقمها قبل السفر... فمادام أبي قد نفّس، وخارت قواه، فإن هذا لم يكن سبباً يحملني على الاعتقاد بأن كل شيء مباح!...

"اصغ إلي قليلاً يا فرديناند!... لقد حان الوقت، في الحقيقة، كي أتحدث معك: لا أريد أن أزعجك، ولا أن أوبخك، أو أهددك بهذا العقاب أو ذاك. فليس هذا هو دوري! ليس هذا نسيجي! ولكن أخيراً هناك أشياء تلاحظها أيّ أم... غالباً ما أبدو شاردة الذهن. ولكني أدرك الأمور بوضوح رغم كل شيء!... لا أقول شيئاً، ولكنني أفكر أكثر مما أقول!...نحن مقدمون على مجازفة خطيرة... بالضرورة! أنت تتخيل! إرسالك إلى إنكلترا!... والدك لا يخطئ في أحكامه... إنه رجل يمعن التفكير... آه! إنه لم يكن يوماً غبياً!... بالنسبة إلى أناس صغار مثلنا، بموارد كمواردنا، فإن هذا جنون حقيقي!... إرسالك إلى الخارج؟... ولكننا غارقون في الديون!... وتلك الحلية التي ينبغي تسديد ثمنها، ثم الألف فرنك لخالك! لقد قال والدك ذلك وكرره هذا الصباح... بأن هذا ضلال ما بعده ضلال! وهذا صحيح بالتأكيد!... لم أشأ أن أشاركه الرأي! ولكن والدك يرى الأمور بجلاء!... عيونه ليست في جيبه! إنني أسأل نفسي، ترى، أين سنعثر، من أين سنجمع مبلغاً كهذا! ألف فرنك!... عبثاً سنقلب السماء والأرض!... فهو لا يوجد تحت قائمة حصان!... والدك، أنت تراه بعينك، نفدت جميع وسائله!... أما بالنسبة إلي، فأنا متعبة، منهكة، لا أقول شيئاً أمامه، ولكنني موشكة على الانهيار... أنت ترى ساقي؟ إنها تتورم الآن كل مساء. ما عادت حياتنا تطاق لشدة ما نقاسي! نحن لا نستحق هذا!... أنت تسمعني، أليس كذلك؟ يا صغيري؟ ليس هذا لوماً أوجهه إليك... ولكن من أجل أن تحسب حساب الأمور... وأن لا تبني أوهاماً، وتدرك بعمق ما نكابده من شقاء في هذا الوجود... ما دمت ستسافر لعدة شهور. لقد عقدت لنا الأمور، أنت تعلم، يا فرديناند! يمكنني أن أقول لك ذلك، أن

أعترف به!... ولكن قلبي طافح بالغفران تجاهك...فأنا أمك رغم كل شيء!... يشق علي أن أحكم عليك... ولكن الغرباء... المعلمين، أولئك الآخرون الذين ستعمل عندهم كل يوم ليس لديهم مثل هذا الضعف... خذ مثلاً، غورلوج، وليس قبل البارحة بوقت طويل! ما أزال أسمعه... لم أكرر ما قاله على سمع والدك!... كان هنا طوال ساعة... قال لي وهو يتأهب للذهاب: "سيدتي، أنا أعرف مع من أتحدث... ولدك، في رأيي، الأمر بسيط جداً... لقد أفسدته أنت مثل كثير من الأمهات الأخريات! إنه متعفن! هذا كل شيء. تعتقد الأم بأنها تفعل الصواب، وترهق نفسها كل الإرهاق! ولكنها تسبب التعاسة لأبنائها!" أنا أكرر لك ما قاله كلمة كلمة... "من دون أن تقصدي قطعاً، أنت لن تصنعي سوى متعطش صغير إلى الملذات، كسول! وأناني!..." لبثت مذهولة تماماً! هذا ما يمكنني أن أعترف به لك! لم أقل له "أف"، ولم أنزعج! ليس علي في الحقيقة أن أقدم له أعذاراً!... ولكن، أنت تعلم، كنت أفكر في ذلك ليس أقل منه!... لقد رأى بعينيه أيضاً... معنا نحن يا فرديناند، الأمر مختلف... ولاسيما معي أنا!... إذا لم تكن أكثر حنواً، وأكثر تعقلاً، وأكثر إقبالاً على العمل، وعلى الأخص، أكثر عرفاناً بالجميل... إذا لم تدرك الوضع بنحو أفضل... إذا لم تحاول أن تخفف من آلامنا... في الوجود... في حياتنا القاسية... فإن هناك سبباً واحداً يا فرديناند، وأنا سأقوله لك حالاً، أنا أمك... وأنا أدركه بوصفي امرأة... هو أنك في الحقيقة بلا قلب... ذلك ما هو يربض في عمق الأشياء كلها... وأنا أتساءل غالباً، ممن أمكنك أن تأخذ هذا، أتساءل، ترى، من أين جاءك؟ من المؤكد أنه ليس من أبيك، ولا مني أنا... فأبوك لديه قلب في الواقع، لديه بالأحرى الكثير من القلب، الرجل المسكين!...

وأنا، أعتقد أنك رأيت بوضوح كيف كنت مع أمي؟... ما كـان القلـب ينقصني في يوم من الأيام... لقد كنا ضعفاء معـك... كنـا غـارقين في الهموم والانشغالات، لم نشأ أن نرى بوضوح... اعتقـدنا بـأن الأمـور ستنتظم لا محالة... وانتهيت أخيراً إلى أن تفقد حتى الاستقامة!... أيـة فظاعة شنيعة!... كنا مخطئين في ذلك قليلاً!... هذا صحيح!... انظـر إلى أين قادنـا ذلـك: "إنـه سيـسبب لـك التعاسـة!..." آه! لم يقـل لي غورلوج ذلك بخشونة! وقبل ذلك كـان لافيلـونج قـد حـذرني!... لم يكن وحده قد لاحظ ذلك، أنـت تعلـم يـا فردينانـد!... كـل أولئـك الذين عاشوا معك انتهوا إلى أن يلاحظـوا... إيـه حـسناً! أنـا لا أؤكـد على ذلك، لا أريد أن أجعلك أسوأ مما أنت عليه... فما دمت سـتجد نفسك هنـاك في وسـط مختلـف كـل الاخـتلاف... فحـاول أن تنـسى نمطك الـسيئ... أن تبتعـد عـن عـشرة الـسوء!... لا تخـالط الزعـران الصغار الداعرين!... لا تقلدهم علـى الأخـص!... فكّـر بنـا!... فكـر بوالديك... حاول أن تصلح نفسك هناك... تسلّ كما تـشاء في أوقـات الراحة، ولكن إياك واللهو خلال العمل... حاول أن تتعلم سريعاً تلك اللغة. ثم تعوّد... تعوّد العادات الحسنة... حاول أن تهذب شخـصيتك... إبذل كل ما في وسعك... الإنكليز يبدون دوماً بالغي اللياقة!... بـالغي النظافة! أنيقي الملبس!... لا أدري ما أقول لك يا صغيري كي يـصبح سلوكك أفضل قليلاً... هذه هي محاولتي الأخـيرة... لقـد شـرح لـك والدك كل شيء... الحياة في سنك محفوفـة بالمخـاطر... أنـت عـازم ولاشك على أن تجعل من نفسك رجلاً شريفاً!... لا أستطيع أن أقـول لك أكثر مما قلت..." بخصوص نمطي، كان ذلك صحيحاً جداً، لقـد سمعت كل شيء تقريباً... ما عاد يعنيني أي شيء... ما كنت أريده هـو الرحيل، وبأسرع وقت ممكن، وأن لا أسمع بعد أحداً يكلمني. لـيس

المهم أن تعرف إن كنت على خطأ أو على صواب، فليس لهذا كبير قيمة في الحقيقة... ما تحتاجه هو أن تثبط همة الناس الذين ينشغلون بك، وما تبقى ليس سوى ترهات باطلة".

***

وافانا الحزن مع ذلك لحظة الرحيل، على نحو أعمق مما كنت أعتقد. كان من الصعب أن نحصّن أنفسنا إزاءه، فما إن وجدنا أنفسنا، ثلاثتنا على رصيف محطة الشمال، حتى داهمنا القلق... كنا نلفت الأنظار بملابسنا، حاولنا أن نظل معاً... وحينما اختلطنا بحشد المسافرين غدونا خجلين مرتبكين... حتى والدي الذي كان صراخه يلعلع في الباساج فقد هنا كل شجاعته... كان يتقلص وينكمش. في المنزل فقط كان يفجر الصواعق والرعود. أما في الخارج فكان يحمر خجلاً حينما تقع عليه الأنظار، وينظر خلسة إلى ما يحيط به.

كانت تلك شجاعة فريدة، بأن يرسلوني بعيداً جداً... وحيداً... على هذا النحو... شعرنا بالخوف فجأة، أمي التي كانت أكثرنا بطولة، بحثت عن أشخاص ذاهبين إلى حيث كنت أذهب... ما من أحد يعرف روشستر. صعدت لأحجز مكاني. كانا ما يزالان يوصيانني بكل الأمور الضرورية... التروي إلى أقصى حد... عدم النزول قبل توقف القطار... عدم اجتياز السكة أبداً... النظر في كل الاتجاهات... عدم الاقتراب من بوابة القاطرة... التحوط من الريح المتسربة من الشقوق... حماية عيني من أي قذى أو غبار... الابتعاد عن شبكة الأمتعة... لأنها تؤذي عند الصدمات... كنت أحمل حقيبة محشوة، إضافة إلى بطانية. ونوعاً من بساط كبير، سجادة شرقية ذات مربعات متعددة الألوان، وغطاء سفر أخضر وأزرق... ورثناه من الجدة كارولين، وما استطاع أحد قط أن يبيعه. كنت أحمله معي إلى بلدي الجديد. سيكون ممتازاً بالتأكيد للحماية من قسوة الطقس! ذلك ما كنا نفكر به...

ضمن هذه الجلبة لا بد لي من أن أذكر أيضاً كل ما أرغمت على تعلمه، وكل ما أعيد على مسامعي منذ ثمانية أيام... "نظف أسنانك بالفرشاة كل صباح... اغسل قدميك كل سبت، اعمل مغاطس لمؤخرتك... لديك اثنا عشر زوجاً من الجوارب... وثلاثة قمصان للنوم... امسح مؤخرتك جيداً في المرحاض... كل وامضغ طعامك على الأخص بتمهل... وإلا فستؤذي معدتك... خذ شربتك المضادة للديدان... تخلص من عادة جلد قضيبك..."

كان هناك تعليمات كثيرة أخرى أيضاً، لرفع روحي المعنوية، ولإعادة اعتباري. تليت علي قبل أن أغادر بلحظات. كنت أحمل كل ذلك إلى إنكلترا، قواعد صالحة... ممتازة، إضافة إلى العار المشين لغرائزي الدنيئة. لن ينقصني هناك أي شيء. كان القسط متفقاً عليه. شهران مدفوعان مقدماً. قطعت وعداً بأن أكون نموذجياً، مطيعاً، شجاعاً، متيقظاً، متفانياً، معترفاً بالجميل، مدققاً في الأمور، وأن لا أعود إلى الكذب قط، ولا إلى السرقة على الأخص، ولا أضع أصابعي في أنفي، وأن أعود إلى بلدي متغيراً على نحو جذري، نموذجاً حقيقياً، وأن أسمن، وأن أعرف اللغة الإنكليزية، دون أن أنسى الفرنسية، وأن أكتب رسائل كل أحد على الأقل. وعدت بأن أفعل كل ما طلب مني أن أفعله. بحسبي أن يخلوا سبيلي كي أسافر على الفور... وأن لا يفتعلوا من جديد تراجيديا أخرى. بعد أن تكلمنا كثيراً، استنفدنا كل ما في جعبتنا من الثرثرات... وحين حانت لحظة الانطلاق، كانت تساورني أفكار قبيحة، أحاسيس كئيبة مشؤومة للغاية... كل ذلك السديم المشوش الكريه للأبخرة والحشود والصافرات. كان ذلك مخبّلاً... كنت أرى هناك على البعد قضبان السكك الحديدية وهي تغور في النفق، وأنا أيضاً كنت سأختفي

وشيكاً... كنت أستشعر هواجس بلهاء، أتساءل بيني وبين نفسي إن لم يكن الإنكليز أحياناً أشد قسوة، وأكثر دناءة، وأسوأ بكثير من هؤلاء الذين عندنا.

كنت أنظر إلى والديّ، وهما يرتعشان، ويهتز رأساهما... ما عادا يحبسان دموعهما السخية... انخرطت فجأة بالنحيب. كنت أشعر أيضاً بخجل شديد، انفجرت بالبكاء مثل فتاة، وجدت نفسي كريهاً مقززاً. أمسكتني امي من فوق خصري... كانت تلك لحظة إغلاق أبواب القطارات ونودي على الركاب "إلى العربات"... ضمتني إليها بقوة، مثل أوقيانوس هائل عنيف، بحيث ارتج جسمي وترنح... قوة حصان مشفوعة بحنان كان يصعد في تلك اللحظات من أعماق هيكلها المشوه... كانت لحظة الفراق قد بثّت فيها قوة كبيرة، وحولتها إلى إعصار رهيب، كما لو أن روحها كانت ستخرج من ظهرها ومن عينيها ومن بطنها، ومن صدرها، وستنشب في في كل مكان، كما لو أنها كانت تضيء المحطة... لم تكن تملك حيالها شيئاً... كان من الصعب مشاهدة ذلك دون نتيجته المتوقعة...

- هدئي نفسك. هيا، يا ماما!... هناك أشخاص يضحكون...

كنت أتوسل إليها أن تتمالك نفسها، أناشدها بين قبلاتها وصفرات القطار، والضجيج الهادر، ولكن ذلك كان أقوى منها... خلصت نفسي من بين أحضانها، قفزت إلى مرقاة العربة، لم أكن أرغب في أن تعيد الكرة من جديد... لم أجرؤ على الاعتراف لها، غير أنني مع ذلك، كنت ما أزال أشعر في الواقع بشيء من الفضول... كنت أريد أن أعرف إلى أي مدى يمكنها أن تمضي في ذلك البوح بعواطفها؟... في عمق أي الأشياء الكريهة المنفرة كانت ستلتمس ذلك؟...

كان والدي، على الأقل، عادياً، لم يكن أكثر من مريّل قذر. لم يعد ثمة في رأسه سوى خليط مشوش من ظلال الأشياء، ومن الصرخات المدوية أيضاً... خردة كاملة من البلاهات، أما هي، فلم تكن الشيء نفسه... كانت تحتفظ بكامل بديهتها، وتعزف موسيقاها... حتى في أحلك الظروف... وإذا ما لاطفها أحد أقل ملاطفة فإنها تفيض بالانفعالات، كانت أشبه بشيء مخلّع، أشبه ببيانو الشقاء الذي ما عاد يعزف سوى ألحان عاصفة وحشية... حتى بعد صعودي إلى القاطرة كنت أخشى أن تدبّق بي... كنت أروح وأغدو، متظاهراً بالبحث عن أشياء... تسلقت مقعدي... ورحت أبحث عن غطائي... كنت أدوس فوقه... كنت سعيداً حين تحرك القطار... انطلقنا وسط هزيم من الرعود... كنا قد تجاوزنا أزنيير حينما هدأ روعي قليلاً مثل كل الآخرين... ولكنني لم أكن بعد مطمئناً...

* * *

لدى وصولنا إلى فولكستون، استدعاني قائد القطار، كان هو من يتولى الإشراف علي خلال الرحلة، ويخطرني بلحظة النزول. كان يضع حمالة حمراء فوق كتفه، تتدلى منها حقيبة صغيرة فوق ظهره، ما كان من الممكن أن يغيب لحظة عن نظري. وفي شاتام، وجه إلي إشارات. فأمسكت حقيبتي. كان القطار متأخراً ساعتين عن موعده، كان العاملون في مدرستي الداخلية "مانويل كوليج" قد ذهبوا إلى بيوتهم، ما عادوا ينتظروني أكثر من ذلك.كان ذلك يلائمني بمعنى من المعاني. كنت الوحيد الذي نزل من القطار، أما الآخرون فقد تابعوا طريقهم إلى لندن.

هبط علي الليل وأنا في مكاني، لم يكن المكان مضاء جيداً، كان عبارة عن محطة منصوبة فوق مكان مرتفع، كأنها فوق أعمدة...كانت

متطاولة، متداخلة، مبنية كلها من الخشب، سابحة في غيمة من الأبخرة، وسط برقشات من الإعلانات الملونة. وما إن يمشي المرء فوق رصيفها حتى تتردد في أسماعه أصداء اهتزازات ألف من الأكواخ الخشبية.

لم أكن راغباً في أن يساعدني أحد، كفاني ما لقيت من الناس. سرت عبر رواق مسقوف، ومن ثم فوق عبّارة صغيرة... لم يسألني أحد سؤالاً. لم أر قط رجلي الطيب صاحب المدرسة. التقيت برجل آخر يرتدي نوعاً من بزة نظامية، زرقاء وحمراء ضايقني مظهره. عدت إلى واجهة المحطة، عبر ساحة تغمرها الظلمة. كانت المدينة تبدأ من هنا مباشرة، تنحدر شوارعها الصغيرة من مصباح إلى مصباح. كان الجو دبقاً يلتصق بالأجساد، ويتراقص حول المصابيح، فيثير إحساساً بالضياع. ومن بعيد، من بعيد جداً، كانت تصل هبات من الموسيقا... تحملها الريح، مقطوعات قصيرة، تبدو كأنما ترافق رقصاً وسط الليل البهيم.

وصلت إلى المدينة يوم السبت، وهو اليوم الذي يخرج فيه السكان إلى الشوارع. يرغون ويزبدون على امتداد المخازن. كان الترام أشبه بزرافة سمينة. يجتاز بيوتاً قميئة أشبه بالأكواخ، يسحق الجموع بهديره، ويجعل الواجهات الزجاجية تميد وتتداعى... كان الحشد كثيفاً، منفلتاً، مائجاً، تفوح منه روائح الطين والتبغ وفحم الأنتراسيت، والخبز المحمص أيضاً، وتغشى عيونه صفرة خفيفة. كان يغدو أشد التصاقاً، وتكاثفاً، وأدعى إلى الاختناق كلما كنت أنحدر أكثر وسط الشوارع... كان يتشكل من جديد خلف الترام، على غرار أسراب السمك خلف هويس النهر.

وسط الدوامات المندفعة، كان الناس أشد لصوقاً، وأكثر التحاماً من الناس عندنا. التصقت أنا أيضاً بالحشود مع حقيبتي... منتقلاً من

كرش إلى كرش. كنت أرنو باشتهاء إلى الأطعمة المعروضة أمامي. جبال صغيرة من الجامبون... سيول من اللحوم المقددة... كنت أشعر بجوع ضارٍ، ولكنني لم أجرؤ على الدخول إلى مطعم... كان في جيبي جنيه واحد، وسنتات صغيرة في الجيب الآخر.

بعد أن تسكعت طويلاً، تتقاذفني الأجساد، أفضيت إلى رصيف النهر... كان الضباب منعقداً بكثافة. اعتدت على الترنح يميناً وشمالاً... ينبغي أن أتوقى السقوط في النهر. على مد البصر، كانت صفوف الأطعمة مرصوفة بانتظام كما في معرض. موضوعة في أسفاط صغيرة وفوق منصات عريضة أيضاً. مجرات من المصابيح ومن الغوغاء. ثمة باعة متجولون يصطادون الزبائن وسط الحشد... يصيحون بلغتهم حتى تبح حناجرهم. وفوق أرض الساحة نصبت خيام بأعداد كبيرة تحتوي في داخلها على ما لذ وطاب... من سمك الميرلان... والبطاطا المقلية... والمنادولينات، والمنازعات، والموازين، وبالع الشفرات، وميدان للدراجات، والطيور الصغيرة... وطائر الكناري الذي ينقر الحظ داخل العلبة. كان هناك عالم مدهش... يلبي سائر الأذواق... النوغا... الكشمش يقطر عصيره في البراميل... هبطت سحابة كثيفة من السماء، سقطت فوق العيد... فحجبت كل شيء لحظة من الزمن... وتلبّد الفضاء... كنت ما أزال أسمع الأصوات، ولكني لم أعد أرى شيئاً، لا الرجل الطيب، ولا غاز الأسيتيلين... آه!... هي ذي الزوبعة قادمة... عثرت أخيراً على الرجل الطيب... جنتلمان حقيقي... بمعطف طويل... يريك القمر بنسين إثنين... وزحل بثلاث بنسات... ذلكم مكتوب على لوحة الإعلان. هي ذي الأبخرة تعود، مندفعة فوق الحشد... متمددة بلا حدود... الجميع يشعرون بالاختناق... لم يعد ثمة وسيلة للتقدم...

ستضل الجموع طريقها. ها هي ذي تتجمع أمام الواجهات، حيث البريق في الداخل يبهر الأبصار حقاً... تموج أصوات الموسيقا في كل مكان، فيخيل للمرء أنه في الداخل... ولكنه نوع من السراب... كنا نعوم وسط بحر من الضجيج، ينبعث صوت البانجو... يعزف عليه زنجي جالس فوق بساط بالقرب مني... يتباكى فوق الرصيف... يقلد هدير قاطرة... سيسحق الجميع بصوت آلته. كانوا يتسلون، دون أن يرى أحدهم الآخر.

ثم رحلت الأبخرة وتلاشت، ما عدت أرى ضرورة للسرعة على الإطلاق، ما كنت متعجلاً للذهاب إلى "المانويل"... فهذه المطارح فوق الرصيف تعجبني... هذا النوع من المعرض، ومن الناس الضائعين... كم هي لطيفة تلك اللغة رغم أني لم أكن أفهم منها شيئاً... إنها أشبه بضباب يجول بين الأفكار... لغة مدهشة. ليس هناك حقاً لغة أفضل منها... ما دامت الكلمات لا تفارق الحلم... جلست بغبطة فوق غطائي، مستنداً إلى قاعدة نصب... لم أكن أشكو من أي شيء... أسندت ظهري إلى النصب. سأرى المشهد بكامله يمر أمامي... ظهر من بعيد موكب من البحارة يحملون مشاعل مضاءة فوق عصي طويلة... أشبه بعناقيد نارية، يا له من مشهد بهيج... كان البحارة ثملين، يغمرهم المرح!... كانوا مندفعين، يتشقلبون، يصخبون، يموؤون مثل قطط... كانوا يؤلبون الدهماء. توقفوا الآن، وانخرطوا في رقصة فاراندول تحت ضوء مصباح عاكس. كانوا ينطوون ثم ينبسطون... دفعوا زنجياً بعنف... فتلاسن معهم... وتحداهم... وانطلقت شتائم!... فثارت ثائرتهم فجأة، وعزموا على أن يأخذوا الزنجي إلى نفق الترام! أثار هذا هرجاً ومرجاً... تبعه شجار عنيف... وانقدحت شرارة غضب مسعور، وعج عجيج هائل...

ودوت الـضربات مثـل طبـل، هـان! هيـاه! مروعـة... ثم سمعـت صفرات... ولاح من بعيد سرب آخر من الـضراة... سـحابة جـشاء... مفرزة كاملـة مـن البـوليس، ببـدلاتهم الـزرق، وقبعـاتهم المقرنـة... تجمعوا هم أيضاً، وصلوا خبباً من الشوارع، من الظـلال، ومـن كـل مكان، اندفعوا كالسيل... جميع البحارة الذين كانوا يتبخترون، على امتداد الأكواخ الخشبية، افرنقعوا على جناح السرعة... غاصـوا وسـط الحـشد المخـتلط... فانـداح الحـشد حينئـذ!... وتـرنح، ورقـص السربندة!... كان يضم جميع الألـوان! إنهـا معركـة بـين عيّنـات مـن الألوان!... بيض!... وخـضر مـن هنـا!... وبنفـسجيون مـن هنـاك... نشب الصدام بين البحارة والبوليس! واختلط الحابل بالنابل... هربـت النساء إلى الزوايـا والأركـان، وتبخـر الأسـيتيلين، وذابـت المـشاعل وسط الضباب. كن يطلقن صيحات رهيبة، ثاقبة، وقـد شـوه الخـوف وجوههن... هي ذي نجدة من الدرك، بلـون الكاكـاو. دخلـوا بمهابـة إلى حلبة الرقص... ثم عادوا مسلوخين. معركة بين جوارح... تطايرت العـصي، والريـشات، منطلقـة كالـصواريخ... ثم ظهـرت عربـة ذات مقاعد تجرها أربعـة خيـول، مندفعـة كالإعـصار، قادمـة مـن شـارع جانبي... وتوقفت فجأة وسط المعمعة... نزل منها مجموعة أخرى من رجال الدرك الأشداء، وارتموا فوق الكومة، وأمسكوا بالأشدّ وحـشية والأعلى زعيقاً بين المشاغبين، ودفعوهم إلى داخـل العربـة، فـانقلبوا على أقفيتهم، وتكدسوا أكداساً فوق بعضهم... تفرق الحشد أشتاتاً... وتبددت رياح الفتنة وسط الليل.... ثم انطلقت العربة خببـاً... وانكـبح العنف الجامح!... اندفق الجمهـور داخـل المطـاعم الـصغيرة. التفـوا حول الطاولات والمشارب... شربوا المزيد مـن الخمـور، علـى وقـع قـرع الكـؤوس والأنخـاب... وانقـضوا علـى البطاطـا المقليـة...

والمقانق... والمحار... ثم قرعوا كؤوسهم من جديد... وقطعت حبال السجق والمقانق. لم يتوقف باب البار عن الانفتاح والانغلاق، ترنح أحد السكارى، وجنح نحو السيل المتدفق نحو البار... ثمة مواكب ما تزال تدور حول الساحة تسير ببطء مجرجرة أقدامها... سرب من النساء، أشبه بدجاجات قارقات... كنّ يتبعن البحارة الذين يدفعونهن أخيراً نحو أبواب صغيرة جانبية... كانوا يتبادلون الحديث... يتجشؤون. وقد امتصهم البار... كانوا ما يزالون راغبين بالشجار... ولكنهم أصبحوا مستنفدين تماماً...

كنت هناك بينهم مع حقيبتي... لم يسألني أحد منهم أي سؤال. تناولت في البداية كوزاً كبيراً من الشراب، تغمره رغوة كثيفة سوداء... طعمه مر... إنه بيرة... أعادوا إلي قطعتين نقديتين، عليهما صورة الملكة التي ماتت منذ وقت قريب، وجهها مجعد مثل جلد مؤخرة... الملكة فكتوريا الجميلة... لم أستطع أن أنهي شرابهم، فقد أثار تقززي، شعرت بالخجل، وعدت إلى الموكب... مررنا أمام العربات الصغيرة التي تحمل مصابيح داخل عريشها... سمعت أصوات أوركسترا... بحثت عن مصدر الصوت، واتجهت نحوه. كانت قريبة من رصيف الميناء... ارتفعت أصوات الموسيقا، وهدرت بقوة. ثم انطلقت الجوقة في غناء ناشز كلياً. كان منظر أعضاء الجوقة مذهلاً وهم يلوون أفواههم، ثم يفتحونها على اتساعها، مثل بوق ذي قرنين... كانوا يبذلون جهداً شاقاً، يزهقون أرواحهم وسط التشنجات العنيفة... كانت تلك صلاة للرب، مزامير... تقدمت أمام الجوقة امرأة ضخمة ليس لها سوى عين واحدة، تجحظ كلما بعقت! كانت تتململ كلما سقطت جديلتها المعقوصة بتراخ فوق أنفها أو فوق قبعتها ذات الشريط. لم

تكن قد أطلقت ما يكفي من الزعيق، فانتزعت البوق من زوجها، ونفخت داخله، بدورها من أعماق رئتيها... ولكنها عزفت لحن بولكا (موسيقا بوهيمية بولونية)، لحناً راقصاً حقيقياً، أزال جو الكآبة المخيمٍ. شرع الحضور في الرقص، واندفعوا بقوة، يهزون أجسادهم... غضب العازف الآخر، الذي كان يراقبها. لا بد أنه أخوها، فهو يشبهها. كان ملتحياً، يضع نظارة على عينيه، وقبعة جميلة فوق رأسه. كان مظهره يشي بالسخط. تقدم فجأة وهو ينتفض، وانتزع البوق من أخته، وارتقى مقعداً صغيراً. بصق أولاً بصقة كبيرة، وطفق يتكلم ويشير بيديه، ويضرب جذعه بيده، وقد غلبه الوجد. فهمت بأن ذلك لا بد أن يكون موعظة... كان يجعل الكلمات تئن. يعذبها بطريقة يصعب تحملها. وانفجر الرجال القريبون منه بالضحك. فتحداهم، وشتمهم. ما كان ثمة وسيلة لإيقافه، ولا حتى الصفارات المنطلقة من السفن التي تغالب التيار. أما أنا فقد شعرت بالإنهاك، فأغلقت عينيّ. جلست فوق غطائي. ثم تغطيت بطرفه. لم يرني أحد، كنت محتمياً بالعنابر. كان الخطيب ما يزال يزعق "بصلوات الخلاص"، ويرهق رئتيه، وخبلني صوته تماماً. ثم برد الجو، ولكنني حميت نفسي من لسع الصقيع، وشعرت بشيء من الدفء... كانت سحابة الأبخرة بيضاء. ثم أصبحت زرقاء... ثم خيم الليل شيئاً فشيئاً، وغشيني النعاس. من إحدى الجهات كانت تتناهى إلي أصوات موسيقا، موسيقا راقصة... بربرية... ومن الجهة الأخرى، من جهة النهر كنت أسمع عزيف الريح... وهدير الأمواج.

* * *

استيقظت منتفضاً على صوت حشرجة رهيبة لمولد بخاري. كان ثمة مركب يساحل الشاطئ، مغالباً التيار. كانت "صلوات الخلاص" قد رحلت. وكان الزنوج يتقافزون فوق الرصيف... بستراتهم الطويلة، ويحجلون فوق الطريق المعبد. كانت ذيول ستراتهم الخبازية اللون تعوم في الوحل والاسيتيلين. لم يكونوا يكفّون عن قرع طبولهم!... وشقت الفضاء فجأة صفارة هائلة مدوية تردد صداها في كل الأنحاء... فتجمد الحشد في مكانه، ثم اقترب من الضفة ليرى مناورة الرسو... وقفت أنا على أحد الأدراج، على مسافة قريبة من الأمواج.

كان ثمة مجموعة من الأولاد فوق زوارق صغيرة يستخفهم الحبور، وهم يشقون الدوامات بحثاً عن حبال القنب. كان زورق الإنقاذ الضخم وسط اللجة يدور مثل خذروف... محملاً بأكداس من الورق... كانت سفينة الشحن الهندية بعينيها الخضراء والحمراء تقاوم التيار، تلازم ضفة النهر وسط الدجنة، دون رغبة بالاقتراب... وأخيراً اصطدمت، مع ذلك بحزمة هائلة من الأخشاب، فأسقطتها فوق الرصيف، محدثة قرقعة أشبه بكومة من العظام. كانت مقدمتها تشق عباب التيار، مصدرة خواراً داخل الماء... محتكة بعوامتها... على غرار وحش مربوط بقيد. أطلقت صفرة حادة... كانت متعبة، متروكة هناك وسط الدوامات الثقيلة اللامعة، عدنا صوب الميدان، حيث وقف عازفو الأورغات وباعة جبال الأطعمة... لم يكن العيد قد انتهى... كنت أشعر بخدر لذيذ يسري في أوصالي... في البداية كان كل ما حاولي يغدو سحرياً... وجدت نفسي في عالم آخر... عالم غريب!... على غرار صورة ضبابية... وبدا لي، دفعة واحدة، كما لو أنني لججت في البعد، ولن يعود بمكنة أحد أن يدركني قط... وأنني كنت قد غدوت ذكرى... شخصاً آخر متغير الملامح. بحيث ما عدت

أخشى البتة أن يعثر علي أحد في يوم الأيام... دفعت أجرة خيول خشبية، أخرجت بنساتي الصغيرة، درت ثلاث دورات مع فتيات ماجنات، وعدوانيات... شهيات إلى أبعد حد، رؤوسهن أشبه برؤوس الدمى. عيونهن مثل لوز أزرق... كنت أشعر بالثمل، منذهلاً عن نفسي، أردت أن أحوم أيضاً فوق الخيول الخشبية... كنت خائفاً أن أظهر نقودي أمام الملأ... توغلت قليلاً في الظلمة... فتقت بطانة سترتي، أردت أن أخرج دراهمي الحبيسة، "الجنيه" بكامله. وقادتني رائحة أطعمة مقلية إلى مكان قريب جداً من هويس النهر... كانت تلك فطائر باللحم أو بالخضار... كنت أشمها من بعيد، مصفوفة فوق عربة ذات عجلات صغيرة.

الفتاة التي كانت تعدّ الفطائر، يمكنني أن أقول بأنها جميلة... كان ينقصها سنّان من الأمام... لم تكن تكف عن الضحك والمزاح. كانت تضع فوق رأسها قبعة ذات أهداب تنتهي بزهور... على غرار حديقة معلقة، وغلالة على وجهها من الموسلين تتدلى أطرافه إلى الأسفل وتسقط داخل قدر صلصتها، فترفعها بحركة لطيفة. كانت تبدو أصغر سناً من أن تضع مثل هذا النقاب لحظة التقينا... في تلك الظروف الغريبة... كانت قبعتها الصغيرة تدهشني... لم أستطع الابتعاد عنها... كانت تبتسم لي دائماً. لم تكن قد بلغت العشرين عاماً. كان لها ثديان صغيران غريبان، وخصر نحيل، ومؤخرة مثلما أهوى أن تكون المؤخرات. مشدودة، عضلة، مفلوقة بإحكام... درت دورة حولها كي أتأكد. كانت مستغرقة في إعداد الفطائر والبطاطا... لم تكن ساذجة ولاغريّرة... أريتها دراهمي... فقدمت لي فطائر تكفي لإشباع عائلة. ولم تأخذ مني سوى قطع صغيرة من النقود... وسرعان ما انعقدت بيننا إلفة ومودة... وقد أدركت حين رأت حقيبتي بأنني قد

نزلت من القطار... حاولت أن تفهمني بعض الأمور... واضطرت إلى أن تشرح لي بلغتها... تحدثت بهدوء وتمهل، مقطّعة الكلمات إلى مقاطع صغيرة... ولكنني جفلت وأحجمت!... وعراني التشنج... كأنما سرى السم في عروقي... شعرت بالنفور وهي تكلمني!... ما عدت أرغب بالثرثرة!... حسناً. كان لدي حساباتي!... فأنا أعلم إلى أين يقود ذلك! ما عدت لطيفاً! ولكنها زادت من رقتها وملاطفتها وإغرائها... وشعرت وأنا أرى ثغرها المبتسم، بالصد والنفور في بادئ الأمر!... وأومأت إليها بأنني سأقوم بجولة باتجاه البارات... لأتسلى قليلاً... وضعت حقيبتي على مقربة من كرسيها، وأشرت إليها بأن تحفظها لي ريثما أعود... وانطلقت في نزهتي.

بعد أن تحررت من كل ما يعيقني، عدت صوب الحوانيت... مشيت متمهلاً على امتداد محلات الأطعمة... كنت قد التهمت كثيراً من الطعام. ولم أعد قادراً على تناول المزيد. كانت الساعة تقارب الحادية عشرة... كان ثمة أفواج من السكارى يصلون، متدفقين عبر الساحة... يقبلون ويدبرون. ينسحقون على جدار مبنى الجمارك، بعضهم يسقط والبعض يخور، وآخرون يتمددون على الأرض، ومنهم من يغادر الساحة... أما أولئك الذين ما زالوا متماسكين، فقد دخلوا الحانة واتجهوا مباشرة إلى منصة الشراب... ولبثوا هناك صامتين، مرتعشين، مشدودين إلى "فالس الحب" الذي تبثه الآلة الميكانيكية... لم يبق معي سوى قرش واحد من قطعتي النقدية الصغيرة... شربت كوبين من البيرة، من تلك التي تفور وتسيل على حافة الكوب.

خرجت مع أحد الدهماء. وخرج واحد آخر أيضاً يحمل قطة تحت ذراعه... كانت تموء بيننا... لم يعد بإمكاني التقدم كثيراً. فنكصت على عقبي، ودخلت إلى بار آخر مجاور، دلفت عبر الباب

الصفّاق... انتظرت فوق أحد المقاعد... وعلى امتداد الجدار المقابل... إلى جانب السكيرين الآخرين... كان هناك عدد كبير من النساء، بثياب فضفاضة، ورياش وبيريهات، أو بقبعات قش ذات حواف صلبة... كل هؤلاء كانوا يتكلمون بلغة أشبه بلغة الحيوانات، نباحات حادة، تتخللها تجشؤات. كلاب ونمور وذئاب، وقمل... كانوا لا ينفكون يحكّون.

في الخارج، وعبر زجاج النافذة كنت أرى الآن من فوق الرصيف. أحواض السمك الزجاجية. تتحرك أسماكها وسط الماء، كنت أراها بوضوح، وهي تغدو داخلها وتروح ببطء وهدوء، متموجة عبر زجاج واجهة البار. كانت تتجه على هذا النحو، إلى النور، وتفتح فمها، وتخرج منه دفقات صغيرة من الضباب. كانت تلك من أسماك الماكيرو وأسماك الكارب، تفوح منها رائحة لاذعة، رائحة الطين والعسل والزبل... كوب صغير آخر من البيرة... ما عاد بوسعي النهوض على الإطلاق... سيكون هذا أفضل بكثير... كان السكارى المخبلون جميعاً يثرثرون بصخب، يتصايحون بغضب عبر صفوف الطاولات. ويقرعون أفخاذهم بضربات قوية من قبضاتهم...

توقف صوت البيانو مع ذلك، طردنا صاحب الحانة جميعاً إلى الخارج!... وجدت نفسي في الشارع مرة أخرى! فككت أزرار ياقتي! شعرت بإعياء شديد... جرجرت أقدامي عبر الظلال، كنت ما أزال أرى بغموض مصباحي السفينة!... ورأيت الماء... واضطراب الأمواج... آه! رأيت أيضاً الدرج النازل إلى النهر. هبطت الدرجات واحدة بعد الأخرى. مستنداً إلى الدرابزين، بمزيد من الحذر... لامست الماء... حانياً جذعي... تقيأت فوق الماء... بذلت جهوداً شاقة... كنت مسروراً مع ذلك. من الأعلى كان يصلني وابل من

القيء، على هيئة شلال متدفق... من جميع أنـواع الأطعمـة... رأيت الرجـل منحنيـاً. يقـذف رشـقات مـن سـائل مخـاطي لـزج... أردت النهوض... تباً! ما عدت أستطيع... جلست ثانيـةً... كنـت أتلقـى كل شيء من فوقي! تعس حظي!... كان القيء يسيل فوق عـينيّ... رشـقة أخـرى أيـضاً... أوووواه!... ورأيـت المـاء يتـراقص... أبـيض تـارة... وأسود تارة أخرى... كان الجو بـارداً حقـاً، بـدأت أرتجـف، وانـشق بنطالي... ما عدت قادراً على التقيـؤ... تمـددت في إحـدى الزوايـا... هو ذا مركب شراعي يمر قريباً مني. يكاد يلامس رأسي. تعالى صـوت فتيـان المراكـب. أسـطول حقيقـي!... آه! نعـم! خرجـوا جميعـاً مـن الـضباب، كـانوا يـدفعون قـواربهم بالمجـاذيف... وحـين سـاحلوا الرصيف... طووا الأشرعة عند منتصف الـسارية... ثم سمعـت قطيعـاً آخر يصل إلى الضفة... ساروا علـى امتـداد أرصـفة الـشحن. أولـئكم فريق سخرة الشحن.

لم أرفع جسدي عن مستوى الماء. شعرت بـبعض الـدفء... كـان رأسـي مـبللاً... وسـاورني الاطمئنـان والـسكينة، بعـد أن اسـتعدت التوازن. لم أزعج أحداً... لاح لي أسـطول مـن المراكـب الـشراعية... كان لي خبرة بالسفن... وصـلت مراكـب أخـرى أيـضاً... تجمعـت... تكدست وسط الأمواج... حتى لامست الحاجز... كانـت تنـوء تحـت أثقال الأغذيـة. كـان هنـاك خـضار لعـالم بكاملـه... ملفـوف أحمـر، وبصل، وفجل أسود، ولفت. تكدست على هيئة كاتـدرائيات. كانـت تلك المراكب تعوم عكس التيار! تتبختر وسط الكـشافات الـضوئية... تنبجس من غيهب الظلمة...

شعرت بالدهشة، واصطكت أسناني... شـاعراً بـأنني سـأموت. لم أكن أهذي... كنت أرتعش وأنا أقلّب ذاكـرتي. أيـن وضـعت غطـائي؟

وتذكرت فتاة الفطائر المقلية... مشيت بين الأكواخ الخشبية، من كوخ إلى كوخ... حتى عثرت أخيراً على الفتاة الصغيرة الرشيقة. كانت بانتظاري. كانت قد لفّت كل شيء، جميع قدورها، وشوكتها الكبيرة، وجمعت كل ما تبقى من عدتها، ثم وضعتها فوق عربتها اليدوية الصغيرة. لم يبق لها سوى أن تعود إلى بيتها... كانت فرحة بعودتي. لقد باعت كل معجناتها. أرتني أيضاً كيف فرغت قدورها وأطباقها. ما عاد لديها سوى قطعة جبن صغيرة في أحد الأطباق... فرشتها فوق رغيف بسكينها القاطع، وقسمته بيننا... كنت أشعر بالجوع قليلاً. رفعت غلالة وجهها كي تراني بنحو أفضل. أشارت إلي إشارات توحي باللوم، لأنني غبت عنها طويلاً. كانت غيورة!... لم تقبل أن أساعدها في جر عربتها... كانت تودعها في مستودع وسط المدينة. كنت أنا أحمل الفانوس. لم أكن أرى كل ملامحها بسبب قبعتها... فيما ظلت أجزاء محتجبة عن ناظري. كانت ترخي حتى خصرها زينتها البسيطة، ريشة طاووس ضخمة، مربوطة تحت ذقنها بوشاح زاه فعلاً، مشجر بخيوط خبازية وذهبية.

كدسنا القدور والأطباق داخل المستودع... وأغلقنا الباب بإحكام، وانطلقنا ثانية نتسكع، دنت مني حينئذ، راغبة في أن تحدثني بجدية. لم أستسلم هنا أيضاً... ناورت قليلاً. أريتها عنواني في المدينة... "المانويل كوليج"، وقفت عمداً تحت أحد مصابيح الغاز... لم تكن تعرف القراءة جيداً... ما عادت تتوقف عن اللغط... أعادت على مسامعي اسمها فقط، كتبته على صدرها... جواندولين! جواندولين!... كنت أسمعها جيداً ولكنني لم أكن أفهم ما تقول... وسرت بيننا مشاعر دافئة، وملاطفات حميمية، كما لو كنا عائلة واحدة! لم يكن ذلك واضحاً للوهلة الأولى! ولكنه بدا بعيداً عن

البراءة. تنبعث منه رائحة عفنة... لم تكن تلك الطباخة الصغيرة هي من سيعلمني التحدث بلغتها. سلاماً يا صديقتي! سلاماً يا فتاتي! لا تزعجي نفسك من أجل هذا! ولكنها كانت أقوى مني... استغلت بعض الأركان المظلمة في الشارع كي تستأثر بي وتغدق علي كل مشاعرها الجياشة. ضمتني بقوة إلى صدرها... ما كان ثمة إمكانية لمقاومتها... كانت الشوارع مقفرة تقريباً... كانت تريد أن أدلكها، أن أعتصرها، أن أتجاوز أيضاً ما تحت حزامها... كانت ذات طبيعة قوية... متطلبة... شديدة الفضول... كنا متواريين خلف سحابة ضبابية ثقيلة... كان خليقاً أن أضمها أيضاً، فهي لن تعيد إلي ربما حقيبتي وأشيائي... كنت أبدو كالأبله وأنا أتلوى بين ذراعيها. غدت أشبه بمجنونة حقيقية. شرعت تنط وسط الضباب. كانت ترفع تنورتها، وترقص رقصاً وحشياً... وكنت أنا أغالب الضحك... امتد بنا الوقت ساعة أو تزيد! كانت تريد كل شيء! تباً! لقد غدت شريرة! شرعت تعدو خلفي... وتمسك بي، ساعية إلى التهامي! كانت تقبلني، وتمصني بعنف لا حدود له! كان لها ولع بالأجانب...

تعرت الساحة من الزينات، كان البهلوانات في الطرف الآخر يطوون خيامهم، وكانت العربات اليدوية الصغيرة المحملة بالسكاكر ومعقود الثمار تجتاز الميدان الخاوي، مرتجة فوق الحفر، ونقع الوحل... كان من الصعوبة دفعها... وصلنا أمام إحدى المنصات، كانت هذه آخر امرأة في الساحة، جدة عجوز انهمكت في طي سجفها وبسطها الشرقية... كانت ترتدي ثياب حورية... أغلقت باب كوخها بلوحات إعلانية... ونفخت على نارها لتطفئها... ثم تثاءبت من أعماقها، واضعة يدها المتجعدة على فمها المفتوح عن آخره حتى ليكاد ينشق... أوواه! أوواه! كانت تهمهم وحدها عبر ظلمة الليل.

اقتربنا كلانا منها، أنا وجميلتي، قطعنا عليها شغلها. كانت المرأتان تعرفان بعضهما... وسرعان ما انعقد حبل الحديث بينهما... لا ريب في أنهما صديقتان. كانتا تغمغمان معاً بأشياء. فأثارتا كلتاهما اهتمامي...

أشارت إلي فاطمة بأن أدخل إلى كوخها. لم أستطع أن أرفض طلبها. كانت الأخرى تحتفظ بأشيائي. أمسكت العجوز بيديّ، وقلبتهما، وأمعنت النظر عن قرب في راحتيّ على ضوء القنديل... لتقرأ لي الخطوط... كنت أنظر إليهما. كان لديهما فضول شديد لمعرفة مستقبلي!... تريدان أن تعرفا كل شيء عني! رفضت التحدث إليهما!... لم أكن أبالي بما تفعلان... كنت مرتاحاً فوق كومة الوسائد... وكان الجو أكثر دفئاً من الخارج. كنت أتسلى بعض التسلية... وتابعت المرأتان مكرهما ودسائسهما. وقد بدا عليهما الاهتمام الشديد بي... دبت الحيوية في المرأة الشرقية، وطفقت تقرأ طالعي ببراعة وإتقان... كانت فتاتي تقوس حاجبيها... لا شك أن قدري كان مظلماً... لم أكن أبدي أية مقاومة، تركت لهما راحتيّ تقلبانها كيفما تشاءان... لم يكن الأمر يزعجني. في البداية، كانت لدي هموم أخرى! كنت أنظر حولي لأرى جدران خيمتها المرقشة بالنجوم، وعلى سقفها كواكب وأقمار محاطة بهالات... لقد فات الأوان الذي أشعر فيه بالحماس والاندهاش، تباً! لم أكن أفقه شيئاً من هذرهما. انقضت ساعتان دون أن تتوقفا. كانتا متمهلتين غاية التمهل... ها هما تتناقشان حول الخطوط الصغيرة... كانتا ذواتي طبيعة وسواسية... أما أنا، فقد كانت يداي وسختين دوماً. لا شك أن ذلك كان أسهل لمعرفة الطالع. وكذلك أظافري... كان النعاس يغالبني... ثم انتهت المرأتان أخيراً، كانتا متفقتين بشأني. دفعت فتاتي للعجوز أجرتها، قطعتين نقديتين، شاهدت ذلك... ثم استشارات العجوز ورق اللعب أيضاً... وهكذا فقد اكتمل مستقبلي... اجتزنا

الستائر المسدلة خارجين من الخيمة، وارتقت المرأة العجوز منصة بضائعها. وعادت من جديد إلى بسطها.

آسرتي، جواندولين، صارت تنظر إلي منذ تلك اللحظة على نحو مختلف. ما عدت الشخص نفسه في نظرها. كنت أشعر بأن لديها نبوءات مشؤومة... كانت تراني قد تغيرت... ما عادت تداعبني بالطريقة ذاتها... من المحتم أن قدري بدا ملطخاً بالزفت والقطران... سواء في ورق اللعب أم في خطوط الكف. لا ريب في أنه كان قذرا!...

كانت أجفاني مثقلة بالنعاس، حتى لأكاد أسقط من مكاني، ولكن الجو كان ما يزال قارساً جداً. كنت بحاجة إلى التجول عبر رصيف الميناء... لم يعد ثمة عابر في تلك المطارح، لا أحد سوى كلب صغير، راح يتبعنا لحظة ثم مضى نحو الأهراءات. لذنا بملجأ طبيعي صغير، على مستوى الماء. كنا نسمع، ونرى المد يلحس الجدار... مثل لسان، مصدراً قرقرة عالية... ثم سمعنا قرع مجاديف... مختلطاً بلهاث الفتيان الذين عادوا يمتطون اليم من جديد.

كانت فتاتي، بائعة المقالي تجرجرني، راغبة، كما أعتقد، بأن أذهب إلى بيتها. كنت سأنام فوراً فوق الأكياس المكدسة على الرصيف أكداساً هائلة، تصل ذراها حتى الروافع الشاهقة... تحميني من الريح. ولكن فتاتي كانت تشير إلي إشارات بأن لديها غرفة حقيقية مع سرير حقيقي. لم تكن إشاراتها بحاجة إلى مزيد من الشروح... كانت تريد وصالاً حميماً... حتى وأنا على تلك الحال من التعب والإعياء كانت ما تزال تغويني. أشرت إليها إشارة بالرفض... وأن لدي عنواناً أريد الالتحاق به... في المانويل كوليج... كنت أفضل الذهاب إلى المدرسة على أن أنام في سرير جواندولين، ليس لأنها

بلهاء جداً. ففي نسيجها كامرأة كان لها سحرها، كانت ذات رشاقة نادرة، وأكفال رابية، وجذع مشدود العضل، وأطراف محكمة التكوين... ورأس قذر. ولكن الظلام كان قد احلولك. كنا سنتقلب على فراش الشهوات الساعرة. ونرتشف بالتأكيد كؤوس المتعة... ولكن ماذا سيحلّ بي في تلك اللحظة التي سننام فيها معاً، ولكن ذلك سيعقبه الندم!... كان ذلك متعذراً!... لأنه يحيي ذابل المرارة في أعماقي... يبرح بي أشد التبريح حين أفكر فيه... حين أفكر بخيانة كل العهود التي قطعتها! في اللحظة التي أستسلم فيها للتمرغ في حمأة الفحش، أو حين أفكر بأمي؟ آه! المرأة الشقية! وبغورلوج! ولاميهون! بحنفية المطبخ! وبلافيلونج! وبالصغير أندريه! بالبازار الحافل بالقذارات! نعم! سحقاً!... كان لدي رزمة منها! تفوح بالعفونة! رزمة هائلة، تغلي وتفور داخل رأسي!... عذراً ياحلوتي! ما من حماقة بعد اليوم!.

الفتاة الملقط، طباختي، الساذجة جداً، والربابة، كنت سأهوي عليها ربما بصفعة قوية، بوجبة ساخنة من الضرب والركل! حتى تنسى شحم الخنزير الذي تقليه! فيما لو كنت أشعر بأنني قوي!... كي أعلمها كيف تتصرف... ولكنها كانت ستثخنني بالضرب من دون شك! كان لديها سلاح قوي، صدر مصارع، ستحولني ربما إلى فطيرة فيما لو غدوت شريراً... لم أكن أفكر إلا بهذا، فيما كنا نجوب الشوارع الصغيرة، كانت منفتحة علي متعلقة بي تلك المغناج... كان لها قبضة عامل، تلك الفتاة العفوية الغضوبة. كنت أرتعد هلعاً من الجميع، هو ذا الأمر...

أخيراً، أخرجت عنواني من جيبي، كان لا بد من اكتشاف المدرسة مع ذلك، وما دامت لا تعرف القراءة فقد بحثنا عن رجل بوليس... تهنا في الطرقات مرتين أو ثلاث مرات. كنا نصادف فقط مناهل مياه تبدو غريبة مضحكة في مفترقات الشوارع. بين سحب

الضباب... كنا نبحث من رصيف إلى رصيف، نتعثر في كل مكان بالبراميل وفوق العبّارات الصغيرة، نضحك بملء حناجرنا رغم التعب والإنهاك... كانت تساعدني في حمل محفظتي... فيما كانت تبدو رائقة المزاج. ثم انفلتت عقصة شعرها... فرحت أشدها من شعرها. كان ذلك يضحكها أيضاً. وعاد الكلب الصغير يتبعنا. رأينا من خلال أحد شقوق كشك خشبي ضوءاً يتلامع، كان الشرطي مقعياً، وانتفض حين رآنا. كان متدثراً بثلاثة دثارات على الأقل، أحدها فوق الآخر. تنحنح عدداً من المرات... ثم خرج إلى الضباب، كان يرتعد بقوة وينفض دثاراته مثل كناري. أشعل غليونه... كان لطيفاً مجاملاً... بعد أن تمكن من قراءة عنواني، أشار لنا بإصبعه إلى مكان مرتفع جداً، في أقاصي الليل. حيث كانت "المانويل كوليج" جاثمة فوق ربوة. في نهاية مسبحة طويلة من المصابيح، ترتقي الربوة على نحو متعرج... ثم عاد إلى كوخه، ضاغطاً الباب بجميع دثاراته السميكة.

حينما عرفنا طريق المدرسة، لم نعد متعجلين. كان ما يزال أمامنا منحدر صاعد طويل جداً ينبغي تسلقه... لم تكن مغامرتنا قد انتهت بعد!... تسلقنا الأكمة ببطء وتمهل. لم تكن تريدني أن أتعب. كانت مفعمة بالمودة والحميمية. ما عادت تتجرأ على مضايقتي... كانت تعانقني فقط بين وقت وآخر، حينما كنا نتوقف لنستريح قليلاً. وتؤمئ لي تحت المصابيح، بإشارات تقصد بها أنني أعجبها وأروق لها... وأنني كنت لها وحدها ببساطة... حين بلغنا منتصف المنحدر تقريباً، جلسنا فوق صخرة عالية، ومن هناك رأينا على البعد سحباً من الضباب تمر عبر النهر، مندفعة في الفراغ، تبتلع السفن الصغيرة العائمة فوق التيار الوادع، وتحجب عنا أضواء فوانيسها... وما تكاد تنفرج قليلاً عن قرص القمر حتى تعود فتحجبه كلياً من جديد. كانت

الفتاة ما تنفك تؤمئ لي بإشارات... تسألني إذا ما كنت أريد بعض الطعام؟ وعرضت علي أن تذهب لالتماس شيء منه، كان ذلك نابعاً، بالتأكيد من شعور قلبي صادق... وعلى الرغم من أنني كنت مخبّلاً فإنني ما توقفت عن التساؤل مع ذلك، بيني وبين نفسي إن كان بمقدوري أن أطوّح بها في الوادي بركلة على إليتها؟ عجباً!.

من تحتنا كان ثمة ريف صخري يشهق عمودياً فوق الماء.

تناهت إلينا أصوات قادمة نحونا، أصوات رهط من الرجال، تعرفت عليهم من مشاعلهم. إنهم "المهرجون"، أشباه الزنوج، الملطخون بالدهون والمساحيق، يصعدون من المرفأ هم أيضاً... يدفعون عربتهم اليدوية وسط الضباب... كانوا يلاقون عنتاً في دفعها، كانت ثقيلة محملة بأشيائهم، مخلعة تماماً، وضعوا فوقها أدواتهم وآلاتهم فراحت تهتز وتطقطق... حين لمحونا أقبلوا علينا، وتبادلوا الحديث مع الفتاة الطباخة... ثم جلسوا يستريحون قليلاً من وعثاء الطريق. خاضوا في نقاش صاخب. ثم كوموا كل قروشهم على طرف مقعد صغير، ولم يفلحوا في عدِّها أبداً. كان التعب قد نال منهم... كانوا يذهبون كل واحد بدوره، إلى شلال قريب ليغسلوا وجوههم. كانوا يعودون من بكرة الصبح إلى المرفأ، بوجوه كابية... حتى لتحسبهم موتى... كنت أراهم يرفعون رؤوسهم لحظة ثم يخفضونها بوهن واستسلام. ويعاودون الجلوس فوق الحصباء... يمازحون مغناجتي... ثم التم شملنا جميعاً، وانطلقنا معاً... كنا ندفع معهم عربتهم القديمة، لنساعدهم على بلوغ أعلى التلة. كانوا يفسحون لي مكاناً كي أدفع معهم. لم يرغبوا بأن نغادرهم... كانت "المانويل كوليج" ما تزال خلف الأشجار، كان هناك عطفة أيضاً للوصول إليها. ثم طلعة صغيرة، ثم حديقة المدرسة.

بدت الأشياء زرقاء الآن... وحين وصلنا إلى باب المدرسة كنا جميعاً رفاقاً متآلفين. كان من الصعوبة العثور على اسم المبنى بوضوح، أشعلنا أعواد ثقاب، ودققنا النظر، في مكانين أو ثلاثة، حتى اهتدينا أخيراً، وانتهى الأمر... انخرطت الفتاة بالنحيب كان ينبغي أن نفترق هنا... توجهت إليها بإشارات كي أقنعها بأن لا تبقى هنا... وأن تواصل إذن طريقها، برفقة أولئك الأصدقاء... وأنني سأراها مرة أخرى بالتأكيد... في المدينة... عند المرفأ... فيما بعد... ذات يوم... كنت أومئ لها بإشارات وحركات تعبر عن المودة... هذا مؤكد، وأنني سأفي بوعدي لها، في النهاية. وأعطيتها غطائي كي تكون واثقة من كلامي... بأنني سأعود إليها حتماً... ما كانت تفهم بسهولة... ولم أكن أعرف ماذا أفعل... ضمتني إلى صدرها بقوة... وتأثر المهرجون، وهم يرون إشاراتنا وإيماءاتنا، وطفقوا يحاكون قبلاتنا...

على الدرب الصغير الضيق، هبَّت نسمة جليدية... كنت منهوكاً خائر القوى... ولم أعد أستطع المكوث خارجاً... ومع ذلك، فقد كانت حركات وداعنا الودية مضحكة جداً... كنا نضحك جميعاً كي ننهي الموقف، لفرط ما غدا أخرق في تلك الساعة... وأخيراً حزمت أمرها، ولكنها لم ترغب أن تعود وحدها، فرافقت المهرجين. وانطلقوا جميعاً في جوقة واحدة خلف عربتهم، خلف الآلات، والطبل الضخم، يسيرون ما شاء لهم السير. كانت الفتاة ما تزال تشير لي بمصباحها من بعيد إشارات حتى اختفوا أخيراً... عند منعطف الممر المشجر.

نظرت حينئذ، إلى اللوحة، المعلقة أمامي، حيث كان علي أن أدخل. كان مكتوباً عليها بوضوح "مانويل كوليج"، وفوق اللوحة، كانت هناك حروف بلون أكثر احمراراً: المدير: ج. ب. ميروين. تلكم هي العلامات، لم أخطئ على الإطلاق. رفعت مطرقة الباب الصغيرة:

بلاك! بلاك! لم يظهر أحد في البداية... قرعت حينئذ الباب الآخر، ولكن ما من مجيب أيضاً... مرت لحظة طويلة... وأخيراً تحركوا داخل المبنى... رأيت عبر الستائر ضوءاً يهبط الدرج... فأحدث هذا لدي انطباعاً كريهاً... خطر لي خلال لحظة قصيرة بأن أولي الأدبار على الفور، دون أن ألوي على شيء... كنت سأعدو خلف الفتاة... سألحق بالمهرجين... ثم لا أعود قط إلى الكوليج... قمت بنصف دورة.. تاك! وإذا بي أصطدم برجل، ضئيل القامة، مقبب بمبذل فضفاض... انتصب أمامي... وتفرس بي.. ثم غمغم ببعض الشروح... لا شك أنه صاحب المدرسة... بدا لي منفعلاً، وقد أرخى شعر عارضيه... كان أصهب، يخالط شعره بياض... وفوق عينيه تدلت خصلة صغيرة. كان لا ينفك يكرر اسمي. لقد قدم من الحديقة... وهو ما أثار دهشتي! كانت تلك طريقة غريبة... لا ريب في أنه كان يشتبه بوجود لصوص. كان يحمي شمعته من هبات الريح... ولبث واقفاً أمامي يغمغم، لم يكن متحمساً للحديث معي... لم يعثر على الكلمات المناسبة. ثم أطفأت الريح الشمعة:

- فرديناند!... أنا... أقول... لك... يومك... سعيد... أنا... مسرور... لأنك هنا... ولكنك... تأخرت... كثيراً... ما الذي حدث معك؟...

- لا أعرف شيئاً... أجبته.

لم يلحّ علي البتة... تقدمني حينئذ... سائراً بخطى وئيدة... وفتح أخيراً باب مدرسته الثقيل... كان يرتجف أمام القفل، لم يعد بمقدوره أن يخرج المفتاح لفرط ما كان منفعلاً، وما إن تخطينا المدخل حتى أشار إلي بأن أنتظره، أن أجلس هناك على الصندوق... كي يرتب لي الأمور في الطابق العلوي. وفي منتصف الدرج راجع نفسه، وانحنى فوق الدرابزين، وأشار نحوي بإصبعه.

"غداً، يا فرديناند! غداً... لن أتحـدث معـك قـط إلا بالإنكليزيـة! إيه؟ What؟..." وجعله ذلك يضحك مقدماً...

"انتظرني لحظة! Moment !Wait! آه! أنت ترى! عمـا قريـب! يا فرديناند! عما قريب!..."

* * *

لم يكن لينتهي، في الأعلى، من نبش دروجـه، وإغـلاق الأبـواب أيضاً، وجرجرة الصناديق. كنت أقول لنفسي "لقد تأخركثيراً!... سأنام كما أنا!..." ورحت أنتظر وأنتظر.

في نهاية الرواق، كنت أرى الفراشة تطير حول القنديل...

ألفت عيناي المكان شيئاً فشيئاً، ميزت ساعة الجدار الكبيرة... ذات الإطار العريض الباذخ حقاً... فوق مينائها النحاسي عُقاب بالغ الـصغر لا يكف عن ترقيص عقرب الثواني... تيك! تاك!... تيك! تاك!...كان مندفعاً على هذا النحو دائباً على تدويخي، إضافةً إلى التعب.

ما برح العجوز يكيد لي... كنت أسمعه يتخبط بين الأشياء... يريـق الماء... ويتحدث مع امرأة... وأخيراً نـزل... في هيئـة جديـدة نـضرة. كان قد اغتسل، وحلق، وارتـدى ثيابـاً تـشي بالأهميـة، مـن الطـراز القديم!... نوعاً من ثياب محام... دثاراً أسود فضفاضاً... ينـسدل مـن الكتفين... مكسراً... علـى هيئـة أوكورديـون، وفـوق رأسـه قلنـسوة جميلة ذات شرابة طويلة... قلت لنفسي بأن ذلك كله، إنما مـن أجـل التظاهر بالعظمة، وإشعاري بضآلتي. أومأ إلي بإشارة خفيفة... نهضت مترنحاً... ما عدت قادراً علـى الوقـوف في الحقيقـة... كـان مـا يـزال يبحث عن جمل أخرى... جمل ملائمة، بخصوص رحلتي... فيمـا إن كانت سهلة ميسّرة؟ لم أكن أجيبه بشيء... كنت أتبعـه... عـبر الـصالة

في البداية... وحول البيانو... ثم عبر مغسل الثياب... ثم الحمامات... فالمطبخ... وها هو ذا يفتح باباً آخر... ورأيت حينئذ سريراً!... لم أنتظر أكثر من ذلك!... دعاني إلى الدخول!... فاندفعت... وتمددت فوقه تماماً!... وحينئذ قفز السرطان الصغير فجأة، وران عليه الغضب... لم يرقه ذلك على الإطلاق، هاج وماج!... وقفز!... ودار حول السرير!... لم يكن يتوقع ذلك!... أمسكني من حذائي... كان يحاول أن يوقعني عن السرير...

- حذاء! حذاء! بوط! بوط!... على هذا النحو، كان حنقه يزداد أكثر فأكثر!... وغدا مخيفاً! كان وحل حذائي قد لوث سريره، لطخ التشجيرات ذات الزهور الكبيرة!... ذلك ما كان يضايقه ويهيجه! "اذهب واخْرَ! اذهب واضرط!" قلت له... كان يحاول أن يناقشني... وراح يركض في الرواق... باحثاً في كل مكان عن أشخاص، عن نجدة! ولكنه إذا حاول فقط أن يلمسني، فسأغدو حينئذ مخيفاً!... سأنهض على الفور، وأوسعه ضرباً، هذا المهرج! مثلما هو!... كنت مستعداً!... مصمماً!... كان ضئيلاً ونحيفاً! كنت سأقلبه مثل قفاز! هذا يكفي... وعلى الرغم من عوائه المتواصل، لم أجد صعوبة في أن أغرق في النوم

* * *

ما كان من الممكن أن يشتهي المرء مكاناً أفضل من "المانويل كوليج" من حيث هواؤها النقي، وإطلالها من أعلى الربوة. كان موقعها أخاذاً... فمن طرف الحديقة، وحتى من نوافذ قاعة الدرس كنا نشرف على المشهد بكامله. كان بوسعنا خلال لحظات الصحو والانفراج رؤية المدى الشاسع، بانوراما النهر، والمدن الثلاث، والمرفأ، وأحواض السفن الواقعة عند ضفة المياه... وخطوط سكة

الحديد... وجميع القوارب التي تنطلق عبر النهر... مبحرة بعيداً... خلف التلال. وفيما وراء المروج...ميممة صوب البحر. بعد مدينة شاتام كان الانطباع يغدو فريداً. كان الجو قارس البرودة حينما وصلت. ولفرط ما كانت قمة الرابية مجللة بالصخور، كان من المستحيل الشعور بالدفء. كانت الريح تصفع المبنى... سافية الرذاذ كله. وزخات المطر كلها. فوق الرابية... كان هزيمها يتردد داخل الحجرات، ويرج الأبواب ليل نهار. كنا نعيش في قلب إعصار هائج. وما إن تزأر العاصفة النكباء، حتى يتعالى صياح الأولاد مثل رهط من الصُّم. لا يسمعون بعضهم بعضاً... لم يكن الإله الرحيم يتدخل في الأمر! كان ينبغي للعاصفة أن تنفجر أو أن تهدأ وتستكين. كانت الأشجار تنحني بقوة وتظل هكذا ملتوية الجذوع، فيما كان عشب المروج يغدو هشيماً تذروه الرياح وتطوح به في المدى البعيد.

في ذلك المناخ الكاسح، الشديد القسوة، تفتحت شهيتنا على نحو وحشي... كان ذلك سيجعل الأولاد متيني البنيان، مفعمين بالقوة! لو كان هناك طعام كاف! لم يكن الطعام في "المانويل كوليج" سخياً!... كان عادياً في الحقيقة ولكن ليس كما كان يزعم الإعلان. كان عددنا على المائدة أربعة عشر تلميذاً! إضافة إلى المعلم، والمعلمة... كان هناك من الطعام ما يكفي حسب رأيي لستة فقط، وكان الثمانية الباقون فائضين عن الحاجة! وفي الأيام التي يشتد فيها عصف الريح... كان هناك تقتير شديد في اليخنة!.

ضمن المجموعة، كنت أنا أكبرهم وأشدهم سغباً. كان جسمي ينمو بسرعة عجيبة. زاد وزني بعد شهر إلى الضعف. كان عنف العناصر قد أحدث ثورة في رئتيّ، وفي قامتي. ولفرط ما كنت ألتهم من الطعام، وأكشط كل ما علق على الأطباق، حتى قبل أن يدعوني

الآخرون. فقد غدوت آفة حقيقية على المائدة. كان الأولاد يرمقون قصعتي بعين الحسد، ويلقون عليّ نظرات وحشية، ما كان هناك نزاع بيني وبينهم بالتأكيد... ما كنت أبالي بأن أكلم أحدا... كنت سآكل بعد الوجبة بضع ربطات من المعكرونة إذا ما تحداني أحد، لفرط ما كنت أحس بالجوع... والواقع أن مدرسة تقدم لتلاميذها كفايتهم من الطعام، ستكون مهددة بالإفلاس... ينبغي التفكير دوماً! كنت أعوض نقص الطعام بحساء الشوفان. كنت هاهنا عديم الرحمة... وكنت أستغل قوتي، على نحو أسوأ أيضاً لدى تقديم المرملاد... فألتهم وحدي الصحن الصغير الذي يقدم لأربعة، أتجرعه فوراً وبسرعة، حتى قبل أن يراه الآخرون. كان بوسعهم أن يحتجوا، ولكني ما كنت أرد مطلقاً، بالضرورة... أما الشاي فكان تحت الطلب، فهو يدفئ العروق، وينفخ الأعطاف. كانوا يعدّونه من الماء المعطر اللذيذ، ولكنه كان يفتح الشهية بالأحرى. وحينما تدوم العاصفة زمناً طويلاً، وتظل التلة بأسرها تزأر طوال أيام وأيام، كنت أنقضّ على دورق السكّر. بالملعقة أو بملء قبضتي، من السكر الأصفر، أو من السكر النقي، وكان ذلك يمنحني العزاء والسلوى.

خلال وجبات الطعام كان السيد ميروين يتخذ مجلسه أمام الطبق الكبير، يوزع بيده كل شيء... كان يحاول جاهداً أن يجعلني أتحدث بالإنكليزية، ولكنه لم يكن يصيب النجاح... الحديث على الطاولة، أنا!... أقل محاولة منه كانت تجعلني أحمرّ غيظاً... لم أكن مطواعاً... ما كان بيده حيلة أخرى سوى زوجته الجميلة التي كانت تسحرني. كان بإمكانها ربما أن تهدئ روعي... كنت أتخذ مكاناً إلى جانبها... كانت فاتنة حقاً جديرة بالعبادة. أجل، بوجهها! بابتسامتها! بذراعيها! بكل حركة من حركاتها! بكل شيء! كان اهتمامها منصباً على إطعام

الصغير جوكيند، وهو فتى ذو وضع خاص، قاصر عقلياً. كـان عليهـا بعد كل لقمة تقريباً أن تهبَّ لمساعدته، كلـب البيـشون الـصغير ذاك، تمسح له اللعاب السائل من فمه، كان ذلك عملاً خارقاً.

والدا هذا الأبله، ظلا هناك في الهند، ما كانا يأتيـان لرؤيتـه. كـان الاهتمام بهـذا المعتـوه الـصغير عبوديـة ثقيلـة، ولاسـيما في أوقـات الطعام. كان يبتلـع كـل مـا أمامـه، الملاعـق الـصغيرة، والمناشـف، والبهار، والمزيتة، وحتى السكاكين... كان مولعاً بابتلاع كل شيء. لا يجد صعوبة في ذلك بسبب فمه البالغ الاتساع. والذي يمطه مثل أفعى حقيقية، كان يمتص أصغر الأشياء، يغطيها كلها باللعاب ثم يبتلعهـا، وحتى مشمع الطاولة. كان يغط غطيطاً عالياً، ويرغي ويزبـد فيمـا هـو يفعل ذلك. وكانت السيدة ميروين تمنعه في كـل مـرة، تبعـده بلطـف فائق، دونما كلل، ودون أن يصدر عنها أدنى عنف أو خشونة...

ما خلا موضوع الابتلاع، لم يكن الولد مخيفاً. كان بالأحرى مريحـاً، ولم يكن قبيحاً أيضاً، عيناه فقط كانتا غريبتين. كان يصطدم في كل مكان، حين يكون دون نظارات. فقد كان حسير النظر على نحو فظيع، على غرار خلد، كان بحاجة ماسة إلى عدسات سميكة، من عيار ثقيل، وكانت هذه تجعل عينيه تجحظان، وتبدوان أعرض من بقية أعضاء وجهه. كان يخاف من كل شيء، فتطمئنه السيدة ميروين بكلمتين اثنـتين، تكررهمـا علـى الدوام: "No Trouble! Jonkind! No Trouble!..."

كان يكرر ذلك هو أيضاً طـوال نهـارات بكاملـها في أي مناسـبة لا على التعيين، مثل ببغاء. ذلكم هو كل ما حفظتـه مـن الإنكليزيـة بعـد شهور في شاتام "No Trouble! Jonkind! "

***

مرَّ أسبوعان أو ثلاثة... تركاني فيها هادئاً مطمئناً... تغاضيا فيهما عني، ولم يسعيا إلى إزعاجي ومضايقتي. كانا يحبان أن أتكلم... أن أتعلم الإنكليزية قليلاً. كان هذا بديهياً، وكان والدي يسأل في رسائله إذا ما كنت أبذل بعض الجهود؟... إذا ما كنت منكباً على الدرس والتعلم؟...

لم أنخرط في تعلم اللغة الإنكليزية... ما عدت صالحاً للتدرب على الحوار والمحادثة... لم أفعل شيئاً سوى استعادة ذكرياتي... المشاحنات الصاخبة في البيت!... الملامات الجارحة التي كنت أسمعها من أمي!... الغمز واللمز الذي كان يوجه إليّ عبر الكلام! تباً! حسبي كل ذلك! كان جرابي مملوءاً!... كنت متخماً على الدوام بالمسارات والأكاذيب! سلاماً! لقد اختزنت منها ملء عربات... كانت تضغط على معدتي، ما إن أحاول الكلام. لن يجدوا عندي أي شيء... كان لدي عذر صالح كي أصمت، فرصة فريدة حقاً، سأستفيد منها حتى النهاية... ما من مشاعر! ما من حيل ومناورات! كانت محادثاتهم اللطيفة تجعلني أتقيأ... ربما أكثر من المعكرونة... ومع ذلك فقد كان ثمة على كاهلي عبء إضافي هو التفكير بالبيت...

ما عاد السيد والسيدة ميروين يعرفان كيف يفعلان معي، كانا يتساءلان من أين جاءني هذا الخرس، هذا الحرد العنيد جداً... كان هو على الأخص من يمهد للحديث حالما نجلس إلى المائدة، حول أبسط الموضوعات... فيما هو يفرش فوطته... كان مصراً على أن أتعلم... "هلو! فرديناند!" كان يوجه إلي الحديث... لم يكن يحثني كثيراً. وكنت أجيبه "هلو! هلو!" كان هذا كل شيء... ثم ينقطع حبل الكلام بيننا... ونبدأ الطعام... كان يرنو إلي بنظرة متعبة، من خلف نظارته... ترين عليه كآبة... كان يقول على الأرجح بينه وبين نفسه:

"لن تطول إقامة هذا الفتى عندنا... سيرحل حين يشعر بالملل!..." ولكنه لم يعد يجرؤ على الإلحاح... كان يرفّ بعينيه الصغيرتين، على غرار ثقبين، وبذقنه الطويلة المعقوفة، ويرفع حاجبيه المنداحين على نحو مائل، والمتباينين في لونهما. كان يحتفظ بنمطه القديم، بعارضين مسترسلين وشاربين قصيرين مدهونين، مستدقين جداً في طرفيهما... وكان ذلك يمنحه مظهر الحيوية والمرح. كان يكد على دراجته في كل اتجاه، ويواظب على التمرينات الرياضية.

أما هي،زوجته فلم تكن تشبهه في شيء. لم يكن يباريها أحد في سحرها وفتونها. ينبغي أن أعترف بأنها سحرتني... وتركت فيّ أثراً عميقاً.

كان ديكور صالة الطعام في الطابق السفلي يكدر النفس. جدرانها ملطخة حتى السقف تقريباً بلون تبغي... كانت متصلة بممر صغير. وفي المرة الأولى التي دخلت فيها السيدة ميورين إلى الصالة مع جونكيند لم أصدق عيني لفرط ما بهرني جمالها، وغشيني اضطراب غير عادي... كنت أحدِّق فيها، تطرف عيناي كلتاهما... وقد غام نظري... وغصت ثانية في يخنتي. كان اسمها نورا... نورا ميروين.

في البداية، حين انتهت الوجبة، ركعنا على ركبنا جميعاً، ليتمكن العجوز من تلاوة الصلوات... واستغرق وقتاً طويلاً في تفسير الكتاب المقدس. كان الأولاد ينبشون في أنوفهم، ويتلوون في كل اتجاه...

لم يكن جونكيند راغباً في البقاء هادئاً... كان يريد أن يبتلع أكرة الباب التي كانت أمامه، وفي متناوله. ولم يبرح المعلم مستغرقاً في التضرع والدعاء، كان يحب أن يغمغم... ولبث يدندن ربع ساعة، وهو ما كان يكفي لتناول طعامنا... ثم نهضنا أخيراً حين قال: "دائماً وأبداً!".

كانت الجدران صقيلة حتى منتصفها، أما الباقي فكان مطلياً بالكلس. كان هناك بالإضافة إلى ذلك نقوش تصور التاريخ المقدس... يظهر فيها يعقوب بعصاه وأسماله... وهو يعبر الصحراء... وسفينة نوح! محاصرة وسط الأمطار، تثب فوق الأمواج الهائجة المزبدة... كنا نحن أيضاً مثل سفينة نوح، فوق تلة روشيستر. كان سقفنا مثلها تماماً، كان ينهمر فوقنا، أنا على يقين من ذلك، سيول من الأمطار أكثر غزارة مما هطل عليها... حتى تنخلع النوافذ المزدوجة من مكانها... وحين يخيم الهدوء بعد حين... تغرق الرابية بالضباب، ويغدو المشهد حينئذ سحرياً... يغدو عالماً آخر مختلفاً... لم نكن نرى شيئاً على بعد خطوتين منَّا في الحديقة. ولا يعود ثمة سوى غيمة واحدة، تدخل بهدوء إلى الغرف، فتحجب كل شيء، ثم تعبر شيئاً فشيئاً في كل مكان داخل الصف وبين الأولاد.

كان صخب المدينة، والمرفأ يصعد إلينا، تتجاوب أصداؤه في كل مكان حولنا، وعلى الأخص منها أصداء هدير النهر في الأسفل... حتى ليخيل إلينا بأن سفينة القطر تمخر وسط الحديقة... كنا نسمعها تصفر كما لو أنها خلف المنزل. كانت تعاود الصفير... فيما هي تبحر في أعماق الوادي... كانت صفرات القطارات أيضاً تلتف متلوية عبر الأبخرة المتكاثفة في السماء... كانت تلك هي مملكة الأشباح. كان علينا أن نعود سريعاً... وإلا فسنسقط من فوق الصخور...

***

في الوقت الذي كانوا يتلون فيه الصلاة، كانت تنتابني أحاسيس خطرة. فحين كنا نجثو على ركبنا، كنت ألامس نورا تقريباً. كنت أنفث أنفاسي في عنقها، في خصل شعرها... فتستبد بي إغواءات جامحة... كانت تلك لحظة حرجة، أتمالك نفسي خلالها حتى لا

أرتكب حماقات.. وأتساءل، ترى ما الذي يمكنها أن تقوله إذا تجرأت؟... كنت أرتجف وأنا أفكر بها، عند المساء، في عنبر النوم، وفي وقت متأخر من الليل، وبعد أن ينام الآخرون جميعاً، وفي الصباح أيضاً كنت أعاود التفكير بها...

كانت يداها معجزتين خارقتين، ضامرتين، ورديتين، شفافتين، بضتين، لهما نعومة الوجه ذاتها... مجرد رؤيتهما كانت تنقلني إلى عالم آخر أخاذ. ما كان يصعقني أكثر، ويستحوذ علي حتى النخاع هو نوع الفتنة الكاسحة التي كانت تتفتح هناك على وجهها، في اللحظة التي تتحدث فيها... كان أنفها يرتعش قليلاً، محيط وجنتيها، شفاهها المقوسة... كنت أحس بأنني هالك لا محالة. وأرى هناك رقية سحرية قاتلة... فيتملكني الفزع... كما لو أنني أرى النجوم في عز الظهيرة، ولا يعود في طوقي أن أتحرك. وحين يفترّ ثغرها عن أقل بسمة، تنبعث موجات سحرية، فلا أعود أجرؤ على النظر إليها طويلاً كي لا أفقد توازني وأخرّ مغشياً علي. شعرها أيضاً، ما إن يمر من أمام نار الموقد حتى يغدو نوراً خالصاً، موسيقا سحرية!... تبًّا! كانت تغدو جنيّة! لا مراء في ذلك. أما أنا، فهناك، من طرف شفتها، على الأخص، كنت سألتهمها.

كانت لطيفة معي أيضاً مثلما مع الولد المعتوه، تترجم لي أصغر الكلمات، كل ما كان يحكى على المائدة، جميع قصص الأولاد المخاطيين... كانت تشرح لي بالفرنسية أولاً، فتلفظ الكلمات ببطء شديد... وتحمل نفسها عبئاً مضاعفاً... كان عجوزها يطرف دائماً بعينيه، من خلف نظارته، لم يعد يفعل الكثير، العصفور، كان يكتفي بالرضا والإذعان... " Yes, فردیناند Yes!" كان يوافق متودداً. ثم يتسلى وحده، فينظف بقية أسنانه المعوجة بتمهل شديد، ثم أذنيه،

ويلعب بطقم أسنانه، يخلعه، ثم يعيده إلى فمه... منتظراً أن ينتهي الأولاد من طعامهم، كي يغوص في صلواته من جديد.

حينما كنا ننهض عن المائدة كانت السيدة ميروين أيضاً تحاول قليلاً أن تثير اهتمامي بالأشياء، قبل أن نعود إلى الصف "The Table، الطاولة، هيا يا فرديناند!..." كنت أقاوم كل السحر المنثال من صوتها، لم أكن أجيب بشيء. كنت أدعها تمر أمامي... تنشيني خصلات شعرها. كان لها مؤخرة باذخة، وليس فقط وجه جميل... مؤخرة مشدودة، ممتلئة، لا هي ضخمة، ولا هي صغيرة. منسكبة بإحكام داخل تنورتها، عيد عضلي... آية سماوية... ميلي الفطري الذي لا أملك له صدّاً ولا مقاومة... كنت سآكل هذه الغانية، سألتهمها كلها بلحمها وعظمها، أعلن ذلك على رؤوس الأشهاد... كنت أحتفظ في داخلي بكل إغواءاتي. الصبيان الآخرون في المدرسة، كنت أحذرهم كما أحذر الطاعون... لم يكونوا سوى عصبة من المخاطيين الصغار، المماحكين الصغار، النمامين الساخطين دوماً. ما عاد لدي ميل إلى التفاهات والدمى، كنت أجدهم مقرفين مقززين، كل أولئك الأولاد، بتكشيراتهم القبيحة... ما عاد لدي عمرهم ولا صبرهم. ما عدت أجد الوضع في المدرسة محتملاً... كل ما يفبركونه، كل ما يتلونه ويستظهرونه، كان من الصعب علي الإصغاء إليه جملة وتفصيلاً... إلى جانب ما كان ينتظرنا، والطريقة التي سيعاملوننا بها بعد أن نخرج من هنا... لو أردت أن أتحدث لصعقتهم بثلاث كلمات، بثلاث حركات، كل أولئك الأغبياء المزيفين، ولما بقي واحد منهم واقفاً على رجليه. كانت تنتابني مشاعر الكراهية لمجرد رؤيتهم يتدافعون في لعبة الكريكيت... في البداية، كانوا ينتظرونني في الزوايا الخفية كي

يدربونني على التحدث بالإنكليزية، كما يزعمون... كانوا يعتقدون، على هذا النحو، بأنني سأتحدث مع ذلك، كانوا يختبئون هناك، حوالي اثنا عشر منهم، يبتلعون سكائرهم، فكنت أتظاهر بأنني لا أرى شيئاً، وأنتظرهم كي يكونوا على مسافة قريبة مني، وحينئذ أنقضّ عليهم وأجعلهم يقفزون، تحت وقع صفعات قوية على وجوههم، وركلات من حذائي على عظام سيقانهم... كنت أوسعهم ضرباً! أطبخهم طبخاً! فيتساقطون فوق بعضهم مثل أوتاد البولينغ... ولا يبرحون يتحسسون عظامهم... حتى انقلبوا بعدئذ أكثر لياقة وتأدباً... وشرعوا يتصرفون بلطف واحترام... وحين كانوا يعاودون عبثهم، كنت أعاجل إثنين أو ثلاثة منهم بالصفعات... فيثوبون إلى رشدهم تقريباً.

كنت الأقوى بينهم في الواقع، وربما الأشدُّ خبثاً... كان هؤلاء الصبيان، الفرنسيون منهم والإنكليز، سواء بسواء، أشبه بهامات طفيلية، ينبغي سحقها بالأرجل عند المدخل، لا يجوز التساهل معهم، فإما أن تؤدبهم على الفور، أو أنك لن تستطيع بعد ذلك أبداً، وحينئذ سيتسلقون ظهرك. وسينهار كل شيء، يتعفن، يذوب. ولن يبقى لك سوى البراز، إذا ضيعت الفرصة. ولو أني رغبت أن أتحدث معهم لكنت حدثتهم كيف يكون العمل الحقيقي!... وكيف تكون الأمور في الحياة، وكيف يكون التدريب. كنت سأحرر سريعاً هؤلاء الأقزام التافهين من أوهامهم. لم يكن هؤلاء الصغار يفقهون شيئاً، لم يكن لديهم أي شكوك... لا يفهمون سوى الفوطبول... ومشاهدة أعضاء بعضهم بعضاً.

***

لم تكن ساعات الدرس طويلة، ما كنا نلزق بالمقاعد سوى في الصباح.

فيما يتعلق بدروس الدين. والرياضة بأنواعها كان للسيد ميروين اليد العليا. كان متكفلاً بكل شيء، يعلّم وحده كل الدروس، لم يكن في المدرسة أساتذة آخرون.

منذ انبلاج الصبح، كان يمر علينا، هو نفسه، بصندله ومبذله، ليوقظنا من النوم، مشعلاً غليونه الصغير. كان يدور حول الأسّرة، هازاً خيزرانته الطويلة، يسوط بها هنا وهناك، ولكن ليس بشدة على الإطلاق. "هلو بويْز! هلو بويْز!" كان صوت العجوز الصغير يتردد في عنبر النوم. كنا نتبعه إلى المغاسل... ونقف أمام صف من الحنفيات، لم نكن نستخدمها إلا بأقل قدر ممكن. فقد كان البرد أقسى من أن نتحمل الاغتسال بالماء والصابون. ووابل المطر ما ينفك يهمي دون توقف. كان طوفان المطر يبدأ مع شهر كانون الأول، فلا نعود نرى شيئاً من المدينة، ولا المرفأ، ولا النهر... كانت سحب الضباب تخيم فوقنا باستمرار، على غرار كومة قطن هائلة، وحين تهمي فوقها الأمطار تنفرج لحظة، فنلمح أضواء، ما تلبث أن تختفي بعد أن تنعقد سحابة الضباب من جديد... كنا نسمع جميع الصافرات، جميع نداءات السفن. كانت الجلبة في المرفأ تبدأ مع انبلاج الفجر فتطلق الرافعات صريرها الحاد، ويصأصئ قطار الشحن الصغير مبهور الأنفاس، بمحاذاة الرصيف.

كان ميروين يصطحب معه، لدى وصوله إلينا، مصباح الغاز، كي نتمكن من العثور على جواربنا. كنا نهرع بعد الاغتسال، ونحن ما نزال مبللين، إلى مائدة الإفطار الهزيلة، في الطابق الأرضي. فنتلو صلاة قصيرة، ثم نتناول الإفطار. ذلكم هو المكان الوحيد الذي يتم فيه إشعال قليل من الكربون، من النوع الدهني والسائل الذي يحدث

بركانـاً، كـان يفرقـع، ويفـوح برائحـة الإسـفلت. كانـت الرائحـة مستساغة، ولكن بقايا الكبريت كانت لاسعة بقوة مع ذلك!.

على المائدة كان هنـاك قطعـة مـن الـسجق فـوق خبـز محمـص، ولكنها صغيرة جداً في الواقع! كانت شهية، بالتأكيد ولكنها مـا كانـت كافية على الإطلاق... كنت سألتهمها كلها. كانت ألسنة النار تتـراقص عبر الدخان. منعكسة على الجدار، فوق أيوب، وفوق سـفينة نـوح... كان ذلك يخلق أطيافاً غريبة.

من دون أن أنطق بكلمة واحدة باللغة الإنكليزية، كنت أسلي عـيني طوال الوقت... أنظر إلى العجوز، وهـو يمـضغ طعامـه بـبطء. كانـت السيدة ميروين تصل بعد الجميع، بعد أن تكون قد ألبـست جونكينـد. فـتجلس علـى كرسـيها، وتبعـد أدوات المائـدة عـن متنـاول الولـد المعتـوه، ولاسـيما الـسكاكين، كان مـن المـدهش حقـاً أنـه لم يعـور عينه... وأنه لم يبتلع، وهو المنهوم جداً، إبريق القهوة الـصغير، وأنـه لم يفطس حتى الآن... أما نورا، المعلمة، فكنت أنظـر إليهـا خلـسة، كنت أسمع صوتها مثل أغنية... كان صوتها، مثله مثل كل شيء فيهـا، سحراً عذباً آسراً... ما كان يثير انتباهي في إنكليزيتـها هـو موسـيقاها، تلك الموسـيقا الـتي كانـت تنساب متراقـصة حولنـا، ووسـط ألـسنة اللهيب. كنت أعيش، أنا أيضاً، على غرار جونكينـد، في المحـصلة، مستغرقاً في الذهول، أعيش حالة من البحران، مسلماً نفسي للافتتـان والسحر. ما كان في طوقي أن أفعل شيئاً. ولكن، البقّة! كان خليقاً بهـا أن تدرك ما أعانيه! تباً للنساء! كانت فاجرة مثل الأخريات. "ولكن قل لي إذن يا آرثر! كنت أقول لنفسي، ألا تكون قد أبتلعت طـائرة ورق؟ ألست مريضاً؟ قل، أحياناً؟ فأنت تحلق عالياً! يا فتاي العزيز! تمسك يا مسيحي! هيا انقر البيضة! فأنت على شفير الهاوية"... وعلى الفور،

وكان هذا حتمياً، كنت أقسو وأتصلب... كنت أتقلص وأنكمش. لقد مضى وانقضى عهد الصبابات! وأغلقت باب سردابي بإحكام!.

كان حرياً بي أن أظل حذراً، لقد جرفني الخيال بعيداً. كان المكان يوقظ الأحلام الغافية بشآبيبه الكثيفة، وسحبه الزاحفة. خليق بي أن أحمي نفسي، وأن أتصلب باستمرار. ولكن ثمة سؤال كان يلح علي دائماً، ترى، كيف تزوجت من هذا الصغير المدوّد؟ هذا الفأر الصغير بخيزرانته؟ كان هذا يبدو مستحيلاً! أي مأزق! أية ورطة! كان يثير الرعب بغليونه! ما كان يساوي عشرين قرشاً! ولكن ذلك كان شأنها في النهاية.

كانت هي من يلاحقني دائماً! من يريد أن أتحدث وأناقش: "Good morning فرديناند! هلو! Good Morning!" وكان يتولاني الجزع والارتباك، كانت تومئ لي إيماءات بالغة الظرف... فأوشك على السقوط مرات عديدة، ولكنني كنت سرعان ما أتدارك نفسي، وأستعيد على نحو مفاجئ تلك الأشياء والوجوه التي كانت تملأ رأسي... فأرى من جديد رأس لافيلونج، وغورلوج. خليط عجيب!... كان لدي تشكيلة تدفعني إلى الإقياء! الأم ميهون!... وساكياموني!... فلا أملك حينئذ إلا القرف والاشمئزاز. كان أنفي دائماً غاطساً في الخراء! كنت أجيب شخصاً في داخلي: "تكلم دائماً، تكلم أيضاً، قل يا جرادتي البحرية! لست أنت من سيجعلني أندهش... يمكنك أن تشق كل حنجرتك... أن تبتسم مثل اثني عشر ضفدعاً!... أما أنا فلن أتغير!... جروحي تقرحت. لقد قطعت الوعود، جعبتي زاخرة بها"... كنت أعاود التفكير بوالدي الطيب... بمهاتراته الصاخبة، بتخليطاته الهذيانية... بكل الترهات التي كانت تنتظرني، بأعمال الحانوت السقيمة والمضنية، بكل روث الزبائن، وكل الفاصولياء والمعكرونة الشريطية، وتسليم الطلبات... وأرباب

العمل! بالآلام التي كنت قد تكبدتها! بالباساج!... بالرغبات الجسدية المشبوبة التي كانت تجتاحني فجأة حتى النخاع... كنت أتشنج، حين تعاودني الذكريات! كنت أكشط ثقب إستي!... أنتزع جلدي بكامله لفرط ما يتملكني الهياج... كان حدّي مثلوماً ولن تشحذه هذه الحسناء. وحتى لو صارت أشد ألقاً وبهاء بمئة ألف مرة فلن أبادرها بأقل إشارة إغواء! ما من حركة تودد! ما من تنهيدة واحدة! حتى لو قطّعت لحمها، الحمقاء، لو مزقت نفسها فلذاً كي تثير إعجابي، لو لفّت حول عنقها حبلاً لتقتل نفسها، لو قطعت ثلاثة أصابع من يدها وقدمتها لي! فلن أكلمها قط كلمة رقيقة مع ذلك!... ولا أصغر قبلة... تلكم حماقة فادحة! هوذا! كنت أفضل النظر إلى زوجها. أتفرس في وجهه أكثر... كان هذا يمنعني من أن أهذي... كنت أقارن بينه وبينها... كان لحمه لفتيّ اللون، يسري فيه قليل من دم أخضر مختلط... و كان له لون الجزر أيضاً بسبب الشعر المنتشر على هيئة دوامات، يغطي أذنيه وأسفل وجنتيه... ما الذي أمكنه أن يفعل حتى يوقع هذه الحسناء في شراكه؟... لم يكن ثرياً بالتأكيد... أكان هناك خطأ إذن؟... ولكن لا بد لنا أيضاً من إدراك حقيقة الأمور... فالنساء متعجلات دوماً، وهذا يدفعهن إلى الإعجاب بكائن من كان... أية قذارة تثير استحسانهن... إنهن أشبه بالزهور تماماً... أجملها من نصيب أشد المزابل نتانة! ربيعهن لا يدوم طويلاً! أجل! لشد ما يخدعهن هذا دائماً! أعرف أمثلة رهيبة على ذلك! ولم يتوقف ذلك أبداً! تلكم هي الحياة!...

هل سيكون علي أن أتكلم؟ هل كانت ستحشو رأسي؟ ولكنه كان صلباً مثل رصاصة... كنت سأفهم أقل أيضاً، كان ذلك يخلق لدي على الأقل طبع الأشخاص المعتادين على الصمت.

كان السيد ميروين، في الصف، يحاول أن يقنعني بأن أتكلم، ويحمّل نفسه العناء خصيصاً من أجلي. لا ينفك يحث جميع التلاميذ على أن يكلموني. ويكتب على اللوح الأسود جملاً بكاملها بحروف كبيرة، تسهل قراءتها... ثم يكتب ترجمتها تحتها. وكان الأولاد يكررون قراءتها معاً مرات عديدة، على هيئة جوقة... وبإيقاع موزون... كنت أفتح فمي على اتساعه، متظاهراً بأنني أقرأ معهم... كنت أنتظر أن يصدر الصوت من فمي... ولكن ما من صوت كان يصدر... ما من مقطع واحد. فكنت أعاود إغلاق فمي... وتنتهي المحاولة...وألبث هادئاً طيلة أربع وعشرين ساعة... "هلو! هلو! فرديناند!" كان قرد الساجو يلاحقني وقد أعيته الحيل، شاعراً بالأسف... كان يضايقني في الحقيقة... كنت سأجعله يبتلع خيزرانته الطويلة برمتها. سأدخلها فيه مثل سفود... سأعلقه بالنافذة من مؤخرته... آه! لقد أحسّ بذلك أخيراً... وما عاد يلح علي قط. كان قد اكتشف ميولي الغريزية. كنت أقوس حاجبي... وأدمدم لدى مناداتي باسمي... ما عدت أخلع معطفي حتى في الصف، وكنت أنام فيه...

كان ميروين متمسكاً بي. لم يكن في صفه الكثير من الأولاد، لم يكن يرغب بأن أترك مدرسته قبل انتهاء شهوري الستة، كان في ريب من اندفاعاتي، ولا يبرح يحتفظ بموقف دفاعي...

في عنبر النوم، كنا نخلو إلى أنفسنا، فأتكلم مع الأولاد، بعد تلاوة صلاتنا... كنا نتلوها جاثين على ركبنا فوق الأرض، بثياب النوم، عند نهاية السرير... كان ميروين يلقي نوعاً من موعظة، فيما نكون متحلقين حوله... ثم ينصرف إلى غرفته... ولا نعود نراه ثانية... وبعد الحوارات السريعة، كنا نلوذ بأسرتنا على عجل، ولا نلبث أن نبدأ بالاهتزاز فوقها، فيرفع ذلك من حرارة أجسادنا... كان الأحمق

يسجن السيدة ميروين داخل سرير خاص ذي شبك معدني أشبه بغطاء صندوق، لم يكن يرغب في شيء سوى بالإفلات منها... كان أحياناً يقلب السرير لفرط ما يروبص أثناء النوم...

كنت قد تعرفت على صبي صغير غريب، يتعلق بي كل مساء، ويعرض علي طرقاً أخرى للمتعة، كان لديه أفكار... كان يضحك جميع من في العنبر بدعاباته... كان يقلد الكلب... ووف! ووف! نابحاً مثله، راكضاً على قوائمه الأربع مثل كلب صغير، كنا نصفر له فيعود... كان يحب أن نطلب منه ذلك... وفي الليالي التي تختمر فيها العاصفة، وتندفع بقوة داخل الممر المغلق تحت نوافذنا، كنا نتراهن على الفانوس المعلق بالقرب من الباب إن كانت الريح ستطفئه؟ كان يصر صريراً حاداً. كنت أنا من يتسلم الرهانات، وهي عبارة عن قطع شوكالاته، وصور، وأعقاب سجائر... وكعاب من السكر... وثلاثة أعواد من الثقاب. كنت موضع ثقة منهم... كنا نضع كل ذلك فوق سريري، وكان "ووف- ووف الكلب" هو من يكسب الرهان غالباً... كان لديه غريزة العواصف... وعشية عيد الميلاد، ثارت ثورة إعصارعات، حطم فانوس الدهليز بكامله. ماأزال أتذكره دائماً... وقد كسبت أنا والـ "ووف ـ ووف" يومها كل الرهانات.

***

كانت الموضة الدارجة، أوالتقليد اليومي يقضيان بأن نرتدي جميعاً بعد الظهر ثياب الرياضة، وهي مؤلفة من بدلة خفيفة مقلمة بالأخضر والأصفر بالإضافة إلى طاقية مناسبة للزي تزينها شارة المدرسة... لم أكن حريصاً جداً، بنحو خاص على اقتناء قناع المساخر ذاك، ثم إنه كان مكلفاً جداً... وعلى الأخص الحذاء ذو المسامير... لم يكن طبعي يتقبل ألعاب الأولاد تلك، ولم أر مستقبلي

حافلاً بالألعاب... كان ذلك أيضاً نوعاً من تسلية سقيمة مصنوعة للحمقى الصغار.

كان ميروين ذاته، بعد الغداء، يخلع دثاره، ويرتدي السترة المقلمة، و، فرووتت!... هو ذا يخرج من غرفته، مرحاً طروباً، متبدل الهيئة والملامح حتى لا نكاد نعرفه... يقفز مثل جدْي من طرف ميدان الملعب إلى طرفه الآخر... تحت الشآبيب والعواصف المطرية، شاعراً بذلك بأنه واحد من البشر... كان يكفي أن يلبس ثوب المهرج ذاك كي ينطنط كما لو بفعل تأثير سحري. كان غريباً مضحكاً، مفرط الحيوية.

الإنكليز قوم مضحكون مع ذلك، فيما يتعلق بقيافتهم، فهم أنصاف خوارنة، وأنصاف صبيان، لا يغادرون قط ميدان الالتباس... وهم سادوميون بالأحرى يأتون بعضهم بعضاً... كان ما أزعج ميروين كثيراً هو أن والديّ اشتريا لي بدلة كاملة، وأنني كنت مجهزاً في النهاية كبطل للمانويل كوليج! وأنني ما كنت ألوث بدلتي، بين صفوف الأولاد خلال النزهات أو في لعبة كرة القدم... وقد أطلعني على رسالة كتبها إلى والدي حول موضوع زينتي هذه، ولعله كان سيقبض تعويضاً؟ أو لعله ينتظر عمولته الصغيرة؟ كان إلحاحه مشبوهاً... لم أبد أي استياء إزاء الرسالة، كنت أبتسم في داخلي... "أرسل رسائل دائماً يا جدّي الصغير، فأنت لا تعرف والديّ... إنهما لا يشتريان الرياضة بقرش واحد..." لا ريب في أنه لايدرك ذلك!... لا ريب في أنه لن يحصد إلا الخيبة... فهم سيقيئان على بدلته مرتين!... وستكون العاقبة سيئة!...

على هذا النحو إذن، بعد الغداء، وحينما يرمقنا الإله الرحيم، وتتوقف الزوابع الماطرة!... كان ينبغي أن ننطلق جميعاً إلى الألعاب والنزهات... كنا نرتقي إثنين إثنين هضبة أخرى خلف هضبتنا، مغطاة

بالنقع والسيول، سديماً، مستنقعات... كنت أسير آخر الرتل مع السيدة ميروين وكان الولد المعتوه يسير بيننا، حاملين مجرفته وسطله، ليتمكن من جبل أكوام هائلة من الطين الرخو الذائب. كان ذلك يبقيه هادئاً قليلاً... لم يعد لدينا مظلات ولا مشمعات واقية بعد أن طوح بها الإعصار... ما من شيء كان يصمد أمامه... ولو لم يكن الطين أشد كثافة من الرصاص لحلّقنا مع الطيور في الجو...

كنت أحتل أهم موقع في فريق الكرة... باعتباري حارساً للمرمى، كان ذلك يتيح لي التفكير بهدوء...لم أكن أحب أن يزعجوني، كنت أدع جميع الكرات تقريباً تجتاز المرمى... وحين ينطلق صوت الصافرة، كان المخاطيون يشتبكون في عراك صاخب، كانوا يحرثون الأرض الطينية، تغوص أقدامهم مع كل خطوة في الطين، وتلزق فيه، وتتغطى عيونهم ورؤوسهم بكل وحل التربة... وحين تنتهي اللعبة لا يعود صبياننا سوى قوالب حقيقية من الأقذار، يقطر منها الصلصال السائل. يجرّون خلفهم قوالب من الطين والأوساخ. وكلما غدوا ملطخين، شائهين، ممرغين بالأقذار كلما كانوا سعداء جذلين... كانوا يهذون طرباً وسط أغشية الجليد وطبقات الوحول التي تلفهم من قمة رأسهم إلى أخمص قدميهم.

كان السأم الذي نعانيه ناجماً عن غياب منافسين أنداد... كانت الفرق المنافسة نادرة، ولاسيما في محيطنا المجاور. أما الفريق الوحيد الذي كنا نواجهه عادة كل أيام الخميس فهو فريق مدرسة "بيتويت" على الجانب الآخر للجسر، في سترود. وهو فريق من الصبيان المهلهلين الذين تغطيهم البثور والدمامل. لقطاء مهجورون تضمهم مؤسسة تعليمية خيرية. كان هؤلاء الأولاد هزيلين ضامرين إلى أبعد حد، أخف وزناً من أولادنا بكثير، حتى لا يكادون يزنون

شيئاً والحق يقال، وما إن يندفعوا مع الضربة الأولى، يحدوهم الحماس، حتى تحملهم الريح، فيحلّقوا مع الكرة... كان ينبغي على الأخص الإمساك بهم وتثبيتهم، وتمديدهم على الأرض. كنا نضع في مرماهم اثني عشر هدفاً مقابل أربعة، حتى بات ذلك اعتيادياً. وإذا ما همسوا بأي اعتراض، وسمعهم أحد من فريقنا فليس هناك ثانية من التردد، كانوا يثخنون بالضرب المبرح، ويتلقون تأديباً وافياً، وإذا ما قذفوا الكرة وسجلوا هدفاً أكثر من المعتاد، كان أولادنا يغدون متوحشين. ويحتجون بأن هذا إنما كان غدراً، فيحددون الجناة المذنبين، وينزلون بهم العقاب، وتتحول اللعبة إلى مصارعة ثيران. وبعد أوبتنا مساء، كانوا يعاودون مناقشة ما حدث، بعد الصلاة، وحين يغلق العجوز بابه... كانت عاصفة النقاش تخبو بعد خمس دقائق... كان جونكيند هو المسؤول... وهو دوماً من يتسبب في إنزال القصاص به بسبب بلاهاته... كان يتلقى عقاباً... ويا له من عقاب... كانوا يرفعون الغطاء الشبكي عن سريره، ويخرجونه من مضجعه... فيمددونه في البداية، مثل أبو جنب، على الأرضية الخشبية، ويشرع عشرة منهم في جلده بالأحزمة دون رحمة، وحتى بطرف الإبزيم المعدني، وحين يصرخ عالياً كانوا يضعونه تحت فرشة قش ثم يطؤون جميعهم فوقه، يمرون، يدقون بأقدامهم فوق جسده. كانت هذه متعتهم القصوى، كي يتعلم الأصول، كان ذلك يتواصل حتى يشفي على الهلاك، ويهمد همود الموت.

وفي اليوم الثاني. لا يعود بوسعه الوقوف على رجليه... كان أمره يلتبس على السيدة ميروين، لم تعد تفهم صبيها المخاطي... ما عاد يكرر "No Trouble"... كان يتهاوى على المائدة، وفي الصف، ويظل ثلاثة أيام غارقاً في بحران ثقيل... غير أنه كان عصياً على

الإصلاح، كان خليقاً أن يقيد من يديه ورجليه كـي يلبـث هادئـاً، ولا يقترب من المرمى... ولكنه ما إن يرى الكرة مقبلة، حـتى يخـرج عـن طوره، ويندفع نحو المرمى. تحدوه لوثته، ويقفز على الكرة الممرغـة بالوحول، فينتزعها من الحارس. وقبل أن يـتمكن أحـد مـن إمـساكه، كان يعدو هارباً بالكرة... كان ممسوساً حقاً في تلك اللحظات... كـان يعدو أسرع مـن الجميـع... "هـوراي! هـوراي! هـوراي...!" لم يكـن يكف عن الصراخ، ولا ينفك يعدو هكذا حتى أسفل التلـة. كـان مـن الصعب اللحاق به، وهو ينحدر نحـو المدينـة. كـانوا يدركونـه قـرب الحوانيت... فيقذف الكرة بقدمه صوب الواجهات الزجاجية، فـيحطم اللوحات الإعلانية... كان يسكنه جنِّي رياضي... لذا كان ينبغي الحـذر من نزواته المنفلتة.

خلال أشهر ثلاثة لم أتكلم كلمة واحدة. لم أقـل Hip! ولا Yep! ولا youf!... ولا Yes!... لم أقل No... لم أقل شيئا!... كان ذلـك عملاً بطولياً لم أتحدث إلى أحد، كنت أجد ذلك رائعاً بحق...

في عنبر النـوم، كانـت الاهتـزازات المـشبوبة بحثـاً عـن المتعـة، تتواصل،كنت في حيرة من أمري بشأن نورا... ولكنني لم أتجـاوز قـط حدود الافتراضات.

ما بين شهري كانون الثاني وشباط اشتدت حـدة الـبرد على نحو مخيف، وتكاثفت سـحب الـضباب أيـضاً بكثافـة، بحيـث بـات مـن المستحيل أن نهتدي إلى طريقنا حينمـا كنـا نـنزل إلى التـدريب، كنا نلتمس طريقنا بصعوبة.

كان العجوز قد أراحني في الصف، وفوق الرابية، ما عـاد يحـاول أن يقنعني... كان قد فهم طبيعتي... معتقداً بأنني كنت أفكـر... وأنني

سأنخرط في التعليم بعد حين! برفق وهدوء... لم يكن هذا هو ما يهمني. كانت عودتي إلى الباساج هي التي تقض مضجعي... كنت أرتعد بسبب ذلك ثلاثة أشهر قبل الأوان. وأهذي لا لسبب إلا لتفكيري بذلك!... تفوه! حين سيكون علي أن أتكلم ثانية.

لم يكن لدي، في النهاية، ما أشكو منه، جسدياً، كنت أتقدم باطراد في هذا الجانب، لا بل قد أصحبت أقوى بكثير مما كنت... كانت قسوة المناخ تلائمني كل الملائمة... ودرجة الحرارة الجليدية اللعينة... كان ذلك يقويني أكثر فأكثر. ولو أنني كنت آكل على نحو أفضل لغدوت مصارعاً شديد البأس، كنت سأحطم الجميع هناك...

انقضى أسبوعان اثنان أيضاً وأنا على هذه الحال من الصمت، وها قد مرت علي أربعة أشهر دون أن أفتح فمي. حينئذ شعر ميروين بالخوف فجأة. وفي ظهيرة أحد الأيام، بعد أن عدنا من الرياضة، رأيته يمسك ورقة، ويشرع في الكتابة إلى والدي، وهو يرتعش... سيكتب حماقات ولا شك... آه! يا للمحاولة السقيمة... بعد عودة البريد، تلقيت ثلاث رسائل من والدي مرصوصة إلى بعضها، يمكنني وصفها بأنها مثيرة للاشمئزاز... مدججة، متخمة، تفيض بألف تهديد ووعيد، وأيمان معظّمة، وشتائم إغريقية، ولاتينية، وإنذارات متوعدة... وانتقامات، ولعنات شتى، وأحزان لا نهائية... كان يصف سلوكي بالجهنمي! بالقيامي!... هاأنذا من جديد مشبط كلياً!... وأرسل إلي إنذاراً نهائياً. علي الانكباب فوراً على تعلم اللغة الإنكليزية، باسم المبادئ الرهيبة، والتضحيات الجسيمة... باسم مئتي ألف فاقة وحرمان، وآلام ممضة، وكلها من أجل خلاصي! كان الأبله القذر ميروين مبلبلاً، منفعلاً غاية الانفعال لأنه أحدث هذا الطوفان... كان نتناً حقاً! انهارت السدود الآن... ما عاد بالوسع فعل

أي شيء. كنت أشعر بتقزز لا يوصف وأنا أرى على الطاولة جميع بلاهات أبي مبسوطة أمامي، سواداً على بياض...

كان هذا الميروين أيضاً طيزاً حقيقية قذرة، أشد قذارة أيضاً من جميع الصبيان معاً! وأضل سبيلاً وأكثر عناداً... كنت متأكداً بأنه سيسبب هلاكي بنظارته المثبتة فوق أنفه.

***

إذا ما لبث مطمئناً، ناعم البال فلأنني كنت سأظل عنده لستة أشهر، مثلما كان مقرراً... أما الآن فقد اتخذ جانب الحذر، إذ لم يعد لي سوى بضعة أسابيع... كنت متمترساً في خندق الصمت... حاقداً عليه بمرارة... وإذا ما غادرت مدرسته فبئس الأمر بالنسبة إليه... كان ذلك كارثة لمدرسته! لقد أراد هو ذلك، وحرض عليه. لم تكن الأعمال في المانويل كوليج تلقى رواجاً، كان وجودي في فريق المدرسة على الأقل يحميها أكثر من الخسارة في المباريات الرياضية، ولا ينتهي ربيعها سريعاً.

بعد عطلة عيد الميلاد، كان قد غادر المدرسة أربعة أولاد، ثم لم يرجعوا... لن تعود الكوليج جديرة بأن تسترعي الأنظار في مباريات الكرة... حتى لو تركنا جونكيند يلعب في الفريق. ما عاد من الممكن الصمود... لا طائل من الدخول إلى الملعب بثمانية لاعبين فقط... فسيعرضون أنفسهم لهزيمة ساحقة بالتأكيد... وسيسجل أولاد "البيتويت" ما يشاؤون من الأهداف، حتى لو كانوا أخف وزناً من الريش، وأقل تغذية بمرتين أيضاً... في البداية سيهرب جميع المتفرجين... فهم لم يكونوا يتوقعون هزيمة فريقنا... لم تعد الكوليج معقولة ولا محتملة... وإذا لم يعد هناك كرة فإنها موشكة على

الإفلاس... خاف العجوز، وأصابه الإسهال... كان ما يزال يبذل بعض الجهود. كان يسألني بالفرنسية... إذا لم يكن لدي اعتراضات، أو شكاوى أقدمها إليه!... أو ما إذا كان الأولاد يزعجونني !... لم يعد ينقصني سوى هذا! إذا ما كان حذائي مبللاً؟... إذا ما كنت أريد طبقاً خاصاً من الطعام؟... ما كان ثمة فائدة من أن أشرح له الأمور، كنت أشعر بالخجل أمام نورا من التظاهر بالحرد والبله... ولكن الكرامة الشخصية شأن ثانوي... فما دمنا قد عزمنا أمرنا على اللعب فلا بد أولاً من الوفاء بالوعود. كنت أغدو ضرورياً كلما فقدت الكوليج مزيداً من التلاميذ... كانوا يمهدون لي بألف تمهيد... ابتسامات... وملاطفات... كان الأولاد يبذلون جهوداً أيضاً لاسترضائي... فجاك الصغير، ذاك الذي كان يقلد الكلب كل مساء، قدم لي ملبّسات أخرى، وبعضاً من بقلته الصغيرة أيضاً، الني لها طعم الخردل، والتي كانت تزرع في صناديق خاصة، بالغة العفونة، فوق متكأ النافذة.

طلب العجوز من الأولاد بأن يتصرفوا معي بلطف ومودة، وأن يتمسكوا بي حتى عيد الفصح... وشرح لهم بأن هذه مسألة رياضية، تليق بشرف الكوليج... وأنني إذا رحلت في وقت أبكر، فإن الفريق سينهار، ولن يحقق الفوز على "البيوتيت"...

ولكي يجعلني في وضع أكثر حظوة وتميزاً، فقد أعفاني من الدراسة... فكنت أسلي جميع الأولاد داخل الصف... أقرقع بدرج المقعد طيلة الوقت، وأذهب إلى النافذة لأشاهد الضباب، وحركة المرفأ... كنت أمارس هوايات شخصية بحبات الصنوبر والجوز، أصمم معارك بحرية... سفناً شراعية تحترق... كنت أمنع الأولاد الآخرين من أن يتعلموا...

كان الصبي المعتوه يظل هادئاً تقريباً، ولكنه كان يدخل مقبض ريشته في فتحة منخره ويدفعه عميقاً... كان يضع ريشتين غالباً، وأربعاً في بعض الأحيان في منخر واحد ويدخلها جميعاً. وكان يبعق... ويشرب حبر المحبرة... كل ذلك كان أهون أيضاً من تصرفاته حين يخرج إلى النزهة... كان يكبر، وتغدو مراقبته صعبة جداً... كانوا يصطحبوننا معاً إلى النزهة... فأشعر بالأسف لخروجي من الصف... لم أكن أتعلم... ولكنني كنت سعيداً، ما كنت أكره جرس اللغة الإنكليزية... فقد كان لطيفاً، أنيقاً، رخيماً... إنه نوع من موسيقا صادرة من كون آخر... كنت أفتقر إلى ملكة التعلم... لم يكن صعباً علي أن أقاوم... كان والدي يكرر دائماً بأنني بليد غليظ الفهم... ما كان هذا إذاً مدهشاً... كانت عزلتي تلك تلائمني مزيداً من الملاءمة... كان العناد مصدر قوتي، وقد اضطروا أخيراً إلى الخضوع، والكف عن إزعاجي... وجعلوا يتملقون غرائزي وميلي إلى التنزه والتطواف... صاروا ينزهونني كثيراً في الأنحاء المجاورة، عبر التلال والقرى، برفقة المعتوه، وعربته اليدوية وكل ألعابه...

ما إن تبدأ الدروس، حتى نخرج صوب البراري أنا وجونكيند والمعلمة... كنا نعود غالباً عبر شانتام، إذا كان ثمة مهمة نقوم بها. كنا نربط المعتوه بحبل نعلقه بحزامه من الخلف، كي لا يفلت منا عبر الدروب... كان يتملص أحياناً ويختفي مؤقتاً... كنا نهبط إلى المدينة، ونمر من أمام عروض البضائع، نمشي بحذر بسبب العربات، كان يشعر بالهلع من الخيول، فيقفز قريباً من العجلات.

خلال جولتنا في الأسواق لتأمين المشتريات كانت السيدة ميروين تحاول أن تفهمني رموز الكتابات والنقوش على لوحات المخازن... وتدربني على القراءة... فأتدرب عن غير قصد وتعمد،

ودون أي تعب... كنت أدعها تتكلم... أنظر إلى وجهها فقط، إلى ذلك المكان من وجهها الذي يحيرني ويخلق البلبلة في داخلي... إلى بسمتها. إلى فمها المتمرد... ذلكم ما كنت أتحرق شوقاً ورغبة إليه. إلى عناقه... ما كان يعذبني ويقلقني... كنت أسير خلفها... فيفتنني قدها، وحركاتها، وتموجات عودها الرهيف... وفي اليوم الذي نذهب خلاله إلى السوق كنا نصطحب السلة الكبيرة... التي تشبه مهداً من مهود الأطفال. كان كل منا يمسك بناحية من حزام جونكيند. كنا نعود بجميع مواد الطعام للأسبوع بكامله... كان ذلك يستغرق ساعات الصباح بكاملها.

رأيت مرة من بعيد فتاتي الطباخة جواندولين، كانت منهمكة بالقلي، معتمرة قبعة أخرى أكبر بكثير، وأكثر تألقاً... كرهت المرور من أمامها، لأنني لن أخلص بعد ذلك من الشرح والتفسير... وحينما كنا نظل في الكوليج بسبب نزلة صدرية ألمت بجونكيند، كانت لورا تستلقي فوق أريكة الصالون، وتشرع في القراءة، كانت الكتب مبعثرة حولها في كل مكان... يالها من امرأة رقيقة مرهفة، مجنحة الخيال، ملاكنا اللطيف... لم تكن توسخ يديها بأعمال البيت. ما كانت هي التي تعد اليخنة أو تقوم بترتيب الأسرّة، أو تنظيف الأرضيات... كانت هناك خادمتان في المنزل حينما وصلت، هما فلوسي وجيرترود. كانتا بدينتين جداً... ترى من أين جاءتهما هذه البدانة إذن؟ لا شك أنهما كانتا تضعان يدهما على كل شيء. أو أن بدانتهما كانت مرضاً... ما عادتا فتيتين، لا هذه ولا تلك... كنت أسمعهما تتشاجران في كل وقت، وتنخران على الدرج، وتهددان بعضهما بالمكنسة. لم تكونا تشعران بالبرد كثيراً مع ذلك... كانت الأوساخ تتراكم في الأركان والزوايا.

كانت فلوسي تدخن خفية، وقد صفعتها ذات يوم في الحديقة. لم تكونا تغسلان شيئاً داخل المنزل. كانتا تحملان الغسيل إلى المدينة، إلى مغسل خاص، بعيد جداً، أبعد من الثكنات. لم يكن ثمة راحة في تلك الأيام، بسبب جونكيند، كنا نصعد وننزل المنحدر عدداً من المرات حاملين أمتعة ثقيلة... ننقلها بسرعة إلى الأعلى... كنت أعتبر ذلك رياضة حقيقية... كان هذا يذكرني بأيام البوليفارات في باريس... وحينما يغدو وابل المطر ثقيلاً جداً، دفاقاً، كما لو أن السماء كانت تسقط فوق الأسطح وتتهشم في كل مكان على هيئة أعاصير وشلالات وجداول طامية، يغدو خروجنا نزهة خرافية. كنا نتقارب ثلاثتنا كي نقاوم الإعصار. كانت أطراف نورا وشعرها وفخذاها تبدو كما لو أنها من ماء صلب لفرط ما كان وابل المطر شديداً. كنا نظل ملتصقين سوياً، مشدودين إلى بعضنا بعضاً... لم نعد نتقدم خطوة، ما عاد بإمكاننا تسلق درجنا الصخري الذي يصعد بنا إلى القمة. كنا نضطر إلى الارتداد نحو الحدائق... منعطفين باتجاه الكنيسة. ونلبث واقفين أمامها... تحت سقيفتها... ننتظر نهاية ذلك الطوفان.

أما المعتوه، فكان المطر يبهجه دونما حدود. كان يخرج عامداً من ملجئه... ويقلب وجهه إلى الأعلى، باتجاه سيل المطر... فاتحاً فمه الواسع... يبتلع القطرات الكبيرة الهاطلة، وينفجر في ضحكات مجلجلة... كان ينطنط، وقد تملكه الحماس... يرقص رقصة الجيغ وسط البرك، قافزاً مثل شيطان... كان يريد أن ننط معه أيضاً... كانت تلك إحدى نوباته... بدأت أفهمه جيداً، كان من الصعب تهدئته، لم يكن بد من جذبه بالحبل وتقييده إلى رجل المقعد.

* * *

كنت أعرف والديّ حق المعرفة، أعرف موقفهما من بدلة الرياضة المقلمة، ما كان يقنعهما شيء على الإطلاق. كنت أشك بذلك سلفاً... ردوا علي فيما بعد، ما كانوا ليصدقوا أعينهم. كانوا يطلقون صرخات عالية، يعتقدون بأنني قد هربت منهم، وأنني استخدمت حيلة كي أبتز منهم نفقات جنونية. استغلوا الفرصة كي يستنتجوا بأنني ما دمت قد ضيعت أيامي في ركل الكرة، فلم يعد مستغرباً على الإطلاق بأنني لم أتعلم شيئاً من قواعد اللغة... كان هذا رأيهما النهائي! حكمهما الأخير!... بأنني لم أحرص على تعلم اللهجة الصحيحة... بل لم أتعلم أي شيء على الإطلاق! فما داما قد توصلا إلى فهمي فقد كان هذا كافياً تماماً... قرأت الرسالة مع نورا وعجوزها... ظلت مفتوحة على الطاولة... لم يفهما بعض مقاطعها. كانت تبدو لهما غامضة كلياً، غير مألوفة بالمرة... لم أشرح شيئاً منها... كنت قد أمضيت أربعة أشهر هنا، لن أندفع في لغو فارغ من أجل الحديث عن بدلة رياضة... غير أن ذلك قد أربكهما، وحتى نورا، كانت تبدو قلقة مشغولة الخاطر... ذلك أنني رفضت أن أرتدي لباس الرياضة، الزي الخاص بالكوليج، مع القبعة ذات القنزعة... والطواف في المدينة من أجل الدعاية للمانويل كوليج، خاصة وأنني كنت الأكبر بين الأولاد، والأكثر تخلعاً في المشي بينهم. كانت استقالتي من الملعب تسبب الحرج للكوليج. وأخيراً، لفرط ما ناحوا وتأوهوا... لنت قليلاً... رغبت في تسوية فعلاً، وإصلاح الأمور... وبادرت نورا إلى تعديل بدلتين قديمتين لزوجها... فصنعت منهما بدلة مركبة... صار مظهري مضحكاً، لم يعد لي شكل ولا قوام... ولكن ذلك جنّبني سماع الآهات والتنهدات... وتلقيت في المناسبة ذاتها قبعة برتقالية صغيرة... فوق رأسي الكبير... غير أن ذلك كان يبدو لهم مفيداً من أجل سمعة المدرسة... لقد استعادت الكوليج

مكانتها على هذا النحو... ثم طافوا بي عن عمد في المدينة، ما عاد ثمة حاجة إلى الاعتذار...

ماداموا يخرجونني إلى النزهات، ولا يرغمونني على الحوارات والمسارات... فقد كان هذا هو الأمر المهم بالنسبة إلي، ما كان من الممكن أن تكون الحال أفضل من ذلك... كنت سأصدع رأسي بقبعة التشريفات تلك إن هم رغبوا في ذلك... كي أدخل السرور إلى قلوبهم... كانوا يصطحبونني معهم أيام الآحاد إلى قداسهم البروتستانتي كي أشارك في التراتيل... وكان ذلك القداس يترافق مع إيقاعات موزونة! كنت أجلس! أو أقف! داخل معبدهم، لم يكونوا يسألوني عن رأيي، كانوا يخشون أن أضجر وحدي في المنزل... هناك أيضاً، بين الكراسي كان ينبغي مراقبة جونكيند. كانت تلك لحظات لا بد من قضائها... كانت لورا متماسكة مطمئنة أكثر من الجميع.

في الكنيسة، كانت نورا تترك انطباعاً لديَّ بأنها أبهى جمالاً أيضاً مما هي في الخارج، فمع عزف الأورغات والأصباغ الشفيفة لزجاج النوافذ كان مظهرها الجانبي يبهرني. ما أزال أشاهدها الآن... بعد سنوات. مع ذلك فأراها ثانية كما أشتهي. أشاهد كتفيها، الصدار الحريري الذي يشف عن خطوط، وتدويرات... عن انتصارات اللحم، والتي غدت صوراً موجعة مبرحة كل التبريح، عذوبات تطحنك وتذرّيك... أجل، كنت سأسقط مغشياً علي وسط النعيم واللذات، فيما كان صبياننا يجأرون مرتلين مزامير شاؤول.

بعد ظهر كل أحد، تعود التراتيل لتتردد في المنزل. كنت أجثو على ركبتي إلى جانبها فيما كان العجوز يستغرق في تلاوة طويلة، وفي المساء، كان الاشتهاء يبلغ ذروته في نهاية رحلة من التفكير الحالم، كانت هي التي أشتهيها. كانت هي بأسرها في النهاية!...

الجمال كله في ذلك الليل... كان هذا يعصى عليك... يهاجمك، يطوح بك... يتعذر تحمله... ولفرط ما كان جيراني في الأسرّة القريبة يهتزون مشبوبين، كان رأسي يغدو مرتعاً لسديم مشوش. وكلما كان الأولاد في عنبر النوم يستمتعون أقل بسراباتهم كنت أستمتع أكثر بأحلامي الزاهية. كان البرد قارساً في العنبر، فعاودنا ارتداء ثيابنا كلها بعد أن انصرف العجوز.

كان المصباح المعلق تحت نافذتنا، في مهب الأمطار والزوابع لا يكف عن الصرير... ولكي نحتفظ بأكبر قدر من الحرارة كنا ننام إثنين إثنين في كل سرير... كنا نغرق في استمناءات عنيفة... كنت أنا عديم الرحمة... كنت أغدو مسعوراً تحت رحمة خيالي الجامح... كنت آكل نورا بكل ما فيها من جمال، ومن شقوق... كنت أمزق المخدة إرباً، سأنتزع ما بداخل صدفتها، ولو أنني عضضت أحشاءها حقاً وحقيقاً، لارتشفت كل العصير من الأعماق... كنت سأمتصه كله دون أن أترك منه أثراً... كل دمها لا أضيع منه قطرة... كنت أفضّل أن أقوّض السرير، أن أقضم الأغطية والشراشف على أن تنزهني نورا أو أي نورا أخرى! لقد عرفت جيداً، من فضلكم، ريح النساء القبيحات. الفرج إنما هو رقصة فَرَندل. الفرج محجّة التائهين! إنه هوّة. ثقب. هوذا!... كنت أخنق صنبوري...، آه! لكن لا! بائس من يتعلل بالأوهام لأنه أسوأ من القذارة!... كل الاعترافات تُلقى أمام ذلك الكهريز!... أواه! أواه! أحبك! أعبدك! ووين! ووين!... خليق أن تهجر الكدر، وتقبل على العيد! استمتع! تلكم حلوى النوغا! منذ صغري وعيت ذلك! هلم إلى الجندول!... جدف أيها القذر!... أنا أتمسك بقطارتي! فتحة سروالي هي المجداف! دينغ دينغ دونغ! لست أرغب في أن أهلك مثل حالم! رأسه سارح في أوهام الشعر! ووين!.

فضلاً عن نزهة الصلاة في الكنيسة، كنت أتكبد نزهات أخرى... كان شيطان الإغواء الخبيث يذرع كل الدروب، يكمن خلف كل دغل... ولما كنت أقطع مسافات شاسعة، مع المعتوه والمرأة الحسناء، فقد جبت ريف روشيستر كله، وفي جميع الأوقات.

عرفت كل الوديان، وكل الدروب والمعابر. كنت أحدِّق دائماً في السماء كي أحوّل انتباهي. وفي أوقات المد، كانت الألوان تتبدل... وحين تخمد حركة الرياح والأمواج تتشكل فوق الأرض وعند الأفق غيوم وردية... فيما تغدو الحقول زرقاء...

كانت بيوت المدينة منظمة على نحو تميل فيه أسطح المنازل منحدرة صوب النهر، حتى لتبدو مثل سيل مندفع من البهائم... قطيع هائل شديد السواد مكدس وسط الضباب الثقيل المنحدر من البراري... كانت كلها تنفث الدخان وسط الأبخرة... الصفراء والخبازية...

عبثاً كانت تقوم بجولات، وباستراحات طويلة وهادئة، ما كان ذلك يحملني على الخوض معها في مسارات حميمة... وحتى حين كان ذلك يدوم لساعات طويلة... وحين كنا نعبر شوارع صغيرة عائدين إلى المنزل... وحتى حين هبط علينا الليل ذات مساء فوق الجسر الذاهب باتجاه سترود... وقفنا يومها فوق الجسر ونظرنا طويلاً إلى النهر، إلى الدوامات التي تتشكل حول عقود الجسر، كنا نسمع الأجراس من بعيد، من بعيد جداً، من القرى... وفجأة جذبت يدي إليها، وضمتها إلى صدرها... فداهمني انفعال شديد، وتركت لها يدي تفعل بها ما تشاء... لم أتحرك قيد شعرة... ما كان بوسع أحد أن يرانا... لم أفه بكلمة واحدة، لم أعترض... ما كان يساورها أدنى تردد... أن أصمد الآن للإغواء فقد كان لدي القدرة والجدارة... كلما كان الموقف أصعب وأشق بالنسبة إلي كلما كنت أغدو أقوى

وأصلب... لن تجعلني المغوية أضعف وأنهار، حتى لو كانت أشهى بألف مرة. فهي، أولاً، تنام مع الآخر، مع قرد الماكاك الصغير، وهذا مقزز ما دام أنها تتحمل النوم مع هذا العجوز ولو أنني تكلمت قليلاً، لحاولت أن أعرف لماذا هو بالذات؟ لماذا هو القبيح جداً؟ لم يكن هناك أدنى تكافؤ بينهما!... لعلني كنت غيوراً بعض الغيرة؟ لا نكران في ذلك! ولكن الصحيح أيضاً أنه كان مقززاً لدى النظر إليه أو سماعه... بذراعيه القصيرتين جداً... المتحركتين مثل جذعتين... دونما سبب... ودونما توقف. كان يبدو كما لو أن له عشر أيادٍ، لفرط ما كان يحركهما. مجرد النظر إليه كان يصيب الناظر بالحكاك... لم يكن يكف أيضاً عن طقطقة أصابعه، والتصفيق بيديه، والتلويح بعصاه، ومصالبة ذراعيه... وخلال ثانية واحدة... فرووت! كان يمضي إلى مكان آخر... حامض بكريك حقيقي... نمط كريه... مختل... معتوه... فروج...

أما هي، فعلى النقيض منه، كانت تفيض بالهارمونيا، كل حركاتها كانت لذيذة شهية... كانت سحراً خالصاً، سراباً... وحين كانت تنتقل من غرفة إلى أخرى، كان ذلك أشبه بفراغ داخل الروح، ويغوص المرء في حزن عميق لا يسبر غوره... كان يمكنها أن تبدو قلقة، أن تشف غالباً عن أسى. في الأشهر الأولى رأيتها راضية على الدوام، صبورة. لا تعرف الكلل مع الأولاد الملوثين بالغائط ومع المعتوه... لم يكونوا دائماً مسلّين... لم يكن ذلك وضعاً ملائماً... لجمال كجمالها. كان من السهل عليها بالأحرى أن تتزوج رجلاً ثرياً... من المحتم إذن أنها كانت مسحورة أو أنها كانت توفّي نذراً بلا ريب. وهو لم يكن غنياً بالتأكيد! لطالما ظل هذا يثقل قلبي ويأسر لبي في النهاية.

بالنسبة إلى نورا. كان المعتوه هماً ثقيلاً، كانت خليقة أن تستنفد قواها في نهاية ما بعد الظهيرة... لا لشيء إلا لكي تمخطه، وتساعده على التبول، وتمسكه في كل لحظة حتى لا يقع تحت عجلات العربات. أو يزدرد صدفة ما تقع عليها يده، كانت تلك سخرة قذرة مشينة.

لم تكن متعجلة في يوم من الأيام. وحينما كانت تخف وطأة حماقاته. كنا نعود في وقت متأخر. نتسكع في القرية وعلى ضفة النهر... كان لعاب جونكيند أقل سيلاناً في النزهات عما هو في المنزل، ولكنه كان يختلس الأشياء، ويسرق أعواد الثقاب، وإذا ما ترك وحده لحظة، فإنه سيشعل الستائر... ليس بدافع الخبث على الإطلاق، فقد كان يهرع بسرعة إلينا لينبهنا... وليرينا كم كانت جميلة ألسنة اللهب الصغيرة.

كان أصحاب الحوانيت في القرية يعرفوننا جيداً لكثرة ما كانوا يروننا نمر من أمامهم. كانوا يرصفون أمام الواجهات على نحو متوازن، جبالاً شاهقة من التفاح، ومن الشوندر. وفوق منصات العرض اللانهائية وديان حقيقية من السبانغ... ترتفع في بعض الحوانيت حتى تصل إلى السقف، وتهبط في حوانيت أخرى، بالإضافة إلى القرنبيط والأرضي شوكي... كان جونكيد يتهلل فرحاً حين يرى تلك الأشياء. ويقفز نحو اليقطين، وينهش فيه مثل حصان.

أنا أيضاً. كان أولئك الباعة يعتقدون بأنني مجنون... كانوا يسألونها عني... ويومئون بإشارات إلى نورا، حينما كنت أدبر ظهري. مشيرين بإصبعهم إلى رؤوسهم هكذا... "أفضل! أفضل؟" كانوا يتهامسون. "لا! لا!" كانت تجيبهم بحزن... لم أكن في حال أحسن، قسماً بالرب! ولن أكون أحسن في يوم من الأيام!... كانت حركاتهم المشفقة، والقلقة، على هذا النحو تجعلني أتصرف على نحو أخرق تماماً.

خلال جولة التسوق، لاحظت مراراً شيئاً غريباً، ومثيراً للحيرة... ألا هو التزود بزجاجات ويسكي... كنا نحمل معنا غالباً واحدة على الأقل، وحتى اثنتين في الأسبوع... وفي بعض الأحيان زجاجة براندي أيضاً... لم أكن أرى هذه الزجاجات على المائدة في يوم من الأيام!... ولا في غرفة الاستقبال!... ولا حتى في الأقداح!... لم أر قطرة واحدة!... كنا نحن الآخرين نشرب، من ماء المطر. الصافي والخفيف. ترى أين كانت تذهب تلك الزجاجة إذن؟ هل كان هناك أغطية قشية لحفظ الزجاجات داخل المنزل؟ آه كنت أشك بقوة! وأثرثر غالباً بأن هناك في داخل المنزل شخص ما يعاقر الخمرة!... مدلل صغير يدفع عنه البرد!... وهو بهذا الشراب لن يخشى الروماتيزم حتى في الشتاء!... هو ذا!.

***

بدأ الجو يتحسن مع اقترابنا من نهاية الشتاء... كنا قد أمضيناه في النزهات والمباريات، وسباقات الضاحية، وزخات المطر، والاستمناءات...

خلال التمون اليومي تمرست قليلاً في التعامل مع الباعة الممونين... كانوا يعتقدون كلياً بأنني ساذج بسيط، ما كانوا ليرتابوا أبداً بحيلي... كنت أتصرف بخبث، فأختبئ... وألعب مثل وقواق مع جونكيند خلف العوارض، ومنصات الباعة، كنت أنقر قطعة حلوى من هنا، وبيضة من هناك، وبضع بسكويتات، وبضع موزات... ترهات صغيرة في النهاية... لم يزعجني أحد في يوم من الأيام...

في شهر آذار، عاد المطر إلى الهطول كسابق عهده. وثقلت السماء حتى ما عادت تُحتمل، وضغطت على أعصابنا مع ذلك حتى ضقنا ذرعاً في النهاية، ولم ينته الشهر إلا وقد سحقتنا... أناخت بكلكلها

فوق كل شيء، فوق المنازل، وفوق الأشجار حتى أنها ارتطمت بسطح الأرض. مشينا فوق بساط من الماء، مشينا في قلب الغيوم، والأبخرة التي تذوب وسط الوحول والأقذار، وسط عصيدة من الطين وكسر الخزف المرمية القديمة... لشد ما كان ذلك مقززاً!...

أبعد مكان كنا نذهب إليه خلال جولاتنا يقع بعد مدينة سترود، عبر الدروب الضيقة، وخلف الآجام والتلال. ملكية شاسعة كانوا يربّون فيها طيور التدرج. لم تكن تلك الطيور برية على الإطلاق. كانت تتجول بأعداد غفيرة، تنقر طعامها مثل الدجاج فوق مرج شاسع، وحول نوع من نصب هائل، كتلة عظيمة من الفحم، منتصبة، بجلال، حجمها بحجم منزل تقريباً. ما كنا نذهب أبعد منها، لم يكن ثمة طريق فيما وراءها.

أما المكان الذي كنت أتحسر عليه، ولكنني لم أكن أستطيع الذهاب إليه ليلاً فهو أرصفة الميناء في أسفل المدينة. في يوم السبت، على الأخص، لم تكن نورا تطلب أكثر من إسعادي بالمرور بتلك المطارح غالباً جداً. ولكن كان علينا أن نقوم بالتفاف خطر جداً، بسبب جونكيند دائماً. كان يتعثر بالحبال. وأوشك على الغرق أكثر من عشر مرات... كنا نفضل، في النهاية، أن نيمم وجهنا شطر المرتفعات والبراري الشاسعة حيث نرى الأخطار من بعيد، والكلاب الضخمة، والدراجات.

على هذا النحو، تسلقنا في إحدى فترات ما بعد الظهر، كما لو بمحض الصدفة، حينما كنا نبحث عن أماكن جديدة، تسلقنا رابية أخرى. تلك التي تصعد باتجاه الحصن (15). في الطرف الآخر للمقابر... حيث كان الاسكتلنديون يتدربون كل خميس، الفوج (18)... شاهدناهم يتصارعون بعنف لم يكن مصطنعاً... كانوا يوجهون لبعضهم ضربات عنيفة فيما تتعالى أصوات قربهم وأبواقهم.

ولفرط ما كانوا يحرثون الأرض بأجسادهم، كانوا يغرقون بالوحول أكثر فأكثر، وتخور قواهم أكثر فأكثر. كانت الوحول تصل حتى أعناقهم... لا شك أنها ستطمرهم بالكامل ذات يوم.

لم تكن نزهتنا قد انتهت، فقد تابعنا السير عبر واد صغير... وفي حضن المروج الوادعة لمحنا ورشة عمل عظيمة، اقتربنا منهم قليلاً... كان رهط كبير من العمال، يقومون ببناء مبنى عظيم الاتساع. شاهدنا وسط البقعة الشاسعة المسورة بالأسلاك لافتة ضخمة... لم يصعب علينا قراءة ما كتب عليها... إنهم يبنون مدرسة أيضاً... كان الموقع في منتهى الروعة حقاً... موقع خلاب بين الحصن وبين الفيلات، ثمة فسحة للألعاب الرياضية، أكبر بأربع مرات على الأقل من ملعبنا. وقد تم تخطيط الملاعب والمدارج، وفرشت الأرض بالرمل، وغرست الأعلام الصغيرة في الأركان الأربعة... كل شيء كان جاهزاً في المحصلة. من المؤكد أن البناء لن يتأخر كثيراً. كان مؤلفاً من طابقين إثنين، وكتب الاسم بأحرف حمراء "أكاديمية النجاح"، للأولاد من كلِّ الأعمار، يا لها من مفاجأة مذهلة!...

ران على نورا ميروين شرود عميق، لبثت واقفة أمام المبنى كما لو كانت متجمدة... وأخيراً، انطلقنا من المكان سريعاً. كانت في غاية الاستعجال لتنقل الخبر إلى الحلزون الصغير... لم أكن بعيداً عن هواجسهما وعن أوضاع مدرستهما المتداعية، ولكنني أدركت مع ذلك بأن هذا الأمر كان تراجيديا حقيقية!... ضربة موجعة لمستقبل مدرستهما!... لم نرهما لا هو ولا هي، طيلة النهار. كنت أنا من أطعم جونكيند على المائدة، بعد ما انتهى الأولاد الآخرون من طعامهم.

في الغد، كانت نورا ما تزال شاحبة جداً، وقد فقدت تماسكها. كانت كدأبها، لطيفة جداً. بشوشة جداً، رصينة، ولكنها كانت تقوم

بحركات اعتاد هو أن يقوم بها. كطقطقة الأصابع. لا ريب في أنها لم تنم طيلة الليل. لم يكن يقر لها قرار. كانت تنهض، فتصعد الدرج، ثم تهبط ثانية، لتتحدث معه، ثم تصعد مرة أخرى.

أما العجوز فلبث جامداً لا يربم، بل إنه ما عاد يطرف بعينيه على عادته. لم يأكل، ولم يشرب شيئاً سوى قهوته. كان يتجرع طاسات مترعة منها، دون توقف وبين جرعة وجرعة كان يصفق كفاً بكف، كفه اليمنى بالكف اليسرى المحكمة الإغلاق... بعنف، على هذا النحو... بتاب! بتاب! كان هذا كل شيء.

بعد مضي يومين، تقريباً، ارتقى التلة معنا إلى أن أشرفنا على فوج السكوتلنديين. كان يريد أن يتحقق بنفسه... كانت الأعمال تجري على قدم وساق في "الهوبيرفيل- كلية النجاح"، تابعوا تخطيط الملعب، ووسعوا مرجة الكريكيت. وجهزوا ملعبين للتنس، بالإضافة إلى ملعب صغير للغولف... من المؤكد أن الافتتاح سيتم في عيد الفصح...

دار العجوز الصغير حينئذ حول الحاجز الشبكي... كان يريد أن ينظر من فوقه إلى ما يجري... كان قزماً... لم يكن يرى جيداً... فشرع يحدق من بين القضبان... وحين وجدنا معبراً ممهداً... أشار إلينا بأن نتابع طريقنا. وأنه سيلحق بنا حيث نحن... ثم عاد إلينا أخيراً... ما عاد ينط أبداً كسابق عهده. جلس بالقرب من زوجته، ولبث منهكاً خائر القوى. كان قد ملأ عينيه بمعجزات "كوليج هوبيرفيل".

كنت أعرف حق المعرفة معنى التنافس! فأولادنا الذين هربوا... كانوا يجدون المانويل زرية بائسة... ما العمل الآن إذن؟... من الذي كان سيمنع الأولاد من التسرب من المانويل؟... كان ذلك مأزقاً لا مخرج منه!... لم أكن ألتقط كلمة مما كان معلماي يتحاوران به، ولكن نبرتهما كانت باعثة على التطير... كنا نعود إلى هناك كل يوم

لنرى الصقالات المنصوبة... كانوا يبنون جدارين جبهيين للتدرب على الرمي... كان ذلك بذخاً فاجراً. ولما رأى العجوز كل هذه الفخفخة أطلق الحرية لأصابعه لتدخل في أنفه، الأصابع الثلاثة معاً كي يفكر في هذه المحنة التي ملكت عليه لبه... أما على المائدة، فكان ما ينفك يهلوس دونما توقف. لا شك أن مستقبله أضحى غائماً... كان يترك مرقة اللحم حتى تبرد... ويمضغ طقم أسنانه بشدة بحيث كان يخرج من فمه في بعض اللحظات... فيضعه على الطاولة بالقرب من طبقه... ما عاد يدرك شيئاً مما حوله على الإطلاق... كان يتابع اجترار صلوات صغيرة، وأفكاراً... وما يلبث في لحظة من اللحظات أن يقول: آمين! آمين! ثم ينهض فجأة، ويندفع نحو الباب ويصعد إلى الطابق العلوي، أربع درجات، أربع درجات... فينفجر الأولاد حينئذ بالضحك، كان يترك طقم أسنانه على الطاولة. لم تكن نورا تجرؤ على النظر إلى أحد... تقدم جونكيند نحو الطاولة، وانحنى فوقها، واللعاب يسيل من فمه بغزارة. وضع طقم الجد في فمه، وراح يمصه، لم يضحك الأولاد في يوم من الأيام بمثل ما ضحكوا في تلك اللحظة، كان علينا أن نجعله يبصقه من فمه.

* * *

انفرط عقد النظام والانضباط في المانويل. ما عاد الأولاد يفعلون إلا ما يرغبون به. لم يعد العجوز يجرؤ على أن يوجِّه إليهم كلمة واحدة، ولا نورا كذلك، لا داخل المدرسة ولا خارجها... أما بالنسبة إلى المشاركة بالألعاب والمباريات العنيفة، فلم يكن عددنا يزيد على العشرة. ولكي نشكل فريقاً كاملاً في مباريات الخميس، كنا نجنِّد، بطريق الصدفة، أولاداً من قارعة الطريق، أوغاداً صغاراً، غير معروفين... كان ينبغي أن تصمد الكوليج حتى أعياد الفصح...

كانت الأيام تمضي متثاقلة... ولكي لا ينفد صبر والديّ، كتبت لهما بطاقات معايدة، اختلقت لهما فيها أكاذيب شتى، بأنني بدأت أتكلم الإنكليزية، وأن الجميع يهنئوني على تفوقي... كان الربيع على الأبواب... وقد أصيب جونكيند بزكام حاد... وظل يعطس خمسة عشر يوماً... لم نعد نجرؤ على اصطحابه في جولات بعيدة... كنا نمضي فترة ما بعد الظهر فوق منحدرات الحصن. ثمة أطلال هائلة حافلة بالأصداء، وبالكهوف والزنازين... ومع بوادر أقل هطول للمطر كنا نلوذ تحت قبابها مع طيور الحمام... كنا ذلك المكان موئلها. كانت تلجأ إليه بالمئات، أليفة وادعة، تأتي إليك لتسجع فوق راحتك... كانت تلك الحيوانات الصغيرة تخطر متبخترة أمامك، ترمقك بعين المودة، تتعرف إليك على الفور.. ما كان يفضله جونكيند هو الخراف الصغيرة. كان قلبه يطفح بالسرور لدى رؤيتها، ولا ينفك يعدو خلف صغارها، تلك التي كانت تتعثر وتقع على الأرض حينما تعدو. كان يتدحرج معها فوق الأرض المخضلة، ويثغو معها حين تثغو. كان يستمتع بذلك، وتغمره بهجة لا حدود لها... كان يدور حولها مثل حيوان حقيقي... ويعود مبلل الثياب، وقد نفذ الماء إلى جسمه، فلا يبرح يعطس ثمانية أيام بعد ذلك.

كان الجو ينفرج يوماً بعد يوم، وتنقشع جهمة السماء، وتهب نسائم جديدة مفعمة بأشذاء نشوى سحرية، فتميس زهور النرجس والأقحوان على امتداد المروج. وترفع السماء كلكلها عن الأرض لتصعد إلى مستقرها، محتفظة بسحبها مثلها مثل الجميع. لقد ولى ذلك النوع من المرملاد السائل الذي كان ينسكب دون انقطاع، ويقيء فوق المشاهد الطبيعية الخلابة. اقترب الفصح مع حلول شهر أيار، كان الأولاد قد نفد صبرهم... كانوا على وشك الذهاب لرؤية

أهلهم... كانت تلك هي اللحظة التي سأرحل فيها أنا أيضاً، بعد أن شارفت إقامتي على نهايتها. كنت أتأهب للسفر بكل هدوء... حينما تلقينا مغلفاً خاصاً، رسالة من خالي مع مبلغ من المال وكلمة صغيرة... يطلب فيها مني البقاء، والصبر ثلاثة أشهر أخرى... كان ذلك خيراً وأبقى بالنسبة إلي... كان عطوفاً جداً، الخال إدوارد! بمفاجأته اللطيفة تلك!... لقد فعل هذا من تلقاء نفسه... بدافع من قلبه الطيب... كان يعرف والدي حق المعرفة... وحدثه قلبه بأن مآسي كانت موشكة على الحدوث بالتأكيد حينما أعود كالأبله دون أن أتعلم شيئاً من الإنكليزية... كان هذا سيؤول إلى عواقب وخيمة جداً.

قصارى القول، كنت متمرداً جداً، جحوداً غاية الجحود، كريهاً منفراً إلى حد لا يطاق. كان بإمكاني إن أداب بعض الدأب على الدرس. لن يكلفني ذلك كثيراً من المشقة... كي أدخل السرور إلى قلبه... ولكنني في اللحظة التي كنت أستسلم فيها كان الشعور بالحقد والضغينة يجتاح كياني... وتحتدم في داخلي قسوة شريرة... يخنة مقززة... خراء بالتأكيد! سوف لن أتعلم شيئاً!... سأعود أشد قذارة مما كنت سابقاً! سأنغص عيشهما أيضاً مزيداً من التنغيص!... شهور طويلة مرت أغلقت فيها فمي!... آه! ذلكم هو قراري! لن أتحدث إلى أحد! لا إلى هؤلاء الذين هم هنا ولا إلى أولئك الذين هم هناك... خليق أن ينطوي المرء على نفسه حينما يكون هشاً ضعيفاً... أن تفتح فمك على اتساعه، فسيدخلون إليك منه. ذلكم هو واقع الحال برأيي!... حين لا تكون كبيراً! فأنت تغدو ضعيفاً! كان بوسعي أن أصمت سنوات أيضاً! صمتاً مطبقاً! ما كان علي سوى التفكير بغورلوج، بالصغير أندريه، بيرلوب، وحتى بديفون وبيانوهاتها! وأستاذ الموسيقا! وعلاماته الموسيقية ذات السن! وبشطحاته

الخيالية... تفوه! لم يفعل الزمن بذكراهم شيئاً، ما أنسانيهم أبداً!... كنت أتذكرهم بمزيد من القوة والوضوح، وحتى بنحو أشد شراسة... آه!... لقد ظلوا قابعين في رأسي مع ألف تأديب، وألف صفعة، وألف ركلة مدوية. تفوه! وكل عفونتهم كاملة غير منقوصة، والرفاق، والمنكوحين، وكل المسطولين، ورقاهم السحرية!... كنت في حال لا أحسد عليها! أفكر في لا شيء؟ دائماً وأبداً! مثل القذر الصغير الآخر...؟ آمين... كنت أقطب وجهي راسماً من جديد تكشيرات كالحة، كنت أقلدهم وحدي! كان رأسي يضج بالغضب على أنطوان وهو يتغوط في المرحاض... كنت أنا من يتغوط فوق رأسه. لغة! لغة! قوْل؟ قوْل؟ قول ماذا؟...

* * *

ما رأيت نورا قط في يوم من الأيام في لباس شفاف، أو في صدار مشدود، أو أطلس وردي... كان ذلك يبرز نهديها... كانت رجرجة كفليها تبث الرهبة في نفسي... تموجهما، سر الأرداف...

كنا في نهاية نيسان... كانت ما تزال تبذل جهداً لإدخال السرور إلى نفسي، لإقناعي... وفي إحدى فترات بعد الظهر، رأيتها تصطحب معها كتاباً إلى النزهة. كتاباً ضخماً، هائل الحجم، نوعاً من الكتاب المقدس في الوزن والحجم... ذهبنا إلى مكاننا المعتاد... وحين جلسنا... فتحت الكتاب فوق ركبتيها... لم أستطع أن أمنع نفسي من النظر داخله... أحدث ذلك في الصبي جونكيند تأثيراً سحرياً... فغطس بأنفه داخل الكتاب... وما عاد يرفعه عنه... كانت الألوان تفتن لبه... فقد كان الكتاب مزداناً بالصور، والرسوم المدهشة... ما كنت بحاجة إلى معرفة القراءة، فقد ألممت بكل ما

فيه على الفور... كنت أرى الأمراء، والرماح المشهرة، والفرسان... أرى اللون الأرجواني، والألوان الخضراء، والحمراء الرمانية، وسائر العتاد باللون الياقوتي... وكل الأشياء الأخرى!... كان حقاً عملاً بارعاً... منفذاً بدقة وإتقان... لم تكن تنقصني الخبرة بمثل هذا العمل. كان ناجحاً أيما نجاح... كانت تقلب الصفحات ببطء وتمهل... وتروي لنا حكاية الصور... راغبة في أن نتابع القراءة معها كلمة كلمة... كانت أصابعها تبعث على الرهبة... أشبه بأشعة من نور فوق كل صفحة تمر فوقها. كنت سألعقها... سأمتصها... كنت أسيراً لسحر تلك الأصابع... لم أكن أفوه بكلمة... كنت أحدِّق في الكتاب المفتوح لي وحدي... لم ألق سؤالاً... ولا كررت كلمة من كلامها... ما كان يستحوذ على اهتمام جونكيند أكثر من غيره هو الحواف المذهبة لصفحات الكتاب... كانت تبهره، ولا ينفك يذهب غير بعيد ليقطف زهور اللؤلؤ، ويعود لينثرها فوقنا، يغطي بها الحواشي المذهبة... أما الصفحتان الأكثر تشويقاً فكانتا في وسط الكتاب... كانتا تصوران معركة حامية الوطيس بطول الصفحتين وعرضهما... عراك متلاحم ضروس... جمال وأفيال، وفرسان رهبان في غمرة القتال... مذبحة الفرسان!... جميع البرابرة يولون الفرار!... كان ذلك معجزة حقاً... لم أستسلم للإعجاب... كنت على وشك أن أتكلم تقريباً... على وشك أن أسأل حول التفاصيل... زيب!... وتعلقت بحبال الهواء، انهارت مقاومتي!... يا للقدر الغاشم! ثانية أخرى مرت!... لم أفه "بأف" واحدة مع ذلك!... كنت أتشبث بالعشب... ما عدت راغباً، تباً لي! بالحكايات!... كنت قد أخذت لقاحاً ضدها... والصغير أندريه إذن؟ ألم يكن هو مرهم اللواطيين؟ أما

جعلني أتسلق الأدراج إليه؟ مرات ومرات؟... الجثة الصغيرة القذرة! ألم أكن أتذكر الأساطير؟ وأتذكر حماقتي؟ لا؟ فحينما تجرفك العادات، إلى أين سيودي بك ذلك؟ إذن. لن يهشم أحد بعد لي خصيتي"! سيتركوني إذن هادئاً مطمئناً!... آكل حسائي، أهتم بمايعنيني!... فأنا أفضل البراز على الحكايات!... أجل! هذا مضمون، هذا في الجيب!... أظهرت أيضاً بأنني صرت رجلاً، ابتعدت مع جونكيند، وتركتها وحيدة تقرأ كتابها... في حيرة وسط المروج.

عدوت مع المعتوه حتى النهر... ثم عدنا عبر أسراب الحمام. نظرت إلى سيمائها حين عدت، كانت قد أغلقت كتاب صورها... من المؤكد أنها كانت تجدني عنيداً... كان يكتنفها الحزن دون أدنى ريب... لم تكن تتعجل العودة... سرنا الهوينا، بالقرب من الجسر... كانت الساعة قد أعلنت السادسة... كانت تنظر إلى الماء... كان نهر "ميدواي" غزير المياه... وفي أوقات المد العالي يغدو جسوراً مندفعاً... يجري متعرجاً على نحو لولبي، فيهتز الجسر بفعل دواماته العاتية، ويصدر الماء صوتاً أجش، هديراً غائراً أجوف... اختناقات وسط لجج عظيمة صفراء...

كانت نورا تنحني فوق النهر، ثم ترفع رأسها بسرعة، وتنظر إلى البعيد البعيد، إلى أضواء النهار وهي تأفل خلف بيوت الشاطئ... كان ذلك يريق وميضاً على وجهها... شجناً يثير رعشة في كل قسماتها... ثم ما يلبث أن يتصاعد، يفقدها القدرة على التماسك، يجعلها بالغة الهشاشة... يرغمها على أن تغمض عينيها.

* * *

ما كادت مدرسة "الهوبيرفيل" تكتمل حتى شرع الأولاد يتسربون من "المانويل كوليج"... أما أولئك الذين كانوا يرغبون في الفرار فلم ينتظروا حتى أعياد الفصح... انقطع ستة طلاب خارجيين منذ نهاية نيسان، وحضر أولياء أربعة طلاب داخليين ليأخذوهم... ما عادوا يعتبرون "المانويل كوليج" وافية بالغرض... كانوا يقارنون بينها وبين المدرسة المتألقة الأخرى...

كانت "الهوبيرفيل"، ينبغي الاعتراف، تسطع وسط مرافقها... كان البناء وحده يستحق الرحلة إليه... كان مشيداً بكامله من الآجر الأحمر، مشرفاً على روشستر. ما كانت العين تقع على مبنى سواه فوق الهضبة... كانوا قد غرسوا، بالإضافة إلى ذلك، سارية عظيمة الحجم والارتفاع وسط المرج، ترفرف في أعلاها رايات زاهية، كانت جميع الأجنحة مرتبة حسب الأصول، أعمدة الصواري، حبال التثبيت، حبال الرفع، عتاد هائل من أجل أولئك الذين يريدون تعلم قيادة السفن وتجهيزها استعداداً للبوردا (نظام تعليمي للملاحة أسسه البحار الفرنسي بوردا).

فقدت، على هذا النحو، جاك الصغير، كسولي الصغير... كان مضطراً إلى الانتقال لأن والده كان يريد له أن يغدو بحاراً... لقد حقق أصحاب "الهوبيرفيل" نجاحاً باهراً في الإعداد لبناء الأسطول...

لكثرة ما تسرب من الطلاب الداخليين، لم يبق سوى خمسة فقط في المانويل كوليج، بمن فيهم جونكيند. لم يعد لدى الباقين ما يسليهم ويضحكهم، صاروا بالأحرى مكفهرين مقطبين، كانوا عاجزين عن الوفاء بما هو مطلوب منهم، لهذا ما عادوا يتحركون قيد خطوة... تبخر فريق "الفوطبول" خلال ثمانية أيام، صبيان "البيتويت"

ذوو الوجوه الشاحبة المغطاة بالبثور والدمامل، والذين يتعلمون بالمجان، جاؤوا إلينا مرتين يطلبون منا أن نسحقهم. عبثاً كنا نشرح لهم بأن ذلك قد ولى زمنه... ولكنهم لم يكونوا يدركون ما جرى... كانوا يتحسرون على أيام هزائمهم "12/صفر"، ولم يعد لديهم منافسون على الإطلاق... لقد أحزنهم ذلك أيما حزن... وانصرفوا إلى مدرستهم متكدرين غاية الكدر.

لم يقبل فتيان "الهوبيرفيل" المتعجرفون والمتباهون بمدرستهم الجديدة أن يلعبوا معهم، طردوهم كما لو كانوا مصابين بالجذام. لقد ارتقى مقام هؤلاء، وعلت طبقتهم، وانحدر فتيان "البيوتيت" إلى الحضيض... وصاروا يتبارون مع بعضهم بعضاً...

كانت مائدتنا في المانويل تشهد درامات حقيقية، تغدو أحياناً فاجعة... كانت نورا تقوم بمعجزات كي تستمر الوجبات على منوالها السابق. شهدنا هروب الخادمتين... جيرترود في البداية، الأكبر سناً، ثم تبعتها فلوسي بعد أربعة أيام... وجاءت خادمة أخرى... ما عادت نورا تمد يدها إلى أطباق الطعام... كانت تترك لنا المربى دون أن تمسه، ولم تعد تضع السكر في شايها، كانت تتناول حساء الشوفان دون حليب... كان هناك فائض بالنسبة إلينا نحن الآخرين... ولكنني كنت أحس بالخجل مع ذلك... فحين كانت حلوى البودينغ تقدم إلينا أيام الأحد، كنا ننقض عليها بالملاعق بسرعة خاطفة... كنا نفتح أثلاماً وثغرات في القصعات، متنافسين تنافس الكلاب... كان صبر ميروين ينفد. دون أن يتفوه بكلمة، ولكنه لا يفتأ يتحرك دون انقطاع، في كل مكان، ويهتز فوق كرسيه، ويقرع الطاولة بيده. كان يقصّر الصلوات كي ننصرف بأقصى سرعة... كانت صالة الطعام تغدو مكاناً مفعماً بالتأثر والحساسية.

في داخل الصف، كان يفعل الشيء نفسه... كان يصعد إلى منبره، مرتدياً دثاره المتجعد، ثوب الأستاذ اللائق، ويلبث خلف قمطره، قابعاً داخل كرسيه، محدِّقاً في الصف أمامه... كان لا يبرح يطرف بعينيه، ويعقف جميع أصابعه، بانتظار انتهاء الوقت... لم يعد يتحدث إلى التلاميذ... وكان بوسع هؤلاء أن يفعلوا ما يشاؤون...

كان ميروين يهزل يوماً بعد يوم، ولما كانت له أذنان عظيمتان منداحتان على جانبي رأسه، فقد غدتا مثل زعنفتين صغيرتين... كان الأولاد الأربعة الباقون يثيرون من الصخب ما يثيره ستة وثلاثون ولداً... وما عاد ذلك يسليهم أبداً... كانوا حينذاك، ينسلّون من الصف ببساطة... إلى مكان ما في الحديقة، أو إلى الشوارع... تاركين ميروين وحده، كانوا يلحقون بنا إلى النزهة... وفيما بعد... كنا نصادفه على الطريق... أو نلتقي به في البرية. كنا نراه قادماً من بعيد، متجهاً نحونا بسرعة، جاثماً فوق دراجته الهائلة الحجم...

"هلو نورا! هلو بويز!" كان يحيينا لدى مروره... متمهلاً بعض الشيء... "هلو بيتر!" كانت تجيبه بظرف بالغ... كانا يتبادلان الابتسام بلطف ومودة... "غود داي، مستر ميروين" كان الأولاد يرددون جميعاً في جوقة واحدة... كان يغوص حينئذ في الطريق، كنا نراه يبتعد، محركاً رجليه فوق الدواستين، إلى أن يغيب عن الأنظار...

* * *

فيما كانت الأمور تجري على هذا المنوال، كنت أشعر بدنو ساعة الرحيل... لم أكن أتوقف عن كتابة الرسائل... ما عدت أدري ماذا أقول، ماذا أختلق... ذهبت بخيالي بعيداً... حسبي هذا الخليط المشوش من الأكاذيب... ما عادت اللعبة تستحق العناء. كنت أفضل أن

أستمتع بما تبقى لي من الوقت، وأطرح عني هذا القلق الذي تسببه الرسائل، كنت أجلد عميرة بإفراط متخيلاً نورا، وفي وسط الصمت المطبق، كنت أبتدع أفكاراً أخرى جديدة... أكثر دهاء، وأشد مكراً، وأعظم إغواء، مفعمة بالرقة والعذوبة... كنت أتحرق شوقاً لرؤية الصبية الغضة. وحينما كنت أراها تهتم بعجوزها... كان ذلك يمضّني... ولكنه كان يملؤني فجأة بالإعجاب بهما معاً... كان مجرد التفكير بذلك يعيد إلي الهدوء. ترى، ما الذي كان بوسعه أن يفعل من أجلها؟.

ما كان أدنى ما اقتربت من الخطيئة، ولكني كنت كمراء ذي وجهين، لم يكن ذلك بالسهل أبداً... كان لهما حجرتان منفصلتان... كانت غرفته إلى اليمين داخل الرواق، بعد مصباح الغاز، كان الوصول إليها أيسر... ولكن من أجل الذهاب إلى حجرة نورا، سيتحتم علي الخروج من الطرف الآخر من عنبر النوم والمرور بالدرج أيضاً... كانت تقع بعد المغاسل... كان هذا صعباً... معقداً...

ترى كيف كانا يتضاجعان؟ هل كان هذا يحدث في غرفته؟ أم في غرفتها؟ لقد عقدت العزم... كنت أريد مع ذلك أن أنالها... لقد صبرت وقتاً طويلاً جداً.

حينما لم يبق سوى خمسة أولاد داخليين، صار بالإمكان التحرك بيسر أكثر... وفوق ذلك، ما عاد معلمنا يأتي مساء من أجل الصلاة... كان الأولاد يغفون بسرعة ما إن يدفؤوا... انتظرت أن يغطوا في النوم، وحين سمعت شخيرهم، لبست سروالي، وتظاهرت بالذهاب إلى الحمام... على رؤوس أصابعي.

لدى مروري بباب العجوز، انحنيت قليلاً، ونظرت بسرعة خاطفة من ثقب القفل... لقد خاب مسعاي، لم يكن المفتاح مسحوباً...

واصلت نزهتي كما لو أنني كنت ذاهباً لأتبول... ثم قفلت راجعاً بسرعة... واضطجعت من جديد... ولكن ذلك لم يكن نهاية المطاف! قلت لنفسي: إما الآن أو أنك لن تنالها في يوم من الأيام! لم يكن هناك أدنى صوت في المنزل... تظاهرت بالنوم العميق... انتظرت بضع لحظات... وأنا أختلج بشدة ولكن بصمت... لم أكن مجنوناً!... كنت قد رأيت النور ينبعث من الكوة الزجاجية فوق الباب... إنها الكوة ذاتها التي كنت أسترق النظر منها في شارع الزيفير، قلت في نفسي: "تلك هي الكوة يا توتو، إذا بلغتها فستتحدث عن ذلك طويلاً!" اتخذت احتياطات قصوى... نقلت كرسياً من الممر... إذا ما وقعت في ورطة، وأمسكني أحد متلبساً، فسأتظاهر بأنني مروبص... وضعت كرسيي لصق بابه تماماً، وانتظرت، اختبأت قليلاً... ألصقت أذني بالجدار... سمعت من الداخل حينئذ، ما يشبه اصطداماً... على غرار احتكاك قطع من الحطب، اصطدمت إحداها بالأخرى... لعل هذا كان صادراً عن سريره؟... ثبتّ الكرسي بنحو متوازن، وتسلقته ببطء شديد... وقفت... بمنتهى الهدوء أيضاً... بلغت بوجه الضبط زجاج الكوة.،. آه! عجباً! رأيت تماماً! رأيت كل شيء!... رأيت رجلي الطيب... كان مسترخياً... مستغرقاً في جوف مقعده... ولكنه كان وحيداً بالتأكيد! لم أر الصبية!... آه! عارياً! ما قولكم! كان متمدداً بانشراح أمام ناره... وقد غدا لونه قرمزياً! كان يتنفس بجهد من شدة الدفء... عارياً إلا من سروال داخلي، أما دثاره الفضفاض المجعد، دثار الأستاذ، فكان ملقى خلفه على الأرضية الخشبية. كانت النار متأججة اللهب... مفرقعة في جميع أرجاء الغرفة، كان العجوز الأبله يبدو متوهجاً وسط أشعة اللهيب، متألقاً تماماً... لم يكن يبدو عليه السأم... كان محتفظاً بقلنسوته على رأسه... القلنسوة

ذات الشرابة... آه! العجوز الخرع! كانت تتدلى، تترجح... فيمسكها، ويحركها أكثر... لم يكن حزيناً كما في الصف... إنه يتسلى وحده... يحرك كرة يويو (لعبة أطفال) يقذفها فترتد إليه. كرة ضخمة، كرة هائلة الحجم! يحاول أن يدخلها في الفرن... إنه يتجشأ، يتنهد، يترك لعبته قليلاً... يصب جرعة كبيرة من الشراب... يرشفها ببطء شديد... رأيت الويسكي حينئذ... كان هناك زجاجتان إلى جانبه، فوق الأرض الخشبية... وإناء مملوء بالمربى!... كان يغوص داخله بملعقة كبيرة... يملأها... يلتهمها!... ثم يعود إلى لعبته... ويفرغ زجاجة أخرى... ثم يعاود قذف الكرة فيعلق الخيط في أحد دواليب المقعد... يشد الخيط، يتشوش... يتذمر... ثم يتهلل... الأحمق القذر... حسن!... نزلت عن كرسيي... رفعته بكل هدوء... وانسللت داخل الممر. ما من أحد تحرك قط... ثم اندسست في سريري.

***

وصلنا كيفما اتفق إلى عطلة عيد الفصح... كان هناك استهلاك رهيب... للأطعمة... وللشموع... وللتدفئة... وخلال الأسابيع الأخيرة لم يعد الأولاد الخمسة الذين ظلوا في المدرسة يصغون إلى أحد... كانوا يتصرفون على هواهم... أما العجوز فما عاد يدخل إلى الصف... كان يظل في غرفته لا يبارحها... أو يمضي وحده، على دراجته، في نزهات بعيدة.

وصلت الخادمة الجديدة... ولكنها لم تصمد سوى ثمانية أيام فقط... لم يعد الأولاد محتملين، كانوا يقلبون المطبخ عالياً سافلاً. ولم تلبث الخادمة اليومية التي حلت محل الخادمة الدائمة سوى عدة صباحات فقط، كانت نورا تساعدها في ترتيب الغرف، وغسل

الآنية... كانت تضع في يديها من أجل ذلك قفازات خاصة... وتحمي شعرها بمنديل جميل مطرز، تلفه على رأسها مثل عمرة...

في فترات ما بعد الظهر، كنت أنزّه المعتوه، تكفلت بذلك وحدي. ما عاد بمقدور نورا أن تذهب معنا، كان عليها أن تقوم بأعمال المطبخ... لم تكن تحدد لنا أين نذهب... كنت أنا وحدي من يقرر ذلك... كنا نقضي الوقت الذي نريده... نعاود المرور في جميع الشوارع، وفي جميع الساحات، وفوق جميع الأرصفة. كنت أنظر في كل مكان، لعلي أرى فتاتي بائعة الفطائر، تحدوني الرغبة بلقائها. ما عادت موجودة في أي مكان من المدينة، هي وعربتها... لا في المرفأ، ولا في السوق... ولا حول الثكنات الجديدة... لاأحد على الإطلاق...

كنا نمضي ساعات بهيجة في النزهة. كان جونكيند بالأحرى وديعاً، ولكن كان ينبغي عدم إثارته. كان من المستحيل احتماله حينما كنا نلتقي بالعسكريين، وأبواقهم، وموسيقاهم الصاخبة... كان هناك الكثير منهم في شانتام... وحينما يعود هؤلاء من التدريب، كانوا يطلقون ألحاناً مرحة، ألحاناً راقصة آسرة كانت تقلب دماغ جونكيند، فينطلق كالسهم وسط الحشد... ما كان بإمكانه أن يحتمل ذلك... كان ذلك يحدث فيه من الأثر ما كانت تحدثه فيه كرة القدم، كانت وصلات الموسيقا تستطيره، ولا يعود لي أي سلطان عليه.

كانت ألوان الفوج، وإيقاعاته مفعمة بالنضرة والحيوية، متميزة عن الوسط المحيط. أما ألوان ملابس الموسيقيين فحمراء قانية... تتألق بوضوح شديد بالمقارنة مع زرقة السماء، واللون التبغي للجدران... كانوا يعزفون مزهوين نافخي الصدور، مشدودي العضلات، يعزفون

بقـوة أولئـك الـسكوتلنديون... يعزفـون علـى مـزاميرهم متـهللين... يعزفون جسورين، مشعرين على غرار نسيج صوفي ناعم.

كنا نتبعهم حتى ثكنـاتهم، وخيـامهم المنـصوبة في أحـضان حقـل أخضر... نكتشف براري أخرى، فيما نحن نسير خلف الجنود، خلف ثكناتهم، وخلف سترود، وأبعد من ذلك أيـضاً. مـن الجهـة الأخـرى لنهر آخر، كنا نعود دائماً مـن أمـام مدرسـة البنـات خلـف المحطـة، ننتظر خروجهن... دون أن نقول شيئاً، كنا ننظر إليهن باشتهاء، نأخـذ جرعات كبيرة من النظر إليهن... ثم ننزل عبر مصنع الأسـلحة، وعـبر الملعـب الخـاص بـالمهنيين، ذوي الأجـسام الـصلبة، الـذين كـانوا يتدربون على الكـرة أمـام مرمـى "ارتـدادي"، مـن أجـل إتقـان ركلـة نيكلسون. كانوا يفزرون جميع الكرات لفرط ما كانت ركلاتهم قوية.

كنا نعود متأخرين، ما وسعنا ذلك، كنت أنتظر غالباً أن يهبط الليل وتضاء جميع الشوارع، فأسلك حينذاك شارع هيغ، الذي ينتـهي أمـام درج رابيتنا، حيث الساعة قـد تجـاوزت الثامنـة غالبـاً. كـان العجـوز ينتظرنا في الرواق، لم يكن يسمح لنفسه بـالتفكير، كـان ينـهمك في قراءة صحيفته.

حال وصولنا، كنا نذهب إلى المائدة... كانت نورا هـي مـن يتـولى شؤون الخدمـة... مـا عـاد ميرويـن يتحـدث... مـا عـاد يوجـه كلمـة لأحد... كانت الحياة تمضي وادعـة لا يكـدر صـفوها مكـدر. ومـا إن يتناول جونكيند الحساء حـتى يـسيل لعابـه مـن جديـد. كنـت أتركـه هكذا، لا أمسح لعابه إلا بعد أن ينتهي من الطعام.

* * *

لم يعد أحد من الأولاد بعد عطلة أعياد الفصح، لم يبق في المانويل سواي أنا وجونكيند، لقد غدت مدرستنا صحراء بلقعاً.

بغية التوفير في النفقات، جرى إغلاق طابق بكامله. بيع الأثاث بسعر زهيد، قطعة بعد قطعة، الكراسي أولاً، ثم الطاولات، بالإضافة إلى الخزانتين والأسرّة. لم يبق غير سريرينا. تمّت التصفية بسرعة. تحسن طعامنا على نحو غير مسبوق!... كان لدينا الكثير من المربى! قدور ملأى نغرف منها متى نشاء... وكان بوسعنا تناول حلوى البودينغ بكميات وفيرة... تحول حقيقي... ما رأينا قط مثله في يوم من الأيام... كانت نورا تحمل على كاهلها هذا العمل الشاق، ولكنها كانت مع ذلك تتظارف وتتغنج. وحين نجلس إلى المائدة أجدها غاية في الظرف واللطف والدعابة، إن أمكنني القول.

لم يكن العجوز يستقر في مكان، كان يأكل طعامه بسرعة، وينطلق من جديد على دراجته، كان جونكيند وحده من ينعش جميع الحوارات: "No Truoble!" ثم تعلم عبارة أخرى "No Fear، لا تخف!" كان فخوراً وسعيداً، ولم يكن ليتوقف أبداً "فرديناند! لا تخف!" كان يوبخني باستمرار بين لقمة وأخرى...

في الخارج، لم أكن أحب أن يلاحظنا أحد... كنت أهيئه للنزهة... وكان يفهمني جيداً، ويحاول أن يريحني... ولكي أكافئه، كنت أعطيه خياراً مخللاً. أحمل منه مؤونة احتياطية، أملأ جيوبي بها، كانت تلك حلواه الشهية. كنت بواسطتها أجعله يمشي... كان سينفزر لكثرة ما يأكل منه.

تعرت صالتنا تماماً... كانت التحف قد رحلت في البداية... ثم تبعها الديوان المنجد بقماش وردي، وبعده الآنية الفخارية، وأخيراً

الستائر. وخلال الخمسة عشر يوماً الأخيرة لم يبـق في وسـط الحجـرة سوى الخزانة، السوداء الضخمة، الشبيهة بالنصب...

لم يكـن هـذا الوضـع ليـشجعني كـثيراً علـى العـودة سـريعاً مـن النزهة... ما دام الجوع لم يعد يمضّنا... كنا نتخذ احتياطاتنـا، فنحمـل معاً بعض المؤون، ونختلس قلـيلاً مـن الأطعمـة لحظـة خروجنـا. لم أعد أشعر بحاجة إلى الاستعجال علـى الإطـلاق، وحـتى حـين ينـال مـني التعـب، كنـت أفـضل التـسكع في الخـارج، هنـا وهنـاك. كنـا نستريح صدفة، ونتخذ لأنفسنا محطـة أخـيرة، علـى درج المنحـدر، أو فوق الحجارة أمام باب حديقتنا بالضبط، هناك جيـث يبـدأ الـدرج الكبير، تحت نوافذنا تقريباً. كنـت أمكـث مـع جونكينـد أطـول فتـرة ممكنة، لابدين، صامتين.

كنت أميـزّ بجـلاء، جميـع الـسفن، مـن ذلـك المكـان... الـسفن القادمة، لقاءاتها في المرسى... كل ذلك أشبه بلعبة سحرية حقيقيـة... وفوق سطح الماء المتموج تنعكس سائر الأضواء. كانت جميـع كـوى السفينه، تروح وتجيء، متلألئة بـالنور... سـكة الحديـد أيـضاً كانـت تتلامع وتختلج، وتتوهج تحت العقود الصغيرة... كانـت نـورا تعـزف البيانو، فيما هي تنتظرنا... وقد تركت نافذتها مفتوحة... كنـا نـسمعها بوضوح من مخبئنا وهي تغني أغنية صغيرة... بصوت أشبه بـالهمس... كانت تغني أغنية صغيرة عاطفية... مـا أزال إلى اليـوم أذكـر اللحـن... ولكني ما عرفت أبداً معـنى الكلمـات... كـان الـصوت يعلـو بعذوبـة فائقة، يتموج في أعماق الوادي، ثم يرتد إلينـا... فـيردد الهـواء فـوق النهر رجـع الـصدى، يـضخمه... كـان صـوتها أشـبه بطـائر، يخفـق بجناحيه، فتنتشر الأصداء الصغيرة لخفقان أجنحته في كل مكان وسط الليل البهيم.

كان الجميع قد مروا، أولئك الذين كانوا يرتقون التل في طريقهم إلى العمل. كان الدرج خاوياً... كنا وحدنا مع "No Fear"... ننتظر أن تتوقف نورا عن الغناء، أن لا تعود قط إلى الغناء، أن تغلق غطاء البيانو... وحينئذ كنا نعود.

***

البيانو ذو الملامس الطويلة، ما عاد موجوداً، جاء متعهدو نقل الرياش لأخذه... كان لا بد من تفكيكه قطعة قطعة... شاركنا أنا وجونكيند في العمل... ثبتوا في البداية، رافعة عظيمة فوق إطار النافذة... وجرى إخراجه بصعوبة عبر النافذة... وفي كل صباح كانت تجري في الصالون عمليات بيع بسعر زهيد، لحبال، وبكرات... قلبوا الصندوق الكبير عبر الشرفة المطلة على الحديقة... رأيت الخزانة الكبيرة السوداء أيضاً نرتفع في الهواء... فوق البانوراما الممتدة...

أما نورا، فقد نزلت إلى المدينة، منذ بداية هذا العمل، ولبثت طوال الوقت خارج المنزل... لا بد أنها كانت في زيارة على الأرجح؟... كانت قد ارتدت أجمل ثيابها... وحين عادت في وقت متأخر جداً، كانت في غاية الشحوب.

كان العجوز يعود للعشاء في الساعة الثامنة بوجه الضبط... يفعل ذلك منذ عدة أيام. ثم يصعد بعد ذلك إلى غرفته... لم يعد يحلق أبداً، ولا يغتسل أيضاً... حتى أنه بات قذراً بالغ القذارة, يفوح برائحة حموضة زنخة. جلس إلى جانبي... وبدأ طعامه، ولم ينه طبقه... ثم بدأ ينبش بنطاله، وبشنياته، بجميع طياته، ورفع أطراف مبذله... باحثاً في أعماق جيوبه... وفيما هو منهمك في ذلك كانت توافيه رعدات... ويطلق تجشؤات صغيرة... ويتثاءب... ويدمدم... ثم عثر أخيراً على ورقته التي

يبحث عنها! كانت تلك رسالة أيضاً، خطاباً مسجلاً هذه المـرة... كانت هذه هي الرسالة الثانية على الأقـل الـتي نتلقاهـا مـن والـدي منـذ أعياد الميلاد... ولم أكـن أجيـب عليهـا البتـة، ولا ميرويـن أيـضاً. جمـدنا في مكاننا بسبب هذه الواقعة... فتحها لي... أرانيها... نظرت إليها على سبيل تبرئة الذمة... تصفحت صفحات وصفحات... كانت مسهبة جداً، مؤيـدة بالوثائق... أعدت القراءة. كان ذلك استدعاء صريحاً لا لبس فيـه... لـيس الجديد أنهم يوبخوني بشدة... لا... وإنما كان هنـاك، هـذه المـرة بطاقـة سفر!... عودة حقيقية عبر فولكستون!.

كان والدي بالغ الغضب والاستياء... كنت قد تلقيت رسائل أخرى سابقاً! مشابهة تقريبـاً، رسـائل مترعـة باليـأس، مدمدمـة، مهـذارة، متوعدة، كان العجوز ميرويـن يكدسـها فـوق بعـضها بعـد قراءتهـا، داخل علبة خاصة... مـصنفة بعنايـة حـسب تواريخهـا... ويـصعد بهـا جميعاً إلى غرفته... كان العجوز يهز رأسه قليلاً، مـزغللاً عينيـه... مـا كان ثمة طائل من أن يدلي بأي تعليق... يكفي أن يضع هـذا الهـذر في مكانه من العلبة... حسبه همومه كل يوم، وسائر بلاهاته... كل مـا في الأمر أن هذه الرسالة كانت مختلفة، بوصفها إنذاراً نهائياً... كان هنـاك بطاقة سفر هذه المرة... ما عـاد علـي إذن غـير الاسـتعداد للرحيـل... على الابن الصغير أن يقلع تواً!... سيكون السفر في الأسبوع القادم... نهاية الشهر... قطعاً لكل حساب!...

لم يكن يبدو على نورا أنها قد فهمت الأمـر... كانـت مـستغرقة في أفكارها، في مكان آخر بعيـد... كـان العجـوز راغبـاً في أن تعـرف... هتف بصوت عال كي يوقظها من شـرودها، فخرجـت مـن حلمهـا... كان جونكيند ينوح... نهضت نورا إلى العلبة وأخرجت الرسالة... كان ينبغي أن تقرأها ثانية... ثم شرعت بفك رموزها بصوت عال...

"ما عادت تعللني الأوهام بشأن المستقبل الذي تدخره لنا! لقد اختبرنا، للأسف، مرات عديدة مختلفة مبلغ فظاظة وانحطاط غرائزك، وأنانيتك المريعة... عرفنا سائر ميولك إلى الكسل، والإسراف، ونوازعك الهمجية تقريباً نحو الترف والملذات... نعلم ما ينتظرنا منك... ما من حلم أو تسامح، ما من مراعاة للحب، أمكنه أن يحدّ، أو يخفف من غلواء دوافعك الجامحة العنيدة والفظة. لقد فعلنا، كما يبدو، كل شيء، في هذا الشأن، جربنا كل شيء! والحال أننا استنفدنا كل قوانا، وما عاد لدينا ما نجازف به! ما عاد بمقدورنا أن نقتطع أي شيء من مواردنا الهزيلة كي ننقذك من مصيرك!... لك الله!...

عبر هذه الرسالة الأخيرة، أردت أن أبلغك، كأب، وكصديق، قبل عودتك النهائية، ولأول مرة، كي أجنّبك، طالما أنه ما يزال هناك وقت، أي شعور بالمرارة لا جدوى منه، أو أية مفاجأة أو أي تمرد لا لزوم له، بأنه ما عاد عليك الاعتماد، في المستقبل، إلا على نفسك، يا فرديناند! على نفسك وحسب! وبألا تعتمد بعد علينا! من فضلك! في تأمين معاشك. لقد أشفى أمرنا على الانهيار، أمك وأنا! وما عدنا نملك أي شيء من أجلك!...

نحن نرزح كلياً تحت وطأة أعبائنا القديمة والجديدة... وقد بلغنا عتبة الشيخوخة، وتكالبت علينا الكروب المتلاحقة، والكد المضني، والخيبات المريرة. والقلق الدائم، والحرمان من كل شيء. لقد انهدت قوانا...وأصبحنا على آخر رمق يا ولدي العزيز! أما بشأن النواحي المادية فنحن لم نعد نملك شيئاً!... من الثروة الزهيدة التي تركتها لنا جدتك، لم يبق بين أيدينا أي شيء! أي شيء قطعاً!... ولا حتى قرش واحد! على العكس تماماً! فقد تراكمت علينا الديون! وأنت تعلم ظروف الدارين اللتين تركتهما جدتك في أزنيير، بعد أن أثقلتهما الرهون

العقارية. وفي الباساج. فإن والدتك تجد نفسها، مع تجارتها في صراع مع صعوبات جديدة عصية على الحل، مثلما أعتقد... لقد حدث انقلاب عنيف مفاجئ، لم يكن منتظراً في ميدان الموضات، أطاح كلياً بفرصنا في موسم مثمر!... كل توقعاتنا ذهبت أدراج الرياح... لمرة واحدة في حياتنا، اتخذنا موقفاً جريئاً... وجمعنا بكثير من العناء، والتقتير في جميع نفقاتنا، وحتى في طعامنا خلال الشتاء الأخير، احتياطياً حقيقياً، كمية من سترات البوليرو "الأيرلندية"، على تعلة الربح المجزي. لكن، وبكل قسوة، ودون سابق إنذار، تلاشت تماماً الحظوة التي كانت لتلك السترات لدى الزبائن فيما مضى، لتروج مكانها بضائع أخرى، نزوات أخرى، دون أن نفهم شيئاً من أسباب ذلك. لقد طوح قدر غاشم بقاربنا البائس!... من المتوقع أن أمك لن تستطيع التخلص من سترة واحدة من تلك السترات، ولو بأي سعر كان! وهي تحاول الآن تحويلها إلى ظلل للمصابيح! ولاسيما المصابيح الكهربائية الجديدة!... محاولات يائسة لتجنب الضربة!... ترى، كم من الممكن أن يستمر ذلك؟ أين سنولّي وجوهنا؟ أما أنا فعلي أن أتحمل يومياً في مكتب التأمين الهجمات الماكرة، والغادرة، والمنمقة من طغمة الكتاب الشباب المعينين حديثاً... والمزودين بدبلومات جامعية عالية، والأقوياء جداً بسبب الدعم الذي يتلقونه من المدير العام، وبسبب صلاتهم الاجتماعية والعائلية العديدة، وبسبب تكوّنهم "الحديث" جداً (غياب شبه كامل لأي تردد أو وسواس). فهؤلاء الطامحون الشباب يضغطون على الموظفين الصغار البسطاء من أمثالي مزيداً من الضغط... ما من ريب في أنهم سيتوصلون (في أقرب وقت، كما يبدو) ليس فقط إلى إزاحتنا والحلول محلنا، بل وإلى إقصائنا نهائياً عن وظائفنا المتواضعة!... ومن دون أن أجعل اللوحة قاتمة، فإن المسألة ببساطة، لن تتعدى الأشهر! ليس لدي أي وهم بهذا الصدد!.

من جهتي، فأنا أبذل كل ما في وسعي للبقاء أطول فترة ممكنة... دون أن أفقد هيبتي وكرامتي... وأنا لا أجازف أبداً بحدوث أي إشكال عويص لا آمن عواقبه... كل عواقبه! فأنا أتمالك نفسي!... وأكبح غضبي، وأسيطر على انفعالي كي أتفادى أي حادث عارض، أو أي نزاع! ولكن للأسف! فأنا لا أفلح دائماً... فهؤلاء الوصوليون الشباب، يستسلمون، في غمرة حماسهم للإثارة والتحدي!... وقد غدوت، أنا نفسي، هدفاً، مرمى لسهام لؤمهم!... أشعر بأنهم يلاحقونني بعدوانيتهم، وتهكمهم ونزواتهم... كما لو أنهم يتدربون على حسابي... لماذا؟ لقد ضعت في الظن والتخمين... هل بسبب وجودي المجرد وحده؟ إنهم يناصبونني العداء الفظيع بمثابرة وإلحاح، يمكنك أن تتخيل، فضلاً عن ذلك، فأنا أشعر بأن كل أمور العمل غدت ثقيلة جداً علي، وأنني مهزوم سلفاً في هذه التجربة، تجربة المكر والدهاء والغدر!... بأي أسلحة سأقارعهم؟ فأنا لا أملك أية علاقة شخصية أو سياسية، وما في يدي أية حيلة أو وسيلة، وليس لدي ثروة ولا أقارب، ولا أملك في لعبتي هذه سوى ما اكتسبته من خبرة خلال خدماتي التي أديتها بشرف وأمانة، طوال إثنين وعشرين عاماً متواصلة في المكتب، وضميري الذي لا مطعن فيه، ونزاهتي الكاملة، ومعرفتي الدقيقة جداً، والأكيدة بواجباتي... ما الذي يمكنني أن أنتظره... الأسوأ بالطبع... هذا العبء الثقيل من الفضائل الصادقة هي ما يهمني. لدي خوف بأن اليوم الذي سيصفّون فيه حسابي غدا قريباً!... أنني أستشعره بعمق يا ولدي العزيز!...

إذا غدا وضعي لا يطاق؟ (وهو يغدو كذلك سريعاً)، إذا ما طردت نهائياً؟ (تكفي ذريعة واحدة! فالحديث يدور غالباً عن إعادة هيكلة شاملة لوظائفنا) فما الذي سنؤول إليه؟ أنا وأمك لا نفكر بهذا الاحتمال دون أن نشعر بقلق رهيب ومبرَّر. بهلع حقيقي!...

مهما حدث، وكخندق دفاعي أخير، فقد التزمت (كمحاولة أخيرة) بالتدرب على الآلة الكاتبة، خارج المكتب بالطبع، خلال بضع الساعات التي يمكنني أن اختلسها من العمل في تسليم الطلبات، والتسوق من أجل المخزن. لقد استأجرنا هذه الآلة (الأمريكية) لبضعة أشهر، (نفقات إضافية أيضاً). ولكنني من هذه الناحية لا يخالجني أي وهم!... من الصعب على المرء في عمري أن يستوعب بسهولة تقنية جديدة كهذه! ومناهج أخرى أو طرقاً أخرى! وأفكاراً أخرى! لاسيما وأننا ننوء تحت وطأة نكبات متواصلة! موجعة إلى أبعد حد!... وكل هذا يحملنا على أن لا نرى في مستقبلنا، يا ولدي العزيز، إلا أكثر وجوهه قتامة! لم يعد خليقاً بنا من دون شك، ودون أية مبالغة أن نقترف خطيئة واحدة، ولا حتى أقل طيش إذا أردنا، أنا وأمك، بأن لا تنتهي حياتنا إلى الإملاق التام!.

نعانقك، يا ولدي العزيز! أمك تنضم إلي أيضاً، مرة أخرى كي نحثّك! نتوسل إليك! نناشدك، قبل عودتك من إنكلترا (إن لم يكن ذلك من أجلنا نحن، فمن أجل مصلحتك الشخصية) بأن تتخذ قراراً شجاعاً، وأن تصمم على الأخص، على الدأب والمثابرة منذ الآن، جسداً وروحاً، من أجل النجاح في مشاريعك.

والدك المحب: اوغست

ملاحظة: كلفتني أمك بأن أخبرك بوفاة السيدة ديفون، يوم الاثنين الأخير، ودفنت في مقبرة الكرملين-بيسيتر.

لقد لزمت فراشها منذ أسابيع، بعد أن أصيبت بانتفاخ الرئة، وبداء قلبي. لم تعان كثيراً من الآلام، ففي أيامها الأخيرة، كانت مستغرقة في النوم باستمرار، لم تشعر بدنو أجلها... كنا نزورها كل يوم مساء وظهراً.

* * *

في الغد، حوالي الظهر على الأرجح، كنا أنا وجونكيند معاً في الحديقة، ننتظر الغداء... كان الجو بديعاً... وإذا بشخص مقبل على دراجته... توقف، وقرع بيده على شبك سورنا... كان هناك برقية أيضاً... هرعت نحوه، كانت مرسلة من والدي... "عد حالاً، أمك قلقة، أوغست".

تسلقت الدرج بسرعة إلى الطابق الأول، فوجدت نورا هناك، أعطيتها الورقة... فقرأتها... ثم نزلت إلى قاعة الطعام، وقدمت لنا الحساء... بدأنا نأكل... فوف... انفجرت دموعها... وجعلت تنتحب، لم تعد تتمالك نفسها... نهضت... وانسلت إلى المطبخ، سمعت شهقاتها في الممر... صعقني موقفها! لم يكن هذا نسيجها على الإطلاق... لم يتفق لها أن فعلت ذلك في يوم من الأيام... لم يبدر عني أي حركة مع ذلك... ظللت في مكاني مع المعتوه، كنت أطعمه... كان ذلك هو وقت النزهة... ما عاد لدي رغبة بذلك... لقد خنق أنفاسي، هذا العارض الحزين.

عدت بتفكيري إلى الباساج، استحوذ علي ذلك فجأة، وصولي إلى هناك... جميع الجيران... البحث عن وظيفة جميلة... لقد انتهت استقلاليتي! انتهى خراء الصمت... انتهت مراحيض التنزه! حري بي العودة إلى الطفولة، استئناف سيرتي الأولى! سيرة المسارع الملهوف! آه! التخثر القذر! الرعب المخاطي! الشرط اليومي الكريه! الفتى الفاضل! الإنسان مئة ألف مرة! والإنسان النشيط! ما عاد بمقدوري استدعاء الذكريات!... كان وجهي يغدو بنفسجياً لمجرد استحضار صورة والديّ! أمي، ساقها القصيرة التي تشبه عكاز البهلوان، أبي، شارباه، قصفه وعربدته، وكل سورات بلاهته.

كان الصبي جونكيند يشدني من كمي. لم يكن يدري ما الذي كان يحدث، كان يريد دائماً أن نذهب. كنت أنظر إلى "No Trouble"، ها نحن أولاء سنفترق أخيراً. سيفتقدني ربما من عالمه. هذا الصغير المهووس، الذي يبتلع كل شيء، المعتوه كلياً... كيف كان ينظر إلي في النهاية؟ مثل ثور؟ مثل جرادة بحر؟... لقد اعتاد على مرافقتي في النزهة، بعينيه الكبيرتين المدورتين، باكتفائه السرمدي... كان ينعم بنوع من حظ... كان بالأحرى ودوداً حينما نتجنب معاكسته... حين رآني سادراً في تفكيري لم يرق له ذلك كثيراً، ذهبت إلى النافذة لحظة لأنظر قليلاً. وقبل أن أعود قفز المهرج فوق الأغطية، وهدأ قليلاً، وإذا به يبول، ويلوث كل شيء تحته! هرعت نحوه، وانتزعته، ثم أنزلته على الأرض، في اللحظة التي انفتح فيها الباب نصف انفتاح، ودخل ميروين... تقدم على نحو آلي، دون أي تردد... كانت ملامحه جامدة... مشى على غرار رجل آلي... دار في البداية، حول الطاولة... دورتين، ثلاث دورات... أعاد الكرة من جديد... كان مرتدياً دثاره الأسود الجميل، دثار المحامي... وظهرت تحته تجهيزات رياضية كاملة، سراويل للغولف، مناظيره... مطرة جميلة مطلية بالنيكل، وبلوزة خضراء لزوجته... كان يسير مروبصاً تماماً، واصل طوافه، اجتاز درج المدخل بقفزات متلاحقة... جال قليلاً في الحديقة... حاول أن يفتح البوابة الشبكية... تردد... انعطف ثانية، ثم عاد نحونا، إلى المنزل... مستغرقاً في حلمه دائماً... مر ثانية من أمام جونكيند... حيّانا بمهابة، بحركة واسعة جداً... كان يرفع ذراعه ويخفضها... وينحني مع كل ارتفاع وانخفاض... كمن يتوجه نحو جمهور بعيد، بعيد جداً. أو كمن يرد على هتاف حماسي مجلجل... ثم صعد أخيراً إلى غرفته... متمهلاً بطيء الخطى... بوقار تام... وسمعته يغلق عليه بابه.

كان هذا قد بعث الخوف في أوصال جونكيند، تلك التصرفات الغريبة... ذلك الرجل ذو المفاصل المتحركة آلياً... لم يعد يستقر على حال أبداً... كان يريد الفرار بكل ما أوتي من قوة. لقد دبّ فيه الفزع، وفرقعت له بلساني وبـ: هُو! هُو! على هذا النحو... تماماً مثلما من أجل تهدئه حصان، كان ذلك يعقّله عادة... وأخيراً، كان علي أن أستسلم لرغبته... فانطلقنا معاً عبر الحقول...

على مقربة من الثكنات الاسكتلندية التقينا بأولاد "الهوبيرفول كوليج". كانوا ذاهبين إلى لعب الكريكيت، في الجانب الآخر من الوادي... حاملين مضاربهم وعصيّهم، وأقواسهم... تعرفنا بينهم على رفاقنا القدامى. وحيونا بإشارات ودية. كانوا قد كبروا ونمت أجسامهم بالضرورة، وارتسمت البهجة على محياهم... بدوا فرحين برؤيتنا ثانية. كانوا يرتدون بدلات رياضية برتقالية وزرقاء، وتجلى موكبهم في ذلك الأفق المخضر نضراً زاهياً.

تابعناهم بأنظارنا وهم يبتعدون... ثم عدنا، في ساعة مبكرة جداً... كان جونكيند يرتعد دونما انقطاع.

في أعلى الطريق، في المفترق الذي يقود إلى الكوليج التقينا أنا وجونكيد بعربة كبيرة تجرها ثلاثة جياد... كان هؤلاء متعهدون آخرون لنقل الأثاث.

تحاشوا المنحدر القوي، وداروا حول الحدائق، كانوا يحملون أيضاً كثيراً من الأشياء... تلكم كانت عملية التنظيف الكبرى، المكنسة الأخيرة... ألقيت نظرة إلى داخل العربة. كانت البسط ملفوفة... وإلى جانبها سرير الخادمتين، وإحدى خزائن المطبخ، وصوان صغير للآنية، ودراجة العجوز، وكومة من الأواني الخزفية القديمة... كان

من المؤكد أنهم أفرغوا المستودع الكبير! المنزل بأكمله! لم يعد ثمة شيء!... حملوا معهم حتى الزجاجات الفارغة التي سمعتها تتدحرج في جوف الصندوق... لا ريب في أنه لم يبق هناك شيء ذو قيمة، من ملاحظة الطريقة التي كانوا يعملون بها.

بدأت أخشى على قمصاني القديمة الأربعة، وعلى حذائي! إذا ما واصلوا، على هذا النحو، غزوهم المدمر، فلن يقفوا عند حد، ولن يكون هناك رحمة!... كانت تلك "صالة بيع" حقيقية! انطلقت سريعاً إذن. كنت أريد أن أرى الصندوق حالاً! كانت تلك ساعة الطعام... كانت المائدة معدة على نحو فاخر، مغطاة بأزهى الأغطية. الصحون مشجرة ومعرّقة، كلها من الكريستال. كانت المائدة في تلك الحجرة العارية تبرز على نحو رائع.

كانت الوجبة مؤلفة من البطاطا بالزيت، ومن الأرضي شوكي، مع مرقة الخل، ومن الكرز، في أقداح ماء الحياة، ومن كاتو مترع بالعصير، ومن فخذ خنزير مدخن بكامله... مائدة عامرة بما لذ وطاب في المحصلة. فضلاً عن باقة من النرجس، فوق السماط ذاته، بين الطاسات! آه! نعم إذن! لم أكن أنتظر كل هذا النعيم!.

بقيت في حيرة من الأمر !... جلسنا أنا وجونكيند أمام هذه الأطايب!... لا هو ولا هي نزلا... كنا كلانا جائعين.تذوقنا في البداية قليلاً من كل شيء... ثم حزمنا أمرنا، مددنا أيدينا، انقضضنا، التهمنا... غمسنا أصابعنا في الكومة... كل ما على المائدة كان مشهياً... كان فاخراً! كان جونكيند يتلوى طرباً، كان سعيداً مثل ملك... لم نترك على الطاولة شيئاً يؤكل... وما نزل إلينا أحد قط...

ما إن شبعنا حتى خرجنا إلى الحديقة من جديد... كانت تلك لحظة قضاء حاجاته... طفت ببصري على كل ما حولي... ما من شيء سوى

الليل...ما من روح حية... ومع ذلك فقد كان المشهد خارقاً يفوق الوصف!... في الأعلى لم أر سوى ضوء وحيد في كل واجهة المبنى... صادر من غرفة العجوز... لا شك أنه الآن قد أغلق الباب على نفسه... قلت لنفسي، لن أضيع وقتي، كفاني خداعاً ومكراً، ما دام لدي بطاقة سفري، فلأحزم أمتعتي، وأعد حقيبتي... وغداً صباحاً، سأغادر في أول قطار، في الساعة السابعة والنصف، أجل، على هذا النحو! سأقطع الأغنية، فأنا ما أحببت الوداعات في يوم من الأيام.

كنت راغباً، مع ذلك، بأن أعثر على مبلغ صغير، شلن أو شلنين، كي أشتري ربما زجاجة صغيرة من جعة الزنجبيل، فهي مفيدة في السفر... سأنيم أولاً أبلهي كي أريح كاهلي من عبئه... هززت سريره قليلاً، كان ذلك يهدئه عادة... وينيمه بسهولة... ولكنه كان في ذلك المساء يرتعد فرقاً مما رآه في النهار، لم يكن يريد أن يغمض عينيه... عبثاً كنت أردد على مسامعه هُو!هو!... ولكنه كان شديد التهيج مع ذلك، كان يقفز داخل قفصه، معارضاً محتجاً... ناخراً مثل حيوان متوحش! وعلى الرغم من أنه كان مخبّلاً، فقد كان يستشعر وضعاً غريباً. كان يرتاب في أنني سأتركه دون عناية في وحشة الليل... لم يكن مطمئناً... وإذا تركته وحيداً فسيجن جنونه من الخوف... تفوه.

صحيح أن عنبر النوم كان كبيراً... وكان خواؤه يجعل منه فضاء فسيحاً... ما عدنا سوى اثنين داخله، مقابل اثني عشر فيما مضى، وحتى أربعة عشر...

لملمت جواربي الأربعة، وبحثت عن مناديلي، وجمعت ملابسي الداخلية الحقيرة، لم تكن سوى أسمال مهلهلة، تتخللها الثقوب. سيكون على والديّ أيضاً أن يسكناني معهما ثانية! سيثير هذا أيضاً ضجيجاً عاتياً!... أي مستقبل جميل كان ينتظرني!... لم أنته بعد من

كوني عالة عليهما... ليس المستقبل مزاحاً وأيم الحق!... حين كنت أعاود التفكير بذلك، وبالباساج، القريب جداً مني الآن، كانت تجتاحني رعدة غائطية قذرة!...

منذ ثمانية شهور غادرتهما!... إلام آلوا هناك تحت سقف كوخهما؟... ما من خطأ! إنهما الآن أشد غباء وبلاهة؟ وأكثر بعثاً على السأم؟... وهؤلاء الذين في روشستر. من المؤكد أنني لن أرى بعد، هؤلاء القوم في يوم من الأيام! ألقيت نظرة من النافذة. نظرة أخيرة على المنظور المترامي... كان الجو رائقاً على نحو باهر... كانت تتراءى لي بوضوح جميع الأرصفة، والأحواض المضاءة... وأنوار السفن التي تتقاطع فيما بينها... اللعبة الكبرى لسائر الألوان... مثل نقاط تلجّ في البحث عن بعضها في قاع الظلمة... رأيت الكثير من السفن ترحل.والكثير من المسافرين... سفناً شراعيه، سفناً تسير بالبخار، كانت تمضي بعيداً الآن... إلى الجهة الأخرى من العالم... إلى كندا... وأخرى إلى استراليا، ناشرة جميع قلوعها... كانت تلتقط الحيتان... سأذهب أنا أيضاً. لن أرى قط هذا في يوم من الأيام... سأذهب إلى الباساج... إلى شارع ريشيليو... إلى شارع ميهول... سأذهب لرؤية والدي يطقطق برقبته... ورؤية أمي... تمسك ساقها بيدها... سأذهب للبحث عن أعمال... سيكون علي وشيكاً أن أحل عقدة لساني، وأن أشرح لماذا وكيف! سألفّق مثل جرذ! كان بانتظاري مزابل من الأسئلة، ما عاد علي سوى أن أعض بالنواجذ... كان قلبي مجتثاً في قبضة المجهول...

غمر الليل المنزل ببردته السوداء، أطفأت الشمعة... استلقيت على ظهري، بجميع ملابسي، حاولت أن أستريح... سأنام هكذا مثلما أنا... قلت لنفسي: "لا تخلع معطفك يا توتو... سيكون بوسعك الرحيل مع

أول خيوط الفجر..." ما عاد علي أن أبحث عن أي شـيء... كنـت قـد جهزت كل متاعي. وأعـددت حقـائبي... نـام جونكينـد في النهايـة... سمعته يشخر... لن أقول "وداعاً" لأحد!... كأني ما رأيت وما عرفت... ليس لي أن أبـوح بـالعواطف... وراود النعـاس أجفـاني!... وداعبـت نفسي قليلاً... ثم سمعت الباب ينفتح فتدفق الدم في عروقـي! وقلـت في نفسي "انتبه! يا توتو! أراهنك بعشرين مقابل واحد، بأن هـذا إنمـا من أجل الوادع!... أنت ما تزال مدعياً! يا حجلتي!..."

سمعت خطوة صغيرة خفيفة... انـسلالاً... كانـت هـي! دخلـت مثـل نسمة! تظاهرت بالنوم!... لم يعد بوسـعي الفـرار!... لم تتمهـل لحظـة! انقضت علي كالإعصار، وبوثبة واحدة، فـوق الـسرير! وتلقـت أطـرافي الصدمة! وجدت نفسي محتضناً بقوة وبحميا لاهبـة!... محتقنـاً، ممـدداً تحت المداعبات الحارقة... انهرست، لم أعـد موجـوداً... كانـت هـي، كل جسدها من ارتمى على وجهي... كان جـسدها دبقـاً... صـار وجهـي مضغوطاً، أحـسست بالاختنـاق... احتججـت... توسـلت... خـشيت أن أصرخ عالياً..فربما سمعني العجـوز!... تقلبـت!... أردت أن أفلـت مـن تحتها! تلويت... انطويت على نفسي! زحفت تحت حطامي وأنقاضـي... استعادتني، ومددتني. وارتمت فوقي من جديد... وانهال علي سـيل مـن الولـه. بـات وجهـي مرضوضـاً تمامـاً... مـا عـدت أجـد سـبيلاً إلى التنفس..."فرديناند! فرديناند!..." كانت تتوسل إلي... تشهق داخـل فمـي وأنفي... سينتفض العجوز الآن داخل سريره بلا ريب! طالمـا خفـت مـن الأزواج المخدوعين... كان منهم من لا تؤمن غوائله...

حاولت أن أهدهد وجعها... كي تتمالك نفـسها قلـيلاً... أن أبلـسم جراحها بكل الطرق!... بذلت كـل جهـدي... أفرغـت كـل طـاقتي... استخدمت كل ما في جعبتي من حيـل لطيفـة... كنـت مـشبوب الأوار

مع ذلك... كانت قد هيجتني وألهبت الدم في عروقي... كانت ترج السرير بكامله، وتتخبط، المجنونة. ثم تملصت مني فجأة بحركة عنيفة، وأفلتت من أحضاني، انتزعت نفسها القذرة!... ووثبت بغتة إلى الخلف... آه... اللعنة! انتصبت واقفة!... كانت في وسط الحجرة!... توجهت إلي ببضع كلمات... كنت أراها على ضوء المصباح الأبيض!... في غلالة ثوبها،.. منتصبة تماماً!... تتموج غدائر شعرها... لبثت جامداً في مكاني، في حال من الذهول،

قلت لها: "هلمي إذن!..." حاولت على هذا النحو ملاطفتها، ولكنها بدت غاضبة دفعة واحدة! صرخت، وهاجت وماجت... ثم تراجعت نحو الباب... وخاطبتني بلهجة مفتعلة، القذرة!... "غود باي فرديناند، غودباي! فلتعش حياة هانئة، يا فرديناند! فلتعش حياة هانئة!..." ما كان هناك سبب لذلك...

فضيحة أخرى أيضاً! قفزت حينئذ من السرير!... كنت سأطرحها أرضاً! فهذه المرة ستكون الأخيرة! تباً لماخور أستي المقدس! لم تنتظرني الحقيرة!... هبطت الدرج مسرعة!... سمعت الباب في الأسفل ينفتح ثم يصفق بقوة!... هرعت إلى النافذة! رفعت مصراعها... فلمحتها تهبط الممر المفضي إلى الحديقة... وتحت ضوء مصابيح الغاز... رأيت حركاتها، قميصها الذي يخفق مع هبات الريح... ثم رأيتها تنحدر على الأدراج... المجنونة! إلى أين تمضي؟.

ولمع في خيالي خاطر كالبرق، بأن هذا سيؤول إلى كارثة!... وقلت لنفسي "ها قد وقع المحذور! كل هذا من أجل دمّلك العفن! إنها الكارثة الوبيلة! من أجل دبرك القذر! ليس هناك ظل من شك! اللعنة! ستلقي بنفسها الآن في الماء!..." كنت أحس بأن هذا واقع لا محالة! لقد أصابها مس من الجنون! تباً!... هل سأتمكن من اللحاق

بها؟... ولكن هل كان لي يد في الأمر!... وهل أملك أن أفعل شيئاً؟ لن أمنع قط وقوع الكارثة... أصغيت... نظرت من باب الرواق... إذا لم ألمحها فوق الأرصفة... فلا شك أنها قد بلغت أسفل النهر... سمعت صرخة! تلتها صرخات!... صرخات تنادي "فرديناند"!... وتنادي آخرين... صرخات تشق عنان السماء!... كانت هي من يعوي من قاع المنحدر!... كانت مبهورة الأنفاس!... سمعتها من أعماق المرفأ! فألم بي حصر في الصدر!... وجحظت عيناي! كنت أبدو كمن يحيط علماً بما حدث! سيلقى علي القبض بالتأكيد!... لن يكون لي من ذلك معدى أو مفر... وستوضع الأغلال في يديّ! وبلغ رعبي مداه... سأذهب لأهزَّ المعتوه في قفصه، سأوقظه من نومه... إذا تركته لحظة واحدة، وأحس بالفزع... فسيرتكب حماقات شنيعة... سيضرم النار في أنحاء المنزل... أية قذارة! سأبعده من هنا... سأخرجه من سريره المسيج بالقضبان... سأدفعه أمامي مثلما هو، بثوبه الفضفاض، سأجره بأية طريقة من الطرق فوق الدرج...

عدوت به إلى الخارج، حتى نهاية الممر. انحنيت فوق الريف الصخري، و أجلت طرفي حتى الجسر، تحت غلالة الأضواء... ترى أين أمكنها أن تذهب؟ ثم لاحت لي على البعد... بقعة بيضاء... تترنح عبر الظلال... تدور حول نفسها... تلك هي فتاتي بالتأكيد،... تلك هي مجنونتي! ترفرف من فانوس إلى آخر... على غرار فراشة، القذرة!... كانت ما تزال تعوي بجنون، فتردد الريح أصداء عوائها، ثم أطلقت بعد لحظة صرخة رهيبة مدوية، ما سمعت مثلها من قبل، ثم صرخة أخرى وحشية ترددت في جميع أرجاء الوادي... "أسرع أيها الصغير! هدهدت الولد المعتوه! لقد قفزت فتاتنا اللعوب في الماء! ولن نراها ثانية أبداً! نحن الذين تعودنا على البلوى! سترى يا توتو! سترى!"

وثبت من مكاني، اندفعت أنهب الأدراج، والمسافات... فلاك! هكذا! دفعة واحدة!... وفي منتصف الدرج، داهمني الاضطراب فجأة. كان التفكير قد استحوذ علي، كبحت اندفاعي! وعرتني رعدة شديدة، حسن! هذا يكفي! لن أتقدم خطوة واحدة!... مسافة شعرة. غيرت رأيي! أنعمت النظر في الموقف!... انحنيت قليلاً فوق الدرابزين! فوقعت عيناي على المكان الذي قفزت منه... كان الرصيف هناك أكثر انخفاضاً... كان الماء يقرقر الآن حول المكان!... وهرع الناس من كل الأنحاء.

امتلأ المكان بالمنقذين! ووصل آخرون أيضاً، تداولوا في الأمر... اندفعوا بحمية يبحثون في كل زوايا النهر بعصيهم الطويلة، وعواماتهم، وقواربهم الخفيفة... جميع الصفارات بدأت مجتمعة بالعويل... ثارت جلبة مدوية، هدير يصم الآذان!... ولكنهم تخبطوا! أضنوا قواهم!... دون أن يقعوا لها على أثر... فالبقعة البيضاء الصغيرة وسط الماء، طوحت بها الأمواج أبعد فأبعد...

رأيتها ثانية، من حيث كنت أقف، رأيتها بوضوح شديد تحف بها المياه... مرت على مسافة قريبة من العوامات... سمعتها أيضاً كما لو كانت تختنق... سمعت بوضوح غرغرتها... سمعت الصافرات أيضاً، سمعتها تلطم الماء وسط النهر، كانت عالقة في المد، منداحة في قلب الدوامات. ثم تجاوزت تلك البقعة البيضاء الصغيرة مكسر الموج! وا مغيثاه! وا بؤساه! لقد وردت فتاتي مورد الهلاك بالتأكيد!... هيا عجل، قلت للمعتوه، حثثت الصبي على السير سريعاً! ينبغي أن لا يعثروا علينا خارج المنزل!... خليق أن نتوارى حينما يعودون... آه قل إذن!.

لم يكن بمقدوره أن يعدو... دفعته بقوة... قذفته أمامي... لم يكن

يرى شيئاً دون نظارتيه... لم يعد يرى حتى المصابيح. كان يصطدم في كل مكان... ويعوي مثل كلب صغير... أمسكت به وأنهضته، وحملته وأنا أتسلق الدرج!... ثم ألقيته في جوف سريره... ووثبت نحو باب العجوز!... فاصطدمت به صدمة عنيفة كادت تفقدني صوابي! ولكن ما من جواب!... حسناً! صدمت الباب ثانية! قرعته!... دفعته بعنف! حطمته!... دخلت! كان العجوز هناك بالضبط! مثلما كنت قد رأيته من الكوة الزجاجية... قابعاً أمام سريره المشبك، مستغرقاً في شروده، محمر الوجه... يداعب بطنه، ولا يبدو عليه أي أثر للتوتر... رفع نظره إلي مادمت قد قاطعته... رفّ جفناه قليلاً وزغللت عيناه... لم يدرك شيئاً... "لقد غرقت! لقد غرقت!..." صرخت به... وكررت ذلك أيضاً بصوت أقوى!... من أعماق رئتيّ... قمت بحركات أيضاً... قلدت غرغرة الغريق... أشرت إليه عبر النافذة نحو الأسفل!... صوب الوادي! في القاع العميق! "النهر! النهر! هناك تحت! في الماء!..." أراد أن ينهض قليلاً... بذل جهداً مضنياً، ثم ترنح، وسقط فوق أحد المقاعد... "أوه! أيها المهذب فرديناند! قال لي... أيها المهذب فرديناند!" ومد إلي يده... ولكن كريّته الصغيرة المربوطة إلى عصا، والتي كان يلهو بها علقت بالمقعد... حاول جذبها، فلم يقو على ذلك... وقلب تحت مقعده جميع زجاجات الشراب... وسال ما فيها من الويسكي... واندلق المرملاد من الدورق الذي فرقع بقوة... انقلب كل شيء... مثل شلال. وجعله ذلك يغرق في الضحك... حتى تشنج جسده... أراد أن يتدارك الأشياء... الصلصة... فانهار كل شيء... ووقع الصحن أيضاً، فانزلق فوق الزجاج المحطم... حوم قليلاً تحت المقعد، ثم استوى، ولم يعد يتحرك... كان مستنداً إلى الموقد...... اجترّ... ونخر... ثم نفخ بطنه حتى صار كالكرة... وربت بيده فوق الوسائد... وضغط عليها ببطء... عجنها... ثم أبعدها عن بعضها، ومسح بيده ثانية فوق ثنياتها.

ما عدت أعرف قط ما أريد قوله. فضّلت أن لا ألح عليه أكثر، أغلقت عليه الباب، وعدت إلى عنبر النوم... قلت لنفسي: "الفرار! الفرار! في بكرة الفجر!..." كان متاعي الصغير مهيئاً... تمددت قليلاً على السرير... غير أنني نهضت على الفور تقريباً... يتملكني الهلع... لا أدري لماذا بالضبط. بدأت أفكر بالمرأة... نظرت ثانية من النافذة... أصغيت... لم أعد أسمع حسّاً ولا حسيساً... ما عاد ثمة صوت على الإطلاق... ما عاد هناك رجل على الرصيف. لقد غادروا جميعاً...

داهمني القلق فجأة. ورغم الفزع، والتعب الشديد... لم يعد بمقدوري أن أقاوم... أردت النزول إلى هناك. لأرى إن كانوا قد أخرجوها من الماء؟... ارتديت على عجل سترتي وبنطالي، كان الصبي المعتوه منهكاً غاية الإنهاك... أغلقت عليه باب العنبر بالمفتاح... كنت أنوي أن أعود فوراً... اندفعت كالسهم... وحين وصلت آخر الدرجات، رأيت شرطياً يقوم بالدورية... ثم رأيت بحاراً اتجه نحوي وسألني... فتجمد الدم في عروقي... وطار فؤادي شعاعاً... لبثت هكذا كالمشلول في مكاني... آه تباً! لم أقم بأية حركة! كان ذلك أعقد من أن أدركه. لم تعد قدماي تحملانني، ولكنني لبثت واقفاً لحظة... ما عاد أحد يمر على الرصيف، لم يكن الجسر الذي قفزت منه بعيداً... رأيت الأضواء الحمراء مثل موكب كبير، ترتعش أشعتها على صفحة الماء... قلت لنفسي، سأصعد الآن!... ربما يكون الشرطة قد وصلوا الآن إلى فوق!... فكرت... تخيلت... كنت منهكاً، وقد ضاقت بي الأرض على رحبها!... وبلغت روحي التراقي!... يملؤني الشك بما ستؤول إليه الأمور، ما عاد بوسعي أن أقوس ظهري... ما عاد بوسعي أن أصعد إلى المانويل... ما عدت راغباً بالصعود... لملمت نفسي... لم يكن بمقدوري أن أفعل شيئاً!...

لم يكن لي يد في هذه السَّلَطة! على الإطلاق!... أردت الفرار هكذا وحدي دون الأمتعة... اتجهت بهدوء إلى المحطة... زررت معطفي جيداً... ما كنت أرغب بأن يتعرف علي أحد... مشيت الهوينا لصق الجدران... لم أصادف أحداً في طريقي... كانت صالة الانتظار مفتوحة... آه! نعم الأمر!... تمددت قليلاً فوق المقعد الخشبي. كان ثمة مدفأة بالقرب مني... شعرت بأنني أفضل حالاً... كنت في قلب الظلمة... سيتحرك القطار الأول في الساعة الخامسة نحو فولكستون. لم آخذ أي شيء من أشيائي... ظلت هناك فوق السرير... بئس الأمر!... لن أجلب شيئاً منها... ما عدت راغباً بالعودة لأخذها... ما عاد ذلك ممكناً... كان علي الفرار بكل الوسائل... جلست ثانية كي لا أغفو... كي أكون متأكداً من السفر في قطار الساعة الخامسة. مكثت جالساً هناك تحت اللوحة الإعلانية. تمددت تحتها بالضبط: "الساعة الخامسة، فولكستون عن طريق كانتر بيري".

* * *

عائداً هكذا دون متاع ودون أن أحمل معي شيئاً من أسمالي، كنت أتوقع استقبالاً سيئاً... ولكن لا شيء من هذا!... كان السرور بادياً على محيّا عجوزيّ. كانا سعيدين بالأحرى بأن يرياني قد وصلت. تفاجأا فقط لأنني لم أجلب معي قميصاً واحداً، ولا جورباً واحداً، ولكنهما لم يلحا في السؤال... ولم يعملا سيناريو حول ذلك... كانت همومهما قد استنفدتهما حتى النهاية.

منذ شهور ثمانية كنت قد سافرت. كانا قد تغيرا جسداً وروحاً. وجدتهما ذابلين متغضنين، وقد جفت الدماء في وجهيهما، متعثرين في سيرهما. كان والدي يعوم داخل سراويله، وقد تجعدت حول ركبتيه، وتهدلت مثل فيل، كان رأسه شاحباً شحوباً

أدكن، وقد تساقط كل ما فوقه من شعر، واختفى تحت قبعته البحرية... كانت عيناه بلا لون تقريباً، ما عادتا زرقاوين على الإطلاق، بل رماديتين، شاحبتين كلياً، مثل بقية وجهه الذي لم يعد فيه غير التجاعيد الداكنة اللون، تنحدر من أنفه إلى فمه على هيئة أثلام عميقة. كان التلف قد نال منه... لم يخض معي في أي حديث ذي قيمة... سألني فقط، لماذا لم يعودوا يجيبون على رسائله من إنكلترا؟... وما إذا كانوا غير راضين عني في "مانويل كوليج؟ إذا كنت قد أحرزت تقدماً؟... إن كنت قد أتقنت اللهجة؟ إذا كنت أفهم الإنكليز حين كانوا يتكلمون معي بسرعة؟... غمغمت بأسباب غامضة... ولم يسألني أكثر من ذلك.

زيادة على ذلك، ما عاد يصغي إلي، كان أشد تهيباً من أن يلتفت إلى أمور صارت في حكم المنتهية، لم يعد حريصاً على المناقشة. لم أكن قد عرفت بعد كل شيء من خلال رسائله المفعمة بالكآبة والنكد... كان هناك أيضاً كم وفير من الكوارث الحديثة العهد، والمستجدة! سمعت إذن كل شيء بجميع التفاصيل... كانا قد حمّلا نفسيهما عبئاً ثقيلاً جداً من أجل توفير نفقة تعليمي خلال الأشهر الستة الأولى... عبئاً مضنياً لا قبل لهما باحتماله... أما كارثة سترات البوليرو فقد ألحقت بهما الخراب، بكل معنى الكلمة! رهنت ساعة والدي في المونت دي بيتيه منذ أمد طويل!... وكذلك خاتم أمي... وابتلعت رهون عقارية مترتبة على حطام عقارات أزنيير أشياء أخرى أيضاً...

فقد والدي صوابه تماماً حين ما عاد بحوزته ساعته الميقاتية،. وزاد عجزه عن تحديد الوقت في انكساره. فوالدي الدقيق جداً والمنظم جداً صار مرغماً على النظر إلى الساعة الجدارية المعلقة في

مدخل الباساج كل لحظة... كان يخرج من أجل ذلك، ويخطو خطوة خارج الباب... وكانت الأم أوسيل بائعة المنقوشات الفنية تنتظره في اللحظة التي يخرج فيها... وتقلد له صوت الساعة توك! تيك! توك! تيك! وتمد له لسانها لإغاظته...

ثمة كروب أخرى عرضت لهما... بعضها متصل بالبعض الآخر، يخنة بصل حقيقية... كانت قواهما تنوء تحت أعباء أثقل من أن تحتملها. كانا يتلويان وسط التعاسة، يتحللان، يتلاشيان في غمرة القنوط، كان يأسهما يدفعهما بالضرورة إلى الزوغان أمام الكروب... فيحاولان أن ينزلقا انزلاقاً تحت ضربات الأقدار... ليس ثمة ما يمكن عمله! كانا يتعاركان مع ذلك، ويكيلان لبعضهما أقسى اللطمات.

ما عاد بوسع السيدة هيروند، العاملة أن تقوم بأي عمل، لم تعد تخرج من المستشفى... حلت محلها عاملة أخرى هي السيدة جاسمين، ولكن هذه لم تكن جادة بقرش واحد!... سلة مثقوبة والحق يقال، رهيبة بشأن الديون والشراب. ذلكم كان هواها، كانت تقيم في كليشي، لذلك فإن أمي لم تعد تغادر حافلة الباص. كانت تلاحقها صبح مساء... ولا تعثر عليها إلا في الحانات.... كانت متزوجة من جندي من جنود المستعمرات، لذلك فقد أدمنت على شرب الإبسنت المسكر... كانت زبوناتها ينتظرن زخارفهن ومطرزاتهن شهوراً بكاملها، فتجتاحهن نوبات من السخط ونفاد الصبر الوحشيين... كن في برح دائم بسبب التأخير والإرجاء!... وحين تحين لحظة دفع الحساب، تندلق القربة ذاتها، بما فيها من مكر وتضليل!... فرووت! كانت السيدة الزبونة تختفي، لم يعد هناك أحد فجأة... أو أنهن حينما يدفعن لها بعض الدريهمات، كن يدمدمن، ويعولن عويلاً لا نهاية له، ويعصرن بشدة الفواتير الصغيرة جداً بمناوراتهن وأحابيلهن، بحيث أن أمي، في نهاية المطاف، لم تعد تعرف

كيف وماذا تقول... كانت تنضح بالعرق وحسب، وتعرج وهي تريل دماً ولعاباً، خلف جاسمين، وخلف الجميع، كي تنهك نفسها في النهاية، وتعامل كعفونة... في حين أن الأمور لم تكن تستحق كل هذا العناء.

منذ البداية أدركت أمي ذلك بوضوح، كانت تعترف به لنفسها من خلال عبراتها، كان الميل إلى الأشياء الجميلة يضمحل ويتلاشى... كان ذلك أشبه بتيار جارف يتعذر صده... حتى الكفاح كان يغدو غباء صرفاً، عذاباً مبرحاً من دون طائل...

لم يعد لدى الأغنياء تلك الرهافة في الذوق... تلك الحساسية العالية... ما عاد لديهم ذلك التقدير للأشياء المتبرجة الدقيقة الصنع، للأعمال التي تصنعها اليد وحدها... ما عاد هناك سوى ولع فاسد بالأشياء الميكانيكية الرديئة، والمطرزات التي تنسل خيوطها، والتي تذوب وتتهتك عند الغسيل... فما جدوى بذل الجهد لإنتاج الأعمال الجميلة. إليكم ما تطلبه السيدات الآن! بهارج مزوّقة، خيوط شعرية متشابكة! ركام من القباحات! قمامة حقيقية منفرة! أما المخرمات الجميلة فقد عفا عليها العفاء!... فلماذا الإصرار والعناد؟ كان على أمي أن تصاب هي أيضاً بهذه العدوى، فقد أقحمت في كل مكان من حانوتها تلك الأشياء الجديدة القذرة... تلك الخرق الشائهة، فخلال أقل من شهر!... غصّت بها واجهة الحانوت!... وحين كانت تقع عينها على تلك الكيلومترات من الشرائط المزخرفة معلقة في كل الزوايا والرفوف كانت تشعر بالحزن، وينتابها مغص مؤلم!... لم يعد ثمة وقت للمماحكة... فاليهود على بعد أربع خطوات منا، عند ناصية شارع جونور كانوا يكدسون أكداساً من البضاعة ذاتها، في مخزن مفتوح، تغص بها الرفوف مثلما في المعارض، يبيعونها بالبكرات أو بالكيلومترات أو بالكيلوغرامات!...

كان هذا يشكل انحطاطاً حقيقياً بالنسبة إلى من عرف الأعمال الأصيلة... كانت والدتي تشعر بالخزي! حين كانت تجد نفسها في حلبة المنافسة بمثل هذه النفايات!... ولكن لم يعد لديها الخيار في النهاية... كانت تفضل أن تدين إدانة قاطعة هذا الصنف من البضائع، وتتجه لكسب رزقها منذ الآن عبر الإتجار بمجموعاتها الأخرى، كقطع الأثاث الصغيرة، على سبيل المثال، والمرصعات، والسكريات، وآنية الهاريكو، والمكاتب الصغيرة، وحتى بتحف الواجهات الزجاجية، كالآنية المزخرفة، والخزف المرصع، والثريات الهولندية التي لا تعود إلا بربح صغير تقريباً، والتي كانت تلاقي برحاً شديداً في حملها، لثقل وزنها... ولكنها كانت بالغة الضعف، تكابد الآلام بسبب ساقها العرجاء... ما عاد بمقدورها أن تجري عبر أربعة أركان باريس... وهي تحمل أي شيء مهما خف وزنه، كان هذا مستحيلاً! ومع ذلك، كان هذا ما يتوجب عليها فعله كي يتاح لها أن تبيع شيئاً من بضاعتها. ثم تظل بعد ذلك ساعات تطوي ركبتيها إلى بطنها... في صالات البيع...أما في المخزن... فلم يكن الوضع ينبئ بأي أمل... كان طبيبها الدكتور كابرون يأتي لزيارتنا مرتين، من عيادته في سوق سانت هونوريه، ودائماً من أجل ساقها. كان رأيه جازماً!... ينبغي أن ترتاح قطعاً! وأن لا تعود إلى النطنطة بين الطوابق وعلى ظهرها حمولة ستة وثلاثين بغلاً! كان عليها أيضاً أن تبتعد عن جميع أعمال البيت، وأعمال المطبخ أيضاً. لم يكن هناك ظل من التردد في كلماته... كان قد تنبأ لها بصراحة تامة! بأنها إذا ما أجهدت نفسها مزيداً من الإجهاد فسيتشكل داخل ركبتها خراج مؤذٍ. وأشار لها بيده إلى موضع الخراج... ولفرط ما كانت تتألم كان فخذها وربلة ساقها يتصلبان وينشدان إلى بعضهما بقوة، وكان هذا يجعل من عظميهما عظماً واحداً مع المفصل. حتى لتبدو رجلها بطولها مثل عصا، أو مثل إسطوانة... ما

عاد ثمة عضلات تكسو العظام... وحينما تخطو برجلها كانت تبدو كما لو أنها تسير على حبل... كنت أرى عظام ساقها مشدودة على امتدادها... وأرى ما يثيره ذلك من آلام فظيعة، وتشنجات جهنمية، ولاسيما عند المساء، وحينما ينتهي طوافها، وتؤوب من جولاتها... كانت تريني ذلك أنا وحدي... وهي تضع فوق ساقها كمادات ساخنة. كانت تتحاشى أن يرى والدي كل ذلك... وقد أخبرتني أخيراً بأنه كان ينفجر غضباً حينما كانت تظلع خلفه خلال جولاتهما...

وإذا ما كنا وحدنا... حين كنت أنتظر داخل الحانوت، كانت تغتنم الفرصة، وتردد على مسامعي، بلطف بالغ ومحبة فياضة، ولكن بقناعة لا شك فيها بأن الأمور إذا ما كانت قد اتخذت هذا المنحى السيئ، فقد كان ذلك بسبب غلطتي بالتأكيد، فزيادة على متاعبها، في الحانوت وفي المكتب... فإن سلوكي، وجميع هفواتي الفادحة لدى آل غورلوج وآل بيرلوب قد أثخنتهما بالآلام بحيث لن يبرأا منها أبداً... كانا متوترين مهتاجين على الدوام... لم يكونا حاقدين علي بالطبع... ولا يشعران تجاهي بأية ضغينة! فقد كان كل ذلك قد مضى وانقضى!... ولكنني أدركت أخيراً، وعلى نحو عميق هول الآلام التي سببتها لهما... فوالدي كان من الاضطراب بحيث لم يعد بمستطاعه أن يتمالك أعصابه... كان ينتفض بشدة طوال الليل... ويستيقظ وسط الكوابيس... وما ينفك يروح ويجئ طوال ساعات.

أما أمي فكنت أرى ساقها المهيضة!... كانت تلك أسوأ الآفات!... كانت أسوأ من أي مرض خطير. من التفوئيد، ومن الطفح الجلدي! وقد جددت لي أيضاً جميع النصائح القديمة بأرق لهجة... بأن أحاول ما استطعت، لدى المعلمين الآخرين، أن أغدو عاقلاً، متزناً، شجاعاً، دؤوباً، معترفاً بالجميل، متبصراً، خدوماً، وأن أكف عن

الطيش، والإهمال، والكسل... وأن أسعى بدأب إلى أن يكون لي قلب... قلب على الأخص!... وأن أتذكر على الدوام بأنهما حرما نفسيهما من كل شيء، وأنهما عاشا كلاهما في قلق ممض منذ أن ولدت... وعانيا أخيراً من وطأة الديون لإرسالي إلى إنكلترا!... وإذا ما حدث أن اقترفت أعمالاً شنيعة أخرى... إيه حسناً، فستكون تلك الطامة الكبرى!... لأن والدي التعيس لن يحتمل بالتأكيد... ولن يعود قادراً على الصمود، وستوافيه النورستانيا... وحينئذ سيتحتم عليه أن يترك المكتب. أما هي، فإنها إذا ما عانت كروباً أخرى بسبب سلوكي... فسيؤثر ذلك على ساقها، وستنتقل من خرّاج إلى خرّاج، حتى ينتهي أمرها إلى البتر... ذلكم ما قاله الدكتور كابرون.

بخصوص والدي، كان كل شيء يغدو أكثر تراجيدية، بسبب مزاجه، وحساسيته... كان بحاجة إلى أن يرتاح حالاً، ولشهور عدة، وأن يمضي إجازة طويلة في مكان أكثر هدوءاً، مكان منعزل، في الريف... ذلك ما أوصى به كابرون! كان قد فحص بسماعته ضربات قلبه وقتاً طويلاً... ووجد النبض مضطرباً أيما اضطراب... وكانت لديه عوارض أخرى. كان كلا الرجلين، كابرون وأبي في عمر واحد، في الثانية والأربعين وستة أشهر، وقد أضاف كابرون بأن الرجل يكون أشد هشاشة من المرأة في سن "اليأس"... وأن عليه أن يتخذ ألف احتياط. وقد جاءت نصيحته تلك في غير أوانها! ففي تلك اللحظات كان والدي، على العكس تماماً! يرهق نفسه أكثر من أي وقت مضى!... كنا نسمعه من غرفته في الطابق الثالث يضرب على آلته الكاتبة الضخمة التي تشبه مصنعاً... وحين كان يقرع ملامسها وقتاً طويلاً كانت صلصلة الحروف ما تنفك عالقة في أذنيه فترة طويلة من الليل... وكان ذلك يمنع عنه النوم. فكان يغطس رجليه في ماء الخردل... كان ذلك يهدئ من اضطرابه قليلاً.

* * *

بدأت أدرك بعمق بأن أمي كانت تعتبرني دائماً ولداً متحجر القلب، وحشاً أنانياً، متقلب الأطوار، حيواناً صغيراً طائشاً... كان عبثاً كل ما يحاولانه... وكل ما يفعلانه... كان وضعي ميؤوساً منه حقاً... لم يكن ثمة شكوك حول ميولي المشؤومة، المتأصلة، العصية على الإصلاح... سلّمت أمي أخيراً بأن أبي كان على حق. زيادة على ذلك، كانت عواطفهما، خلال غيابي قد قست وتصلبت من فرط التذمر والتشكي... كانا في حال من القلق والانشغال الدائم بحيث أن خطواتي كانت تثير فيهما الخوف! وفي كل مرة كنت أصعد الدرج كان والدي يقطب ويتجهم.

كانت الضربة القاصمة التي نجمت عن خسارتهما في سترات البوليرو (سترة طويلة فضفاضة للرقص) هي القطرة التي طفح بسببها الكأس... ومع آلته الكاتبة، بلغت استثارته الذروة، فهو لم يكن ليتوصل قط إلى الرضا عن عمله!... كان يمضي ساعات أمامها محاولاً أن ينجز "نسخاً"... كان يضرب فوقها كالأصم... يمزق صفحات بكاملها... أو يندفع إلى العمل عليها بحمية غريبة، أو بشيء من الفتور، لم يكن جرسها يكف عن الرنين. كنت أراه، من سريري القريب جداً، منهمكاً كل الانهماك... يعبث بملامسها، حائراً بين قضبانها، لم يكن ذلك من طبعه... كان ينهض من ورائها مغسولاً بعرقه... يجدّف بكل أسماء الله... كأنه يخاطب أحداً أمامه... وكان السيد لامبرنت، في المكتب يصب جام غضبه فوق رأسه باستمرار، ويضايقه في الذهاب والإياب. كان من الواضح أنه يبحث عن ذريعة: "لن نخلص من خطوطك المائلة! ومن خطوطك الرفيعة! آه! يا صديقي البائس انظر قليلاً إلى زملائك! لقد أتموا عملهم منذ وقت طويل! أنت ناسخ! يا سيد! عليك أن تثبت ذلك!..." كان يتكدر...

ويبحث عن عمل في مكان آخر... كان يتوقع السقوط... فيقصد زملاء قدامى... كان يعرف أمين صندوق في شركة منافسة. وقد وعدوه بالعمل تحت التجربة خلال شهر كانون الثاني. هاهنا أيضاً سيكون عليه العمل على آلته الكاتبة... كان يعاود القرع على ملامسها كل مساء، حالما يعود من تسليم الطلبات.

كانت تلك آلة عتيقة، متينة بالتأكيد... مخصصة للتأجير. تطلق رنيناً مع كل فاصلة... كان يتدرب عليها على نحو جنوني مسعور، أمام النافذة الصغيرة، من وقت العشاء وحتى منتصف الليل.

كانت أمي تصعد إلينا بعد أن تنتهي من غسل آنية المطبخ، ترفع ساقها فوق كرسي، وتضع فوقها كمادات... لم يكن بوسعها أن تثرثر، فقد كان ذلك يضايق والدي... كنا نتلظى بلهيب الحر... كانت بداية الصيف محرقة.

* * *

لم يكن الوقت ملائماً للبحث عن عمل... كانت التجارة، بالأحرى راكدة عشية فصل الكساد. تلمسنا قليلاً بعض السبل... بحثنا ذات اليمين وذات الشمال... لدى وسطاء تجاريين نعرفهم، دون أن نعثر لديهم على بصيص من أمل. لن تتمكن الأسواق من استئناف نشاطها إلا بعد فترة العطلة الصيفية... والأمر ذاته بالنسبة إلى المتاجر الأجنبية.

لم تكن فترة الركود هذه سيئة، بمعنى من المعاني، ما دمت لا أملك أي ثياب... كان من الضروري تحسين قيافتي قبل أن أستأنف مساعيّ... غير أن تحقيق ذلك كانت تعترضه صعوبة كأداء!... ألا وهي الافتقار إلى المال اللازم!... كنت أنتظر، شهر أيلول من أجل شراء الحذاء والمعطف!... كنت سعيداً لهذا التأجيل... كان بوسعي

أن أتنفس قليلاً قبل أن أريهم إنكليزيتي!... سيدور بالتأكيد لغط كثير حالما يدركون الأمر... أخيراً، فإن كل هذا لن يكون فورياً!... ما عاد لدي سوى قميص وحيد... فقد ارتديت أحد قمصان والدي... سيوصون لي على سترة وبنطالين دفعة واحدة... ولكن في الشهر القادم وليس الآن... لم يكن ثمة وسيلة فورية... كان كل ما في جعبتنا لا يكاد يكفي لسد الرمق، وفي الحدود الدنيا... كان علينا دفع قسط الإيجار للشهر الثامن، كما أننا تأخرنا في تسديد ثمن الغاز! وهناك الضرائب أيضاً، وآلة والدي... ما عاد ثمة مخرج من هذا الوضع الخانق!... كان هناك إنذارات دوماً حول جميع قطع الأثاث، البنفسجية أو الحمراء أو الزرقاء!...

كان ما يزال لدي مهلة إذن! لم يكن بإمكاني الجري خلف أرباب العمل بثياب مهلهلة، ببدلة مرقعة، متهدلة، أكمامها مشمورة حتى منتصفها... ما كان هذا ممكناً! وعلى الأخص في محلات النوفوتيه، وداخل مخازن المفرّق، حيث يكون الجميع متغندرين بالأحرى.

كان والدي مستغرقاً في تمريناته على الآلة الكاتبة، وفي قلقه من أن يطردوه من المكتب، بحيث أنه كان، حتى في وقت العشاء، لا يبرح غارقاً في أفكاره! ما عاد يثير اهتمامي كثيراً. كانت لديه فكرة يقينية بشأني، منغرسة في أعماق رأسه، راسخة كل الرسوخ، بأنني كنت، بوجه الضبط، من طبيعة هي السفالة بعينها! وأنني الأبله البليد الذي لا يرجى شفاؤه! هكذا تماماً! وأنني بعيد كل البعد عن قلق الطبائع المهذبة، وعن اهتماماتها... وأنني خلال حياتي كلِّها لن أملك كبح غرائزي الدنيئة المنغرسة في لحمي مثل سكين حقيقي! وأنني، فوق كل ذلك، كنت أقلّب السكين في كل

دقيقة، أكثر فأكثر. آه! ولكن لا! ولكن لا! ربما كنت أيضاً سأهزُّ تلك السكين، وأدفع مقبضها؟ بنحو أقوى؟ وأكثر عمقاً؟ آه وأشد حساسية أيضاً!... وسأصرخ مع تصاعد الألم! ولكن لا! ربما سأتحول إلى درويش هنا في الباساج؟ بالقرب منهما؟ حتى آخر عمري؟... وحينئذ؟ سأغدو شيئاً غريباً لم يسمع بمثله من قبل؟ نعم! شيئاً خارقاً؟ معبوداً؟ وأكثر كمالاً أيضاً؟ آه! نعم! وأشدَّ وسواساً، واضطراباً، وحصراً بعشرة آلاف مرة!.. سأغدو القديس سليل الادخار والكفاح العائلي الضاري!... آه! إيه حسناً، وأشد عتهاً! آه! نعم كذلك!. وأكثر اقتصاداً في النفقة بمئة ألف مرة! يوب! لا لا! كما لم تر عين قط! لا في الباساج ولا في أي مكان آخر، ولا في العالم بأسره!...تباً! معجزة جميع الأبناء! في الضواحي وفي الأقاليم! الإبن الرائع! المدهش! ولكن ينبغي أن لا يسألني أحد شيئاً! فقد كان لدي طبيعة نتنة... ما كان لدي تفسيرات!... ما كان لدي ذرة من الشرف... كنت أنزّ قيحاً وصديداً من كل مكان... كنت شائهاً مقززاً! لم يكن لدي شفقة ولا مستقبل... كنت جافاً متيبساً مثل ست وثلاثين هراوة! كنت الفاسق المتمرغ في الفجور... زبدة الروث... غراب الأحقاد المتأرثة السوداء... كنت خيبة الحياة! كنت الحزن ذاته. كنت ألتهم الحزن ظهراً ومساء وألتهم معه القهوة بالحليب. لقد اكتمل واجبي إذن! كنت الصليب على الأرض! لن يكون لدي أيُّ حسٍّ في يوم من الأيام!... ما كنت سوى غرائز وحسب، وجوف هائل لابتلاع كل قوت العائلة الزهيد، وكل تضحياتها. كنت هامة مصاصة للدم... لم أكن أستحق عناء النظر إلي...

* * *

منذ أن سافرت، حدثت تغيرات كثيرة، في باساج بيريزيناس، في عروض البضائع، وفي كل مكان... انصرف الناس إلى "الأسلوب العصري"، إلى الألوان الليلكية والبرتقالية... ازدهرت بوجه التحديد، موضة النباتات المعرشة، كاللبلاب والسوسن... كانت تتسلق على امتداد الواجهات... وفوق الطنف البارزة، والأطر الخشبية المحفورة... فتح محلان للعطور، ومحل لبيع الغراموفونات... الصور الفوتوغرافية ذاتها ما تزال معلقة على باب مسرحنا "غرينييه مونديـن" والملصقات ذاتها على جدران الكواليس. كانوا يمثلون دوماً المسرحية الغنائية "المس هيليت" مع صوت التينور بيتالوغا نفسه (الصوت الرجولي الصادح)... كان ذلك الصوت ساحراً. كان يجدد نجاحه كل يوم أحد في مسرح "إيليفاسيون" ومسرح "نوتردام دي فيكتورا" أمام جميع محبيه... كانوا يتحدثون عنه طوال اثني عشر شهراً في جميع مخازن الباساج، وعن "ليلة الميلاد" حين كان يصدح في كنيسة سانت اوستاش من أجل الميلاد!... وفي كل عام أيضاً، على نحو أكثر رخامة، وأوسع امتداداً، وأشد تجاوزاً للطبيعة!...

كان ثمة خطة لتوصيل الكهرباء إلى جميع حوانيت الباساج! سيتم إذن التخلص من الغاز الذي كان يصدر صفيراً منذ الساعة الرابعة مساء، من مصابيحه الثلاثمئة والعشرين، والذي كان ينبعث منه رائحة قوية جداً في جونا الفاسد إلى حدٍّ أن بعض النسوة، كن يجدن صعوبة في التنفس، بعد الساعة السابعة (إضافة إلى رائحة بول الكلاب التي كان عددها يتزايد باستمرار...) كان الحديث يدور أيضاً حول تدميرنا كلياً، عن تقويض السرداب بكامله، والإطاحة بواجهاتنا الزجاجية الكبيرة! نعم! وشق شارع بعرض خمسة

وعشرين متراً في المكان ذاته الذي كنا نقيم فيه...آه! ولكن هذا لم يكن أكثر من شائعات غير جدية، كان بالأحرى ثرثرات فارغة، هذراً يجري على ألسنة سجناء، ومتسولين...! وأنصاف متسولين الذين هم نحن! والذين كان ينبغي أن يظلوا أنصاف متسولين! دائماً ورغم كل شيء. ذلكم قانون الأقوى!...

كان من المفهوم بالتأكيد، أن تتخمر في رؤوس هؤلاء البؤساء، بين وقت وآخر، أوهام مضحكة، على هذا النحو حول مصير حوانيتهم. ولاسيما في أيام القيظ الشديد... كان ذلك يجري على شكل فقاعات تتشكل داخل رؤوسهم، ثم تنفجر على السطح... قبل عواصف أيلول... كانوا ينخرطون بحماس في إطلاق الشائعات، والأضاليل الغريبة المدهشة، حالمين جميعاً بتحقيق نجاحات، وصفقات مربحة... كانوا يجدون أنفسهم مجردين من كل شيء، فيعوضون عن ذلك بالأحلام والتعلات! ولأنهم منسحقون تحت عجلات الدولة، كانوا ينتفخون ويتعاظمون، ويكتنفهم الغرور والتباهي... هؤلاء الذين كانوا شاحبين عادة يغدون متوردين، ويصبح لونهم قرمزياً.

قبل أن يوشكوا على الغرق في النوم كانوا يجرون حساباتهم الخارقة، سائر عملياتهم الحسابية الخيالية! مبالغ طائلة، مرة واحدة، مبالغ خيالية بالتأكيد سيطالبون بها حينما يتحدثون عن التعويض عن مخازنهم التي سيرحلون عنها! حينما سيفتح الشارع! آه! مهلاً! إيه حسناً، وأيم الحق! كانوا يتوجسون خيفة! من السلطات العامة، حينما ستخرجهم من هنا!... لم يكونوا يرتابون بعد بمجلس الدولة!... ترى كيف سيقاومون ذلك! أوويه! وكل جوقة الرسميين والمستشارين!... آه! كانوا يريلون خمس دقائق!

سيكون عليهم أن يفاوضوا هؤلاء! يوب! ثمة كتب وإنذارات رسمية!... كل هذا وأسوأ منه أيضاً! فهناك دوماً اثنتان وثلاثون ألف قملة تعشش في أجسادهم وبيوتهم! تعج فيها بقوة! لن يكون ذلك ثقب الإست الوحيد الذي ينتظرهم! سيكونون مضطرين في النهاية إلى خلع أبواب بنك فرنسا كي يحصلوا على تعويض يتيح لهم فتح مخزن حقيقي بديل! يعادل مخزنهم بالتمام والكمال! بالميليغرام! بالديسيمات! بوجه الضبط! ولا شيء آخر!... و إلا فإنهم لن يقبلوا بشيء على الإطلاق! هذا يكفي!... سيصرّون على ذلك بنحو قاطع!... ولكنهم في أسوأ الأحوال سيقبلون بمعاش شهري كبير... لن يقولوا لا... سيرغبون ربما بذلك... آه! ولكن بمعاش واف! معاش يدوم لأمد الحياة، تباً! معاش دسم، مكفول من بنك فرنسا بحيث ينفقون منه على هواهم! وسيذهبون لصيد السمك بالصنارة! خلال تسعين سنة ربما! ويغرقون في اللهو والمجون ليل نهار! ولن يكون هذا كافياً أيضاً! سيكون لهم كذلك حقوق ثابتة باسترجاع مخزنهم، وبيوت في الريف، وتعويضات أخرى، لا يحصيها العد!.

إذن؟ كان ذلك طبعاً متأصلاً فيهم، كان بسيطاً، يتعذر دحضه أو مقاومته! كان من الصعب التخلي عنه في يوم من الأيام! على هذا النحو كانوا يرون الأمور كلها... كان هذا من أثر الحرارة، من أثر المناخ الفظيع... طريقة لتجنب التراشق بالشتائم فيما بينهم... فباتفاقهم على "استرجاع حقوقهم"... كان الوفاق يعم الجميع... ويغدو المستقبل زاهياً للجميع... وكل منهم يرغب بأن تنتزع منه ملكيته الصغيرة في الباساج.

* * *

عبرّ جميع الجيران في الباساج عن دهشتهم من قامتي التي نمت وتضخمت....كنت قد غدوت قوياً متين البنيان، وتضاعف حجمي تقريباً... غير أن ذلك سيترتب عليه تكاليف جديدة حين نذهب لابتياع ملابس من محلات "كلاس ماريتين"... جرَّبت أسمال والدي فتفتقت من الأكتاف، وكذلك الأمر بالنسبة إلى بناطيله التي لم تكن ملائمة لي. لا بدَّ لي من ملابس جديدة كل الجِدَّة. كان علي أن أتجمل بالصبر...

السيدة بيروز، بائعة القفازات، دخلت خصيصاً إلى حانوتنا، بعد أن انتهت من جولتها على الحوانيت، كي تتأكد بنفسها من التطور الذي طرأ عليّ: "يمكن لأمه أن تفخر به!" علَّقت أخيراً. "لقد أفاده السفر إلى الخارج!" رددت ذلك في كل مكان. وجاء آخرون أيضاً ليكوّنوا رأياً حول ذلك. حارس الباساج العجوز، الأحدب القصير الذي كان يلتقط كل ما يشاع في الحي وجدني متغيراً ولكنه لاحظ بأنني أميل إلى النحافة بالأحرى! ما من أحد وافقه على رأيه، كان كل منهم يحتفظ بفكرته. كان لديهم فضول شديد، أيضاً لمعرفة الأوضاع في إنكلترا. كانوا يأتون ليسألون عن شتى التفاصيل حول الطريقة التي يعيش بها الإنكليز هناك... كنت أظل دائماً في المخزن بانتظار الملابس الجديدة. النوتي غابيبه، بائع الغلايين، وشارون عامل التذهيب، والأم إيزارد عاملة الصباغة، كانوا يريدون معرفة ما الذي كنت آكله في روشستر، في المدرسة الداخلية؟ ولاسيما حول موضوع الخضار، فيما إذا كانوا حقاً يأكلونها نيئة أم نصف مطهية؟ وحول الجعة والماء؟ وما إذا كنت قد شربت الويسكي؟ وما إذا كانت أسنان النساء طويلة؟ على غرار أسنان الخيول؟ مهزلة حقيقية! وهل للنساء أثداء هناك؟ وكل هذه الأسئلة كانت مبطنة بالغمز واللمز، بألف طريقة مقنّعة.

غير أن ما كانوا يرغبون به، بوجه خاص، هو أن ألفظ أمامهم بضع جمل بالإنكليزية... كانوا متلهفين لذلك إلى أبعد حد، لم يكن مهماً على الإطلاق أن يفهموا المعنى، بل من أجل الأثر الذي يحدثه ذلك فيهم وحسب. من أجل أن يسمعوني قليلاً وأنا أتحدث... لم تكن أمي تلح كثيراً، ولكنها مع ذلك، ورغم كل شيء كان مما سيداعب غرورها حقاً أن أظهر مواهبي قليلاً... وأن أفحم هؤلاء الثرثارين المعقعقين...

كل ما كنت أعرفه هو: "No Fear..No Trouble..Water.. River" وعبارتين أو ثلاثة أيضاً... لم يكونوا يسألوني عن خبث أو سوء نية... ولكنني كنت أقف أمامهم كالمشلول... أشعر بقواي تخونني... وكان ذلك يحزن أمي، وهي ما تزال تراني معانداً جداً. لم يكن موقفي يبرر التضحيات التي بذلت! كان الجيران أنفسهم يغتاظون، ويقطبون جباههم. كانوا يجدونني عنيداً كخنزير... "لم يتغير شعرة واحدة!" كان غاستون الأحدب يقول معلقاً، "وهو لن يتغير على الإطلاق!... ما يزال كما نعرفه حين كان يبول في كل مكان فوق بوابتي الحديدية، ولم أتمكن من أن أمنعه أبداً".

لم يستطع هذا الأحدب أن يحبني أو يحتملني في يوم من الأيام... "من حسن الحظ أن أباه ليس موجوداً" كانت أمي تقول معزية نفسها؟ "آه! كم سيشعر بالغضب ويتولاه الاضطراب، الرجل المسكين! حين يراك ما تزال مفتقراً إلى اللطف والمودة بهذا النحو! خشناً، ومغلقاً تجاه الجميع! متجهماً دوماً وغير منسجم مع الجميع! كيف تريد أن تنجح؟ الآن، على الأخص، في ميدان التجارة؟ وسط هذا الجو من المنافسة الشديدة جداً! لست أنت الوحيد الذي يبحث عن وظيفة! لقد قال لي والدك بالأمس: إذا لم يتدبر أمره! يا إلهي! فسنكون على حافة الهاوية!...".

في تلك اللحظة بالضبط ظهر الخال إدوارد. كان هو من أنقذ الموقف... كان رائق المزاج على عادته... ألقى التحية على الجميع، دون أن يتوجه إلى أحد بعينه... كان يرتدي، للمرة الأولى، بزته المقلَّمة على هيئة مربعات، حسب موضة الصيف، الإنكليزية بالتحديد، مع قبعته المستديرة الخبازية اللون، والتي كانت دارجة آنذاك، أمسك بكلتا يديّ، وهزهما بقوة لا تخلو من عنف، مصافحة حقيقية مفعمة بالحرارة! كان يحب إنكلترا كثيراً... ويتطلع إلى الذهاب لزيارة ذلك البلد... ولكنه كان يؤجِّل ذلك دوماً، إلى وقت لاحق، لأنه كان يريد أولاً أن يتعلم أسماء الأشياء التي يتاجر بها... كان يعتمد عليّ في تعليمه اللغة. كانت أمي لا تزال تتباكى بسبب مواقفي، وسلوكي الخشن والعدواني... ولكنه لم ينحز إلى رأيها، واتخذ موقف الدفاع عني، وشرح لتلك الخنافس الصغيرة بأنهم لا يفقهون شيئاً بالتأكيد! وأنهم يجهلون التأثيرات الأجنبية... وأن إنكلترا، بوجه خاص، تغير كلياً أولئك الذين يعودون منها، فتجعلهم أكثر إيجازاً في الكلام، وأشد تحفظاً، وتخلق لديهم مسافة معينة، تميزاً باختصار... وهذا أمر مستحسن!... آه! هوذا! فالتجارة الناجحة من الآن فصاعداً، والوساطة التجارية، على الأخص، تتطلب الإقلال من الكلام، والبعد عن الهذر! ذلكم في الحقيقة، أفضل أساليب التجارة! والاختبار الأهم للوكلاء التجاريين!... نعم!... آه لقد بطلت الطريقة القديمة، المضحكة والمهذارة، وانتهى عهدها! تلك التي تفرط في المجاملة! وذلاقة اللسان! لم تعد مرغوبة على الإطلاق! إنها نوع صالح للغشاشين، للسيركات المتجولة في الأقاليم! أما في باريس، فما عادت شائعة! إنها تثير التقزز، لأنها تجعل الوسيط التجاري عبداً متذللاً وبائساً! في الحقبة الجديدة، ثمة طرائق جديدة!... لقد انحاز إلي الخال إدوارد، وصوّب سلوكي كلياً...

كان يبدو على أمي أنها توافقه... كان هذا يطمئنها مع ذلك... فهي لم تبرح تطلق تنهدات عميقة وهي تستمع إليه... كان ذلك عزاء حقيقياً... أما الآخرون، الأغبياء القذرون، فظلوا على موقفهم العدائي، مصرين على تحفظاتهم، ولم يتزحزحوا قيد شعرة... كانوا يعترضون مثل جوقة من آلات الكونترباص... كانوا متيقنين بالتأكيد بأنني لن أفلح بمثل هذه الأساليب! كان ذلك في رأيهم غير وارد على الإطلاق!.

عبثاً حاول الخال إدوارد! عبثاً أرهق نفسه لإقناعهم... أجهد رئتيه... لم يتراجعوا عن رأيهم... كانوا يعاندون على نحو أسوأ من البغال، مرددين بأن على التاجر أولاً، في أي مكان يعمل فيه، أن يكون لطيفاً ليِّن العريكة، كي يكسب رزقه بشرف.

***

كانت الأيام تمضي، دون أن نلمح أثراً للزبونات. كنا في عز الصيف، وكانت الزبونات جميعاً في الريف. قررت أمي أخيراً، على الرغم من أوجاع ساقها المريضة، ومن تحذيرات الطبيب أن تذهب إلى شاتو، لعلها تبيع هناك شيئاً من بضاعتها الرثة. كنت أنا من سيلازم الحانوت خلال فترة غيابها... ما عاد لدينا خيارات أخرى... كان لا بد لنا من كسب بعض القروش! لشراء بدلتي الجديدة أولاً، بالإضافة إلى حذاء. ثم طلاء واجهتنا بألوان ملائمة قبل أن يبدأ فصل العمل.

كانت واجهة حانوتنا باعثة على الكآبة وسط الواجهات الأخرى... كانت رمادية مخضرّة، في حين كان على مقربة منا مصبغة فيرتون بواجهتها الجديدة المتألقة، مثل درة فريدة، مطلية باللونين الأصفر والسماوي، وكان على يميننا مخزن غوموز لبيع القرطاسية، بواجهته البيضاء الناصعة، والمزينة بخيوط ذهبية

مجدولة، على هيئة خصل من الخيوط والأرياش الملونة، وبحواش موشاة بزهور زاهية وعصافير صغيرة فوق الأغصان... كل هذا كان مكلفاً جداً... كان ينبغي القيام به مع ذلك.

لم تقل أي شيء لوالدي. ذهبت إلى المحطة لتأخذ القطار الذاهب إلى شاتو، حاملة معها صرة ضخمة تزن عشرين كيلوغراماً على الأقل.

وهناك،في شاتو، تدبرت أمرها على الفور... واتخذت لها خلسة، مكاناً خلف دار العمدة، فرشت فيه بسطتها، بالقرب من المحطة، في موقع ملائم، بعد أن وزعت جميع بطاقاتها كي تعرّف بمخزنها في باريس. وبعد الظهر عادت إلى الطواف في كل مكان من المدينة، حاملة صرتها مثل بغل، ساعية إلى الفيلات، حيث كان من الممكن أن تعشش الزبونات... وحين آبت عند المساء إلى الباساج، كانت مهدودة القوى، تئن أنيناً موجعاً لفرط ما كانت ساقها متصلبة من جراء التشنجات، وركبتاها متورمتين، وعرقوبها منخلعاً تماماً بسبب التواء المفصل... تمددت على أرض غرفتي بانتظار عودة والدي... كانت تحاول تسكين الألم بتغطيسها بماء فاتر... ولفّها بكمادات باردة.

على هذا النحو، وعبر جولاتها في الضواحي كانت تصفّي برخص وعلى عجل، بضاعتها لدى المشترين، كي تجمع بعض النقود السائلة التي كنا بحاجة ماسة إليها... حتى لا تعود بالبضاعة كما كانت تقول... لم يكن يدخل إلى الحانوت، خلال غيابها، أكثر من شخصين أو ثلاثة... لهذا كان من الأفضل أن نغلق بابه دون تردد، وأن أرافقها إلى الضواحي، لأحمل عنها صررها التي كانت تتضخم أكثر فأكثر. ما عاد لدينا السيدة ديفون كي تجيب على أسئلة السائلين خلال غيابنا، لذلك فقد علّقنا على الباب لوحة كتبنا عليها: "سنعود حالاً" وأخذنا معنا قبضة الباب.

كان الخال إدوارد رقيق القلب، يحب أخته فعلاً، كان يشعر بالأسى الشديد حين يراها تعاني على هذا النحو، وتذوي، وتتعذب مزيداً من العذاب تحت وطأة العمل والإعياء... كان يشعر بكثير من القلق على صحتها، وعلى روحها المعنوية أيضاً... ولا ينفك يفكر بها في كل وقت. ففي اليوم التالي على ذهابها إلى شاتو، لم يكن بمقدورها أن تقف على رجليها. كان وجهها يتقلص بسبب آلام ساقها، فتطلق أنيناً مثل كلبة، متلوية فوق مشمع أرضية الدكان... كانت تتمدد على الأرض بعد خروج والدي، وتجد ذلك أكثر رطوبة من السرير. وإذا ما عاد وفاجأها متمددة على هذا النحو، شاحبة، خائرة القوى، مكومة ساقها داخل حوض الماء، مشمرة ثيابها حتى ذقنها، فإنه يصعد بسرعة إلى غرفة الطابق الثالث، متظاهراً بأنه لم يرها. ما كان يقوم سوى بقفزة واحدة، عابراً مثل برق خاطف. ثم ينكبّ على آلته، أو على رسومه المائية... كان ما يزال يبيع بعضاً منها، ولاسيما "قواربه الشراعية" ومجمع الكرادلة ذات الألوان الأكثر حيوية!... والمتألقة إلى حد بعيد... كان يرسمهم دائماً داخل حجرة واسعة. كانت تلك هي اللحظة التي يخرج فيها من همومه وأحزانه... كنا قد شارفنا على نهاية الشهر... ولكي نعوض عن فترة إغلاقنا خلال النهار، أثناء جولاتنا عبر شاتو، كنا نفتح المخزن حتى وقت متأخر... كان الناس يتنزهون بعد العشاء... ولا سيما وقت هبوب العواصف... وحين كان يلوح في الأفق شبح زبون، كانت أمي تخفي حوض الماء، وجميع الكمادات، بحركة سريعة، تحت الديوان في وسط الحانوت، وتقف هاشة باشة... وتطلق حبل الثرثرة... كانت تلف حول عنقها، مثلما أذكر جيداً، وشاحاً كبيراً من الموسلين... كان ذلك من مظاهر التأنق في تلك الفترة... كان يجعل رأسها كبيراً حقاً.

كان الخال إدوارد أيضاً، من ذلك النوع من الرجال الذي يحمّل نفسه عناء شديداً، ولكن لم يكن عليه أن يأسف، لأنه كان يحقق نتائج طيبة... كان يتقدم أكثر فأكثر في اختصاصه في أعمال الميكانيك... وبيع قطع غيار الدراجات. وقد غدا ذلك تجارة رائجة جداً، ومزدهرة. وعما قريب، سيكون بوسعه أن يشتري حصة من مرآب، عند مدخل لافلوا، مشاركاً أصدقاء له موثوقين.

كان لديه ميل إلى المشاريع الكبيرة، وولع بالابتكارات... جميع الاكتشافات الميكانيكية، كان مسكوناً بها. وقد أنفق على الفور الآلاف الأربعة من الفرنكات التي ورثها عن أمه من أجل براءة اختراع لمنفاخ دراجة، جهاز حديث كلياً، بحجم صغير جداً، يمكن طيه ووضعه في الجيب... كان يصطحب معه دائماً اثنين أو ثلاثة منه على الأقل مستعداً لأن يعرضها أمام أنظار الجميع، كان ينفخ به في أنف محدثه... وكاد أن يفقد آلافه الأربعة في تلك المغامرة.

كانت أمي معجبة بخالي أيما إعجاب، لشد ما تمنت أن أكون مثله. كنت بحاجة مع ذلك إلى نموذج أقتدي به!... وعوضاً عن أبي، فقد كان خالي مثالاً حقيقياً... لم تقل لي ذلك بصراحة جارحة، ولكنها لمّحت إليه تلميحاً... أما والدي فلم يكن يرى في إدوارد مثالاً، كان يعتبره بالغ الرعونة، شخصاً لا يحتمل على الإطلاق، ذا روح تجارية، وعقل سوقي مبتذل، غارقاً دوماً بالحماقات... كان يثير أعصابه، بترهاته الميكانيكية، وبازاره بقطع السيارات والدراجات، ومنافيخه الغريبة العجيبة!... كان يشعر بضيق شديد لمجرد سماعه وهو يتكلم!...

حينما علمت أمي بأن مدائحها لأخيها، وأحاديثها عن مشاريعه أمام الجميع، وعن نجاحاته، ومهاراته قد بلغت أسماع أبي كفّت عن ذلك... لم يكن والدي يتسامح في هذا! لا! كان عنيداً متشبثاً بآرائه...

وكان يعزو كل ذلك إلى الحظ!... "إنه يمتلك حظاً وقحاً، هذا كل شيء!" ذلكم كان حكم والدي، ولم يكن يقول أكثر من ذلك... لم يكن موقفه هذا ليفسد خالي، كنا ما نزال مدينين له بقروض وبعرفان بالجميل... ولكنه كان يتمالك نفسه كي لا يكدِّر والدي!... لا شك أنه كان يدرك الوضع... ما كان ذلك خافياً على أحد... ويتحمل الكراهية والنفور... لم يكن يريد أن يفاقم الأوضاع، كان يفكر بأخته دائماً.

كان الخال بالغ الحذر في تصرفاته. يمر لحظة قصيرة ليسأل عن أخبارنا... ما إذا كانت حالة أمي قد تحسنت؟ ويظل قلقاً جداً بسبب سيمائها المخيف، وبسبب الأحمال الباهظة التي كانت تحملها وتمضي بها على عجل، ثم تظل، بعد ذلك، أياماً بطولها مقعدة تئن وتتأوه. كان ذلك يقلقه أكثر فأكثر... ولما كانت حالتها تتفاقم، فقد اتخذ قراراً في النهاية، وفاتح به والدي... ولفرط ما تحدث ثلاثتهم معاً، وقلّبوا الأمر على كلِّ وجوهه، اتفقوا على أن الوقت قد حان كي تستريح... وأنه ما عاد بالإمكان الاستمرار على هذا النحو... ولكن كيف تستريح؟ ثم اهتدوا إلى وسيلة... بأن يستأجروا خادمة يومية، مثلاً، تعمل ساعتين أو ثلاث ساعات كل يوم... فهذا سيريحها ويخفف من عنائها، فلا تصعد الأدراج كثيراً... ولا تعود تكنس تحت الأثاث... ولا تقوم بأعمال النقل وتسليم الطلبات إلى الزبائن... ولكن كان من المستحيل، في مثل وضعنا الحالي تحمل نفقات خادمة!... كان هذا أقرب إلى الجنون، مشروعاً في الهواء! ولكنه لن يغدو ممكناً إلا إذا وجدت أنا عملاً، فعسى أن نتمكن، حينئذ، بما سأكسبه، وأضيفه إلى الصندوق أن نفكر بالخادمة... وهو ما سيتيح لأمي فسحة من الراحة... فلا ترهق نفسها بعد... ولا تضطر إلى الجري على هذا النحو... هكذا وجدوا الحل وحدهم... وأسعدهم القرار الذي

اتخذوه... وكان قرارهم هذا بمثابة دعوة لقلبي الطيب... كانوا على وشك أن يضعوني في الامتحان، ما عاد مقبولاً بعد الآن أن أكون أنانياً، منحرفاً، شاذ الطبع... سيتعين علي أن أؤدي دوري، وأحدد غايتي في الحياة! ألا وهي تخفيف آلام الماما!... سريعاً! وتحمل الواجب، والاندفاع إلى العمل! آه! آه! وعما قريب سيدفع ثمن بدلتي من أجل هذا الغرض... الإسراع، الإسراع إذن في البحث عن عمل! وإلى الأمام لتحقيق النجاح المأمول! ما من أخطاء بعد! ما من لف ودوران! المعزوفة ذاتها! ما من أسئلة! القيمة الفردية! المثابرة! لن أخفق أبداً. قسماً بالرب! يا للغاية السامية. كان يخيل إلي بأنني قد أنجزت كل ذلك!...

في البداية، كان يلزمني حذاء على الأقل! مررنا على محل "الأمير كونسور"... كانت أحذية "بروموفيلد" غالية قليلاً مع ذلك، ولاسيما ذات الأزرار!.. غير أنني حالما سأبدأ سيلزمني ثلاثة أو أربعة منها!.

* * *

فيما يتعلق بالبدلة، والبناطيل، مررنا على محلات "كلاس ميريتان" بالقرب من الهال، حيث أخذوا قياساتي. كانت بضاعة المتجر مكفولة، تجاوزت شهرتها المئة عام، ولاسيما أنسجة الشيفيوت الصوفية، التي لا تبلى مع الزمن، بحيث استحقت تسمية "ثياب العمال"... ولكن سعرها كان عالياً، وكان يتطلب تضحية جسيمة!...

كنا ما نزال في شهر آب، حين تجهزت لفصل الشتاء... لن يدوم الحر طويلاً على كل حال، غير أن قيظ تلك الأيام كان لاهباً! أيام قليلة وتنقضي سريعاً، أما البرد فهو بلا نهاية!... فصل الزمهرير القاسي!... وبانتظار ذلك، وإذا ما شعرت بالاختناق بسبب ثيابي

الجديدة، خلال سعيي للبحث عن عمل... إيه حسناً، سأضع سترتي فوق ذراعي، وسأرتديها حينما يحين وقتها... هوذا!...

لم تفه أمي بكلمة حول المبلغ الذي ستدفعه من أجل تجهيزي بالثياب الجديدة، من أخمص قدمي حتى قمة رأسي... كان المبلغ خرافياً بالقياس إلى مواردنا... كنسنا قاع الأدراج... عبثاً أرهقت نفسها، عبثاً ولّت وجهها في كل اتجاه، ميممة شطر نوللي وشاتو، أيام السوق، حاملة كل عتادها، كل سقط متاعها الأقل رثاثة، بضاعتها الأصلح للعرض، فهي لم تستطع أن تحقق ما تصبو إليه... لم تفلح في جمع المبلغ المطلوب... كانت بضاعتها ركاماً تافهاً مشعثاً لا قيمة له... كان ينقصها دائماً عشرون فرنكاً، أو خمسة وعشرون، أو خمسة وثلاثون، بالإضافة إلى الضرائب التي كانت تنهمر كالمطر، وأجرة أسابيع للعاملة، وأجرة البيت المتراكمة منذ شهرين... كان ذلك أشبه بسيل جارف مثبط للآمال والعزائم!... لم تقل شيئاً لوالدي... وتفتق ذهنها عن حيلة... فقد حملت إلى الأم هورغون غوستاف في شارع أبو قير (متجر قذر يبيع أسقاطاً، وأشياء رخيصة) خمس رسوم مائية جيدة... من أفضل رسوم والدي والحق يقال، وبأقل من ربع ثمنها المعتاد، مع إمكانية ردها كما زعمت... استخدمت أخيراً وسائل مشؤومة كي تجمع كامل المبلغ... لم تكن راغبة في شراء أي شيء بالتقسيط... وبعد أسابيع حافلة بالعناد والاستبسال، وبعد حيل وتدابير أخرى، كسيت من جديد مع ذلك، على نحو متأنق بالتأكيد، دافئ للغاية ولكنه متين...وحينما وجدت نفسي بملابس جديدة، تزعزعت ثقتي بنفسي قليلاً! تباً! لقد خلق ذلك فيّ تأثيراً غريباً! كان ما يزال لدي الإرادة، ولكن شكوكاً قذرة بدأت تراودني... ربما لأنني كنت أنضح عرقاً داخل بدلتي الشتائية؟ كنت أشبه بفرن متنقل...

كان ذلك ما حدث لي بالفعل، ما عدت أشعر بالزهو على الإطلاق، ولا بالاطمئنان إلى النتائج... إلى المستقبل القريب، حيث كنت موشكاً على مقابلة أرباب الأعمال، وتقديم هذياناتي المشوشة، والانحباس في عنابرهم، كان هذا يعتصر قلبي حتى البطين. كنت قد فقدت في إنكلترا العاهرة عادة التنفس في الأجواء المغلقة... سيكون علي أن أعتاد على ذلك من جديد! لم أكن أخشى أوبار القطن والحرير! لا شيء سوى رؤية أرباب العمل المحتملين. كان ذلك يكدر صفوي كلياً! ويخنق الكلام في حلقي... وحين كنت أبحث في الشارع عن العناوين، كان ذلك يزهق روحي... كانت لوحات الأسماء فوق الأبواب تذوب خلف المسامير لفرط ما كان الجو يغدو كفرن ملتهب... كانت الحرارة تصل إلى 39.2 درجة مئوية!.

ما كان يقوله لي والدي، في المحصلة، كان صحيحاً كل الصحة... بأنني كنت في مرحلة حاسمة من العمر، يتوجب علي فيها أن أبذل أقصى جهدي... وأن أواجه حظي وقدري... وأن هذه هي اللحظة التي لن تتكرر، كي أوجه مسار حياتي... كل هذا كان رائعاً... كان جميلاً للغاية... عبثاً كنت أخلع بدلتي وياقتي، وحذائي، كان العرق يتصبب مني أكثر فأكثر... كان يسيل على هيئة سواقٍ... كنت أسلك الطرق التي أعرفها، مررت ثانية أمام منزل آل غورلوج... كان هذا يثير فيّ قشعريرة حين أرى محلهم... وحين كنت أفكر فقط بتلك الحادثة كانت توافيني نوبة عصبية في فتحة إستي... تفوه! أية ذكرى!...

إزاء ضخامة واجبي... ولدى تفكيري على هذا النحو، كنت أفقد كل حميتي، كنت أفضل الجلوس على متابعة السير... لم يعد لدي الكثير من القروش كي أتناول كوباً صغيراً من الجعة... ولا حتى أقداحاً بعشرة سنتيمات... كنت أمكث تحت قباب العمارات... متفيئاً ظلالها

الممتدة، تلفحني تيارات هوائية غـادرة... فمـا أنفـك أعطـس عطاساً متواصلاً... حتى غدا العطاس عيباً يلازمني حينما أغرق في التفكير... ولفرط ما أمعنت التفكير بذلك، دائماً، ودون توقـف، فقـد وجـدت والدي على حق تقريباً... وأدركت بعد التجربة... بأنني لا أصلح لشيء على الإطلاق... وأنني لا أملك سوى ميول مشؤومة ومفجعة... كنت بالغ الخراقة، مفرطاً في الـبلادة والتنبلـة... لم أكـن جـديراً بطيبتـهما العظيمة، وتضحياتهما الجسام... كنت أشعر، على هذا النحو، بأنني جاحد كل الجحود، نتن كل النتانة، مـدوّد كليـاً... كنـت أعلـم علـم اليقين ما يتوجب علي عمله، وأكافح بيأس من أجلـه، ولكـنني كنت أقل فأقل فلاحاً... لم أكن أتحسن مع تقدمي في العمر... وكنـت أزداد عطشاً أثناء تجوالي في تلك النهارات القائظة... كانـت الحـرارة دراما أيضاً... كان البحث عن وظيفة في شهر آب، مما يزيد المرء ظمأً على ظمأ، بسبب الأدراج أولاً، ثم بسبب الخوف الذي يجفـف الحلـق في كل محاولة... فيما أنت تنتظر... كنت أفكر بـأمي... بـساقها الهشة، وبالخادمة اليومية التي سيمكننا ربما أن نستأجرها فيمـا لـو وُفقـت في العثور على من يشغلني... لم يكن هذا يزيد من حماسي... كنت عبثاً أجلد نفسي، عبثاً كنت أسعى لبلوغ المثال ببذل أقـصى جهـودي، لم أكن أفلح في الرقي إلى أفق الكمـال. لقـد فقـدت منـذ غورلـوج كـل حماستي للعمل! كان وضعي يدعو إلى الرثاء! وجدت نفـسي، رغـم كل شيء، رغم كل المواعظ أشد تعاسة مـن أي سـرطان، ومـن كـل السرطانات مجتمعة!... كانت تلك أنانية كريهـة! لم أكـن منـشغلاً إلا بخيباتي، وكنت أجدها ماثلة أمامي، فظيعة جـداً، كنـت أتعفـن علـى نحو أسوأ من جبنة قديمة فاسدة... أتعفن في فصل الحر، أنهـدّ تحت وطأة التعرق والخزي. متسلقاً الطوابق في إثر الطوابق، يسيل عرقي بعد كل ضغطة جرس، يقطر مني سيولاً، دون حشمة ولا حياء.

كنت أنعطف بإهمال، عبر الشوارع القديمة الأخرى، دون أن أعي شيئاً سوى مغص يمسك بأحشائي، شارع بارادي، شارع هوتفيل، شارع جونور، وحين ينتهي تجوالي، كنت أخلع ليس فقط سترتي الثقيلة، بل وياقتي المصنوعة من السيلوليد الصلب، والتي كانت أشبه بطوق حقيقي من أطواق الكلاب، يشد على عنقي، وكان ذلك يخلع بعض الأزرار... ثم أعاود ارتداء كل ذلك على الدرج. وأعود إلى دفتر العناوين، كنت أنقلها من "دليل بوتين" أو من مكتب البريد، وأضعها في لوائح. لم يكن لدي نقود من أجل الشراب. كانت أمي تترك كيس نقودها ملقى بإهمال فوق الديوان... وكنت أنظر إليه بطمع... لقد ثبّط الحر الشديد عزيمتي! كنت بحاجة إلى مبلغ زهيد إذن، وقررت أن أختلس منه هذه المرة، دون تردد، كنت أتلوى من الظمأ قرب النبع... وأغلب ظني أن أمي لاحظت ذلك، فأعطتني فرنكين اثنين.

حينما كنت أعود من جولاتي الطويلة على الطوابق والأحياء خائباً على الدوام، كان علي أن أرمم وضعي قبل عودتي إلى الباساج، بحيث لا أبدو متكدراً جداً، مذهولاً عن نفسي خلال وجبات الطعام. لن يكون هذا مقبولاً على الإطلاق، وهو ما لن يستطيع والداي حينئذ أن يتحملاه، ولا أن يهضماه، أو يفهماه على الإطلاق. أن أفقد الأمل والحمية الرائعة... فذلك ما لا يتسامحان به قط. ما كان لي الحق بالشكوى والأنين، أبداً!... كانت تلك حقوقاً محفوظة، فالعزاءات والدرامات، كانت فقط لوالديّ وحدهما... أما الأبناء فكانوا سوقة داعرين، لصوصاً صغاراً، ناكرين للجميل، نفايات صغيرة طائشة!... كان كلاهما يحتدمان غيظاً على الفور حينما تبدر مني شكوى أو تذمر، وحتى من أجل كلمة صغيرة جداً... تلكم حينئذ هي اللعنة! هي الشتيمة الشنيعة! والحنث الفظيع بالعهود!...

"كيف تقول؟ أيها المزبلة الحقيرة؟ من أين لك هذه الوقاحة الجهنمية؟" أن أكون في مقتبل الشباب ثم يبدر مني هذا الغنج والتدلل؟ آه! أي شطط فظيع! آه! أية سفاهة شيطانية! آه! أية قحة! يا رعود الإله! السنون الجميلة ما تزال أمامي! وكل كنوز الوجود! ثم آتي لأندب قدري! وسوء حظي التعس؟ آه! يا للجدي العاجز! تلكم هي الوقاحة المجرمة! الفجور المطلق! التعفن العصي على التصور! كانوا سيثخنوني بضروب التعنيف، كي لا أعود إلى مثل هذا التجديف المنكر! ولا يعود هناك حينئذ لا ساق شوهاء، ولا خراج متقيح، ولا آلام ممضة!... كانت أمي تنتصب في وجهي بقفزة واحدة! "أيها الصغير التعس! أيها الصغير الفاسد العديم القلب! هل لك أن تسحب هذه الشتائم! وعلى الفور..."

كنت أنفذ ما يطلب مني. لم أكن أقدّر تقديراً صحيحاً نعم الشباب، أما هما فيبدو أنهما كانا يعرفانها جيداً... كانا سيزهقان روحي، دون تردد إن لم أستدرك الأمر وأتراجع عن موقفي... وإذا ما بدر مني أدنى تشكك، أو بدا علي أصغر علامة على عدم الرضى، كانا يفقدان رشدهما تماماً... كانا يفضلان موتي على أن يسمعاني أمتهن أو أستخف بالهبات التي أغدقتها علي السماء... كانت عينا أمي تعتكران من السخط والهلع حينما كنت أشكو من التدرب على الأعمال التجارية! كانت تلوّح في وجهي بكل ما يقع في يدها... كي لا أعود إلى تكرار شكواي وحسب... لم يكن لي الحق إلا بأن أغتبط بما أحظى به من نعم! وأن أكيل المدائح ذات اليمين وذات الشمال! فقد كان نجمي سعيداً منذ ولدت! أنا الآفة النكباء! وكان لي والدان متفانيان، وهذا كان كافياً تماماً، وكان حائلاً قطعاً، نعم! دون كل ضروب القلق وصروف الأقدار... أما أنا فما كنت سوى وحش،

وهذا كل شيء! صمتاً! كنت العبء الفظيع على كاهل الأسرة، ما كان علي سوى العمل بهدوء على إصلاح عيوبي! كان علي أن أنسيهما جميع أخطائي و تصرفاتي المقززة! كان لهما وحدهما جميع الأحزان!... كان لهما جميع التشكيات! ألم يكونا هما من يفهم الحياة! ألم يكونا هما من يملك الروح الرقيقة الحساسة! ومن يعاني الآلام المبرحة؟ في أحلك الظروف؟ وأقسى ضربات القدر؟... كانا هما! كانا هما دائماً بالتأكيد، وحدهما كلياً! لم يكونا يرغبان أن يكون لي قسط في ذلك، ولا حتى أن أبدو كمن يساعدهما... أن أختبر بعضاً مما يقاسيانه... كان ذلك رصيدهما المطلق! كنت أجد هذا جائراً كل الجور، وما عاد بإمكاننا التفاهم على الإطلاق.

* * *

عبثاً كان كل ما يقولانه، وما يطلقانه من تجديف، لم أتخل عن أي من قناعاتي. كنت أجد نفسي ضحية على كل صعيد! فوق درجات الامبيغو، وعند ناصية "الوالاس" كانت تعاودني تلك الشكوك... كان هذا بديهياً!... حينما كنت أنتهي من التجول كالشراميط لاصطياد وظيفة، ويضيع نهاري كله سدى، كنت أبادر دون تردد إلى تهوية حذائي... وتدخين عقب سيكارة صغير... ثم أستعلم قليلاً من بعض الرفاق، من الذين يطرقون الأبواب مثلي في تلك المنطقة، والذين تكتظ صفوفهم بالمحتالين، وتمتلئ جعبتهم بالوظائف الوهمية... لم يكن هؤلاء يبخلون بالحديث... كانوا مطلعين على جميع الإعلانات، على أي إعلان مهما كان صغيراً، على سائر الرموز والتصاوير... كان هؤلاء السوقة جميعاً، في الهال، وفيلييت وبيرسي قذرين مقمّلين مثل محطة قطار، مهلهلين، مخلعي العظام والمفاصل، يتبادلون القمل فيما بينهم... ومع ذلك، كانوا يبالغون في كلامهم كما لو كان

يتملكهم بحران حقيقي! لم يكونوا يكفون عن توزيع وظائف وهمية، وتنشقّ رئاتهم من فرط الصياح للتدليل على صدق أكاذيبهم، ويتلفون طحالهم من أجل أن يرووا مآثرهم... وانتصاراتهم... ونجاحاتهم... وكل نزوات أقدارهم... ما كان هناك حد لتعاظمهم... كانوا يفضّون خلافاتهم بالسكاكين عند قناة سان مارتين... كانوا يدّعون كل الادعاءات! كان لهم ولع بقص بعض الوقائع بكل استهانة واستخفاف... كانت روايتهم تدفع إلى الجريمة على نحو أسوأ من الكحول... لم يعد لديهم أسنان يمضغون بها طعامهم لفرط ما أصابها من نخر. كانوا يبيعون إعلاناتهم بسعر رخيص، يظهرون في الوقت غير المناسب! متعجرفين على نحو لا يصدق... وشيئاً فشيئاً صرت أرى نفسي واحداً منهم.

في حوالي الساعة الخامسة مساء، كنت أوقف مساعيّ... حسبي تعباً في ذلك النهار... كان المكان ملائماً للراحة والنقاهة، شطاً حقيقياً للاسترخاء... كنت أبادر إلى تهوية قدميّ... هناك على أدراج مسرح الامبيغو كان يلتقي جميع المتأخرين الذين يجرجرون أقدامهم ببطء وتوانٍ، لم يكن بعضهم كسولين أو تنابل ولكنهم كانوا يفضلون اغتنام فرصة الراحة على التسكع تحت وطأة الحر. كان من السهل ملاحظة كل ما يجري... على امتداد واجهة المسرح، تحت أشجار الكستناء... وعلى أسوار المسرح الشبكية كان يجري تعليق مختلف الأشياء... لم يكن يكدر صفوهم مكدر... كانوا يتبادلون زجاجات الجعة، والنقانق البيضاء، والثوم، وجبن كممبير... وعلى قرص الدرج وفوق الأدراج كانت تتشكل أكاديمية حقيقية. كان هناك أشخاص من كل الأنواع التي اعتدت أن أراها دائماً. كنت أصادفهم هم نفسهم تقريباً منذ زمن بعيد... منذ أن تركت آل غورلوج... كان هناك حثالة من القوادين

الصغار، ورجال بوليس ليسوا على عجلة من أمرهم... وجندرمة من كلّ الأعمار، يلعبون بالورق لعبة المانيل... كان هناك دوماً منجمان أو ثلاثة يحاولون قراءة الفأل، ووسطاء تجاريون متقدمون جداً في السن يتركون خلفهم علب عيناتهم... كان هناك غلمان لواطيون خليعون جداً يذهبون مع زبائنهم إلى الغابة... كان أحدهم يعود كل يوم، ينتظر زبائنه في المباول العامة... ويروي مغامراته أمام الجميع... كان يعرف يهودياً عجوزاً مغرماً باللواطة... كانا يذهبان معاً إلى الغابة... وذات يوم ألقي القبض عليهما... وغاب الغلام مدة شهرين كاملين... وحينما عاد كان متغير الملامح كلياً... كان الشرطة قد أوسعوه ضرباً، بحيث أنه أدخل إلى المستشفى... وقد أدّبه الضرب وصرفه عن مجونه، وصار صوته خفيضاً، وترك لحيته تطول.

كان هناك أيضاً القوادة التي لم تبرح تنشر شبكة إغوائها في محيط المكان، كانت تنزه ابنتها المراهقة، ذات الجوارب الحمراء الطويلة أمام مسرح "الفولي دراماتيك". كان سعر الفتاة عشرين فرنكاً... كما قيل لي... كان ذلك يشكل ثروة في تلك الفترة... لم تكونا تلتفتان نحونا... عبثاً كنا ندعوهما.

كنا نعود من جولاتنا حاملين صحفاً ونكاتاً... كان القمل أكثر ما يزعجنا... كنت أعود به إلى البيت بالضرورة... كان علي أن أدّهن بالمراهم... كان القمل آفة حقيقية أمام الأمبيغو... يعج فوق المصاطب على هيئة جيوش زاحفة... كانوا يذهبون جميعاً إلى سانت مارين بحثاً عن المرهم، ويدلكون به أجسام بعضهم بعضاً.

كنت أرى أيضاً قبعتي القشية المقواة، التي أحملها بيدي دائماً، والتي تزن كيلوغرامين اثنين... كان ينبغي لها أن تصمد عامين أو ثلاثة

أعوام إن أمكن... حتى يحين أوان التحاقي بالخدمة العسكرية. كنت أخلع ياقتي مرة على الأكثر، كانت تخلف أثراً عميقاً حول عنقي، ذا لون قرمزي... كان جميع الرجال المهذبين في تلك الحقبة يحتفظون بذلك الأثر حتى الموت، الحزّ الأحمر حول العنق. كان ذلك أشبه بعلامة سحرية.

بعد التعليق على الإعلانات والأحاديث المضحكة عن الأعمال، كنا نرتد إلى عمود الرياضة، ومباريات "بوفالو"، والأيام الستة القادمة، وإلى نادي مورين واللاعب المفضل فابر... أما الذين كانوا يفضلون نادي "لونغ شامب" فكانوا يتجمعون في الزاوية المقابلة... كانت بائعات الهوى يعبرن، ويعاودون العبور، دون أن يثرن اهتمام أحد... لم نكن نصلح إلا للثرثرة، زمرة من التنابل المفلسين.

كانت الحافلات الأولى، الخلابة، من طراز "مادلين باستيل"، والتي نالت الوسام الإمبراطوري، تطلق صلصتها من الأدخنة والمياه والروائح، وفرقعاتها المدوية، في ذلك المكان بالذات، كي تتسلق الطريق الصاعد... كان ذلك مشهداً تمثيلياً مئة بالمئة، قصفاً باخوسياً مثيراً! كانت تبصق كل مياهها المغلية على بوابة سانت مارتين. كان الركاب على شرفاتها يشاركون في تلك الرقصة الصاخبة. كان هذا تهوراً حقيقياً. كان من الممكن أن يقلبوها فيما هم ينحنون جميعاً على هذا النحو فوق الدرابزين، من جهة واحدة وفي وقت واحد، هائجين متقافزين... كانوا يتعلقون بالحواف، وبالزنك، وبالقضبان على محيط الدرابزين، مطلقين صيحات النصر... لقد انهزمت الخيول، وأخلت الميدان للحافلات. كان الجميع يدركون ذلك بوضوح... ولم يبق لها إلا الطرقات الوعرة حيث يمكنها أن تدعي الغلبة... كان الخال إدوارد يردد ذلك غالباً... أخيراً كنت أرى أوتوبيس الامبيغو قادماً ما بين

الساعة الخامسة والسابعة، ولكنني ما وجدت فيه مكاناً في أي يوم من الأيام... كنت أعود في كل مرة، إلى المنزل بخفي حنين... دون أن أعثر قط على رب عمل يشغلني من جديد، كمتدرب، كانوا يرفضون تشغيلي لأنني تجاوزت سن المتدربين... ولكنني ما أزال أصغر بكثير من أن أعمل كموظف حقيقي... لم أكن قد تخطيت عتبة الفتوة... وحتى لو كنت أجيد التكلم بالإنكليزية فإن الأمر سيان في الحقيقة!.... فهم لم يكونوا يستفيدون منها! كانت المخازن الكبرى هي التي تهتم باللغات الأجنبية. ولم تكن هذه المخازن بحاجة إلى موظفين مبتدئين!... كنت نفاية زائدة من كل الجوانب!... سواء تصرفت على هذا النحو أو ذاك، كان كيفي خرائياً على الدوام...

حينئذ، بكل هدوء، وعلى جرعات صغيرة، أطلعت أمي على الأفكار التي كانت تضج في رأسي، بأن كل مساعيّ هذه، كما يبدو لي، لا تبشر بآفاق مشرقة، لم يثبط كلامي عزيمتها... كانت تعكف الآن، بينها وبين نفسها على رسم خطط أخرى، من أجل مشروع جديد كل الجدة، يتطلب جهداً أكبر بكثير. كان هذا يشغل تفكيرها منذ زمن بعيد، وها هي ذي تحزم أمرها الآن!... - أنت ترى يا صديقي الصغير، لن أطلع أباك على أي شيء، فاحتفظ بكل هذا لنفسك... سيصاب الرجل المسكين أيضاً بخيبة مريرة!... إنه يعاني أشد المعاناة لرؤيتنا تعساء على هذا النحو... ولكن فيما بيننا يا فرديناند، أعتقد بأن دكاننا البائس... تست! تست! تست!... لن ينهض قط من كبوته... هوم! هوم! وأنا أخشى الأسوأ، أنت تعلم!... هذه مسألة مفروغ منها!... لقد غدت المنافسة بمخرماتنا مستحيلة!... لا يستطيع أبوك أن يدرك ذلك. فهو لا يرى الأمور عن كثب كما أراها أنا، كل يوم... لحسن الحظ، أحمدك يا رب! لم تعد

بضع مئات الفرنكات تفعل شيئاً، ولكن يلزمنا ألف وآلاف من الفرنكات كي يصبح بحوزتنا تشكيلة حقيقية من البضائع الحديثة! أين نجد إذن مثل هذه المبالغ الطائلة؟ وبأي قرض، يا إلهي؟ كل هذا ليس ممكناً إلا بالمشاريع الكبيرة! بالمخازن الضخمة!... أما حوانيتنا الصغيرة، فهي كما ترى محكوم عليها بالزوال!... إنها مسألة سنوات...أو ربما أشهر!... إننا نخوض صراعاً ضارياً من أجل لا شيء... المخازن الكبرى تسحقنا... لقد رأيت كل هذا منذ أمد بعيد... منذ أيام جدتك كارولين... بدأت أحوالنا تسوء أكثر فأكثر... وليس منذ الأمس... فصول الكساد لا نهاية لها!... وكل سنة تطول أكثر! أنا إذن، كما تعلم، يا صديقي الصغير... ليست العزيمة هي ما ينقصني... لابد من أن نتدبر أمرنا، ونخرج من هذا المأزق!... إليك إذن ما أحاول القيام به... حالما تتحسن ساقي... وحتى لو تمكنت من الخروج قليلاً، سأذهب حينئذ لأطلب "بطاقة ائتمان" من متجر كبير... لن يصعب علي العثور عليه!... إنهم يعرفونني منذ زمن بعيد!... ويعرفون كيف أتدبر الأمور! وأن الشجاعة لا تنقصني... يعرفون أنني وأباك فوق الشبهات... وأن بإمكانهم أن يثقوا بنا... ويؤمنونا على أيِّ شيء!... يمكنني أن أؤكد هذا... مارسكال!... باتاي!... روبيك!... إنهم يعرفونني من أيام جدتك!... لست حديثة العهد في هذا الميدان... فهم يعرفونني منذ ثلاثين سنة، يعرفونني دائماً كبائعة وكتاجرة... لن يصعب علي أن أجد ضالتي... لست بحاجة إلى تزكيات أخرى... لست أحب العمل من أجل الآخرين... غير أنه ما عاد ثمة خيار الآن... لن يرتاب أبوك بأي شيء، قطعاً... سأقول بأنني ذاهبة إلى إحدى الزبونات... لن يعرف أي شيء عن الأمر!... سأذهب في الساعة التي أذهب فيها عادة، وأعود في

الوقت الذي كنت أعـود فيـه... سيشعر الـشقي بـالخزي حـين يـراني أعمل لـدى الآخـرين... سيشعر الرجـل البـائس بالمهانـة... أريـد أن أوفـر عليـه كـل هـذا!... بـأي ثمـن!... فهـو لـن يـتخلص مـن هـذا الشعور!... لا أعـرف كيـف سأشـفيه منـه!... حـين يعلـم أن زوجتـه تعمل مستخدمة لدى الآخـرين!... يـا إلهـي!... حينمـا كنـت، فيمـا مضى أعمل مع كارولين، كان الغم يعتـصر قلبـه... أخـيراً، سـأحاول أن لا يـدرك أي شـيء مـن هـذا الأمـر!... سـأقوم بجـولاتي بنحـو منتظم... يـوم في هـذا الـشارع، ويـوم في الـشارع الآخـر... سـيكون ذلك أقل تعقيداً... من هذا التوازن السرمدي!... من هذا الـسير القـذر على حبل البهلوان الذي أزهق أرواحنا.. جهود خارقة لا نهايـة لهـا... من أجل سد الخروق في كل مكـان! ذلكـم هـو الجحـيم في النهايـة! سنخلع جلدنا بأكمله ونتخلى عن حياتنـا الـسابقة! وسـتكون مخاوفنـا أقل بكثير! دفع هنا! وتسديد هناك! إلام سـينتهي ذلـك؟ أيـة أهـوال! أي عذاب سرمدي لا نهاية له... سوف لن نكسب مـن هـذا المـشروع سوى مبالغ زهيدة، ولكنها منتظمة بالتأكيد... لن يعـود ثمـة انقلابـات مفاجئة! ولا كوابيس! ذلك ما نحن بحاجة إليه... دائمـاً!... شـيء مـا ثابت! لن يعود الأمر على غرار ما كنا عليه منذ عـشرين عامـاً! جـري متواصل! يا إلهي! ودائماً لاقتناص مئـة قـرش! دعـك مـن الزبونـات اللـواتي لا يـدفعن أبـداً! فمـا نكـاد نـسد ثغـرة حـتى تنفـتح ثغـرة أخرى!... آه! جميل أن يكون المـرء مـستقلاً! طالمـا أحببـت ذلـك، وأمـي أيـضاً! ولكـنني مـا عـدت أسـتطيع... سـوف نفلـح بالتأكيـد، سترى، حينما نعمـل معـاً علـى الموازنـة بـين دخلنـا ومـصروفنا!... سيكون لدينا خادمة يومية! ما دام هذا يـسعد والـدك كـثيراً!... فـضلاً عن أنني بحاجة إلى ذلك! لن يكون هذا ترفاً!.

بالنسبة إلى أمي، فإن هذا العمل الجديد الشاق، هـذا الجهـد الجبار كان مثل النوغا... لم يكن قط بالغ الصعوبة على الإطلاق! لشد ما كانـت تحب، في الواقع، أن تحمل عبء العمل عن الجميع، أن تتولى وحـدها شؤون الحانوت، وشؤون العائلة بأكملها، وإعالة العاملة أيضاً... لم تكـن تحاول أن تقارن نفسها بأحد... فما دام هـذا المـشروع منفـراً بمـا يترتـب عليه من جهد، وما يثيره من قلق، فإنها ستقتحمه على الفـور! كـان هـذا نسيجها، طبيعتها.. وسواء أقمت أنا بما يطلب مني أم للخراء، فلـن يغير هذا من مسار الأشياء... كنت متيقناً بأنها، مع وجـود الخادمـة، ستعمل أكثر بخمسين مرة... كان لها ولع شديد بشرط حياتها البالغ القسوة... أما أنا فما كان ذلك يلائم كيفي... كان في رأسي ما يشبه الدودة. كنـت نفعياً انتهازياً بالقياس إليها... ربما كان مرد هـذا علـى الأخـص إلى إقـامتي في روشستر، إلى أنني لم أبذل أي جهد لدى ميرويـن... أكنـت قـد غـدوت تنبلاً فعلاً؟ كنت أنصرف إلى التفكير بـدلاً مـن الانـدفاع إلى الـشارع؟ لم أكن بالأحرى أبذل جهداً كافياً للعثور في النهاية على ذلك العمل... كنت أجد نفسي وسط جو ضبابي أمام كـل جـرس مـن أجـراس البيـوت... لم يكن في عروقي دم الشهداء... سحقاً! كـان ينقـصني ذلـك العيـب الـذي يتحلى بـه اليـافعون الـصغار!... كنـت أؤجـل الأمـور دومـاً إلى الغـد... أحاول الانـسلال إلى حـي آخـر، حرارتـه أخـف وطـأة، ونـسائمه أكثر نداوة... وأفياؤه أعظم امتداداً، كي أبعد عني قلـيلاً الوظيفـة الـتي أسـعى إليها... راقبت المتاجر حول التويللري... تعلوها القناطر الجميلة... وسـط الجـادات العريـضة... ذهبـت أسـأل الجـواهريين إذا مـا كـانوا يرغبـون بموظف شاب؟... أغلي وأفـور داخـل سـترتي... لم يكونـوا بحاجـة إلى أحـد... كنـت ألبـث في التـويللري في النهايـة... أتحـدث إلى النـساء المتأخرات في الشوارع... أمضي ساعات وسط الأجمات الظليلـة... دون أن أعمل أي شيء سوى شرب أكواب الجعة، ومراقبة العابرين.

كل هذا حدث في الماضي البعيد... ذات مساء لمحت والدي... كان يسير محاذياً السور الشبكي، ذاهباً لتسليم الطلبات. وكي لا أجازف بأن يراني، مكثت لابداً في ميدان السباق... مختبئاً بين العوارض الخشبية... دخلت مرة إلى المتحف. كان الدخول إليه مجانياً في تلك الأيام... لم أكن أفقه أي شيء عن اللوحات الفنية، ولكنني حين صعدت إلى الطابق الثالث صادفت جناحاً خاصاً بمتحف مارين (متحف التاريخ البحري، يضم تصاميم ولوحات عديدة). وحينئذ لم أعد أغادره. كنت أذهب إليه بانتظام، أمضيت هناك أسابيع بكاملها... تعرفت على جميع النماذج والتصاميم... كنت أظل وحدي أمام الواجهات الزجاجية... ناسياً كل التعاسات، وكل الوظائف، وكل أرباب العمل، والطعام... ما عدت أفكر إلا بالقوارب، والأشرعة، كان ذلك يصيبني بالذهول كلياً... كنت أرغب في أن أصير بحاراً، ووالدي أيضاً كان يرغب فيما مضى، ولكن آمالنا ذهبت أدراج الرياح... كنت أدرك ذلك تقريباً.

لدى عودتي ساعة تقديم الحساء، كان يسألني عما كنت قد فعلته؟ لماذا وصلت متأخراً... ـ كنت أبحث عن وظيفة! هكذا كنت أجيبه... كانت أمي تنحاز إليه، كان يتذمر فوق طبقه... ولم يكن يلح أكثر.

* * *

قيل لأمي أن بإمكانها أن تجرب حظها تواً في سوق بيك، وفي سوق سان جيرمان أيضاً، وأن هذه لحظة رواج جديدة لن تتكرر، وأن الأثرياء المقيمين في كل مكان من فيلات الرابية سيحبون مخرماتها بالتأكيد لتزيين ستائر حجراتهم، وأغطية سررهم، وسجف نوافذهم الجميلة... كانت تلك هي اللحظة المؤاتية.

انطلقت على الفور. وطوال أسبوع بكامله جابت جميع طرقات الرابية، حاملة صرة متاعها المحشوة بخمس مئة قطعة من مخرماتها الرخيصة... بدءاً من محطة شاتو وحتى المولان تقريباً... بخطى حثيثة دوماً... كان الجو رائقاً جداً، لحسن الحظ، فقد كان المطر كارثة حقيقية! كانت سعيدة للغاية، لأنها أفلحت في بيع جزء لا بأس به من بضاعتها، من المطرزات، والمخرمات ذات الأهداب، ومن الشالات الاسبنيولية الثقيلة التي هجرها الناس من أيام الامبراطورية! أحب سكان الفيلات طرائفنا البديعة! كان خليقاً أن يزينوا أثاثهم على عجل... مستسلمين للنشوة والطيش... يغمرهم التفاؤل والحماس لمشهد باريس المترامي تحت أنظارهم. كانت أمي تذكي فيهم روح الاستهلاك، مستغلة فرصتها أيما استغلال. ولكنها ذات صباح جميل توقفت ساقها عن الحركة كلياً، كان ذلك نهاية الهوس المنفلت، نهاية الجولات الطويلة الشاقة. وفوق ذلك، سرى الالتهاب إلى ركبتها الأخرى، فتورمت أيضاً وصارت ضعف حجمها...

جاء كابرون مسرعاً... استطاع فقط أن يعاينها... ثم رفع ذراعيه نحو السماء... لقد تشكل الخراج بالتأكيد، وألمّ بالمفصل عطب خطير، وتضاعف تورمه الآن... وسواء تسلحت بالشجاعة أم لا، فالأمر سيان!... فهي ما عادت قادرة على تحريك جزئها السفلي، ولا تغيير الجهة التي تنام عليها، ولا حتى النهوض سنتيماً واحداً، كانت تطلق صرخات فظيعة، وتكالب عليها الألم فلم تعد تكف عن الأنين. كانت صلبة جلودة مثل كارولين، ولكن الألم تغلب عليها. كانت تلك كارثة رهيبة تقصم الظهر.

لم يكن لنا مندوحة عن تشغيل الخادمة... واضطررنا إلى اتخاذ عادات جديدة أخرى... بعد أن اختل نظام حياتنا... كانت أمي لا

تبارح سريرها، فكنا أنا وأبي نقوم بمعظم الأعمال، ننظف البسط، ونكنس أمام الباب، وداخل الدكان قبل الانطلاق ساعة الصباح. لقد انتهى التبطل والتردد والتواني دفعة واحدة... كان خليقاً أن أتخلص من كل ذلك، وأجد عملاً بسرعة، ودون لحظة تأخير!...

كانت الخادمة هورتنس تأتي إلينا ساعة بعد الظهر، وساعتين بعد العشاء، وتخدم بقية النهار في متجر للبقالة، في شارع فيفيان قرب مركز البريد. كانت أمينة جديرة بالثقة، وكان عملها عندنا إضافياً. لقد توجب على هذه التعيسة الحظ أن تعمل عملاً مضاعفاً، بعد أن أضاع زوجها كل شيء لإنشاء محترف لأعمال الرصاص. كانت تعيل، فوق ذلك، طفلين وخالة لها... لم تكن تعرف طعم الراحة... كانت تروي كل شيء لأمي، المشدودة إلى سريرها، ولكننا ذات صباح أنزلناها أنا وأبي وهي في حالتها تلك، وأجلسناها على كرسي. كان علينا أن ننتبه جيداً كي لا نتعثر فوق الدرج، أو تقع من بين أيدينا. ثبتناها بوسائد، ووضعنا كرسيها في إحدى زوايا الدكان... بحيث يمكنها الرد على أسئلة الزبائن... كان ذلك شاقاً، وكان لا بد من مواصلة العناية بها... بالكمادات المخففة للألم...

على الرغم من أن هورتنس كانت عاملة دؤوبة، تعمل بكل طاقتها، فقد كانت أسوأ من بقرة في المحصلة، بسبب بعض حركاتها المثيرة، كانت ممراحة على الدوام، مع شيء من المجون، لا تني تكرر بأنها لا تحرم نفسها من أي شيء، ولاسيما من أطايب الطعام، ولكنها لم تكن تتمكن من النوم كفاية، إذ لم يكن لديها الوقت للإخلاد إلى النوم. كان الطعام هو الذي يقويها ويسندها ولاسيما القهوة بالكريم... فهي تلتهم منها عشرة أقداح في اليوم على الأقل... وما يقارب أربعة عند بائع العصير. كانت هورتنس تمازح أمي فوق

سـرير أوجاعهـا، بثرثراتهـا الماجنـة، وكـان ذلـك يغـيظ أبي كـثيراً، وخاصة حين يجـدني في الغرفـة معهمـا... كـان يخـشى أن أرفـع لهـا تنورتها ذات يوم... والحق أنهـا كانـت تـسبب لي بعـض الارتعـاش، مثلما كان يصيبني دائماً، ولكن دون أية نية خبيثة مثلما كـان الأمـر في إنكلترا. ما عدت أستسلم للشهوات الساعرة، ما عاد لي مذاق الأشياء نفسه، كنت في الحقيقة، أشد بؤساً من أن أجترح المـآثر الرجوليـة... سلاماً لهاتيك الأيام! تباً! تبخرت تلك الحيوية الطافرة!... فأن تعـيش هكذا في وضع رجراج مع عائلة هي في الدرك الأسفل مـن الـضنك، فإن ذلك يثير فيك الهلع... كان رأسي محشواً بالوساوس، وكان قلقي من عدم العثور علـى عمـل أسـوأ ممـا كـان عليـه قبـل أن أسـافر إلى الخارج. وحينما رأيت أمي تتقلب من جديد في كربها، انطلقـت ثانيـة للبحث، والجري خلف العناوين!... قلبت البوليفارات كـرة أخـرى، رأساً على عقب، وحوض السانتييه، وتخوم البورصـة... ذلـك الحي الذي يكون في أواخر آب أسوأ من الأحيـاء الأخـرى في الواقـع... لم يكن ثمة أقـبح ولا أبعـث علـى الاختنـاق منـه... تـسلقت أدراج كـل الطوابق، بياقتي وربطـة عنقـي، وعقـدتي الفراشـية، وقـبعتي القـشية المدرعة... لم أنس لوحة إعلانيـة واحـدة، مـررت عليهـا جميعـاً، ثم عدت بالاتجاه المعكوس... جيمي بلاكويل وكارسـتون، للتـصدير... بوروغــوف للأعمــال التجاريــة... توكيمــا للــسفر إلى كاركــاس والكونغو... هيريتو وكوبليرون للقروض في كل أصقاع الهند.

ومرة أخرى، وجـدت نفـسي قـوي العزيمـة، مفعمـاً بالحمـاس، مصمماً. كنت أضرب شعري أيضاً ضربة صغيرة بالمشط حينما أدخـل تحت قناطر الأبواب، ثم أقـتحم الـدرج. أقـرع البـاب الأول، ثم باباً آخر، وحـين يتفـق لي مـثلاً أن أرد علـى الأسـئلة، وهـو مـا لم يكـن

يحدث غالباً، إذا ما سئلت عن مؤهلاتي؟ وعن الاختصاص الذي أرغب أن أعمل فيه؟ وعن قابلياتي الحقيقية؟ وعن طلباتي؟... فإن الشجاعة كانت تخونني في تلك اللحظة... كنت أتلجلج وأغمغم، وتخرج فقاعات من فمي... وأهمس باعتذارات واهية، ثم أتراجع القهقرى.. مفعماً بالذعر على حين بغتة، فيرمقني السائلون بنظرة تنم عن خوف... كنت أغدو كالممسوس من فرط انفعالي، كما لو أنني فقدت جرأتي كلياً... كما لو كنت على شفا هوة سحيقة!... كنت أولي الفرار والمغص ينهش أحشائي... ثم أعود مع ذلك إلى المطاردة كالبغايا، فأقرع ثانية على الباب المقابل... ولكن الذعر ذاته كان يوافيني دائماً... هكذا كنت أفعل، عشرين مرة قبل الغداء... لم أعد أرجع إلى البيت لتناول الطعام. كان يساورني قلق ممض حقاً.. ما عدت أشعر بالجوع! ولكن كان يستبد بي ظمأ رهيب... صرت أحجم عن العودة سريعاً. كنت أستشعر ما ينتظرني من مشاحنات بغيضة، أمي وأوجاعها الفظيعة، أبي وآلته الكاتبة، ونوبات غضبه أيضاً، واضطراباته، وصرخاته الجنونية... وما من مخرج يلوح أمامي!... سوى التملق والمداهنة، كنت أحتفظ بكل غمي في إستي!... ولا أبارح ضفة السين، بانتظار أن تدق الساعة الثانية... أنظر إلى الكلاب السابحة في النهر... ما عدت أتبع نهجاً معيناً... صرت أرود الأمكنة عن طريق الصدفة!... نبشت الضفة اليسرى بكاملها... وانطلقت عبر ناصية شارع ماك إلى مغامرتي... ثم شارع جاكوب... ثم شارع تورنون. مررت على مشاريع كانت مهجورة تقريباً... وعلى متاجر أقمشة مات أصحابها منذ زمن. وفي الضواحي التقيت بموردي مواد متجهمين كئيبين، بحيث تعوزك القدرة على الكلام معهم... ومع ذلك فقد تحدثت إليهم بلطف بالغ... وطلبت منهم أن يجربوني، طلبت ذلك من بائع يتعامل مع كهنة الكنيسة... حاولت المستحيل...

أبديت شجاعة لدى تاجر جملة لحلل الرهبان... داخلني الاعتقاد بأنهم سيشغلوني في إحدى فبارك الشمعدانات... كنت أنظر إليهم بلهفة وطمع. كانوا أناساً طيبين... غير أن كل شيء انهار في النهاية! فموظفو الاستقبال في سانت سولبيس صرفوني خائباً... كانوا هم أيضاً يعانون أزمة خانقة. ومن كل مكان كنت أخرج خائباً خالي الوفاض.

لفرط ما وطئت إسفلت الشوارع صارت قدماي مثل الجمر... كنت أخلع حذائي قليلاً في كل مكان، وأغطسه سريعاً في أحواض المغاسل، ثم أخلعه ثانية... تعرفت هكذا على صبي صغير يعمل في مقهى، يعاني من قدميه مثلما أعاني، كان يعمل صباحاً ومساء وحتى ساعة متأخرة من بعد منتصف الليل في مقهى رصيف بالغ الاتساع، كانت الآلام تستفحل بقدميه غالباً، فيلجأ إلى سكب قطع صغيرة من الثلج داخل حذائه... حاولت أن أستخدم طريقته، كان هذا يلطف الألم لحظة، ولكن سرعان ما يصبح الوضع أسوأ بعد ذلك.

* * *

ظلت أمي، على هذا النحو، أكثر من ثلاثة أسابيع، ممددة ساقها في مؤخر حانوتها، لم يكن يدخل عليها الكثير من الزبائن... كان ذلك سبباً إضافياً لتبرمها الشديد... ما عاد بمقدورها الخروج على الإطلاق.

ما كان هناك سوى الجيران، يدخلون إليها بين وقت وآخر، من أجل الثرثرة معها، ومؤانسة وحدتها... كانوا ينقلون إليها كل الشائعات والأقاويل، ويملؤون رأسها بالشكوك... فيما يتعلق بوضعي على الأخص، كانوا يلقون على مسامعها نمائم قذرة... كان يضايق هذا الرمم أن يروني متخلفاً عن أترابي. لماذا لم أجد عملاً؟...كيف؟ لم يكونوا يكفّون عن التساؤل... وأن أظل هكذا كالطرح، على الرغم

من الجهـود الهائلـة والتـضحيات الجـسيمة، فـإن هـذا يعـصى علـى التصور!... ويتجاوز حـدود الإدراك!... آه! ولكـن كيـف؟ كـان هـذا لغـزاً!... وحـين يـرونني هكـذا دون عمـل كـانوا يستخلـصون كـل النتـائج... آه هـذا نعـم! آه تمامـاً! فهـم لـن يكونـوا مغفلـين مثـل عجوزيّ... لن يرتكبوا هـذه الغلطـة الفاحـشة!... كـانوا يعلنـون هـذا صراحة. آه! تباً لا! إنهم لن يتـساهلوا قـط... مـع أولادهـم المهملـين واللامبالين... لن يحنّطوا أنفسهم من أجل صـغارهم! آه لا! لا! تُـرى ما الذي يفيده هذا في الأساس!... وعلى الأخص، تعليمهم اللغـات! أية مهزلـة هـذه وأيم الحـق! آه! أي تهـريج! أن نجعـل منـهم زعرانـاً داعرين، هذا كل شيء! تباً إن هذا لا طائل منه! والدليل؟ كان ظـاهراً للعيان! يكفـي النظـر إلي... رب عمـل؟ ولكـني لـن أجـد رب عمـل أبداً!... فهؤلاء جميعاً لن يولـوني ثقتـهم... لأن نـوعي كـان فاسـداً، هوذا!... هم الذين كانوا يعرفونني منـذ الطفولـة، كـانوا جميعـاً علـى يقين من ذلك!... نعم.

حينما كانت أمي تسمع مثل هذه الأشياء، كانت تنهار كلياً، وخاصة في حالتها تلك، حين يضاف كل ذلـك إلى آلام خراجهـا الـتي كانـت تمضها أكثر فأكثر. كان فخذها بكامله قد تورم الآن. كانت تمتنـع فيمـا مضى، عـن الخـوض في مثـل هـذه الحماقـات... ولكنـها في غمـرة أوجاعها، على هذا النحو، وبمثل تلك الحـدة، لم تعـد تـضبط ردود أفعالها. كانت تكرر كل ما تسمعه أمام أبي... تردده كلمة كلمة تقريباً... كان قد مضى زمن طويل لم تثر ثائرته... وهـا قـد لاحـت لـه الفرصـة فانقض عليها... وراح يعوي بأنني كنت أسلخ جلده وهو حي، وأسلخ جلد أمي أيضاً، وأنني كنت عاره، وخزيه المشين... وأنني مسؤول عن كـل شـيء! عـن أسـوأ الـشرور والمـصائب! في الماضـي مثلمـا في

المستقبل! وأنني لا أنفك أدفعه إلى الانتحار! وأنني كنت قاتلاً من نوع لم يسمع به أحد من قبل!... لم يشرح لماذا... ولفرط ما كان ينفث البخار من فمه، تشكلت غيمة بيني وبينه. كان يشد جلدة رأسه، من تحت فروة شعره، فيخلف فيها خطوطاً دامية، غارزاً فيها كل أظافره... ولكي يصب جام غضبه، فقد انهال بالضرب على قطع الأثاث... ثم حمل صوان الملابس... كان الدكان صغيراً جداً... لم يكن هناك مكان يكفي لشخص غاضب... اصطدم بحاملة المظلات فأسقط على الأرض وعاءين صينيين. وهمّت والدتي بأن تلتقطهما، فالتوت ساقها، وألم بها ألم فظيع، وأطلقت صرخة وحشية مدوية ترددت أصداؤها في أرجاء الحي... توافد على إثرها الجيران كالإعصار.

كان قد أغمي عليها تقريباً... نشقوها بعض الملح... فثابت إلى وعيها شيئاً فشيئاً... واستردت أنفاسها. ثبتت جسدها فوق كرسيها... "آه! قالت لنا... لقد انفقأ!" كان ذلك هو خراجها!... كانت سعيدة بذلك... كان فيزيو نفسه هو من أخرج لها الصديد. كان معتاداً على ذلك. قام به مراراً على متن السفن.

* * *

عبثاً كنت أرتدي ثياباً لائقة للغاية، مع ياقة تطوق عنقي بإحكام، وحذاء فائق اللمعان، فحين فكرت أمي بذلك ملياً، من موقعها في مؤخر دكانها اكتشفت بأن كل ذلك لم يحقق حلمها بعد... كان ما يزال ينقصني شيء من الرصانة والوقار.

كان لدي ساعتي، وسلسالي الصقيل... كنت ما أزال أسلك مسلك الزعران السوقيين على الرغم من كل التعنيف الذي ينصب فوق رأسي.. كان هذا واضحاً من خلال علاقتي بالنقود، والطريقة التي

كنت أملأ فيها جيبي بالقروش... والنقود هي ما يصنع الأوغاد! واللصوص! والمجرمين!.

ارتأت أمي أن تقدم لي هدية من أربع قطع نقدية من فئة الخمسين سنتيماً... ولكن بشرط أن لا أنفقها!... في أي وقت من الأوقات.. كانت تلك نوعاً من الوفر، من أجل أن أتشجع على الادخار!... وحددت لي أيضاً عنواناً ألجأ إليه، في حال وقوع حادث على الطريق العام... كان هذا يطمئنها، ولم أبد، من جهتي، أي اعتراض.

أجج هذا المبلغ الصغير ظمئي بسرعة إلى أكواب الليمونادة التي كان سعر الواحد منها فلسين اثنين. كان الحرُّ شديدَ الوطأة في ذلك الصيف من عام 1910. كان من السهل أن تتمضمض بكوب فوق الرصيف الملاصق للكنيسة. لم تكن الليمونادة غالية على الأرصفة حيث يقف الباعة المتجولون.

عاودت محاولاتي في البحث لدى محترفات الترصيع. تلكم حرفة حقيقية، بوجه الإجمال، كنت ملماً بها مع ذلك بعض الإلمام... يممت وجهي شطر حي ماريه... لم أطق صبراً على البقاء طويلاً فوق البوليفارد! كان الناس يسيرون أفواجاً كما في طواف الحجيج، أمام النيغر، وبوابة سانت دينيز! شعرت بالانسحاق كما لو كنت داخل أتون مستعر... لم تكن حديقة الفنون أحسن حالاً! كان من العبث الجلوس هنا، حيث المكان دوامة من الغبار.. كانت الحناجر تحشرج بسبب صعوبة التنفس!... جميع سماسرة البضائع من الأحياء المجاورة تجمعوا هنا، مع صناديقهم، وعلب عيناتهم، وعرباتهم اليدوية الصغيرة... كانوا يظلون جالسين على حواف الحديقة، مسترخين، بانتظار مقابلة المعلم في المكتب... لم يكونوا على عجلة من أمرهم!... كانوا يواجهون فصل الكساد الطويل، بحيث ما عاد بإمكانهم تحصيل قوتهم.. ما من أحد،

في أي مكان كان يرغب بعيناتهم، طـوال تـسعين يومـاً!... كـانوا يبـدون شاردين... وسط السحابة الرملية... لن يحصلوا قـط مـن أي مـشتر على طلب واحد قبل الخامس عشر من شهر تـشرين الأول. لم يكـن وضـعهم مشجعاً لي... كان بإمكانهم أن يغلقوا دفتر مذكراتهم طوال تلك المـدة... كنت أشعر بالعزاء والغبطة إزاء كروبهم...

لفرط ما سألت في كل مكان، عمَّن يدلني على عمل، صرت مزعجاً للجميـع. كنـت قـد أمعنـت النظـر في كـل اللافتـات، دققـت في أدلـة التلفونات، وفي الأدلة السنوية، عاودت العبور في شارع فييه دو تامبـل.. تسكعت ثمانية أيام، على الأقل، على امتداد قناة سانت مارتين كي أراقب جميع القوارب، وحركة الهويس الناعمـة... ثم عرجـت بعـد ذلـك على شارع ايلزفير. كنت لشدة انشغالي أصحو في منتصف الليل وأنا أرتجـف.. كان ثمة هاجس يستحوذ علي، بمزيد من القوة... كان ذلك العذاب ينطبع على وجهي.. كنت أود أن أعـود إلى آل غورلـوج.. أحـس كلمـا مـررت بذلك الشارع، وعلى نحو فجائي، بندم عميق، وبخزي لا قبـل لي علـى مقاومته، كان ثمة لعنة تلاحقني.. كانت تراودني علـى هـذا النحـو أفكـار سقيمة، وحماقات لا تخطر إلا لمغفل قذر... كنت أرغـب بالـصعود إلى آل غورلوج، أفتح لهم قلبي بكل صراحة، أدين نفسي أمام الجميع... «أنا الذي سرقت!» هكذا سأقول لهم... "أنا الذي اختلست الدبوس الجميـل! الساكياموني المصنوع من ذهب خالص!... إنني أنا من فعل ذلك! إنني أنا حقـاً وفعـلاً"... كنـت أتخـبط وحـدي! سـحقاً! وبعد ذلك، كنت سأرتاح، ويرحل عني الخوف... كان القدر الغاشم يلاحقني.. يـربض في نسيج نخاعي! كان الذعر يتملكني إلى حـد أنـني صـرت أرتعـش دونمـا انقطاع... ما عـاد بمقـدوري مقاومـة ذلـك.. تفـو! والحق أنني، فـي النهاية، مررت أمام منزلهم... وعلى الرغم من الحر اللاهب، فقد سـرت

البرودة في جميع أوصالي... وتولاني ذعر شديد! لمحت حاجبة العمارة... تأملتني ملياً، وتعرفت علي من بعد.. حاولت حينئذ أن أدرك، أن أقدر مدى فداحة الذنب الذي اقترفته.. دنوت من كوخها... سأقول لها هي كل شيء في البداية!... تباً!... ولكنني حينئذ، فقدت القدرة على الكلام... وأسقط في يدي.. درت فجأة نصف دورة... ووليت الأدبار أسابق الريح،.. عدوت نحو البوليفارات.. خاب مسعاي!... شعرت كأن غاشية غشيتني... تسلطت علي الوساوس، واعتراني جبن فظيع.. لم أعد إلى البيت لتناول الغداء... كنت أحمل بعض الخبز والجبن...بعد الظهر غالبني نعاس ثقيل، كان النوم قد جافاني خلال الليل.. وأقضت الكوابيس مضجعي... كان يتعين علي السير دون توقف، أو الغرق في النوم فوق المقاعد.. كان ما يزال يثير اضطرابي، ذلك الخاطر الذي استحوذ علي، ترى، ما الذي أمكنني أن أفعله حتى أكون مذنباً؟ هل كان ثمة دواعٍ لشعوري بالذنب؟ دواعٍ غير عادية.. لم أكن واسع المعرفة كي أفكر بالأسباب... كنت قد وجدت مكاناً آخر أثناء تجوالي الطويل، كي أستريح خلال فترة ما بعد الظهيرة. ففي كنيسة نوتردام، وفي محيط قباب صغيرة كان ثمة إلى اليسار مكان رطب للغاية. كنت أحس بأن طائر النحس يطاردني بقسوة... شعرت بأنني أفضل حالاً في قلب الظلمة... كانت بلاطات الأرضية ملائمة لقدمي...فقد رطبتهما على نحو أفضل من أي وسيلة أخرى.. خلعت حذائي بهدوء.. ولبثت مختبئاً على هذا النحو... كان منظر الشموع بهياً، على غرار أدغال هشة... كل شيء كان يختلج وسط الظلال المخملية المترامية للقباب.. جعلني ذلك أهلوس... ثم غرقت في النوم رويداً رويداً... كنت أصحو على وقع أجراس صغيرة.. لم يكن المكان يوصد أبوابه عادة. كان لي أفضل ملاذ.

* * *

كنت أعثر دائماً على حجج أتذرع بها كي أعود إلى البيت متأخراً. وذات مرة كنت في حوالي الساعة التاسعة أقدم نفسي في مصنع لورق الرسم. كانوا يطلبون سعاة للعمل داخل المركز... كان هذا ملائماً لقابلياتي... عدت إلى المصنع مرتين أو ثلاث مرات... لم يكن مصنعهم جاهزاً بعد!... ولا حتى مكتملاً... هذر في النهاية!

كنت أستشعر خوفاً مقيتاً لحظة عودتي إلى الباساج. كل القروش المخصصة للترام كنت أبددها على أكواب الجعة... كان علي إذن أن أمشي مزيداً من المشي.. كان الصيف ثقيل الوطأة أيضاً، والسماء لم تمطر منذ شهرين!.

كان والدي يدور مثل نمر، أمام آلته.. وفي سريري القريب منه لم يعد ثَمَّ وسيلة لأن تغمض أجفاني لفرط ما كان يجدّف فوق ملامسها.. كان قد انتزع منذ بداية أيلول كمية كبيرة من الدمامل، تحت ذراعيه في البداية، ثم دملاً كبيراً خلف عنقه، تحول على الفور إلى جمرة خبيثة. كان انتشار الدمامل فوق جلده حالة مرضية خطيرة، ثبطت همته كلياً.. كان يذهب إلى المكتب مع ذلك... ولكنه كان يشاهد في الشارع ملفوفاً بالقطن، مما يلفت أنظار المارة إليه.. عبثاً كان يتفنن في علاجها، ويتناول الكثير من خميرة الجعة، ولكنه لم يكن يتحسن قط.

كانت والدتي شديدة القلق لرؤيته على هذا النحو، قد طفح جلده بالدمامل... أما هي فلكثرة ما استعملت من كمادات، ولبثت متمددة دون حركة فإن حالة خراجها تحسنت قليلاً. كان ينزُّ قيحاً بكثرة، ولكن تورمه خف قليلاً. وحين فرغ من الصديد نهضت واقفة، لم تشأ أن تنتظر التئام الجرح، واستأنفت على الفور حركتها في غرفة نومها، ودورانها من جديد حول الأشياء والكراسي... كانت تود الإشراف على هورتنس، وشرعت تصعد الدرج دون أن تقبل أية مساعدة خلال

صعودها.. كانت تتشبث بالـدرابزين كـي تتـسلق الـدرجات وحـدها، وقد أفلحت في الصعود من طابق إلى آخر، فيما كنـا نحـن منـصرفين إلى أشغالنا.. كانت راغبة في العودة إلى تدبير أمـور المـنزل، وترتيـب شؤون الدكان، والتحف الصغيرة...

أما والدي المتدثر دوماً بالضمادات، فلم يعـد باسـتطاعته أن يـدير رأسه، كان يختنق وسط دمامله، ولكنه كـان يـسمع مـع ذلـك، وقـع خطوات أمي عبر الطوابق، وجلبتها وهي تنبش الأشياء مـن غرفـة إلى أخرى، مجرجرة ساقها خلفها... لم يعد ذلك يغضبه علـى الإطـلاق.. كان يقرع بعنف على آلته، ويخدش راحتيه لفرط ما كان نزقـاً، وكـان يصيح بأمي بأن تنتبه إلى نفسها.

- آه! تباً، يا كليمانس! أنت تسمعيني مع ذلك! أسـتحلفك برعـد الماخور! هلا تمددت ! عجباً! هل ترين بأننا نملك الكثير من الحـظ! هل ترين بأن كل هذا غير كاف؟ اللعنة!..

- هيا، يا أوغست! دعني، أرجوك... لا تشغل نفـسك بي!... أنـا في أفضل حال!.

كانت تكلمه على هذا النحو، بصوت ملائكي...

- من السهل قول هذا! كان يصرخ.. من السهل قول هذا تبـاً لكـل الأقذار! تباً للخراء! للرعد!......! هل ستجلسين في النهاية؟.

* * *

أبلغتُ أمي في الصباح...

- ما قولك إذن، يا ماما، لن أعود اليوم إلى الغـداء، سـأذهب إلى ليلاس مرة أخرى.. لأسأل عن عملي في المصنع...

- أصغ إلي إذن، يا فرديناند، أجابتني أمي.. لقد فكرت بشيء.. سأطلب من هورتنس، هذا المساء أن تنظف لي المطبخ تنظيفاً كاملاً.. سيمضي شهران اثنان على الأقل دون أن ألتفت إليه، لقد غدا كل ما فيه مقززاً، الطناجر، وحوض الجلي، والآنية النحاسية.. منذ مرضي، لم استطع أن أهتم به.. إنه يفوح بالروائح حتى الطابق الثالث... إذا أرسلتها لتسليم البضاعة فستتباطأ أيضاً وتظل ساعات خارج البيت، تثرثر مثل عقعق!... إنها تتلطى عند بائعة الفواكه.. ولا تنتهي من الثرثرة معها. ما دمت ستمر من هناك، بالقرب من الريبوبليك، فعرِّج إذن قليلاً على محل كراكوا واشتر لي، من أجل والدك، بأربعة عشر قرشاً قطعة من جامبونه الجيِّد جداً، من الصنف الممتاز... هل فهمت ما أعنيه؟.. من النوع الطري جداً والقليل الدهن... ألق عليه نظرة قبل أن تشتريه.. بالنسبة لنا نحن، أنا وأنت، بقي لنا بعض المعكرونة، سنعيد غليها قليلاً.. اجلب لي أيضاً ثلاث مكعبات من الزبدة، وإذا أمكنك أن تتذكر فاشتر خسَّة واحدة لا تكون أوراقها مفتوحة كثيراً.. سيوفر علي ذلك مشقة إعداد العشاء.. لا تنس ما أوصيتك به! بالنسبة إلى البيرة، لدينا بعض منها.. ستجلب هورتنس بعض الخميرة... أعتقد أن السَلَطة، من أجل أبيك ودماملة هي أفضل شيء للدم... ستأخذ قبل ذهابك قطعة من فئة المئة قرش من كيس نقودي فوق موقد غرفتنا. لا تنس على الأخص أن تعد نقودك جيداً! عد قبل العشاء!... هل تريد أن أكتب لك كل هذا! أظن أن البيض غير مؤات لوالدك بسبب الحرارة.. فهو يشكو من التهاب المعي... والفريز أيضاً فهو يخلِّف بقعاً حمراء على الجلد.. من الأفضل إذن أن ننتبه.. خاصة وأن أعصابه مستثارة.

حفظت ما أوصتني به أمي عن ظهر قلب، صار بوسعي أن أذهب بسبيلي، أخذت المئة قرش، وخرجت من الباساج. مكثت لحظة قصيرة بالقرب من بركة حديقة لوفوا، جالساً هكذا على مقعد أفكر... ما عاد مصنع ليلاس، بالنسبة إلي، أكثر من زبدة على الإست! في المقابل، كان علي أن أمثل في الساعة التاسعة أمام معلم حرفي يعمل في صنع منصات للعروض، وصفائح رقيقة معدنية، كان قد حدثني أحدهم عنه ذات مرة. يقع محله في شارع غرينيتا... لم يكن الحر قد اشتد بعد في تلك الساعة.. توجهت نحوه غير متعجل. وصلت أمام الباب.. صعدت إلى الطابق الخامس.. قرعت الجرس.. انشق الباب قليلاً... كانت الوظيفة قد شغلت! حسناً! ما من ضرورة للإلحاح... حررني ذلك دفعة واحدة! نزلت ربما طابقين اثنين، وهناك فوق قرص الدرج، جلست لحظة، نزعت ياقتي.. وفكرت من جديد... وفيما أنا أفكر وأعاود التفكير تذكرت بأن لدي عنواناً آخر، دابغ للجلود من النوعية الرفيعة، في نهاية شارع ميزلاي.. لم أكن متعجلاً كذلك... وصلت إلى المدبغة، نظرت إلى الديكور حولي، كان المكان ما يزال يحتفظ بجلال قديم، على الرغم من سقوفه الخشبية المخلعة، وروائح العفونة والمراحيض التي تفوح منه. ولكنه كان مع ذلك بالغ الرحابة، عابقاً بالفخامة... لا ريب في أنه كان مسكناً قديماً لأسياد القرن الماضي... كان هذا ظاهراً للعيان عبر الزخارف والطنف، ودرابزينات الأدراج المصنوعة كلياً باليد، وأدراج المرمر والرخام السماقي.. لم يكن ذلك مزيفاً.. ما من شيء هنا إلا صنعته اليد!... كنت أتعرف هكذا على الأشياء من الطراز القديم! تباً! كان ذلك شديد الروعة حقاً.. ما من مشجب مقلد!... كان البناء أشبه بصالة فسيحة الأبعاد، حيث العمال لا يتوقفون فيها قط... كانوا

يدخلون بسرعة إلى الغرف الجانبية، ساعين إلى أعمالهم المقززة. حيث كفت عيني عن المشاهدة هنا، ولم يبق لي غير الذكرى، والروائح العفنة.

على مقربة من منهل الماء بالضبط، كنت أرى الدرج بكامله. جلست هناك.. لم أكن أطلب أكثر من ذلك... كان أمامي أيضاً كل زجاج النوافذ الذي يرقى تاريخه إلى تلك الحقبة... مربعات صغيرة جداً من الزجاج المتعدد الألوان، بنفسجية وخضراء، ووردية... لبثت هادئا إذن، قرير العين، ما كان أحد من العمال يلتفت إلي أو يعيرني اهتماماً... كانوا منهمكين في أعمالهم.. كنت أفكر فيما سيكون عليه نهاري.. عجباً! هو ذا أحد معارفي! عملاق بطول مترين، تزين وجهه لحية صغيرة، كان يصعد الدرج، لاهثاً فوق الدرابزين... إنه ممثل تجاري، وفتى طيب فوق ذلك.. مرح غاية المرح، لم أره منذ كنت عند آل غورلوج.. كان يكسب رزقه من توزيع السلاسل المذهبة... عرفني على الفور ما إن رآني من فوق الدرج.. رشقني بتعنيفاته المرحة من درجة إلى أخرى... قصَّ علي أخباره بسرعة، وسألني عما آلت إليه أموري منذ عام؟.. أفضيت له بكل التفاصيل... لم يكن لديه الوقت الكافي للإصغاء إلي، كان ذاهباً للتو في إجازة... بعد الظهر مباشرة... كان طافحاً بالبشر لما ينتظره من متع.. غادرني إذن مسرعاً... متسلقاً الدرجات أربعاً أربعاً... مقتحماً غرفة معلمه ليعيد علبة عيناته. كان ما يزال لديه من الوقت ما يكفي للوصول إلى محطة أورساي، ويأخذ القطار المتجه إلى بوردونييه... حيث سيمضي هناك ثمانية أيام. تمنى لي حظاً طيباً... وتمنيت له أياماً حافلة بالبهجة.

غير أن هذا السجق الضخم أوقعني في حيرة من أمري، بحكايته عن عطلته في الريف، فقد عراني، فجأة، ودفعة واحدة، اضطراب

شديد. آه! لن أفعل أي شيء في نهاري! كنت على يقين من ذلـك!... ما عدت أفكر إلا باللهو الطفولي، في مراتع الريف الشاسعة! تباً! لقد أوهن روحي المعنويـة... استيقظ في، بغتـة.، هـواي الطـاغي برؤيـة المروج الخضر، والأشجار، ومساكب الـزرع... مـا عـاد بوسـعي أن أسكن جأشي.. لقد بعث فيّ ذلك هياجاً مضطرماً! تباً! قلـت لنفسي: «سأذهب حالاً للانتهاء من تـأمين الأشياء الـتي كلفـتني بهـا أمـي!... وبعد ذلك سأذهب إلى بـوت شـومون!... لنغـادر أولاً هـذا المكـان! سأعود إلى البيت في الساعة السابعة بالضبط... سأكون حراً طوال فترة ما بعد الظهيرة!» حسن!...

انطلقت مسرع الخطا.. باتجاه ناصية شارع إيتيان مارسـيل... حيـث يقع متجر نموذجي للحم الخنزير.. أفضل أيضاً من حـانوت كـاركوا.. مثال للترف والنظافة في تلـك الأيـام.. اشـتريت قطعـة مـن الجـامبون بأربعة عشر قرشاً، من النوع الذي كان والدي يفـضله، والخـالي مـن الدهن تقريباً... وأخذت خَسَّة من سوق الخضار المجاور، ومكعبـات الزبدة أيضاً... مع وعاء لحملها.

وها أنـذا أسـير بهـدوء عـبر بوليفـار سيباسـتيبول، ثم عـبر شـارع ريفولي... لم أعد أفكر بصفاء كامل! كان الحر خانقاً بحيـث لا يتقـدم المرء إلا بصعوبة... كنت أجـر قـدميّ تحـت الأقـواس، علـى امتـداد منصات عرض البضائع... قلت لنفسي «هيا إذن إلى غابـة بولونيـا!»... سرت مسافة طويلة جداً... ولكن السير كـان يغـدو متعـذراً، متعـذراً جداً... وعند سور التويللري انحرفت.. اجتـزت الـسور، ودلفـت إلى الحدائق... كان هناك جمهور منهك غاية الإنهاك... لم يكن من السهل أبداً العثور على مكان فوق العشب... وعلى الأخـص تحـت الظـل.... كان الجمهور أكثر بكثير مما يتسع له المكان...

تركت نفسي وسط الزحام، واستلقيت فوق منحدر خفيف، على حافة جدار من الردم يحيط بالبركة الكبيرة... كان المكان رطباً للغاية، منعشاً إلى حد كبير.. غير أن جيشاً لجباً من الوجوه القرمزية ظهر في تلك اللحظة بالضبط. كتلة متلاحمة، مدمدمة، شحمية، متقاطرة من أربعة عشر حيّاً من الأحياء المجاورة... عمارات بكاملها كانت تتقيأ أحشاءها وفضلاتها فوق المرجات الخضر الفسيحة، جميع المستأجرين، وحاجبات العمارات، تطاردهم حمارة القيظ، والبق، والطفح الجلدي.. كانوا يتدفقون بمرح صاخب، متراشقين بالمزاح والسخريات... ثم لاحت زمر أخرى من الدهماء، مريعة، مزمجرة، قادمة من الأنفاليد..

أراد المشرفون على الحديقة إغلاق البوابات الحديدية، وحماية زهور الورديات، وأحواض اللؤلؤيات... ولكن الحشد الهائج دفع كل شيء أمامه، بقر كل الأحواض، قصف كل الزهور، هدم السور بكامله.. لم يعد المكان سوى ركام من الخرائب، موكب من الأنقاض... كانوا يطلقون صرخات فظيعة كي تهب العاصفة المطرية، في النهاية، فوق ميدان الكونكورد!... ولما لم تنفجر العاصفة ولم تهطل حبة مطر واحدة، اندفعوا إلى البرك، وجعلوا يتمرغون داخلها، يتدحرجون، عراة، وبالكلاسين، حشوداً بكاملها... ففاض الماء على كل ما حول البرك، وشربوا هم آخر قطرة منه.

كنت متمدداً في أسفل جدار الردم المعشب، ما كان لي أن أشكو في الحقيقة... كنت محمياً، في المحصلة... كان كيس مشترياتي إلى يساري، فأمسكته بيدي.. سمعت القطعان وهي تدك الأحواض، وتنقض على الأجمات... وظهر آخرون أيضاً من كل مكان.. شرذمة هائلة من العطاش... وبدا كما لو أن معركة قد نشبت الآن من أجل لعق

كل ما في قعر البركة من ماء. كانوا يمتصون كل ما كان مترسباً في القاع، الطمي، والديدان، والوحل... وما انفكوا يعيثون الخراب، ويبقرون كل ما حولهم، ويخلفون أثلاماً عميقة في كل مكان. لم يبق نبتة عشب واحدة فوق ربوع التويللري الفسيحة... ما عاد ثمة سوى جنون منفلت، وغدت الحديقة قاعاً صفصفاً يعج بالخراب والسكارى.

بعيداً، في الأطراف القصية للمدينة، كانت جميع العائلات تبحث عن أقواتها وسط الفضلات، ولهيب الحر. كانت فضلات اللحم، والإليات والكلى تطلق رائحتها بعيداً، إلى ما فوق شارع رويال، ثم إلى السحب الذاريات... كانت تلك رائحة لا ترحم، تنبعث من أحشاء الذبائح المغمورة بالبول، ومن جثث الحيوانات، ومن الأكباد الدهنية المتفسخة... كانوا يبحثون وسط هذا المناخ المستعر... ما عاد بوسعهم الخلاص... كان ممنوعاً منعاً باتاً إلقاء الفضلات على امتداد المصاطب، التي أحيطت بثلاثة جدران عالية من الردم يصعب النفاذ منها.. وكانت عربات الأطفال القديمة مكدسة فوق بعضها على ارتفاعات شاهقة.

كانت الألحان ذاتها تنطلق مع ذلك حينما يخيم الليل الجميل، عبر النسائم العابقة بالعفونة... من فم الغول ذي المئة ألف فتحة سروال، المرتمي فوق الآلام، والذي يحرك الموسيقا داخل بطنه... شربت زجاجتي جعة، سطوت على قروش أمي... ثم زجاجتين أخريين، ثم اثنتين بعد ذلك حتى بلغ العدد اثنتي عشرة.. هو ذا!... أنفقت المئة قرش.. ما عاد معي قرش صغير واحد... جرعت بسرعة ليتراً من النبيذ الأبيض!... من النوع الفوار.. سأقوم بمقايضة مع العائلة الجالسة على المقعد!...سأبادلها قالب الزبدة بقطعة من جبن كممبر... الطازج جداً... مهلاً!... سأبادل قطعة الجامبون بكيلو من

النبيذ الأحمر المز؛... لا يمكن أن يقدم أحد أفضل من هذا العرض... في تلك اللحظة بالذات قدمت نجدة قوية من عناصر الحرس!... آه! يا للوقاحة.. يا للدعابة الحمقاء!... لم يزحزحوا أحداً من مكانه!... تولاهم الاضطراب والخزي على الفور، وارتعدت فرائصهم... وتقلصت قاماتهم... ثم انعطفوا بسرعة البرق! وولوا الفرار... تشتتوا خلف النصب الحجرية!... ثار الحشد ثورة عارمة! قاصداً، مرة أخرى، إثارة العاصفة المطرية...جأر البركان البشري، مطلقاً هديراً مدوياً، رعداً قاصفاً، ترددت أصداؤه فوق الليتوال، وانطلقت قرقعة مجلجلة من باطيات النبيذ الفارغة.

قسمت مأكولاتي إلى قسمين، والتهمتها كما هي، ونيئة... دسدست الآنسات الصغيرات.. شربت كل ما كان معروضاً على طرف المقعد، تلكم هدنة مع الحر!... لم يكن ذلك ليروي الظمأ... كان يزيد من الحرارة في الفم... كل شيء كان لاهباً، الهواء، وأثداء الآنسات... كنت سأتقيأ فيما لو تحركت من مكاني، فيما لو حاولت النهوض... ولكن ما من خطأ محتمل! ما عاد بإمكاني التحرك على الإطلاق... كان جفناي ملزوزين... ونظري ضبابياً.. وسرى في الهواء في تلك اللحظة لحن غنائي عذب... «أعلم أنك جميلة...»

بنغ! كا! را! كلا! كلاك! إنه المصباح، لمبة النور الكبيرة البيضاء انفجرت بضربة ساحقة بعد أن أصابتها حصاة مقذوفة بقوة من مقلاع يدوي! انتفضت الفتيات بهلع! وأطلقن صرخات حادة! أولئكم هم الفسقة الداعرون، لاطين في إحدى الزوايا المحتجبة، الماجنون، الخنازير، في الجانب الآخر من جدار الردم.. يريدون أن يعم الظلام أرجاء المكان... آه! الأوغاد السفلة.. انقلبت فوق الشخص الملاصق لي.. كان سميناً ذلك الخلد... يشخر شخيراً عالياً! هذا مقرف!..

حسن!.. كنت في وضع مؤات!.. سأنام على صوت شخيره!.. إنه يهدهدني!.. كنت أفكر في الحصول على جبنة الكممبر.. كانت جبنة سويسرية بالكريم... كنت أراها!.. كنت اشتهيها دائماً بقوة.. ما كان علي أن أدعها في العلبة!.. في العلبة.. كانت هناك.. ظلت هناك!.. شعرت كأن نسائم لفحت وجهي.. نام قالب الزبدة.. ينبغي أن يكون قد مضى عليه وقت طويل!.. ينبغي أن يكون أوانه قد فات أيضاً!.. مثل الجبنة!.. مثل الجبنة تماماً.

* * *

كنت أغط غطيطاً عالياً.. دون أن أزعج أحداً.. تدحرجت إلى قاع الوهدة العميقة وأسندت رأسي إلى جدار الردم..

هوذا مغفل يتسكع وسط دياجير الظلمة، خابطاً خبط عشواء.. اصطدم بجاري، فسقط فوقي.. وآلمني ألماً شديداً.. فتحت عيني قليلاً.. وأطلقت زمجرة وحشية.. نظرت هناك، نحو الأفق البعيد.. فلمحت الساعة الجدارية، ساعة محطة أورساي.. ذات العقارب الضخمة.. كانت الواحدة صباحاً.

يا للهول! هممت بالفرار تواً! انتزعت نفسي.. كانت امرأتان مسنتان تسحقانني من الجانبين.. دفعتهما عني بقوة.. كانتا تغطان في نوم عميق وتشخران شخيراً متواصلاً في قاع الوهدة.. كان علي أن أنهض.. أن أستجمع قواي من أجل العودة... لملمت بدلتي الجميلة... ولكنني لم أجد ياقتي المستعارة.. تعساً لي! كان علي أن أعود قبل العشاء! تفوه! ذلكم هو حظي العاهر! لم يكن الحر قد انحسر بعد! كنت ذاهلاً ذهولاً تاماً، ما عدت على الإطلاق مالكاً زمام نفسي! كنت أشعر بالخوف وكنت ثملاً! مخبلاً تماماً!... بهيمة عجماء!.

آه! تذكرت الطريق مع ذلك! تنكبت شارع سان هونوريه.. ثم شارع سانت روش الذي ينعطف إلى اليسار... ثم شارع غومبوست... سرت حينئذ بخط مستقيم. فوصلت إلى بوابة الباساج... لم تكن مغلقة بعد بسبب الحر.. كان الجيران جميعا هناك.. بقمصان خفيفة، كاشفين عن صدورهم، أمام حوانيتهم.. لبثوا جالسين في مجرى الهواء. يتجرجرون من كرسي إلى آخر، مفرشخين هكذا على عتبات الأبواب... لم تكن آثار السكر قد زايلتني بعد.. كنت أمشي مترنحاً، ينحو ظاهر.. عمت الدهشة أولئك الناس. لم يتفق لي قط أن سكرت من قبل، ولا هم رأوني كذلك في يوم من الأيام... وانهالوا علي بالسخرية من وقع المفاجأة!... «قل إذن، يا فرديناند؟ هل وجدت وظيفة؟.. هل تحتفل على طريقة الضفادع؟ ألم تصادف إذن سحابة؟... أم أنك رأيت زوبعة يا توتو؟...» سخافات في النهاية.. أما فيزيو الذي كان يطوي ستارة نافذته، فقد استوقفني وأخذ يكلمني بسرعة ودون توقف... "قل إذن، يا فرديناند، أمك نزلت عشرين مرة على الأقل، منذ الساعة السابعة، لتسأل إن كان أحد قد رآك؟ أقسم لك! كان منظرها فظيعاً جداً!... أين كنت مختفياً حتى الآن؟...".

أسرعت الخطا إذن صوب الدكان. لم يكن مغلقاً بعد.. كانت هورتنس تنتظرني في الممر الصغير... لا شك أنها بقيت هنا متعمدة...

«آه! لو كنت ترى والدتك! في أي حال هي! إنها تثير الشفقة! هذا مخيف! منذ الساعة السادسة وهي تبدو أشبه بالأموات... يقال بأن هناك شغباً حدث في حدائق التوبلري! وهي متأكدة بأنك كنت هناك!... خرجت أول مرة، بعد الظهر، حينما سمعت الخبر، ورأت في شارع فيفيان حصاناً جامحاً! وعادت محطمة القوى؛ أثار ذلك اضطرابها إلى حد بعيد!... لم أرها قط منهكة الأعصاب مثلما رأيتها

اليوم!»... كانت هورتنس ترتعش أيضاً وهي تروي لي الحادثة... كانت تمسح عرقها المتصبب على وجهها بوزرتها الكبيرة القذرة فتترك عليه بقعاً خضراء وصفراء وسوداء... تسلقت الدرج أربعاً أربعاً... وصلت إلى غرفتي... كانت أمي مستلقية على السرير، مضطربة أيما اضطراب، وقد فتحت أزرار قميص نومها.. ورفعت تنورتها حتى وركها.. كانت ما تزال ترطب ساقها بمناشف اسفنجية، وتعصر الاسفنجة بقوة فيقطر ماؤها على الأرض... «آه! انتفضت حين رأتني.. هاأنت هنا، مع ذلك!» كانت تصدقني في كل ما أهرف به...

«والدك غاضب جداً! آه! الرجل المسكين! ذهب إلى مركز الشرطة ليسأل عنك! أين كنت حتى الآن...».

في تلك اللحظة بالذات سمعت والدي، يخرج من المرحاض، ويصعد الدرج بهدوء. كان يحكم وضع حمالة بنطاله، ويضع ضماده حول دماملهِ... لم يوجه لي أية كلمة في البداية... بل تظاهر بأنه لم يرني.. توجه إلى آلته الطابعة.. وطرطق عليه بإصبع واحد.. كان يلهث مثل فقمة، ويجفف عرقه.. وبدا أنه يفور بالسخط حتى ليوشك على الاختناق... نهض من مكانه، ورفع المنشفة الاسفنجية المعلقة على المسمار... غسل وجهه بالماء الجاري ثم جففه... كان منهكاً!... عاد إلى الغرفة!... نظر إلي شزراً... بنحو منحرف.. ثم نظر إلى أمي أيضاً، ممددة فوق السرير... «غطي نفسك، هيا، يا كليمانس!...» قال لها بحنق.. كانت ساق أمي هي السبب دوماً.. هي التي ستفتح الحفل من جديد!... أشار إليها بإشارات كي تغطي جسدها! كان يظن بأنني أنظر إليها مكشوفة على هذا النحو. لم تفهم أمي ما يدور في رأسه.. كانت ساذجة كل السذاجة.. ومم عساها أن تستحيي؟... رفع ذراعيه نحو السماء.. تملكه الحنق، وأخذ منه كل مأخذ! كانت حاسرة الثياب

حتى بطنها.. أنزلت تنورتها أخيراً.. وغيرت قليلاً من وضعيتها.. وأسندت ظهرها إلى المخدة... وددت أن أقول كلمة.. شيئاً ما كي ينجاب التوتر قليلاً... سأتحدث عن الحر.. تناهى إلينا مواء القطط وهي تتعارك.. هناك بعيداً عند الكوى الزجاجية في أعلى المبنى.. كانت تعدو وراء بعضها... وتثب فوق الهوى بين المداخن العالية...

تسربت إلينا نسمة خجولة، عليلة حقاً!... المجد لله!... «هذا قد حل فصل الأنسام اللطيفة؟... علّقت أمي على الفور.!... أيه حسناً! يا إلهي! لقد جاء في أوانه!... أنت ترى، يا أوغست، بأنني، ومن خلال آلام ساقي أعرف بأن السماء ستمطر!... لا يمكن أن أكون مخطئة!... إنه الألم ذاته دوماً.. فهي تخزني تحت إليتي... تلك هي العلامة الأكيدة، إنها لا تخطئ قط.. هل تسمع، يا أوغست، إنه المطر!...».

- آه! اصمتي إذن قليلاً مع ذلك! دعيني أعمل! تباً! ألا تستطيعين إذن أن تكفي عن الثرثرة!.

- ولكني لم أتكلم، يا أوغست! الساعة الآن قريبة من الثانية، هيا، يا صغيري! ونحن لم ننم بعد!.

- ولكنني أعلم ذلك جيداً تباً للمواخير! تباً للجثث! للأسف! ولكنني أعلم جيداً بأنها الساعة الثانية! هل هي غلطتي أنا؟.. ستدق الساعة الثالثة! طز! ثم الرابعة! ثم السادسة والثلاثين! ثم الثانية عشرة !». تباً للرعود! تباً للخراء! هذا قاتل! وأنتم تزعجوني ليل نهار؟.. هذا غير محتمل في النهاية!... وانهال حينئذ على آلته بضربة ساحقة من قبضته... والشرر يتطاير من عينيه... ثم وجه هجومه نحوي... وسلقني بألسنة حداد: «آه!» بدأ هجومه على هذا النحو.. زاعقاً في وجهي.. ما وسعه الزعيق، وجعل يخطب مفخماً كلماته... «أنتم

تزعجوني جميعاً! هـل تـسمعوني؟... هـذا لا شـك فيـه! وأنـت أيهـا الفاسق الصغير القذر! أيها السافل العديم الشرف! أيـن كنـت تتـسكع كل هذا الوقت؟ من الـساعة الثامنـة صـباحاً؟ قـل إذن؟ هـل تريـد أن تجيبني؟ قل لي إذن؟ قل، تباً لك!..».

لم أجب بشيء في البداية...تذكرت حينئذ، دفعة واحـدة، الأشـياء التي اشتريتها.. صحيح فعلاً أنني لم أجلب معي شيئاً منها! آه! تفـوه! أية ورطة!...

لقد غرب عن بالي الجامبون! كنت قد نسيته تماماً.. وفهمت حينئذ إيقاع الهجوم! تعساً لي! «ونقود أمك؟... ومدخراتك؟.. مـاذا تقـول؟ آه! آه!» وبدا متهللاً!... «أنت ترين يا كليمانس! نتـائج تـصرفاتك!... ترين ثانية ما الذي فعلته.. بتهاونك الأحمق! بغبائك المطبـق.. تعطـين أسلحة لهـذا الـسوقي الـداعر! تعطينـه ثقتـك العميـاء!... سـذاجتك الخرقاءَ... تسلمينه النقود!.. تعهدين له بكـيس نقـودك؟... أعطـه إذن كل شيء!...أعطه المنزل!... لمـاذا لا؟.. آه! آه! سـيخرى في يـدك! آه! آه! لقد شرب كل ما نملك! التهم كـل مـا بحوزتنـا!.. إنـه يفـوح برائحة الكحول! إنه سكران، إنه مصاب بالسفلس والـسيلان! سـينقل إلينا الكوليرا! حينئذ ستكونين سعيدة!.. آه! إيه حـسناً، سـتجنين كـل الثمرات! أنت نفسك، هل تسمعينيّ!... ابنك النتن، أنت أردته هكـذا احتفظي به إذن! لك وحدك؟ تبعاً للعاهرات! لماخور الأقذار!..

وما برح يستشيط أكثر فأكثر.. ويوغل في الصراخ والشتائم، منفـساً كل مكنونات غضبه!.. ثم فك أزرار قميصه.. وعرى صدره...

«سـحقاً! ولكنـه نـذل حـتى نخاعـه؟ لـن يردعـه أي شـيء علـى الإطلاق!.. سيكون عليك أن تعـرفي مـع ذلـك!..سـيكون عليـك أن

لا تسلميه شيئاً على الإطلاق!... ولا حتى سنتيماً واحداً! ولا قرشاً واحداً، أكدت عليك ذلك خمس عشرة مرة! عشرين مرة! مئة ألف مرة!... ومع ذلك، فأنا مضطر إلى أن أكرر عليك ذلك! آه! كم أنت عصية على الإصلاح.

ثم قفز من فوق مقعده. ودنا مني عامداً، ليشتمني في وجهي... اجتاز أيضاً كل قطع الأثاث، فانتثر رشاش لعابه فوق وجهي. كان منتفخ الأوداج، يفجر حمم غضبه فوق رأسي.. كانت تلك ذروة عاصفته.. رأيت عينيه أمام أنفي تماماً... كانتا مضطربتين على نحو غير مألوف.. تتدحرجان داخل محجريهما.. كانت العاصفة قد احتدمت بيني وبينه هذه المرة.. كان يفأفئ بشدة تحت تأثير غضبه المسعور، مطلقاً رشاشاً من بصاقه.. أغرقني! وشوش بصري، وتولاني الذهول... ولفرط ما كان يختلج فقد انتزع ضمادات عنقه.. كان يقرع الأرض بقدميه دون توقف.. معترضاً طريقي كي يذلني حتى النهاية... ثم أمسكني من تلابيبي.. فدفعته حينئذ بعنف كي أبعده عني.. كنت مصمماً على أن لا يمسني الرجل القذر.. أربكه ذلك لحظة.

- آه! إذن؟ قال لي هكذا.. آه! انظر! لو لم أكن متمالكاً نفسي!..

- هيا! قلت له... شعرت بأن الموقف قد استفحل..

- آه! النذل الصغير! أنت تتحداني؟ القواد الصغير! القذر الصغير! انظر إلى هذه الوقاحة! إلى هذا العار!. هل تسول لك نفسك سفك دمنا؟ هيه؟ ألست تريد هذا فعلاً؟ قلها إذن في الحال! السافل الصغير! الوغد الصغير!... بصق كل تلك الشتائم في وجهي.. ثم عاد إلى تعزيماته.

- تباً! ولعنة! ماذا فعلنا يا بنيتي كي ننجب مثل هذه الحشرة؟ القاتلة مثل ست وثلاثين مشنقة!.. الخبيث! الحقير! التنبل! وكل شيء! يا له من داهية نكباء! لا يصلح لشيء! إلا لسلبنا! وابتزازنا! وتمزيقنا دون رحمة!.. هو ذا العرفان بالجميل! لحياة حافلة بالتضحيات! لوجودين، مسحوقين تحت وطأة القلق! وجودينا نحن الأحمقين! نحن الأبلهين القذرين دائماً! نحن دائماً!... عجباً، قلها مرة أخرى! أيها السرطان المتوحش، قلها إذن! قلها حالاً، بأنك تريد أن تهلكنا!... تهلكنا حزناً! وبؤساً! حتى أسمعك قبل أن تجهز علي! قل أيها الصعلوك القذر!».

عيل صبر أمي حينئذ، واستجمعت قواها، وهرعت نحونا تحجل على ساق واحدة، عازمة على أن تعترض بيننا.

«أوغست! أوغست! أصغ إلي، هيا! أصغ إلي! أتوسل إليك! هيا يا أوغست! ستورد نفسك مورد الهلاك! هلا فكرت بي، يا أوغست! هلا فكرت بنا! سيتكالب عليك المرض! وأنت يا فرديناند! انصرف من هنا يا صغيري! اذهب إلى الخارج! لا تبق هنا!.. لم أتزحزح من مكاني بوصة واحدة.. كان هو الذي جلس...

جفف عرقه، وشرع ينخر!.. ثم هوى بيده فوق ملامس آلته، ضربة، ضربتين في البداية.. وأطلق من جديد خواراً عالياً.. والتفت إلي، وصوب إصبعه نحوي، بطريقة احتفالية...

«آه! انظر جيداً! يمكنني أن أعترف بهذا الآن! لكم أنا شديد الأسف! كم كنت أفتقر إلى القوة! كم أنا آثم جانٍ لأنني لم أؤدبك بما تستحق من القسوة تعساً لي! لم أهذبك! حينما كان ذلك ما يزال ممكناً! حينما كنت في الثانية عشرة، وليس بعد، كان حرياً أن ألجمك

بقوة! أن أحبسك بصرامة! آه نعم! وليس فيما بعد، ولكن كانت تنقصني العزيمة!.. كان علي أن أسجنك في الإصلاحية... هو ذاك! حيث كنت ستذوق هناك الذل والقهر.. ولن نكون قد وصلنا إلى ما وصلنا إليه في النهاية!... أما الآن، فإن اللعبة قد انتهت!.. وطوح بنا القدر! بعد فوات الأوان! بعد فوات الأوان! هل تسمعيني يا كليمانس؟ بعد فوات الأوان بوقت طويل! هذا الفاسق العصي على الإصلاح!... إنها أمك التي منعتني من ذلك ستدفعين الثمن الآن، يا ابنتي!».

وأشار لي نحوها وهي تعرج، أنّةً شاكية وسط الحجرة. «إنها أمك! نعم، إنها أمك! ما كنت لتصل إلى هذا الحد، اليوم، لو كانت قد أصغت إلي... آه تباً للدم الزكي! آه! يا ماخور الآلهة.

وأهوى ثانية على آلته.. بضربتين من كلا قبضتيه.. من المؤكد أنه سيدمرها تماماً. «هل تسمعيني يا كليمانس؟ هل تسمعيني؟ قلت لك بما فيه الكفاية!... حذرتك مراراً؟ كنت أعرف بأن هذا سيحدث يوماً!».

كان على وشك الانفجار من جديد.. وقد عاوده السخط ثانية، وانتفخ مرة أخرى في كل مكان من جسده، ولا سيما رأسه وعينيه. وتدحرجت حدقتاه في محجريهما..! ولكن أمي ما عادت متماسكة فوق ساقها لفرط تعثرها في كل مكان، كانت مضطرة إلى أن تتسلق سريرها ثانية.. استرخت قليلاً.. وحسرت كل ثيابها الداخلية والخارجية، كاشفة عن سائر فخذيها، وعن أسفل بطنها.. كانت تتلوى من الألم.. تكومت هكذا بهدوء.. وانثنت على نفسها..

- آه! ولكن هيا! غطي جسدك! غطي جسدك إذن، هذا مقزز..

- آه! أرجوك! أرجوك! أتوسل إليك، يا أوغست! ستجعلنا جميعاً مرضى!.. كانت منهكة كل الإنهاك.. ولم تعد تفكر في شيء على الإطلاق.

ـ مرضى؟ مرضى؟.. اخترقته هذه الكلمة مثل صاروخ! كان لها فعل السحر!... ايه حسناً! يميناً! لقد طفح الكيل! وأطلق ضحكة مجلجلة... كان ذلك أشبه بكشف!.. علا صراخه ثانية.. «ولكنه هو! ألا ترين إذن، قولي أيتها الساذجة؟... ولكنه هو، هذا اللص الصغير.. ولكنك، قسماً بالرب، ستدركين في النهاية بأن هذا الوغد الجهنمي هو الذي جعلنا جميعاً مرضى هنا! هذه الأفعى الكريهة! لكنه هو الذي يريد إزهاق أرواحنا! إنه يترصدنا دائماً! يريد إرسالنا إلى القبر! إنه يريد ذلك!... نحن نزعجه! لم يعد حتى يخفي ذلك! يريد أن يقتلنا نحن العجوزين!... هذا واضح كل الوضوح! ولكنه جلي كالشمس! وبأسرع وقت ممكن أيضاً! هذا لا يصدق! ولكنه مستعجل. إنه ينظر بطمع إلى قروشنا الأربعة البائسة! إلى قوتنا الهزيل؟ ألا ترين إذن أي شيء؟ ولكن نعم! ولكن نعم! إنه يعرف ما يفعل، النذل! يعرف ذلك جيداً! القذر الصغير! جالب المصائب! الشرير الصغير! عيناه ليستا في جيبه! رآنا نذوي! إنه فاجر بقدر ما هو خبيث! يمكنني أن أقول هذا لك! فأنا أعرفه إن كنت لا تعرفينه. من العار أن يكون ولدي!...

اجتاحته الرجفة ثانية، كان كل هيكله يرتج وقد خرج عن طوره... وتشنجت قبضتاه.. كان مقعده بكامله يطقطق تحته ويتراقص.. تكور على نفسه، وها إنه سيقفز نحوي من جديد.. ويعاود النفخ في أنفي، شتائم أخرى.. ودائماً أخرى... شعرت بالأشياء تعلو وتعلو، والحرارة أيضاً.. وضعت راحتي كلتيهما فوق رأسي.. رأيت كل شيء غريباً، دفعة واحدة!.. ما عدت أريد أن أرى.. وما هي إلا قفزة واحدة قفزتها.. حتى صرت فوقه!... حملت آلته، الثقيلة، الباهظة الوزن.. رفعتها في الهواء، و، بلاك!.. أفرغت كل ما فيها فوق رأسه! لم

يسنح له الوقت ليتفادى الشلال!.. وقع تحت الزوبعة المدومة، ! انقلب كل شيء رأساً على عقب!.. الطاولة، والرجل الطيب، والكرسي، كل عدة العمل طارت وزوبعت... ثم سقطت جميعها فوق البلاط... منتثرة في كل مكان.. ثم انخرطتُ في الرقص... ترنحتُ يمنة ويسرة، وما برحت أحطم كل ما أمامي... ما عاد بوسعي أن أكبح نفسي.. كان لا بد من ذلك، من أن أضع حداً لهذا الوغد القذر! بوواك! سقط فوق الركام... سأحطم فمه!... ما عدت أطيق أن أسمعه يتكلم!.. سأشق رأسه بكامله.. شرعت أدقه بالأرض.. كان يصيح.. ويخور خواراً عالياً.. لا بأس! كانت أصابعي تنبش في لحم عنقه.. فيما كنت جاثياً على ركبتي فوقه... فاصطدمت بضماداته، أمسكت عنقه بكلتا يدي، ورحت أشد، وأضغط. كان يحشرج، ويلبط برجليه... ضغطت أكثر... كان منظره مقززاً... وأطلق نعيقاً حاداً. كنت أهرسه تحتي.. أخنق أنفاسه... فيما أنا مقع فوقه... تغوص يداي في لحمه المترهل.. يداي أنا.. وسال لعابه بغزارة.. أمسكت شاربيه... نتفت خصلة كبيرة منهما.. فعضني، القذر!.. اندفعت أصابعي تنبش في فتحات وجهه... فتدبقت كلتا يديّ... وانزلقتا.. تشنج جسده كلياً... وامتدت أصابعه نحو عنقي، والتفت عليه بضراوة... وضغط بكل قوته على فم حنجرتي.. فضغطت أنا أيضاً، ودققت رأسه ببلاط الأرضية.. فارتخى... وخارت قواه كلياً... كان ممددا كالجثة تحت ساقيّ... كان يمص إبهامي.. ثم ما عاد يمصه... تباً! رفعت رأسي في تلك اللحظة... فرأيت وجه أمي يكاد يلامس وجهي.. كانت تحدق بي... عيناها جاحظتان، تكادان أن تخرجا من محجريهما... وقد اتسعت حدقتاها اتساعاً هائلاً حتى لم أعد أعرف أين موقعهما!... أفلتّ الجسد الممدد تحتي...برز رأس آخر من فوق الدرج... كانت

تلك هورتنس!... تطل من إحدى زوايا الدرج... إنها هي بالتأكيد! لا مجال للشك!. كانت هي! أطلقت صرخة مدوية... «النجدة! النجدة!» تمزقت حنجرتها وهي تصرخ.. أثارني صراخها حينئذ.. أفلتَ عجوزي... ووثبت نحوها وثبة واحدة.. وإذا أنا فوقها!... سأخنقها أيضاً! سأرى كيف تلبط! تخلصت مني.. لطخت وجهها بيدي الدبقتين.. أغلقت فمها براحتي.. فانفجرت دماملها، وسال الدم والقيح بغزارة على وجهها.. حشرجت بقوة أكثر من البابا.. ثبّتها بالأرض.. فتشنج جسدها.. كانت قوية... أردت أن أضغط أيضاً على حنجرتها... يا لهول المفاجأة... شعرت كما لو أن عالماً بكامله، غير مرئي، كان يرتج بين يدي... ذلكم هو الحياة!... كنت أحسُّ بها وهي تختلج... دققت راسها بالدرابزين... فاصطدم بقوة... وسال الدم ثانية من شعرها... كانت تعوي! لقد شج رأسها! أدخلت إصبعاً كبيراً في عينها... ولكنني لم أفلح في الإمساك بها بإحكام. كانت تنفلت من بين يديّ... ثم قفزت بعيداً عني، وولّت هاربة... كانت قوية.... تعثرت من طابق إلى آخر... وتناهى إلي عواؤها من الخارج... كانت تؤلب الناس علي... زاعقة زعيقاً حاداً «إلى القاتل! إلى القاتل!...» ثم سمعت الأصداء.. سمعت العجيج المصطخب. ها هي ذي الجموع مندفعة كالسيل.. تهرع مسرعة نحو الحانوت، يتعالى هديرها في أسفل الدرج، كانوا يدفعون كل ما يعترض طريقهم في كل طابق... اجتاحوا المكان... سمعت إسمي يتردد على ألسنتهم... ها هم أولاء غير بعيدين!... كانوا يتداولون الأمر في الطابق الثاني... ألقيت نظرة... وانبجس أحدهم أمامي، إنه فيزيو! كان أول من دخل الحجرة... بقفزة واحدة من الدرج... انتصب أمامي بثبات، متربصاً، صارخاً، مصمماً... مسدداً مسدساً إلى صدري... وراح الرجال

الآخرون يدفعونني من الخلف، وقد أحاطوا بي، كانوا يصرخون في وجهي، ويهددون... ويتوعدونني بالويل والثبور، ويقذفونني بالشتائم... كان العجوز ما يزال مغشياً عليه.. منهاراً فوق أرض الغرفة، يسيل من تحت رأسه خيط صغير من الدم.. لقد أُفرغ غضبي الآن واستعدت سكينتي، ما عدت أبالي بشيء.. انحنى فيزيو فوق الجسد الممدد، فنخر أبي وحشرج قليلاً.

كان الضواري الآخرون ما ينفكون يدفعونني، ويجرونني، كانوا هم الأقوى... لم يكن لشراستهم حد.. قذفوا بي من فوق الدرج... دون أن يصغوا حتى لتوسلات أمي... أدخلوني عنوة إلى الغرفة السفلية... وأثخنوني بالضرب، كانت الضربات تنهال عليَّ من كل حدب وصوب.. ما عدت أقاوم... كانت الضربات تهوي عليَّ من الجميع، وعلى الأخص فوق خصيتيّ..... لم يعد بمقدوري الرد.. كان فيزيو أشدهم قسوة!.. وأصابتني ركلة حذاء في بطني.. فترنحت... لم أنحن.. لبثت واقفاً هناك، ملتصقاً بالجدار... ثم انصرفوا عني.. بعد أن بصقوا في وجهي.. وأغلقوا علي الباب بالمفتاح.

بعد انقضاء لحظة... وأنا وحيد على تلك الحال. اجتاحتني رعدة قوية، صار جسمي كله ينتفض، يداي.. وساقاي... ووجهي.. وكل مكان في داخلي.. وداهمني اضطراب فظيع... رعب شديد سرى في أعماقي، شعرت كما لو أن كل ما في جسمي يتفكك، يتحول إلى مزق... كنت أرتجف كريشة في مهب العاصفة، يرتج كياني بكامله وتصطك أسناني.. كنت منهوكاً خائر القوى!... وتشنجت فتحة إستي... فتغوطت داخل بنطالي... كان قلبي يقفز في صدري قفزات سريعة جداً، حتى ما عدت أسمع جلبتهم في الخارج... وما الذي

انتهوا إليه.. كانت ركبتاي تصطكان... تمددت على الأرض.. لم أعد أعرف شيئاً مما يدور حولي... وشلّني الخوف.. فهممت بالصراخ.. ألم أقتله مع ذلك؟ طز! سيان عندي، ولكن فتحة إستي كانت تتغلق وتنفتح.. إنه التشنج.. كان هذا مريعاً...

عدت بتفكيري إلى أبي... كان جسمي يرشح بعرق بارد من أثر العراك... لقد مرغت أنفه... تجرأت على ذلك.. تملص مني الرعديد!... لم أضغط بقوة... ما كنت أعتقد أنه بهذا الضعف، بهذه الرخاوة... كان ذلك مفاجئاً لي... كنت مندهشاً... كم كان من السهل شدُّ وثاقه... وفكرت كيف كانت يداي تمسكان به، أصابعي... تذكرت لعابه.. وكيف كان يمص إصبعي.. ما عدت قادراً على التوقف عن الارتعاش... كان لحمي كله يرتعش... وفكاي يصطكان.. أصدرت أنيناً طويلاً! شعرت الآن بكل ألم الضربات العنيفة التي وجهها إلي الأجلاف القساة... استحوذ علي خوف لا يحتمل!... كانت فتحة إستي أكثر ما يؤلمني، لم تعد تتوقف عن التشنج والانقباض... كان ذلك مغصاً فظيعاً لا يحتمل.

* * *

في الغرفة المغلقة بالمفتاح، حيث كنت ممدداً فوق البلاط، لبثت ارتجف وقتاً طويلاً، كنت أتعثر في كل مكان.. اصطدمت بالخزانة، فأحدثت ضجيجاً كضجيج الصنوج... ما كنت أعتقد قط أن بإمكاني الثبات وسط عاصفة مثل هذه العاصفة... طرق سمعي ارتجاجات عنيفة... قفزت مثل جرادة بحرية... كان الصوت صادراً من أرضية الغرفة العليا... «لقد صرعته!» قلت لنفسي... كنت أزداد يقيناً بذلك أكثر فأكثر، ثم سمعت وقع خطوات بعد لحظة... صوت أشخاص يتناقشون بصخب...كانوا يدفعون السرير في الأعلى...

«انتهى الأمر! ها هم ينقلونه..» ثم ما لبثت بعد لحظة أن سمعت صوته.. صوت أبي!.. كان دائخاً فقط! «كان علي أن أحطم رأسه! سيهلك عما قريب!..» بدأت أفكر على هذا النحو.. ولكن هذا سيكون أسوأ أيضاً... كان ممدداً على سريري... كنت أسمع نوابضه... وأخيراً ما عدت عرفت أي شيء. فقد شعرت في تلك اللحظة بالغثيان.. وبدأت الإقياء... كنت أضغط بقوة كي أسهل خروج كل ما في معدتي.. أراحني هذا كثيراً... أفرغت كل ما في جوفي.. وعاودتني الرجفة.. كانت ساقاي تهتزان لفرط ما كانت الرجفة شديدة.. ما عدت أعرف من أنا.. كنت مدهوشاً أنا نفسي.. تقيأت المعكرونة... استأنفت من جديد، كان الإقياء غزيراً جداً هذه المرة، كما لو أن كل أحشائي على وشك أن تخرج... وفي كل مكان من أرض الغرفة أفرغت كل ما أمكنني إفراغه... كنت أضغط مقلصاً بطني.. طويت جسدي نصفين كي أقيء أكثر أيضاً، وأخرج البلغم بعد ذلك، ثم الرغوة.. كل ذلك كان يسيل... وينتشر حتى أسفل الباب.. تقيأت جميع ما تناولته من طعام خلال الأيام الثمانية السابقة على الأقل، بالإضافة إلى الإسهال الذي لم يتوقف.... لم أكن راغباً في أن أنادي أحداً لإخراجي.. جررت نفسي حتى الإبريق القريب من الموقد.. تغوطت داخله.. ثم فقدت توازني.. كان رأسي يدور دونما توقف.. وانهرت من جديد، مطلقاً كل شيء فوق البلاط... لم يكن الإسهال قد توقف، كان ذلك فيضاً من مرملاد...

لا ريب في أنهم سمعوني أتخبط.. جاؤوا وفتحوا الباب... القوا نظرة إلى داخل الغرفة... وسرعان ما أغلقوها من جديد.. وبعد عشر دقائق ربما، كان الحال إدوارد هو الذي دخل... كان وحده بالتأكيد... لم أكن قد رفعت سروالي.. كنت هكذا وسط القيء

والخراء... لم يكن خائفاً مني بالتأكيد... «إرفع بنطالك الآن! قال لي.. هيا انزل أمامي، سأرافقك...» كان ينبغي أن يمد لي يـده... لم أسـتطع أن أزرر ثيابي لفرط ما كانت كل أوصالي ترتعش... فعلت أخيراً مثلمـا قال لي.. مررت أمامه كي أنزل... لم يعـد أحـد فـوق درجنـا، ولا في الدكان أيضاً. كان الجميع قد انصرفوا... لا شـك في أنهـم عـادوا إلى بيوتهم... كان لديهم ما يتندرون به...

في الأعلى، تحت الكوة الزجاجية، كانت عقارب الساعة تشير إلى الرابعة والربع... كان الفجر قد بزغ.

عند نهايـة الباسـاج، أيقظنـا الحـارس الليلـي، ليفـتح لنـا البوابـة الحديدية. «أنت تصطحبه معك إذن؟» سأل الحارس خالي...

- نعم! سينام عندي!...

- إيه حسناً! ليحالفك الحظ، أتمنى لك الصحة الطيبـة يـا سـيدي العزيز! لديك الآن إحدى العجائب الجميلة!... أجاب الحارس.

وأغلق وراءنا البوابة بإحكام، ثم عاد إلى كوخه. كان ما يزال ينادي من بعيد، «آه تباً! إنه رطب كما أرى!».

سلكنا أنا وخالي شارع البيراميد... ثم اجتزنـا حـدائق التـوبللري... وحينما بلغنا البونت رويال، كنت ما أزال أرتعش.... لم يـدفئني هـواء النهر... حينئذ، وفيما نحن نتقدم، روى لي الخال ادوارد كيف جاؤوا يبحثون عنـه... كانـت هـورتنس كمـا يبـدو... كـان نائمـاً... لم تكـن الضاحية التي يسكنها قريبة... كانت أبعد من الأنفاليد. خلف المدرسة العسكرية... لم أكن أجرؤ على سؤاله عن تفاصيل أخرى... كنا نمـشي مسرعين جداً... ولم أتمكن من أن أبعث الدفء في أوصـالي... كانـت أسناني تصطك دونما انقطاع...

«أبوك بخير! أفضى إلي في لحظة من اللحظات... ولكنه سيبقى نائماً، بالتأكيد، يومين أو ثلاثة... لن يذهب إلى المكتب... وقد زاره الدكتور كابرون..» هذا كل ما قاله لي.

عبرنا شارع باك ثم انعطفنا إلى اليمين حتى الكامب دومار... كان بيته بعيداً جداً... وصلنا أخيراً... ها هو ذا!... أشار إلى مسكنه، منزل صغير في طرف حديقة من الحدائق... في الطابق الثاني من أحد المباني... لم أكن أجرؤ على التشكي من التعب... ولكنني، مع ذلك ما عدت متماسكاً فوق قدمي. تعلقت بدرابزين الدرج... كان النهار قد طلع الآن وتبددت الظلمة كلياً... عاودتني نوبة غثيان حينما بلغنا طابقه. نوبة عنيفة! قادني بيده إلى المرحاض... لبثت أتقيأ وقتاً طويلاً... كانت النوبة تعود ثانية... ثم أخرج من خزانة الحائط سريراً مطوياً، وانتزع فرشة من سريره، نصب السرير في غرفة أخرى... وغطاني أيضاً بغطاء صوفي.. استرخيت فوق السرير.. جردني من ثيابي.. بصقت أيضاً سيلاً من البلغم... نمت محطماً في النهاية... كنت أرزح تحت وطأة كابوس... ولم أنم إلا وأنا أنتفض كالذبيح...

***

لم أعلم قط شيئاً عن الطريقة التي سوّى بها الخال إدوارد الأمر بيني وبين أبي... والتي جعلته يتركني بسلام، ويكف عن عزمه على الانتقام مني... أعتقد، على الأرجح بأنه قد أقنعه بالتخلي عن نيته في تأديبي عبر إرسالي إلى روكيت (إصلاحية الأحداث) لأن ذلك لم يكن باعثاً على الطمأنينة. لأنني لن أمكث هناك ربما وقتاً طويلاً.. بل ربما سأهرب فور وصولي.. بنية العودة إلى الاصطدام به.. وحينئذ، فإنني في هذه المرة سأقتله وأصفي حسابي معه. أخيراً تدبّر خالي الأمر!... ولم يفاتحني بما جرى... ولم أسأله أنا أيضاً عن ذلك.

كان مسكن الخال ذا موقع مثالي رائع... كان طلقاً، بهيجاً.. مطلاً على حدائق شارع الفوغيرارد، وشارع موبلانك... اصطفت أمامه وخلفه مواكب من شجيرات ورد صغيرة، ومباقل مخضوضرة... كانت زهور العسل تتسلق واجهات المباني، وتلتف حول النوافذ... لكل واحد حديقته المربعة الصغيرة، تغطيها أغراس الفجل، والبقلة والبندورة... وعرائش الكرمة... ولكنني كنت واهناً وهناً شديداً، كما لو كنت أنهض من مرض عضال.

المهم أنني وجدت نفسي، بمعنى ما، في حال أفضل مما كنت عليه، لم أعد أشعر على الإطلاق، بأنني ملاحق في منزل الخال إدوارد.

بدأت أتنفس من جديد..

كانت جدران غرفته مزينة بمجموعات من البطاقات، مثبتة بأشكال مروحية، أو على هيئة لوحات جدارية، أو شرائط تزيينية... «ملوك الطيران»، «ملوك الدراجات»... كان يشتريها كيفما اتفق، عازماً على أن يشكل منها، في النهاية، بساطاً موشى يغطي الجدران كلها...

لم تكن الحياة سيئة عند خالي... كنا نتدبر أمورنا على خير ما يرام... حين يعود خالي من أشغاله، ومن ألف مسعى من أجل تسويق المنفاخ الذي ابتكره، كان يحدثني عن المباريات الرياضية... كان مطلعاً على جميع المنافسات... ملماً بكل نقاط ضعف الأبطال الرياضيين، وحركاتهم المضحكة، وحيلهم... كنا نتناول غداءنا وعشاءنا فوق مشمع صغير، نعد الطعام سوياً.... نتحاور طويلاً بتفاصيل، وحظوظ جميع أبطالنا الأثيرين...

في أيام الأحد. كنا نطفح بالنشاط والبهجة... ففي حوالي الساعة العاشرة صباحاً كنا نصل مبكرين إلى معرض الآلات الكبير... كنت

أشعر بمتعة فريدة وأنا أجيل طرفي في محتوياته... ولا نبرح نتجول في أرجائه... دون أن نشعر بالملل ثانية واحدة... كان الخال ادوارد يمشي بخفة ونشاط من بداية الأسبوع حتى نهايته... كان أشبه بسنجاب أيضاً... كان موضوع منفاخه ما يزال يراوح مكانه، ولم يتقدم بعد كما يشتهي... كان يعاني الكثير من الضجر والضيق بسبب شهادات التسجيل والعقود... ويجد مشقة كبيرة في فهم التعقيدات... وعلى الأخص تلك التي تأتي من أمريكا... غير أنه لم يكن يفضي لي بشيء أبداً، سواء أكان مزاجه حسناً أم سيئاً... لم يكن يتحدث عن مشاعره على الإطلاق... وكنت أقدر له ذلك بالغ التقدير... وبانتظار حل مشكلتي، كان يستضيفني في بيته. كنت أقيم في غرفته الثانية. كان مصيري معلقاً، فوالدي لم يعد يرغب في رؤيتي ثانية... ولم يكف عن غمغمته وهذره... ما كان يريده هو أن ألتحق بالخدمة العسكرية. ولكنني لم أكن قد بلغت سنّ الخدمة... كنت أعرف نتفاً عن ذلك... ما كان الخال يحب أن يخوض في الحديث عنه.. كان يفضل التحدث عن الألعاب الرياضية، عن منفاخه، وعن الملائكة، وعن أدوات المطبخ... وعن أي شيء لا على التعيين... كانت الموضوعات الشائكة تزعجه... وتزعجني أنا أيضاً...

مع ذلك، فقد علمت أن أمي، كانت قد غدت أكثر ثرثرة... كان ينقل إلي، على هذا النحو، بعض أخبارها... لم تعد قادرة على المشي أبداً... لم أكن حريصاً جداً على اللقاء بها ثانية... ما ذا عسى يفيد ذلك؟ كانت تردد الأشياء ذاتها دوماً... وأخيراً مرَّ الزمن... أسبوع، ثم أسبوعان، ثم ثلاثة أسابيع... ما كان من الممكن أن يستمر الوضع طويلا... لن يكون بوسعي أن أستقر هنا إلى الأبد... كان الخال لطيفاً.... ولكن السؤال بوجه التحديد... كيف سأعيش حينئذ؟

أظل عالة عليه؟... لم يكن هذا معقولاً.. ألمحت إلى ذلك بتلميحات خاطفة... «سنرى فيما بعد!» أجابني... ما كان مستعجلاً على الإطلاق... بأن يشغل نفسه بذلك...

علمني حلاقة ذقني. كان لديه أسلوب خاص، حاذق وعصري. كان يشرح لي كيف يحرك الشفرة صعوداً وهبوطاً، وفي كل الاتجاهات، ومتى ينبغي تغيير الشفرة. كنت أنا من يعد المائدة، ويحضر المؤن من السوق... لبثت على هذا النحو من الكسل والانتظار شهراً ونصف الشهر تقريباً، مسترخياً مثل فتاة... لم يحدث لي قط هذا من قبل.. كنت أهتم أيضاً بآنية المائدة... لم تكن بحاجة إلى الكثير من المسح والتنظيف.. وبعد ذلك، كنت أتنزه كما يحلو لي!... كان هذا أمراً لم أعتده سابقاً.. ما كان لدي هدف أسعى إليه... لا شيء سوى التنزه والاستمتاع.. كان الخال إدوارد يكرر على مسامعي، كل يوم، قبل خروجه، «هيا تنزه! هيا إذن يا فرديناند! اذهب حيث تقودك قدماك... لا تهتم بالباقي.. اذهب حيثما تجد المتعة والسرور!... إذا كان لديك مكان خاص، فاذهب إليه! هيا إذن! اذهب حتى حديقة اللكسمبورغ إذا شئت!... آه! لو لم أكن مشغولاً جداً... فسأذهب لمشاهدة مباراة التنس... كم أحب لعبة التنس... استفد إذن قليلاً من الشمس... أنت لا تشاهد أي شيء، أنت مثل والدك!...» كان يلبث صامتاً لحظة... دون أن يبدي حراكاً... ممعناً في التفكير.. ثم يضيف... «لا تتعجل العودة.. سأتأخر قليلاً هذا المساء...» أعطاني أيضاً بعض القروش، ثلاثين قرشاً، وفرنكين اثنين... «ادخل إذن إلى السينما.. أو امض إلى البوليفارات إن شئت... أنت تحب القصص كما يبدو لي...».

كان سخاؤه علي بهذا النحو، وإصراره على إبقائي تحت جناحه قد غدا مكدراً لي.. ولكنني لم أكن أجرؤ على الإيغال في تعليل ذلك... كنت أتوجس خيفة من استيائه.. منذ بدأت هذه الكوميديا وأنا أتحوط بشدة للنتائج... سأنتظر إذن قليلاً كي تنجلي الأمور من تلقاء ذاتها... ولكي لا أسبب مزيداً من النفقات كنت أغسل جواربي وحدي أثناء فترة غيابه... كان بيته مؤلفاً من ثلاث غرف على صف واحد، ولكن كل غرفة بعيدة عن الأخرى. أما الغرفة الثالثة القريبة من الدرج فكانت مثيرة للفضول... كانت بمثابة صالون صغير... ولكنها خاوية تقريباً... طاولة في الوسط، وكرسيان، ولوحة وحيدة معلقة على الجدار. منسوخة عن الأصل، لوحة «انجيلوس» للرسام ميلليه، بحجم كبير. لم أر قط لوحة بهذا الاتساع، كانت تملأ الإطار العريض بكامله... «إنها جميلة، ما قولك، يا فرديناند؟» كان الخال إدوارد يسألني في كل مرة نمرُّ فيها أمام اللوحة، ذاهبين إلى المطبخ. كنا نمكث أحياناً بضع لحظات، نتأملها بصمت.. لم نكن نتكلم أمام «الأنجيلوس»... ليست هذه لوحة «ملوك الطيران» يا فرديناند!... إنها ليست لوحة للثرثرة!.

أعتقد أن الخال كان، في واقع الأمر، يفكر بينه وبين نفسه، بالتأكيد، بأن ذلك سيجعلني، على الأرجح، أعجب بمثل هذه التحفة الفنية. وأنه كان من قبيل العلاج لجفاء طبعي... وأنه ربما سيلطف من خشونتي... ولكنه لم يكن يلح أبداً... كان يقدر تقديراً عالياً الأشياء اللطيفة المرهفة... دون أن يتكلم عنها، هوذا كل شيء. لم يكن الخال إدوارد ميكانيكياً وحسب... ينبغي عدم الخلط في الأمور... كان ذا حساسية متناهية بالتأكيد.. لهذا السبب بالذات كنت أشعر بالكدر أكثر فأكثر... كان يؤرقني مزيداً من الأرق البقاء هنا مثل ضيف ثقيل يأكل من خبزه... مثل قرد وقح.. سحقاً!...كان هذا يكفي...

سألته مرة أخرى، غامرت بسؤاله، إذا لم يكن هناك مانع في أن أعاود السعي للبحث عن عمل... وأن أعود إلى قراءة الإعلانات... «إبق هنا إذن! قال لي... ألست سعيداً؟ هل تشكو من شيء يا صغيري؟ هيا إذن للتنزه فهذا يلائمك أكثر... لا تتدخل في أي شيء!... فأنا الذي سأجد لك العمل! إنني مهتم بذلك كل الاهتمام! دعني أعمل بهدوء! لا تحشر أنفك في هذا الموضوع! ما يزال في داخلك الكثير من الخوف يمكنك فقط أن تفسد كل شيء... أنت الآن بالغ التوتر! ثم إنني اتفقت مع والدك ووالدتك... اذهب وقم بالمزيد من النزهات.. لن يدوم هذا الوضع طويلاً بالتأكيد! إذهب نحو أرصفة الميناء حتى سوريسن! إركب القارب! غيّر الجو! ليس هناك أفضل من ركوب ذلك القارب! انزل إلى ميدون إن شئت! غيِّر أفكارك.. خلال بضعة أيام سأخبرك... سيكون لدي شيء رائع جداً أقوله لك!... أنا على يقين من ذلك!... ولكن ينبغي الابتعاد عن أي عنف.... وأنا آمل أن تثلج صدري!...

- نعم يا خالي!...».

***

لا يلتقي المرء في حياته بالكثير من الرجال من أمثال روجر مارين كورتيال دي بيريري... كنت ما أزال في تلك الفترة.. أعترف بذلك. أصغر بكثير من أن أقدِّر هذا الرجل حق قدره. وقد شاء حسن حظ الخال أدوارد أن تعرف عليه، ذات يوم في مكتب «الجينترون»، الصحيفة الدورية المفضلة (من خمس وعشرين صفحة) لصغار المخترعين والصناع في منطقة باريس... حينما كان يسعى حثيثاً للحصول على براءة اختراع لمنفاخه الأفضل من بين جميع منافيخ الدراجات، المحكم السد... والقابل للطي، والمرن، والقابل

للارتداد.

لا بد من التعريف، على الفور بكورتيال دي بيريري! ففضلاً عن أنه كان متميزاً بالتأكيد في أوساط صغار المخترعين. فقد كان مهيمناً على المنطقة التي تعج بصنوف المشتركين بالصحيفة... ذلك الخليط الزاخر بالمحبطين... آه! ولكن لا! فكورتيال روجر مارين لم يكن واحداً من هؤلاء! بل كان معلماً حقيقياً!... لم يكن الجيران من المخترعين وحدهم يقصدونه لاستشارته... بل إن أناساً كانوا يأتون من كل حدب وصوب: من السين، ومن سين أي واز، ومشتركين من المقاطعة، ومن المستعمرات، ومن الخارج أيضاً.

ولكن ثمة واقعة جديرة بالملاحظة. فكورتيال لم يكن يشعر في قرارة نفسه سوى بالاحتقار والنفور الذي ما يكاد يخفيه لكل أولئك المبتكرين الصغار جداً، لأولئك الألوف من المتزاحمين على محراب العلم، لجميع أولئك العاملين الفاسدين في المتاجر والفبارك. لألوف الصناع في البيوت، المتجرين بالبكرات، والوسطاء التجاريين الطائشين، المطرودين دوماً، والمعلولين، لكل أولئك المهووسين بالطيران، وتربيع الأفلاك والكواكب... ذلك الحشد الهائل من المختلين والممسوسين... اللاهثين وراء الأحلام المستحيلة!...

كان السأم يغزوه على الفور، لمجرد رؤيتهم قليلاً، أو لسماعهم على الأخص، ولكنه كان مضطراً إلى أن يظهر لهم البشاشة بغية الإطلاع على ما يدور حوله من شائعات ونمائم... ذلكم كان روتينه، مكافأته الإضافية!... ولكنها كانت مكافأة قذرة ومتعبة، كان يتوخى أن لا يتحدث إليهم إذا أمكنه ذلك!... ولكن كان عليه أن يشجعهم، ويصانعهم، ثم يصرفهم برفق... بحسب الأحوال والنزوات... وأن يقبض منهم، على الأخص، اشتراكهم المالي

الصغير في الصحيفة!.. أول هؤلاء الممسوسين، هؤلاء الرثين الفظيعين كان يأتي إليه، في وقت أبكر قليلاً، منفلتاً من حانوته... أو من عربته، أو من محترفه... أو من حجرته فوق السلم، قبل خمس دقائق.. الوقت الذي يستغرقه في التبويل... فيندفع بأسرع ما يمكنه نحو «الجينترون».... ويتدحرج هناك، أمام مكتب دي بيريري... فيقطع عليه سلسلة أفكاره... لاهثاً... زائغ النظر... متشنجاً من الخوف.. يقلب فكرته الثابتة... ويطرح على كورتيال أسئلة لا نهاية لها.. ودائماً بخصوص «الزوابع الشمسية».. وتراجع السلاسل الجبلية... وحركة انتقال الكواكب... ويظل يسأل هكذا طالما بقي لديه نفس في قاع مزماره العجيب... وحتى آخر رعشة من هيكله المقزز... أما كورتيال دي بيريري، سكرتير «الجينترون» ورائدها، وصاحبها، ومحركها فكان لديه دوماً جواب على جميع الأسئلة، دونما تردد إطلاقاً، ودونما تلكؤ أو عجز!... فرباطة جأشه، وكفاءته العالية، وتفاؤله الذي لا يلين جعلت منه حصيناً كل الحصانة أمام أعتى غارات الغباء والبلاهة... وفضلاً عن ذلك، لم يكن قط يطيق الحوارات الطويلة... كان يغلق الحوار على الفور، ويتولى بنفسه دفة النقاش... كان هو من يقول الكلمة النهائية، ويفصل في كل شيء، مرة واحدة وإلى الأبد!... وكان هذا يعني أنه ليس ثمة مجال لتغيير شيء مما يقول... وإلا فإنه يحمر من الغضب... ويلوث ياقته الاصطناعية برشاش لعابه... فقد كان ينقصه ثلاثة أسنان في زاوية فمه... وفي كل الأحوال، فإن أحكامه الأشد صعوبة على الفهم، والأكثر التباساً، والأدعى إلى الجدال تغدو حقائق راسخة، منيعة لا يأتيها الباطل، وفورية... يكفي أن يتدخل... حتى يفحم الجميع بمحض سلطته... وينقطع حبل الجدل والمماحكات.

ولدى أدنى اعتراض كان يفلت العنان لمزاجه الحاد، وحينذاك فإن محاوره الشهيد لا يعود يزن حبة خردل في حلبة المواجهة.. ويتراجع عن رأيه على الفور، ملطخاً باللعاب، مدحوراً، متلاشياً نهائياً!... كان الأمر، بالنسبة إلى هذا البائس الوقح أشبه بفانتازيا، بالسير على حبل بهلوان فوق فوهة بركان!... كان يرى النجوم ظهراً... أما كورتيال فلفرط ما كان متصلفاً، حين يتملكه الغضب في مثل تلك الحالات، كان يمارس سلطته المطلقة على أشد هؤلاء الممسوسين هوساً، ويدخله على الفور في جحر فأرة.

لم يكن كورتيال جسيماً، كان حيوياً، معتدل القامة، متين البنية. كان يعلن هو ذاته عدة مرات في اليوم عن أن عمره خمسون عاماً... كان ما يزال متماسكاً بفضل التمرينات الرياضية، على رفع الأثقال، والقفز فوق الحواجز. وغير ذلك. كان يمارس هذه الألعاب بانتظام، ولا سيما قبل الغداء، في الفسحة الخلفية لمكتب الصحيفة. كان قد هيأ لنفسه هناك ملعباً حقيقياً بين حاجزين إثنين، ضيقاً بالضرورة... ولكنه كان يجهزه بالأدوات الرياضية كيفما اتفق... كان يتحرك بخفه بين الحواجز مثل مقرعة الجرس... ويصطدم بالأرض بعنف حين يشتد به الحماس... بوم! بوم! كنا نسمع صوت بهلوانياته، ولم أره قط يخلع بنطاله، ولا سترته، ولا ياقته في أشد أوقات الحر... كان يخلع فقط ردنيه وربطه عنقه.

كان كورتيال دي بيريري على حق في الحفاظ على قوام خال من العيوب. كان خليقاً أن يحرص بعناية فائقة على قوته ومرونته. فقد كان بحاجة ماسة إلى ذلك... ففضلاً عن كونه مخترعاً، ومؤلفاً، وصحفياً، كان يصعد بالمنطاد... ويقدم عروضاً... أيام الأحد، على الأخص، وخلال الأعياد... كان هذا يعرضه للغاز باستمرار، ولكنه

كان يتعرض أحياناً لانفجار الغاز... ولانفعالات غير عادية... وليس هذا كل شيء أيضاً!... كانت حياته محفوفة بالخطر بمئة طريقة من الطرق، حافلة بما ليس في الحسبان، تدخر له الكثير من المفاجآت... وقد عرف هذا دائماً واختبره! كانت تلك طبيعته... شرح لي ما كان يبغيه من ذلك.

«العضلات من دون العقل، يا فرديناند، أدنى حتى من الحصان! والعقل من دون العضلات أشبه بالكهرباء من دون بطارية! فأنت لا تدري أين تضعها! إنها تذهب هباء في كل مكان! وذلكم هو التبديد... هو الإسهال!...» كان هذا هو رأيه، وقد حرر، بالإضافة إلى ذلك، عدة مؤلفات غنية حول الموضوع ذاته «صيانة البطارية الإنسانية». كان هاوياً للكمال الجسماني قبل ابتكار هذا التعبير، مولعاً بالحياة المتنوعة... «لا أريد أن أتحول إلى ورقة هشة!» على هذا النحو كان يحدثني.

كان له ولع بالمناطيد... كما لو أنه ولد منطادياً، فمنذ فتوته الأولى بدأ هوايته مع سيركوف وباربيزي... بطلعات تعليمية... دون سعي إلى تحقيق انتصارات! ولا إلى إثارة الإدهاش، ولا إلى الذهاب في رحلات بعيدة مقلقة! لا! ما من استعراضات صاخبة، ولا مدهشة! أو غريبة! فتلك المهازل الجوية كانت مكروهة منه! لم يكن يقوم سوى بتحليقات اطلاعية، تعليمية!... علمية دوماً!... تلك كانت قاعدته المطلقة والراسخة. وكان ذلك يوفر مادة مفيدة لصحيفته، ويكمل نشاطه. ففي كل مرة كان يصعد فيها بمنطاده، كان يصف ذلك للمشتركين في الصحيفة، كان لديه بزة نظامية يرتديها حين يصعد في سلة المنطاد، حائزاً على حق ثابت كربان بثلاثة شرائط، ومنطادي «فيدرالي، مسجل، ومجاز».

لم يعد يهتم بأوسمته، ففوق بدلته، كانت هذه الأوسمة، أيام الآحاد أشبه بدرع... ما كان هو ذاته يبالي بذلك، فهو لم يكن تفاخرياً، أما خلال الاحتفالات فقد كان هذا مهما، حيث اللياقة ضرورة لا بد منها.

ظل كورتيال دي بيريري، حتى النهاية مدافعاً عن الغازات الأكثر خفة من الهواء. كان يفكر في غاز الهليوم، وسبق معاصريه بخمسة وثلاثين عاماً في هذا المجال! أما منطاده الشخصي، محاربه القديم «زيلي» فكان يرقد في قبو مكتبه، الواقع في جادة مونتبانسييه. لم يكن يخرجه بوجه عام، إلا يوم الجمعة، قبل العشاء كي يجهزه باللوازم، ويرتق نسيجه، بكثير من الاحتياطات، ثنياته، أغلفته، حيث الحبال تملأ ملعبه الصغير، فيما النسيج الحريري في الخارج يرفرف وسط تيارات الهواء.

* * *

هو أيضاً، كورتيال دي بيريري، لم يكن يتوقف عن الإبداع، والابتكار، والتخيل، وعن حل المعضلات، وطرح الفروض... كان نبوغه لا يترك لرأسه سبيلاً إلى الراحة من الصباح إلى المساء، وحتى في الليل لم يكن يعرف طعم الراحة... كان عليه أن يتمالك نفسه أمام طوفان من الأفكار... وأن يحتاط لذلك كل الحيطة.. كان هذا عذابا لا نظير له... فبدلاً من أن يهجع مثلما يهجع الناس، كانت الرؤى تطارده وتقض مضجعه، وما تنفك تستحوذ عليه نزوات أخرى، وأفكار متسلطة جديدة!... فرووت! وتهرب من رأسه فكرة الرقاد!... ويغدو ذلك مستحيلاً حقاً... كان النوم يجافيه حين يهب لملاقاة كل هذا المد من الاكتشافات، ومن حمياه المضطرمة، وقد كلفه هذا النبوغ المحتدم من العناء، ومن الجهد فوق الإنساني، أكثر مما كلفته بقية أعماله!... كرر لي ذلك مراراً.

حينما كان يجد نفسه مغلوباً مع ذلك بعد بذل الكثير من المقاومة، ويشعر بحماساته قد استغرقته تماماً، بحيث صار يرى الشيء أثنين، أو يراه ثلاثة... وبسمع أصواتاً غريبة... لم يكن يجد سوى وسيلة واحدة من أجل كبح هذه الفوعة السامة... ولكي يثوب إلى توازنه. ويستعيد مزاجه الرائق: طلعة صغيرة بمنطاده، يقوم خلالها بجولة بين الغيوم! أما إذا كان لديه المزيد من وقت الفراغ، فكان يصعد غالباً جداً، كل يوم تقريباً، ولكنه لم يكن قادراً على أن يجول كل يوم كما يجول البط... لم يكن يتاح له التحليق إلا يوم الأحد... كان هذا ينطوي على شيء من التعقيد... كانت «الجينترون» تستأثر به، فها هنا كان عمله الدائم! حيث لا مكان للهزل... والمخترعون ليسوا للتسلية.. إنه دائماً تحت تصرفهم! يلازمهم بمنتهى الجد، ما من شيء كان يضعف حميته، أو يبدد يقظته ودهاءه... لا المعضلات الشائكة، ولا الكبيرة، ولا التافهة... كان يهضم كل ما يعرض عليه، فيما يكون عابساً مقطباً.. بدءاً من «الجبنة المطحونة»، و«اللازورد الصناعي»، و«الصمام القلاب»، و«الرئات الآزوتية»، و«السفينة المرنة الحركة»، و«القهوة بالكريم المضغوطة»، وانتهاء بـ«الطاقة الكيلومترية» بدلاً من طاقة الوقود... ما من تقدم جوهري في أي ميدان من الميادين المتباينة أشد التباين، يمكن أن يدخل في حيِّز التطبيق، ، من دون أن يتاح لكورتيال. ولمرات عديدة في الحقيقة، أن يوضح آلياته، ويشير إلى جوانبه الإيجابية، ويسلط الضوء أيضاً، ودون مداراة على ما فيه من جوانب الضعف المعيبة، ومن النواقص، ومن الاحتمالات والثغرات.

لقد جرَّ عليه كلُّ هذا، من دون شك، حسداً شديداً جداً، وأحقاداً متأرثة، وضغائن سوداء، ولكنه لم يكن يكترث بهذه الصغائر.

ما من تقدم تقني ذي شأن يتم الإقرار به، بوصفه مقبولاً، وقابلاً للاستمرار، قبل أن يعترف هو به، ويضمن إشهاره على مدى واسع ضمن أعمدة «الجينترون». وهذا يعطي فكرة صغيرة عن سلطته الفعلية. كان ينبغي، في المحصلة، أن يمهر كل ابتكار ذي قيمة بتعليق حاسم منه... وبكلام أدق، كان يمنحه الإذن! فإما أن يقرَّ وإما أن يُهمل. فإذا أعلن كورتيال، على هذا النحو، في صفحته الأولى بأن الفكرة لم تكن مقبولة! مهلاً! مهلاً! إنها فكرة شاذة! وغير قياسية! وفاسدة من أساسها... فإن دعواه كانت مسموعة! وحينذاك فإن المشروع لا يرى النور!... ويسقط في زوايا النسيان. وإذا ما أعلن، على العكس من ذلك، بأن الفكرة صائبة، فإن الولع بها قلما يتأخر، ولا يلبث المكتتبون في المشروع يتقاطرون من كل حدب وصوب.

في المكتب - المتجر الذي يعمل فيه والمطل على حدائق شاسعة، واللائذ خلف صف من القناطر، كان كورتيال دي بيريري، بفضل مؤلفاته الفائقة الأصالة، والتي بلغ عددها مئتين وعشرين كتاباً، والمنتشرة في كل أصقاع العالم، وبفضل دوريته "الجينترون" يسهم إسهاماً فعالاً، وعلى نحو لا نظير له في حركة العلوم التطبيقية. كان يقود، ويوجه، ويغني الإبداعات الوطنية والأوربية والعالمية. وكل ما تختمر به عقول المبتكرين الصغار «المجازين».

ما كان هذا بالطبع يجري بسهولة ودون منغصات، كان عليه أن يهاجم، وأن يدافع عن نفسه، ويتدارك الطعنات الغادرة. كان يمجِّد، وكان يسحق، على نحو غير متوقع، بالكلام، بالريشة، بالبيانات، والمسارّات. وقد أثار ذات يوم، وكان ذلك في طولون عام 1891، أثار جدالاً صاخباً عبر سلسلة من المحاضرات حول «الحركات الأرضية وذاكرة السنونو»... كان يبدع ويجيد، على مألوف عادته، في

الاستخلاص، وفي الأفكار، وفي المداولات، نثراً وشعراً، وتورية أحياناً، لإثارة الفضول... «كل شيء من أجل تثقيف العائلات، وتربية الجماهير»، كان هذا هو شعاره العظيم في جميع نشاطاته.

كانت الجينترون، والسجالات، والابتكارات، والمنطاد مدار حركته واهتماماته، فضلاً عن أنها منقوشة في كل مكان، فوق جميع جدران مكاتبه... وعلى الواجهات. ولا سيما، واجهة المبنى. بحيث لا يمكن أن يتوه الزائر! كانت النقاشات الأحدث عهداً، والأشد تعقيداً وإثارة للبلبلة، والنظريات الأعظم جرأة، والأكثر براعة ودقة، في الفيزياء والكيمياء، والكهرباء الحرارية، أو القواعد الصحية الزراعية، تستقر بين يدي كورتيال، وتتقلص مثل يساريع الفراش، دون مزيد من التردد... كان يدوّخ محاوريه. ينفّسهم إلى النصف على الأقل، ثم يريهم، على الفور الهيكل والنسيج... كان يستخلص ببراعة، وعلى نحو أشبه بالسحر، التركيب السليم، والحاسم، والعصي على الدحض، من الفرضيات الأشد خرقاً، والأكثر التباساً وإثارة للجدال... كان يمرِّر، بكل يقين، صاعقة بقضها وقضيضها في سم إبرة، ويطلق الرعد من زمارة بصل. على هذا النحو كان قدره، ديدنه، أن يدخل الكون في زجاجة، ويغلق عليه بسدادة، ثم يفسر كل ذلك للمحتشدين من حوله... لماذا! وكيف!... وقد شعرت أنا نفسي بالفزع، بعد أن عشت معه، فزعت من كل ما كنت أفلح في إدراكه وفهمه خلال يوم من أربع وعشرين ساعة... ولم يكن ذلك سوى نتف وتلميحات.. ما من شيء كان مستغلقاً أمام كورتيال، فمن جهة، كان هناك المادة الخاملة، الفجة على الدوام، ومن الجهة الأخرى كان هناك الذهن الذي يدرك ما بين السطور... «الجينترون»، الابتكارات، الكشوف، الخصوبة، النور!... كان هذا هو العنوان

الرئيسي للصحيفة. كان العمل يجري لدى كورتيال تحت رعاية العالم الفلكي العظيم فلاماريون. كانت صورته تشغل وسط الواجهة الزجاجية، ولدى ظهور أدنى إشكال كان يُفزع إليه مثلما يُفزع إلى الله، من أجل الإثبات، أو من أجل النفي! كان المرجع الأعلى، العناية الربانية، الموئل الأخير. لم يكن أحد يقسم إلا باسم المعلم فلا ماريون، وأحياناً باسم راسباي أيضاً، كان كورتيال قد كرس إثني عشر كتيباً لعرض التركيبات التوضيحية للاكتشافات الفلكية، وأربعة كتيبات فقط حول العبقري راسباي، حول علاجاته «الطبيعية».

كانت فكرة فريدة للغاية خطرت للخال إدوارد، ذات يوم، بأن يذهب بنفسه إلى الجينترون لجسِّ النبض حول إمكانية وجود وظيفة صغيرة. كان لديه دافع آخر أيضاً، هو استشارة كورتيال بشأن منفاخه الذي ابتكره لعجلة الدراجة... كان يعرف دي بيريري منذ زمن طويل، منذ نشر كتيبه الثاني والسبعين، الذي كان من بين كتيبات أخرى هو الأوسع انتشاراً وشعبية في أنحاء العالم، والأعظم قيمة في بناء مجده، أعني كتيبه المعنون: «تجهيزات الدراجة الهوائية، لوازمها، نيكلها، في جميع المناخات الأرضية، بمبلغ إجمالي قدره سبعة عشر فرنكاً وخمسة وتسعين سنتيماً». أما كتيبه «المانيفاكتورة» الذي صدر في الفترة التي أتحدث عنها فقد بلغت طبعاته لدى بيردويون ومالارميه، ناشريه الخاصين، ثلاثمئة طبعة. يصعب علينا اليوم أن نتصور مدى الإعجاب والافتتان البعيدي المدى اللذين حازهما هذا المؤلف الصغير المبتذل لدى ظهوره. ومع ذلك فإن كتيب «تجهيز الدراجات...» الذي ألفه كورتيال مارين دي بيريري سيمثل، عام (1900) بالنسبة إلى هواة الدراجات، نوعاً من كتب التعليم الديني، نوعاً من مخدة ينام عليها عشاق الدراجات... كان كورتيال يعرف،

بالنشوة عن عبث! كان بالطبع، جديراً بشهرته التي طبقت الآفاق! ثمة طوفان من الرسائل كان يزداد كل يوم، زيارات أخرى، ملحاحون آخرون أشد لجاجة، سخرات جديدة، سجالات أكثر حدة... والقليل جداً من الفرح!... كانوا يأتون لاستشارته من غرينتش، ومن فالباريزو، ومن كولومبو، ومن بلانكنبرغ، حول شتى مشكلات سرج الدراجة، العرضي أو المرن، وحول كثافة معدن الأجزاء الداعمة، وحول حماية المقود من الأكسدة. مجد على مجد. لقد نثر على هذا النحو، منذ ثلاثين عاماً، بذور كتيباته في أرجاء العالم، وحرر كتيبات أخرى كانت تتلقفها الأيدي في كل مكان، وتركيبات توضيحية ذات قيمة رفيعة وانتشار واسع... قصارى القول، لقد قدم خلال حياته العلمية تفسيرات لكل شيء تقريباً... أعظم النظريات، وأشدها تعقيداً، وأتفه التصورات في الفيزياء والكيمياء، والتصوير الشعاعي الوليد... والتصوير الشمسي والفلك... لقد مرَّ في كتاباته على كل شيء، كثيراً أو قليلاً، كان يشعر أيضاً بخيبة مريرة، وبكآبة عميقة، وإحباط ثقيل حين يرى نفسه، على هذا النحو مكرماً ممجداً. مكللاً بهالات المجد، كان هو شخصياً ينفر من الدراجة... لم يتعلم قط قيادتها. وما امتطاها في حياته أبداً... أما بخصوص ميكانيكها فقد كان الأمر أسوأ، فهو لم يستطع فك عجلة من عجلاتها، ولا حتى سلسلتها!... لم يكن يجيد عمل أي شيء بيديه... كان أشد خرقاً من ستة وثلاثين خنزيراً، فلكي يغرز مسماراً على نحو عرضاني كان يخلع على الأقل ظفرين من أظافره، ويهرس إبهامه بكامله، فما إن يلمس مطرقة حتى تحدث على الفور مجزرة لأصابعه، دعك من الكلابة، فما إن يستعملها حتى ينتزع بالتأكيد شقة من الجدار... أو من

السقف... أو من الغرفة بكاملها... ولا يبقى ثمة شيء حوله... لم يكن لديه ذرة من الصبر، كان ذهنه يشطح سريعاً جداً، بعيداً جداً، محتدماً جداً وعميقاً... فما إن تعانده المادة حتى يصاب بما يشبه الصرع... وكان ذلك ينتهي إلى خبيصة... كان هذا يحدث فقط عندما كان يطبق، هو نفسه، عملياً، نظرية من النظريات التي نسق جيداً فروضها وإشكالاتها... كان يجيد بوجه الضبط، رفع ثقالاته، وفي خلفية مكتبه فقط... بالإضافة إلى أنه كان يرتقي في أيام الأحد سلة منطاده، ويقول قولته المعهودة: «افلتوا كل شيء»، ثم يقفز من سلته فيما بعد حين يلامس الأرض، ولو أنه أدخل يده في شؤون الإصلاح والترميم، فسينتهي الأمر إلى كارثة. فما إن يحرك شيئاً من الأشياء، حتى يقلبه فوراً على الأرض، رأساً على عقب، أو يصيب به عينه بضربة مؤذية... لم يتمكن من أن يكون دقيقاً في أي عمل يدوي، فكان عليه أن يستسلم ويتخلى عنه. غير أنه فيما يخص نخبة مؤلفاته الهائلة، فإن أحداً لم يكن يدانيه، بحيث أن ذلك كان مدعاة لفخره... كان ذلك وتره الحساس... يكفي أن يمسه أحد مساً خفيفاً حتى يهتز على الفور... كان ينبغي أن تتردد عليه غالباً حتى يعاملك معاملة الرفيق، يمكنني القول، دون مبالغة، بأن تركيباته كانت كنزاً لا يضاهى، نجاحاً مذهلاً.

نتيجة لهذا السبق المنقطع النظير، كان يجري الاحتفاء به على الفور، تقريباً، في سائر أنحاء أمريكا، وفي أمريكا اللاتينية، كمبدع مجدد عظيم الشأن. وقد اجتمعت الأكاديمية الأورغوايية بكامل هيئتها وانتخبته بالإجماع «كعضو من أعضائها مدى الحياة»، ومنحته مدينة مونتفيديو بعد شهر من ذلك لقب «مواطن شرف»، وقد أمل كورتيال بأن ينال بفضل هذه الألقاب، وهذه النجاحات شرف ترؤس حركة

فلسفية رفيعة الشأن «أصدقاء العقل المحض»... ولا شيء آخر، ولأول مرة في حياته زلت به القدم، وتملكه العجب والغرور... وفيما ذاعت شهرة الفيلسوف العظيم أوغست كونت في سائر أرجاء الكون، فإن شهرة كورتيال لم تجتز البحر، ولم تبرح قط أمريكا اللاتينية! لقد التصقت بأرض تلك القارة، ولم تبارحها قط. كان كورتيال «خاصاً بالأمريكيين»، ولم يعد حتى إلى حضن أسرته الفرنسية، ومع ذلك فقد حاول المستحيل خلال شهور وشهور، وبذل المساعي الحثيثة، وسوّد في «الجينترون» أعمدة إثر أعمدة كي يعطي «الصلواته» نكهة صغيرة جذابة فرنسية، ولكنه لم يفعل شيئاً سوى أن قزَّمها وحطَّ منها، وحوّلها إلى نفاية بائسة موشاة ببعض التملق والإطراء، مثقلة بروح انتقامية... عدوانية وجبانة... وضاع تعبه سدى.

لقد شمخت قامة أوغست كونت، وبلغ شأواً عالياً، ولكنه لم يكن محط إعجاب مريدي فلاماريون العظيم، كان لا بد من طمسه وإلغائه، فقد ألحق بهم الضرر. كانوا يمقتونه مقتاً شديداً، وبقدر ما كان فلاماريون يبدو لهم شعبياً جداً بقدر ما كان كونت يثير نفورهم، ولكن كونت أغضى عن كل ذلك بترفع. لقد جرت الأمور هذا المجرى، على نحو لا راد له!.

بعد مرور زمن طويل على ذلك، كان كورتيال، حينما تساوره الشكوك في بعض الأمسيات، يفضي لي بكلمات غريبة مضحكة:

- ذات يوم، يا فرديناند، سأذهب... سأذهب بعيداً، سترى! سأذهب بعيداً جداً... سأمضي وحدي... بطرائقي الخاصة!.. سترى!...

كان يمعن في الاستغراق والحلم... لم أكن أرغب في مقاطعته، كان ذلك يوافيه من وقت إلى آخر... وكان يحيرني كثيراً مع ذلك...

* * *

قبل أن أباشر العمل لدى دي بيريري، كان خالي ادوارد قد حاول المستحيل من اجل العثور على وظيفة لي في مكان ما، زلزل السماء والأرض من أجل ذلك، ولكنه كان ينقلب خائباً في كل مرة... استخدم كل ما في جعبته من حيل... لم يكن يفتأ يتحدث عني بعبارات الثناء في كل محل يمر به، ولكن كل ذلك كان من غير طائل... من المؤكد أنه كان يغمرني في بيته بكل أنواع العطف والمودة، ولكنه، في نهاية المطاف، لم يكن غنياً... كان من المستحيل البقاء عنده إلى الأبد! ليس الأمر أنني كنت أبتزّه... ولكنني كنت أربك حياته في منزله أيما إرباك... لم يكن مسكنه واسعا جداً. عبثاً كنت أتظاهر بالنوم حينما كان يعود وبرفقته إحدى الجميلات... كان يسير على أطراف أصابعه... كنت مع ذلك أسبب له إزعاجاً من دون أدنى شك.

بداية، كان بطبيعته حيياً جداً، وما كان لأحد أن يصدق قط حين يراه في العديد من المواقف خجلاً متهيباً إلى حد بعيد... على هذا النحو كان مسلكه أمام كورتيال، فهو لم يكن يتصرف بحرية معه، حتى بعد أشهر من علاقتهما، كان معجباً به أشد الإعجاب، ولكنه لم يكن يجرؤ على أن يطلب منه شيئاً... وقد انتظر طويلاً قبل أن يحدثه بشأني... وكان هذا يمضُّه مع ذلك... كان يشعر في قرارة نفسه بأنه مسؤول... لأنني ما أزال هكذا على الرمل... عاطلاً عن العمل.

في النهاية، تشجع، ذات يوم، مع ذلك، وطرح السؤال الصغير، بلهجة بين الجد والمزاح، إذا ما كان كورتيال بحاجة أحياناً إلى سكرتير مبتدئ؟... لترتيب شؤون مكتبه الذي يستقبل فيه مخترعيه، أو من أجل طلعاته بالمنطاد؟ لم يكن الخال إدوارد مخدوعاً بشأن قابلياتي، كان يدرك كل الإدراك بأنني كنت أضيق ذرعاً بالأعمال العادية، ولا أصيب فيها أي نجاح. كان يرى إلى الأمور بنحو صائب للغاية...

كان يرى بأن نسيجي، وما لدي من قوى داخلية ينسجم بالأحرى مع الأعمال الخارجية، مع ضروب الأعمال التي تستلزم الدهاء والحيلة. والمهارات الدقيقة المراوغة. وهكذا فقد كنت في رأيه مهيئاً لأن أتدبر أموري مع كورتيال، بكل ما يحفل به عالمه من إشكاليات، ومن ألوان المكر والنزوات. ذلكم ما كان يفكر به الخال إدوارد.

كان كورتيال يخضّب شعره وشاربيه باللون الأسود الأبنوسي، ويترك عثنونه رمادياً يوخطه الشيب... كل هذا الشعر كان جامحاً على منوال القطط، كما أن الحاجبين متمردان، كثان، أشد عدوانية أيضاً، شيطانيان تماماً، ولاسيما الحاجب الأيسر. كان له بؤبؤان يقظان في قاع محجريهما، وعينان صغيرتان تشعان بالقلق دوماً. ولكنهما تتجمدان فجأة، حين يعثر على الدعابة الذكية، فينفجر حينئذ بضحكة مجلجلة، ويهتز كرشه بقوة، ويخبط بيديه على فخذيه بعنف ثم يلبث جامداً، مستغرقاً بالتفكير لحظة، كأنما يبدي إعجابه بالموقف الساخر.

كان كورتيال دي بيريري هو الذي حاز في فرنسا على ثاني ترخيص بقيادة سيارة سباق. كان دبلومه مؤطراً بالذهب، وكذلك صورته حين كان شاباً يقود سيارته الفخمة، مع تاريخ المناسبة والتواقيع، كانا معلقين على جدار مكتبه، ولكن ذلك انتهى نهاية تراجيدية.. روى لي الحادثة مراراً: «كنت محظوظاً! كان يقر بذلك، أؤكد لك! وصلنا إلى بوا - دو - دوك... كان احتراق الوقود ممتازاً!... لم أكن أود الإبطاء... ثم لمحت المعلمة... كانت قد تسلقت جدار الردم.. أومأت لي بإشارات التحية والتشجيع... كانت قد قرأت جميع مؤلفاتي... كانت تحرك مظلتها... لم أشأ أن أكون عديم التهذيب... ضغطت على المكابح وتوقفت عند باب المدرسة... وعلى الفور أحاط بي حشد من الجمهور للاحتفاء بي... رويت ظمأي

بجرعة من الماء.. لم يعد علي التوقف إلا في شارتر... بعد ثمانية عشر كيلومتراً.. حيث يقف المراقب الأخير.. دعوت تلك الفتاة قائلاً لها «اصعدي يا آنستي.. اصعدي إذن إلى جانبي! هيا اجلسي!» ترددت الصبية، وبدت عليها الحيرة، وتغنجت قليلاً.. ألححت عليها.. فاستقرت إلى جانبي... ثم أقلعنا... كنا منذ الصباح، نتوقف عند كل مراقب، وعلى الأخص عبر بريتانيي كي نتجرع كؤوساً وكؤوساً من السدر.. كانت سيارتي تهتز بقوة شديدة، مسرعة كالسهم.. لم أعد أجرؤ على الإبطاء... رغم أنني كنت أرغب بذلك!... وأخيراً كان علي أستسلم!... كبحت الفرامل إذن قليلاً، فتوقفت السيارة للتو، نهضت من مقعدي، وقفزت من السيارة، كنت أفكر بالشراب.. تركت الحسناء داخل السيارة، وصحت لها من بعيد: «انتظريني! سأعود بعد ثانية!...» وما كدت ألمس فتحة بنطالي، حتى أحسست بنفسي مصعوقاً، مقتلعاً، مدفوعاً بقوة جبارة رهيبة! مثل قشة وسط الزوبعة! بوم! انفجار رهيب! انفجار هائل!.. الأشجار من حولي تجردت من أوراقها، جزّت أغصانها جزاً، وطوح بها الإعصار، والتهب الهواء! وجدت نفسي في قاع حفرة، مغمى علي تقريباً.. تحسست جسدي!.. لملمت نفسي!... زحفت أيضاً حتى حافة الطريق!... فراغ مطلق! والسيارة؟ لا شيء سوى الخواء يا صديقي! الخواء! ما عاد ثمة سيارة! تبخرت!... دمرت! عن بكرة أبيها! العجلات! والهيكل.. وشجرة البلوط!... وشجرة الصنوبر! أتى عليها الحريق!.. والقفص بكامله.. جررت نفسي نحو المكان الذي كانت تقف فيه، تعثرت بين كدرة تراب وأخرى! نقبت، نبشت! بقايا منثورة هنا وهناك، بضع قطع مبعثرة، جزء صغير من المروحة، ابزيم حزام، سدادة خزان الوقود، بكلة شعر، هذا كل شيء!... سن

صغيرة لم أكن قط متأكداً منها! لم يصل التحقيق الرسمي إلى أية نتيجة!... لم يوضح أي شيء مما حدث... كان ذلك قيد التخمينات... ظلت أسباب هذا الانفجار الرهيب غامضة إلى الأبد... بعد أسبوعين تقريباً. عثروا في البركة، على بعد ستمئة متر عن مكان الانفجار، بعد استبارات عديدة على رجل عارية لتلك الآنسة، كانت الجرذان قد قرضت نصفها.

«حسب رأيي، دون أن أكون متأكداً تماماً، فإن إحدى الفرضيات العديدة التي طرحت آنذاك لتفسير هذا الاحتراق الانفجاري الرهيب ربما كانت مقنعة لي عند اللزوم.. ألا وهي انزلاق أحد الأسلاك الكهربائية من مكانه على نحو غير محسوس.. كان يكفي، حينما أفكر في الأمر! أن يحتك هذا السلك الصغير من الرصاص الأحمر المؤكسد، بسبب الهزات المتلاحقة، أن يحتك بالصدفة، خلال ثانية، أو عشر الثانية، بمضخة البنزين حتى ينفجر كل شيء على الفور!.. على غرار انفجار الميلينيت، أو على غرار القنبلة الشديدة الانفجار!... تلكم يا صديقي الطيب عرضية النظام! عدت إلى ذلك المكان بعد مضي زمن طويل على الكارثة... كان ما يزال يفوح برائحة الحريق!... فضلاً عن ذلك، فقد جرى التنبه جيداً، في تلك المرحلة الحرجة من تقدم صناعة السيارات، لمثل هذه الانفجارات المروعة، الاستثنائية تقريباً، ذات التدمير الكلي! والانتشار الرهيب! والاندفاع الجبار!... والتي لا يمكنني مقارنة شدتها القصوى إلا بالانفجارات المفاجئة لبعض احتراقات الغاز السائل!... والتي كنت أتخذ لها العديد من الاحتياطات. وهذه الانفجارات الأخيرة عادية. في الواقع، ويمكن تفسيرها بسهولة فائقة، وعلى نحو كلي، ما من شكوك هنا! ولا ألغاز! أما بخصوص أسباب تراجيدياي فإن السرَّ بكامله بقي طي

الخفاء تقريباً!.. لنعترف بذلك بكل تواضع! ولكن ما أهمية ذلك اليوم؟ ما من أهمية إطلاقاً!... فنحن لم نعد نستخدم أسلاك الرصاص الأحمر المؤكسد، منذ رحيل الجميلة لوريت! ولكن لم يطل فرحنا كثيراً!... فثمة معضلات أخرى تتطلب منا حلولاً. أشد غرابة بألف مرة! بما أن ذلك مضى وانقضى، يا صديقي! فما عاد أحد يهتم بأوكسيد الرصاص الأحمر! على الإطلاق...!».

لم يعتمد كورتيال قط في لباسه، مثلي، الياقة المنشاة بالسيلوليد... كان يتخذ لنفسه طرازاً خاصاً من الياقات الاصطناعية المصنوعة من النسيج العادي... تقاوم البلى، والأوساخ، ونفاذ السوائل. مؤلفة من ثلاثة طبقات مطلية بالبرنيق... كانت تصمد طوال ستة أشهر على الأقل.. في منأى عن الأوساخ العالقة بالجو وبالأصابع، وعن سيول العرق. كان يحتفظ بياقته الاصطناعية، هذه منذ سنتين، ويعيد دهنها بالبرنيق، على سبيل التأنق، في كل شهر، وكان هذا يعطيها لوناً برونزياً، أقرب إلى لون العاج القديم، ولكن أصابعه كانت تترك علامات واضحة على ياقته المدهونة تلك، بقعاً كبيرة تتراكم فوق بعضها وتدوم زمناً طويلاً!

أما بصدد قامته، فلم يكن كورتيال دي بيريري في الحقيقة مفرطاً في الطول! كان عليه أن لا يضيع بوصة واحدة... كان ينتعل أحذية ذات كعاب عالية جداً، وفوق ذلك كان متشدداً بخصوص الأحذية... كانت أحذيته مصنوعة من نسيج سميك ذي لون أسمر فاتح مع أزرار صدفية صغيرة.. كان مثلي، فقط، يصدر الروائح الكريهة من قدميه... وبعد ظهيرة السبت كان استنشاق تلك الروائح عقوبة فظيعة... وفي صبيحة الأحد كان يستحم ويأخذ زينته، كنت مطلعاً على ذلك. أما بقية الأسبوع فلم يكن لديه ما يكفي من الوقت. كنت أعرف كل

هذا.. لم أر زوجته في أي يوم من الأيام، كان يحدثني عنها، عن أفعالها وعن حركاتها. كانا يقيمان في مونترتو... بصدد رائحة الأقدام، لم يكن هو وحده... كان ذلك عذاباً لا يطاق في تلك الفترة... فحينما يأتي المخترعون إليه، متصببين عرقاً، بعد أن يكونوا قادمين دوماً من أماكن بعيدة، يغدو من الصعب مع ذلك الإصغاء إليهم حتى النهاية، على الرغم من أن الباب الكبير كان مفتوحاً على حديقة «قصره الملكي»... فما يشمّه المرء في بعض اللحظات كان شيئاً لا يصدق... كانوا يجعلونني أتقرز من قدمي ذاتيهما.

كان مكتب "الجينترون"، في الواقع مسرحاً لفوضى عارمة، لتشوش مطلق، لاضطراب شامل، ما كان يمكن لأحد أن يرى أسوأ منه، فمن عتبة الحانوت وحتى سقف الطابق الأول، كانت جميع الدرجات، والطنف، وقطع الأثاث، والكراسي، والخزائن ظاهراً وباطناً، مطمورة تحت ركام من الأوراق والأضابير، وسائر الأشياء الكاسدة المبعثرة، خليط تراجيدي، متشقق، متقشر بالكامل، جميع أعمال كورتيال كانت ترقد هنا، دون ترتيب، على هيئة أهرامات... لم يكن لأحد قط أن يتبين القواميس، أو بطاقات البحث، أو المذكرات المصورة داخل هذه اللجة الفظيعة.. يخترق المرء هذا الركام بالصدفة، يتحسس طريقه قليلاً... فيغوص في الأقذار، على غرار مغارة موحشة فوق شاطئ صخري مائج.. كان هذا ينهار فجأة، على هيئة شلال مباغت!... التصاميم، والرسوم الممزقة! المئة ألف كيلو من الأوراق المحبرة المتسكعة أمام عينيه!... وكان هذا يهيل جروفاً أخرى، وابلاً مريعاً من الوثائق القديمة المهملة وسط إعصار من الغبار.. بركاناً يدلق من جوفه حمماً من الأقذار... كل ذلك كان يهدد بانهيار السد كلما كنا نبيع بمئة فلس من الحانوت!...

لم يكن هو، مع ذلك، يجد بأساً في مثل هذا الوضع الفظيع، أو يشعر بضيق منه، ما كان لديه أدنى رغبة بتغيير وضعية الأشياء، أو بتعديل منهجه... لا شيء من ذلك على الإطلاق! كان يجد نفسه في أحسن حال وسط هذا السديم الباعث على الدوار... لم يكن هو قط يبحث طويلاً عن الكتاب الذي يريده.. كان يمد يده واثقاً متيقناً داخل أي كدسة من الأكداس، فينفض عنها ما تراكم من قشور وغبار، وينبش بحيوية وسط التل الشاهق، وينقضّ بيده بكل دقة على مكان الكتاب بالضبط... وفي كل مرة كان يحدث ما يشبه المعجزة... نادراً ما كان يتوه عن ضالته.. كان لديه حس الفوضى... يرثي لكل أولئك الذين يفتقرون إلى ذلك الحس، فالنظام بالنسبة إليه يكمن في الأفكار! وما من أثر له في المادة!... وحينما أفضيت له بملاحظة صغيرة بأن من المستحيل أن أتدبر الأمور وسط هذه البلبلة وهذا الدوار، كان هو من ثار. وسلقني بألفاظ حداد... لم يدع لي حتى فسحة للتنفس.. واتخذ على الفور موقف الهجوم... «بالطبع، يا فرديناند، أنا لا أطلب منك أن تفعل المستحيل، فأنت لم تملك السليقة في يوم من الأيام، ولا الفضول الضروري، ولا الرغبة بالإدراك.... ها هنا! ورغم كل شيءٍ! ليست الكتب هي التي تغيب عنك!.. أنت لم تسأل نفسك يوماً يا صديقي الصغير البائس، كيف يحضر الدماغ!... ذلك الجهاز الذي يجعلك تفكر؟ أليس كذلك؟ ولكن لا! بالتأكيد! فهذا لا يهمك على الإطلاق!... فأنت تفضل النظر إلى الفتيات ! ولا يمكنك إذن أن تعرف! أن تقتنع بسهولة وعبر نظرة بسيطة صادقة بأن الفوضى يا صديقي هي الجوهر الحقيقي لحياتك ذاتها! لكل كينونتك الفيزيائية والميتافيزيائية! غير أن روحك يا فرديناند! تلك الملايين، بل البلايين من الثنيات والتعرجات... تتشابك في الأعماق، داخل المادة السنجابية، مخددة، غائصة،

محتجبة، مراوغة... لا محدودة! تلكم هي الهارمونيا يا فرديناند! فالطبيعة بأسرها إنما هي جنوح نحو ما لا يوزن وما لا يقاس! وليست شيئاً آخر! نظم يا فرديناند، أفكارك البائسة! ابدأ بذلك! وليس ببدائل مصطنعة، مادية، سلبية، داعرة، ولكن فيما هو جوهري، هذا ما أعنيه! هل ستندفع، لهذا السبب، إلى دماغك، فتهذبه، وتصقله، ثم تقطعه شرائح، وتفرض عليه بضع قواعد بليدة؟ بسكين هندسية؟ ثم تعيد تركيبه وفقاً لقواعد حماقتك المتعسفة؟.. تركبه ثانية من شرائح؟ مثل فطيرة حلوى؟ مع حبة فول في الوسط! هيه ماذا تقول؟ أنا أطرح عليك السؤال، بكل صراحة؟ هل سيكون هذا مستنكراً؟ أم جميلاً؟ تلك الباقة التي تكوّنها! في داخلك، يا فرديناند، بكل تأكيد! إن الخوف يثخن روحك! ويجعل منك، مثلما من آخرين عديدين: عقلاً جماعياً ضحلاً! وسط فوضى غريزية هائلة! وأفكار رائجة! وكل ذلك لقاء هذا الثمن، يا فرديناند!... في سنواتك الغابرة لم تبلغ قط شاطئ الخلاص!... وظللت دائماً، وهذا ما أخشاه، داخل علبة قمامة عقلك! ويحك! أنت الأبله يا فرديناند! الحسير النظر! الأعمى! البليد الأصم! الأبتر! الغبي!... أنت الذي يدنس فوضاي بأفكاره الفاسدة... في الهارمونيا، يا فرديناند، ثمة فرح العالم الوحيد! ثمة الانعتاق الوحيد! الحقيقة الوحيدة!... الهارمونيا! عليك بالهارمونيا! هو ذاك... وهذا الحانوت، هو في نظام متسق! أف لك! في نظام كامل! اغنم مني هذه الكلمة! هذا الشي! تعوّد على الهارمونيا! وستجدك الهارمونيا، وستجد أنت كل ما تبحث عنه منذ زمن طويل على دروب العالم... وستجد أكثر من ذلك أيضاً! كثيراً من الأشياء الأخرى! يا فرديناند! فعبر الدماغ يا فرديناند! ستعثر على كل شيء! نعم! «الجينترون» إنما هي دماغ! هل هذا واضح بما يكفي؟ وليست كما تشتهي؟ أنت وأمثالك؟ مكمناً تافهاً لسجلات الضرائب! متراساً

للأضابير! مؤسسة ضخمة مميتة! مقبرة كبيرة لطلاب القانون! آه! إنها ليست كذلك على الإطلاق! كل شيء ها هنا متحـرك! زاخـر، وأنـت تتذمر! كل شـيء هنـا يمـور، يعـج! وأنـت لم تلمـس ذلـك إلا مـن السطح! جرِّب إذن أن تحفر قليلاً! وحينئذ يهـيج كـل شـيء! يـرتعش كل شيء، في اللحظة ذاتها! هذا لا يتطلب منك سـوى أن تنـدفع! أن تزهر! أن تتوهج! أنا لا ألغي أي شيئ لكـي أعـيشٍ! بـل آخـذ الحيـاة مثلما هي، يا فرديناند المتوحش؟ ولا أسوقها قطّ بعنـف كـي تتوافـق مع تصوري عن نبش المزابل! أف لك! كـل شـيء يـرتج؟ كـل شـيء ينهار؟ إيه! نعم الأمر! ما عدت أريد عد النجـوم. 1! 2! 3! 4! 5! لا أعتقد أن كل شيء مسموح به! من أيـن إذن سـآخذ الحـق بالتـضييق! بالإصلاح! والإفساد! بالقطع! والوصل؟ مـن اللانهـائي؟ مـن داخـل حياة الأشياء؟ ليس هذا طبيعياً، يا فتاي! ليس هذا طبيعياً؟ إنه تلاعـب مشين!... أنا أبقى مع الكون! أتركه مثلما أجده!... لن أغـيره إطلاقـاً! لا!... فالكون إنما هو في مكانه! أنـا أفهمـه! وهـو يفهمـني!. إنـه لي حينما أطلبـه! وحينمـا لا أعـود أريـده أتركـه يـسقط! هكـذا تحـدث الأشياء!... ذلكـم موضـوع يختص بنـشأة الكـون! لـيس لـدي نظـام أقدمه! وليس لديك نظام! أفٍ! أفٍ! أفٍ.

كان غاضباً بحق كما لو أن أحداً أخطأ بحقه...

* * *

ترجمت كتيبات كورتيال الـصغيرة إلى عـدة لغـات، وامتـد بيعهـا حتى أفريقيا. كان أحد الـذين يراسـلونه زنجيـاً، كـان زعيمـاً لـسلطنة أوبانغي العليا في تشاد. كان ذلك الفتى مولعاً بكـل أنـواع الابتكـارات الخاصة بالصعود إلى الفضاء!.. كان ذلك حلمه، هوسه... أرسلنا إليه جميع الوثائق المصورة.. لم يكن قد رأى في الواقـع أي منطـاد في أي

يوم من الأيام. كان كورتيال قد نشر عام 1893 بحثاً مهماً حول «الجذب العمودي» ضمنه جميع التفاصيل، والتطبيقات المتعددة، الهيدروليكية (المائية) والبالستية (القذفية)... كان ذلك المؤلف رفيع القيمة، لا جدال في ذلك، ولكنه لم يكن يشكل، مع ذلك، ضمن مجموع أعماله سوى إسهام متواضع وهزيل. كانت مادته بسيطة جداً، ولكنها شاملة لجميع الميادين.

كان يضيق ذرعاً بالأشخاص الرسميين، كانوا يعاملونه باستخفاف، ولكن كان من الصعب الاستغناء عن مؤلفاته، حتى من أكثر المدعين فظاعة. فقد أدخلت في صلب المناهج المقررة في العديد من المدارس. لم يكن لأحد أن يحلم بمعارف أكثر ملاءمة منها، وأبسط، وأسهل على التمثل والاستيعاب. لقد حققت نجاحاً مذهلاً! كان من السهل حفظها. ونسيانها دون أدنى تعب. ففي فرنسا كان هناك، بوجه الإجمال، عائلة على الأقل من كل أربع عائلات تمتلك في مكتبتها كتاب «علم الفلك للعائلات» وكتاب «اقتصاد دون تبذير» و«إنتاج الأيونات»،، وعائلة على الأقل من كل اثنتي عشرة عائلة تمتلك كتاب «شعر الألوان» وكتاب «جنائن فوق الأسطحة» و«تربية الدجاج في المنزل»، كي لا نذكر سوى الكتب التطبيقية العملية... ولكن كان له ضمن رصيد نجاحاته مجموعة أخرى من المؤلفات (من عدة أجزاء) نموذجية فعلاً في حينها! «الكشف عن الهند الصينية»، «تاريخ الرحلات القطبية من موبيرتوي حتى شاركو». كان لديه إذن كمية هائلة من المؤلفات! ما يمكن قراءته في شتاءات عديدة، بالإضافة إلى عدة كليوغرامات من القصص والحكايا...

الجميع علقوا على مؤلفاته، ونقبوا فيها، ونسخوا، وانتحلوا، واختلسوا مؤلفه المشهور «طبيب نفسه» و«اللغة الحقيقية للأعشاب»،

و«الكهرباء من دون مصباح»!.. مقدار عظيم من التألق والتشويق، والتدميث الفعلي لعلوم جافة للغاية، معقدة في ذاتها، محفوفة بالخطر، كانت ستظل من دون كورتيال بعيدة عن متناول الجمهور العريض، أعني أنها كانت ستظل علوماً للخاصة، مغلقة بإحكام، ولنقل من دون مبالغة، علوماً يتعذر استخدامها.

* * *

شيئاً فشيئاً، ولطول ملازمتي لكورتيال، في جو من الألفة والمودة، أدركت طبيعته بعمق... لم يكن الجانب الخفي فيه يمتاز بذلك البهاء الساطع جداً، لا بل كان وغداً إلى حد كبير، دنيئاً، حسوداً وماكراً... وإذا توخينا الإنصاف الآن فلا بد لنا من أن نقر بأن العمل الذي تصدى له كان جهداً جباراً! عانى فيه أقسى ألوان العذاب، طوال سنوات وسنوات كي يتدبر أمره إزاء عصبة من المهووسين أشد الهوس، من المشتركين في دورية «الجينترون».

كان يمضي ساعات ثقيلة، ممضة حقاً أمام طوفان من الغباء والحمق... كان خليقاً أن يتمالك نفسه مع ذلك، وأن يواجه بقوة، ويرد الضربات، ويتسلح بكل ضروب المقاومة... وأن يترك لديهم انطباعاً حسناً، بحيث ينصرفون من لدنه سعداء بما يكفي، مع الرغبة بالعودة...

أحجم كورتيال في البداية، بشيء من النفور عن أن يضمني إلى خدمته. ولكنه لم يصر على موقفه... فقد وجدني كبيراً بما يكفي، عريضاً بما يكفي، قوياً إلى حد ما من أجل حانوته. كنت عاجزاً، في البداية، عن القيام بأي حركة لفرط ما كان الركام هائلاً.. غير أنني لم أكن باهظ الكلفة بالنسبة لكورتيال... كنت أعمل لقاء الطعام والسكن... أبدى والداي موافقتهما التامة. كانا يكرران على مسامع

خالي بأنني لم أكن بحاجة إلى النقود... وأنني بالتأكيد سأرتكب إساءات خلال العمل... ما كان أكثر أهمية بكثير هو أن لا أعود إليهما بأي حال من الأحوال... كان هذا هو الرأي الذي أجمعت عليه العائلة كلها، والجيران أيضاً، والمعارف قاطبة. أن أنصرف إلى أي عمل مهما كان! وأن أشغل نفسي بأي ثمن! لا يهم أين، ولا يهم كيف! ولكن أن لا أظل عاطلاً متبطلاً! وأن أبقى على مسافة منهم. ويوماً بعد يوم، وبالطريقة التي بدأت فيها، استطعت أن أشعل النار في «الباساج». ذلكم كان الشعور العام...

كان هناك الخدمة العسكرية بانتظاري... لم يكن والدي يتمنى أفضل من ذلك... ولكن سني كانت أصغر من اللازم... كان ينقصني ثمانية عشر شهراً على الأقل... وفجأة جاءت فرصة دي بيريري، وجينترونه الباسلة، جاءت في وقتها على نحو بديع، كان ذلك في الواقع نعمة ربانية.

غير أن ذلك الكورتيال تردد كثيراً، وراوغ... سأل زوجته عن رأيها في ذلك، فلم تبد معارضة... لم يكن الأمر يعنيها كثيراً على أي حال، فهي لم تأت إلى الجينترون في أي يوم من الأيام. كانت تظل في مونترتو على الدوام، داخل منزلها. قبل أن يتخذ كورتيال قراره، عدت إلى لقائه وحدي عشر مرات على الأقل، كان يتكلم دونما انقطاع، يتكلم دائماً طوال الوقت الذي نمضيه معاً... أما أنا، فكنت أجيد الإصغاء أيما إجادة... تدربت عليه على يد والدي!... وفي إنكلترا!... لقد أصغيت في كل مكان... صار الإصغاء عادة لدي منذ عهد بعيد!... لم يكن ذلك يزعجني قط! ما كنت بحاجة إلى الإجابة، وهذا ما أغراه بتشغيلي... إغلاق فمي... وذات مساء، قال لي أخيراً:

- هكذا يا صغيري! جعلتك تنتظر طويلاً، ولكنني فكرت الآن جيداً، ستظل عندي! أعتقد بأن في وسعنا أن نتفاهم، احترس فقط من أن تطلب مني أي شيء...! آه! لا! ولا فلساً واحداً، ولا مليماً! آه! أو أية مساعدة! آه! هذا لا! لا تتكل على ذلك! لا تتكل عليه إطلاقاً! إنني أعاني مشقة بالغة في هذا الظرف المتقلب في تدبير شؤوني، وتأمين الكفاف من العيش! وتوفير نفقات الصحيفة، وتأمين أجور صاحب المطبعة! إنني منهك غاية الإنهاك! كسيح! مضنى! أنت تسمعني جيداً! إنهم يلحون علي بالطلب ليل نهار!. وهناك نفقة الكليشية غير المحسوبة؟، والأعباء الجديدة؟، التي لا تخطر لنا الآن! ليس عملنا صناعة البتة! ولا تجارة كبيرة!، ولا بضعة استثمارات مربحة! آه! ولكن لا! فنحن لا نملك سوى قارب واهٍ تدفعه رياح العقل!... وكم من العواصف، يا صديقي، كم من العواصف!... فهل سيبحر؟ ليكن. أنا أستقبلك! أنا آخذك معي! ليكن! اصعد إلى ظهر القارب! ولكنني أقول لك سلفاً! ليس ثمة دوبلون واحد (دينار ذهبي) في العنبر! لا شيء في اليد! والقليل في الجيب! ما من شعور بالمرارة! ما من شعور بالضغينة!... ستعد غداءك بنفسك! وتنام في الطابق فوق الأرضي، كنت أنام فيه أنا نفسي فيما مضى... داخل المكتب التونسي... سترتب سريرك... إنه مكان رغيد كل الرغد... ستكون فيه هانئاً مطمئناً! آه! أيها المحظوظ! سترى قليلاً حين يحل المساء! أية إقامة! أي هدوء!... القصر الملكي بكامله لك بالتأكيد منذ الساعة التاسعة ليلاً!... ستكون سعيداً يا فرديناند!... أما أنا الآن، انظر، فيتوجب علي الذهاب يومياً إلى مونترتو! سواء أهطل المطر، أم زمجر الرعد، أم انهمر البرد! لعمري إنها عبودية فظيعة! ولكنني جلد صبور! آه! أؤكد لك بأن هذا كريه

في غالب الأحيان! لقد ضقت ذرعاً إلى حد، إنه يخطر لي أحياناً أن ألقي بنفسي تحت العجلات حين ألمح قاطرة!... آه! ولكنني أتمالك نفسي! وهذا من أجل زوجتي! وبعض الشيء أيضاً من أجل أبحاثي! ومن أجل حديقتي التي أحقن تربتها بالأشعة التيلورية! وأخيراً! مع ذلك! ليس لدي ما أقوله! لقد تحملت زوجتي كثيراً! إنها فاتنة مع ذلك! سترى السيدة دي بيريري ذات يوم! حديقتها هي مبعث سرورها! هي كل شيء بالنسبة إليها! ليس لديها الكثير في حياتها! هذه الحديقة، ثم منزلها، ثم أنا إلى حد ما، مع ذلك! لقد نسيت! آه! هذا مضحك! هيا كفى مزاحاً! الأمر على هذا النحو يا فرديناند! أنا موافق؟ سنكون في وئام كامل؟ أعدك، من رجل إلى رجل! حسناً! ستقوم خلال النهار بشراء ما يلزمنا. لن ينقصك شيء! ولكن لا عليك، يا فرديناند، فأنا أريد أيضاً أن أتعهدك، أن أقود خطواتك، أن أسلحك، أن أدربك على تحصيل المعرفة... ما من راتب البتة! بالتأكيد! ليكن! أعني إسمياً! أما روحياً! آه! أنت لا تعرف يا فرديناند ما الذي ستكسبه؟ لا! لا! لا! ستغادرني ذات يوم يا فرديناند.. بالضرورة... غدا صوته حزيناً في تلك اللحظة، ستغادرني.. وستكون غنياً! نعم! غنياً أؤكد لك.

جعلني كلامه أفتح شدقي عن آخره، وظل هكذا فاغراً.

«أنت تفهمني، ليس كل شيء داخل محفظة النقود... يا فرديناند! لا ليس ثمة شيء في محفظة النقود! لا شيء أبداً!...».

كان هذا هو رأيي أيضاً.

«ثم إنني، بداية، فكر بذلك! سأصنع لك إسماً، أول الأمر! مبرر وجود! ذلك مهم في أعمالنا! سأصنع لك لقباً شرعيا!... سأضع

لقبك على الأوراق، على كل الأوراق! «سكرتير اللـوازم» هيـه! مـاذا تقول؟ هذا يبدو لي ملائماً جداً... هذا يناسبك؟ لا دعياً! ولا نكرة؟.. تمام؟».

كان هذا يناسبني بالتأكيد... كل شيء كان يناسبني... ولكن منصب سكرتير اللوازم ليس منصباً شرفياً على الإطلاق... كان هذا يعد عملاً حقيقياً!... لقد حررني دفعة واحدة... كنـت أنـا مـن سـيتكفل بتسليم الطلبات ونقلها بواسطة عربة يدوية.. والذهاب والإيـاب إلى صـاحب المطبعة... كنت المسؤول أيـضاً عـن رتـق الخـروق في كـرة المنطـاد الكبيرة.. وكـان علـي كـذلك أن أعثـر لـه علـى كـلِّ الأدوات الملقـاة بإهمال، البارومتر، وحبال التثبيت، وجميع اللوازم الصغيرة، وسـائر الخردة... كنت أنا أيضاً من يصلح الأضرار في الغلاف الكـبير، أرتـق شقوقه بخيوط القنب، وبالغراء. وأعقد بإحكـام الحبـال والأمـراس... وأصلح العدد التي تتلف على الطريق... كان «الزيلي» عبارة عـن كـرة - بالغة الهيبة والجلال، تعلقت بها سـلة خطـيرة الـشأن. كـان يرقـد، على هذا النحو في عمق القبو مرشوشاً بالنفتالين... كانت ثمة حشرات لا يحصيها العد تقيم ولائمها بـين طياتـه... كانـت الجـرذان، لحسن الحظ تعاف الكاوتشوك.. غير أن ثمة فئران صغيرة كانت تتغـذى على نسيجه. كنت أنقب في الزيلي عن كل الخروق، عن أصـغر الثغـرات، وأصـلح نـسيجه الـداخلي المتمـوج، المطـوي، المغـضن، وأرتـق شقوقه... فيما هو ممدد في كل الأنحاء، كنت أمكث ساعات بكاملـها في خياطة الفتوق، حتى انتهيت إلى الولوع بهذا العمل...

في غرفة الرياضة الصغيرة، كان هناك، مع ذلك حيز كـاف أتحـرك فيه... ومن ثم فقد كان خليقاً أن أنأى عن أنظار زائري الحانوت.

كان علي أيضاً ذات يوم، وهذا مـن ضـمن اتفاقنـا، أن أصـعد إلى

داخل المنطاد على ارتفاع ثلاثمئة متر.. في يوم أحد من الآحاد.. لأكون المعاون خلال التحليق... بحيث كنت سأغير لقبي.. كما كان يقول لي، كنت أخمن أنه يقول لي ذلك كي أبذل المزيد من الحرص والعناية في رتق خروق الغلاف... كان يبدو بالغ الدهاء وهو يرمقني من تحت حاجبيه الكثين!... كان ينظر إلي بطرف عينه الصغيرة الشريرة... كنت أدرك مقاصده أيضاً... كان يجعلني «أصعد» سلفاً!... وأخيراً كنا نتناول طعامنا بشهية في خلفية الحانوت... لم أكن تعيساً جداً... كان من المروض أن يمتلكني! دون أن يكون رب عمل بالنسبة إلي! وفيما أكون هكذا مستغرقاً في أعمال اللفق والحبك، كان يأتي إلي غالباً في حوالي الساعة الرابعة ليخبرني:

- فرديناند! لقد أغلقت المخزن... إذا جاء أحد... إذا سألوا عني فقل لهم بأنني خرجت منذ خمس دقائق، وأنني كنت مستعجلاً أيضاً! وسأعود عما قريب!.

عرفت، بوجه الضبط، إلى أين كان يمضي، كان ينطلق عدواً إلى «الايموت» وهو بار صغير في باساج فيليدو، في ناصية شارع رادزويل من أجل أن يتحقق من «نتائج سباقات الخيل»... تلك كانت بالضبط ساعة إعلان النتائج... لم يكن يقول لي شيئاً محدداً عن هذا... ولكنني كنت أعرف مع ذلك... فإذا ربح شرع يصفر لحن «الماتشيش»... ولم يكن يحدث هذا غالباً... وإذا خسر... كان يلوك مضغة تبغه، ويبصق في كل مكان. كان يتحقق من الخيول المجلّية عن طريق التكهن وضرب الفأل، فيطلق بطة تتسكع في الزوايا والأركان. ليستدل بها على علامة الحصان الفائز كأن يؤشر بالأزرق فوق «خيوله». كان ذلك أول عيب اكتشفته فيه.

* * *

إذا كان قد تردد في إدخالي في موسيقاه، فذلك على الأخص، بسبب «الخيول»... كان يخشى أن أثرثر... أن أردد هنا وهناك بأنه كان يقامر في فينسين... وحينئذ فإن هذا سيصل إلى آذان المشاركين في مجلته. وقد أفضى إليَّ فيما بعد... بأنه مني بخسارات باهظة، لم يكن محظوظاً، سواء اتبع طرقاً سحرية في المراهنة أم أغمض عينيه وراهن، فهو لم يستعد أي شيء من رهاناته... في سور ميزون، أو في سانت كلود، أو في شانتيلي... كان النحس يلازمه دائماً... كانت تلك دوامة حقيقية... جميع الاشتراكات كانت تذهب أدراج الرياح في تلك الفانتازيا... وأموال المنطاد أيضاً كانت على وشك أن تتبخر في ميدان أوتوي... إنه ثمل العِرق الخيلي! لونغ شامب! بورت! اركوي كاشان! يووب! يوب! يووب! لا لا! قفزت الخيول! نجحنا! كنت أرى الصندوق يخوي ويتقلص. والسرُّ لم يكن خافياً... فالنقود القليلة تتلاشى يوماً بعد يوم في السباق! خلسة! وبسرعة فائقة! الحصان المجلي! الحصان الفائز! بطريقة بارعة!... لم يكن يكسب قط في رهاناته. وهكذا اقتصر طعامنا على لقيمات من الفاصولياء كي نسدد مع ذلك أجر صاحب المطبعة. ولم أعد أذوق نبيذي الأبيض إلا مرة في الأسبوع. كنا نتناول الطعام فوق فوطة صغيرة مفروشة على الأرض، جاثين على ركبنا في خلفية المكتب... لم أكن أجد ذلك مسلياً... وحينما كان يمنيَ بخسارة، لم يكن يقدم أي توضيح، لم يعترف على الإطلاق، كان يغدو ساخطاً، مدققاً، عدوانياً تجاهي، مستغلاً كل الاستغلال قوته وسلطانه.

بعد مضي شهرين من وضعي تحت التجربة، أدرك تماماً بأنه لن يروق لي مكان آخر أكثر من هذا المكان... وأن وظيفة ساعي «الجينترون» مفصلة على قدي تماماً، وأنها ملائمة لي كل الملاءمة،

وأن العمل في أي مكان آخر ووسط أي عصير آخر سيكون مستحيلاً بالنسبة إلي... كان ذلك مكتوباً في لوح قدري... وحين كان يربح أحياناً، لم يكن يعيد أي قرش إلى الصندوق، كان يغدو أشد دناءة، كما لو أنه كان ينتقم. ولا يتخلى عن فلس واحد. وكدأبه دائماً في المكر والكذب، على غرار دزينة من حمالات النهود، كان يروي على مسامعي شائعات وأكاذيب... وما إن يجن الليل حتى كنت أرددها بيني وبين نفسي لفرط ما كانت مفزعة وفاجرة وثقيلة!... كانت توقظني من نومي وأنا أرتجف. ولم تكن أكاذيبه تلك تخلو أحياناً من المكر وسعة الخيال... وكل ذلك من أجل أن لا يدفع لي فلساً واحداً.... غير أنه حين كان يعود من المقاطعة، مكللاً بالمديح والإطراء.... لأنه حقق نجاحاً باهراً في صعوده بالمنطاد.... ولأن نسيج منطاده «الزيلي» لم يتعرض للشقوق والفتوق... كانت تبدر منه فورات سخاء لا نظير لها.... كان يسرف في الإنفاق أيما إسراف.... ويعود إلينا بأكوام من المأكولات، عبر الباب المفضي إلى خلفية الحانوت... سلال ملأى.... وطوال ثمانية أيام كنا نلتهم من الأطعمة، حتى لا يعود بوسعنا أن نمضغ شيئاً، وحتى تكاد تنقطع حمالات بناطيلنا... كان خليقاً أن أنتهز هذه المناسبات، فسيعقبها القحط لا محالة!... ونعود من جديد إلى مرق الخل والبيض!... أو نعد طبقاً من الفطر بالزيت... مع مخلل الخيار... أو السردين مع بعض بصلات صغيرة.... وحين يقترب أوان دفع القسط الشهري فليس ثمة ما نأكله سوى ثريد الخبز والماء والزبد المغلي، مع البطاطا أو من دونها. أما هو فكان لديه فرصة أخرى. كان يأكل ثانية في المساء في بيته، في مونترتو، مع زوجته! لذا فهو لم يكن ينحف... في حين أنني كنت أغدو جلداً على عظم!.

ولكن لفرط ما كنا نشد الأحزمة على البطون، فقد ازددت يقظة وانتباهاً... ودائماً بخصوص الاشتراكات... ففيما يتعلق بالشؤون المالية، لم يكن ثمة عوائد منتظمة... لا شيء سوى «سحوبات» من الصندوق... كان يكابد مشقة عظيمة في ضبط حساباته... فيضطر إلى عرضها على زوجته. كان هذا الضبط للحسابات يفاقم حنقه... ويؤجج نيران غضبه بنحو مقزز... كان يتصبب عرقاً لساعات... بسبب صفوف الأرقام والأصفار....

أخيراً، ورغم كل شيء، كان ثمة بند من بنود اتفاقنا لم يخرقه قط، ولم يتجاوزه في يوم من الأيام، لم يراوغ في تحقيقه أبداً، ولم ينكل عنه حتى ولا مرة واحدة. كان ذلك يتعلق بتثقيفي، بتوجيهي العلمي.... ها هنا الذات، لم يتراجع قيد أنملة، لم يبد أي انزعاج ولو لثانية واحدة، لم يستنكف عن ذلك ما دمت أصغي إليه. كان هذا يسره على الدوام، يفتنه، يملؤه بالبهجة والرضى. لقد عهدته دوماً مستعداً لأن يضحي من أجلي بساعة من وقته، بساعتين أو أكثر، أيام بكاملها في بعض الأحيان، ابتغاء أن يشرح لي أي شيء لا على التعيين... كل ما كان من المكن فهمه وتحليله واستيعابه، بصدد اتجاه الرياح، أو مدارات القمر، أو شدة مولدات الحرارة، أو نضج القثاء، أو انعكاسات قوس قزح... أجل! كان له غرام بالتعليم يبلغ حد الولع. وقد عزم أمره على أن يعلمني جميع كليات الأشياء. كان يكلفني في بعض الأحيان ما لا أطيق! لم يكن بمقدوره أن يمتنع عن ذلك! في جميع الأحوال! كنت أفكر بكل هذا، وأنا جالس في خلفية الحانوت، أرتق أشياءه المعطوبة، كانت تلك طبيعته التي فطر عليها... كان رجلاً لا يعرف الكلال... كان لا بد له من أن يندفع كلياً، في هذا الاتجاه أو في الاتجاه الآخر، ولكن حتى النهاية

القصوى، لم يكن ملولاً! آه! لا يمكن قول ذلك! ما كان يثير فضولي هو أن أذهب ذات يوم إلى بيته... كان يحدثني غالباً عن زوجته، ولكنه لم يرني وجهها في يوم من الأيام، لم تكن تأتي قط إلى المكتب. ما كانت تحب «الجينترون». كان لها أسبابها بالتأكيد.

* * *

حينما تأكدت أمي من أنني وجدت عملاً، وأنني لن أغادره في الحال، وأن لدي الآن وظيفة ثابتة عند هذا الدوبيريري، تعمدت أن تأتي بنفسها إلى قصره الملكي حاملة لي ثياباً داخلية.... كانت تلك ذريعة في واقع الحال... كي تتأكد بعض التأكد من نوع ومظهر المكان الذي أعمل فيه... كانت فضولية مثل بومة... تريد أن ترى كل شيء، وتعرف كل شيء... كيف هي «الجينترون»؟ وعلى أي نحو كنت أقيم؟ وما إذا كنت آكل كفاية؟.

من دكانها وحتى مكتبنا، لم تكن المسافة بعيدة... فهي لا تكاد تستغرق ربع ساعة على الأرجل. ورغم ذلك، فقد وصلت محشرجة الأنفاس من التعب... دائخة تماماً.. لمحتها من مسافة بعيدة... من نهاية الممر المفضي إلى حديقة مكتبنا، فيما كنت أتحدث مع أحد المشتركين في الصحيفة. كانت تستند إلى الواجهات، وتتوقف دون أن تتظاهر بذلك... وتستريح كل عشرين متراً... لم أكن قد رأيتها منذ ثلاثة أشهر... بدت لي في غاية الهزال، وقد دكن وجهها وعلته صفرة، وغار محجراها وخداها، وأحاطت التجاعيد بعينيها. لقد عدا عليها المرض كما بدا لي. وما إن قدمت لي جواربي وسراويلي الداخلية، ومناديلي الكبيرة حتى أنشأت على الفور تحدثني عن والدي، دون أن أسألها عنه... قالت بأنه سيظل متأثراً طيلة حياته بسبب اعتدائي عليه. وانتحبت حالاً، فيما هي تقول لي ذلك. لقد

أعادوه بالسيارة مرتين من المكتب... لم يعد باستطاعته أن يتماسك دون أن يتكئ على شيء يسنده... بعد أن استتب فيه الوهن حتى ليوشك دائما على الانهيار. طلب منها أن تخبرني بأنه سامحني من أعماق قلبه، ولكنه لم يعد راغباً في أن يتحدث معي، قبل مرور زمن طويل... قبل أن ألتحق بخدمة الجيش... قبل أن أغير سلوكي وعقليتي... قبل أن أعود من خدمتي العسكرية.

كان كورتيال دي بيريري قد عاد في تلك اللحظة من نزهته، وربما من بار «الايموت». كانت خسارته على الأغلب أقل من المعتاد... غدا فجأة ودوداً للغاية، حفياً، أنيساً إلى أبعد حد... «أنا سعيد برؤيتك»... وقد أشعرني ذلك بالاطمئنان والسكينة. كان يسرف في ملاطفته كي يثير إعجاب والدتي. ورغب في أن تصعد معه إلى الأعلى كي يتبادلا أطراف الحديث، داخل مكتبه الخاص «التونسي» في الطابق فوق الأرضي.... وقد لاقت عناء شديداً وهي تتبعه... كان المكتب ذا شكل لولبي فظيع... مغطى، على الأخص بالأقذار والأوراق القديمة التي انزلقت وتناثرت، كان فخوراً جداً بـ«مكتبه التونسي»، مولعاً بأن يريه لكل من يزوره. طقم مرعب من الأثاث من طراز فوياسون مع خوان في الجدار... لم يكن من الممكن تصور ما هو أقبح منه، وارائك مغربية، وبساط كثير التجاعيد، يختزن وحده، طناً من الغبار... لم يحاول أحد قط الدخول إليه، ولا حتى التفكير بتنظيفه... فضلاً عن أكداس المطبوعات، وركام التجارب الطباعية، وأحرف الرصاص، والمسودات الملقاة بإهمال والتي تجعل أي جهد من أجل تنظيفه عبثاً لا طائل منه... ينبغي الاعتراف أيضاً بأن هذا كان من الممكن أن يكون محفوفاً بالخطر... كان الإخلال بالتوازن فيه مجازفة حقيقية. كان خليقاً أن يبقى كل ذلك ساكناً مستقراً، وأن يجري التحرك داخله بأقل حد ممكن.

كنت أسمعهما يتحدثان... كان كورتيال يعلن لها بكل وضوح بأنه قد ميز لدي استعدادات حقيقية فعلاً لفن الصحافة الذي يجلب الثراء للجينترون... الريبورتاج!... والبحث التقني!.... والتركيز العلمي! والنقد النزيه... وأنني سأحقق النجاح من دون ريب... وأن بإمكانها أن تعود مطمئنة، وتنام ملء جفنيها... وأن المستقبل كان يبتسم لي... وأنه سيكون من حقي أن أحصل حالاً على كل المعارف الأساسية. ليست المسألة أكثر من مجرد روتين وصبر... لأنه سيثبت في ذهني، أولاً بأول كل ما سأكون بحاجة إليه... ولكن كل هذا لن يحدث إلا بالتدريج!... آه! أوه! لقد كان دائماً عدواً للتعجل! للتهور الأرعن. ينبغي عدم الاستعجال في أي شيء! والإحجام عن دفع الأمور بسرعة كبيرة! وعن الخلط والسفسفة الحمقاء! كنت أظهر، فوق ذلك، بحسب هذره هذا، رغبة قوية جداً في التعلم!... إضافة إلى أنني غدوت حاذقاً... أؤدي بكل دقة المهمات الصغيرة المطلوبة مني.. كنتب أنقذ شرفي المهدور... وسأغدو ماكراً مثل قرد! مبادراً! أريبا! مثابراً! متروياً! لقد أفاض، أخيراً في هذا اللغو الفارغ! وما عاد يتوقف عن التحدث عني... كانت تلك هي المرة الأولى التي تسمع فيها أمي البائسة، طوال حياتها، من يتحدث عن ابنها بمثل هذه المدائح.... لم تكن تصدق أذنيها... وفي نهاية المحادثة، وقبل أن يفترقا، عرض عليها بأن تأخذ معها مجموعة من بطاقات الاكتتاب في الجينترون.، فسيمكنها من دون ريب توزيعها على معارفها وعلى الذين تلتقي بهم... وعدته بتلبية كل ما كان يريده. كانت تنظر إليه مندهشة كلياً... لم يكن كورتيال يرتدي قميصاً، بل واقية قميص مبرنقة فقط فوق صدرة من الفلانيلة، وكانت صدرته هذه ترتفع فوق ياقته الاصطناعية الصغيرة، والقذرة كلياً بالتأكيد. كان يضع في الشتاء

اثنتين منها، واحدة فوق الأخرى. وفي الصيف أيضاً، أيام الحر الشديد، وكان يرتدي معطفه ذا القبة المنشاة، والمنخفضة قليلاً. رفع قبعته القشية، وحملها بعناية فائقة... كانت نموذجاً فريداً، تحفة حقيقية، من نوع سومبريرو، قدمت له هدية في أميركا اللاتينية. نسيج نادر جداً! يتعذر تقليده!... ومنذ أول حزيران وحتى الخامس عشر من أيلول كان يحتفظ بها فوق رأسه، ولا ينزعها أبداً، متذرعاً بحجة غريبة... هي أنه كان واثقاً من أن أحداً سيسرقها منه ذات يوم!... وفي أيام الأحد... كانت لحظة صعوده بالمنطاد هي اللحظة التي يبلغ فيها ذروة القلق من أجلها... كانت تشكل جزءاً أساسياً من بزة الطيران... كان يعهد لي بكنزه هذا... ولكنه حين كان يلامس الأرض، بعد هبوطه، متدحرجاً مثل أرنب، وسط الوحول والأقذار، يقفز نحو قبعته البانامايـة، مطلقاً صيحته الأولى: «هيه، قبعتي البانامية يا فرديناند! قبعتي البانامية! اللعنة!...».

لاحظت أمي على الفور سماكة صدرته الفلانيلة ونعومة قبعته الجميلة... وجعلها هو تلمس نسيجها القشي المجدول كي تتأكد بنفسها... لبثت لحظة طويلة تنظر بإعجاب، ثم قالت في غمرة من الذهول: «أوه! تتت! أوه! تتت!... آه! يا سيدي! لقد رأيتها جيداً! يا له من قش رائع»...

كل هذا أعاد الثقة إلى أمي الطيبة... وبدا لها فألاً طيباً جداً... كانت تحب بوجه خاص، صدرات الفلانيلة. كان هذا بالنسبة لها برهاناً دامغاً لا يخدعها قط في يوم من الأيام... وبعد وداع رقيق انطلقت ببطء وتمهل... وساورني الاعتقاد بأنها كانت للمرة الأولى خلال حياتها وحياتي أقل قلقاً فيما يتعلق بمستقبلي ومصيري.

* * *

لا مراء في أنني كنت مندفعاً بنشاط إلى العمل.... كان على كاهلي إنجاز الكثير من الأعمال... من الصباح وحتى المساء... فبالإضافة إلى «شحن» مسودات الصحيفة إلى المطبعة على عربة يدوية، كان لدي «الزيلي» الرابض في القبو... وعمليات رتق غلافه التي لا نهاية لها. وكان هناك طيور الحمام التي لا بد من الاهتمام بها مرتين أو ثلاثاً كل يوم... كانت تلك الحيوانات الصغيرة تظل طيلة الأسبوع في غرفة الخادمة. ومنذ الساعة السادسة صباحاً، كن يشرعن في الهديل بشغف، تحت السقائف... لم تكن تلك الحمامات تشعر بأي ضيق أو قلق, وفي يوم الأحد يحين أوان عملها، في الصعود إلى المنطاد. كنا نضعها في سلة كبيرة... وعلى علو مئتين أو ثلاثمئة متر كان كورتيال يرفع غطاءها، تلكم كانت عملية الإطلاق الفريدة... كان تعود بسرعة فائقة... باتجاه الباليه رويال، حاملة رسائل بأرجلها!.. كنا نترك لها النافذة مفتوحة.. فلا تتلكأ قط في طريقها، ما كانت تحب البراري ولا النزهات البعيدة... كانت تعود على نحو آلي.. متعلقة تعلقاً شديداً بوكرها وبسجعها «ررروو!... ررروو! ترووو!... ررروو!» لم تكن تطلب أكثر من ذلك.. كان هذا ديدنها... كانت تعود قبل أن نعود نحن... ما عرفت قط حمامات أقل حماساً للسفر والتطواف منها، أو أشد ولعاً بالعيش بهدوء واطمئنان... ومع أنني كنت أترك لها جميع الأبواب والنوافذ مفتوحة.. فما خامرتها يوماً فكرة الذهاب في جولة إلى الحديقة... أو الذهاب لرؤية عصافير الدوري... أو لرؤية الحمائم الأخرى الرمادية الضخمة التي تلهو في فضاء المروج... وحول البرك... وفوق التماثيل أحياناً! فوق ديمولين!... أو فوق توتور!.. حيث تصنع له مكياجاً جميلاً!... لا شيء من ذلك على

الإطلاق! كانت متآلفة فيما بينها تماماً.. تجد نفسها رغيدة داخل حجرتها فوق السلم، لا تتحرك إلا مرغمة، أو مضطرة، أو مكدسة كيفما اتفق داخل سلة القصب... كانت كلفتها باهظة مع ذلك، بسبب طعامها من البزور... كنا بحاجة إلى كميات كبيرة لإطعامها، فقد كان ذلك يمنحها الكثير من الدفء.. ما كان أشد نهمها! بسبب حرارتها الشديدة الارتفاع في العادة، والتي تبلغ اثنتين وأربعين درجة ونيف... كنت أجمع زرقها بعناية... وأصنع منه عدداً من الأكوام الصغيرة على امتداد الجدار، ثم أدعها تجف. وكان هذا يعوض كلفة طعامها مع ذلك، كان سماداً ممتازاً... وحينما كان يتجمع لدي ملء كيس، مرتين في الشهر تقريباً، كان كورتيال يأخذه بغية استخدامه في زراعاته... في حديقة بيته في مونترتو، كان بيته يتربع هناك فوق الربوة محاطاً بحديقة كبيرة تضم نباتات تجاربه... لم يكن ثمة أفضل خميرة منه.

لشد ما كنت متفاهماً مع الحمامات، كن يذكّرنني أحياناً بجونكيند... وقد علمتهن القيام بنزهات.. ولطول ألفتهن لي، على هذا النحو... كن ينقرن الحب من يدي بالتأكيد... ولكنني حققت من النجاح معهن ما هو أكثر بكثير، كن يجثمن جميعاً، الاثنتا عشرة معاً فوق عصا المكنسة، وأفلحت على هذا النحو في النزول بهن والصعود من وإلى الحانوت، دون أن يتحركن، أو يطرن.. كن حقاً من الطيور الآبدة (التي تقيم في مكان لا تبرحه). وحين كنا نضعهن داخل السلة كي يقلعن في المنطاد يصبحن حزينات غاية الحزن، ولا يعدن يسجعن أبداً، كن يدخلن رؤوسهن داخل أرياشهن كارهات لتلك الرحلة.

***

انقضى شهران آخران... اكتسبت شيئاً فشيئاً ثقة كورتيال، بنيتها حجراً حجر. بات الآن مقتنعاً بأننا خلقنا لنتفاهم... كنت أتمتع في نظره بالعديد من الميزات، ما كنت متطلباً جداً بصدد الطعام، ولا بصدد الأجر، أو ساعات العمل... ولم أكن أحتج كثيراً!... حسبي أنني كنت أغدو حراً في المساء، كان يريحني بعد الساعة السابعة، فأجد نفسي على أحسن ما يرام.

مع حلول منتصف الليل. حين كان يمضي إلى قطاره، كنت أغدو المعلم الوحيد على قصره الملكي وعلى الصحيفة... كنت أصرف المخترعين... بلطيف الكلام، ثم أنطلق في رحلة شطر شارع رامبوتو غالباً، أدفع عربة «البريد» مكتظة «بالهذر والثرثرة». وفي بداية الأسبوع كان علي أن أستعيد المسودة الأخيرة والمختصرات والكليشات والرسوم من المطبعة. كان هذا يشكل، بالإضافة إلى الحمامات، و«الزيلي»، وأعمال متعددة أخرى ترويضاً متواصلاً كترويض الخيل... أما هو فكان يمضي إلى بلدته في الضواحي، كان له هناك، كما يردد أمامي دائماً، عملاً مستعجلاً، هوووم! الزراعة الحديثة! كان يقول لي ذلك دون أن يبتسم... ولكنني كنت أعتقد أن ذلك ليس سوى ترهات... وفي بعض الأحايين كان ينسى أن يعود، ويبقى يومين أو ثلاثة خارج المكتب... لم يكن غيابه يقلقني... كنت أشعر بالانفراج قليلاً، وهو ما كنت بحاجة إليه... كنت أقدم الطعام للطيور في الأعلى داخل التخشيبة، ثم أعلق لوحتي في وسط الواجهة الزجاجية: «المكتب مغلق اليوم»... وأذهب لأجلس هانئ البال على مقعد غير بعيد تحت ظل أشجار الحديقة... ومن هناك، كنت أراقب المبنى، وأراقب الغادين والرائحين... وأنظر إلى القادمين، الزمرة ذاتها دوماً من المخترعين الصغار الرثين المهلهلين... إنهم المهووسون ذاتهم، وجوه

المساطيل ذاتها.. حشد الغاضبين المدمدمين، من المبتكرين والمكتتبين... كانوا يصطدمون بالعبارة المدونة على اللوحة المعلقة. فيصبون جام غضبهم على مقبض الباب ولا يتركونه حتى يتعطل، ثم يولون الأدبار، كنت أشعر بسرور غامر لرحيلهم.

حين كان المهرج الآخر يعود من جولته، كان يتخذ سحنة غريبة مضحكة... كان ينظر إلي بفضول ليرى ما إذا كنت أشتبه به أو بغيابه...

- لقد احتجزت هناك، أنت تعلم، لم تسر التجربة كما أشتهي... كنت أعتقد بأنني لن أنتهي منها أبداً...

- آه إنه لأمر مؤسف، كنت أقول له.. أتمنى أن تكون مسروراً؟...

ثم ما يلبث أن يستطرد، ويسترسل في الحديث ما شاء له الاسترسال، ومع مرور الأيام روى لي جميع التفاصيل حول بدايات مشروعه، لم يكن في حديثه ما هو غير عادي، كان يبغي تنفيس همومه. كيف تم تجهيز المشروع، ومن ثم جميع المصادفات والمخاطر، الأعمال الأشد خطراً، رد الأقساط للمكتتبين... وفي نهاية المطاف أطلعني على كلِّ أسراره، وهو ما كان نادراً من دون ريب، إذا ما جرى التفكير لحظة بطبعه المجبول على الدناءة، وشكوكه التي لا حصر لها، وخيباته الكارثية المشؤومة... لم يكن من أولئك الذين يحبون الشكوى... كان مثخناً بإحباطات مريرة! يصعب تخيلها في الحقيقة!... لم تكن الرياح تجري دائماً كما يشتهي، التجارة وصحبة المخترعين!... ولكن لا ينبغي خلط الخراف بالماعز!... آه! لا! كان يظهر من بينهم من وقت إلى آخر متوحشون حقيقيون، جهنميون بلا أدنى شك، ينفجرون مثل الميلينيت (مادة شديدة الانفجار) ما إن يشعروا بأنه قد حجب عنهم بعض الأمور... من البديهي مع ذلك بأنه لا يمكن إرضاء جميع الناس!

كان هناك الشيطان وحاشيته! لا شك أن هذا كـان سيسهل علي الأمـور إلى حد بعيد! كنت أنا نفسي مطلعاً على ذلـك بعـض الإطـلاع!... كـان يعطيني، في هذا الصدد، مثالاً رهيباً حقـاً عـن الخبـث والـدهاء... تـرى إلى أين كان يمكن أن يقود هذا...

في عام 1884 كلفه ناشران من أشـهر ناشـري تلـك الحقبـة، همـا بوبـوال وبرانـدون بتـأليف كتيـب تعليمـي عـام لمنـهاج المـدارس الإعدادية... كتاب مختصر، بالضرورة، ولكنه متقن مع ذلك، كتـاب مبادئ عامة بالتأكيد، ولكنه مكثف وبالغ التركيز بنحو خاص.. بعنـوان «علم الفلك المنزلي»، وأن يقوم في المناسبة ذاتها باستعراض مـسائل الجاذبية، الثقالة، ويقـدم شـروحاً خاصـة للعـائلات، انـدفع إذن إلى العمل، انكب عليه في الحال، كان بوسعه الاكتفـاء بـأن يـسلمهما في الموعد المقرر مؤلفاً صـغيراً مختـصراً، يرمّقـه ترميقـاً بالاقتبـاس مـن بعض المجلات العلمية الأجنبية، وأن يجمع على عجـل استـشهادات مؤقتة مبتورة ومشوهة ومتسرعة! حول نشأة الكون، أسـوأ بـألف مـرة من كل مـا تحتويـه الكتيبـات الـصغيرة الأخـرى، حافلـة بالأخطـاء، ودونما تعليل، ويتعذر استخدامها بالتأكيد! ولكن كورتيال، كمـا هـو معهود منه، لم يكن يأكل من هذا الخبز. كان ذلك مسألة وجدان! لقد انصب اهتمامه الأعظم، قبـل كـل شـيء، وقبـل البـدء بمؤلفـه علـى الوصول إلى نتائج عملية محسوسة... كـان يرنـو إلى أن يكـوّن قارئـه بنفسه اقتناعه الخاص عبر تجاربه الشخصية... أما بصدد الأشياء الأكثر تخصصاً، كالكواكب والجاذبية... والتي اكتـشف هـو ذاتـه قوانينـها.. فكان يريد، على هذا النحو، أن يرغم قارئه الكسول دوماً على القيـام بمبادرات عملية، وليس الاكتفاء بلازمات متكررة لا طائل منها.. لهذا فقد أضاف إلى الكتاب دليلاً صـغيراً حـول طريقـة صـنع «التلـسكوب

المنزلي»... بضع قطع مربعة من الكرتون لتوفير الحجرة المظلمة.. ولعبة مرايا رخيصة الثمن.. وعدسة عادية.. وبضعة أسلاك مغلفة بالرصاص.. وكلها موضوعة داخل اسطوانة.. بتطبيق هذه التعليمات بدقة، وبكلفة بسيطة مقدارها سبعة عشر فرنكاً وسبعون فلساً (حساب بالقيراط) يمكن الحصول بهذا التركيب الأخاذ والمدهش ليس فقط على رؤية مباشرة لمجموعات النجوم الرئيسية، بل وعلى صور فوتوغرافية لمعظم الكواكب الكبيرة في فلكنا. وقد صدر الكتيب بعنوان: «الأرصاد الفلكية في متناول العائلات»... ومنذ صدور الكتيب بادر أكثر من خمسة وعشرين ألف قارئ، على الفور في إنشاء تلسكوبهم، ذلك الجهاز الرائع الصغير للتصوير النجمي.

استمعت أيضاً إلى دي بيريري، وهو يروي لي بالتفصيل عن ضروب الغصص والكروب التي تبعت ذلك... الازدراء المريع من قبل السلطات العلمية المختصة... تحيزها الدنيء... لشد ما كان ذلك مريراً، بغيضاً، مثبطاً للهمة.. كم تعرض للقدح، والتهديد، والتحديات.. ألف رسالة تهديد.. إنذارات قضائية.. وماذا عسى أن يفعل سوى أن ينزوي بعيداً عن الأنظار، أن يلزم بيته!... كان يقيم حينذاك في شارع مونج... ولما اشتدت عليه الملاحقة، فر إلى مونترتو لفرط ما كان الأوغاد المنكلبون الفاجرون الجشعون يشعرون بالخيبة بسبب التلسكوبية التي ابتكرها... استمرت الدراما ستة أشهر.. ولما تنته ذيولها بعد.. بعض هواة المنطاد الحاقدين، الأشد دبقاً وقذارة من الآخرين كانوا ينتهزون فرصة يوم الأحد للذهاب إلى مونترتو برفقة عائلاتهم كي يرفسوا قفا المعلم... لم يستطع أن يستقبل أحداً طوال سنة تقريباً... كانت قضية التصوير النجمي مثلاً صغيراً من بين أمثلة أخرى على ما كان ينبجس في أعماق طبقة العوام حينما يحاول أحد تثقيفها، وتربيتها، وتحريرها...

«يمكنني القول، لاحظ يا فرديناند، بأنني عانيت الكثير من الآلام في سبيل العلم... أسوأ مما عاناه فلاماريون، هذا أكيد، ومما عاناه راسباي، ومما عاناه مونغولفييه أيضاً، أنا، الأقل شهرة بالطبع! عملت كل شيء! عملت أكثر من الجميع!» كان يكرر لي ذلك مراراً... دون أن أحير جواباً... كان ينظر إلي نظرة جانبية.. متشككاً... تحدوه الرغبة في أن يرى الانطباع الذي يخلفه كلامه.. ثم ما يلبث أن ينقض على كدسة من الأوراق وسط الركام... فينتزع منها، على سبيل التخمين ملفاً مغشى بطبقة سميكة من الغبار. وينفض عنه، بضربات خفيفة، ما علق به من أتربة وأغبرة... كان يتردد قليلاً... ثم يفتحه أمامي باحتراس...

«أفكر في ذلك الآن، والأسف ملء جوانحي... لعلي ما أزال أحمل شيئاً من المرارة! مشدوداً إلى ذكرياتي!.. ربما أكون جائراً بعض الجور... يا إلهي العظيم!... لدي بعض الأسباب!.. أنا أسألك؟ نسيت أثناء الحديث، وهذا سيئ حقاً.. ليس عن قصد بالتأكيد! ليس عن قصد! نسيت الشهادات الأعمق شجى وتأثيراً، والأعظم صدقاً وإخلاصاً ربما، والأشد روعة!... آه! لم يتنكر لي الجميع على الإطلاق!... إن قبح الجنس البشري ليس شاملاً بالتأكيد! لا! ثمة بضع أرواح سامية، هنا وهناك، في هذا العالم! أمكنهم أن يتحققوا من صدقي وحسن نواياي! هي ذي! هي ذي! وأخرج على غير هدى رسائل، ومذكرات، مجموعة من الملاحظات المدونة... «سأقرأ عليك واحدة من تلك الشهادات!»».

«عزيزي كورتيال، أيها المعلم العظيم، والرائد الموقر! لقد تمكنت أمس، بفضلك وبفضل تلسكوبك (للعائلات) الرائع والبالغ الدقة، في الساعة الثانية ليلاً، ومن على شرفة مسكني أن أرى القمر

برمته، أن أراه تماماً، وأرى جباله وأنهاره، وأظن أنني رأيت غابة أيضاً... وربما حتى بحيرة! آمل أن أرى أيضاً كوكب زحل، مع أبنائي في غضون الأسبوع المقبل، مثلما هو محدد «بالأحرف الإيطالية» على صفحات «مفكرتك الفلكية»، وأن أرى «بيليغوفور» في وقت ليس ببعيد، في أيام الخريف الأخيرة، مثلما ذكرت أنت نفسك في الصفحة 242، تحية لك أيها المعلم العزيز، اللطيف والشفوق... إلى جسدك، وقلبك، وروحك من على الأرض، ومن أعالي النجوم.

أحد المريدين

كان يحتفظ على هذا النحو، داخل ملفه الخبازي والليلكي بكل ضروب الهذر الحافلة بالإعجاب، أما الرسائل الأخرى المضادة، المتوعدة، القادحة، الحافلة بالقبح والدمامل فكان يحرقها على الفور. من أجل هذا على الأقل، كان يرعى نظاماً معيناً، ترى كم من الأذى المدمر كان من الممكن أن يحدثه هذا المقدار من السموم المدخنة التي كان ينفثها أمامي في كل مرة عبر تلك القباحات التي يتفوه بها، لو أن جميع الناس كانوا يفعلون مثله! أعتقد بأن الرسائل المحابية كان يكتبها هو بنفسه... وكان يريها لزائريه... لم يعترف لي بذلك على نحو صريح في أي يوم من الأيام... كان يبتسم أحياناً... ما كنت أصدق مزاعمه كلياً كان يدخل في روعه أحياناً بأنني كنت أشتم بخار الكذب في مزاعمه... كان يتجهم حينئذ... فما ألبث أن أصعد لأطعم الحمامات، أو أنزل إلى «الزيلي».

كنت أذهب أيضاً كي أدفع له رهاناته في بار «الايموت»، في ناصية باساج رادزويل، كان يريد أن أقوم أنا بهذه المهمة بسبب الزبائن الذين يعرفونه، وهو ما يمكن أن يلحق الضرر بسمعته... كان يراهن على الجواد «كارتوش» وعلى «ليسترانا» في ميدان فينسين.. يوب! لا لا!...

«ستقول لهم بأن الرهان لـك أنـت!... كـان مـديناً بـالنقود لجميـع وسطاء الرهان حريصاً كل الحرص على أن لا يراه أحد، كـان الغـلام الذي يتسلم مني الرهان بـين صـحاف الحساء في البـار يحمـل اسمـاً مضحكاً، كان يـدعى نـاجير.... لا ينفـك يتـأتئ ويفـافئ أمـام جميـع المراهنين... كان يفعل ذلك عـن عمـد، كمـا أعتقـد، كـي يخـدعهم قليلاً... وبعد أن يبدي كل صنوف الاحتجاج.. كـان يقطـع القسـائم... كنت أجعله يكتب اسمي... وكنا نخسر مع ذلك.

كنـت أعـود مـصطحباً صـحيفة «أصـداء الحلبـات»، أو صـحيفة «الحظ»... فإذا كانت خسارته جسيمة، تـصرف معـي بطريقـة فظـة... وكف عن استقبال المختـرعين... كـان يـصرفهم جميعـاً بخشونة مـع تصاميمهم، وبياناتهم... - هيا انصرفوا جميعـاً، لتنظفـوا مـؤخراتكم! تـصاميمكم هـذه غـير متقنـة بـالمرة!... أنـتم لا تـصدعون رؤوسـكم بـالتفكير!... مثـل هـذه الأفكـار تفـوح منـها رائحـة الـشحم الأسـود والمارغرين! أهـذه أفكـار جديـدة؟ ولكـنني أبـول منـها مـلء ثـلاث مبولات!... ألا تخجلون أحيانـاً؟ ألا تحـسون بالفاجعـة؟ تتجاسـرون بالقـدوم لتعرضـوا علـي هـذا؟ علـي أنـا؟ أنـا المرهـق بكـل صـنوف الحماقات! هيا اخرجوا مـن هنـا! سـحقاً! مبـددون للوقـت والمـال! تنابل، بالروح! والجسد!...

ثم يولي الرجـل الـصغير وجهـه عنـهم، ويـدخل واثبـاً عـبر البـاب، ويندفع إلى الداخل حاملاً ملـف رسـائله مفعمـاً بـالهم والأسـى، راغبـاً بالتفكير بشيء آخر... كنت أنا الجهة التي يصرف أنظاره إليها. كان يبحـث لي عن أضاليل أخرى يهرف بها... «أنت، أليس كذلك، أنت لا يـساورك الشك في أي شيء! تصغي إلى أي كلام! وليس لديك ما تفعلـه في واقـع الأمر... ولكنني أنا، أنـت تفهـم، يـا صـديقي، لـست علـى غـرارك آه!

ليست وجهة نظرنا هي نفسها على الإطلاق!... أنا، ثمة شاغل يشغلني.. شاغل ميتافيزيقي! لا ينفك يستحوذ علي! فلا أملك له صداً! أجل! وهو لا يدعني أنعم بلحظة من الهدوء! أبداً! وحتى حين لا يوحي مظهري بذلك! وحين أتحدث إليك بهذا الشيء أو ذاك! أنا قلق!!... مطارد!... تجتاحني الألغاز!... آه! لعمر الحق! أما أنت فلا يخامرك أي شك. هذا يفاجئك بالتأكيد! ليس لديك أدنى فكرة عنه؟».

كان يتفرس بي من جديد، كما لو أنه لم يكن قد اكتشفني بعد...

- أنت تعيش خلي البال! ماذا تُرى يعنيه ذلك لك؟ تعيش منصرف الذهن كلياً عن النتائج الشاملة التي يمكن أن تنجم عن أبسط أفعالنا، وأفكارنا الطارئة غير المتوقعة!... تلقيها وراءك ظهرياً!.. وتظل منغلقاً داخل أسوار ذاتك كل الانغلاق، أليس كذلك؟ تحكم سد جميع الشقوق على عالمك!... مشدوداً إلى قاع جوهرك الفرد... لا تنفتح على أي شيء... أي شيء على الإطلاق، أليس كذلك؟ تأكل! وتشرب! وتنام! هناك في الأعلى هانئاً قرير العين... متدثراً فوق أريكتي!... دون أن ينقصك شيء... متقلباً على فراش النعم.. الأرض تتابع دورانها... كيف؟ لماذا؟ معجزة خارقة! تتابع رحلتها السرمدية.. المكتنفة بالأسرار بنحو يفوق الوصف... نحو غاية لا تدرك قط... وسط سماء متوهجة بالمذنبات... عصية كلياً على الاكتشاف.. مدار فوق مدار... وكل ثانية هي المآل وهي البدء لمعجزات أزلية أخرى... ألغاز خفية يتعذر النفاذ إليها، بالآلاف!... يا فرديناند! عبر ملايين وبلايين تريليونات السنين... وأنت؟ ما الذي تعنيه لك هذه المعجزة الكوزمولوجية؟ هذا الهول الكوكبي المروع؟ هه، ماذا تقول؟ تأكل بنهم! تزدرد! تشخر! تضحك! أجل! سلَطَة! جبنة غرومير! حكمة! لفت! وكل شيء! أنت تتخبط وسط حمأة وحولك! تتمرغ! تتلطخ!

سميناً! معافى! لا تسأل عن أي شيء! تمر بالنجوم... كما لو أنها قطرات مطر أيار!... وإذن! فأنت رائع مدهش يا فرديناند! يخيل إليك بأن حالك هذا يمكن أن يدوم إلى الأبد؟...

لم أجب بشيء... لم يكن لدي فكرة عن النجوم، ولا عن القمر، ولكن عنه هو، عن فحشه وسفالته. كان لدي إذن فكرة عن ذلك، وكان هو يعرف ذلك جيداً، اللوطي.

- بالمناسبة، إبحث في الأعلى عن الكومودينة الصغيرة، ضعها كلها معاً. لقد تلقيت مئة رسالة على الأقل من النوع ذاته، ما كنت راغباً مع ذلك بأن يرسلوها لي!... سترتبها جيداً! هل تسمعني! أنت تحب الترتيب!... ستستمتع بذلك!...كنت أعرف جيِّداً ما الذي يبتغيه... كان يريد أن يسخر مني!...

- ستجد المفتاح فوق العداد.. أنا سأغيب قليلاً! أغلق المخزن.. لا، بل ستظل هنا كي تجيب على أسئلة المراجعين... - عدل عن رأيه - ستقول لهم بأني سافرت! إلى مكان بعيد.. بعيد جداً!... سافرت في رحلة... سافرت إلى السنغال!... إلى برنامبوك!.. أو إلى المكسيك!... حيثما ترغب أنت! تباً!... بخصوص اليوم، هذا يكفي! أشعر بغثيان حقيقي لدى رؤيتهم يطلون من الحديقة... يكاد يغمى علي، لمجرد أن ألمحهم!... الأمر سيان بالنسبة إلي!... قل لهم ما تشاء... قل لهم أنني في القمر! وأنه لا فائدة من انتظاري... افتح لي باب القبو الآن! أمسك غطاء الباب جيداً! لا تدعه يسقط على رأسي مثلما حدث في المرة الأخيرة، لعمري لقد فعلت ذلك عن قصد!..

لم أجب على كلماته هذه.. دلف عبر باب الدهليز. نزل درجتين، ثلاثاً ثم انتظر لحظة صغيرة، وأعلن لي أيضاً:

- أنت لست سيئاً يا فرديناند.. والدك أخطأ بحقك، أنت لست سيئاً... أنت مشوه! مشوه وحسب!... جبلتك الأولى! في أي شهر أنت! أعني في أي شهر ولدت!.. شباط؟ أيلول؟ آذار؟.

- في شهر شباط يا معلم!...

- كنت سأراهن على ذلك بمئة فلس! شباط! زحل! ماذا تريد أن تغدو! أيها الشقي البائس! ولكن هذا غير معقول! أخيراً! أغلق علي باب السقف! حينما أكون فقط قد بلغت أرض القبو، حين أكون في الأسفل تماماً، هل تسمعني! ليس قبل ذلك على الأخص! لا أريد أن أكسر ساقي الاثنتين! هذا السلم واهٍ جداً! يلتوي تحت ثقلي في وسط الدرجات! علي أن أصلحه دائماً! والآن، أنزل الباب!... كان ما يزال يصيح من أعماق القبو... ليس هنا لجوجون على الأقل! ولا مزعجون! ولا مدمنون على الخمور! أنت تسمعني، لا أريد أن أقابل أحدا! سأعتزل وحدي. سأعتزل بالتأكيد... سأغيب ربما ساعتين... ربما يومين!... لكني لا أريد أن يزعجني أحد! لا تقلق! ربما لن أصعد على الإطلاق! أنت لا تعرف عني شيئاً! فإذا ما سألوك عن ذلك!... فاعلم أنني في تأمل مطلق؟ هل فهمت؟...

- أجل يا معلم!.

- عزلة كلية! تامة، يا فرديناند! عزلة تامة!.

- أجل يا معلم!.

وأفلتّ باب الثقب، فهوى بقوة، مثيراً انفجاراً هائلاً من الغبار! مدوياً مثل مدفع.. ثم غطيته بأوراق الصحف، فاختفى أثره.. صعدت لأطعم الحمامات، مكثت في الأعلى برهة لا بأس بها... وحينما نزلت، تساءلت ما إذا كان ما يزال داخل الثقب، ما

إذا حدث له شيء!... انتظرت قليلاً!... نصف ساعة.. ثلاثة أرباع الساعة... ومن ثم بدأت أشعر بأن الكوميديا زادت عن حدها... رفعت حينئذ الباب القلاب قليلاً، ونظرت في الداخل... إذا لم أكن أراه، فإنني كنت أثير ضجة!... قرعت الباب بقوة.. فاضطر أن يجيبني، وجعله ندائي يخرج من العدم... كان يغفو تقريباً على مبعدة عن فتحة الكوة، مضطجعاً فوق طيات «الزيلي» داخل البطانة الحريرية، فوق طية كبيرة مقببة. كان علي أن أخرجه كي أستأنف عملي... طلبت منه الخروج.. فصعد إلى مستوى الأرض، ثم ظهر من الفتحة... كان يفرك عينيه... ويسوي معطفه... وبدا دائخاً وسط الحانوت...

- أنا منبهر يا فرديناند! هذا جميل... هذا جميل... يأخذ اللب! كان يبدو كالعجين، لم يعد يثرثر كثيراً، واكتنفه الهدوء. ثم راح يصدر من لسانه أصواتاً على هذا النحو! «بيدا! بيدا! بيدا!» خرج من المخزن وهو يترنح من أثر النعاس... يمشي منحرفاً مثل سرطان. دخل إلى مقهى ريجانس القريب... وألقى بنفسه فوق أول مقعد غير بعيد عن الباب. جعلت أراقبه من داخل المخزن.. شرب في البداية شايه الأخضر... كان من السهل مراقبته بعين واحدة عبر التلسكوب، كان لدينا دائماً تلسكوب قوي وجميل على مقربة من واجهة الحانوت الزجاجية. لم يكن ربما يرينا كوكب زحل، ولكنه كان يريني دي بيريري بوضوح، وهو يحلي عصيدته بالسكر، ثم تناول أيضاً قدحاً من النبيذ الأبيض... كنت أميز الألوان بوضوح... قبل أن يتجرع شرابه الشهير الحريف الطعم «دير دي دير».

* * *

بعد حادث السباق نذر كورتيال على نفسه، على نحو احتفالي، بألا يعود في يوم من الأيام، وبأي ثمن إلى الاشتراك مرة أخرى في سباق سيارات... لقد انتهى عهد السباقات، وولى إلى غير رجعة. وقد وفى بوعده الذي قطعه على نفسه.. وحتى بعد عشرين عاماً كان لا بد من التوسل إليه تقريباً كي يقبل قيادة سيارة خلال النزهات البعيدة عن الخطر، أو في بعض الظروف حين يتطلب الأمر قيادة سيارة على سبيل التجربة. كان أكثر اطمئناناً بكثير داخل منطاده المحلق في عباب الريح.

كل تجاربه المتعلقة بـ"الميكانيك" كانت تستقر فوق صفحات الكتب. كان ينشر دائما في كل عام بحثين أو ثلاثة «مع الصور» حول تطوير المحركات، وكتيبين مزينين بلوحات تفصيلية.

وقد أثار أحد كتيباته الصغيرة جدالاً حاداً للغاية، وحتى فضيحة. لم يكن الأمر على الإطلاق بسبب هفوة ارتكبها! كل ما حدث هو أن بعض النصابين حرفوا فكرته بهدف اجتناء بعض الأرباح السهلة! ليس على طريقته البتة. وإليكم عنوان الإعلان الذي نشره هؤلاء على كل حال:

«سيارة حسب الطلب، بكلفة 325 فرنكاً، دليل التركيب كامل، الصناعة بأكملها داخل البيت، 4 مقاعد، مقعدان متحركان، الصندوق من خشب السوحر، بسرعة 22 كم في الساعة، 7 سرعات واثنتان للتقهقر»، ليس سوى قطع منفصلة يمكن شراؤها من أي مكان! التجميع على ذوق الزبون! وحسب شخصيته، وحسب فصول السنة. ذاعت هذه النشرة في كل أرجاء البلاد... ما بين عامي 1902 - 1905. كان الكتيب يمثل تقدماً كبيراً.. لم يكن يحتوي على التصاميم وحسب، بل وعلى جميع الرسوم التخطيطية بمقياس 200 مليمتر! مع صور فوتوغرافية، وبيانات، ومقاطع جانبية، وكلها دقيقة ومضمونة.

كانت ذلك يعني النضال، دون إضاعة ثانية واحدة، ضد الخطر الوليد المتمثل في الإنتاج الغزير المتكرر النموذج. وعلى الرغم من ولع كورتيال بالتقدم العلمي الحثيث وتقديسه له إلا أنه كان يمقت دائماً كل إنتاج وحيد النوع.. كان منذ البداية خصماً لدوداً لمثل هذا الإنتاج.. كان يتنبأ بالانحطاط الحتمي للذات الإنسانية بسبب موت الحرفية.

في الفترة التي نشبت فيها المعركة على السيارة حسب الطلب، كان كورتيال ذائع الصيت تقريباً في أوساط المبدعين المجددين بسبب أبحاثه الأصيلة والجريئة للغاية حول «الشاليه المتعدد المزايا». مسكن مرن، قابل للتوسيع، ملائم لكل العائلات، صالح لجميع المناخات!... «المنزل لذاته»، كما أنه قابل للتفكيك والنقل بالطبع، وللتضييق والاختصار، فوراً، إلى غرفة أو غرفتين، حسب المراد، ووفق الحاجات المختلفة، للمسافرين، والأطفال، والضيوف، والعطلات, يمكن تعديله في اللحظة ذاتها بحسب جميع الطلبات، والأذواق: «البيت العجوز هو الذي لم يعد يتحرك من مكانه! اشتروا بيتاً فتياً، اجعلوه مرناً! لا تبنوا! ركبّوا بيوتكم تركيباً، البناء يعني الموت! نحن لا نبني سوى القبور! اشتروا إذن منزلاً حيًّا! اسكنوا بيتاً حيًّا! «الشاليه المتعدد المزايا» هو الذي يلائم الحياة!...».

تلكم كانت نغمة وطريقة البيان الذي حرره كورتيال بيده، عشية المعرض الذي سيقام تحت شعار «مستقبل العمارة»، في شهر حزيران من عام 1898، في صالة الآلات. أثار كتيبه عن المنزل العائلي، على الفور انفعالا حاداً لدى الأشخاص الذين كانوا على أبواب التقاعد، ولدى أرباب الأسر من ذوي المعاشات المحدودة، ولدى الشبان الخاطبين الذين لا يملكون منزلاً، بالإضافة إلى الموظفين الكولونياليين، احرنجم عليه هؤلاء، وأثقلوه بالأسئلة والطلبات،

من أربعة أقطار فرنسا، ومن الخارج، ومن الدول التابعة للتاج الأمبراطوري. كان منزله المقترح بجملته يقف على قدميه بسقف متحرك و2492 مسماراً، وثلاثة أبواب، و24 ضلعاً، وخمس نوافذ، و42 مفصلة، وبضعة قواطع خشبية، أو قواطع من شاش شفاف، حسب الفصل، كان منزلاً من الدرجة الأولى، لا يجارى، يمكن إقامته، بالمساحة المنشودة، بأيدي رفيقين اثنين، فوق أية أرض، وخلال سبع عشرة دقيقة وأربع ثوان!... عوامل التلف لا تكاد تذكر، فديمومته إذن لا محدودة!... «المقاومة وحدها هي التي تجلب الدمار والخراب! ينبغي أن يلعب المنزل بكامله، أن يحتال على غرار جسم عضوي حقيقي! ينبغي له أن يتمايل ويتموج مع زوابع الريح، والعواصف، وأن يطير مع الأعاصير الهوج دون أن يؤذي سكانه! أما حينما نقاوم هيجانات الطبيعة، بحماقات شنيعة! فستحل الكارثة!... ما الذي يدفعنا إلى البناء الثابت؟ الأكثر تماسكاً؟ والأشد رسوخاً؟ والأعظم مقاومة لعناصر الطبيعة؟ إنه الجنون المطبق! فمن المحتم ذات يوم أن ينقلب رأساً على عقب، وأن يتلاشى كلياً! ليس علينا كي نقتنع بذلك سوى أن نطوف بأحد أريافنا الجميلة! أرض بلادنا الرائعة! أليست مغطاة من شمالها إلى جنوبها بأطلال كئيبة؟ كانت فيما مضى مساكن جميلة مزهوة، وقصوراً شامخة! ترى ما الذي آلت إليه؟ مجرد غبار!». أما «الشاليه المتعدد المزايا» المرن، فهو، على العكس من ذلك، يتلاءم مع المحيط، يتوسع، ويتقلص بحسب الضرورة، والقوانين، وقوى الطبيعة الحية!.

إنه ينحني كثيراً ولكنه لا يتحطم...».

وفي اليوم الذي دشن فيه بناء الشالية المتعدد المزايا، وبعد جولة قصيرة للرئيس فيلكس فور، وإلقاء بعض الخطابات والمجاملات،

حطم الجمهور جميع الحواجز، كانساً من أمامه شرطة الحراسة، واندفع جامحاً إلى داخل جدران الشاليه، فتمزقت التحفة الفريدة إرباً، في الحال، وتطايرت بدداً، وتلاشت بالكامل كأنها لم تكن. هاجت الغوغاء وماجت محمومة ملهوفة لإحراق ما تبقى من مواد الشاليه!... وحينئذ فإن النموذج الفريد لم يكن مدمراً فحسب، ولكنه كان مشفوطاً ممتصاً، مبتلعاً كلياً.. وحينما أغلق المعرض أبوابه مساء، لم يكن قد بقي له أي اثر، لم يعد ثمة فتاة واحدة، مسمار واحد، قطعة واحدة من الشاش... تلاشى الصرح العظيم مثل دمل. حينما كان كورتيال يروي لي تلك الأحداث يوافيه الاضطراب، على الرغم من مرور خمسة عشر عاماً على ذلك...

«لن يعود بوسعي، بالتأكيد، العودة إلى ذلك الميدان... لقد كان، في اعتقادي، هو الميدان الذي خبرته جيداً وأبدعت فيه، دونما غرور. ما كنت أهاب أحداً في وضع تصاميم له "على القيراط"، وتركيبه على الطبيعة... ولكن مشاريع أخرى أجلُّ شأناً جرفتني بعيداً عنه، واستأثرت بي.... ولم يسنح لي الوقت الكافي في أي يوم من الأيام كي أعيد حساب «جداول المقاومة»... قصارى القول، فإن برهاني كان صائباً على الرغم من النهاية المشؤومة!.. لقد أتحت، من خلال جرأتي، لبعض المدارس، وبعض المتحمسين من الشباب أن يسفروا عن مواهبهم، وأن يجهروا بآراءهم، وأن يجدوا، على هذا النحو، طريقهم. ذلكم كان دوري بوجه الضبط! لم يكن لدي ألبتة أية رغبة أخرى! لقد حميت شرف العلم! ما طلبت أي شيء يا فرديناند! ما تطلعت إلى أي شيء! وما سعيت إلى أي جاه أو سلطان! عدت إلى دراساتي.. ما من دسيسة من جانبي! ما من مراوغة! هلا أصغيت إلي! وبعد انقضاء بضعة أشهر... احزر ماذا تلقيت! على التوالي

تقريباً؟ «النيشام» أولاً، وبعد ثمانية أيام «الأوسمة الأكاديمية» حينذاك شعرت بالإهانة، ترى من يظنونني؟ عزمت على أن أعيد كل هذه الأطعمة المغشوشة إلى الوزير، أردت أن أخبر فلاماريون بذلك. ولكن فلاماريون أجابني: «إياك أن تفعل ذلك! إياك! إقبل بما قدموه لك، ولا ترفض! لقد تلقيت أنا مثلها أيضاً!» وهكذا وجدت نفسي مغطى معنوياً فقبلتها! ومع ذلك فقد كافؤوني مالياً على نحو قذر!... آه! القاذورات المفضوحة! جميع مخططاتي وتصاميمي شُطب اسمي عنها، ونسخت، انتحلت، أنت تسمع، بألف طريقة شنيعة! وخرقاء بالطبع، من قبل عدد من المهندسين الرسميين المنتفخين الوقحين، العديمي الحياء، مثلما قلت لفلاماريون... ولكنه نصحني بأن أتمالك نفسي وألزم الهدوء، ولا أثير فضائح أخرى... لأن ذلك سيسبب له، هو نفسه، الأذى.... نصحني أن أصبر قليلاً... لأن اللحظة لم تكن ناضجة بعد... كنت في المحصلة تلميذه.. ما كان حرياً بي أن أنسى ذلك... آه! لم أشعر آنذاك بأية مرارة، صدقني! هذا أكيد! ولكن التفاصيل ما تزال تثير حزني. هذا كل شيء! إنه درس كئيب... ولا شيء أكثر... أفكر به بين وقت وآخر...».

كنت أعرف متى تعاوده سويداء الهندسة المعمارية تلك. كانت تسيطر عليه حينما يكون في الريف... ولحظة صعوده بمنطاده... حينما كان على وشك أن يضع قدمه في سلة المنطاد... كانت الذكريات تهيج به بغتة، وربما يكون حينذاك شاعراً ببعض الخوف، وهو ما كان يوافيه في تلك اللحظة ويدفعه إلى الكلام... كان يرسل نظره بعيداً وصوب مشهد الطبيعة... وسط الضواحي الشاسعة، وعلى الأخص نحو قطع الأرض المفروزة للبناء، حيث الأكواخ المتداعية، والخصاص المبنية من ألواح الخشب المهترئة، وحينذاك يستبد به

التأثر، ويجتاحه انفعال حاد وهو يرى الأكواخ المتصدعة، الأكثر تشوهاً، الحولاء، العرجاء، المتشققة، تستلقي جميعها وسط برك الوحل، وتزحف بين أكوام القمامة والبراز، عند حواف الأرض المفلوحة... خلف الطريق... «أنت ترى بوضوح كل هذا، يا فرديناند! كان يشير لي نحوها حينئذ، أنت ترى بوضوح كل هذه العفونة والأقذار؟» ثم يرسم حركة واسعة، يحتضن الأفق المترامي.. شاملاً بحركته كل ذلك الحشد القبيح من الملاجئ، والكنيسة، وأقفاص المغاسل، وأحواض الدجاج، والمدارس، وجميع الأخصاص المخلعة، المنهارة، الباهتة اللون، المغشاة باللون الخبازي الضارب إلى الصفرة، وكل تلك الأكوام من خثارة الجص.

- حسن، ما قولك؟ أليس هذا مقزز جداً؟.. إيه حسناً، ينبغي علي أن أفعل الكثير! ذلك أنني أنا! أنا المسؤول، يمكنني قول ذلك، على كاهلي أنا يقع عبء ذلك يا فرديناند! هل تسمعني جيداً؟ على كاهلي أنا!...

- آه! كنت أقول كما لو كنت مفعماً بالدهشة والإعجاب. كنت أعلم أن هذه هي خطبته المعتادة... كان يفشخ فوق الحافة... ويقفز داخل السلة المربعة المصنوعة من ألياف السوحر... محتفظاً بقبعته البانامية فوق رأسه إذا كانت الريح تهب رخاء... كان يحب ذلك كثيراً... ولكنه كان يعقدها تحت ذقنه بشريط عريض، أما أنا فكنت أضع على رأسي عمرته.. «أفلت كل الحبال»! وكان المنطاد ينطلق... بهدوء بالغ في البداية... ثم بسرعة أكثر قليلاً.. كان خليقاً أن يسرع فوق السقوف... لم يكن يفرغ أبداً أكياس الرمل.. كان عليه أن يحلِّق أكثر إلى الأعلى.. لم يكن المنطاد ينتفخ أبداً حتى النهاية.. كانت قارورة الغاز تكلف ثلاثة عشر فرنكاً...

* * *

بعد مضي زمن ليس ببعيد على كارثة «الشاليه لذاته»، وعلى هوس التدمير الذي ألمّ بالجمهور، قرر كورتيال فجأة إعادة النظر بسائر تكتيكه.. «المال أولاً» هكذا كان يقول!.. على هذا النحو كان مبدؤه الجديد «ما من احتمالات.. الثبات هو المهم».. كان قد تخيل برنامجاً كاملاً ينطلق من هذه المعطيات.. إصلاحات جوهرية!.. حصيفة وملائمة بالتأكيد..

كان مدار اهتمامه، بادئ بدء، على الرغم من كل العقبات، تحسين شروط المبتكرين.. آه! لقد انطلق من المبدأ القائل بأن عالم الاكتشافات لم تكن تنقصه الأفكار على الإطلاق.. ولكن رأس المال، بالمقابل، جبان رعديد على نحو شنيع! جفول إلى أبعد حد.. وأن جميع تعاسات البشر وتعاساته هو على الأخص ناجمة دائماً عن نقص السيولة المالية، وعن ريبة رأس المال الجاهز للاستخدام.. وعن الثقة النادرة كل الندرة!.. غير أن هذا كان من الممكن تدبيره!.. كان يكفي التدخل، ومعالجة تلك الحالة بمبادرة سعيدة ما... من هنا نبعت فكرة تأسيس «ركن الشريك الممول»، في غاليري مونتبانسيه في الحجرة الملاصقة للمكتب التونسي، بين المطبخ والرواق.. فسحة صغيرة محصورة، بالغة الخصوصية، مؤثثة بمنتهى البساطة: طاولة، وخزانة جدارية، وخزانة ذات أدراج، وكرسيان، وتمثال نصفي فائق الجمال، مشرف على النقاشات، فوق الرف العلوي، بين الملفات، ودائماً ملفات..

بمقتضى الأنظمة الجديدة كان يحق لأي مخترع لقاء اثنين وخمسين فرنكاً «يدفعها سلفاً» أن ينشر في صحيفتنا ثلاث مداخلات متعاقبة حول جميع مشاريعه (بملء اختياره) طبعاً، وحتى الأفكار الأكثر شططاً وغرابة، والتصورات الخيالية الأشد بعثاً على الدوار،

والضلالات الأعظم سخفاً وتفاهة.. كل هذا صار يحتّل في الجينترون عمودين جميلين مع ذلك، إضافة إلى ما يزيد عن عشر دقائق من المحادثة الخاصة التقنية والاستشارية مع المدير العام كورتيال.. أخيراً، وابتغاء جعل الموسيقا أكثر دغدغة لمشاعر الغرور جرى تصميم شهادة مدونة بخط ملون فوق قطعة قماش: «عضو مؤتمن مشارك في مركز بحوث «أوريكا» لتمويل ودراسة، وتطوير، المكتشفات الأكثر فائدة لتقدم كلٍ العلوم والصناعة!...».

لم يكن من السهل على الإطلاق جمع الخمسين نقطة!.. كان ثمة صعوبة بالغة دائمة، حتى ونحن نقرع آذان المبتكرين بأغنيتنا الصغيرة.. ونكيل لهم المدائح والكلام الخلاب.. كانوا يحجمون دائماً تقريباً لحظة الدفع، وحتى أشدهم بلاهة وخرقاً، كان يعتريهم شعور من القلق.. وخلال هذرهم وبطاحهم كان ينبعث في نفوسهم، رغم كل شيء، تهيب شديد.. بأن مبلغهم الصغير سيضيع هباء.. وقد أطلقنا على حيلتنا هذه اسم «تأسيس الملفّ».

كان من المقرر، بالطبع، أن يحمل كورتيال على عاتقه جميع الإجراءات الرئيسية الصغيرة منها والكبيرة.. المقابلات.. وإثبات البراهين.. وعقد الاجتماعات.. والنقاشات التمهيدية، والدفاع عن البواعث والغايات، وكل ما كان يلزم، في المحصلة، كي يجتذب، ويداهن، ويقنع، ويحمّس، ويطمئن اتحاد الممولين.. كل هذا، بالطبع، كان يتم في الوقت المناسب.. ما كان ثمة هزل!.. ولا تسرّع!.. ما من تصرفات طائشة غير متروية!.. ولا خشونة في التعامل!.. كنا نتحاشى أي بادرة فظة، لأن الفظاظة تحبط كل شيء! والتهور ينسف جميع الآمال والتوقعات!.. فالمشاريع الأكثر ربحية هي التي تنضج على مهل!.. كنا أعداء حتى النهاية، شديدي العداوة

لكل سفسفة متعجلة.. لكل هستيريا.. «كل شريك ممول هو عصفور حقيقي على أهبة الفرار! ولكنه سلحفاة على شفا حفرة».

لكي لا يعيق المخترع، إلا بأقل حد ممكن سير المفاوضات، والتي كانت بالغة الدقة والحساسية، كان خليقاً أن نمهد أمامه كل التربة.. ونزيل كلَّ الأنقاض فنزوره في بيته.. وننتظر حتى يدخن غليونه.. ونتغاضى عن مهاتراته.. كان لابد من إعلامه حسب الأصول، ودعوته، وإحاطته بالتفاصيل بعد أن نتمكن من إقناعه.. غير أنه كان من النادر جداً أن يظل في بيته مسترخياً خالي البال.. فما يكاد ينقضي أسبوع حتى يطرق بابنا بإلحاح.. يستفسر عن الأخبار.. حاملاً معه تصاميم أخرى.. وملاحق ومخططات ومصورات إضافية، ووثائق منفصلة، كان يعود مرة ومرة رغم ذلك. كنا عبثاً نحتج بكثير من القوة والصرامة، ولكنه كان لا ينفك يعود، وقد استبد به القلق والغم.. ثم ينفجر فجأة بالصراخ حينما كان يدرك قليلاً أبعاد مشروعنا.. كان يفتعل أزمة أكثر أو أقل خطورة.. ثم لا يعود يرينا وجهه بعد ذلك.. لم نكن نصادف بينهم بلهى أو مغفلين.. كان عدد هؤلاء قليلاً جداً.. لم يكن ثمة سوى الماكرين الدهاة.. الذين كانوا يهددون بإثارة فضيحة، واللجوء إلى العدالة، وتقديم شكوى إلى البوليس إن لم نعد إليهم نقودهم.. كان كورتيال يعرفهم واحداً واحداً، ويولّي منهم فراراً ما إن يقتربوا من الباب.. كان يراهم قادمين من بعيد، من الجانب الآخر من الرواق.. لشدّ ما كان بصره حديداً حين يميز هؤلاء الممسوسين.. كان من النادر أن يدعهم يقبضون عليه. فما إن يراهم مقبلين حتى ينسحب إلى خلفية الدكان ليلعب بثقالتيه قليلاً، أو ينجحر في قاع القبو بالأحرى.. كان يجد نفسه هناك أكثر أماناً... كان يرفض أي حوار معهم.. هذا الجد العجوز الذي كان يرغب برأسمال المخترع كان يرغي ويزبد ما إن يرى سحنته..

- أمسكه: يا فرديناند! أمسكه جيداً! كان يكلفني بهذه المهمة القذرة. أمسكه! لا تدعه يقطع حبل تفكيري!.. أنا أعرفه جيداً، هذا المهذار! هذا القروي الجلف! ففي كل مرة يأتي للحديث معي أضيع ساعتين سدى على الأقل!.. جعلني عشر مرات أقطع سلسلة استنتاجاتي! يا له من عار! يا لها من فضيحة! أقتل هذه الآفة! أقتله أناشدك الله! هلا قتلته، يا فرديناند! لا تدعه يخطو بعد فوق هذه الأرض!.. إحرقه! اصرعه! انثر رماده! سيان عندي بالتأكيد! ولكن أرجوك بأي ثمن، لا تقده إلي! قل له إنني في سنغافورة! في كولومبو! في جزر الهيسبريد! قل له بأنني أقوم بإصلاح الزوارق المطاطية في مضيق باناما. تلك فكرة حسنة!.. قل له أي شيء! أي شيء مناسب كي لا أعود إلى رؤيته!.. العفو، يا فرديناند! العفو!...

كنت أنا إذن، الصلب مثل رصاصة من سيتلقى الوابل.. كان لدي منهجي.. لا أنفك استخدمه بطيبة خاطر.. كنت على غرار «الشاليه لذاته» أعترض القادم بلين ورفق، دون أن أبدي أية مقاومة.. لا أبرح أنحني مع اتجاه الريح.. وأذهب بعيداً في ذلك.. ثم أفاجئ كلب الدينغو بحدة كراهيتي تجاه دي بيريري المقزز.. أكيل له الضربات بسرعة.. وأغسله غسلاً بالشتائم المقذعة!.. كنت ها هنا متفوقاً أيما تفوق!.. كنت أحقّره! أكلله بالعار والشنار! أمرغه بالأقذار والصديد! هذا الوغد الدنيء! هذا الغائط المقزز! كنت أجعله أمام كلب الدينغو أسوأ بعشرين مرة! بمئة مرة! بألف مرة مما كان قد فكر به في أي يوم من الأيام.

كنت أجعل من هذا الكورتيال، من أجل إدخال السرور إلى قلب المخترع، وبملء صوتي، سلة من البراز الصلب والذائب، والمقزز إلى حد لا يوصف، وأبلغ في ذلك شأواً عظيماً!.. كنت أسرف أيَّما

إسراف! نافخاً ببوقي ما وسعني النفخ.. ثم أذهب لأدربك بقدمّي فوق باب سقف القبو، في جوقة واحدة مع المخترع المهبول.. كنت أفوقهم جميعاً بكل ما يعتلج في نفوسهم من حقد مسموم، بعنف ثورتي، وإخلاصي المزعوم، وحماسي الكاسح! وتقززي الفظيع.. وبارتعادي وغلوّي.. وبدربكتي المشؤومة.. أية نوبة مبرحة.. بعيدة عن التصور حقاً كنت أبلغها وأنا أفور بالغضب.. كنت أستمد كل ذلك من والدي، ومن مواقف هزلية خبرتها سابقاً.. لم أكن أخشى، في احتدامي المتأجج، لومة لائم!.. كان أسوأ الحمقى الهاذين من كلاب الدينغو المهتاجين من جراء ثورتي العارمة يتلاشون من أمامي حينما كنت أنوي أن أشتط قليلاً، وأن أبذل المزيد من الجهد.. عبثاً كنت صغير السن بالقياس إليهم، كانوا يولون الأدبار، مهزومين شر هزيمة.. منذهلين من ضراوة حقدي على ذلك الكورتيال.. ومن فوّعة سمومي التي لا سبيل إلى حبسها أو شفائها، ومن رغبتي الأزلية بالانتقام التي أكنّها بين جوانحي.. كانوا يغادرونني بعيون دامعة، والأسى يكتنفهم، بعد أن يعهدوا إلي بأن أسحق دون رحمة هذه البعرة، كل هذا الكورتيال البغيض.. هذه الحمأة من الرذائل.. وأن أغمره بغطاء سميك من الزبل أشد دبقاً من قاع أي مرحاض! بمقدار هائل من القيح! وأجعل منه فطيرة، أعفن فطيرة يمكن أن تخطر ببال.. ثم أعيد تقطيعها إلى كريات.. وأصنع منها أقراصاً ألصقها بين فتحة المرحاض وقاعه.. أثبتها هناك، مرة واحدة وإلى الأبد.. حتى يتغوط الجميع فوقه إلى أبد الدهر!...

ما إن ينصرف الصديق، ويصبح بعيداً بما فيه الكفاية حتى يعود كورتيال إلى فتحة السقف.. ويرفع الغطاء قليلاً، كان يجازف أولاً بإلقاء نظرة سريعة.. ثم يصعد إلى السطح..

- فرديناند! لقد أنقذت حياتي.. آه! نعم! حياتي!... هذا عمل حقيقي! سمعت كل شيء! آه! هذا بالضبط ما كنت أخشاه! هذا العجيج كان سيصدعني هناك في القبو! لقد قدرت أنت الأمور أحسن تقدير!.. ثم عدل عن رأيه، واكتنفه بعض القلق بسبب ما كنت أعوي به ضده.. خلال اجتماعي اللطيف مع الرجل..

«ولكني، على الأقل، يا فرديناند! قل لي ذلك حالاً، لست منحطاً، بهذا القدر في نظرك! ستقول لي هذا؟ لن تخفي عني أي شيء، أليس كذلك؟ أنا أستوضحك إن شئت؟ هيا!.. ليست هذه سوى كوميديات، بودّي أن اعتقد ذلك! وهي لا تؤثر أي تأثير في شعورك نحوي؟ سيكون ذلك قبيحاً جداً! أنت تحتفظ لي بكل مودتك! بوسعك إذن، وأنت تعرف ذلك، أن تعتمد كلياً علي! ليس لدي سوى الكلام! أنت تفهمني!. لقد بدأت تفهمني، أليس كذلك؟ قل لي إذا بدأت تفهمني؟.

- نعم! نعم! هذا صحيح!.. أعتقد... أعتقد بأني في وضع جيد الآن..

- إذن، أصغ إلي أيضاً يا عزيزي فرديناند... فيما كان ذلك المجنون يتلفظ بحماقاته.. كنت أفكر بمئة ألف شيء.. فيما كان يقززنا، ويرعد هاذياً.. كنت أقول لنفسي: يا كورتيالي البائس! كل هذه الشائعات! وهذه الحماقات، وهذه الانفجارات المقززة، وهذه الهذيانات تشوه مستقبلك بنحو فظيع.. دعك عما تضره بمصلحتك أنت: وحينما أقول مصلحتك! إفهمني! فهذا لا يعني المال! فالمال إنما هو الذخيرة الهزيلة، أقول لك! ولكن الثروة اللامادية العظيمة! إنما هي القرار الحكيم! امتلاك الموضوع اللانهائي! ذلك الذي ينبغي أن نستحوذ عليه.. إفهمني بسرعة أكبر، يا فرديناند! بسرعة أكبر! الزمن يمر! دقيقة! ساعة! ولكن ماأعنيه هو الأبدية! سترى! كل الأشياء متشابهة يا

فرديناند! كل الأشياء متشابهة! وتندت عيناه بالدمع.. أصغ إلى أيضاً يا فرديناند! آمل أن يأتي يوم تفهمني فيه حق الفهم.. أجل.. وأن تقدرني حق قدري! حينما لن أعود هنا لأدافع عن نفسي!.. إنما أنت يا فرديناند! من ستمتلك الحقيقة... أنت الذي ستدحض الشتائم والافتراءات!.. إنني أعتمد عليك في ذلك يا فرديناند! أعتمد عليك! فحين يأتي أحد ليقول لك ما يخطر له من أقوال: «بأن كورتيال لم يكن سوى وغد زنيم، أقذر من جثة! كذاب أشر: لم يكن له نظير في الحقارة..» فبماذا ستجيبه يا فرديناند؟ ستجيبه بهذا فقط.. هل تسمعني؟ «لم يرتكب كورتيال سوى خطأ واحد! ولكنه خطأ جوهري! لقد فكر كورتيال بأن العالم كان ينتظر العقل ليتغير!...العالم تغير... هذا ما حدث فعلاً! ولكن من دون أن يأتي إليه العقل» هذا كل ما ستقوله.. كله بالتأكيد، ولا شيء آخر على الإطلاق! لن تضيف على ذلك أي شيء ذلكم هو نظام الكميات! نظام الكميات! من الممكن إدخال الصغير جداً داخل الكبير جداً.. ولكن كيف يمكن اختزال الكبير جداً إلى الزهيد جداً؟ آه! ذلك هو جذر كل التعاسات! يا فرديناند! وليس لها جذر آخر أبداً! كل تعاساتنا!..

اعتراه، بعد ظهيرة ذلك اليوم خوف شديد.. فأحس تجاهي باهتمام عميق جداً، ولم يعد راغباً في أن أكون مستاء منه..

- هيا، يا فرديناند! إذهب لتتنزه! قال لي.. إذهب إذن إلى اللوفر! سيفيدك هذا كثيراً! إذهب إذن إلى البولفارات! فأنت تحب ذلك! ما تزال غرفتنا هذه تفوح بالنتانة من روائح ذلك الماموث! هيا فلنذهب من هنا! فلنخرج بسرعة! أغلق المخزن! علّق اللافتة! اتبعني إلى حانة «الفرسان الثلاثة»! سأدفع أنا ثمن الأقداح! خذ النقود من الدرج الأيسر.. لن نخرج سوياً في وقت واحد!.. سأتسلل أنا من الرواق..

عرّج إذن على «الإيموت»... ستلتقي بنحو عابر بالفتى ناجير!.. إسأله إن كان هناك من جديد؟.. أظن أنك راهنت جيداً على الجواد «شهرزاد» ونقلت الرهان الرابح على «فيولونسيل» أليس كذلك؟ أنت تقوم بذلك وحدك دائماً، أليس كذلك؟ ولا تعرف أين أكون موجوداً... هل تسمعني؟.

* * *

صار يعهد إلي غالباً، أكثر فأكثر باتخاذ القرار الحاسم... كان يهرب إلى القبو، زاعماً بأنه سيخلو إلى التأمل والتفكير، ويظل قابعاً هناك ساعات بكاملها... مصطحباً معه كتاباً ضخماً وشمعة كبيرة... كنا مضطرين إلى شراء جميع حاجياتنا بالدين، كان مديناً لكل متاجر الحي، ليس فقط لحانة «الإيموت»، وللفتى ناجير، ولكن لمقهى «الموسكيتون» أيضاً وحتى لمطعم ومشرب الجعة «فيغونييه» في شارع البلان مانتو.. كان ذلك مهلكة حقيقية.. كان يحظر أن يزعجه أحد في خلوته.. لم أكن مسروراً دائماً.. كان يفرض عليّ نزواته، بأن أذهب للإجابة شخصياً على كل أسئلة المجانين المحتملين، والمكتتبين السيئي التهذيب، وصغار الفضوليين، وكبار الممسوسين.. الذين كانوا يتدفقون جميعاً على هيئة صليات الرصاص.. كنت آخذهم جميعاً على عاتقي.. المحتجين من كل حدب وصوب.. زمرة الموسوسين القذرة.. ملهمي الأفكار التافهة.. كان المدُّ لا يبرح يتدفق.. يدخل ويخرج.. يقرع جرس الباب كالبرد، حتى أعياه الرنين.. لم تكن تمنعني كل هذه الألهيات من الذهاب لإصلاح خروق «الزيلي».. كان كورتيال يعيق كل حركة في القبو، هو وحماقاته التي لا يكف عن التلفظ بها.. غير أن «الزيلي» كان عملي الحقيقي... كنت أنا المسؤول والملوم إذا ما حدث له حادث.. لذا فقد كان بحاجة

دائمة إلى رتق ولفق!... كان تصرفه إذن منفراً.. وقد وجهت ملاحظة في نهاية الأمر بهذا الشأن وبغيره من الشؤون العديدة الأخرى، بأن هذا الوضع ما عاد من الممكن أن يستمر.. وأنني لم أعد أستطيع أن أتحرك داخل القبو، وأنني سأهمل ذلك منذ الآن.. وأننا كنا نسير إلى الكارثة!... دون قيد ولا شرط.. غير أنه لم يكن يصغي إلي! لم يكن ذلك يقدم أو يؤخر في شيء.. كان يختفي عن الأنظار أكثر فأكثر.. وحينما يكون في القبو لا يرغب أبداً بأن يكلمه أحد!.. وحتى شمعته كانت تزعجه.. فكان يطفئها كي يفكر على نحو أفضل.

انتهيت أخيراً بأن أقول له.. بعد أن أزعجني إلى حد أنني لم أعد أضبط نفسي.. بأن عليه أن يذهب إلى بالوعته! لأنه سيكون هناك أكثر هدوءً، بغية اتخاذ قراره!.. وحينئذ سلقني، فجأة، بألسنة حِداد:

- فرديناند! سألني باستنكار؟ كيف؟ أأنت الذي تكلمني هكذا؟ أنت يا فرديناند؟ توقّف! أيتها السماء العادلة! رحماك! سمّني ما شئت! كذاب! ثعبان! مصاص دم! دمّل! إذا لم تكن الكلمات التي ذكرتها هي التعبير الدقيق عن الحقيقة التي تفوق الوصف! لقد عزمت سابقاً، يا فرديناند! أليس كذلك؟ على أن تقتل أباك؟ هاه! هذا مؤكد! ليس هذا وهماً؟ ولا حكاية أشباح؟ إنها الحقيقة بعينها! الحقيقة الباعثة على أعمق الأسى!... ذلكم صنيع لن تستطيع قرون عديدة أن تمحو عاره! بلا ريب! هاه! ولكنه صحيح بلا مراء؟ أنت لن تنفيه الآن؟ أنا لا ابتدع شيئاً! وإذن؟ ما الذي تريده الآن؟ قل لي؟ أن تقتلني أنا بدوري؟ ولكن هذا واضح! هوذا! الأمر بسيط جداً! تنتظر!.. تنتهز الفرصة! تلتقط اللحظة المناسبة.. وبكل اطمئنان.. وثقة.. تقتلني!.. تلغيني! تمحقني من الوجود!... ذلك هو برنامجك!... أين ذهب عقلي؟ آه! يقيناً يا فرديناند! إن طبيعتك

وقدرك أشد ظلامية من فوهة بركان إيريب المعتمة!.. لشد ما أنت سوداوي يا فرديناند! من غير أن يبدو عليك ذلك! مياهك عكرة! كم من الوحوش يا فرديناند! تربض في ثنايا روحك! تتخفى وتتلوى! لم أتعرف عليها كلها!.. إنها تمر! وتجرف في طريقها كل شيء!.. الموت!.. نعم! لي أنا! أنا الذي تدين له أكثر بعشرة آلاف مرة من الحياة!.. أكثر من الخبز! أكثر من الهواء! أكثر من الشمس ذاتها! فكرة الموت! آه! تلك هي الغاية التي تسعى وراءها، مثل هامة زاحفة؟ أليس كذلك؟ دونما كلل! كنت تزحف!... متبدلاً.. متموجاً! دون أن تثير الانتباه دوماً!... عنف... رقة... انفعال... قوة.. سمعتك جيداً ذلك اليوم!... كل شيء لديك ممكن، يا فرديناند! كل شيء! الغلاف الخارجي وحده إنساني! ولكنني أرى الوحش في داخله! وأخيراً! هل تعرف إلى أين أنت ذاهب؟ هل حذروني منك؟ آه هذا نعم! لم تنقصني التحذيرات.. مراوغة!.. تحوط!.. وفجأة، ودون كلمة صغيرة مريبة... تنطلق جميع الهيجانات الإجرامية الساعرة! الهيجانات!.. اندفاعات الغرائز الدنيا! آه! آه! ولكن تلك هي العلامة يا صديقي! السمة الأكيدة! النزوع الإجرامي.. الفطرة المشوهة! الجبلة الفاسدة!.. هذا هو أنت! أنا على يقين من ذلك! فليكن! يا صديقي!... فليكن! إن من يقف أمامك، ليس بالخواف الرعديد! ليس بالمأفون الذي كنت تنوي ربما أن ترهبه! آه ولكن لا! ولكن لا! فأنا أواجه قدري بكل ما فيه! لقد أردته! وسأذهب حتى النهاية! أجهز علي إذن إن كنت قادراً على ذلك!.. هيا! أنا أنتظرك! بقدم ثابتة! هيا تجرأ! أنت تراني جيداً؟ أنا أتحداك يا فرديناند! أنت تستثيرني أقول لك، هل تسمعني؟ أنت تُلهب سخطي! لست أنا بالغرّ المغفل! أنا واعٍ كل الوعي! حدّق في بياض عيني الرجل الذي أمامك! لقد قدّرت بدقة كل مجازفاتي!.. في اليوم الذي استقبلتك فيه هنا! تلك

هي شجاعتي القصوى! هيـا! هيـا إذن! امـض إلى مـا عزمـت عليـه! إضرب أنا أواجه الجريمة! إفعل ذلك بسرعة!..

تركته ينشّ كما ينش الحبر.. كنت أنظر إلى مكان آخر.. بعيداً وسط الحديقة.. إلى بساط العشب.. وحاضنات الزهـور.. وطـيران الحمـائم المتقافزة بين مقاعد الحديقـة! وإلى نـافورة الميـاه المتراقـصة! وسـط هبات النسيم... كان هذا أفضل من أن أجيبـه!... مـن أن ألتفـت حتى لكي أراه.. كنت أهـز بهـدوء ثقالـة الـورق الموضـوعة أمامـه. الثقالـة الضخمة الثقيلة... كانت تخدش باطن كفـي، كانـت تـزن ثلاثـة كيلـو غرامات... كنت أتألم.. ولكنني تماسكت.. كـان خليقـاً أن أتماسـك.. ثم تابع كلامه، اللواطي!..

- لدى الشباب في أيامنا هذه ميل إلى القتل! كل هذا يـا فردينانـد! يمكن أن أقوله لك، وقد ظهر ذلك جلياً في بوليفار أراغو! مع منظمـة الكاغول الإرهابية يا صديقي! مع الكـاغول! تعـساً لي! أيتـها الـسماء العادلة! سأكون مسؤولاً عن كل ذلك.

لم أكن أعرف الكثير من الكلمات كي أجيبه.. كان الغـضب يتفـاقم في داخلي.. وما عدت أملك أن أكظمه!.. «معلم! معلـم! اذهـب إذن لتخرى! قلت له في اللحظة ذاتها. اذهب وأخرَ! حـالاً! اذهـب وأخـرَ بعيداً من هنا! أنا، لن أقتلك! أنا، سـأقلّعك سـروالك! أنـا، سأضـع وشماً على إليتيك! أنا، سأغلق إستك بست وثلاثين حزمة من عـشب الودح! ومع الرائحة أيضاً! أه! هذا ما سـيحدث لـك! فأنـت لم تكـن تتلفظ سوى ببلاهات، أقرب إلى الهذيان."

كنت على وشك أن أمسك بتلابيبه... كـان الرجـل متـوفزاً... كـان جالساً في مقعده في خلفية الدكان.. وقد رأى بوضـوح بـأن الأمـر قد

غدا جدياً، وأنني لم أعد احتمل... ظل جالساً في مقعده، يعبث بقوائمه الثابتة.. تركني لحظة في سلام.. وقد نأى بتفكيره بعيداً.. وبعد وقت قصير نهض، واجتاز أرض المخزن.. واتخذ طريقه عبر الممر الواقع إلى اليسار، ثم انسلّ إلى المدينة.. دون أن يصعد إلى مكتبه.. صار بإمكاني أخيراً أن أنهض إلى عملي بهدوء.

لم يكن بالأمر السهل والسريع ترميم الغلاف المهترئ لـ«الزيلي» وإعادة ترقيعه، ورتق فتوقه، وتثبيت جميع أجزائه التي فقدت تماسكها.. كان ذلك هماً مقلقاً بلا نهاية... لاسيما أنني كنت أستضيء بغاز الأسيتيلين... كي أرى الشقوق عن قرب بنحو أفضل.. كان العمل على هذا النحو، في داخل الكهف محفوفاً بالمخاطر.. فقد كان بالقرب مني مواد لزجة تفوح دائماً برائحة البنزين.. كانت تسيل في كل مكان... كنت أرى نفسي شعلة حية!.. كان غلاف الزيلي يمثل مشكلة بالغة الخطورة، فقد تحول العديد من المطارح فيه إلى ما يشبه مصفاة حقيقية... وثمة شقوق أخرى! وإصابات أخرى! أشد فداحة دائماً في كل صعود، وكل هبوط! حينما يتجرجر فوق الأراضي المحروثة!.. وعلى حواف كل المزاريب.. وبين السقائف المتراصفة، ولاسيما في الأيام التي تعصف فيها ريح الشمال.. كان ذلك يخلّف فيه، في كل مكان، شقوقاً واسعة، وتهتكات لا حصر لها، وخاصة حين يهبط وسط الغابات، وعلى أطراف الأغصان، وبين أبراج الأجراس، وفوق الأسوار.. كان يجرف معه في كل مرة مداخن معدنية! وسقوفاً! وقطعاً ثقيلة من الآجر، ودوارات هوائية! ولكن الانبعاجات الأشد غدراً، والتمزقات الأدعى إلى الهلع، كانت تحدث في المرات التي كان يتخوزق فيها فوق عمود من أعمدة التلغراف!... كان ينفلق حينئذ إلى نصفين في أغلب المرات.. لابد لي من أن أكون منصفاً بحق دي

بيريري، لقد عرض نفسه، خلال تحليقاته، إلى مجازفات خطيرة للغاية، كان الصعود دوماً حافلاً بالمفاجآت والتقلبات، ولم يكن يخلو قط من معجزة، بسبب عدم انتفاخه إلا في الحدود الدنيا... بغية التوفير في النفقات!.. غير أن ما كان يغدو مثيراً للفرع هو الهبوط بكل عُدته السقيمة، كان لدى كورتيال، لحسن الحظ، خبرة كافية، بحكم تعوده! لم تكن الخبرة تنقصه. فقد بلغ عدد تحليقاته، التي كان فيها بمفرده، حين تعرفت عليه 1422 تحليقاً! دعك عن التحليقات في المنطاد «المقيّد»... كان هذا يشكل عملاً باهراً! وقد فاز بجميع الميداليات، والدبلومات، والبراءات.. كان ملماً بكل المهارات، ولكن هبوطاته هي التي كانت تذهلني دائماً.. لابد لي من القول بأن مشهد سقوطه فوق قواعده كان بالغ الروعة! فما يكاد يحتك طرف السلة بالأرض.. وتبطئ معداته من سرعتها حتى يتكور هو داخل السلة.. وحين كانت سلته تلامس الأرض الوعرة.. فإن هيكله بكامله يوشك أن يقفز خارجها.. كان يستشعر تلك اللحظة بالضبط.. فينبجس فجأة مثل مهرج، ثم يتدحرج مثل بكرة.. متدثراً بمعطفه السميك، نادراً ما كان يصاب بأذى.. فارس حقيقي في الهبوط.. لم يكن يفك زراً واحداً من أزراره.. ودون أن يضيع ثانية واحدة.. كان ينطلق خلف «الزيلي» بسرعة فائقة.. يخبط وسط أثلام الأرض المفلوحة، دون أن يلتفت إلى الخلف، مندفعاً بقوة.. نافخاً ببوقه الصغير المعلق بحمالته.. كان يثير وحده جلبة هائلة، الوحش... ولا يبرح يضرب في الأرض الوعرة زمناً طويلاً قبل أن تخور قواه.. كنت أراه يعدو بأقصى سرعة.. كان ذلك مشهداً لا يضاهى، بمعطفه، وقبعته البانامية... كانت إصلاحاتي لغلاف الزيلي، لابد من قول الأشياء بصراحة متناهية، تصمد في الفضاء أكثر أو أقل.. ولكنه ما كان ليخيط الشقوق هو بنفسه، كان نافد الصبر

للغاية، كان سيتلف كل شيء مزيداً من التلف.. ذلك الروتين من الرتق والحبك كان فناً في نهاية المطاف! وعلى الرغم من سعة حيلتي، وازدياد براعتي، فقد كان صبري ينفد غالباً في إنقاذ ذلك الغلاف العاهر.. كان يتطلب دائماً المزيد من الجهد في الحقيقة.. لقد بدأ طيرانه منذ ست عشرة سنة، وسط كل الظروف، وبسائر الطرق، وتحت رحمة جميع الزوابع، وما عاد يصمد إلا من خلال الترتيق والتلفيق والخياطة العجيبة الغريبة للشقوق... كل انتفاخ له كان دراما حقيقية!... ولدى هبوطه، وانجراره فوق الأرض الوعرة، كان الأمر أسوأ أيضاً... كان يفقد رقعة كبيرة من نسيجه، فكنت أعمد إلى اقتطاع رقعة من الجلد القديم لغلاف «أرخميدس» منطاده القديم، والذي لم يبق منه سوى قطع ممزقة، ورقع كبيرة، مركونة بإهمال داخل خزانة حائط في الطابق فوق الأرضي. كان ذلك هو منطاد بداياته، وكان يطير «مقيداً» إلى الأرض. بلون قرمزي كلياً، وهو عبارة عن غشاء معوي هائل الاتساع، وقد استمرت عروضه عشرين سنة!... كنت أتوخى الكثير من الدقة لإعادة وصل كل الخروق، طرفاً إلى طرف، ولا أبرح أدقق وأتحقق تحت وطأة وسواس ثقيل.. كان عملي هذا يعطي نتائج عجيبة.. فحينما كانت تنطلق صيحة «أفلت كل الحبال». ويحوم الزيلي فوق رؤوس الحشد، كنت أتعرف على رقعي في الفضاء.. أراها تجدّف وتتموج.. ولم يكن ذلك يدعوني إلى الضحك..

فوق ذلك، كان هناك الكثير من الجهود المبذولة، والمقدمات التمهيدية، لم تكن عملية التحليق هذه ناجزة سلفاً!... لا ينبغي الاعتقاد بذلك.. كانت التحضيرات والمناقشات تتواصل طوال شهور وشهور، قبل التحليق... كان لابد من تبادل الرسائل والمنشورات والصور الفوتوغرافية... وتغطية فرنسا بالنشرات الإعلانية... ومراجعة

عِلّية القول، وتحمل ضروب العذاب من جانب اللجان المعنية.. والتي كانت شديدة البخل دائماً.. فضلاً عن أننا كنا نتلقى من المخترعين، بشأن «الزيلي» بريداً أشبه برعود الرب!...

تعلمت بصحبة كورتيال تحرير الرسائل الرسمية، وأصبت في ذلك بعض النجاح.. ما عدت أرتكب الكثير من الأخطاء.. كان لدينا ورقة خاصة بهذا الغرض من أجل إدارة المفاوضات ذات عنوان مثير: «الدائرة الباريسية لأصدقاء المنطاد الحر»..

كنا ندبّج الكلام الخلاب لمكاتب العُمديات في نهاية فصل الشتاء! وخلال الربيع يجري إعداد برامج الطيران! كان علينا، مبدئياً أن نحجز جميع أيام الأحد قبل عيد القديسين بقليل.. كنا نلاحق بإلحاح جميع رؤساء اللجان عبر الهاتف. كنت أنا أيضاً من يتأبط هذه المهمة، أعدو هنا وهناك في ساعات الازدحام... منطلقاً بسرعة كي أوفرّ أجرة الركوب! كنت ألتقط أنفاسي وأستجمع شجاعتي عند الباب...

كنا نوجه الدعوات إلى جميع المعارض، والمحافل، والأسواق الخيرية في جميع أرجاء فرنسا. ما كان هناك جهات قليلة الأهمية! كل الجهات كانت مطروقة من قبلنا، وممكنة، ولكن كان ثمة أولويات بالتأكيد. كنا نحاول أن لا نبتعد عن سين أيواز.. أو عن سين إيمارن على الأغلب! كان نقل الأشياء هو الذي يقطع إستنا في الحال، ركام من الحقائب، والمقششات، وسقط المتاع، ومن جميع اللوازم الغريبة. ولكي لا تكون النفقات أكبر من المكافأة التي نقبضها كان خليقاً أن نعود في المساء إلى قصرنا الملكي، وإلا واجهنا المحذور، بتبديد النقود! كان كورتيال يضع خطة مدروسة بأعلى درجة من الدقة، متواضعة للغاية وسديدة: مئتان وعشرون فرنكاً، ثمن الغاز من أجل

نفخ الغلاف، وفرنكان أثنان للحمامات!.. كنا نتكتم على مدى الارتفاع الذي سنبلغه... كان منافسنا الأكثر شهرة، والأشد صراحة ربما، هو الكابتن غي دوروزيه، كان يسأل مزيداً من الأسئلة! ويقوم بجولات خطرة، على متن منطاده «الانتريبيد»!... مرتفعاً بحصانه، ومستقراً فوق سرجه في الأعلى، على علو أربعمئة متر! كان ذلك يكلف خمسمئة وعشرين فرنكاً، يدفعها مجلس البلدة، أما الذين كانوا يتفوقون علينا أكثر من معلم الفروسية هذا، فهما الإيطاليان «كالوغوني وابنته بيتيتا»... كنا نقع عليهما في كل مكان! كانا يحظيان ببالغ الإعجاب، وعلى الأخص من قبل جنود الحامية! كان تحليقهما بالغ الكلفة، كانا يعرضان وسط السماء ألف مهارة وخفة... ويلقيان إلى الأسفل بباقات الزهور ومظلات صغيرة، وشارات وطنية مزخرفة، من ارتفاع ستمئة وعشرين متراً! كانا يطلبان من المجلس ثمانمئة وثلاثين فرنكاً وعقداً لفصلين أثنين!... مستأثرين بالنصيب الأوفى فعلاً...

أما كورتيال، نمطه الخاص، وشهرته، فلم يكن قط يسعى إلى الاستعراض والتفاخر! ليس ثمة إنجازات درامية! لا ! على العكس تماماً! كان يعتمد الأسلوب العلمي، والاستنتاج الناجع، والطيران المترافق مع الشرح والتوضيح، والمحاضرة الجميلة المسبقة، كي ينهي طيرانه بالإطلاق الوديع للحمامات.. كان هو نفسه، ينبه الجمهور بخطبة صغيرة تمهيدية! «سادتي! سيداتي! آنساتي.. إذا كنت في عمري هذا ما أزال أصعد إلى الفضاء، فليس هذا من قبيل التبجح الفارغ! يمكنكم أن تثقوا بذلك! أو من قبيل الرغبة بإدهاش الجمهور!.. انظروا قليلاً إلى صدري! سترونه مزداناً بجميع صنوف الميداليات الأعظم شهرة، و الأرفع قيمة، والأكثر مدعاة للحسد، بسبب ما ترمز إليه من التقدير والشجاعة. وإذا ما كنت أصعد،

سادتي! سيداتي! آنساتي! فإنما من أجل تثقيف العائلات! تلكم هي الغاية التي أسعى إليها طيلة حياتي! كل شيء من أجل تربية الجمهور! نحن لا نخاطب هنا النزوات الشاذة المنحرفة! ولا الغرائز السادية! ولا الضلالات العاطفية!... إنني أخاطب العقل! العقل وحسب!».

كان يكرر على مسامعي كي أكون على إطلاع: «فرديناند! تذكر دائماً بأن تحليقاتنا، ينبغي أن نحافظ على طابعها! طابع «الجينترون» ذاته... لا يجوز على الإطلاق أن ننحط إلى مستوى التهريج! والمساخر! والبهلوانيات الهوائية البعيدة عن الرصانة! والنزوات الطائشة! لا! لا! ولا! خليق بنا أن نظل ضمن الأصول، ضمن روح الفيزياء! علينا، بالتأكيد، أن نسليهم! لن ننسى ذلك إنهم يدفعون لنا من أجل أن نسليهم! إن هذا من حقهم! ولكن من الأفضل أيضاً، قدر الإمكان، أن نخلق لدى هؤلاء الغلاظ العقول الرغبة بمعلومات محددة أخرى، بمعارف حقيقية! أن نربيهم بالتأكيد! لا معدى من ذلك. ولكن تربية هذه البهائم! هؤلاء الذين تراهم يحيطون بنا بأشداق مفتوحة! آه! مهمة عويصة، يا فرديناند!..».

والواقع أنه ما بارح الأرض قط من دون أن يشرح، قبل كل شيء، في خطبته العائلية، جميع التفاصيل، والمبادئ الخاصة بالمناطيد. ولكي يشرف بنحو أفضل على الحضور، كان يجثم بتوازن عند حافة السلة، متزيناً أفضل زينة، بمعطفه وقبعته البانامية، وردنين فوق ساعديه. وبين الفينة والفينة كان يمرِّر ذراعه وسط الحبال.. مظهراً للحشد الملتف من جميع الجهات، مواقع الصبابات والصمامات، وحبل الإرساء، والبارومترات، وقوانين الصابورة (ثقل يوضع في السلة لحفظ التوازن)، وقوانين الجاذبية، ثم ينساق مع موضوعه، فيعرّج على ميادين أخرى، محللاً، متحدثاً، دون رابط دائماً، عن

الظـواهر الجويـة، والـسراب والريـاح، والأعاصـير الحلزونيـة، ثم يخوض، مبتسماً دائماً، في حديث مسهب عـن الكواكـب، وحركـة النجوم، والهالات، وعن الجـوزاء، وزحـل، والمـشتري، والـسماك الرامح، ودوائره، والقمر... قايساً كل شيء على التخمين.. كان بوسعه أن يسترسل طويلاً في الحديث عن المريخ، فقد كانت لديه معارف غزيرة عنه.. كان ذلك كوكبه المفضل! ولا يفتأ يتحدث عن الأقنية المائية فيه، وأشكالها الجانبية، ومسافاتها، ونباتاتها، كما لو أنه استحم فيها! ويرفع الكلفة في حديثه عن الكواكب، محققاً نجاحات باهرة!.

فيما كان يقذف الكلمات من فمه، جاثماً على هـذا النحـو، كأنـه لا يخاطب شخصاً معيناً، آسراً انتباه الجمهور، كنت أنا ألمّ التبرعـات.. كانـت تلـك عـلاوتي الـصغيرة. كنـت أنتـهز الظـرف، وجيب القلوب، والانفعالات المشبوبة... فأنـدس عـبر الـصفوف، عارضـاً صـحيفة «الجينتـرون» بفلـسين! مـن الأعـداد غـير المباعـة، إضـافة إلى الكتيبـات الـصغيرة المهـداة بقلـم المعلـم.. والميـداليات التذكارية، ذات المنطاد الصغير. أما مـن كـانوا يبـدون لي اكثـر خفـة وحماقة بـين ذلـك الجمـع، والـذين كـانوا يُظهـرون تطفـلاً شـديداً، فكنـت أحـتفظ لهـم في جعـبتي بمجموعـة مـن الـصور الغريبـة، المضحكة والمسلية... كان مـن النـادر أن لا أصـفي بـضاعتي.. قطعـة بعد قطعة.. كنت أجمع، بشيء من الحظ مـا يعـادل خمـسة وعـشرين فرنكاً، وهو مبلغ يُعد كبيراً في تلك الأيام! وما إن كنت أفرغ كـل مـا في جعبتي، وأجمع غلتي، حتى أعطي إشارة صغيرة للمعلـم.. وكـان هو يفتح صمام البخـار.. ويقفـل خطبتـه... ويعـاود الـنزول إلى قـاع سلته.. فيثبـت قبعتـه البانامـيـة فـوق رأسـه، ويـربط بـالقلوس جميـع

قضبان السلة، ثم يفك حبل الشراع الأخير، متحركاً بهدوء شديد، ما عاد علي أنا سوى أن أفك الحبل النهائي الذي يثبت المنطاد إلى الأرض، كنت أنا من يعطي إشارة: «أفلت جميع الحبال».. كان يصدر لي نفخة من بوقه الصغير.. فأفك حبل الإرساء الأخير.. وكان «الزيلي» ينطلق معانقاً الفضاء!.. ما رأيته قط في يوم من الأيام يطير عمودياً.. كان رخواً منذ البداية. لم يكن يتم نفخه إلا ببالغ الحيطة والحذر، لأسباب عديدة.. كان ينطلق إذن على نحو مائل... مترنحاً فوق الأسطحة.. على هيئة مهرج كبير مرقّع الثياب برقع مختلفة الألوان.. ولا يبرح يتأرجح في الفضاء بانتظار هبة ريح رخاء.. لم يكن بمقدوره الانتفاخ إلا حينما تتنفس الريح.. على غرار تنورة نسائية قديمة منشورة فوق الحبل، كان منظره فاجعاً.. حتى فئران الحقول الغبراء كانت تلاحظ ذلك.. كان الجميع في الأسفل يغرقون في الضحك لدى رؤيتهم له مترنحاً فوق الأسطح! إلا أنا، فكنت أقلّهم ضحكاً.. كنت أتوقع الضربة القاضية! التمزق المريع! الفصل النهائي المشؤوم!.. كنت أشير له بألف إشارة من الأسفل.. بأن يُسقط على الفور أكياس الرمل.. ولكنه لم يكن على عجلة من أمره.. كان يخشى الصعود إلى علو شاهق.. كان طيرانه على هذا النحو أقل مدعاة للخوف!.. قلّ ما كان يمكنه أن يحلق عالياً، نظراً إلى الحالة المزرية لنسيج الغلاف!.. ولكن البلية التي كنت أجهلها، هي أن يهبط وسط إحدى القرى.. على مرمى عصا منا... وما سينجم عن احتكاكه ببناء المدرسة.. أو حين يجرف معه برج الكنيسة.. أو يفرشخ فوق مزراب بارز!.. أو يحط فوق مبنى العمدية!.. أو يتدحرج وسط الغابة الصغيرة. كان كافياً جداً لو أنه أفلح في التحليق إلى علو خمسين أو ستين متراً.. كنت أحسب ارتفاعه دونما تحقق..

كان ذلك هو حده الأقصى... كان حلم كورتيال، بمثل حالة عتاده المهلهل، بأن لا يتجاوز على الإطلاق مستوى الطوابق العليا من المنازل.. كان ذلك مُرضياً له كل الرضى.. أما ما فوق ذلك فيغدو في نظره جنوناً.. في البداية، كان خرجه ذاك عاجزاً عن الانتفاخ حتى النهاية... فمع قارورة أو قارورتين من الغاز، كان سينشق بالتأكيد من أعلاه إلى أسفله. سينفلق مثل قنبلة، من صُبابه حتى صُمامه!... بعد أن يجتاز آخر الأكواخ، ويتخطى آخر قطعة من الأرضي المسورة، كان يُفرغ رمله حينئذ، كان كورتيال يتخذ قراره، ويكبّ كل ما تبقى من رمله. وحينما لا يعود لديه ثقل على الإطلاق، كان المنطاد يطفر طفرة صغيرة، ويترجرج مسافة عشرة أمتار.. كانت تلك لحظة إطلاق الحمامات.. كان يفتح بحيوية باب السلة، فتنطلق الحيوانات الصغيرة مثل سهام.. كانت تلك أيضاً لحظة الفَرَج بالنسبة إلي.. تلكم هي إشارة الهبوط!.. يمكنني القول بأنني كنت أنطلق بسرعة الريح.. كان لابد لي من اختلاق مأساة بغية حثّ هؤلاء القرويين الجفاة على أن يندفعوا جميعاً خلف المنطاد، وأن يهبّوا لمساعدتنا على جمع ذلك الركام الهائل المنفرش على مدى فسيح، وطيّه بسرعة.. وحمله إلى المحطة.. وتعليقه بذراع الرافعة.. لم يكن لذلك من نهاية! كانت الطريقة المثلى التي اكتشفتها كي لا يفرنقعوا جميعاً من حولنا.. ويسارعوا إلى نجدتنا.. ويهرعوا أفواجاً في إثر المنطاد هي أن أتظاهر أمامهم بالهلع لأن كارثة قد وقعت.. وكان هذا يؤتي ثمرته بالتأكيد.. ولو لم أكن أفعل ذلك لكانت عاقبتنا وخيمة.. ولكي يُقبلوا بحماس على العمل، كان علينا أن ندفع لهم.. وإلا فسيرفضّوا من حولنا فجأة!.. فإما أن نقبل وإما أن نرفض..

كنت أطلق زعيقاً وحشياً! وأتخلّع مثل ابن عرس، ثم اندفع بسرعة الريح عبر نقع الوحول باتجاه موقع الهبوط.. كنت أسمع بوقه.. فما ألبث أن أعوي بملء صوتي: «إلى النار!.. إلى النار!» انظروا! انظروا! إلى ألسنة النيران!... ستندلع النار في كل مكان! ستلتهم الأشجار!..» وحينئذ فإن الحشد المتألب يتزلزل... ويدق نفير الهجوم.. ثم يندفع خلفي! وما إن يلمحني كورتيال مقبلاً مع رهط القرويين، حتى يفتح جميع الصمامات.. فينبعج الغلاف بكامله من أعلاه إلى أسفله!.. وينهار على هيئة مزق وأسمال.. وما يلبث الغشاء المبعوج أن يجنح بعيداً ليخر وسط الوحول كسيحاً، خائراً، أشلّ!.. كان كورتيال ينبجس من السلة.. ثم يقفز إلى الأرض.. وينفخ مرة أخرى في بوقه كي يلم الشعث.. وينخرط من جديد في خطبة صغيرة! أما الفلاحون فكان يتملكهم الخوف من أن تندلع النار في المنطاد، وتأتي على أغمار العشب المكدسة... كانوا ينهرسون فوق الركام كي لا يلتهمه الحريق... ويجمعون لي كل ذلك الهباء المنثور على هيئة كومة كبيرة.. لشد ما كان ذلك الحطام قبيحاً منفراً، لفرط ما انتزعت الأغصان قطعاً منه.. كان قد فقد جزءاً كبيراً من نسيجه، مزقاً مفجعة... وسحب معه أدغالاً بكاملها، استقرت بين غشائه الداخلي وشبكته.. كان المنقذون مفتونين، مفعمين بالرضى، طافحين بالانفعالات، لذلك فقد حملوا كورتيال، باعتباره بطلاً، فوق أكتافهم القوية.. وراحوا يكيلون له المدائح، ثم مضوا ليحتفلوا به في البار.. ويشربوا نخبه! أما أنا فبقيت لي السخرة بكاملها، المهمة الأشد قذارة وبعثاً على التقزز.. انتزاع ذلك الركام من مناقع الوحول قبل هبوط الليل... ومن بين أثلام الأرض المحروثة... واستعادة كل عدتنا وعتادنا، المراسي، والبكرات،

والسلاسل، وسائر الخـردة المنتشـرة في كـل اتجـاه.. حبـل الإرسـاء، بكيلومتراته المئتين.. وعداد السرعة، والبـارومتر، والكبـاس، وعلبـة صغيرة من جلـد المـاعز، وقطـع النيكـل الباهظـة الـثمن.. أيـة نزهـة حقيقيـة كنـت أقـول لنفـسي!... بالإضـافة إلى تهدئـة خـواطر أسـوأ الفلاحين الأجلاف بالدعابات والوعود، وبألف تورية، وحثّهم أيـضاً بواسطة النكات الماجنة والكلمـات المتملقـة، علـى جمـع كـل هـذه الأشـياء الكريهـة التالفـة، هـذه الكيلوغرامـات الـسبعمئة مـن الزينـة الرخيصة! الغلاف الممزق مثل قمـيص بـال، بقايـا الـنعش المقـززة! وحمل كل هذه البـضاعة الفاسـدة إلى القـاطرة الأخـيرة، في اللحظـة التي ينطلق فيها القطار بالضبط! سـحقاً! ينبغـي أن أشـرح لهـم ذلـك بالتفصيل! لم يكن ذلك عملاً سهلاً! وحينمـا كنـت أنـضم أخـيراً إلى كورتيال باحثاً عنه عبر ممرات القطـار الـذي كـان قـد انطلـق، كنـت أعثر عليه في مقطورة الدرجة الثالثة، مطمئناً هانئـاً بـالطبع، مطنبـاً في الكلام، متغطرساً، مؤولاً ومفسراً، مغدقاً علـى مـستمعيه مـن حولـه براهينه الدامغة... وخلاصة مغامرته!... وكل ضروب اللطـف والغـزل للسمراء الجالـسة قبالتـه.. مهتمـاً كـل الاهتمـام بـالأذنين الطفـوليتين الصاغيتين... كابحاً كل التلميحات الماجنة، ولكنـها هازلـة ولاذعـة، مع ذلك، كان ثملاً فوق ذلك، لا ينفـك يعبـث بميداليتـه وبجذعـه.. لقد أفرط في الشراب أيضاً، الوغـد! لم يكـن ينقـصه شـيء! المـزاج الرائق، الدعابة الخفيفة! كوب النبيذ الأحمر! وجـام النبيـذ في يـده.. كان يلتهم قطعة من الخبز المدهون بالمربى، الـشحاذ... مـا عـاد ثمـة حاجـة إلى أن يقلـق.. لم يـسأل أي سـؤال عـن أخبـاري!... عاملتـه ببرود... لم أرغب في الحديث إليه أيضاً!... قطعت عليه مفاكهته!.

- آه! أهذا أنت، يا فرديناند؟ هذا أنت؟.

- نعم يا عزيزي جول فيرن!...

- اجلس هنا، يا صغيري! احك لي بسرعة!... سكرتيري... هذا سكرتيري!... قدمني إلى الحضور...

- إذن، قل لي، هل الأحوال مرضية هنا في القاطرة؟... هل رتبت كل الأمور؟... أنت مسرور؟...

كنت متجهم الأسارير، لم أكن مسروراً... ولم أنبس بكلمة...

- لم تسر الأمور إذن على ما يرام؟... هل هناك شيء ما؟...

- هذه هي المرة الأخيرة... قلت له على هذا النحو، مصمماً كل التصميم... بلهجة جافة تماماً ومختصرة...

- كيف؟ لماذا آخر مرة؟ أنت تمزح؟ بسبب...؟

- لم يعد من الممكن إصلاحه... وأنا لا أمزح أبداً!...

ساد الجو صمت مطبق... كنا نسمع بوضوح عجلات القطار.. وجميع القرقعات... والفانوس الذي كان يهتز في الأعلى داخل زجاجته...كان يحاول أن يستجلي ما كنت أفكر به على ضوء السراج الصغير.. إذا لم أكن أمزح قليلاً. لكني كنت عابساً مقطباً... ولبثت جاداً رصيناً إلى أبعد حد.. كنت مصرّاً على النتيجة التي خلصت إليها...

- أنت تعتقد ذلك إذن، يا فرديناند؟ ألست تبالغ؟...

- ما دمت أقول لك ذلك!... فأنا متأكد منه كل التأكد...

كنت قد غدوت خبيراً بالثقوب... ولم أعد أطيق معارضته... اكفهرت سحنته فيما هو قابع في ركنه.. انتهت محاضرته!.. ولم يعد أحد ينطق بكلمة....

كان الآخرون جميعاً، فوق مقاعدهم، يتساءلون عما حدث.. بادا دام! بادا دام! على هذا النحو كانت العجلات تتابع صريرها واحدة بعد الأخرى.. وقطرة الزيت تسقط من أعلى الفانوس... وجميع الرؤوس تهتز... ثم تهوي إلى الأسفل.

***

إذا كان ثمة شيء في العالم، لا ينبغي لنا على الإطلاق أن نقربه إلا بأقصى الريبة والحذر، فهو ذلك الذي له علاقة بالحركة المستمرة!... وإلا فستتكبد الخسائر بالتأكيد في ظرف من الظروف.

بصدد أصحاب الكشوف والاختراعات، يمكن تصنيفهم بحسب الهوس الذي يستحوذ عليهم... ثمة من بينهم أنواع بكاملها، مسالمون وديعون تقريباً.. الشغوفون بـ«الدفق المغناطيسي»، والمهتمون بالتيارات الكهربائية التيللورية، على سبيل المثال، وبالقوى الجابذة... فهؤلاء فتيان لينو العريكة لطيفو المعشر، يكادون يطعمونك من راحات أكفّهم.. وهناك المكتشفون المنزليون الصغار، وهؤلاء أيضاً بعيدون عن الخشونة والفظاظة.. جميع مباشر الجبن، وسائر «القدور الصينية - الفنلندية»، والملاعق ذات «المقبض المزدوج»، وأخيراً كل ما يتصل بأمور المطبخ... هذا النمط يحب الطبائخ والمأكولات... وهم أشخاص مرحون للغاية... وما شأن القائمين على إنشاء «المترو» وتسييره؟... آه! ينبغي الانتباه والحذر! ولكن المجانين جنوناً مطبقاً، الهائجون الحقيقيون، العاملون بالأحماض والسلفاتات، ينتمون إلى «الحركة المستمرة»... فهؤلاء القوم مصممون، بأي ثمن، على أن يثبتوا لك صحة اكتشافاتهم!.... وسيقلبون لك جلد بطنك إن أنت أبديت أدنى شك... هؤلاء الناس لا يجوز مضايقتهم أو تنكيدهم...

تعرفت، على هذا النحو، في مكتب كورتيال على أحد الفتيان المهتمين بحمامات الدوش، شديد التزمت.. لم يكن يتحدث إلا عن جهازه.. وهو لا يتحدث قط إلا بصوت خفيض هامس.. تلوح في عينه نزعة إلى القتل.. كنا قد قمنا بزيارة لوكيل النائب العام في المقاطعة لإخطاره بذلك.. كان قادماً إلينا، خصيصاً، من الجنوب الغربي حاملاً إلينا اسطوانته.. وهي عبارة عن قسطل ضخم من الأبونيت (مطاط قاس)، لها صمام نابذ وزر كهربائي.. كان من اليسير تمييزه وسط الشارع، وحتى من بعيد جداً، فهو لم يكن يمشي إلا على نحو مائل، مثل سرطان حقيقي، على امتداد الحوانيت.. وبسيره على هذا النحو فقد عطل جاذبية عطارد، والدفق الشمسي و«الأيونات» التي تعبر الغيوم.. لم يكن قط يفارق وشاحه الضخم الملتف حول كتفيه، لا في الليل، ولا في النهار، والمصنوع من خيوط الأميانت والحرير.. كان ذلك هو مكشافه للموجات.. فإذا ما دخل في «تشابك موجتين من تردد واحد» ارتعد على الفور.. وخرج من أنفه فقاعات..

كان كورتيال يعرفهم جميعاً، وفي لحظة دفع الاكتئاب!.. كان يعرف إلى أي حد يمكن أن يسايرهم.. ويرفع الكلفة مع عدد كبير منهم، لم يكن يجد صعوبة كبيرة في تدبر الأمور معهم.. غير أن فكرة خطرت له ذات يوم بالصعود معهم في المنطاد!.. كان ذلك جنوناً حقاً! وأطلقت على الفور صرخة ذعر، وهتفت به حالاً.. كل شيء! إلا هذا!.. لم يكن ثمة وسيلة لمنعه... كان بحاجة ماسة إلى النقود، وإلى سيولة عاجلة.. كنا نعاني، في الواقع، مشقة بالغة في تغطية نفقات شهورنا.. كنا مدينين بستة أعداد من «الجينترون» لتابيونييه، صاحب المطبعة.. كان لدينا، إذن، الكثير من الأعذار... لم تعد

التحليقات بالمنطاد من جهة أخرى تدر علينا عوائد مثلما في السابق.. وقد سببت لنا الطائرات، الآن، أضراراً فادحة.. كان الفلاحون، عام 1910 يهوجون ويموجون، متشوقين لرؤية الطائرات.. كنا مع ذلك، نبعث الرسائل، دونما انقطاع تقريباً، مدافعين عن أنفسنا خطوة خطوة.. أرسلنا رسائل إلى كل القرويين، والأساقفة، وإدارات الشرطة، وموظفات البريد، والصيادلة، والمعارض الزراعية... وفي ربيع عام 1909 فقط طبعنا عشرة آلاف منشور.. كنا ندافع إذن عن مهنتنا بلا هوادة.. ولكن ينبغي القول بأن كورتيال كان يستمتع بسباقات الخيول، والرهان عليها... وقد عاد أدراجه إلى «الإيموت»... كان خليقاً أن يسدد حساب ناجير... كان يحدِّث نفسه دائماً... كنت أراه بوضوح.. وأخيراً ربح عجوزي في سباق واحد، في ميدان إنجين مبلغ ستمئة فرنك بعد أن راهن على الجواد «كاروت»، ثم على الجواد «سليمان»، وربح مئتي فرنك في شانتلي... كان الفوز قد أثمله ولن يلبث أن يجازف مزيداً من المجازفة...

في اليوم التالي صباحاً جاءني هكذا إلى المخزن... متحمساً جداً، وبادرني على الفور..

- آه! قل إذن يا فرديناند! الحظ! هوذا! إنه أمامك!.. ها هو!.. أنت تسمعني، عشر سنوات، عشرة أعوام!.. وأنا أُمنى بالإخفاق دون توقف تقريباً!... انظر!.. وأراني «الكراكينيول»، أحد الأعداد الجديدة لصحيفة السباقات، كان قد شطب فوقها.. بالأزرق، والأحمر، والأخضر، والأصفر!.

أجبته على الفور:

- مهلاً، يا سيد دي بيريري! نحن اليوم في الرابع والعشرين من الشهر.. وليس في الصندوق سوى أربعة عشر فرنكاً!... صحيح أن

تابونييــه مهــذب جــداً... ولكنــه لم يعــد يريــد في النهايــة تـسليمنا التخريفات التي يطبعها لنا! أحب أن أخطـرك بهـذا علـى الفـور! منـذ ثلاثة اشهر وهو يشتمني في كل مرة أضع قدمي فيها على بـلاط شـارع رامبيتو.. ما عدت أنا من سيذهب لملاحقته بإلحاح، والعربة في يدي.

- دعني مرتاحاً يا فرديناند! أنت ترهقني! أنت تكـدرني بهـذرك... بقذارتك.. لدي إحساس! لدي إحساس! بأننا غداً، سنخلص من هذه الورطة!... ما عاد بإمكاني أن أضـيع دقيقـة واحـدة في المماحكـات! عد إلى هذا التابونييه وقل له.. باسمي.. أنت تـسمعني جيـداً! بـاسمي هذه المرة.. هذا الوغد الزنيم، حينما أفكـر بـه! آه! لقـد سمـن علـى حسابي.. منذ عشرين سنة وأنا أغذيه.. جمع ثروة طائلـة! انـتفخ! عـن طريق صحيفتي!.. أريد أن أسدي جميلاً لهذا الوغد الدنيء! قـل لـه! أنت تسمعني! قل له! إن بإمكانه أن يراهن بكل مـصنعه. وكـل أشـيائه التافهة، وعدّته! وأثاث بيته! ومهر ابنته! وسيارته الجديدة! كل شيء! تأمينه الاجتماعي! وثيقة التأمين! ولا يدع شيئاً لديه! دراجة ابنـه! كـل شيء! تذكر جيداً! كل شيء! على الجواد «بـراغمانس» الفائز.. أقـول «الفائز»! وليس «المجلّي»! وعلى الجـواد ميـزون، يـوم الخمـيس!.. هوذا! على هذا النحـو يـا ولـدي!.. إنـني أرى خـط النهايـة! و1800 فرنك لقاء مئة فلس! أنـت تـسمعني جيـداً، بـل 1787 فرنـك بوجـه الـضبط.. في الجيـب!.. تـذكر جيـداً! ومـا يبقـى معـي مـن الرهـان المكسوب سأنقله إلى رهان آخر.. وهـذا سـيحقق لنـا ربحـاً مـن كـلا الرهانين! ما يعـادل 53498 فرنكـاً! هـوذا! صـافياً!.. بـراغامانس!.. ميزون!... بـراغامانس!... ميزون!...

تابع كلامه.. دون أن يسمع إجاباتي.. ثم خرج ثانية من الممر.. كان قد غدا مروبصاً...

في اليوم التالي، انتظرته طوال ما بعد الظهر.. ثم وصل أخيراً... جاء ومعه الثلاث والخمسون حقيبة التي كان سيضع فيها الثلاثة والخمسين ألف فرنك.. كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة.. ها هوذا يعود.. رأيته يجتاز الحديقة... لم ينظر إلى أي شخص في الحانوت.. اتجه نحوي مباشرة.. وأمسكني من كتفيّ... وضمّني بين ذراعيه... لم يكن يتظاهر بذلك.. كان يزفر بقوة.. «فرديناند! فرديناند! أنا بائس مقرف! ووغد كريه.. يمكنك التحدث عن عار مشين لحق بي!.. لقد خسرت كل شيء يا فرديناند! كل مصروف شهرنا، مصروفي، ومصروفك! ديوني! وديونك! والغاز! وكل شيء!.... كما أنني أدين لناجير بالرهن!... وأدين للمجلّد بـ 180 فرنك.. واستدنت من حاجبة المسرح أيضاً ثلاثين فرنكاً، وأدين كذلك بمئة فرنك لحارس الممر في مونترتو!... سألتقي به هذا المساء!.. أنت ترى في أي مغطس غطست!.. آه! يا فرديناند! كنتّ على حق! لقد سقطت في حمأة وحولي!...

كان قد أشفى على الإنهيار.. وبــرَّح به الندم كل مبــرِّح.. كان يحسب.. ويعيد حساب مجموع ديونه... كم كان مديناً في واقع الأمر؟... كان هناك المزيد من الدين دائماً.. ولفرط ما كان يكتشف ديوناً جديدة، اعتقدت أنه كان يختلقها.. كان يبحث عن قلم.. يريد أن يبدأ حسابها من جديد.. فمنعته بإصرار.. وقلت له حينئذ:

- هيا! هيا! سيد كورتيال! ألا تستطيع أن تبقى هادئاً؟ ما الذي سيكون عليه مظهرك؟ إذا قدم بعض الزبائن الآن! كيف ستظهر أمامهم؟ خليق أن ترتاح بالأحرى...!.

- فرديناند! كم كنت على حق!.. لقد تحدثت على نحو أكثر حكمة من معلمك! ذلك العجوز المنحلّ! عاصفة جنون يا فرديناند! عاصفة جنون.

كان يحضن وجهه بكلتا يديه....

هذا لا يصدق! هذا لا يصدق!... ونهض بعد انقضاء لحظة من الخور الشديد، واتجه إلى باب القبو، وفتحه.. واختفى وحيداً.. كنت أعرف نوبات اضطرابه تلك.. كانت دائماً على منوال واحد!.. فحين كان يرتكب حماقة فادحة.. يعرض أولاً أفكاره ومشاعره المشوشة مثل طبق من السلطة، ثم يبدأ نوبة التأمل... ولكن ماذا بشأن الطعام يا صديقي! كان علي مع ذلك أن أجد قشارة أتبلّغها!.. ما من صاحب حانوت كان يوليني الثقة!.. لا الخباز، ولا بائع الفاكهة.. كان الوغد مطمئناً إلى أنني كنت قد أعددت مخبأ صغيراً ادخرت فيه بعض الأطعمة.. كان يتوقع مع ذلك بأنه كان علي أن آخذ احتياطاتي.. وأنني لست أبله!... كنت أنا من يتبصر بالأمور، ويحسب لها ألف حساب!... وقد تدبرت أمر الطعام شهراً بكامله بتلك القشارة المخبأة في الدروج.. ولم يكن ما أعدّه لطعامنا سيئاً.. ولكنه لم يكن سمكاً مملحاً!.. ولا لحماً حقيقياً من الصنف الممتاز!.. ولا بطاطا مقلية تحت الطلب... ولا مربى خالياً من السكر..

لم يكن يريد أن يخبر امرأته... فقد لبثت في مونترتو، لا تدري عن الأمر شيئاً.

***

عاد الخال إدوارد من الريف، لم أكن قد رأيته منذ زمن طويل. مرّ بي مساء السبت.. لينقل إلي أخبار والديّ، وأخبار المنزل.. كان نكد الحظ ما يزال يحيق بهما!... أما والدي، فعلى الرغم من كل الجهود التي بذلها، لم يفلح في الرحيل عن «الكوكسينيل»... كان هذا أمله الوحيد مع ذلك.. ففي مكتب «الكونيفانس انساندي» لم يكونوا يرغبون به، على الرغم من أنه كان يضرب على آلته الكاتبة جيداً..

كانوا يرون أنه أكبر سناً من أن يقوم بمهام وظيفة ثانوية.. كما أن مظهره المتواضع لم يكن لائقاً لمثل هذه الوظيفة التي هي على تماس مع الجمهور.. كان عليه إذن أن يعدل عن محاولاته.. وأن يتشبث بعمله في «الكوكسينيل»... وان يظهر بوجه بشوش لمديره أمبرينت... وهي مهمة كريهة وصعبة... ما عاد يغمض له جفن أبداً بسببها.

منذ أن علم البارون ميفيز، المدير العام للمؤسسة بمساعي والدي للانتقال إلى مؤسسة أخرى حمل على والدي وأضمر له العداء. كان يثخنه دائماً بصنوف العذاب... كان يكلفه، عن عمد، بالصعود خمسة طوابق كي يكرر له مرة أخرى، كم كان يجده غبياً.. وأنه كان يخطئ في جميع العناوين... مع أن ذلك لم يكن صحيحاً بالمرة...

فيما كان الخال إدوارد يفضي لي بكل ذلك... كان يتساءل بينه وبين نفسه.. أو لعله كان يفكر.. بأن عجوزيّ كانا سيسعدان لو رأياني لحظة قصيرة... وأنها فرصة سانحة للتصالح مع والدي.. وأن والدي كان مثقلاً بضروب التعاسة، قد برَّحت به الآلام والأحزان.. كان هذا ينبع من طبيعته الطيبة.. لم يصرّح لي بشيء، كانت مجرد فكرة قد جالت في رأسه ولكنها جددت المرارة في نفسي... وانتابتني الغصة حتى كدت اختنق... ما عدت صالحاً لمثل هذه المحاولات!...

- حسن! حسن! حسن يا خالي!... إن قلبي عامر بالشفقة، عامر بكل هذا... ولكنني إذا ما عدت إلى الباساج... أنا لا أستطيع أن اعترف لك بذلك حالاً... فلن اتمالك نفسي أكثر من عشر دقائق... سأشعل النار في البيت كله!...

والحق إنه ما عاد ثمة أمل في محاولة ذلك!..

- حسن! حسن! قال خالي: أعرف ما تفكر به!...

ثم لم يلمح لي إلى ذلك مرة أخرى... لا ريب في أنه كان قد فاتحهما بذلك مراراً.. أخيراً، لم نعد نتحدث عن الأمر، عن تلك العودة إلى العائلة.

مع كورتيال، بالطبع... استمر الحال على هذا المنوال على نحو دائم.. فعلى امتداد ساعات النهار كان يتخبط مضطرباً مبلبلاً، ويتلفظ بكلمات نابية دون توقف.. كان يتصرف تجاهي تصرفات مريبة.. ومصطنعة مثل ستة وثلاثين خنوصاً... عند المساء فقط كنت أنعم بالهدوء.. فما إن كان يولي دُبراً حتى أتصرف على هواي، أدير أموري كما أشاء!... حتى العاشرة صباحاً، حين يعود من مونترتو.. كنت أنا المعلم مع ذلك... كان هذا بالغ الأهمية بالنسبة إلي! فما إن أطعم الحمامات حتى أكون حراً طليقاً... كنت أحصل دائماً على دريهمات زهيدة من الأشياء التي أبيعها لجمهور المتفرجين.. كانت أعداد «الجينترون» المرتجعة ترتع في الفوضى... كانت جزءاً من نصيبي... أما ما بقي بين يديّ... من عائد الصعود بالمنطاد، فلم يتجاوز قط أربعة أو خمسة فرنكات... ولكنها لي أنا، كنقود في جيبي.

كان التمساح العجوز يتحرق إلى معرفة أين كنت أخبئ نقودي القليلة!... كنزي الصغير!... كان بوسعه أن يتحرك بسرعة دائماً! ولكني لبثت حذراً غاية الحذر... كنت في مدرسة حقيقية في الواقع... لم يكن يغادر جيبي هذا المبلغ الصغير المتقلب، في مخبأ أمين، مشبوكاً بدبوس داخل صدرتي... لم تكن الثقة سائدة بيننا... كنت أنا أعرف مخابئه... كان لديه ثلاثة منها.. أحدها كان في أرضية الغرفة... وآخر خلف طاولة السلع (تحت آجرة متحركة)، والثالث داخل رأس هيبوقراط!.

كنت أختلس من المخابئ الثلاثة... لم يكن يعد نقوده مطلقاً.. ثم ساورته الشكوك في النهاية.. ولكنه لم يكن يملك أن يحتجّ...

ما كان يعطيني راتباً.. ثم إنني كنت أنا من يطعمه! وليس على نحو سيئ... وبوفرة... كان يشعر بأنه لا يملك الحق بأن يقول شيئاً...

في المساء لم أكن أعد طعامي، كنت أذهب وحدي إلى «الاتوماتيك»، على ناصية شارع ريفولي.. فألتهم على الواقف، شطيرة صغيرة... كنت أفضل ذلك دائماً... لأنني كنت أنتهي بسرعة... ثم أنطلق في نزهة... فأطوف في شارع مونتماتر... مروراً بالبريد.. ثم في شارع إيتيان مارسيل... فأتوقف هناك أمام التمثال، في ميدان النصر لأدخن سيكارة... كان ذلك ملتقى عظيماً لشوارع عدة... يستأثر بإعجابي إلى حد كبير... كان يكتنفني هناك هدوء شامل، فأفيء إلى نفسي وأسرح بأفكاري... ما كنت يوماً سعيداً إلى هذا الحد، مثلما كنت في تلك الحقبة، في «الجينترون»... لم أكن أضع خططاً للمستقبل... ولكنني ما وجدت الحاضر سيئاً جداً... وعند الساعة التاسعة كنت أعود أدراجي...

كان ما يزال لدي الكثير من الأعمال... تحضير رقع للزيلي دائماً... وطرود بريدية، تنتظر الشحن... ورسائل إلى المقاطعات... وفي حوالي الساعة الحادية عشرة كنت أعاود الخروج لأسير تحت صف القناطر... كانت تلك هي اللحظة المفعمة بالفضول والطرافة... كان مطرحنا يغص في تلك الساعة بغانيات الليل المترنحات المتسكعات اللواتي يهبن المتعة لقاء عشرين فلساً، أو أقل من ذلك أيضاً، كل ثلاثة أو أربعة منهن مع زبون أو زبونين... كن يعرفنني جيداً.. كنت أراهن دائماً جذلات طافحات بالبشر... وحين تمر دوريات الشرطة كنت أدخلهن إلى المكتب.. فيختبئن بين الملفات والأضابير، ويبتلعن الغبار.. كن يلبثن مختبئات حتى تبتعد دورية الشرطة. كنا نصدر مصمصات مضحكة ونحن لابدين في "ركن الشريك المؤتمن".كنت أنظر إليهن كالأحول من طابقي فوق الأرضي، وهن يقتربن لحظة احتدام الأزمة... كنت أرى

أولئك الشقراوات متعنقدات جميعاً عند الباب الصغير... كنت أشبه بالدفيئة لهذا القبيل من الغواني: ما من أحد شاف!.. وما من أحد دري!.. كن يتوقعن غارة الشرطة قبل منتصف الليل بقليل... فليجأ إلي غالباً قرابة اثنتا عشرة من أولئك الصبايا، ويختبئن داخل مستودع الملفات في الطابق الأول.. كنا نطفئ المصباح.. ونصمت صمتاً مطبقاً كأن على رؤوسنا الطير.. يتناهى إلينا وقع أقدام عناصر دورية المطاردة، فوق بلاط الشارع، وهم يمرون ويعاودون المرور... كن يشعرن بالذعر... فيتقلصن في زاويتهن على غرار جرذان.. ثم لا تلبث الغمة أن تنفرج، ويسود جو من الانبساط... كانت القصص التي يروينها عندئذ أجمل فصول تلك المغامرة... كنّ يعرفن كل ما يدور في الغاليري... كل ما كان يحاك، وما كان يُهرّب.. تحت القناطر.. وداخل حجرات السلالم، وفي خلفيات المخازن... عرفت منهن كل شيء عن التجارة... وعن كل الذين يؤتون من دبرهم.. وعن سائر الإجهاضات.. وجميع الأزواج المخدوعين في المحيط.. على هذا النحو.. وبين الساعة الحادية عشرة ومنتصف الليل.. عرفت كل شيء عن دي بيريري.. كيف كان يذهب ذلك القذر ليفسق تحت سياط بائعات الهوى في «الفازاوتريسك»... وكيف يطلب منهن أن يكن قاسيات وأن يجلدنه بعنف... كنَّ يسمعنه يزمجر خلف الستارة المخملية... وكان ذلك يكلفه في كل مرة خمسة وعشرين فرنكاً.. نقداً!.. بالطبع..!. لم يكن من النادر أن يتلقى ثلاث جلدات متتالية خلال بضعة أسابيع!..

كان ذلك يجعلني أزمجر أنا أيضاً، حين اسمع مثل هذه الأخاليط المبلبلة!.. ما عاد يدهشني قط أن لا يكون في جعبتنا قط درهم واحد!... فمع ضربات السياط هذه، على يد المومسات الشاذات كنا سنظل في عوز دائم إلى المال!... لم يكن ثمة معجزة في الأمر!...

كانت فيوليت أفضلهن جميعاً في رواية الأخبار والحكايا، فتاة من الشمال متقدمة قليلاً في السن، ذات شعر أثيث مرجل بثلاث ضفائر، معقوصة إلى الأعلى، مشبوكة بمشابك طويلة كالفراشة، شقراء، في الأربعين من عمرها على الأرجح... بتنورة سوداء قصيرة دائماً، تشد ردفيها شداً، وصدار وردي، وجزمة بيضاء عالية الساق، لها رباط في الأسفل، وكعب على هيئة بكرة.. مال قلبها إلي.. كان يعترينا الفواق جميعاً من الضحك حينما نصغي إليها... لفرط ما كانت تجيد التقليد... كان لديها حكايات جديدة دوماً... كانت لا تبرح تحدثني عن «روين» الذي أمضت معه اثنتي عشرة سنة في المنزل ذاته دون أن تخرج منه تقريباً... وحينما كنا ننزل إلى القبو، كنت أشعل الشمعة... كانت تخيط لي أزراري المقطعة.. ذلك عمل كنت أنفر منه! كنت أقطع الكثير منها.. من جراء الجهد الذي كنت أبذله وأنا أدفع العربة ذات الذراعين.. كان بإمكاني أن أخيط أي شيء.. ولكن ليس زراً.. على الإطلاق.. لم أكن أطيق ذلك.. كانت تحب أن تشتري لي جوارب... رغبة منها في أن أبدو متأنقاً... منذ زمن بعيد لم أعد اهتم بقيافتي، ولا كذلك دي بيريري، ينبغي الإنصاف.. ولدى خروجها من قصرنا الملكي كانت تتوجه إلى فيلليت... ملتفة بوشاحها بأبهة... لاصطياد زبائن الساعة الخامسة.. هناك، كانت تكسب على نحو ليس سيئاً.. ما عادت تريد أن تظل حبيسة البيت... ولكنها كانت، مع ذلك تقضي من وقت إلى آخر شهراً في بيت الغانيات، وترسل لي بطاقة بريدية.. ولكنها كانت تعود سريعاً... كنت أعرف طرقاتها على الزجاج... وقد نشأت بيني وبينها صداقة حميمة. طوال سنتين تقريباً.. إلى أن رحلت عن الغاليري... صارت غيورة في النهاية، كان يعتريها نوبات شبق.. وغدا مزاجها سيئاً.

* * *

في فصل الخضار، ما عاد لنا مأرب بالموقد.. كنت أقدمها طازجة «مخلوطة» مع لحم الخنزير بأنواعه... كان يعود من مونترتو بسلة مملوءة بالبقل، والفاصولياء، والجزر، واللفت، برزم ورزم هائلة، وبالبازلاء أيضاً...

كان كورتيال مولعاً بألوان الصلصة المتبلة.. كنت قد تعلمت كل ذلك من كتيب للطبخ.. صرت أجيد إعداد سائر اليخنات الكثيرة التوابل، وجميع طرائق تطريتها. كان ذلك سهلاً ميسوراً إلى أبعد حد... ويمكن تقديمه على المائدة وقتاً طويلاً، كنا نملك موقداً على الغاز المشتعل، في خلفية المخزن، وفي الشتاء كنت أطبخ اللحم مع الخضار... كنت أنا من يشتري اللحم، والمارغرين، والجبن... أما البيرة فكان كل منها يجلبها بدوره..

كانت فيوليت، حين ينتصف الليل، تحب أن تتناول شيئاً من الطعام... كانت تشتهي لحم العجل البارد مع الخبز... ولكن هذا كان غالياً جداً.. إلى جانب نفقات جنونية أخرى..

عبثاً كنت أحتجّ، وأنبّه كورتيال إلى أفدح الكوارث.. كان علينا أن نخوض غمار مسابقته التي أعلن عنها تحت عنوان «مسابقة المنطاد الدائم التحليق». كانت هذه وسيلة سريعة تدر علينا عوائد على الفور. أعلن كورتيال بأن العرض سيقام فوق الجسر... وحدد رسم الدخول للاشتراك في التجارب بخمسة وعشرين فرنكاً.. وخصص جائزة أولى مزعومة مقدارها اثنا عشر ألف فرنك، تسلم للفائز الأول من قبل هيئة تحكيم عليا مؤلفة من أعظم علماء العالم، وجائزة أخرى ثانوية تعادل أربعة آلاف وثلاثمئة وخمسون فرنكاً... لم تكن جوائزه شحيحة!...

وعلى الفور تقاطر الهواة!... مدّ دافق!... تيار متلاطم!.. اجتياح كاسح!... مصورات!... نشرات!.. فيض غزير من المذكرات!.. وأبحاث مرفقة بالرسوم.. تحسن طعامنا أكثر فأكثر... ولكن ذلك لم يكن خالياً من القلق والتوتر!. آه كلا بالتأكيد!... كنت مقتنعاً كل الاقتناع بأننا سوف نندم ندماً مريراً من النتائج التي ستنجم عن هذه المبادرة... وأننا على وشك أن نغوص في مستنقع زاخر من الوحل والأقذار... وأن العواقب ستكون وخيمة.. وأننا سنكفّر عن كل فلس سنلمسه بأصابعنا.. تدفقت علينا التخيلات المصورة!.. ألفان.. ثلاثة.. وربما خمسة آلاف!.. ذلكم هو العقاب الداعر الذي كنا سنتلقاه بالتأكيد عن قرص العسل.. وهو لن يتأخر كثيراً.

تجمع لدينا من تصاميم «المنطاد الخالد» ما يناسب كل الأذواق، وكل الميول، وكل الأفكار المشتطة... ما يمتاز منها بالأبهة، وما يمتلك مقاود ديناميـة، وقنوات فضائية ـ أرضية، وأجنحة للتوازن وسط التيارات الهوائية، وأجهزة لقياس الحرارة، وفتحات للتبريد، ومرايا عاكسة للأمواج الهرتزية!... لم يكن ثمة إلا ما يروق ويُعجب، أتخمنا إتخاماً، والحق يقال... بعد مضي خمسة عشر يوماً بدأ المكتتبون الممسوسون بالوصول! قدموا هم شخصياً!... للإطلاع على الأخبار... ما عادوا يعيشون منذ مسابقتنا. اقتحموا علينا مكتبنا... كانوا يتقاتلون أمام بابنا.. وبرز لهم كورتيال على العتبة، وألقى فيهم خطبة مطولة، أرجأهم إلى ما بعد شهر... شرح لهم، على هذا النحو، بأن أحد الشركاء الممولين كُسر عضده فيما كان يتنزه على شاطئ الكوت دازور... ولكن عظمه سيُجبر عما قريب... وسيبادر سريعاً إلى المجيء، كي يقدم بنفسه المال للفائزين.. هذه مسألة مفروغ منها... مانع بسيط فقط.. لم تكن أكذوبته هذه سيئة والحق

يقال.. انصرفوا.. ولكن غاضبين.. خلعوا الواجهة الزجاجية... نفثوا حقدهم في كل مكان... بل إن بعضهم كانوا أشبه بخثرات صلبة... أنواعاً من دعاميص الضفادع.. عرق قميء حقاً من المهووسين الخطرين جداً، أثار كورتيال سخطهم، ولكنه لم يقدّر ذلك تقديراً كافياً... ولم يكن يريد أن يقتنع... وبدلاً من أن يعترف بخطئه كان يسعى إلى الخصام معي...

بعد الغداء... وبانتظار أن أزدرد جرعة العصير مع قطعة من الخيار المخلل، كان هو يعصر أرنبة أنفه، ويخرج منها قطرات صغيرة من الدهن، مثل سرفات ذباب، ثم يسحقها بعد ذلك بين ظفريه القذرين للغاية والمقرّنين... ثم بدا وكأنه يمسك بين إصبعيه بشيء ما، أشبه بكرنبة صغيرة، مجعدة، ومشوية ومدوّدة... لا ينفك يضخمها، فلفتّ نظره إلى ذلك..

كنا نتوقع، ونحن نحتسي عصيرنا أوبة المهووسين سريعاً ليعاودوا تعذيبنا... وتهديدنا... ودفعنا إلى نوبة من الصرع، وسحق بابنا... والتدافع داخل ديكورنا... كنت أنا حينئذ من يمسك كورتيال بتلابيبه، من كان يحاول تعذيبه... كان ذلك يهدئه كما يبدو... كان يأخذني على حين غرة... «سيكون عليّ يا فرديناند، مع ذلك، أن أشرح لك المدارات الكبرى... بعض القطوع الناقصة الرئيسية.... أنت تجهل كل شيء عن التوءمين الكبيرين! وعن الدب الأكبر أيضاً! وهو أبسط من سابقه!... لاحظت هذا الصباح، حينما كنت تتحدث مع ذلك القملة... كان هذا باعثاً على الرثاء، والخوف!... إفرض مثلاً أن أحد معاونينا سألك، ذات يوم، أثناء الحديث أسئلة عويصة عن «فلك البروج»؟... عن صفاته؟... أو عن برج القوس؟... ما الذي ستجده في جعبتك كي تجيبه؟.. لاشيء! قطعاً

لا شيء... سنفقد اعتبارنا حينئذ يا فرديناند! نحن الذين نستظل بجناح فلاماريون!... أجل!.. وهذا أدهى وأمر! ذلكم ذروة السخرية! جهلك هذا! السماء؟ فجوة!... فجوة بالنسبة إليك يا فرديناند! فجوة لا أكثر! هي ذي! هي ذي السماء بالنسبة إليك!»
كان يحتضن رأسه بين يديه.... ويهزه يميناً وشمالاً. ودائماً تحت وطأة كرب عظيم... كما لو أن كشفاً، كما لو أن ضلالاً فظيعاً غدا فجأة بالنسبة إليه مبرحاً أشد التبريح... وما عاد بمقدوره تحمله... كان يطلق تنهدات عميقة، كما لو كنت سأحطم رأسه.

«ولكن أولاً سأبدأ بما هو أكثر استعجالاً! قال لي حينئذ، الفظ!... ناولني إذن، هيا، عشرين من هذه الملفات! كيفا اتفق، اغطس يدك فقط! أريد أن أتصفحها واحدة واحدة.. وغداً صباحاً، سأضع ملاحظاتي! عليّ أن أبدأ حالاً! لا يعودنّ أحد إلى إزعاجي على الأخص! ضع لافتة على الباب: «الاجتماع الافتتاحي للجنة الجائزة».. أنا في الطابق الأول، هل تسمعني؟ وأنت، هيا فالجو جميل... قم بجولة شطر توبونارد!... إسأله، ماذا حلّ بملحق الصحيفة؟... عرّج أولاً على «الإيموت». ولكن حذار أن تدخل! أو أن يراك أحد! أنظر إلى داخل الصالة الصغيرة، إن كان هناك ناجير؟ فإذا لم تجده، فاسأل الصبي، ولكن الرهان من أجلك أنت بالتأكيد! هل تسمعني؟ وليس من أجلي على الإطلاق!.. إسأله كم قيمة الرهان على الجواد «سيبيريه»، كان الرابع في السباق يوم الأحد الماضي! لا تعبر من أمام الإيموت في طريق عودتك! تسلل عبر شارع دالايراك!.. لا يزعجني أحد قط! أنا لست هنا من أجل مليون شخص! أريد أن أعمل في جو من الهدوء والصمت! من الهدوء المطلق!...»

صعد إلى الأعلى، وانقطع إلى خلوته في مكتبه التونسي، ولما كان قد أكل أكثر مما ينبغي فقد كان مطمئناً إلى أنه سيهوم في النوم.. أما أنا فكان ما يزال لدى كتابة عناوين اللجان.. الثرثرات ذاتها والتي لابد من الفراغ منها... غادرت المخزن بعد ذلك... ذهبت للجلوس تحت الأشجار في الجهة المقابلة... اختبأت خلف الكشك، لم يكن لدي رغبة بالمرور على صاحب المطبعة... كنت أعرف سلفاً بماذا سيجيبني... كان لدي مهمات أكثر إلحاحاً. علي أن ألصق ألف بطاقة، على نسخ عدد المجلة القادم.. إذا لم يحتجزه صاحب المطبعة!.. لم يكن هذا مضموناً في الواقع!.. منذ حوالي خمسة عشر يوماً وهو يقبض منا حوالات «المسابقة»... ولكننا كنا مدينين له بمبالغ أكبر!.. وهناك الغاز.. لم نسدد ثمنه منذ شهرين أثنين، ثم أجور البريد والشحن على الأخص..

بينما أنا في مخبئي خلف الكشك، إذ أقبل من بعيد موكب المتنافسين... كانوا مندفعين نحو المخزن... وأمام الواجهة الزجاجية بدؤوا يرفسون الأرض بأرجلهم وهم يتميزون غيظاً... هزوا الباب الثقيل بغضب مسعور!... كنت قد نزعت مقبض الباب... كانوا سيخلعونه بكامله ربما.. كانوا يتبادلون الحديث!... ويتناوبون في التعبير عن سخطهم.. لبثوا هكذا وقتاً طويلاً... يغمغمون أمام الباب... كنت أسمع دمدمتهم على مسافة أربعمئة أو خمسمئة متر... لم أنبس بكلمة!.. ولم أظهر نفسي للعيان... كانوا ربما سينقضون علي كالأعصار! ويقطعوني إرباً!... وحتى الساعة السابعة مساء كان يتدفق متنافسون جدد... كان القبيح الآخر هناك في الأعلى داخل بازاره هاجعاً بلا ريب... إلا إذا انسلّ من باب الشارع الصغير حينما سمع رغاء القوم.

في النهاية! لم يكن هناك ما هو مستعجل... كان بمقدوري أن أفكر قليلاً... لقد مرت سنوات منذ أن بارحت بيرلوب... والصغير أندريه... من المؤكد أنه قد كبر الآن، ذلك الجردون المقزز!... لابد أنه قد انتقل الآن إلى مكان آخر... لدى معلمين آخرين... ربما لم يعد يعمل أيضاً في الشرائط والوشاحات... كنا نأتي غالباً جداً إلى هنا ننتظر مدفع الظهر.. لقد نأى ذلك الزمن الذي كنا نتدرب فيه معاً... تباً! كم يكبر الطفل سريعاً! سرحت بنظري هنا وهناك، لعلي أرى بمحض المصادفة الصغير أندريه.. قال لي أحد باعة البسطات بأنه ما عاد يعمل لدى بيرلوب... وأنه يعمل الآن في تعبيد الطرق.. بعد أن توظف «كفتى متدرب»... يخيل إلي أحياناً بأنني أراه تحت القناطر.. ولكن لا.. لم يكن هو.. ربما ما عاد حليق الشعر مثلما كان في ذلك الوقت... ربما لم يعد لديه خالة... لا ريب أنه في مكان ما يجري خلف رزقه!... وتسليته... ربما لن أراه أبداً مرة أخرى... ربما رحل كلياً عن الوجود... ودخل جسداً وروحاً في الحكايات التي تدور على الشفاه... آه! هذا رهيب جداً مع ذلك... عبثاً يكون المرء غلاماً فتياً حينما تقع عليه العين أول مرة.. كم يُضيع المرء من أناس على الدرب.. من رفاق لا يعود إلى رؤيتهم قط.. ينقشعون كما تنقشع الأحلام.. ثم لا يلبثون أن ينتهوا... ويتلاشوا... ثم نمضي نحن ذاتنا لنضيع أيضاً... ذات يوم، بعيداً جداً أيضاً.. ولكن بالضرورة... وسط سيل عرم من الأشياء والناس... والأيام... والأشكال التي تمضي وتمضي... ولا تتوقف أبداً... كل الأغبياء البلهى، كل غلاظ القلوب، كل الفضوليين، كل الأشخاص التافهين الذين يتسكعون تحت القناطر، بنظاراتهم، ومظلاتهم، وكلابهم الصغيرة التي يجرّونها بالحبال.. كل هؤلاء، لن تراهم العين ثانية.. إنهم يمرون

الآن.. يداعبون أحلامهم.. يسير بعضهم في إثر بعض.. سينتهون أخيراً.. هذا محزن حقاً.. هذا مشين!.. أولئك الودعاء السذج الذين يسيرون أرتالاً على امتداد الواجهات الزجاجية، كانوا يوقظون فيّ رغبة عاتية... كنت ارتعد فزعاً من أن أذهب لأثب فوقهم في النهاية... أعترض سبيلهم.. فيقفون فجأة.. فأتعلق بثيابهم.. فكرة غبية.. كي يتوقفوا!... كيلا يعودوا يتحركون أبداً... كي يثبتوا في أماكنهم هناك!... مرة واحدة وإلى الأبد! ولا يغيبوا عن عيني بعد ذلك.

* * *

بعد يومين، ربما، أو ثلاثة، استدعي كورتيال إلى مفوضية البوليس... جاء شرطي خصيصاً لهذا الغرض... كان هذا يحدث غالباً... كان مزعجاً بعض الإزعاج، ولكنه كان ينتهي بسلام دائماً... نظّفت ثيابه بالفرشاة بعناية فائقة من أجل المناسبة... كان يثني كمي قميصه قليلاً.. ويذهب ليدافع عن نفسه... ويظل وقتاً طويلاً خارج المكتب.. ثم يعود دوماً منشرحاً غاية الانشراح.. كان يفحمهم جميعاً... فهو يعرف جميع نصوص القانون.. وجميع الحجج، حتى أصغرها.. وحيثيات القضايا الشائكة.. غير أنه بالنسبة لهذه المزحة بالذات مزحة "المنطاد الخالد".. كان ثمة صعوبة جدية.. لم تكن قط في الجيب!... كان جرذاننا الفظيعون المشاركون في مسابقة «المنطاد الخالد» قد أقلقوا راحة مفوضي البوليس... فمفوض شارع «فرانس بورجوا» كان يتلقى منهم اثنتي عشرة شكوى كل يوم، وذاك الذي في شارع شوازيل كان قد نفد صبره... وبلغ به الحنق كل مبلغ... كان يهدد بتفتيش مكتبنا... منذ كانون الثاني انتقل المفوض السابق الذي كان متساهلاً إلى ليون، وحل محله هذا المفوض الجديد، الذي كان نذلاً حقيراً، كان قد حذر كورتيال بأنه إذا عاد إلى اللعب

بذيله في «المسابقة» فسيرفع فيه مذكرة من تلك المذكرات التي لا تؤمن عواقبها... كان يريد أن يلفت الأنظار إلى حماسته وتيقظه.. كان قد وصل من بلدة بعيدة!... مفعماً بالحزم والصرامة!.. آه! لم يكن هذا ليتساهل معنا على غرار صاحب المطبعة! لم يكن يفكر إلا في تعكير صفونا وإثارة بلبلتنا!... لم يعد لدينا هاتف أيضاً. كنا قد أوقفناه سابقاً. فكان عليّ أن أثب سريعاً إلى المركز لإعادة وصله... كان مقطوعاً منذ ثلاثة أشهر.. كان المخترعون الغاضبون ما يزالون يأتون إلينا بأشخاصهم... ما عادوا يقرؤون رسائلنا... كنا نتلقى منهم رسائل أكثر مما ينبغي!... وغدونا عصبيين جداً بسبب تلك التهديدات القضائية... أما بشأن بريدنا، فكنا نستّل النقود فقط من الرسائل... ونلقي بالباقي في سلة القمامة.. فلينجُ كلّ بجلده! لقد أثار ذلك فينا موجة من الذعر!..

عبثاً كان كورتيال يدّعي... لقد أغلق مفوض «شوازيل» أمامه كل المنافذ، كان الإنذار نهائياً! وعاد من المفوضية مصفراً شاحباً...

ـ أبداً! أنت تسمعني يا فرديناند! أبداً!... منذ خمسة وثلاثين عاماً وأنا أحرث في حقل العلم.. أُصلب على صليبه! تلك هي العبارة الصحيحة.. كي أثقف... كي أربي جماهير العامة... لم أعامل أبداً في يوم من الأيام بما عاملني به ذلك الوغد الخسيس.. إن هذا ليتجاوز كل حد! أجل! ذلك الغر! ذلك الفظ العديم الشأن!.. من يظنني، ذلك الخبيث؟ هل يظنني مضارباً فاسداً؟ بائع تذاكر؟ أي فاسق! أية وقاحة! «تفتيش» مثلما في ماخور! «تفتيش» لم يعد في حلقه سوى هذه الكلمة! ولكن ليأت إذن، هذا الأبله! ما الذي سيجده؟ آه! من الواضح أنه جديد! صبي بكر في المنطقة! قروي! أؤكد لك هذا! معفر بالتراب والزبل دون أدنى شك! لقد اشتط كثيراً، هذا الزري!

وشطح به الخيال! ولكنه لـن يـصمد قـط! الخيـال! آه! ولكـن ذلـك سيكلفه غاليـاً، أكثـر ممـا سـيكلفني... آه! نعـم! سـحقاً!.. وذلـك المفوض في شارع أبو قير! أراد أن يأتي إلى هنا أيضاً! عازمـاً علـى أن يجري تفتيشه! وقد جاء فعلاً! وشاهد بعينه! قلبوا كل هرينا! كل هـذه الأنبار المقرفـة المقـززة... رمـوا كـل شـيء في الهـواء.. ثم رحلـوا... أتيت! رأيت! ظفرت! عصابة الأغبياء القذرين الزريين! كان ذلك منذ عـامين، آه! أتـذكر جيـداً! ومـا الـذي وجـده ذلـك الفيـدوك (اسـم المفتش)؟ لا شيء سوى الأوراق القديمة، والجص.. تغطـى بـالجص من رأسه حتى قدميه، يا صـديقي! ذلـك الدويبـة القـذرة!... الباعثـة على الرثـاء!.. نقبـوا في كـل مكـان! لم يفهمـوا كلمـة واحـدة.. أقـل كلمـة!.. آه!.. الأغبيـاء!.. الأشـقياء الأفظـاظ المـروّثين... الحمـير الرسميين... حمير المزابل، أقول لك.

كـان يـشير لي إلى أكـداس مكدسـة، شـاهقة في الفـضاء، حـتى الـسقف، عرمـات هائلـة.. أحـادير حقيقيـة.. أشـناخ جبـال مهـددة متوعدة! مهتزة مترجرجة!.. سيكون من النادر حقاً أن لا يتملك الذعر مفـوض شـوازيل، أمـام هـذه الجبـال مـن الأوراق!..هـذه الجـروف المعلقة.

- تفتيش! تفتيش! أصغ إلي حينما أتكلم! أيها الصغير البائس! أيها الصبي البائس! ايها اليرقة البائسة!..

عبثاً كان يحاول أن يستقر علـى كرسـيه.. كانـت تلـك التهديـدات تزعزع كيانه مع ذلك.. كـان يـشعر بالخـذلان فعـلاً.. وعـاد في الغـد قاصداً أن يلتقي من جديد بذلك الفتى في المفوضية.. ليحـاول إقناعـه بأنه مخطئ في حقه.. من الرأس حـتى الأسـاس! ودون أدنى شـك!.. وأنهم إنما قد أساؤوا إلى سمعته دونما داع!.. كانت تلك مسألة كرامـة

شخصية بالنسبة له.. كانت تلك الفظاظة الجارحة من ذلك المفوض المحبوب تنهشه من الداخل.. لم يعد يلمس ثقالتيه الحديديتين... كان لا يبرح حائراً مضطرباً.. يهمهم وهو جالس على كرسيه.. ما عاد يحدثني إلا عن هذا التفتيش.. وقد أهمل كلياً تثقيفي العلمي!.. لم يعد يريد أن يستقبل أحداً! كان يقول بأن هذا ما عاد يستحق العناء! كنت أعلِّق باستمرار اللافتة الصغيرة: «اجتماع اللجنة».

في تلك اللحظات على وجه التقريب، حين كان يحدثني عن التفتيش، أفضى إلي أيضاً بملاحظات حول مستقبله... حول إعيائه الشديد.. ومعاناته التي تزداد يوماً بعد يوم.

«آه! يا فرديناند! قال لي، فيما هو يبحث عن ملفات، كي ينقلها إلى فسحة صغيرة... أنت ترى ما أنا بحاجة إليه!... يوم آخر من الأيام الضائعة! يوم قذر! مبدّد! مكدّر بالتأكيد! حافل بالتخبط والفوضى! وبضروب القلق الغبي!.. بحيث يمكنني أن أفيء إلى نفسي!.. حقاً.. أن أتجرد من كل شيء! في النهاية.. هل تفهم؟.. الحياة الخارجية تكبلني بالأصفاد!.. إنها تقرضني قرضاً! تشتتني!.. تبددني!.. مشاريعي الكبرى ظلت مبهمة، يا فرديناند! وأنا في حيرة من أمري.. هو ذاك! مبهمة! وأنا حائر متردد.. هذا فظيع! ألا تفهمني؟ كارثة لا نظير لها! يبدو الأمر مثل صعود بالمنظاد، يا فرديناند!... فأنا أرتفع.. أجوب الفضاء اللانهائي! أعبر!.. أجتاز بعض الغيوم.. أرى أخيراً.. غيوماً أيضاً! تذهلني الصاعقة!... ودائماً غيوم... أشعر بالرعب!.. ولا أرى شيئاً!.. لا، يا فرديناند! أنا لا أرى شيئاً! عبثاً أزعم... أنا شارد الذهن، يا فرديناند!... أنا شارد الذهن!» كان يعبث بعثنونه!.. ويعض شاربيه!.. فيما كانت يده لا تنفك ترتعش... لم نعد نفتح بابنا لأحد!.. ولا حتى لمهووسي «المنطاد الخالد»... فلفرط ما طرقوا

بابنا، يئسوا وتبخرت آمالهم!.. وتركونا ننعم ببعض الراحة... لم يكن ثمة أي تفتيش... فهم لم يتابعوا دعاواهم.. ولكننا كنا في حال من التأهب والاستنفار.

صار كورتيال دي بيريري يرتاب الآن بكل شيء حين يكون في مكتبه التونسي! صار يرتاب بظله! كان جناحه فوق الأرضي مكشوفاً للعيان أكثر مما ينبغي، في الواقع، كان من السهل جداً بلوغه!.. كان بوسعهم أن يأتوا على حين غِرَّة ويثبوا فوق سترته.. ما عاد راغباً أن يجازف أية مجازفة!.. كانت نظرة واحدة يوجهها إليه أحد الزبائن تجعل وجهه يصفر بشدة!.. ويتزعزع كيانه كله تقريباً نتيجة لذلك.. لقد هزه بعنف، في الحقيقة، الحدث الأخير غير المتوقع!.. كان يفضل كهفه كثيراً، يمكث فيه وقتاً أطول فأطول!.. كان يشعر هناك بالهدوء والاطمئنان!.. ويستغرق في التأمل على هواه!.. ويختبئ أسابيع بكاملها... كنت أنا من يسيّر أعمال الصحيفة... كان ذلك أمراً روتينياً! كنت أنتزع صفحات من كتيباته... فأقطعها بعناية، ثم أقص مقاطع منها.. وأعدّل قليلاً من عناوينها.. مستخدماً المقص، والصمغ والغراء، كنت أتدبر الأمر جيداً.. فأترك مساحات كثيرة بيضاء لرسائل المساهمين، وأحذف الشتائم والمقارعات.. ولا أحتفظ إلا بالإثارات الحماسية.. وأضع قائمة بأسماء المكتتبين!.. ثم أُدخل عدداً من الصور الفوتوغرافية، صورة كورتيال بزيه الرسمي، وعلى صدره النياشين... وصورة أخرى لفلاماريون العظيم، وهو يقطف الزهور من حديقة بيته... وهو ما يبرز مفارقة.. ويقدم إثارة مستحبة.. وإذا جاء مخترعون... من الذين مازالوا يترددون للاستعلام، والذين كانوا يعرقلون عملي، كنت أجد أعذاراً أخرى بشأن غياب المعلم...

«إنه في اجتماع مع الوزير! كنت أجيب بحزم مثل رصاصة، جاؤوا لاستدعائه مساء أمس من مكتب الوزير... من أجل الاستفادة من خبرته بالتأكيد...» لم يكونوا يصدقون كلمة من كلامي.... ولكنهم كانوا يظلون حالمين... كنت أتخلص منهم قائلاً: «سأرى إن كان قد عاد!...» وأدخل إلى غرفة الرياضة.

ثم لا يرونني بعد ذلك أبداً.

* * *

لا تأتي المصائب فرادى!... فقد عانينا خيبات جديدة مع «الزيلي» كان يتشقق أكثر فأكثر دائماً، ويعاد ترقيعه في كل مرة... ولفرط ما تخرّق وغدا نفوذاً كالغربال، ومتهالكاً، صار ينهار فوق حباله.

حل الخريف، وتنفست الريح من جديد! ومع كل هبة ريح كان الزيلي يستسلم وينهار، التعيس، فبدلاً من أن يندفع في الفضاء، لحظة الإقلاع كان يخنق أنفاسنا بالهدروجين وغاز الميتان... غير أنه لفرط ما كان ينتفخ كانت تدب فيه بعض الحيوية، ويقفز فجأة قفزتين أو ثلاثة، فيجتاز خلالها أولى الشجيرات... فإذا ما اقتلع، في طريقه أحد الدربزينات هوى حينئذ وسط الحديقة... ثم عاود الانطلاق، مرتجاً، جانحاً باتجاه الكنيسة، فينتزع الدوارة الهوائية، ثم يدرج شطر البرية... كانت العواصف ترده بقسوة... نحو أشجار الحور... وحينئذ فإن دي بيريري لم يكن ينتظر أكثر من ذلك... كان يطلق الحمامات.. وينفخ نفخة قوية ببوقه... بعد أن يكون قد مزق لي كرة المنطاد بأكملها... وتبخر الغاز القليل المتبقي. وتحتم علي الآن أن التقط بقاياه من أربعة أقطار السين إيواز، ومن الشامبانييه، وحتى من إيون! كان يكشط بمؤخرته كل شمندر الشمال الشرقي. أما السلة الجميلة فما عاد لها شكل على الإطلاق.. وقد ظل ساعتين كاملتين فوق هضبة أورجمونت، غارقاً، محاصراً، وسط بركة

هائلة من ماء المجاري المتماوج، المبقبق، المخيف!... كان جميع القرويين المنتشرين على حواف البركة يقهقهون بصخب حتى لتكاد تتحطم أضلاعهم... وحينما طوينا الزيلي لفحت أنوفنا بقوة رائحة مواد الحفيرة العفنة.. كان كورتيال أيضاً محشواً، ممرغاً مغلفاً، معجوناً بعجينة من الخراء! بحيث لم نكن نطيق إطلاقاً أن يركب معنا في المقصورة ذاتها... وعدنا بالقاطرة مع المواعين، والأجهزة، وكل سقط المتاع...

حين أُبنا إلى القصر الملكي، لم نكن قد انتهينا من المتاعب!.. كان منطادنا الجميل ما يزال مشبعاً بالنتانة، وقد انتقل وباؤه إلى أعماق الكهف، بحيث كان علينا أن نحرق، وطوال الصيف تقريباً، ملء عشرة قدور على الأقل من لبان جاوة، ومن الصندل، والاوكاليبتوس، ورزماً من ورق أورمينيا... كنا سنُطرد ربما من الحي! كان هناك طلبات وعرائض...

كل ذلك كان قابلاً للعلاج.. كان يشكل جزءاً من المصادفات والاحتمالات، ومن متاعب المهنة... ولكن الأسوأ... الضربة القاضية جاءتنا بالتأكيد من منافسة الطائرات.. لا جدل في ذلك.. لقد انتزعت منا جميع زبائننا... وحتى لجاننا الأشد إخلاصاً ووفاءً.. أولئك الذين كانوا يولوننا ثقتهم كلياً، والذين كانوا، تقريباً، يرفعوننا إلى أفق الكمال.. بيرون.. بريف لافيلين. على سبيل المثال: وكارنتان سورلانغ.. وميزو.. تلكم جمعيات موثوقة، متفانية كلياً في سبيل كورتيال... يعرفونه منذ خمسة وثلاثين عاماً، ما كانوا يحلفون، منذ زمن طويل إلا باسمه.. كل هذا العالم عثر فجأة على حجج غريبة كي يهجرنا.. ذرائع! مبررات! إنه الذوبان الكبير! الارفضاص النهائي! وبدءاً من شهر أيار 1911، على الأخص حل الخراب بساحتنا في الحقيقة، فكانديمار جوليان الشهير' كي لا نذكر غيره، أفقدنا أكثر من عشرين من زبائننا!..

رضينا مع ذلك بتخفيضات في المكافأة لا تكاد تصدق.. صرنا نذهب إلى مسافات أبعد فأبعد.. حاملين معنا هيدروجيننا... والمضخة... والأعتدة.. ذهبنا إلى نوي سورسين من أجل خمسة وعشرين فرنكاً! بما فيها ثمن الغاز، وأجور النقل أيضاً! لم يعد ذلك محتملاً وأيم الحق! حتى البلدات الأشد عفونة وتقيحاً، والمقاطعات الثانوية الأشد زنخاً، لم تعد تقسم إلا بالطائرة ذات الخلية الواحدة، والطائرة ذات السطحين!... وبويرغيت والميتنج.

كان كورتيال قد أدرك فعلاً بأنه يخوض صراعاً حتى الموت... حاول أن يرد... جرب المستحيل، نشر دون انقطاع مقالات وكتيبات متلاحقة، ففي غضون شهرين أصدر أربعة كتيبات، واثنتي عشرة مقالة فوق أعمدة الصحيفة، كي يثبت بإصرار بأن الطائرات لن تطير أبداً!.. وأن كل ذلك كان تقدماً زائفاً!... ولعاً منافياً للطبيعة!.. ضلالاً تقنياً!.. سيتحول عما قريب إلى هباء منثور؟ وأنه هو، كورتيال دي بيريري، الذي كان لديه اثنتان وثلاثون سنة من التجارب، لا يضمن أي شيء، وفي وسط المقال تبرز صورته الفوتوغرافية!.. ولكنه كان متخلفاً عن اهتمامات القراء... تجاوزته الأحداث، واكتسحه المد المتعاظم! ورداً على مهاتراته، وخطاباته الهجائية المقذعة، لم يتلق سوى شتائم، ورشقات حامية من التهديدات الإرهابية... لم يعد جمهور المخترعين يقتفي خطا دي بيريري... كانت تلك هي الحقيقة الدامغة.. ورغم ذلك فقد عاند.. ولم يقبل أن يتراجع!... بل إنه استأنف الهجوم.. وأسس، على هذا النحو شركة «الريشة في مهب الريح»، في تلك اللحظة الأشد حراجة!.. تحت شعار «الدفاع عن المنطاد، الدفاع عما هو أخف بكثير من الهواء!» أقام معارض! وتظاهرات! ومحاضرات! واحتفالات! وتسليات! وجعل مركز

الشركة في مكتب «الجينترون». ولكن لم يلتحق بمشروعه أكثر من عشرة مشاركين! وقد أثار هذا الوضع هلعاً رهيباً! عدت إلى أعمال الرتق والترقيع.. ولفرط ما اقتطعت من نسيج «أرخميدس»، المنطاد العتيق، لم أعد أعثر فيه على رقعة صغيرة مناسبة!... ما عاد «الزيلي» أكثر من مزق مهلهلة!.. قلما يرجى منه خير.. بعد أن تحول إلى حبال وفتائل! ورحت أبحث له عن نسيج في كل مكان.. ولكن تعبي كان عبثاً ودون جدوى، وقد أثبتت الأيام ذلك!.

حدث ذلك في يوم أحد، في البونتواز، يوم الخروج الأخير لمنطادنا، كنا قد جازفنا مع ذلك.. وضعونا أمام خيارين! إما نعم، وإما لا.. حاولنا تنشيط المنطاد التعيس العاجز إلى أبعد حد، لملمنا أهدابه من زوايا القبو، قلبناه ظهراً لبطن.. ودعمناه بصفائح من السيلوفان، ومن الكاوتشوك المصهور، وجلفطنا حزوزه وثقوبه، ولكنه رغم كل شيء تلقى عقابه الأخير أمام دار العمدة، أزمته النهائية! حاولنا عبثاً أن نضخ فيه خزان الغاز بكامله.. ولكنه كان يفقد من الغاز أكثر مما يسحب منه.. كان الغاز يتسرب من داخله، شرح دي بيريري على الفور ما كان يجري.. ولما تابعنا محاولاتنا بإصرار، انفلق كلياً إلى نصفين محدثاً صوتاً أشبه بصوت إسهال فظيع!.. وانتشرت الرائحة النتنة الكريهة! وهرب الناس أمام الغاز.. ودب الذعر! وعمّ القلق.. وفوق ذلك، انهار الغلاف الضخم فوق الدرك!.. وأوشك أن يخنقهم، كانوا محصورين تحت طياته العريضة... يلبطون بأرجلهم تحت ثناياه!.. وقد أشرفوا على الهلاك اختناقاً!.. كانوا يتحركون مثل جرذان!.. وبعد جهد دام ثلاثة أرباع الساعة حررنا أصغرهم سناً! أما الآخرون فقد أغمي عليهم... فقدنا شعبيتنا بالكامل! وانهالت علينا الشتائم المقذعة من كل حدب وصوب.. وغمرنا الصبيان بالبصاق!...

طوينا الحطام المبعثر في كل مكـان... لم نعـدم وجـود محسنين، ساعدونا في ذلك.. كانت حديقة الاحتفال، لحسن الحظ، قريبة جـداً مـن هـويس النـهر!... تحـدثنا مـع أصـحاب أحـد الـزوارق، فأبـدوا استعداداً لنقلنا... كـانوا مـتجهين إلى بـاريس.. وحملنـا متاعنـا الـرث بكامله إلى أنبار الزورق...

مضت الرحلة على أحسن ما يرام... استغرقت ثلاثة أيـام تقريبـاً.. وفي مساء جميل بلغنا «بورت الانغليه»... كانت تلك نهاية التحليقات! أمـضينا وقتاً ممتعاً على متن الزورق.. كانوا أناساً طيبين لطفاء جداً.. من فلمنـديي الشمال.. كنا نرتشف أكواب القهوة طوال الوقت.. حـتى لم نعـد نـستطيع النوم... كانوا يعزفون على أكورديونهم ألحاناً عذبة... كنـت أرى غـسليهم منشوراً على امتداد هيكل الزورق... كل الألوان الأكثر زهواً.. لون التـوت البـري... والزعفران.. والألوان الخـضراء والبـرتقالية... كـان هنـاك مـن الألوان ما يناسب كل الأذواق... علّمت أبنـاءهم الـصغار صـنع الـزوارق الورقية... ما كانوا رأوا ذلك من قبل أبداً...

* * *

حينما علمت معلمتنا السيدة دي بيريري بالخبـر المشؤوم، جـاءت إلى المكتب دون أن تضيع دقيقة واحدة... لم تقـع عـيني عليهـا قـط، منذ أحد عشر شهراً من عملي هنا... لابد أن هناك خطباً جلـلاً جعلـها تقرر إزعاج نفسها.. فهي لم تكن قط تبـرح مونترتو...

علـى هـذا النحـو، ومنـذ النظـرة الأولى إلى مظهرهـا الغريـب، اعتقـدت بأنها كانـت «مخترعـة»، وأنهـا قادمـة لتحـدثنا عـن أحـد التصاميم... وصلت مرتبكة غايـة الارتبـاك... وحـين فتحـت البـاب، بدت في ذروة الهياج، ينبغي القول، وحانقـة حنقـاً شـديداً، لم تكـن

تجد الكلمات إلا بصعوبة، كانت قبعتها تطوف فوق رأسها بنحو مائل، ووجهها مغطى بغلالة سميكة، بحيث لم أكن أتبين معالم وجهها، ما أزال أذكر على الأخص، تنورتها من المخمل الأسود بثنياتها العريضة، وصدارها الخبازي اللون، من طراز (بوليرو)، موشى بزخارف وزينات من اللون نفسه.. ومظلتها الحريرية... أحتفظ حتى اليوم بكل تفاصيل تلك اللوحة.

بعد أن تبادلنا أطراف الحديث، أجلستها على أريكة الزبائن الكبيرة، ورجوتها بأن تتجمل بالصبر، فالمعلم لن يتأخر بالمجيء... غير أنَّها، على الفور، بادرتني بخشونة!..

ـ آه! ولكن أنت إذن من يدعى فرديناند؟ أنت بالتأكيد، أنا لست مخطئة؟ آه! ولكنك تعرف كل الدرامات؟.. إذن، فإنها كارثة، أليس كذلك؟ يا مهرجي الصغير!.. لقد أشرف معلمك على نهاياته!.. ما عاد يريد أن يعمل شيئاً، أليس كذلك؟... كانت تحتفظ بقبضتيها مغلقتين، على هذا النحو، فوق فخذيها! استقرت فوق الأريكة! وأنشأت تسألني بجفاف:

«ما عاد يريد أن يعمل شيئاً؟.. فقد عمل بما فيه الكفاية؟... ويعتقد أن بإمكاننا أن نعيش؟ بماذا؟ بالإيرادات التي يحصل عليها؟ آه! الصعلوك! آه ! الكسيح! الدنيء! الفاجر اللعين! ترى أين يكون في مثل هذه الساعة؟»

وشرعت تبحث في خلفية الدكان!...

ـ إنه ليس هنا، يا سيدتي!.. لقد ذهب لمقابلة الوزير!..

ـ آه! الوزير! كيف قلت؟ الوزير ـ وشرعت تضحك هازئة ـ آه! يا صغيري! آه! ليس علي أنا ينطلي مثل هذا الكلام!.. ليس عليّ!..

أنا أعرفه أكثر منك، أنا أعرفه جيداً! الساغوين القذر (قرد طويل الذيل)! الوزير! آه! لا! إنه في المواخير! أجل، ربما! في مشفى المجانين، تريد أن تقول! في السجن! أجل! هذا مؤكد! لا يهم أين! في فينسين! في سانت كلود (ميدانان لسباق الخيل)! ربما!.. ولكن عند الوزير! آه! لا!.

ضربتني بمظلتها على أرنبة أنفي...

ـ أنت متواطئ معه! يا فرديناند! هيا! أنت متواطئ! هوذا! أنت تسمعني! سوف تنتهيان كلاكما في السجن! انظر إلى أين ستقودكم كل أكاذيبكم! كل ألاعيبكم! وتلفيقاتكم!.. كل دسائسكم القذرة!..».

ثم انهدت فوق أريكتها، مسندة مرفقيها إلى ركبتيها، ما عادت تتمالك نفسها.. اعتراها خور شديد بعد موجة التعنيفات الحادة.. شرعت تغمغم مطلقة زفرات حرّى... ثم سوّت غلالتها! وراحت تروي لي كل الحكاية!..

«هيا! أنا مطلعة على كل شيء!.. لم أكن أرغب أبداً بالمجيء.. كنت أعرف جيداً بأن هذا سيكدرني! أنا أعلم بأنه عصيّ على الإصلاح!.. منذ ثلاين عاماً وأنا أتحمله بصبر!...».

هناك، في مونترتو، كانت تنعم بالهدوء، تراعي صحتها، كانت هشة واهية.. ما عادت تحب تغيير المكان، ولا الخروج من المنزل... فيما مضى.. فيما مضى كانت قد طوّفت كثيراً مع دي بيريري.. في السنوات الأولى من زواجهما.. أما الآن فما عادت تحب التغيير... ما عادت تحب سوى منزلها.. بسبب كتفيها، وكليتيها الحساستين للغاية، على الأخص.. إذا ما فاجأها المطر خارج المنزل، أو لفحها البرد، فستظل أشهراً فريسة للآلام... نوبات حادة من الروماتيزم والتهاب

شعبي يدوم زمناً طويلاً، نزلة بـرد قاتلة.. على هذا النحو أمضت الشتاء الأخير بطولـه، والـشتاء الـذي قبلـه.. وحـين تحـدثت عـن الأعمـال أوضحت لي بالتقصيل بأنهما لم يستوفيا بعـد تـسديد أقـساط البيـت.. أربعة عشر عاماً من التوفير... لقد أسرتني بعقلها، وبـرقتها أيضاً.

ـ يا صغيري فرديناند! يا صغيري! ألا فلتترفق بامرأة عجوز طيبة!... من الممكن أن أكون جدتك، لا تنس ذلك! قل لي، من فضلك! قل لي، أرجوك! إن كان قد فقد «الزيلي» حقاً؟ أنـا لا أثـق بكورتيـال، لا أعرف أي شيء أبداً... كل ما يقوله لا يمكـنني تـصديقه... كيـف أثـق به؟... فهو مفرط في الكذب دائماً!.. وقد غدا تنـبلاً إلى أبعـد حـد... ولكنك أنت، يا فرديناند! أنت ترى جيداً في أي حال أنا!.. أنت تدرك أساي! ولن تخدعني الآن بالترهات والأكاذيب! أنت ترى، بأنني جدة عجوز!.. لدي تجربة واسعة بالحياة!.. أستطيع أن أدرك كـل شـيء!.. أريد فقط أن توضح لي الأمر...

كان خليقاً أن أروي لها بالتفصيل.. أن أقسم لها بـرأسي بـأن «الزيلـي» كان قد عفا عليه العفاء، تهدم كلياً، وغدا كومة من العفـن.. مـن الـداخل مثلما من الخارج! وأن خيطاً واحـداً مـن غلافـه لم يعـد سـليماً!.. وكـذا هيكله وسلته.. وأنه ما عاد سوى ركام قذر من الأنقاض! مزقة نتنة... ومـا عاد بالإمكان إصلاحه بأي صورة من الصور!..

كلما كنت أمضي في حـديثي، وأورد كـل التفاصـيل، كلمـا كـان يرين عليها المزيد من الأسى! ولكنها كانت حينذاك واثقة ممـا أقـول. كانت تدرك بعمق بأنني لم أكن أخـدعها.. وعـادت تبـوح لي كمـا لـو كنت نجيّها. أفضت إلي بكل ما كان يثقل قلبها... كيف جـرت الأمـور منذ بداية زواجهما... حينما كانت ما تـزال تعمـل قابلـة، مجـازة مـن الدرجة الممتازة!.. كيـف كانـت تـساعد كورتيـال في إعـداد طلعاتـه

بالمنطاد، وكيف تنازلت عن كل شيء من أجله، ومن أجل منطاده، وكل ميدان عمله! كي لا تفارقه ثانية واحدة!.. وقد احتفلا بزفافهما في رحلة بالمنطاد... وفي كل العروض، كانت تصعد مع زوجها حينذاك... وظلا على هذا المنوال حتى طلعاتهما في برجام في إيطاليا... وفي فيرار أيضاً.. وفي تورنتو على مقربة من بركان فيزوف.. كانت ماضية في حديثها على هذا النحو، ولكنها كلما كانت تفصح عن مكنوناتها، كلما كنت أرى بوضوح بأن في عقل هذه المرأة وفي أعماق سريرتها قناعة ثابتة بأن «الزيلي» ينبغي أن يستمر إلى الأبد!... ومعارض الطيران أيضا!.. ينبغي أن لا يتوقف قط في يوم من الأيام!.. كان هناك سبب مقنع لذلك، سبب قهري قطعاً.. ألا وهو أن الزيلي كان رصيد بيتهما في مونترتو... كانا ما يزالان مدينين من أجل سقفهما هذا بستة أقساط شهرية على صورة كمبيالات.. ولكن كورتيال لم يعد يكسب النقود.. وقد تأخر عن سداد الأقساط شهرين ونصف الشهر.. بالإضافة إلى خمسة إمهالات عقارية.. واختنق صوتها حينما أتت على ذكر هذا الجانب الباعث على الخزي... وقد دفعني هذا إلى التفكير بالواقع الذي نحن فيه، كنا نحن أيضاً متأخرين عن تسديد الأقساط المترتبة على المخزن!.. والغاز إذن!.. والهاتف!.. ولكن هذا لم يعد مهماً! فتابونييه، الطابع، لن يسلمنا الصحيفة هذه المرة!.. إنه يعرف جيداً ما يهيئ لنا من مكيدة دنيئة! سيقوم بالحجز على مكتبنا، وسيغلق عليه بالمسامير!.. هذا أمر مبتوت به!.. فقد كان فاجراً لا يجاريه أحد في الفجور!.. كنا عالقين في أكثر من ورطة!.. كنت أستشعر اندفاع سيل الوحول والأقذار وهو يضرب عرقوبي.. لقد غدا المستقبل مشبوهاً بقبح، وأحلامنا الجميلة!.. ما عاد هناك الكثير من الأوهام! كانت المرأة العجوز تحشرج خلف غلالتها، وتتنهد من أعماقها لتفرج قليلاً عن كربها!.. رفعت قبعتها عن رأسها!.. فأمكنني

أن أتعــرف عليهــا بحــسب الــصورة والوصــف الــذي نقلــه إلي دي بيريري... وقد فوجئت مع ذلك.. كان قد أخبرني عن الشارب الذي رفضت أن تنتفه من فوق شفتها.. لم يكن ذلك ظلاً خفيفاً!.. كان قد نما بشدة على إثر عملية جراحيـة!.. كـان الأطبـاء قـد استأصلوا لها مبيضها ورحمها في عمليـة واحـدة، كـان يعتقـدون في البدايـة بأنها تعاني من التهاب الزائدة... وحينما فتحـوا الغـشاء البــريتوني وجدوا ورماً ليفياً ضخماً.. وقد أجرى العملية الدكتور بيان نفسه..

قبل أن تخضع لعمليـة البتـر، على هـذا النحـو كانـت إيـرين دي بيريري فائقة الجمال والجاذبية، غايـة في الحـسن والفتنـة، وكـل ما يخطـر للبــال مــن أوصــاف الجمــال! ولكنــها منــذ تلـك المداخلـة الجراحية، وعلى الأخص منذ أربـع أو خمـس سـنوات ظهـرت على محياها جميع السمات الذكوريـة!.. نبـت لهـا شـاربان حقيقيـان، بـل ونوع من لحية!.. كل هذا كان غارقاً بالدموع الساخنة التي كانت تسيل بغزارة وهي تروي لي تلك الأحداث!.. وقد تلونـت الـدموع المنسابة على وجهها بألوان مكياجها! كانت قـدطلت وجههـا بـإفراط بـصنوف المساحيق والبودرة والخضاب، ووضعت أهداباً على غـرار الجـواري المحظيـات، ابتـذلت وقارهـا كـي تـأتي إلى المدينـة!.. وفي إحـدى اللحظات، رأيتها تبحث في قاع أحـد جيوبهـا... ثم أخرجـت غليونـاً ضخماً ذا لون بنفسجي.. كان هذا أيضاً قد حدثني عنه..

«هل هذا يسبب إزعاجاً، أنا أدخن؟» سألتني.

- لا يا سيدتي، ولكن لا، لابد فقط من الانتباه إلى الرماد! بـسبب الأوراق المرمية على الأرض، فهي تشتعل بسرعة! هـيء! هـيء» كـان لابد من بعض المزاح...

- أنت لا تدخن، يا فرديناند!.

ـ لا! أنا، أنت تعلمين، ذلك ما لا أحتمله. كما أنني ضعيف الانتباه! أخاف أن أنتهي مثل حزمة قش في الموقد! هئ! هئ!.

طفقت تنفث سحباً من الدخان... وتبصق على الأرض! هنا، وهناك!.. هدأ روعها قليلاً!.. أعادت وضع غلالتها أيضاً! ورفعت فقط زاوية صغيرة منها بخنصرها! وبعد أن انتهت تماماً من تدخين غليونها.. أخرجت ثانية كيس تبغها.. فظننت بأنها على وشك أن تحشوه مرة أخرى!...

«قل إذن، يا فرديناند! قاطعتني.. خطرت لها فكرة، فانتصبت فجأة، أأنت متأكد، على الأقل، بأنه ليس مختبئاً هناك فوق!...».

لم أجرؤ على التأكيد... كان الوضع دقيقاً للغاية!.. كنت راغباً في تفادي حدوث معركة...

آه! لِمَ تنتظر كثيراً! وثبت من مكانها!.. «فرديناند! أنت تخدعني! أنت كاذب مثله!...».

ما عادت راغبة بأن أشرح لها.. أزاحتني عن طريقها... واندفعت وثباً على السلم الصغير اللولبي.. وها هي ذي تتسلق مهتاجة.. لم يكن الآخر قد تلقى أي إخطار... فوقعت عليه مباشرة، وأمسكت بتلابيبه!.. أصغيت... وسمعت... على الفور، تلكم مباراة تحدّ حقيقية!.. انهالت عليه بالضرب! في البداية، كان هناك أزواج من الصفعات! أعقبها زعيق حاد.

«انظروا إلى هذا الشبق!.. هذا الداعر القذر!.. هذا الكشاطة!.. انظروا إليه كيف يقضي وقته!.. طالما كنت أشك بموسيقاه القذرة! حسناً فعلت بمجيئي إلى هنا!..» لقد فاجأته وهو يرتب بطاقاتنا البريدية.. الشفافة.. داخل الألبوم.. تلك التي عدت بها يوم الأحد!.. كانت تلك تسليته بعد الغداء..

كان ما يزال ينتظره الكثير من المتاعب! لم تكن تصغي إلى أجوبته! «الخليع! الغشاء المخاطي! مشعل الحرائق! الممسحة! البالوعة!».. هاكم كيف كانت تعامله!...

صعدت الدرج! جازفت بإلقاء نظرة من فوق الدرابزين!.. رأيتها تنقض عليه، بعد أن رشقته بتلك الكلمات.. ارتدّ هو إلى الصوفا.. لشد ما كانت ثقيلة وعنيفة!.

«أطلب المعذرة! أطلب المعذرة، أيها الكوليرا! أطلب المعذرة من ضحيتك!» كان يقاوم مع ذلك بعض المقاومة.. أمسكته من واقية صدره، ولكنها لما كانت من مادة صلبة جداً فقد جرحت باطن كفها.. ونزف منها الدم.. غير أنها كانت تضغط مع ذلك مزيداً من الضغط...

«ألا تحب هذا؟ قل لي! ألا تحب هذا؟ كانت تصرخ وهي تمسك به كالكماشة.. آه! أنت تحب هذا! أيها المصران الأعور الجهنمي! قل! أيها النذل! أنت تحب هذا، قل، أنت تحب أن تراني أفور بالغضب!» كانت قد أصبحت فوقه تماماً.. وجعلت تنط فوق كرشه! «أواه! أواه! أواه! كان يفهق تحتها! أنت تخنقيني أيتها الشريرة الكبيرة! أنت تقتليني! تخمدين أنفاسي!...» أرخت قبضتها حينئذ، كان جرحها ينزف بغزارة.. هبطت الدرج مسرعة.. وقفزت إلى حنفية الماء.. «فردينانـد! فردينانـد! فكر قليلاً إذن، منذ ثمانية أيام وأنا انتظره! منذ ثمانية أيام لم يعد إلى البيت مرة واحدة!.. لقد أضنى حياتي! أيبس عروقي!.. دون أن يكون لديه أدنى اكتراث!.. كتب لي بطاقة يقول فيها: «تلف المنطاد! نجوت بحياتي!» هذا كل شيء!.. سألته عما سيفعل؟ لم أنتظر أن يجيبني!.. فأنا أعرف الجواب، عجز مطلق!.. منذ تلك اللحظة لم يقم بحركة واحدة! والسيد لم يعد يرجع

إلى البيت! أين هـو؟ مـا الـذي يفعلـه؟ لا شـيء! قـرض «بينوتـون» يلاحقني ويرهقني، بسبب استحقاقاته المتراكمة!.. لغز كامل!.. إنهـم يطرقون بابي عشر مرات كل يوم... والخباز يلاحقني.. والغـاز أغلقـوا عداده!.. وغداً سيقطعون عني الماء!.. والسيد مختف عن الأنظـار!.. بينما يتسمم دمي!.. هذا الخائب القذر!.. هـذا الـداعر القـذر!.. هـذا الفاسد!.. هذا الكريه المقـزز الجهنمـي! هـذا السـاباجو (قـرد طويـل الذيل)!.. ولكنني أفضل، اسمعني يا فرديناند! أفضل العيش مـع قـرد حقيقي!.. فأنا سأفهمه في النهايـة!.. وهـو سـيفهمني!.. سـأظل معـه محتفظة بعقلي! ولكني مع هذا المعتوه، ومنذ خمس وثلاثـين سـنة لا أعرف ما الذي سيفعله، من دقيقـة إلى أخـرى، مـا إن أديـر ظهـري! سكير! كذاب! متهتك! لص! وكل ما يخطـر بالبـال!.. لا يمكنـك أن تعرف كم أكره هذا الفاجر!... ترى أين هـو؟ هـذا هـو السؤال الـذي أسأله لنفسي خمسين مرة في اليوم... فيما أنـا أطـوف بـين الجـدران، وينكسر صُلبي هنـاك وحيـدة!.. أنتحـر كـل يـوم كـي أرعـاه وأتدبـر أموره! كي أواجه استحقاقات الـديون.. أقتـصد في إشـعال الـشموع.. والـسيد ينثـر! ويـزرع! ويـسقي لا أدري أي مرجـة، وجميـع غوانيـه القبيحات القذرات! بمالي! بما أمكنني أن أنقذه مـن الـضياع! حارمـة نفسي من كل شيء! أين يذهب! إلى الدرك الأسـفل مـن الانحطـاط! أعرف كل شيء مع ذلك! عبثاً يتخفى ويتكـتم!.. إلى فينـسين!... إلى باري موتويل!.. إلى انجين، في شـارع بلونـدل!.. إلى باربيـه (مواقـع للسباق ومـواخير) لا أدري إلى أي مكـان آخـر.. لـيس صـعباً عليـه، شرط أن يتقلب في الغواية والفساد!.. لا يهم أي ماخور يطرقه!.. كـل المـواخير مناسـبة لديـه! الـسيد يتمـرغ! يبـذر النقـود!.. وفيمـا هـو كذلك!.. أُزهق أنا روحي!.. كي أدخر فلساً واحداً، لقاء سـاعة عمـل لخادمة يومية!.. أنا من يفعل كل شـيء!.. رغـم الوضـع الـذي تـراني

فيه!.. أضني نفسي! أغسل أرض البيت، بكاملها! رغم لفحات الحرارة التي تلسعني! وحتى حين تستفحل نوبات روماتيزمي!.. لم تعد قدماي تحملانني! أنا أقتل نفسي!.. بكل بساطة! وماذا بعد؟ ليس هذا كل شيء! ترى متى سيصادرون بيتنا؟ وإلى أين نأوي؟ هل يمكنك أن تجيبني؟ أيها الصعلوك المتشرد! قل، أيها الأبله القذر! أيها اللص! أيها القاطع الطريق! كانت توجه إليه أسئلتها من الطابق السفلي!.. سننام في أحد الملاجئ بالتأكيد! أنت تعرف أيضاً عناوينها؟ خليق بك أن تتذكرها يا رجلي الشجاع! كان يذهب إليها قبل الزواج!.. وينام تحت الجسور! يا فرديناند!.. هناك كان حرياً أن أتركه... نهائياً! مسمم حياتي! هناك، مع الهامات الزاحفة! مع جربه! ما كان يستحق أكثر من ذلك! كان يستمتع بها كل الاستماع! آه! لقد قدتك معي إلى سانت لويس! ولكن السيد يريد أن يتبع نزواته! فهو جامح متفلت يا فرديناند! بل إنه أسوأ نوع من الداعرين القذرين! من الممكن استبقاؤه في أيما مكان! لا كرامة! ولا عقل! ولا عزة نفس! ولا تهذيب!.. لا شيء من هذا على الإطلاق!.. الرجل الذي أهان، وسخر، وأفسد حياتي!.. آه!.. كان نقياً وديعاً مثل قطة!.. آه! نعم، يمكنني أن أقول لك، كنت ساذجة مئة ألف مرة، أكثر مما ينبغي!.. كنت مخدوعة، يا فرديناند! كنت أظن بأن هذا إنما هو مزاح حقيقي! وأنه يتخذ مظهراً هزلياً عن قصد!.. والآن، أنت تسمعني، فإن عمره قد جاوز الخامسة والخمسين! ست وخمسون سنة بالضبط في شهر نيسان! وما الذي يفعله هذا المشعبذ العجوز؟.. إنه يدمرنا! يلقينا دون تردد في هاوية البؤس!.. وهيا إذن! فالسيد لم يعد يقاوم!. استسلم كلياً لرذائله!.. ترك نفسه ينجرف!.. يتدحرج في الوحول! وأنا أيضاً من ينتشله! أتدبر الأمور! أرهق نفسي إلى حد الإنهاك!.. والسيد لا يبالي بشيء!.. السيد يرفض أن يحدّ من تبذيره! ولكنني أنا من

يخرجه من ورطته!.. أنا من سيسدد الديون! أنا، أليس كذلك، أيها المهرج؟ ومنطاده... هوذا يتخلى عنه! إنه لا يملك ذرتين من الشجاعة!.. هل تود أن تعرف ماذا فعل في محطة الشمال؟ ربما أنت تعرف ذلك أيضاً؟ فبدلاً من أن يعود إلى البيت مباشرة؟.. ذهب ليبدد قواه عن آخرها؟ ذهب إلى المواخير، يا فرديناند! نعم! الجميع رأوه! الجميع عرفوك، يا رجلي الطيب!.. رأوه وهو يستمني.. فاجؤوه في الصالة، وداخل محطة البابيردو، يتفاخر بأعضائه!.. بقضيبه القذر!.. أمام أنظار الفتيات الصغيرات! نعم، تماماً! وأمام الصبيان الصغار! آه! ولكن أنا لا أدّعي أو أشكو! أنا لا أتكلم جزافاً، لا أبتدع شيئاً من خيالي! نعم، يا وغدي القذر!.. منذ زمن طويل وهم يراقبونه!.. وسط المحطة، يا فرديناند! بين الناس الذين يعرفوننا حق المعرفة!.. جاؤوا ليرووا ذلك على مسامعي!.. ومن هو الذي روى لي هذا؟ أنت لن تنكر، مثلاً! لن تقول بأنه شخص آخر!.. وأنه وقح ذلك الخنزير!.. ولكنه مفوض البوليس عينه، يا صديقي!.. جاء خصيصاً مساء أول أمس.. كي يروي لي عن انحلالك ونتانتك!.. كان لديه كل أوصافك، وحتى صورتك الفوتوغرافية!.. أنت ترى بأنك تعرفه جيدا!.. آه! ليس هذا بالأمس! أخذ منك كل أوراقك! أليس هذا صحيحاً؟... أنت تعرفه مع ذلك!... ولهذا السبب! قل أيها الحقير، لم تعد إلى البيت؟ كنت تعرف ما الذي ينتظرك؟.. وفوق ذلك، كان قد نبهك مراراً!.. غلمان! يلزمه غلمان الآن! أطفال رضّع! هذا مرعب وايم الحق!... القمار! الشراب! الكذب!.. مبذّر! عديم الشرف! النساء! جميع الرذائل! القاصرون! كل نقائص السوقة القذرين!.. كل هذا، كنت أعرفه بالتأكيد! كنت أعاني مع ذلك كل الآلام!.. دفعت الكثير كي أعرف! ولكن الآن، فتيات صغيرات!.. هذا لا يخطر حتى في الخيال!..» كانت تنظر إليه، تحدجه من بعد

بنظرات حادة.. كان يقف على الدرجات! فوق السلم اللولبي، خلف قضبان الدرابزين.. لم يعد يقترب قيد شعرة... كان يعطيني إشارات تواطؤ بأن علي أن لاأهيج أعصابها.. وأن ألتزم الهدوء قطعاً.. لأن كل هذا سينقشع كالسحاب.. وأن لا أنبس بكلمة واحدة.. والحق، أنها، مع ذلك، استعادت هدوءها وثابت إلى نفسها شيئاً فشيئاً..

غاصت ثانية داخل أريكتها.. وطفقت تهوّي بتوانٍ بصحيفة مفتوحة باتساع.. كانت تلهث.. وتتمخط.. تمكنّا أن وكورتيال من أن نلقي ببضع كلمات! ثم بحديث قصير محاولين أن نفهمها لماذا، وكيف حدثت كارثة خراب المنطاد... لم نتطرق في حديثنا إلى الفتيات الصغيرات.. تحدثنا فقط عن المنطاد!.. كان هذا يرطب الجو المشحون بالتوتر شيئاً فشيئاً.. ركزّنا في حديثنا على الغلاف... وكيف أنه لم يعد فيه خيط على خيط، وأنه لا سبيل إلى إصلاحه، وحاول هو أن يسوق بعض التملق والمداهنة..

«بالنسبة إلى إيريني هذه يا فرديناند! فإن ما ينبغي أن تقدره حق قدره هو إنها زوجة رائعة!.. طبيعة ممتازة! إنني أدين لها بكل شيء، يا فرديناند! بكل شيء! هذا بسيط جداً! يمكنني أن أعلن ذلك بأعلى صوتي فوق جميع الأسطحة!.. لم أفكر لحظة واحدة.. بأن أنسى كل الحب الذي أغدقته علي! عظم تفانيها وإخلاصها! وجسامة تضحياتها! لا!.. لكنها غضوبة حسب! عنيفة إلى حد كبير!.. ذلك هو الوجه الآخر لقلبها الطيب! والمندفع أيضاً! ولكن دون ذرة من الخبث! لا بالتأكيد! إنها الطيبة عينها!.. سريعة الغضب! أليس كذلك يا إيريني الغالية؟...» واقترب منها ليعانقها!..

«دعني! دعني! أيها القذر».

لم يكن يشعر نحوها بأية ضغينة أو موجدة.. كان يريد فقط أن تفهمه، ولكنها كانت تعاند بحنق!.. عبثاً كان يكرر لها بأننا حاولنا المستحيل!.. وأننا رقعناه بعشرة آلاف رقعة.. وأعدنا خياطته، وعالجنا بطانته، بجميع الألوان، وبكل عمليات القص والإلصاق، ولكن عبثاً كنا نحاول ونكابر.. كان ينطلق على غرار أوكورديون.. وقد التهمت العثّة أطرافه، وقرضت الجرذان صماماته.. بحيث ما عاد يتماسك قط في الفضاء! لا واقفاً! ولا متمدداً، وغدا من الرثاثة بحيث ما عاد يصلح حتى كمصفاة! ولا حتى كممسحة! أو كأسفنجة! أو خرقة مرحاض، ما عاد صالحاً لشيء!.. غير أنها ظلت على شكوكها!... عبثاً كنا نسرد لها التفاصيل.. محاولين إخراجها من كربها! أفرغنا كل جهودنا! أقسمنا أغلظ الإيمان! زعمنا كل المزاعم! بل وبالغنا ما وسعنا ذلك!.. كانت تهز رأسها منكرة مع ذلك!.. لم تكن تصدقنا كلينا!.. عرضنا عليها رسائلنا، التي سطّرنا فيها خيباتنا ومراراتنا... والرسائل التي كانت تعود إلينا من أكثر من مكان!.. لقد استبعدونا بفظاظة جارحة... ما عادوا راغبين حتى برؤيتنا! كل المدن الساحلية!... والموانئ! والأسواق الخيرية! تلك هي الحقيقة الساطعة... ما عاد هواة المناطيد يريدون رؤيتنا... ولا حتى من أجل الاعتذار عما حدث معنا في بريتانيي!... وقد كتب لنا أحد سكان مينستر بلهجة فظة، حينما ألححنا على الذهاب إلى هناك:

«سيدي، بماعونك هذا، ينبغي أن يكون مكانك أحد المتاحف، وليس لدينا هنا في كارلوش سورإيزل، أي متحف! إنني أتساءل حقاً لماذا ما يزالون يسمحون لكم بالخروج! لا ريب في أن مسجّل العروض مقصر في جميع واجباته! شبيبتنا هنا لا تنتهك حرمة القبور! إنها ترغب في أن تتسلى! حاول أن تفهمني مرة واحدة وإلى الأبد، فاللبيب يفهم من الإشارة».

نبشت بضعة ملفات، ولكن ذلك لم يفدها في شيء.. كان قد هـدأ روعها مع ذلك!... رغبت في الخـروج.. فرافقناهـا عبـر الحديقـة... وأجلسناها على مقعـد خـشبي بيننـا.. تابعـت الكـلام بمنتـهى الرويـة والتعقل هذه المرة.. ولكنها ظلت على يقينها بأن «الزيلي» كان، رغـم كل شـيء، قـابلاً للإصـلاح، بالتأكيـد، وأنـه مـا يـزال مـن الممكـن استخدامه في عرضين أو ثلاثة في المقاطعة... وأن هذا سيكون كافياً إلى حد كبير لتهدئة خاطر المهندس المعماري.. وأنه سـيمنحهم مهلـة أخرى.. ويغدو منزلهـم في مـأمن مـن الخطـر، وأن المـسألة بـرمتها مسألة شجاعة!.. وأنه لا شيء، في المحصلة، عرضـة للـضياع!... لم تتزحزح عن موقفهـا، لم يكـن في وسـعها أن تفهـم أي شـيء آخـر.. حشونا لها غليونها، كان كورتيال إلى جانبها يدخن التبغ، ولم يتوقـف عن التدخين لحظة حتى أتى على كل سكائره....

كان العابـرون في الشارع ينظـرون نحونـا ونحـن جالـسون على هـذا النحو.. كنا نـثير فـضولهم بـالأحرى.. ولاسـيما بـسبب المـرأة الـضخمة الظريفة.. كانت تستمع إلي، كما يبـدو، أكثـر ممـا تـستمع إلى زوجهـا. تابعت كلامي المعسول، وحججي التراجيدية... حاولت أن أصور لها أ نوع من العقبات كنا قد اصطدمنا بها.. وكيف أننا بذلنا جهوداً مـضنية دو الحصول على أي طائل.. كانت تـرمقني بطـرف عينـها، غـير متثبتـة أقول.. كانت تعتقد بأنني كنت أخدعها متعمداً.. فعادت إلى التذمر...

- ولكـن لم يعـد لـديك أيـة طاقـة! أرى هـذا بـأم عـيني! لا أ ولا الآخر! أنا إذن! أجـل! أنـا وحـدي مـن سـيقوم بالعمـل!... سيصعد في المنطاد! سترون ذلك بأعينكم! سترون بـأعينكم إن

سأحلّق أم لا! إذا لم أحلق على ارتفاع 1200 م، ما داموا يطالبون بخوارق! إلى 1500م! إلى 2000 متر! إلى أي ارتفاع لا يهم!.. كل ما سيطلبونه! سأفعله لهم.

ـ أنت تتلفظين بحماقات، يا فتاتي الكبيرة، أوقفها دي بيريري... أنت تتلفظين بحماقات فظيعة!.. لن يتاح لك أن تحلقي على ارتفاع اثني عشر متراً مع غلاف مثل غلافنا!.. ستسقطين في البركة!.. ولن يكون هذا حلاً! كما أنهم لن يقبلوا بك على الرغم من كل شيء! فحتى ربان المنطاد «صديق الغيوم»، وكل أجهزته، وتحليقه المرتفع! وحتى راستوني، وابنته، وبهلوانيته، وباقات زهوره.. ما عادا يشاركان في التحليق.. لا هذا ولا ذاك!.. لقد رفضوهم أيضاً!.. سواء بسواء! لسنا نحن السبب يا إيرين! إنه الزمن!.. إنه التدهور الذي غدا شاملاً.. لا يتعلق الأمر بـ «الزيلي» وحده...

عبثاً كان يقول ذلك، ويقسم بألف من أسماء الله... ولكنها كانت مصرَّة على موقفها... كانت تعاند على نحو أشد وأمضى...

ـ ولكنكم أنتم! أنتم الذين استسلمتم للعجز والخور! موضة الطائرة؟ ولكن هذه الموضة ستكون نسياً منسياً في السنة القادمة!... أنتم تبحثون عن أعذار واهية، لأنكم خريتم جميعاً في سراويلكم!... هذا هو بالأحرى ما ينبغي أن يقال! بدلاً من أن توجهوا لي اللوم والتقريع! ولو كان عندكم ذرة من الشجاعة.. قولوا ذلك إذن حالاً... بدلاً من أن ترددوا على مسامعي كل هذا الهذر... انهضوا إلى العمل... ليست حكاياتكم هذه سوى حماقات! والبيت إذن؟ من ذا الذي سيدفع أقساطه؟ وبأي شيء؟ نحن ندين الآن بثلاثة أقساط مستحقة عن الشهور الثلاثة السابقة! مع مهلتين أيضاً!.. ليس بهذرك القذر بالتأكيد!.. إنه غارق بالديون حتى أذنيه، وبالإنذارات المتلاحقة! أنا على يقين من

ذلك... هل تظن بأنني لا أعرف هذه الأمور؟ إذن، ستتخلى عن كل شيء؟ هو ذا ما عزمت عليه، أليس كذلك، يا وجه الخنزير؟... أعلنت حدادك... سلّمت بتجريدك من المنزل بكامله! ثمانية عشر عاماً من الادخار!... اشتريناه حجراً حجراً، سنتيماً سنتيماً! ذلك هو إذاً ما سيكون ردك!... والحديقة التي أخذت كل أيامنا.. ستتخلى عن كل ذلك للرهون العقارية... ستتركه فجأة... تدير له ظهرك دون أي اكتراث! كل اهتمامك منصب هناك... - كانت تشير بذلك إلى ما يشغل عقله من الفسق والقمار- وليس إلى المنطاد، بل إلى هناك!... وإذن؟ فإن نهايتك ستكون تحت الجسور؟ لك مطلق الحرية!... لك مطلق الحرية! أيها الساقط القذر، المقزز! ما عدت تشعر حتى بالعار من وجودك!... ولكنك ستعود إلى هناك، أيها الممسحة القذرة، مع المتسولين من أمثالك!... من هناك كنت قد أخرجته.. آه! نعم! مع ذلك... ولكنني أنا، يا فرديناند! أنت تعلم، كان لدي عائلة!... لقد دمَّر حياتي! وقضى على مهنتي!... وأبعدني عن أهلي!... مصاص الدم! السافل!... وصحتي؟ لا شك أنه سيلتهمني بالكامل، على هذا النحو! سيلاشيني كلياً.. كي ينتهي في حمأة العار!... وهيا إذن!... آه! الرجال خزائن مقفلة! إنهم لغز محير... لعمري إن هذا لا يصدق! ثمانية عشر عاماً من الادخار، من الحرمان المتواصل!... من الكروب الممضة!... كل التضحيات من جانبي أنا وحدي.

فيما كان دي بيريري يسمعها تطلق اللعنات كالحمم، على هذا النحو، ويمثل هذا العنف، خانته شجاعته تماماً!... وفقد مكره وحيلته!... فأنشأ يبكي! انفجر بالدموع... وألقى بنفسه بين ذراعيها!... وجعل يتوسل غفرانها!... أسقط غيلونها من يدها! تعانقا بانفعال شديد.. على هذا النحو، وأمام الجميع!... دام العناق طويلاً... ولكنها حتى خلال العناق، واصلت احتجاجها.. وظلت تكرر الكلمات نفسها...

ـ أريد أن أصلحه، يا كورتيال، أريد أن أصلحه! أنا أعلـم بأنـه مـا زال من الممكن أن يصمد! إنـني واثقـة مـن ذلـك!... سـأراهن علـى ذلك!... انظر قليلاً إلى «أرخميدس»... لقد صمد أربعين عاماً!.. فكر إذن! إنه سيصمد أيضاً!.

ـ ولكنه كان منطاداً مقيداً وحسب... هيا، يا عزيزتي... ليس التلف نفسه على الإطلاق!...

ـ سأصعد به أنا!... أقول لك!... سأصعد! طالما أنكمـا لم تعـودا تريدان ذلك.

كانت مصرَّة على موقفها بعناد شديد... وراحـت تبحـث عـن بـزة الطيران... كانت عازمة بكل الوسائل على أن تتدبـر الأمر.

ـ ما طلبت يوماً أكثر من أن أساعدك! أنـت تعـرف هـذا جيـداً مـع ذلك يا كورتيال!..

ـ ولكن أجل! أعلم هذا بالتأكيد، يـا حبيـبتي!.. ليـست هـذه هـي المسالة!...

ـ ما طلبـت أكثـر مـن ذلـك... أنـت تعـرف بـأنني لـست بالبليـدة الخاملة.. أريد أن أبذل كل ما في وسعي، إن كان يمكن أن يفيـدنا!... ولكنني سأبدأ العمل من جديد.. ما استطعت إلى ذلك سبيلاً! آه! لـن انتظر!.. وحتى في مونترتو! يميناً بـالله! لكـنني سـأعمل أي شـيء!... حتى لا يجيئوا ويطردونني!... أنت ترى وضـعي.. وقـد سـألت أيـضاً هنا وهناك... ولكنني لم أعمـل منـذ زمـن طويـل... ثم هنـاك وجهـي أيضاً!... سيكون منظره مضحكاً مع ذلك!... لقد تغيرت كثيراً... قالوا لي هذا.. سيكون علي أن أتدبـر أمري قليلاً.. أخـيراً أنـا لا أعـرف!... سأحلق هذا الشعر! لا أريد أن أنتفه نتفاً!...

رفعت لنا غلالتها عن وجهها... فأحدث لدي ذلك انطباعاً عميقاً مع ذلك! هكذا وفي وضح النهار... بتلك البودرة المذرورة! وبذلك الخضاب الأحمر فوق الوجنتين، والبنفسجي على الجفون!... مع شاربين كثيفين، وعارضين أيضاً وحاجبين أشد خشونة من حاجبي كورتيال، كثين جداً، كأنهما حاجبا غول! دون أن أبالغ! من المؤكد أنها ستثير الخوف في قلوب من سيقبلون بتشغيلها، بتلك السحنة المشعرة! كان خليقاً أن تتدبر الوضع، كي تعدل كل سيمائها.. كان هذا يثير أعمق التفكير!...

لبثنا جالسين على هذا النحو، وقتاً طويلاً، جنباً إلى جنب، داخل الحديقة، نروي لبعضنا نوادر وحكايات، وأشياء تجلب العزاء والسلوى... كان الليل يهبط برفق بالغ.. وفجأة انفجرت بالبكاء، بكاء مطلق بلغ مبلغاً يعز على الوصف!... كان ذلك هو الكرب الذي ما بعده كرب!...

ـ فرديناند! جعلت تتوسل إلي... أنت لن تتركنا على الأقل؟ انظر! إلى أين آلت حالنا!... لم أكن أعرفك من قبل، ولكنني على يقين بأنك تتمتع بالعقل والحكمة، يا صغيري! أليس كذلك؟ ثم، أولاً، ستستوي الأمور! لا تكذب يقيني!... إنه، في المحصلة، وضع سيئ جداً!...عشت مثله كثيراً، هيا! لا يمكن أن تنتهي الأمور على هذا النحو! ما علينا إلا أن نعود إلى العمل معاً!... ونضرب ضربة قوية!.. ينبغي في البداية أن أتأكد!...أود أن أحاول بنفسي!...

نهضت مرة أخرى.. وذهبت باتجاه المخزن.. فأشعلت شمعتين... تركناها وشأنها تفعل ما تشاء... تتدبر أمرها بيدها... فتحت باب السقف الذي يطل على القبو.. وهبطت الدرجات... مكثت هناك، وحدها برهة طويلة، داخل القبو!.. تقلب بيديها الركام الغث...

وتبسط الغلاف، وتجرجر الحطام المتبقي!.. وتتأكد بنفسها كم كان ذلك متعفناً! مهلهلاً إلى أبعد الحدود! مزقاً وأشلاء! كنت وحدي في المخزن حينما صعدت أخيراً... ما عاد بمقدورها أن تقول أي شيء... كما لو أن حزناً ثقيلاً أخذ بخناقها.. جلست على الأريكة، كمن أصيب بالشلل، كمن غشيته غاشية الموت.. مكدودة.. مهدودة... كانت قبعتها ملقاة بإهمال تحت الأريكة.. صعقت تلك المعاينة العجوز صعقاً شديداً... كنت أعتقد بأنها ستغلق فمها... ولن تجد ما تقوله... ثم اجتاحتها رعدة شديدة، ولكنها هدأت مع ذلك بعد ربع ساعة!... وأخلدت إلى السكينة!... دون أن تكف عن النحيب.. كانت تكلمني ببطء وبصوت خافت كما لو كانت تتكلم في حلم:

ـ لقد انتهى! يا فرديناند!... رأيت بعيني.. نعم... هذا صحيح... لم تكونا مخطئين!... لقد انتهى... أنت لطيف حقاً، يا فرديناند، لأنك لن تغادرنا الآن... فنحن كلانا عجوزان... أليس كذلك؟.. هل ستتخلى عنا؟ ليس سريعاً جداً مع ذلك؟... أليس صحيحاً؟ يا فرديناند؟ ليس سريعاً جداً... بعد بضعة أيام على الأقل.. بضعة أسابيع... أنت تريد، أليس كذلك؟ لا تريد؟ قل، يا فرديناند.

ـ ولكن نعم يا سيدتي!... ولكن نعم بالتأكيد.

* * *

في حوالي الساعة الحادية عشرة من صباح الغد، عاد كورتيال، كان ما يزال متكدراً غاية الكدر!...

- إذن، يا فرديناند؟ ما من شيء جديد؟...

- أوه! كلا! أجبته... لا شيء غير عادي...

سألته أنا بالمقابل... - إذن هل سوّي الأمر؟..

- ما الذي سوّي؟.. - تظاهر بالبلاهة... - آه! تقصد ما جرى بالأمس؟ واستطرد، متخذاً سمت التعاظم...

- آه! أصغ إلي يا فرديناند! أنت لن تأخذ، مع ذلك، ما سمعته من هذر بالأمس على أنه من أجل بعض النقود السائلة؟ لا؟... إنها زوجتي، بالطبع؟... وأنا أجلها وأحترمها قبل كل شيء... لم يكن بيننا، في يوم من الأيام خصام حقيقي!.. حسن!... ولكن لا بد مع ذلك من التحدث قليلاً بشأنها.. إنها تحمل كل العيوب الرهيبة التي تنطوي عليها طبيعة نبيلة!... فهي طاغية! مستبدة! استبداداً مطلقاً! هل تفهمني، فرديناند؟.. غضوبة!... إنها بركان!... ديناميت!... فما إن يدا . خطب حتى يكون رد فعلها كالإعصار!... أنا نفسي، أحياناً، أتو. خيفة منها!.. هي ذي تنفجر!... فأهيج أنا هياجاً شديداً!... ويتملكني القلق والاضطراب!... وأغمغم!...وأفقد رشدي بسبب ذلك!... وأ- أذنيك بكل ما في جعبتي من حماقات!... وما إن نتبين جلية الأمر، - تهدأ الخواطر ونثوب إلى الهدوء!... وننسى بسرعة بأن عاصفة - هبت!... ولكن أكرر لك يا فرديناند! بأننا خلال اثنتين وثلاثين سنة . حياتنا الزوجية تعرضنا للكثير من الانفعالات بالتأكيد! ولكن لم . هناك عاصفة حقيقية!... جميع الأزواج لهم نزاعاتهم... لست أنكر أ. في هذه اللحظة بالذات نجتاز مأزقاً صعباً!... هذا أكيد... ولكننا . النهاية تعرضنا لمآزق أخرى... وتجاوزنا ما هو أمر وأدهى!... ليس هو الطوفان!...ولكن أن نجد أنفسنا عاجزين كلياً!... مجردين من أ. وسيلة!... مطرودين!.. مباعين!... متعرضين للحجز!... فإن هذا إ. هو محض خيال سقيم... أنا أعترض بشدة!... عزيزتي البائسة! سأكو أنا بالتأكيد آخر من يحقد عليها!... كل ما جرى يمكن تفسيره!... . في بيتها هناك ما تنفك تخلق أوهاماً!... تمضي النهار بطوله وحيدة!...

تفكر!... وهذا يقلقها أشد القلق... ويستحوذ عليها في النهاية!... فيستبد بها الهياج!... ولا تعود تدرك جلية الأمور!... ترى، وتسمع أشياء ليس لها وجود!... وهي فوق ذلك ما برحت، منذ عمليتها الجراحية تتعرض لأوهام!... ونزوات!... وتهذي قليلاً، في بعض المرات!... آه! نعم! كان هذا يدهشني في أحيان كثيرة!.. هلوسات حقيقية... إنها قطعاً صادقة مخلصة... في أنينها وشكواها، على هذا النحو...آه! على رسلك!... لقد تحققت أنت من ذلك على الفور، بالتأكيد؟... أدركت مباشرة؟... كان ذلك مضحكاً جداً!... كان كوميدياً!... ولكنها فعلته معي مراراً... لهذا فإنني لم أفاجأ!... تركتها حتى تنتهي!... لم يبد علي الاندهاش، أليس كذلك؟ هل لاحظت أنت؟ كنت أبدو كمن يجد وضعها طبيعياً... ذلك ما ينبغي فعله! وليس أن أخاف! ليس أن أخاف.

- نعم! نعم! أدركت ذلك على الفور.

- آه! حسن هذا، قلت لنفسي أيضاً... بأن فرديناند لا يخلط الأمور... ليس ساذجاً إلى هذا الحد!.. لا بد أنه أدرك... ليس ذلك لأنها تشرب، حبيبتي البائسة!... لا! فهي لم تقرب الخمر في يوم من الأيام!... إنها امرأة زاهدة بالتأكيد!... دعك من التبغ... إنها بالأحرى بيوريتانية (طهرية)، بمعنى من المعاني!... ولكن العملية الجراحية هي التي ما برحت تثير فيّ أشد القلق!... آه! لقد كانت امرأة أخرى تماماً!... آه! لو أنك رأيتها فيما مضى من الأيام!... ـ وألقى نظرة تحت أكداس الأوراق القديمة ـ كم أود لو أستطيع أن اعثر لك على صورتها الفوتوغرافية، حينما كانت شابة! صورتها المكبرة في مدينة تورين!... وقعت في يدي منذ ثمانية أيام... لن يكون بوسعك التعرف عليها!.. انقلاب كامل!... فيما مضى، في ذلك الحين، قبل إجراء العملية، أستطيع أن أؤكد لك... بأنها كانت تحفة حقيقية!... وقار! سحنة وردية... الجمال عينه!... وأي سحر، يا

صديقي!... والصوت!... سوبرانو درامي!.. كل هذا الجمال الداني! اختفى فجأة!... بالمشرط! هذا لا يصدق!... يمكنني أن أؤكد لك، بكل تواضع، ضاعت معالمه! كان جمالها مربكاً أحياناً... وخاصة في السفر! ولا سيما في إسبانيا وإيطاليا!.. حيث الرجال هناك غزلون، يهوون مطاردة النساء الجميلات.. أتذكر جيداً، كنت أنا نفسي، في تلك الفترة كثير الشكوك، حساساً... أغتاظ لأدنى سبب.. وأوشكت في مئة مناسبة أن أدخل في مبارزة..».

ثم غرق في صمت عميق... فراعيت صمته... ولكنه ما لبث أن انتفض وعاد إلى الحديث...

- إذن، هيا يا فرديناند! ليس هذا كل ما يهمنا!... لنتحدث الآن في الأمور الجدية!... فيما إذا كنت قد ذهبت لرؤية صاحب المطبعة؟... ثم إصغ إلي وحاول أن تفهم جيداً!... عثرت في الفيلا... داخل المكتب على شيء يمكنه أن يفيدنا!... إذا ما عادت زوجتي، وسألت عنه... فأنت لم تر شيئاً!.. ولا تعرف أي شيء على الإطلاق!.. ليس هذا سوى تذكار قديم، حلية بسلسلة، وسوار... كلها من الذهب الخالص! أنا متأكد قطعاً!... مدموغ بدمغة! من عيار 18!.. يمكننا أن نقوم بمحاولة !... ستذهب إلى سورسيللو، شارع غرانج باتلييه.. وتسأله عما يعطينا ثمناً لهما؟ وأن هذا من أجلي أنا... خدمة لي!... تعرف جيداً أين تجده؟... في الطابق الرابع، الدرج (أ)... لا تجعل أنظار حاجبه العمارة تقع عليك!... بكم يشتريهما مني؟... سيوفران لنا سلفة مع ذلك!... إذا قال لك لا.. فاجعل طريقك باتجاه الصائغ روتمبرغ!... شارع الهوشيت... لا تره ورقة الإيصال! اسأله إن كان يرغب في شرائهما؟ هكذا ببساطة.. وسأمر عليه أنا بعد ذلك... هذا الرجل، أسوأ من عرفته من الأنذال...

* * *

كان مفوض شارع «البون أنفان» وغداً صغيراً، رغم مظهره اللامبالي، فقد باشروا بملاحقتنا بتحريك منه في الواقع. تدخلت النيابة العامة في الموضوع.. ليس لوقت طويل بالتأكيد... ولكن بما يكفي لتنغيص عيشنا.. ازدحم مكتبنا برجال الشرطة... وأجروا تفتيشاً شكلياً.. ولكن ما عساهم يجدون من دليل ضدنا؟ عادوا من حيث أتوا مدمدمين!.. ما كان لديهم حجة دامغة لتجريمنا.. لم تكن شبهة الاحتيال جلية بالفعل.. حاولوا بلفنا بشتى السبل والمناورات.. ولكن كان لدينا حججنا.. برأنا ساحتنا بسهولة فائقة. أبرز كورتيال شواهد مكتوبة كانت لصالحنا تماماً.. تم استدعاؤه حينئذ إلى محكمة «أورفيفر» كل يوم تقريباً.. كان القاضي يغرق في الضحك لمدة خمس دقائق وهو يصغي إلى دفاعاته المشوشة.. واعتراضاته.. قال له القاضي، في البداية:

ـ قبل أن تقدم دفاعك، أعد إذن التوكيلات التي استلمتها.. أرجع إذن الاكتتابات إلى أصحابها.. قصتك هذه ليست سوى سوء ائتمان!.. قرصنة حقيقية مكشوفة!.

قفز الجد العجوز، حينئذ، لدى سماعه هذه الكلمات.. وانبرى يدافع دفاعاً مستميتاً، نقطة نقطة، على نحو يائس..

ـ أعيد ماذا؟ لقد أثقل القدر كاهلي! وأتلف أعصابي: ونكّد حياتي! حتى أرهقت من أمري عسراً! ودُمرت تدميراً! ووطئت بالأقدام! وأثخنت بالجراح، بمئة ألف طريقة! والآن؟ ما الذي يُراد مني أيضاً؟ أية مطالب؟ أن تسلب مني قصعتي الأخيرة!.. أن أذهب إلى الشيطان!.. أن أدفع فديات خيالية! ولكن هذه مهلكة! ولكن هذا عش زنانير، وأيم الحق! بالوعة أقذار! لم أعد أحتمل!.. غدر كل هؤلاء الناس؟ ولكن هذا يحوّل ملاكاً إلى وغد زنيم!.. ولست أنا ألبتة

بسمو الملاك! إنني أدافع عن نفسي، ولكنني قرفت! أعلن هذا على رؤوس الأشهاد!.. قلت كل شيء لذلك العاهر! لذلك القرد! المنافق! ذلك القاضي المأفون!.. لقد كرست وجودي كله، يا سيدي، نذرته لخدمة العلم! وخدمة الحقيقة! سلاحي العقل والشجاعة الأدبية!.. 1287 تحليقاً!.. حياة محفوفة بكل المخاطر! حافلة بالصراع حتى الموت! ضد العناصر الثلاثة.. ضد طغمة المنافقين؟ آه! آه! وضد الجهل! وضد الحماقة المهذارة.. أجل! ابتغاء نشر النور! وتعليم العائلات! ثم ينتهي بي الأمر هنا!.. بوواه! تطاردني عُصب الضباع! مكرهاً على الخوض في المماحكات والجدال الفارغ!.. ثم أتى فلاماريون ليشهد، أتى ليقول لي: «اصمت إذن يا دي بيريري!.. قاطعني حينئذ ذلك الخسيس!.. دون ذرة من التهذيب! ذلك الدعيّ الصغير القذر!.. أصمت! ما عدت أطيق الإصغاء إليك.. نحن نبتعد عن موضوعنا!.. مسابقتك «للمنطاد الخالد»... كل الدلائل تحت يدي.. ليست سوى نذالة فاضحة.. وهي ليست أولى نذالاتك!.. ولكنها هي الأشد فضائحية، والأكثر جدة، والأعظم وقاحة من كل ما سبقها!.. غش من أولها إلى آخرها، في الحقيقة!... خدعة كلبية! لن تفلت هذه المرة من المادة 222 يا سيد دي بيريري!.. حالتك ميؤوس منها.. من الأفضل لك أن تعترف... أعد إذن قراءة بياناتك التمهيدية.. ألق نظرة إذن على جميع إعلاناتك!.. وقاحة شنيعة لا مثيل لها!.. ما من شيء يوحي بالنزاهة والشرف في مسابقتك هذه.. ما من شيء يمكن تبريره!.. ما من تفتيش يفضي إلى نتيجة عملية! آه! أنت تعرف كيف تتوارى!.. مما هو واضح يفقأ العين... تذر الرماد في العيون!.. لقد أعددت مسبقاً وبعناية كل شروطك التي تجعل التجربة مستحيلة!.. هذا لعمري قبيح غاية القباحة!.. هذا هو الغش عينه... التدليس دون قيد أوشرط!

السرقة الصراح!.. لست سوى لص يا دي بيريري! أنت مثال علمي عظيم! ولكنك لم تعش إلا بفضل الشراك التي تنصبها للحماسة! للباحثين الطموحين!.. أنت تتصيد بدناءة في أدغال البحث!.. لأنت ثعلب يا دي بيريري!.. بهيمة منحطة!.. أنت بحاجة دوماً إلى الظل الأشد عتمة! إلى الأحراج المتشابكة الكثيفة! كل ضوء يهزمك! ولكنني سألقي الضوء على أعمالك الوضيعة يا دي بيريري! مهلاً، أيها المثال الخطر! الموحل! أيها الحيوان العفن المتبقي من عصر الحيوانات الدنيا.

«ولكن «الحركة الخالدة» كانت، دائماً هدفاً إنسانياً مثالياً بحق.. رددت على ذلك الوحش.. كان هناك ميكيل أنجلو! وأرسطو! وليوناردو دافنشي!.. وبيك دولا ميراندول!..».

«إذن، فأنت الذي ستبتّ في ذلك؟ رد عليَّ سريعاً.. هل تظن نفسك خالداً مخلداً؟.. ينبغي أن تكون كذلك، أنت تسمعني جيداً، كي نحكم على صحة نتائج مسابقتك!.. آه! أمسكت بك متلبساً هذه المرة.. أليس كذلك؟ الخلود!... أنت تقول إذن المنطاد الخالد؟.. بكل بساطة!.. اتفقنا إذن!.. ولكن البداهة ذاتها تفحمك!.. لقد نويت حينما أعلنت عن مسابقتك أن لا تصل قط إلى نتيجة في يوم من الأيام!.. آه!.. ذلكم هو الأمر بوجه الضبط!.. أمسكتك متلبساً!.. أن تسرق هؤلاء التعساء؟ هيا، وقّع لي هنا!» ومد لي مقبض ريشته! آه! الشرير! كان ذلك ذروة الوقاحة! لم أقل لحظتئذ أوف! ولا يوب! كان يقدم لي وريقته كي أوقع عليها!.. أنت لا ترى ما يريده من ذلك؟.. كنت يقظاً لمناورته!.. رفضت، بالطبع، بكل حزم.. كان ذلك شركاً!.. فخاً قذراً في الحقيقة.. لم يصرّ على ذلك!.. وخرجت من المعمعة عالي الجبين!..

ـ سنلتقي في الغد يا دي بيريري!.. رشقني بهذه الكلمات في رواق المحكمة! ستلقى عقابك عاجلاً أو آجلاً!..

«أنت تشعر بأنك خالد؟» لا، ولكن أية قحة ظهرت حينئذاك! أية سفاهة عجيبة!.. من قبل أولئك المتوحشين، لأنهم أنسوا في أنفسهم القدرة على سحقي، الشعرة الصغيرة والشدق الواسع، صدقوا أنفسهم بأنهم فائقو المكر والذكاء.. هذا صحيح! يمكنني الإقرار بذلك آنذاك! كان تفكيرهم جديداً!.. لم أعهده من قبل بالتأكيد! قسماً برعود الإست وسراديب الأموات، كان أدهى من كل ما سبق! ولكنهم من أجل أن يزلزلوا أقدامي، يا ولدي، سيكونون بحاجة إلى ما هو أكثر قليلاً، من هذه الأحابيل الخرقاء! آه حسناً!.. كل تلك الوقاحة الدنيئة لم تفلح إلا في تعزيز موقفي! إليك كيف كنت أفكر! ليحدث ما يحدث! لينتزعوا مني الشراب! والطعام! والمأوى! والغطاء! فليسجنوني! فليعذبوني بشتى الأساليب! فسأتشبث بموقفي طولاً وعرضاً! لدي ضميري.. وهذا يكفيني! لا شيء من دونه!.. لا شيء ضده!.. هوذاك، يا فرديناند! ذلك هو نجم القطب بالنسبة إلي!...

كنت أعرف هذا الكلمة.. كان أبي قد أتخمني بها.. لم يكن لديه فكرة عما فعلته بي آنذاك من أفاعيل، كلمة الضمير تلك!.. ولكن التشدق بالضمير ليس حلاً... ففي المحكمة كانوا مترددين فعلاً فيما إن كانوا سيلقون به خلف القضبان.. غير أن حيلة الخلود تلك كانت مع ذلك بالغة الدهاء.. كان من الممكن تأويلها على وجوه شتى.. انتهزنا فرصة تأجيل الحكم!.. ونظفنا الأجهزة والمعدات.. وركام الأشياء القديمة في الكهف.. وأنقاض المنطاد.. وعادت إلينا العجوز الشكسة المضحكة، جاءت خصيصاً من مونترتو.. عازمة على الإمساك بدفة الأمور بيدها، وقيادتها على هواها.. ولاسيما بيع سقط

متاعنا، وكل ما تبقى من حطام المنطاد.. نقلنا نقلة على الظهر، ونقلة أخرى بعربة يدوية.. بعنا بعضاً من تلك البضاعة الفاسدة في «تامبل» على الأخص، وفي «كارو» أيضاً.. كان لنا هواتنا الكثيرون.. وقد ثمنوا عالياً بقايانا الميكانيكية الصغيرة! وفي يوم السبت بعنا في سوق البراغيث كميات كبرة من الكتب.. بعناها جميعاً كيفما اتفق... مع أشلاء «الزيلي» والمواعين، والبارومتر، والحبال... وكل ذلك المتاع المشعث، على صفقات متتالية، وانتهينا إلى الحصول على أربعمئة فرنك تقريباً.. كان ذلك مُرضياً مع ذلك!.. فقد أتاح لنا بأن نسترضي قليلاً صاحب المطبعة، بدفعة مجزية على الحساب.. ونسدد نصف كمبيالة من الكمبيالات المستحقة على البيت من «قرض بينوتون».

ولكن حماماتنا الزاجلات البائسات لم يعد لهن، منذ تلك اللحظة مبرر للوجود... ما عدنا نغذيهن كثيراً منذ شهور عدة.. كل يومين أحياناً.. وكان هذا يكلف غالياً جداً مع ذلك!.. كانت الحبوب عالية الكلفة دوماً، وحتى مع شرائها بالجملة.. ولكننا لو بعناهن، فإنهن سيعدن إلينا بالتأكيد كما عرفتهن.. فهن لن يألفن قط مربين آخرين.. لشد ما كانت تلك الحيوانات الصغيرة شجاعة ووفية.. شديدة الألفة من دون ريب.. كن ينتظرنني في حجرة السلم.. وما إن يسمعنني أصعد الدرج إليهن حتى يهدلن هديلاً مضاعفاً... كان كورتيال يتحدث عن أنه سيضعهن في القدر، كوجبة شهية.. ولكنني لم أشأ أن أسلمهن له أو لأي كان.. ما دام سيقتلهن.. كنت أفضل أن أتدبر أمرهن بنفسي! أمعنت التفكير بوسيلة لإنقاذهن... كما لو انني أفكر بإنقاذ نفسي.. ما كنت أحب أن ينتهين إلى السكين.. لا.. ما كنت أحب أن يخنقن.. لا.. أو أن يقطعن، وتنتزع أمعاؤهن، وتُشق بطونهن!.. كان هذا يسبب لي حزناً شديداً!.. كانت علاقتي قد توثقت

بهن إلى حد بعيد.. ولكن ما عاد ثمة مجال للتراجع.. كان لابد من اتخاذ قرار بشأنهن.. ما عاد لدي حبوب لإطعامهن منذ أربعة أيام.. صعدت بعد ظهر أحد الأيام، قرابة الساعة الرابعة، كن يعتقدن بأنني جلبت لهن طعامهن.. كانت لديهن ثقة كاملة بي.. وأخذن في السجع بكل الأنغام الموسيقية.. قلت لهن: «هيا! تعالين، أيتها الهادلات! إنه معرض الطيران ثانية، هيا إلى نزهة في السيارة!.. كن يعرفن هذا جيداً... فتحت لهن باب سلتهن الجميلة، سلة الأسل التي يصعدن بها أثناء التحليقات.. فاندفعن إلى داخلها كلهن.. أغلقت عليهن بالمغلاق.. وأدخلت الحبال بالعرى... وحزمتها طولاً وعرضاً.. على هذا النحو كنت جاهزاً.. تركت السلة عند باب الحجرة في البداية، ونزلت لأستطلع الوضع قليلاً.. لم أقل شيئاً لكورتيال.. انتظرته أن يذهب ليأخذ قطاره.. لبثت هكذا إلى ما بعد الغذاء.. نقرت لي فيوليت بإصبعها على زجاج الواجهة..

فقلت لها! «عودي إذن فيما بعد.. يا جميلتي.. سأذهب قليلاً لشراء بعض الأشياء!..».

ولكنها لبثت واقفة... محتجة.

ـ أريد أن أقول لك شيئاً يا فرديناند! ألحت علي.

ـ انصرفي الآن ! قلت لها.

صعدت حينئذ إلى طيوري.. فأنزلتها من حجرة السلم... ووضعت السلة فوق رأسي.. وسرت محافظاً على توازنها.. خرجت عبر شارع مونتبانسييه.. اجتزت الكوريسيل بكامله.. وحينما وصلت إلى رصيف فولتير، عاينت المكان.. فلم أر أحداً على الإطلاق.. وهناك على الضفة، و في أسفل الدرج... التقطت بلاطة ثقيلة.. ربطتها إلى

سلتي.. كنت ما أزال أنظر حولي.. أمسكت بالسلة بكلتا يـدي وألقيـت بها وسط الماء.. إلى أبعد ما استطعت... لم يحدث ذلك ضجة كبيرة.. فعلت هذا بنحو آلي..

في الغد صباحاً، أخبرت كورتيال بصراحة عما فعلت.. لم أنتظـر.. ولا اتخذت ستاً وثلاثين سحنة مصطنعة.. لم يجـب بكلمـة.. ولا هـي أيضاً، حبيبة قلبه، التي كانت معنا داخل المخـزن... رأوا بوضـوح في أساريري بأن اللحظة لم تكن مناسبة على الإطلاق لإزعاج قضيبي.

* * *

تركونا وشأننا في سلام، وخرجنا من المأزق سـالمين تقريبـاً.. أنقـذنا الوضـع المتـردي دون مـساعدة مـن أحـد! كـان دوريتنـا «الجينتـرون»، لا جدال في ذلك، هي التي حمتنا كلياً من الضياع... كانت صـحيفة ذات شعبية واسعة.. وما يزال الكثيرون يذكرون كـم كانـت مـثيرة! وحيويـة!.. من سطر إلى سطر! من البداية وحتى النهاية! مطلعة دومـاً اطلاعـاً كـاملاً على جميع ما يتعلق بالمكتشفات، وباهتمامات المكتشفين!.

من هذا الجانب، ما كان ثمة منافس.. ما من أحـد قـط اسـتطاع أن يزيجها أو يحل محلها.. ولكن الذي طرحنا كلنا أرضاً كان هو المهـرج الآخر، وهوسه الحاد بالسباقات.. كنت على يقين جـازم بأنـه سـيعود ثانية إلى المراهنات... عبثاً كان قد أكـد لي عكـس ذلـك.. كنـت أرى حوالات الاكتتاب تصل تباعاً «15 فرنكاً» من مشتركين جـدد! ولكنـها كانت تتبخر فوراً إن لم أتخذ احتياطـاتي بإخفائهـا في اللحظـة ذاتهـا! كنت أفعل ذلك بلمح البرق!.

يا له من مشعوذ حقيقي! بمثل هذا البزل المتواصل، ما من مشروع يمكنه أن يصمد! ما من شك في أنه كان يبعثر النقود في مكـان مـا!...

لم يعد يذهب إلى «الإيموت»... من المؤكد أنه قد غيرّ «وسيطه»؟ كنت أقول لنفسي: سأعرف عمَّا قريب الوسيط الجديد! ولكن الملاحقات القضائية ما لبثت أن استؤنفت من جديد! أثيرت الشكاوى مجدداً.. واستدعي إلى مركز البوليس!.. لم يشأ الوغد الصغير، مفوض «البون أنفان» أن يخرج مهزوماً من المنازلة!.. فعاود الهجوم! وشدد علينا الخناق!.. كان عازماً على إزهاق أرواحنا!.. عثر على ضحايا جدد.. وعلى مسابقات شهيرة أخرى! ذهب عن عمد يبحث عن خصوم لنا في المصانع الصغيرة، وفي المانيفاكتورات.. وألّبهم ضدنا! وألهب أحقادهم! وحثهم على أن يرفعوا ضدنا شكاوى أخرى! لم تعد حياتنا تطاق!.. كان علينا التفكير ملياً!.. والوصول إلى حل بطريقة من الطرق! ولفرط ما قلّبنا الأمور وأعدنا تقليبها.. توصلنا إلى رأي مفاده، أنه كان علينا من أجل الخروج من المأزق أن نقسم كل أولئك المزعجين إلى فئتين اثنتين، كي نقرر ماذا نفعل! من جهة.. جميع أولئك الذين كانوا يحتجون شكلياً! لفيف السوداويين والمنكودي الحظ في الحياة. أولئك، وهم الأغلبية.. كانوا هينين لينين، لذلك فلن نعيد إليهم فلساً واحداً على الإطلاق!.. ومن الجهة الأخرى إذن، أولئك الذين كانوا جفاة غلاظاً، مفرطي الهياج، لا يهدأ لهم روع!.. وهؤلاء خطرون لا تؤمن بوائقهم!.. ولم يكن لنا مندوحة من تهدئتهم، وتلطيف خبائثهم وشرورهم من دون إبطاء، والتباحث معهم حول «قطعة اللحم»، ولكن لا أن نعيد لهم كل نقودهم بالطبع!.. كان هذا مستحيلاً!.. كان خارج النقاش!.. بل أن نعطيهم مع ذلك «سكرة»... قطعتين أو ثلاث من فئة الخمسة فرنكات مثلاً... وهكذا فهم لن يفقدوا كل شيء! وسيتوصلون ربما إلى تفهم الأسباب القدرية القاهرة؟...

ولما آن أوان البدء بهذه المساعي الجميلة، خارت شجاعة كورتيال، واعتراه الشحوب فجأة... ما كان بمقدوره الذهاب إليهم بنفسه؟ كان ذلك يفوق التصور.. كان يتملكه جبن فظيع حين يفكر بالذهاب زاحفاً متذللاً أمامهم... وسلطانه إذن؟... كان ذلك يفقده رباطة جأشه في مواجهة أولئك المخترعين..كان من المحتم إذن أن أكون أنا من سيذهب لينقل إليهم الوعود المعسولة!... كنت مجرداً من أية حظوة أو اعتبار، وليس ثمة ما أفقده مما يسمونه الكرامة الشخصية.. ولكن أية مهمة عناق وتبويس! كنت فاقداً كل تماسكي سلفاً! واعتراني الوهن بدوري، غير أن السقوط المريع في حمأة البؤس كان ينتظرنا لا محالة!... وإذا تركنا الأمور تجري على عواهنها، فتلك هي نهاية الصحيفة!... وبعد ذلك الويل والثبور!... وبعده الإفلاس والتسول!... تلكم هي، في الحقيقة التراجيديا التي جعلتني أتحمل أعباء سخرة بهذا القدر من الهول والنكد...

أخيراً، قدحت شرارة شجاعتي من جديد، وتسلحت ثانية بكل ما لدي من رباطة جأش،ورددت بيني وبين نفسي كل الأراجيف التي سألقيها على مسامعهم.. كل ما كان علي أن أهذر به، وما سأحكم سرده من أضاليل... السبب أيها السادة في عدم نجاح المسابقة، منذ الاختبارات الأولى!... يعود إلى نقاش حاد جداً بين العلماء حول جانب تكنيكي جرى حوله الكثير من الجدل... وقد أرجئ كل ذلك حتى العام القادم... أخيراً موسيقا لا نهاية لها! وغطست في اللجة المدومة! مثل عصافة زهيدة! كان علي أولاً أن أعيد لهم جميع تصاميمهم، ورسومهم، وأشياءهم التافهة المشوهة! وأرفقها في الوقت ذاته بسيل من الاعتذارات.

كنت أقتحم أولئك الفتيان بطريقة غير مباشرة... فأبـدأ بـسؤالهم إذا كانوا لم يتسلموا رسالتي؟ التي أعلمهم فيها بزيـارتي؟.. لا؟... وتبـدر منهم رعدة خفيفة.. ويخيل إليهم بأنهم الرابحون!... فإذا كانـت تلـك ساعة الطعام، ودعوني إلى مشاركتهم وكانوا بين أفـراد العائلـة، فـإن مهمتي الجميلة حينئذ تغدو أمام هذا الحشد من الأشخاص حرجة أيما حرج!... كنت بحاجة إلى كنوز من الحصافة!... كـانوا يبنـون أحلاماً ذهبية!... كانت تلك لحظة كريهة.. كان علي، مع ذلك، أن أصـرفهم عن أحلامهم... لقد أتيـت خصيـصاً لهـذه الغايـة... كنـت أحـاول أن أضفي على الجو بعض الظلال!... حينما كان يعتريهم الفواق، وتهيج رغبتـهم للطعـام... كـانوا ينهـضون كـالمنومين.. يغـشى أبـصارهم الجمود!.. كنت حينئذ أراقب الـسكاكين.. فيمـا يتـصاعد البخـار مـن الأطباق!... مسنداً ظهري إلى الحائط!... كانت قصعة الحـساء بمثابـة سلاح أستخدمه وقت اللزوم!... مـستعداً لكـبح جمـاح المعتـدي!... كنت أواصل محاكمتي وتبريراتي! منذ أن تبـدر منـهم الحركـة الأولى المضحكة قليلاً، كنت أصوب طلقتي في وجه صديقي تماماً أصـارحه بالحقيقة.. كان هذا الموقف المصمم كافياً من جوانب عـدة، لوقـايتي من عواديه.. كان يجعـل الهـاوي يفكـر قلـيلاً.. ثم ينتـهي الأمـر على خير.. بضع مجاملات فارغة.. بمساعدة خمر الفيناس الـرديء، وعـبر جوقة من التنهدات والتجشؤات... ولا سيما حـين أعيـد إليـه قطعـتين من فئة الخمسة فرنكات!.. غير أنني في إحدى المرات، وعلى الـرغم من التحوط والاعتياد على اللعبة.. تلقيت من أحدهم ضرباً مبرحاً مع ذلك.. حدث هذا، على مـا أذكـر، في شـارع شـارون، المـبنى 72، بوجه الضبط، وهو فندق كان يقيم فيـه إقامـة دائمـة.. ذلـك الرجـل.. وهو صانع أقفال، كان يعمل داخـل غرفتـه.. وقـد بـذلت جهـداً كي

أهتدي إليه.. كان يصنع حقائب معدنية للصوص المنازل.. قصارى القول، كان اختراعه الذي قدمه إلى مسابقة «المنطاد الخالد» عبارة عن طاحونة لنوع من مولد ذي استطاعة كهربائية متبدلة.. وكان يجمع إلى ذلك قوة دفع الرياح... وهكذا فإن مروحته لا تتوقف عن الدوران.. حتى في فترات الاعتدال الحراري.

وصلت إذن، لمحت مدير الفندق في الأسفل، فسألته عن الشخص: «في الطابق الثالث».. صعدت الدرج.. قرعت الباب.. كنت مرهقاً جداً.. صببت على أذنيه كل ما في جعبتي دفعة واحدة! لم يصدر عن الرجل أي جواب.. كنت ما أكاد أرفع نظري إليه.. كان مصارعاً حقيقياً، لم أكن قد أنهيت كلامي.. حين وقف دون أن يتفوه بكلمة واحدة!.. «بوم!...» انهال علي ضربا!.. سحقني الوحش بقبضته!.. لذت بطاولة السفرة!... تعثرت، وسقطت على قفاي.. ثور هائج!.. وليت الفرار... تدحرجت على درج الطوابق الثلاثة.. التقطوني عن الرصيف... لم أكن أكثر من فقاعة منتفخة، شلواً دامياً... حملوني إلى غيضة من أشجار الصنوبر! واهتبل هؤلاء الرفاق فرصة إغمائي... فتشوا جيوبي.. وطارت مني الفرنكات العشرة!..

بعد هذا الصدام الدامي، ما عدت إلى ارتكاب حماقات شنيعة.. لم أكن أدخل فوراً إلى البيوت... كنت أجري المفاوضات في الخارج.. أما الاحتجاجات القادمة من المقاطعة فقد اتبعنا لمعالجتها منهجاً آخر.. كنا نؤكد لهم دائماً بأن دراهمهم الصغيرة هي في طريقها إليهم عبر رسالة... وأنها لن تتأخر بعد كثيراً... وأنه كان ثمة خطأ في العنوان.. أو في الشقة.. أو في الاسم.. أو في أي شيء، خلال زحمة الاكتتاب في المسابقة.. وأخيراً توقفوا عن مراسلتنا، بعد أن أفلسوا بسبب كثرة الطوابع البريدية...

بصدد الساخطين العنيفين، كان الأمر واضحاً كل الوضوح.. ذلكم صراع ثيران حقيقي.. ولا مفر من القفز فوق الحواجز قبل أن يدخل الثور قرنيه في كرشك!... أما الآخرون اللينو العريكة، الفزعون، الخجولون، أولئك الذين يفكرون حالاً في الانتحار.. فكنا نلتقيهم فيما بعد!... كانت خيبتهم مريرة جداً!... لم يكونوا يتحملون حزنهم!... كانوا يخفضون رؤوسهم بيأس، ويغمغمون.. ولا يعودون يعون شيئاً... كان العرق يتلألأ على جباههم وتسقط نظاراتهم.. ويرين على وجوههم الخوف... كان من الصعب احتمال النظر إليهم... كان هؤلاء المخدوعون ضحايا الأفكار الهوسية الثابتة... لم يكن يقر لهم قرار... كانوا يجلسون.. وينهضون... ويجففون عرقهم... ولا يصدقون آذانهم بأن مشروعهم لم يجر مجرى حسناً.. كان علينا أن نكرر لهم ذلك برفق... وأن ندس مخططاتهم داخل أيديهم... كانوا يستسلمون للتعاسة! ويفقدون الرغبة بالحياة!... ويخرّون منهارين!...

لفرط ما رددت، على هذا النحو، من كلمات، من أجل صنع كمادات ملطفة للمرارة والأسى، صرت أتدبر الأمور على نحو أفضل، صرت أعرف كل العبارات التي تجلب العزاء... وتبعث الأمل والرجاء... وقد بقي لي بضعة أصدقاء عقب تلك الزيارات.. استطعت أن أخلق لديهم مشاعر من الود والتعاطف.. وفي منطقة سهول سانت مور، اكتسبت مودة عدد من المتحمسين الحقيقيين لأبحاثنا.. والذين تفهموا مساعيّ الشاقة... ومن بورت فيلمونيل وحتى فينسين تعرفت على عدد من هؤلاء، وفي الضواحي الغربية أيضاً!.. كان ذلك حقاً هو الشيء «الخالد» الوحيد الذي رأيته يحقق شيئاً من النجاح.

من النادر وجود نساء في ميدان الاختراع.. تعرفت مع ذلك على إحدى المخترعات.. كانت تعمل موظفة حسابات في الخطوط

الحديدية، وخلال ساعات فراغها كانت تقوم بتحليل مياه نهر السين. كانت تجول ومعها عتاد ضخم، جهاز غازي، وبكرة ريمكوف داخل شبكة صيد، بالإضافة إلى مصباح جيب، ومادة البكريك، وبعض الأحماض. كانت تذهب من أجل تجاربها حتى البونت ماري، عند عالية نهر «اللافوار»... كان عملها يجري بنحو لا بأس به!... ولكن عرة كانت تصيبها في وجهها، وكان ثمة حول في عينيها... قدمت لها نفسي كمندوب للصحيفة.. فظنت في البداية، على غرار الآخرين بأنها قد حصلت على الجائزة الكبرى في اليانصيب، وأصرت على أن تستبقيني أطول مدة. كانت تفتش لي عن أزهار في المرج المحيط.. راغبة في أن تلتقط لي صورة فوتوغرافية!.. عدت إليها مرتين.. كانت تجدني فتى جميلاً.. تريد أن تتزوجني على الفور.. وقد واظبت على الكتابة لي، في رسائل مسجلة... الآنسة لامبريس... كان اسمها جولييت.

أخذت منها مرة مئة فرنك.. ومرة خمسين... ولكن تلك كانت من الحالات النادرة!...

* * *

ما عاد جان مارين كورتيال دي بيريري يتعاظم كثيراً... كان يظل متجهماً على الدوام... متوجساً خوفاً من الأحداث، ومن مسعوري المسابقة.. صار يتلقى رسائل مفعمة بالوعيد والتهديد. كان الأشد شراسة وعناداً من هؤلاء يهددونه بالعودة دائماً مع ذلك... وبتأديبه حتى النخاع، وبطرحه أرضاً مرة واحدة وإلى الأبد!... حتى لا يعود قط في المستقبل للإساءة إلى احد!.. ارتدى تحت معطفه وفوق صدرته الفلانيل وقاء من زرد الألمونيوم المشبع... ولكن ذلك لم يكن كافياً لطمأنته كلياً... فما إن كان يلمح من بعيد متشرداً أو صعلوكاً ذا سحنة غريبة، أو لا يوحي مظهره بالسعادة، حتى يقبل نحونا مدمدماً. ويهرب إلى القبو، على الفور! دون أن ينتظر التفاصيل...

- افتح لي باب القبو، يا فرديناند! دعني أدخل بسرعة! هو ذا واحد منهم قد وصل! لا يكذب ظني!... ستقول له بأنني سافرت، منذ أول أمس! وأنني لن أعود أبداً.. إلى كندا! وسأبقى هناك طوال الصيف! وإنني أصيد هناك السراغيب (ابن عرس) والسنور! والباز الكبير! قل له بأنني لم أعد أرغب برؤيته! وحتى مقابل جميع ذهب الترانسفال (جنوب أفريقيا! تماماً! فلينصرف!... فليتبخر!... فليفرنقع!... ضع له النار في البارود! ذلك وغد زنيم! فلينفجر!...اللعنة!.

داخل القبو المغلق، على هذا النحو، كان يخلد أكثر إلى الأمان والطمأنينة. فالمكان الآن صار خاوياً منذ أن بعنا كل شيء، بقايا المنطاد، وسائر العدد والأدوات.. كان بوسعه التسكع عبره، طولاً وعرضاً، على هواه.. فقد توفر له مكان فسيح... صار بإمكانه الآن أن يعود إلى ألعابه الجمنازية... وفضلاً عن ذلك، فقد هيأ لنفسه في أحد الأركان بلوكوساً مريحاً.... كي لا يعود أحد يلمحه البتة... وإذا ما انقض علينا مهاجمون، كان يلوذ بين خزانة الحائط وبين الصناديق... ويمكث هناك ساعات بكاملها... ما كان على الأقل يضجرني على هذا النحو.. كنت أرغب من أعماقي بأن يختفي بعيداً عني... كان حسبي ظريفته الضخمة التي لم تعد تغادر المخزن... صارت هي التي تزعجني الآن.. كانت مصممة على أن تدير كل شيء على هواها... الصحيفة وشؤون المكتتبين...

منذ الساعة الثانية بعض الظهر كانت تصل من مونترتو... وتحط رحلها في المخزن، متطقمة بطقم رسمي فضفاض، مع قبعة على هيئة زهرة الارطنسيا، وغلالة الوجه، والشمسية والغليون! ما من قصص ولا فضائح! كانت تنتظر الخصوم... وحينما يصلون، يصطدمون بوجودها، كان هذا يحدث فيهم صدمة مع ذلك...

ـ اجلسوا! كانت تقول لهم.. أنا السيدة دي بيريري!.. أنا مطلعة على كل قصصكم! لا ضرورة لأن ترووها لي! تكلموا إذن! إنني مصغية إليكم! ولكن باختصار! ليس لدي ثانية واحدة أضيعها! إنهم ينتظرونني في المتجر من أجل قياس الثياب.

كان هذا هو تكتيكها.. وكان يسقط في أيديهم جميعاً.. كانت تتحدث، ملؤها الثقة! بصوت قوي! مبحوح بالتأكيد، ولكنه أجش، لم يكن من السهل كبحه والتغلب عليه... كانوا يفكرون لحظة... متسمرين هكذا أمام الجدة... ثم ما تلبث أن ترفع الغلالة عن وجهها قليلاً... فيلمحون الشاربين، وسائر الدهون والمساحيق، وعيوناً كعيون الجواري المحظيات.. وتقطب حاجبيها.. «إذن، هذا كل شيء؟...» كانت تسألهم.. وكانوا ينسلون وقد عقل الخوف لسانهم... متقهقرين غالباً... ويتلاشون بتهذيب!... «سأعود يا سيدتي.. سأعود!...».

ها هي ذي بعد ظهيرة أحد الأيام تعقد، على هذا النحو، إحدى جلساتها... كانت قد انتهت للتو من صنع فاكهتها المطبوخة بالسكر... كان الوقت حوالي الساعة الرابعة.. كان ذلك ريجيمها المفضل، وقد وضعت الطبق على أحد أركان الطاولة... يمكنني أن أتذكر ذلك اليوم بالضبط، كان يوم الخميس... اليوم المشؤوم لصاحب المطبعة... كان الجو قائظاً جداً... وقد أشرفت الجلسة على نهايتها... كانت السيدة قد صرفت للتو عصابة من العجول المشوية... من خراتيت المسابقة، ودائماً، ممغوصين مغصاً شديداً... من اللجوجين... والمماحكين... والمغمغمين، والتافهين كلياً... حين أقبل علينا خوري... لم يكن ذلك خليقاً أن يدهشنا... كنا نعرف بعضاً من أمثاله... مساهمين مخلصين جداً، ومراسلين رائعين للغاية...

«اجلس سيدي الخوري...» استقبلته بتهذيب فائق على الفور! فاتخذ لنفسه المقعد الكبير... كنت أنظر إليه بانتباه! لم أكن قد رأيت قط هذا الشخص من قبل.. لا ريب أنه كان جديداً. بدا، على هذا النحو، ومنذ الوهلة الأولى، على جانب من الرصانة والحكمة، واللباقة أيضاً، يمكن قول ذلك... كان هادئاً للغاية، بالغ التأدب والتهذيب... يجرجر معه شمسية... على الرغم من الطقس الجميل الصاحي... نهض ليركنها في إحدى الزوايا... ثم عاد.. وسعل سعالاً خفيفاً... كان سميناً ممتلئاً بالأحرى... لا يبدو عليه الارتباك والتردد على الإطلاق.. كنا معتادين على الأشخاص الغريبي الأطوار.. كان جميع الأشخاص المشتركين في صحيفتنا، تقريباً يظهرون عرة في وجوههم... أو تكشيرة... أما هذا الخوري فكان يبدو في غاية الهدوء والاتزان.. ولكن ها هو ذا يفتح فمه.. ويبدأ بالكلام... وأدركت، حينئذ، من الوهلة الأولى بأنه كان يهذي ويهرف بحماقات!... لقد جاء إلينا مباشرة، هو أيضاً، كي يحدثنا عن المسابقة... كان يقرأ «الجينترون»، يشتري أعدادها منذ سنوات.. «سافرت كثيراً! كثيراً!...» كان يعبر عن أفكاره على نحو متقطع.. فكان علينا أن نلتقط، على الطائر، باقات من الجمل المشربكة، والمزينة بعقد وشرائط وثنيات.. نتفاً مبعثرة ما عاد ينتهي من نثرها كيفما اتفق له ذلك.. فهمنا أخيراً، مع ذلك، بأنه لم يكن يحب مسابقتنا «المنطاد الخالد»!... ولا يريد قط أن يذكرها أحد أمامه! آه! لا! واحمرَّ من فرط الغضب!.. كان ثمة شيء آخر يدور في رأسه... كان يقلقه أشد القلق!... لم يكن ثمة مفر من أن نسير معه حيث يسير! كنا أمام أمرين إثنين: إما أن نقبل أو نرفض ما يقوله!... أو نعارضه إذن! وقد أخطرنا هو على الفور! بأن علينا أن نفكر في النتائج! وأن نتخلى كلياً عن فكرة «المنطاد الخالد» بأي ثمن!... لأنها تفتقر إلى الجدية! كلام

فارغ!... أما فكرته التي كانت تـدور في رأسـه فكانـت شـيئاً آخـر!... وقد انتهينا أخيراً إلى معرفتها... مثلما يهتدي المرء إلى إبرة وسط شـلة من الخيوط، بين ألف من الاستطرادات، وعشرة آلاف من المواربات والتعميمات! ما كان يشغل سيفونه (رأسه الذي يـشبه الـسيفون).. هـو الكنوز تحت المائية! يا لها من فكرة نبيلة! الإنقـاذ المنـهجي لكـل مـا تبقـى مـن جميـع سـفن «الأرمـادا» الـشراعية، الـضائعة في لجـج المحيطات منذ أقدم العصور.. كل ما كان يشع... كل ما كـان يـتلألأ.. كل ما كان يجثم في قاع البحار! تلكم كانت فكرته الاسـتحواذية! كـل مشروعه!... ومن أجل ذلك قدم إلينا ليحدثنا عنـها!... كـان يريـد أن نهتم كل الاهتمام بـذلك.... أن لا نـضيع دقيقـة واحـدة!... أن نـنظم مسابقة، مباراة عالمية... مـن أجـل ابتكـار الوسـيلة الفـضلى! الأكثـر أماناً! والأشد نجاعة وفاعلية! لانتـشال كـل تلـك الكنـوز... وعـرض علينا بعد ذلك كل موارده، وثروته الشخصية، عازمـاً علـى المجازفـة بكل شيء... كضمانة عظيمـة لتغطيـة نفقـات الانطـلاق بالمـشروع... اتخذنا أنا والسيدة موقف الـتحفظ والحـذر، بالـضرورة... ولكنـه مـا انفك يلح... كانت الوسيلة الآليـة الـتي يرتئيهـا هـو، ذلـك الخـوري الغريب الأطوار جهازاً للغوص يهـبط إلى الأعمـاق الـسحيقة... علـى نحــو 1800م، علــى ســبيل المثــال، يمكنــه الزحــف داخــل التجاويف...وتحديد مكان الكنوز.. وفتح المغاليق بـالكلاب... وفـك الأقفال... وشفط الصناديق المعدنية، عبر آلية «امتـصاص خـاص»... كـان يـرى كـل ذلـك سـهلاً! أمـا نحـن، فكـان علينـا أن نجتـذب المتنافسين، عبر صحيفتنا.. مـن هـذه الناحيـة كنـا نحـن بـارعين كـل البراعة! لم نكن نخشى في ذلك لومة لائم! كان الخوري نافد الـصبر، يرتعش ملهوفاً كي ننتقل فوراً إلى التجارب والاختبـارات!... مـا كـان يتوقع حتى أن ندلي بأي اعتراض، أو حتى بـأي ظـل مـن الـشك!...

بلاففف! على هذا النحو، ألقى بصرة نقوده فوق الطاولة... كان فيها ستة آلاف فرنك!... لم يكن لديه الوقت لينظر إليها!... فقد دخلت في جيبي تواً... وأطلقت الأم كورتيال صفرة إثر ذلك!... أردت أن أدق الحديد وهو محمى!... ما عاد بوسعي الانتظار.

ـ سيدي الخوري، إبق هنا، أرجوك! لحظة! ريثما أجد المدير العام... سأعود به إليك حالا.

وثبت إلى القبو... وطفقت أعوي في إثر العجوز... سمعته يشخر! اندفعت مباشرة إلى ملجئه الحصين... وهززته بقوة.. فأطلق صرخة! كان يظن بأنهم جاؤوا لاعتقاله.. كان غارقاً وسط عصيره المتصبب..يرتعد فرقا داخل أسماله...

ـ هيا! قلت له.. اصعد إلى فوق! ليس هذا وقت الإغماء.

عند النافذة الصغيرة، وعلى خيوط أشعة النهار أريته الفلوس... لم تكن لحظة أضيعها بالصوت! تباً! وبكلمتين اثنتين حررته من سباته... نظر ثانية إلى نقودي.. بصفاء هذه المرة.. استعاد حيويته سريعاً! وحمحم! ثم شم النقود.. نظفت ثيابه على عجل! ونزعت عنه القش الذي علق به في كل مكان.. مسح شاربيه بسرعة، وهندم نفسه.. وها هو ذا الآن مستعد! صعد أخيراً إلى النور.. وقدم نفسه على نحو مثالي آسر... كانت خطته جاهزة بحذافيرها، في ذهنه... ثم أنشأ يهذر... بصوت عالي الرنين!.. فبهرنا جميعاً دفعة واحدة... تحدث بإسهاب في موضوع الغواصين! وتاريخ جميع نظم الغوص من لويس الثالث عشر وحتى أيامنا! ذكر التواريخ! والأماكن! وأسماء الرواد والشهداء!... والمصادر البيبليوغرافية... وأبحاث معهد الفنون والمهن!... كل ذلك على نحو خلاب إلى أبعد حد... كان الخوري يتجشأ وهو يستمع إليه... وينط عن كرسيه وقد استطاره الفرح والاستمتاع... كان ذلك

بوجه الضبط كل ما يتمناه!.. حينئذ، وعلى هذا النحو، وبعد أن غشيته غاشية الثمل والذهول تكفل لنا، من دون أن نطلب منه شيئاً!... بأن يدفع لنا، إضافة إلى ما دفعه سابقاً مئتي قطعة من فئة العشرة فرنكات... وكل ما يلزم، على الفور، لتغطية نفقات المسابقة! لم يكن يريد أن نقتر على الدراسات التمهيدية!... أو على بناء التصاميم... ما من مماحكة صدرت من قبلنا، ما من ابتزاز!.. وافقنا على كل شيء... وقعنا بالأحرف الأولى... أبرمنا الاتفاق!.. حينئذ، وقد غدا صديقاً أثيراً، أخرج من جبته خريطة تحت مائية هائلة الأبعاد.. كي نتأكد جيداً وعلى الفور من موقع سائر الكنوز!... أين طويت تلك الثروات الهائلة.... منذ عشرين قرناً أو يزيد...

أقفلنا باب الحانوت... ونشرنا الرق بين كرسيينا والطاولة... كان عملاً مذهلاً «خارطة الكنوز» تلك.. تبعث على الدوار فعلاً... لمجرد إلقاء نظرة عليها، لا سيما إذا قدرنا اللحظة التي ظهر فيها مهرج المسيح ذاك!... لحظة العسر الشديد الذي كنا غارقين فيه! لم يخدعنا الخوري!... كان صحيحاً تماماً كل ما جاء في خارطته حول جميع الثروات التي ابتلعها اليم... لا يمكن نكران ذلك! فقرب السواحل... وبحسب خطوط الطول... كان من الممكن أن نتخيل بأنه لو كان هناك جهاز غوص للنزول ليس أكثر من 600 متر، فإن هذا سيغدو نوغا حقيقية محشوة بالفستق! كنا مطمئنين كمعمدانيين... كنا نملك كل كنوز «الأرمادا»!... ما علينا إلا الانحناء قليلاً لنلتقطها... ذلك بالتحديد، ما قيل لثلاثة آلاف بحار من ليشبونة عند مصب نهر التاجو.. حيث كان يقبع ملجأ هائل... كان ذلك سهلاً، في الحقيقة، مشروعاً للمبتدئين!.. وإذا تسلحنا بقليل من الشجاعة، وزدنا في تطوير الميكانيك، فإن ذلك المشروع سيأخذ منحى آخر!... ويمكننا

الزعم حينئذ أن بمكنتنا أن ننتشل بسهولة كنوز «الأوزيمبوت» التي غرقت في الخليج الفارسي قبل الميلاد بألفي عام. مليار على الأقل من قطع الجمان الفريدة! والمجوهرات، والزمرد، التي لا نظير لبهائها وروعتها... والمكان الثمين الذي غرقت فيه موجود على خارطة الخوري، ومحدد بنحو صحيح تماماً.... لقد جرت عبر القرون مئة محاولة، وعشرات الاستبارات، وحدد موقعها.. دون أي خطأ محتمل!... وبغض النظر عن النفقات فإن ذلك لم يكن سوى مسألة الشفاط... مسألة التركيز الدقيق... ومع ذلك فإن الاحتمال ضعيف في انتشال كنوز تلك السفينة... لقد فكرنا نهاراً بكامله... وفكر كثيرون آخرون «مجهولون» بالتشريعات الفارسية، إذا ما كانت تسمح لنا بذلك..فكرنا بكنوز أخرى... تلك التي كانت تحت اليد تماماً، ويمكن الوصول إليها بالتأكيد... في قاع البحار الأشد وداعة وهدوءاً!... والخالية كلياً من أسماك القرش! ولكن كان ينبغي التفكير بالغواصين! الفرار! الفرار من التراجيديات الفاجعة...

قصارى القول، أن سائر أعماق الكرة الأرضية.. غاصة بصناديق حريزة لم تمسسها يد، بمراكب مترعة بالجواهر... قليلة هي المضائق، والجونات، والخلجان، والمراسي والمصبات المرسومة فوق الخارطة التي لا تحتوي على غنائم خرافية!...يمكن تعويمها ببساطة متناهية انطلاقاً من بضع مئات من الأمتار!... كل كنوز السفن الشراعية! والقوادس! والفرقاطات! والكارافيلات! مترعة بأحجار الياقوت والزبرجد.. شواطئ المكسيك، بوجه خاص تبدو مثالاً صارخاً في هذا المجال!... وللعلم، فإن المغامرين الإسبان كانوا قد طمروا هناك سبائكهم وأحجارهم الكريمة... فعلى عمق 1200 م ترقد حلى ماسية نفيسة وقد غدت نسياً منسياً.. وفي شواطئ الأرخبيل

آسور، كي لا نذكر غيره، غرقت سفينة الشحن «بلاك سترانجر»، وعلى متنها أكثر من مليار قطعة ماسية من مناجم جنوب أفريقيا.. وهي تجثم في قاع صخري على عمق 1382 م.

كان خورينا يعرف مواقع أخرى.. تشكيلة مذهلة.. جميع حطام السفن التي يمكن انتشال ما فيها بسهولة.. عدة مئات... وقد وضع على الخارطة علامات تظهر المواقع الأكثر استعجالية التي ينبغي البدء بها، محددة بالمليمتر، علّمها بالأسود والأخضر والأحمر بحسب أهمية الكنز... مع صليب صغير فوقها.

لم يكن كل ذلك سوى مسألة تكنيك! مهارة! طريقة مناسبة!. كان علينا نحن أن نظهر مواهبنا!.. ولم يتأخر ذلك!... أمسك دي بيريري،على هذا النحو، وفي غمرة حمّاه، كي لا يترك أي شيء يبرد.. أمسك ريشته، وماعون ورقه، ومسطرته، وممحاته، ونشافته، وحرر أمامنا بصوت مرتفع، إعلاناً حقيقياً! كان الإعلان مؤثراً!... مخلصاً!... وفي الوقت نفسه بالغ التفاصيل، ونزيهاً!.. إليكم كيف كان يعمل!... حدد المشكلة بحرفيتها، على نحو ممتاز!... بأقل من خمس دقائق! بصدد الإلهام! لم يكن ينقصه ذلك!... «ينبغي عدم تأجيل الأمور إلى الغد!... ينبغي أن يصدر هذا الإعلان على الفور... سيكون هذا العدد من صحيفتنا عدداً خاصاً!...» هكذا شرع ينظم الأمور.. كان الخوري سعيداً! متهللاً... لم يعد لديه ما يقوله على الإطلاق...

قفزت قفزة واحدة إلى شارع رامبوتو.. حاملاً كل النقود في جيبي... تركت خمسين فرنكاً فقط للظريفة الضخمة.. تباً! كنت قد أرهقت نفسي كثيراً من الرهق!... سأضع هذه النقود في الصندوق، ولن أراها ثانية بالتأكيد! كان العجوز حرداً مقطباً!.... فهو مدين بسلف لناجير.. كان قد راهن قبيل أيام!... كان هذا أقوى منه... ولكن

الوضع غدا أفضل بعد أن صرت أمين صندوقه!... كان ذلك أقل مجازفة إلى حد بعيد!... كنا لا ننفق إلا قليلاً قليلاً... ولا شيء على الإطلاق على «الغانيات»... آه! كنت متأكداً من ذلك!... كنت أنا من سيسدد قوائم الحساب.. تابونييه أولاً، صاحب الامتياز الأول! «عددنا الخاص»! كاد يفارق الحياة ذلك الطابع... حينما وقعت عيناه على نقودي، لم يكن يصدق عينيه... دقق النظر إليها مع ذلك!... بنوع من الاستشفاف... كان ثملاً تماماً! بالنقود السائلة! ما عاد يعرف بماذا يجيبني!... سددته ستمئة فرنك عن الديون المستحقة، ومئتي فرنك أخرى من أجل «العدد» ومن أجل التزمير والتبويق للمسابقة الجديدة!... وحينذاك، شمر عن ساعد الجد... وسلمني نسخ العدد بعد يومين... مشحونة، محزومة، مضمغة، مختومة، وكل شيء!... فنقلتها إلى مركز البريد، على عربة يدوية برفقة كورتيال والسيدة.

قبل أن يخرج الخوري، طلبنا منه أن يدون لنا عنوانه واسمه، وشارعه، الخ... ولكنه رفض بإصرار!... كان يرغب في أن يظل غفلاً مجهولاً!... أثار حيرتنا!... كان ذلك غريباً مضحكاً! ولكنه أقل غرابة بكثير من آخرين عديدين... كان رجلاً بديناً، ذا طلعة حسنة للغاية. نظيفاً وحليقاً... في عمر كورتيال تقريباً... ولكنه كان أصلع كلياً... كان ينفجر متعتعاً متلجلجاً، في نوبات من الحماس، فلا يعود حينئذ يستقر على كرسيه، لفرط ما كان يتململ ويتهزهز!...وجدناه متفائلاً مستبشراً... غريب الأطوار بالتأكيد... ولكن ما برهن عليه في النهاية، هو أنه كان يملك مالاً لبداً!.. كان الشريك المؤتمن الحقيقي! بل الشريك الأول الذي رأيناه. كان هذا غريباً بعض الشيء..

لدى عودتنا، ثلاثتنا من مركز البريد، مررنا بوجه الضبط، مع عربتنا الرديئة من أمام مركز البوليس في شارع «البون أنفان»!.. قلت

للعجوزين: «توقفوا دقيقة!... أتحدى بأنني سأخبر ذلك المفوض بالأمر!... سأقول له بأن كل شيء على ما يرام!» فكرة خرائية خطرت لي بأن أذهب لأتباهى بالفلوس أمامهم.. بأن أقول لهم بأننا غارقون بالمال!... قفزت إذن، وفتحت بابهم... فتعرفوا علي في الحال:

ـ إذن يا زيغومار؟ سألني الشرطي الجالس على القمطر... ما الذي جاء بك إلى هنا؟ هل تريد القيام بنزهة في المركز؟!...

ـ لا، قلت له... لا، يا سيدي... جئت ببساطة، لأريكم، على الماشي، مبلغاً صغيراً من المال.. وأخرجت الأربعة آلاف فرنك، ولوحت بها أمام أعينهم... وهي ليست مسروقة!... جئت لأخبركم بأن هذاالمبلغ أيضاً من أجل مسابقة: «جهاز الغوص!»...

ـ غوص! غوص!.. أجابني... سترى حين أغوص بك!... أنت تسخر مني!... أيها اللقلاق المخاطي الصغير!

نزلت الدرج بسرعة شديدة... ما كنت راغباً بإثارة ضجة.. كان العجوزان في الشارع مستغرقين في الضحك!... دفعنا عربتنا... وحثثنا الخطى حتى شارع بوجوليه!...

***

لا ريب في أن مسابقة، على هذا النحو، لاستخراج الكنوز، كانت ستجتذب إلينا، بالضرورة حشداً غفيراً... حددنا حصتنا، كمنظمين للمسابقة بنسبة 16% من كل ما يصعد إلى السطح!... لم نكن مغالين كثيراً! ومع ذلك، فإن هذا كان يعود علينا، من «الأرمادا» وحدها، بعد الحساب الدقيق، بثلاثة ملايين فرنك... كان هذا معقولاً!...

لا بد لي من القول بأن الظريفة الضخمة لم تكن ترى الأمور باعثة على الاطمئنان... كانت تشتم قليلاً رائحة الخطر... غير أنها احتفظت

بمخاوفها، لم تكن تجرؤ على التراجع... كانت تلك معجزة في المحصلة!... لم تدع نفسها تنجرف بعيداً... كانت تنظر فحسب إلى النقود...

أما هو، العجوز كورتيال، فراح يتنعم بالمال، وينفقه بشتى الطرق... كان يرى بعين خياله كل المجوهرات المستعادة منثورة فوق الرمل، يرى الزمرد ملء يديه، واللآلئ أكوماً، والسبائك، وكل كنوز الأنكا، المنتشلة من السفن الشراعية الغارقة... «نحن نهابو الأعماق» كان يهتف عبر مكتبه... حاجلاً منطنطاً فوق الأوراق... ثم يجمد فجأة، وينقر بأصابعه على رأسه. «ولكن مهلاً! يا حلوتي! كل هذا ليس موزعاً توزيعاً جيداً!...» ثم يعود من جديد إلى حبره الأحمر، فوق أربعة أعمدة!... كان يغدو عنيفاً قاسياً حين يتعلق الأمر بالتوزيع!... مدققاً بنحو مريع!... كان يتوقع أسوأ الصعوبات.. لقد ولى زمان الهزل! كان يتخذ جميع احتياطاته. وقد حرر اتفاقاً إضافياً!.

ـ آه! أنا أعرف مقاصدك يا عزيزتي الضخمة، انت ما زلت تجهلينهم إذن!... أنت لا تعرفين ما هم قادرون على فعله؟... أنا الذي خبرتهم كل يوم، أعرف من الذي يشكل خطراً من بينهم... لقد رأيت مخترعين، وأنصاراً للعلم؟... وماذا إذن؟.. انا الذي قدتهم أربعين عاماً! وها انا الآن عالق بين نارين!... آه! تلكم هي المناسبة لقول ذلك!... آه! لا أريد أن أكون مستنفداً! محطماً! معسراً!... ففي اللحظة التي يزوبع فيها كل شيء!... في تلك اللحظة بالذات! آه! لا! آه! لا على الإطلاق! يميناً بالله!... يميناً برعود برست... الريشة في يد، يا فرديناند! هيا! والميزان في اليد الأخرى! وفوق ركبتي قربينتي (بندقية قديمة)! أجل! ذلك هو كورتيال!... ذلك هو تماماً!... عدل! احترام! حضور! رأيتهم يبتكرون، جميع مخترعي الخارقين! أقول

لكما كليكما... تحفاً وأعاجيب! أشياء مدهشة حقاً! على امتداد مسيرة عملي الطويلة! بقدر مما يمكنني قول ذلك! ودائماً من أجل لا شيء، من أجل المجد، من أجل ما هو أسوأ من لا شيء... العبقرية تتعفن حيث هي!... تلك هي الحقيقة بالضبط!... إنها لا تباع! ولكنها تُلتقط التقاطاً! إنها مجانية... أرخص ثمناً من عيدان الكبريت... ولكن إذا وصلت إليها بتهذيب! وقلبك على لسانك! وبذلت كل ما تملك من رقة وملاطفة! آه! ولكن نعم! إذا صدقت يا صديقتي تلك النغمات الحلوة! فشجعت الباحث! وضمدت جراح الشهيد... إذا أقبلت ببراءة خالصة... وساعدت الشهيد على التقدم عشرين متراً! فذلك هو العار والشنار! كل شيء يتبدل!... كل شيء ينقلب! كل شيء ينهار! وفي لمح البرق! تنشق أبواب الجحيم!... ويتحول الملهم إلى ثعلب! إلى مصاص دم! إلى علقة! إنه التنافس! تنافس الكلاب على الحصص! المجزرة! الاحتيال الوحشي! فمن أجل أن يسلبوا منك النقود بنحو أفضل، ينتزعون أمعاءك في اللحظة نفسها!... يصلبونك! يحولونك إلى بخار! فلا يبقى منك شيء! لا تبقى روح للمقاومة! إنه الذهب، يا صديقي! إنه الذهب! حذار!... جميل جداً! جميل جداً! يا رفيقي! أن نذهب لنقلب قاع اليم؟ ولكن من أجل مئة فرنك، فإن حمير الوحش هؤلاء! أنا أعرفهم! سينسفون الكرة الأرضية!... آه! نعم! على هذا النحو! أنا لست مبالغاً! إنني في وضع يمكنني من تقدير الأمور!... إلى أوراقنا! إلى أوراقنا! يا فرديناند! حذار من التراخي! أوراقنا لا يطالها اللوم! مصدقة! موقعة بالحروف الأولى! أودعتها قبل الظهر لدى كاتب العدل فان كروك، شارع بلان ـ مانتو! دراسة ممتازة! بثلاثة نسخ! حصتنا أولاً! مصرح عنها بحروف كبيرة! ما من اعتراض ممكن! ما من مطعن فيها!

أو تمحك فارغ! آه! لا! أبداً! آه! يا خوري العناية الإلهية! سيكون في حوزتك عما قريب ما تغوص به! آه! لم يستطع أن يدرك... ذلك الساذج المسكين! أجهزة غطس!... ولكنهم سيجلبون إلى هنا في أقل من شهر ثلاثة أجهزة أو أربعة على الأقل في اليوم الواحد! ماذا أقول!... دزينة تقريباً! ومستوفية شروطنا!... 600م؟ 1200م؟ 1800م؟ أنا على يقين من ذلك! لا أريد أن أنبس بكلمة... لا أريد أن انطق بشيء...أريد أن أظل على الحياد!.. لا أريد ان أظهر بمظهر المخدوع!... سأنتظر اليوم الذي تجري فيه الاختبارات، ليكن!.... ولكنني كنت حررت، مع ذلك، إذا ما أسعفتني ذاكرتي، عدة مقالات معمقة جداً حول الموضوع ذاته... آه! هيا! يمكنني أن أتذكر تواريخها بالتحديد... لم نكن بعد متزوجين... كان ذلك حوالي عام 1884 أو 1886... قبل مؤتمر أمستردام بالضبط... في معرض الغواصات... سأتمكن ربما من العثور عليها... إنها في المخزن بالتأكيد.. كنت قد شرحت فيها بتوسع كل هذا.. كانت قد نشرت في «الملحق»! أتذكر ذلك! بعنوان «العالم مقلوباً»... إنني أرى ذلك الجهاز!... أراه من هنا!... إنه مدعم جيداً بالطبع.. بمحازق ثلاثية... وجدار مزدوج!.... وحديد ممغنط في قمة الجهاز!... ووسائد ملولبة بالميليم، حول محيط الصوابير... هو ذا.. الدسر من الأريديوم ـ برونز... الخارق في مقاومة العوارض البحرية!... ما من آثار للتأكسد بمرور السنوات داخل الماء... مشبع بكلوريد الصوديوم!... الإضاءة إشعاعية الانتشار، مع كشاف للنور من نوع فالادون!... في مقدمة الجهاز وفي نهايته!... آه! مهلاً!... أما بخصوص ملقطه.. فهو دائري كبير، قادر على الالتقاط بسهولة... وربما كان أكثر دقة!... أما السطح الخارجي فهو من عيار «22 ـ 25»... وهذا عيار ممتاز... الدسامات ذات قلب

ارتجاعي، لمزيد من الأمان أيضاً!... أما سلسلة الإطلاق فهي تتحرك بسهولة، قطر الحلقة ثلاثة سنتمترات، وبمزيد من المتانة، حتى يكون الغواص مطمئناً كلياً؟ آه! بالنسبة إلى نافذة الرؤية؟ آه! سيساورهم الشك!.. لو كنت مكانهم لما ترددت في اختيار مخدات أرسونال الشهيرة... لم تكن سيئة في الغواصات.؟. تتحمل ضغط المياه على أعماق سحيقة؟.. إنها ورقة من حرير يا صديقي يخيل إليك أن الأسماك تمر عبرها.. أخيراً، لن آتي على ذكر مقالتي! آه! لا!.. آه! بل نعم سأستشهد بها!!.. بالتمام والكمال.. هذا هو واجبي في نهاية المطاف.. أليس كذلك يا عزيزتي إيرين؟ أليس هذا هو رأيك؟ وأنت أيضاً يا فرديناند؟ هل ترى بأن علي أن أبدي رأيي؟... إنها لحظة حرجة في نهاية المطاف! لقد حانت اللحظة الآن أو أنها لن تحين أبداً!.. إنني هنا! وأنا من يقود! ينبغي علي أن أدلي بأفكاري! ليس بعد عشر سنوات! بل اليوم! إنها تملك بعض القيمة!.. ولكن هل تكفي الجمل والعبارات!... جميل جداً أن ننصح ونشير، أن نلعب دور الشيوخ الخرفين، والأكاديميات، والرؤوس الكبيرة!... ولكن هذا ليس كافياً!...لا! لقد دفعت دوماً من ذاتي ومن شخصيتي!... هنا!... وهناك!... وفي مكان آخر!... وفي كل مكان!... إيرين تشهد على ذلك!... لم أتجنب قط أي خطر! إطلاقاً!... وبكل شرف؟...داخل ركامهم الرخيص التافه!... ولكنني سأغوص في الماء أنا نفسي!.. لن يستطيعوا منعي من ذلك!... هذا هو دوري بوجه الضبط!... وهو يخصني أنا! من دون شك!.. هذا مؤكد!... هذا ضروري، سأقول لهم.. سأكون أنا، رعايتي، سلطاني، مراقبهم الوحيد! ما من خطأ في هذا الموضوع!.

ـ آه! قفزت العجوز حينئذ، كما لو أن أحداً عضها من إليتيها... آه! هذا لا إذن.. آه! لا بالتأكيد!... سأذهب بالأحرى وأقطع الحبل! كما تراني أمامك!.. هذا طفاح الكأس حقاً! أنت لم تسمعني في يوم من الأيام! لن أدعك تنزل أبداً! ألم تكتف من تمثيل دور الغبي؟ أنت لست سمكة مع ذلك؟... دعهم إذن يغوصون، أولئك المهابيل! ذلك شأنهم هم!... وليس شأنك أنت!... ولكن لا على الإطلاق!...

ـ مهابيل! مهابيل! ما عاد لديك ذرة من المنطق! حبة خردل من العقل!... ألم تزعجيني بما يكفي، كي أصعد إلى الفضاء؟ نعم أم خراء؟ ألم تكوني أنت راغبة بالصعود في المنطاد؟ وغضبت غضباً جهنمياً! واعتراك الجنون ببساطة حينذاك! «الزيلي! الزيلي!» ما كان بمقدورك أن تقولي شيئاً آخر.. وأنا لست عصفوراً!...

ـ عصفور! عصفور! أنت تشتمني! ما تزال تبحث عن خصام!... حسن! أرى جيداً ما الذي تبتغيه، أيها العاثر القذر!... أنت تدري، أعرف ذلك! تريد أن تتملص! تريد أن تذهب في نزهة!...

ـ وأين ذلك! في قاع البحار؟.

ـ قاع البحار!.. قاع البحار!... لا أدري...

ـ آه! دعيني! دعيني، يا إيرين! كيف تريدين مني أن أفكر؟ أنت تحرصين على تشويه كل شيء! باندفاعاتك الحمقاء!.. بكل هيجاناتك الغريبة!... دعيني أفكر بهدوء!... الساعة، كما تبدو لي، حرجة للغاية!... فرديناند! انتبه أنت للمخزن! لا أحد يكلمني بعد الآن، على الأخص!..

كان يلقي أوامر قاطعة.. استعاد لهجته.. ولونه... بل ووقاحته... كان يصفر لحنه الطروب «سول ميو»، لحن أيامه الرغيدة الماضية...

ـ نعم! من الأفضل أيضاً أن أخرج! سأتنفس قليلاً... بقي معك مئة فرنك، قل أيها الصغير؟ سأمر لتسديد فاتورة الهاتف... هذا ينشطني!... لقد حان الوقت كي يعيدوا تركيبه لنا.. ألا توافقني؟.. نحن بحاجة ماسة إليه!...

لبث على هذا النحو واقفاً على عتبة الباب... لم يكن قد اتخذ قراره بعد.. كان ينظر صوب الغاليري.... ثم انسل إلى اليسار، لقد ذهب بالأحرى صوب «الإيموت»... ولو أنه انسل إلى اليمين، لكان بالأحرى ذاهباً إلى ماخور «الفاز»، إلى سوطه الذي يلهب ظهره ومؤخرته... فما إن تتحسن الشروط أدنى تحسن، حتى لا يعود يفكر إلا بالسفالات.

***

من غير الممكن قول العكس، كان ذلك سيلاً معربداً حقيقياً، من أجل الحصول على عدد للصحيفة... كان الاجتياح متواصلاً! اكتسحوا المخزن كالإعصار... وحتى بعد الساعة التاسعة مساء، كان يصل أيضاً مشتركون يطالبون بملحقهم... كان النهار بطوله أشبه بالمعرض!... ناءت أرض المخزن تحت ثقل الفضوليين، واهترأت عتبة الباب من شدة وطئهم!... كان دي بيريري يخطب بهم!... واقفاً، على هذا النحو، خلف طاولة البيع... كان يوزع أعداد الصحيفة بكلتا يديه... أما أنا فكنت أدب على الطرقات...ألاحق المطبعة بإلحاح.. أقبل وأدبر مرات ومرات!.. حاملاً «الكلاّب» الصغير. فالعربة اليدوية كانت أكبر من أن تمر عبر ضاحية مونتماتر... كنت أعود، كيفما اتفق، بكل الأعداد الخارجة من المطبعة.

كانت الظريفة الضخمة تقوم بربط الرزم، من أجل إرسالها إلى المقاطعة.... كان ذلك ضرورياً أيضاً!... ودار الحديث في كل مكان

وعلى كلٍ الألسن عن مسابقة «جهاز الغوص في الأعماق»... لقد غدا هذا حدثاً مجلجلاً!...

كان الخال إدوارد قد بلغته بالتأكيد أصداء ذلك! فعرج على الغاليري.. دخل من الباب الصغير... مسرورا مستبشراً لأن صحيفتنا استعادت عافيتها!... لم يكن مطمئناً... وقد رآني أيضاً في وقت متأخر... منشغلاً في عمل آخر!... وهكذا فقد صلحت أحوالنا، واستعدنا مكانتنا!... وهبت رياحنا كما نشتهيها! كان من الصعب تصديق ذلك النجاح!...

الحلم بالكنوز، حلم سحري! ما من حلم يمكن أن يضاهيه!... في المساء أيضاً وبعد جولاتي، حينما أعود من المطبعة، كنت أستأنف إعداد الطرود، وأظل هكذا قائماً قاعداً حتى الساعة الحادية عشرة ليلاً، فتنبهني لافيوليت..

ـ أنت تنهك نفسك! أنت مغفل! لن يعترف أحد بجميلك!... إذا ما قتلت نفسك... من ذا الذي سيبالي بك؟... ليس أبوك بالتأكيد!... قدم لي إذن قدحاً من شراب النعناع، يا صديقي الصغير.. سأغنيك أغنية «فتاة مستغانم»...سترى بعد ذلك كم ستحبني!...

ثم ما تلبث أن ترفع تنورتها من أمام ومن خلف... ولما كانت لا ترتدي سراويل، فقد رأت عيناي حقاً رقصة هز البطن.. كانت تتمايل وتتثنى، على هذا النحو، متجردة وسط الغاليري.. كانت الغواني الأخريات يقبلن، يتبع كلاً منهن دائماً ثلاثة أو أربعة ثقلاء تقريباً، متلصصين مفلسين... «هيا انصرفي يا فيليس، لا تبولي «على المايل». كان ترجرج أكفالها، وتهز عودها اللدن!... بينما كانت الأخريات يصفقن بأكفهن. كان الرقص التونسي هياجاً حقيقياً... كان يجتذب دائماً فضوليين كثيرين. بعد أن انتهت من رقصتها قدمت لها شراب النعناع... وانتهينا جميعاً إلى حانة «الإيموت».

كانت لا فيوليت تقبع في ركنها قرب الميزان خلف أضخم الأعمدة. لم تكن تستغرق أكثر من دقيقتين كي تأتي على شرابها. وحين كانت تتجرع خمراً حقيقياً تمضي مترنحة صوب فندق «البليكان» على بعد خطوتين.. على مقربة من اللوفر. أجرة الغرفة أربعين فلساً... كانت تحب خمر البيرنو من دون كسر بالثلج... وكانت رفيقاتها يغنين لها:

أقبل الشرق الساحر...

جلس تحت خبائي...

كاشفاً عن فرجه....

وعيناه على أسفل بطني...

لم يكن ذلك يلائمني كثيراً... كانت تلزق بكرسيها.. ولا تتوقف عن الهذر والمزاح... لم يكن لدي سوى وسيلة وحيدة، إذا ما أردت إخراجها.

- هيا!... كنت أقول لها... هيا، أيتها الصبية! كي تساعديني في خياطة أزراري.

- انتظر حتى أرتشف أيضاً كوباً آخر!... انتظرني يا عندليبي الصغير... ينبغي أن أسهر قليلاً...

لم أكن استطيع الوثوق بكلامها!... كانت تبحث على الفور عن مهرب آخر، ثم تنفس قواها تواً، وباستثناء حجة خياطة أزراري التي كانت مهووسة بها، ما كان بوسعي إخراجها... كانت تلك وسيلة سحرية.

* * *

لم يكد يمضي أسبوع واحد حتى بدأت الحلول والتصاميم تتدفق علينا.. بمعدل مئة في اليوم تقريباً. "كل حسب ما يهوى"، كما كان محدداً في الشروط... لم يكن باحثونا يتوقفون أمام الحوادث المحتملة... أجازوا لأنفسهم كل شيء تقريباً!... كانت الرسوم والبيانات بجملتها فاسدة كلياً، تنقصها الدقة... كان باحثونا الرائعون قد انطلقوا إلى العمل.

كان ثمة شطط بالأحرى في اقتراحاتهم حول الأمور الباليستية (القذفية)! رغم أنه كان هناك بعض الجوانب الصحيحة في التفاصيل... وبوجه عام، فإنهم حين استخدموا أوراقاً صغيرة، بحجم خمارة، كانوا يقصدون، بالتأكيد، إلى أن نبجّل رسومهم التخطيطية لجهاز غريب مدهش أكبر من دار الأوبرا... وبأبعاد مفرطة، 18 أوكتافيو، وكان هذا يعني بالتأكيد مجسات صغيرة بطول عشرين سنتمتراً.

لم يكن داخل هذه السربندة (رقصة قديمة) من الأفكار الهوسية ما يغني وما يسمن!... كل تلك النظم، والاستيهامات، والحيل المصممة من أجل الذهاب للبحث عن كنوزنا.. كان بعض صناديق الغوص المقترحة بحجم فيل! وبعضها كان على هيئة فرس بالأحرى... وأغلبها... كما كنا نتوقع على شكل أسماك... واتخذ بعضها الآخر أشكالاً إنسانية... أشخاصاً حقيقيين، ووجوهاً... كان أحدها، مثلما نوّه المخترع، صاحب التصميم، شبيهاً بالإنسان شبهاً كاملا... بعينين تتوهجان على عمق 800م... وبدوران وحيد المركز... لاجتذاب جميع الحيوانات المائية... وأعماق البحر السحيقة...

وفي كل بريد، فوق طاولتنا لم تتوقف الحلول المدهشة عن التدفق، والإبهار، والرقص... لم نعد ننتظر سوى خورينا.. كان قد

وعدنا بالعودة في الخميس الأخير من الشهر!... كان هذا موعداً ثابتاً مقرراً، بالطبع. كنا صامدين أيما صمود.. منتظرين أن يجلب لنا عشرة آلاف فرنك، وهي السلفة على نصيبنا في المشروع!... كان ذلك يتيح لنا تصفية بعض الديون الأشد إلحاحية في الحي، واستعادة هاتفنا المقطوع منذ أمد! وإدخال صور فوتوغرافية جميلة في عدد خاص من الصحيفة!... مخصص بكامله لجهاز الغوص!... كانت الصحف الكبيرة قد تحدثت عنا كثيراً بشأن إنقاذ الغواصات، وليس فقط من أجل صيد الكنوز الباهظة التي ابتلعها اليم... كان ذلك بالضبط في السنة التي تلت كارثة غرق الغواصة «فرفاديت».. كان الانفعال والتأثر ما يزال حاراً... وهكذا فقد أتيح لنا، بالتأكيد فرصة الحصول على العرفان الوطني!..

غير أن كل هذه الآفاق المبشرة لم تكن لتثير النشوة في عروق المرأة الظريفة الضخمة!... كانت بالأحرى متجهمة للغاية... راغبة في أن ترى الخوري قبل السير قدماً في المشروع... كانت تنتظر الخميس بنفاد صبر.. وتسألني عشر مرات في الساعة إذا لم أكن قد لمحته؟ في نهاية الغاليري؟... كما تسألني عن المعلم؟... ترى أين كان من الممكن أن يذهب أيضاً؟ من المؤكد أنه يلهو في مكان ما؟.. لم يكن في كهفه ؟... لا؟... ذهب منذ الصباح.. جاؤوا في طلبه من كل مكان!... كان هذا يغدو مقلقاً.. قلت للعجوز: «انتظريني! سأذهب بسرعة نحو «الإيموت».. ولكني ما كدت أصل إلى عتبة الباب... حتى لمحت السيد يتسكع، مجتازاً أرض الحديقة بكل تمهل.. كان يسترق النظر بتشهٍ إلى النساء المرضعات... دون أن يبدي أي اهتمام.. كان الوغد يصوفر! حاملاً زجاجات ملء يديه.. قفزت.. نططت.. وإذا أنا أمامه...

ـ إيه حسناً! يا فرديناند! إيه حسناً! تبدو عصبياً جداً...هل دب الحريق في مكتبنا؟ هل ثمة شيء لا يسير على ما يرام؟ قد حدث؟.

ـ لا ! قلت... ليس هذا هو الأمر...!.

ـ إذن، سيحدث عما قريب!.. أجابني بكل هدوء... جلبت بعض زجاجات من البانيول (خمر)... ومن شراب الأنيسون! والبسكويت!... لا أدري ما الذي يحبه هذا الخوري!.. ترى ما الذي يشربه خوري؟... لا شيء البتة، آمل ذلك!.. كان يريد أن نحتفل بالمناسبة... أعتقد بصدق، يا فرديناند! بأننا نسير قدماً، منذ الآن، على طريق ملكي... آه! نعم! هذا واضح كل الوضوح! مرتسم في الأفق!.. آه! كنت أشاهد التصاميم في هذا الصباح!... دفعة أخرى أيضاً من هذه البضاعة الوافدة! سيل من الأفكار، يا صديقي!... ما إن ينتهي هذا الوابل الغزير حتى أقوم بفرزه وتصنيفه!... سأفرز على حدة، كل ما يمكن أن يتخذ شكلاً مرضياً... وما يمكن أن يكون منسياً من قبل باحثينا... ليس الخوري هو من يستطيع أن يقوم بذلك... أريد أن يعطيني كرتاً أبيض! ما من تجريبية!... وإنما معارف! لا بد من بحث هذا في فترة ما بعد الظهر!... ومن ثم، أنت تعلم، ليس هذا كل شيء! ما الضمانة؟ لا يمكنني أن أتعهد هكذا بالمجان! آه! سيكون هذا سهلاً للغاية! ولكنه لم يعد وارداً لدى واحد بعمري! آه! ولكن لا!... حساب البنك! أولاً! وقبل كل شيء! ومئتان من الأوراق المالية على طاولتي! تواقيع مرفقة بالعقد! توقيعه وتوقيعي! ثم نستدعي الصنّاع والبنائين!... ونلتزم بالعمل معاً!... يمكننا بعد ذلك أن نتحدث!... أعلم ما سيقال!... لم نعد، مع ذلك، صبياناً أبكاراً! كان ثمة ظل من الشك يحوم في رأسه...

ـ هل تعتقد بأن كل هذا سيعجبه؟...

ـ آه!.. قلت له... أنا مطمئن جداً.. متأكد من ذلك قطعاً.

على هذا النحو، وفيما نحن نثرثر، دنونا من مكتب الصحيفة... انتظرنا قليلاً أيضاً.. ما من خوري يلوح للأنظار! كان هذا يبدو مزعجاً للغاية مع ذلك!.. كانت السيدة دي بيريري مستثارة الأعصاب. تحاول عبثاً إعادة النظام إلى نصابه.

كان المكتب يبدو أسوأ من زريبة أبقار... قد ضربت الفوضى فيه أطنابها، في كل مكان، فمنذ ذلك الازدحام الصاخب غدا المكتب مزبلة هائلة!... يضيِّع فيها الخنزير أولاده... فراشاً للدواب طافحاً بالأقذار، مقززاً بالتأكيد.. من الأرضية الخشبية، وحتى الطابق الثاني.. أوراق مشققة، كتب ممزقة، كتيبات متعفنة، مخطوطات، مذكرات، كل ذلك غدا متمعجاً متموجاً... سحباً مدومة من الفتات... أسقط أولئك الغوغاء أيضاً جميع تماثيلنا الجميلة!... وقطعوا رأس فلاماريون! وألصقوا فوق هيبوقراط شاربين جميلين بنفسجيين من ورق النشاف.. وحطموا خلال صولتهم، بنحو لا يصدق ثلاثة كراسٍ، والطاولة، والأريكة الكبيرة، وطردوا عملاءنا... وهيؤوا ساحة واسعة لاستقبال الرجل القديس...

في الساعة الخامسة والنصف تماماً.. لاح طيفه من بعيد، متأخراً ثلاثين دقيقة فقط... هو ذا يجتاز غاليري أورليان، حاملاً محفظة سوداء مترعة.. دخل.. فحييناه... ووضع حمله الثقيل على الطاولة.. كل شيء يسير في ريح رخاء! جفف عرقه.. كان بلا ريب، مسرعاً جداً في سيره... فهو يلهث لهاثاً مسموعاً... بدأت المحادثة... كان كورتيال يقود الحوار ببراعة.. صعدت العجوز إلى حصن ألكازار... وأنزلت بضعة دوسيهات، أكثرها أهمية بالتأكيد!.. اختارت تشكيلة صغيرة ممتازة، في الحقيقة! ووضعتها كلها بالقرب من الحقيبة. فابتسم بلطف شديد... كان يبدو راضياً للغاية.. تصفحها، على هذا

النحو دون تركيز... كان يختار منها كيفما اتفق... لم يبد موطد العزم تماماً... كنا ننتظر، بلا حراك... فليتفضل وليستجمع أفكاره... لم نكن نتنفس إلا باحتراس بالغ...نبش بضع صفحات.. ثم غضن وجهه كلياً!.. اعترته عرة عصبية!... ثم تلتها أخرى أيضاً! رعدة قبيحة، في الحقيقة! ولكن، تلك هي النوبة!.. كما لو أن رجة عنيفة قد تملكته.. طرح من يده كل تلك الأوراق... قذف بكل شيء نحو الواجهة الزجاجية... أمسك رأسه بكلتا يديه.. وطفق يضغط بقوة.. يدلكه بشدة. وينبش فيه.. وما انفك يمرز ويعجن كل ذقنه، وخديه، اللحم، والتجاعيد، والأنف أيضاً، والأذنين... لقد ألم به اختلاج شيطاني!... دعك عينيه، وحرث فروة رأسه بأظافره... ثم ركع بحركة سريعة عنيفة... هبط إلى الأسفل هبوطاً مفاجئا، وإذا به طريح على الأرض... وقد غاص رأسه بين الأوراق... كان يشم الركام بأجمعه... ينخر ويدمدم، ويتنفس بقوة وعمق.. ثم ضم ملء باعه من ذلك الركام، و وواف!... قذف به كله في الهواء!.. حتى لامس السقف... وانهمرت تلك الأوراق كالمطر، الملفات، والمخططات، والمصنفات.. انتشرت في كل مكان... لم نعد نرى بعضنا.. كرر الخوري قذف الأوراق! مرة.. مرتين.. مصدراً دوماً صرخات حادة! صرخات مرحة متهللة! كان جذلاً مستبشراً! يلبط برجليه... ثم ينبش ثانية في الركام... وسرعان ما تجمهر الناس أمام بابنا... قلب كل ما في محفظته... أخرج منها صحفاً أخرى... لا شيء سوى مقتطفات من الصحف، ملء باعات..نثر كل ذلك أيضاً... رأيت بينها بوضوح أوراقاً نقدية.. ميزتها وسط الأوراق!... رأيتها تتطاير في الفضاء.. كنت على وشك أن أنقض عليها لالتقاطها.. أعرف كيف أفعل ذلك... غير أن نظري وقع في تلك اللحظة على رجلين شديدي البأس والقوة

اقتحما مكتبنا... دفعا الحشد بمنكبيهما.. أبعداه عن طريقهما.. شتتا الجمهور المحتشد، ودخلا.. وثبا على الخوري، فأوثقاه، وسحقا عظامه... ثم قلباه على بطنه، وثبتاه بالأرض... آه.. اختنقت أنفاس البائس الخرع! وجعل ينخر تحت الطاولة..«بوليس» قال لنا! شحطاه من رجليه... وجلسا فوقه. التعيس.

ـ هل تعرفونه منذ وقت طويل؟ سألنا الرجلان حينئذ...

كانا من مفتشي البوليس... الأشد شراسة وغلظة بينهم، أخرج أحدهما بطاقته... أجبنا بسرعة بان لا علاقة لنا به! قطعاً! كان الخوري يلبط برجليه دون توقف، ويتخبط، الجذمة التعيسة... ثم وجد وسيلة كي يستقر على ركبتيه... وأخذ يتباكى.. ويتوسل إليهما.. «العفو!... العفو!... كان يطلب منهما... كان هذا من أجل صغاري البائسين... من أجل عمياني.. من أجل طرشاني وخرساني...» كان يتضرع إليهما كي يتركاه يجمع التبرعات والصدقات...

«اخرس! لم يسألك أحد شيئاً!... استشاط ذلك المغفل القذر... لن تكف عن التصرف كوغد فاجر!..» وأهوى عليه الآخر بصفعة رنانة، كانت من شدتها، ووقع صداها أن الخوري أصدر صيحة: غاق!... ثم هوى على الأرض! وما عاد يتكلم!... وضعا القيد في معصميه على الفور... لبثا لحظة أيضاً... أخذا نفساً، ثم أنهضاه على ساقيه. لم يكن ذلك نهاية المطاف. كان على كورتيال أن يوقع لهما على محضر الضبط... شرح لنا أحد الشرطيين.. أقلهما فظاظة.. شرح لنا باختصار طبيعة الأب الفاسد... كان خورياً فعلاً، بل وكاهناً قانونياً فخرياً، السيد الكاهن فلوري!. هكذا كان يسمى... لم يكن ذلك أول احتيال له... ولا أول عجز عن الوفاء... كان قد حرر سندات لجميع أعضاء رعيته... وسحب منهم مئات الألوف من الفرنكات... من بنات

العم... والخالات... والعمات... ومن الأخوات الصغيرات في كنيسة سانت فينسان دوبول.. سرق الجميع، مديري أملاك الأبرشيات، والقواس وحتى مقششة الكراسي... كان مديناً لهم بمئتي ألف فرنك... وكل ذلك عبر تدليسات ماكرة لا سند لها ولا أساس... ومد الآن يده إلى صندوق القرابين... ضبط مرتين وهو يختلس الصندوق.. وضبطوه وهو يعالج بالمقص قفل صندوق «صدقات جان دارك»، إنه مجنون بالكنوز... لاحظوا عليه ذلك فيما بعد... نحن سنعتقله الآن.. فقد طالب مطرانه، مطران ليبورن بسجنه.

احرنجم حشد غفير تحت قناطرنا.. وراحوا يتمازحون ويتضاحكون دون أن يدعوا شيئاً يغيب عن ناظرهم من الحفلة الجميلة.. انطلقت التعليقات جامحة.. ولاكت الألسن حكاية ما كان يدور دون توقف... كانت أعينهم قد وقعت على النقود المنثورة على أرض الغرفة، ولكنني كنت أنا أيضاً أنظر بطرف عيني إليها بطمع... كان ذهني حاضراً في تلك اللحظات... أنقذت أربعمئة فرنك وقطعة من فئة الخمسين فرنكاً... كانوا يطلقون صيحات من مثل: !ه! آاه! أوه! أوهو! رأوني ألم النقود من أمام الواجهة الزجاجية!... كان الشرطيان يدفعان الخوري، خورينا، أمامهما في ركن الجمباز... أما هو فكان ما يزال يبدي مقاومة شديدة... فاضطرا إلى دفعه من الخلف كي يضعاه في العربة... فيما راح هو يتشبث بكل قواه... لم يكن قط راغباً بالذهاب.

«فقرائي! فقرائي البائسين!.» لم يكن يكف عن الجؤار، أوصلاه مع ذلك إلى العربة... بعد الكثير من الجهد.

جرّاه إلى داخل العربة... كان لابد من أن يسحباه سحباً، أن يحزماه بالحبل على المقعد... غير أنه لم يكن يستقر في مكانه... كان

يرسل لنا قبلات... لشد ما كان مشيناً ذلك التعذيب الذي أنزلاه به!...
ما عاد بإمكان العربة أن تقلع، فقد وقف الناس أمام الحصان... كانوا يريدون أن يلقوا نظرة إلى داخل صندوق العربة.. كانوا يريدون إخراج الكاهن... أخيراً، وبمساعدة شرطيين آخرين حرروا العربة... فانقلب حشد الغوغاء حينئذ إلى مخزننا... واحتشدوا أمامه.. لم يكونوا يفقهون شيئاً مما يجري وجعلوا يسخرون منا علانية...

أما الظريفة الضخمة، وبعد أن نالنا رشقات من الشتائم، وصار لونها بلون الخردل.. فلم تكن تريد سوى أن توقف هذه المهزلة على الفور.. لم تقل لا واحد ولا اثنين... وثبت إلى الباب الكبير... فتحته، ثم خرجت، وقدمت نفسها، ثم تصدت لهم...

- إيه حسناً؟ قالت لهم... ما شأنكم أنتم، أيتها العصابة من الصُيَّع! أيتها الحثالة من دهن الخنزير! هل أنتم سوى مخاطيين قذرين! اذهبوا وحكوا جلودكم! أيها البقل الأعجف! ترى، ما الذي يزعجكم؟.. أنتم لا تعرفون هذا الأحول؟ أي سلوك وقح... ولكن هذا لم ينجح مع ذلك.. فقد أوسعوها شتماً!... وزادوا من خوارهم، وملؤوا زجاجنا بالبصاق، ورشقوه بحصى غليظة... كنا موشكين على مجزرة... كان خليقاً أن نتخذ سريعاً موقف التعاظم... وندير لهم ظهورنا، دون أدنى تردد!...

* * *

بعد ذلك الحدث غير المتوقع، ما عدنا ندري أي وضع سنستقر عليه.. كيف سنصرف الآن أولئك الممسوسين الذين تقدموا إلى المسابقة؟ غدت مسابقة «جهاز الغوص في أعماق البحار» مصارعة ثيران وحشية، فضلاً عن مسابقة «المنطاد الخالد»... كان الوضع يتأزم

من الصباح وحتى المساء... وغالباً ما يصلون في الليل أيضاً ليوقظوني بزعيقهم، كان موكب من الطائشين الجاحظي العيون حتى حواجبهم يقفون أمام الباب، كاشفين عن صدورهم، منفوخين، واثقين ثقة مطلقة بتصاميمهم التي لا يأتيها الباطل... لم تكن مشاهدتهم مسلية أو مضحكة... وكان آخرون يتدفقون باستمرار!... يعرقلون المرور...زمر من الملتاثين في رقصة سربندة صاخبة!...

كانوا يتكدسون أكداساً، مطلقين عجيجاً هائلاً داخل المخزن، متعثرين بالكراسي، متشبثين بكثبان الدوسيهات، والأوراق، حتى لم يعد بالإمكان الوصول إلى أي شيء منها... عازمين على البقاء، وإقناعنا خلال دقيقة أخرى بتفاصيل جديدة، مستحدثة.

لو كنا ندين لهم باستحقاق ما، لو أنهم دفعوا لنا سلفة أو تأميناً أو اكتتاباً لأدركنا ربما، بأنهم غير مسرورين، ولا سعداء، وأنهم يعبرون عن غضبهم، وعن ثورتهم!... ولكن لم تكن تلك هي الحال على الإطلاق!... على النقيض تماماً! لم نكن مدينين لهم بأي شيء في الحقيقة! كان هذا أقوى سلاح في أيدينا! كان بوسعهم أن يقدروا هذا الوضع! بأننا لم نكن نقصد الربح! وأن المسألة في المحصلة كانت مسألة رياضة وشرف!.... بلا قيد أو شرط! وأننا كنا متخالصين بالتأكيد... آه! ولكن لا على الإطلاق! فقد تصرفوا بعكس ذلك! كان هيجانهم ابتغاء الاستمتاع بتكديرنا! كانوا يحقدون علينا أكثر بألف مرة، ويثبتون بأنهم قذرون أكثر بألف مرة! ومشاكسون! لأننا لم نستنزفهم سابقاً حتى العظم!... كانوا أبالسة حقيقيين! يزعق كل منهم كما لو كان مضارباً بالأسهم، للدفاع عن ترهاته!... ثم يزعقون جميعاً معاً!... وكان هذا يحدث صخباً مريعاً.

ما عاد أحد منهم يطيق الانتظار... كان علينا أن نبني لكل منهم تواً، ودون تأخير ثانية واحدة جهازه الغريب العجيب!... وأن ينطلق هذا الجهاز!... ويشتغل على الفور!... كانوا متعجلين على نحو مقرف، في الغوص جميعاً إلى أعماق اليم!... يريد كل منهم أن يستولي على كنزه!... كانوا راغبين جميعاً أن يكونوا الأوائل! لأن هذا كان ضمن شروطنا. ملوحين بورقتنا أمام عيوننا!... كنا نصيح بهم بأن كيلنا قد طفح وأننا ما عدنا نتحمل فظاظاتهم الدنيئة، واحتشادهم في مكتبنا!... وأن عملهم كله كان حشواً فارغاً... تسلق كورتيال خصيصاً درجه اللولبي كي يعلن لهم الحقيقة كلها... وصاح بملء صوته فوق رؤوس الحشد... اعتمر قبعته على نحو احتفالي... قدم لهم اعترافاً كاملاً، كنت غير بعيد عنه...! بأنه لم يعد هناك شريك برأس المال! وأن كل شيء قد انتهى... دفن تحت التراب.. ما عاد هناك بلايين ولا زبدة على الإست! بيّن لهم أيضاً بأن الشرطة اعتقلته.. اعتقلت ذاك الذي كنا نفكر فيه، الخوري... وأنه لن يخرج من السجن أبداً! وأنه مجنون. وأن المشروع قد ألقي به إلى الماء!... «إلى الماء! إلى الماء!» هتفوا بحماس، ودقوا أرجلهم بالأرض لدى سماعهم تلك الكلمات.. ثم عاودوا الهتاف جميعاً: «في الماء! كورتيال! في الماء! إلى الماء!...» كانوا يعودون دائماً أكثر عدداً، من ذي قبل، حاملين مخططات جديدة.. يفتحون أشداقهم على اتساعها إذا ما رغبنا في التفاوض معهم... لم يكن هذا ليصدق.. كان إيمانهم قد ترسخ في أعماقهم... كانوا مقتنعين جميعاً بأن المرء لا بد له أن يتألم في سبيل إيمانه! لأن الإيمان يقتلع الجبال، ويقلب البحار.. كان يتملكهم إيمان رهيب.. لا يهابون أحداً في سبيل إيمانهم! كانوا، فوق ذلك على قناعة بأننا كنا نرغب بالاحتفاظ بكل الثروة، حتى لا نتقاسمها معهم..

هكذا لبثوا متسمرين أمام الباب.. يراقبون المخارج والمداخل... جالسين على امتداد السور الشبكي... أو مضطجعين براحة...ما عادوا متعجلين أبداً.. كان لديهم اليقين الكامل بانتشال الكنوز... وكان يقينهم أقوى من الحديد.. ما عاد ثمة جدوى من الإلحاح.. كانوا ربما سيقتلوننا في مكاننا لدى أدنى محاولة للإنكار أو التنصل.. كانوا يغدون أكثر فأكثر وحشية وعدوانية... أما الأكثر سوقية بينهم، والأقوى عضلاً فكانوا يتجولون في مؤخرة المخزن.. يدخلون عبر غرفة الجمناز.. كانوا يشيرون إلينا بأن نلحق بهم... ثم يعرضون علينا، هكذا، بصوت هامس، تسوية فيما بيننا.. بمضاعفة حصتنا.. إلى أربعين بالمئة بدلاً من عشرة بالمئة، لجيبنا الخاص، على الغنيمة المنتشلة الأولى... شريطة أن نهتم بأمرهم على الفور، قبل جميع الآخرين.. كان يخيل إليهم بأننا طماعون جشعون!... ولا بأس عليهم بأن يرشونا... ويقدموا لنا الإغراءات!.

ما عاد كورتيال راغباً بأن تقع عينه على أحد منهم، أو أن يتحدث أو يستمع إليهم!... ما عاد يريد حتى الخروج.. كان خائفاً أن يشاهدوه... فضّل أن يتوارى داخل كهفه.

ـ أنت، قال لي.. أخرج من هنا.. سينتهون أخيراً إلى تدويخك بضربة فوق رأسك! اذهب واجلس هناك تحت الأشجار، في الجانب الآخر من الحوض... من الأفضل أن لا يروننا كلينا.. خليق أن ينهكوا أنفسهم ويستنزفوا قواهم!.. دعهم يصرخون ما وسعهم الصراخ... ذلك سباق ثيران لن يستمر أكثر من ثمانية، أو عشرة أيام.

كان مخطئاً في تقديره، فقد دام ذلك أكثر بكثير...

***

كنا قد أنقذنا، لحسن الحظ، مبلغاً صغيراً من النقود... كل ما استطعت أن ألتقطه مما رماه الكاهن، ما يقرب من ألفي فرنك.. استقر رأينا على أنه بمساعدة هذه الفقاعة، سننشد الرحال ذات ليلة جميلة، للخلاص مرة واحدة، من هذا العذاب المقيم... سننقل أمتعتنا ونذهب لنستقر في مكان آخر!... في محلة أخرى!... لم يعد مطرحنا محتملاً... سنصدر هناك «جينترون» أخرى، وفقاً لمعطيات جديدة كلياً.. ومع مبتكرين آخرين... لن نعود قط نتحدث عن جهاز الغوص... كان ذلك، في النهاية، سهلاً ميسوراً.. ما كان علينا سوى أن نتحمل الإهانات أسبوعين أو ثلاثة أسابيع...

في أثناء ذلك، كنت قد عانيت كل ما في العالم من مشقة لإقناع الظريفة الضخمة بأن من الأفضل أن تظل في بيتها في مونترتو... أن تنتظر حتى نهاية العاصفة!... لم تكن تريد الإصغاء إلي، ما كانت تعتقد بوجود خطر!... أما أنا، فكنت أعرف جمهورنا.. كانت ستثيره بسلوكها، بغليونها، وغلالتها... كان ثمة شائعات متواصلة تثير الريبة... بالإضافة إلى ذلك كانت تواجههم... كان من الممكن أن ينتهي ذلك نهاية سيئة جداً... كانت تجازف بأن يطرحوها أرضاً... فقد كان يجتاح هؤلاء المخترعين فورات غضب رهيبة، اندفاعات هيجانية ينسون فيها أنفسهم.. يدمرون كل شيء في طريقهم! من المؤكد أنها لن تجبن وتتراجع.. ستدافع عن نفسها ربما، مثل لبوة، ولكن ما حاجتنا إلى المزيد من الدرامات؟... لن نكسب شيئاً من ذلك!... لن ينقذ هذا بيتها من المصادرة!... وانتهت أخيراً إلى القبول، بعد سيول من اللعاب، وتنهدات من قلب مفطور...

في ذلك اليوم، لم تأت... كان كورتيال يهوم في النوم داخل الكهف... كنا قد تغدينا في «الاسكارجو»، شارع راؤول، أكلنا كثيرا

في الواقع، لم يكن كورتيال يرفض شيئاً... لم أدع نفسي أتعفن داخل المخزن... خرجت فور عودتنا تقريباً... لأجلس على مسافة كافية، على عادتي، فوق المقعد المقابل للمخزن، لائذاً ببناء مقبب... كنت أراقب من هناك جميع المنافذ... كان بإمكاني أيضاً أن أتدخل إذا ما خرجت الأمور عن مجراها الطبيعي... ولكنه كان يوماً هادئاً... لا شيء خارج المألوف.. زمر الهاذرين نفسها دوماً، عديمي الملامح، الذين كانوا يغلون ويفورون في المطارح المحيطة.. منذ بداية الأسبوع السابق ظل الوضع على حاله لم يتغير... والحق أنه لم يحدث شيء استثنائي!... ولكنني سأكون مخطئاً إن قللت من خطورة الوضع... كانت الأحداث تغلي على نار هادئة، دون فرقعات مدوية... وحتى بعد الساعة الرابعة بقليل خيم هدوء شامل... كانوا يجلسون متقاطرين.. يتحدثون بالأحرى بما يشبه الهمس.. لا بد أنهم كانوا متعبين للغاية..قطيع حقيقي منتشر على امتداد واجهات أخرى... يوحي منظرهم بالكلال... ما عاد من الممكن أن يدوم هذا طويلاً... كنت أفكر بآفاق المستقبل... كان علينا أن نغادر المكان وشيكاً... أن نباشر باتصالات أخرى! ونقوم بأعمال أخرى!... كان لدينا نقودنا... ولكن كم كان من الممكن أن تدوم؟ بوه! بوه! بوه! لم يكن من الصعب تبديد ورقتين من فئة الألف فرنك!... وإذا كنا نريد إصدار الصحيفة!... وتسديد أقساط بيتهما، فسيكون من المستحيل والحق يقال، أن نقوم بالأمرين معاً!... أخيراً، وبينما كنت أتابع أحلام يقظتي، مستغرقاً فيها بعمق، إذا بي ألمح من بعيد، من جادة بوجوليه، شخصاً ضخماً يسير وحيداً، كان يزمجر ويعربد مثيراً صخباً كالرعد!... ويومئ بكل أطرافه!... قافزاً، مترقصاً، حتى وصل إلى بابنا... أمسك بالمقبض... وهز الباب الثقيل كما لو أنه شجرة تفاح..

صرخ منادياً دي بيريري... كان الفتى هائجاً هياجاً وحشياً بالتأكيد، فاقداً زمام نفسه... وقبل أن ينصرف، افرغ كل جهده في التجديف والصراخ!... ولكن ما من أحد رد الجواب... وحينئذ لطخ الواجهة بكاملها بريشة مغموسة بلون اخضر... كان تصرفه شائناً قذراً... ثم بارح المكان... دون أن يفارقه هياجه المسعور... لم يكن ذلك تراجيدياً!... ولكن خوفي كان يتعاظم بشدة... وأخيراً رأيت ما هو أدهى...

مرت ساعة أو ساعتان على ذلك، ومالت الشمس نحو المغيب... وما أن دقت الساعة السادسة حتى حانت اللحظة الرهيبة، تلك التي كنت أترقبها وأخشاها أكثر ما أخشاها... الساعة المقززة بامتياز التي يعج فيها العجيج، ويبلغ فيها الشغب الذروة... اللحظة التي تصاب فيها المحلات والحوانيت بالإسهال وتطلق من جوفها مهووسيها الصغار وموظفيها المهرة... جميع البطرين والمجانين المنفلتي العقال!.. الانتشار الهائل لعمال الفبارك والمستودعات... مندفعين، عراة الرؤوس، يلهثون خلف العربات!... الحرفيون الذين أمضهم القلق بسبب وتيرة التقدم!... ينتهزون اللحظات الأخيرة من النهار! بعد أن أضناهم الكد! أولئك أناس أقصوا عن وليمة الحياة، لا يشربون غير الماء... ويركضون مثل حمير الوحش، وها قد حانت اللحظة التي يهدرون فيها كهدير السيل... كان ذلك يصيبني بمغص شديد، لمجرد شعوري بأنهم قادمون.. كانوا يقعون فوق رؤوسنا دائماً بدلاً من أن يذهبوا لتناول كأس من الشراب.

كنت ما أزال منشغل البال... أفكر أيضاً بطبق من الحساء... والذهاب لإيقاظ كورتيال.. كان قد طلب مني خمسين فرنكا. ولكني ارتعدت فجأة!.. فقد بلغ مسامعي صخب يشق عنان السماء! قادماً من غاليري أورليان... تضخم، اقترب!... كان أكبر بكثير من ضجيج

عادي.. تحول إلى هدير! ثم زمجرت العاصفة! وقصف دوي كالرعد تحت واجهة حانوتنا!... اندفعت كالسهم، قافزاً نحو شارع غومبوست، حيث تصدر أعنف الصرخات... فوقعت على حشد فوضوي.. من الممسوسين الزائغي النظرات والعقول.. وحوش مزمجرة معربدة... تجاوز عددهم الألفين بالتأكيد، يجأرون على امتداد الممر!... ومن الشوارع المتاخمة كان ينبجس آخرون دون توقف... مضغوطين معصورين حول عربة، نوع من شاحنة كرشاء... وفي اللحظة التي وصلت قربهم كانوا يحطمون سور الحديقة الشبكي المزدوج... انتزعوه بأكمله بدفعة عنيفة واحدة... كانت رهيبة، تلك العربة التي يدفعونها... أشبه بمنجنيق..قلبوا قنطرتين في طريقهم.. فتطايرت الحجارة المقصبة!... تناثرت هشيماً وشظايا ذات اليمين وذات الشمال... كان هذا مروعاً حقاً.. اجتاحوا المكان وسط رعود هادرة! متعلقين بالعربة الجهنمية.. ارتجت الأرض على مسافة 1500م!.. قفزوا فوق الأقنية... ينبغي إدراك مدى ذلك الهياج المسعور!... حين تراهم ينطون هكذا، منتفضين حول ذلك النعش، مطلقين لانفعالهم العنان... لم أصدق عيني! كان يتولاهم سعار منفلت!... كان مئة وخمسون منهم على الأقل يتعلقون بالعربة!... راكضين تحت القباب كما لو أنهم مدفوعون بشحنة بارود هائلة في إستهم.

ضري الممسوسون الآخرون، بفعل ذلك الهياج المحموم، وتوزعوا حول عريش العربة، حول محاورها!... اقتربت من رقصة السربندة تلك.. آه! تبينت وجوه مخترعينا!... إنهم هم جميعاً تقريباً!... عرفتهم واحداً واحداً!... هو ذا دولاكروز نادل المقهى، كان ما يزال ينتعل مشايته!... وغارفاليه الخياط... كان يركض بصعوبة! وقد سحل سرواله عن خصره!... وهذا هو بيديجل وجوشير

اللذان كانا يخترعان معاً.. ويقضيان الليـل بطولـه في سـوق الخـضار، يعتلان السلال والصناديق... رأيت بيزوند أيضاً! ورأيت غراتيان، وقد أخفى زجاجة الخمـر في عبّـه! رأيـت غافنـدو... ولانيمـون مـع زوج نظارتيه، الذي اكتشف التدفئـة بـالزئبق!... رأيـت كـل هـؤلاء الـرمم القذرة!... وهم يحرضون على المجزرة! علـى القتـل! كـانوا حقـاً في ذروة جنونهم!... تسلقت حينئذ ركام السور الحديدي! أشـرفت علـى الحشد الهائج!... رأيت بوضوح، فوق أحد المقاعد، الرجل الـضخم المجعد الشعر الذي كان يحرضـهم، ويقـودهم في الهجـوم!.. رأيـت ذلك الشيء العجيب الـذي كـانوا يدفعونـه.. تلـك القـذارة الغريبـة... قوقعة هائلة من الحديد المصبوب!... عرفتها على الفور!...إنها جهـاز الغوص الذي صـنعه فيردونـات! جهـاز مـصفح بالكامـل!... مـا مـن خطـأ!... رايتـه مئـة مـرة علـى المخطـط!... مـع كـوى مـشعة علـى جوانبه!... تلكم والله ثالثة الأثافي! هو ذا نفسه، فيردونات!... عـاري الصدر، متسلقاً جهازه، مـشرفاً علـى الجمـوع! يزعـق زعيقـاً حـاداً! يجمع حوله الزريين من أمثاله! يحثهم، يدق لهم النفير.

كنت أعرفه جيداً، كان قد أخبرنا، على نحـو جـازم، بأنـه سـيقوم ببنـاء جهـازه مـع ذلـك، علـى الـرغم مـن نـصحنا لـه، علـى نفقتـه الخاصة!.. بكل ما لديه من مدخرات!... لم نأخذ كلامه علـى محمـل الجد... لم يكـن هـو أول المـدعين المغتـرين!... كـان آل فيردونـات كوائين في مونتروج، أباً عن جد!... وقد جر معه كـل أفـراد العائلـة.. كانوا هنا جميعاً، ينطون حول الجهاز!...لا يفارقون بعضهم بعـضاً... يداً بيد... على غـرار رقـصة الفارنـدول. الماما، والجـد، والـصبيان الصغار... وقد جلبوا إلينا ماعونهم الهائل... كان قـد وعـدنا بـذلك... ولكنني لم اشأ أن أصدقه!... كانوا يدفعون الوحش المصفح مـنطلقين

من مونتروج! مع أمثالهم من كلاب الدينغو! ذلكم تحالف بربري مريع!... استجمعت كل ما لدي من شجاعة... كنت أتوقع الأسوأ!...

عرفوني... رشقوني بالشتائم المقذعة كالسهام! انفجر السخط الشامل!... أرادوا أن ينتزعوا أحشائي!... وأطلقوا جميعاً، من الأسفل سيلاً من البصاق باتجاهي.. وتقيؤوا علي! قلت:

ـ المعذرة! أصغوا إلي! دقيقة واحدة!.. وساد صمت للحظة ـ إنكم لم تفهموا الأمر جيداً.

ـ انزل إلى هنا! أيها النذل الصغير! سنفسق بك مرة وإلى الأبد!... سيخوزقك أولادي! جيرويت! وماركاسين! وراكلور! أين عجوزك الزيغومار؟.. سنقلب له مصارينه قليلاً!...

على هذا النحو كان جوابهم لي!... ما كان ثمة طائل في الإلحاح... ولحسن الحظ استطعت القفز من مكاني سريعاً!... ولذت خلف الكشك.. ورحت أصرخ بكل ما أوتيت من قوة«النجدة!» ولكن الأوان كان قد فات... لم يكن ليسمعني أحد وسط ذلك الهزيم من الرعود القاصفة... وأمام بابنا بالضبط حدثت الملحمة الكبرى! كأني بهم قد هيجهم كلامي، وحرك جنونهم أكثر مما قبل!... حتى بلغ الذروة!... فكوا إذن جميع عوارض العربة!... وركزوا الآلة الجهنمية وسط الممر تماماً، وسددوا مقدمتها نحو الواجهة!... وتضاعف الزعيق أضعافا حتى شق الفضاء... واندفع جميع ممسوسي الغاليري، والانحاء المجاورة نحو مؤخرة الجهاز المدرع بكل قواهم معاً... ثبت رهط الكلاب الضارية أقدامهم «واحد! اثنان! يوب! يوب! هيس!» وتزعزع الباب الثقيل! تلقى أحد المصراعين الصدمة.. وتهشمت الواجهة الزجاجية تحت صدمة المنجنيق.. فتطاير الزجاج شظايا في

كل الاتجاه!... واستسلم الإطار! تحطم! تناثر! طاح كل شيء من مكانه! انهمر جرف هائل من شظايا الزجاج!.

دخل الوحش عنوة، مترنحاً، ساحقاً كل شيء، انهارت «الجينترون» على عروشها، وسط سيل من الأنقاض!... درجنا اللولبي، وركن الشريك الموصي! وكل الجناح التونسي... أتيح لي الوقت كي أراها تنخسف تحت شلال من الأوراق، ووسط انفجار هائل من الغبار!... سحابة كثيفة طفرت حينئذ، سحابة بيضاء، ملأت دفعة واحدة كل الحدائق، والغاليرات الأربعة.. خنقت أنفاس رهط الضواري!... تغطوا جميعاً بذرات الجبس.. بصقوا! سعلوا! اختنقوا! ولكنهم تابعوا اندفاعهم مع ذلك... والتحقت الخردة... والمرايا.. والسقوف بالشلال المنهمر!... ثم أرتج الجهاز المدرع! ففتّت الأرضية الخشبية تحته، تصدعت، وانشقت... ترنحت الآلة المخيفة، تراقصت على شفا الهوة الفاغرة... مالت إلى الأمام، ثم هوت إلى القاع... تباً!... تلك هي الطامة الكبرى!... ودوى رعد قاصف شق عنان السماء!... وانطلقت صرخات حادة.. وحشية إلى حد لا يوصف... جمّدت الرهط فجأة!... وصل رجال الشرطة أخيراً.. بحثوا على غير هدى في مكان الكارثة، أقاموا سداً حول الأنقاض... ثم وصل شرطيون آخرون إلى المكان!... فتفرق الثائرون... تشتت شملهم!... ذهبوا يرقصون رقصة أخرى في محيط المطعم، وقد جعلهم الانفعال يرتعشون.

أخلى رجال الشرطة الفضوليين من محيط الكارثة!... كنت أعرف جميع المتمردين!... سيكون بمقدوري الآن أن أسلمهم للعدالة! سيكون هذا سهلاً جداً.. أعرف أيهم كان الأشد غدراً، والأعظم فجوراً في تلك العصابة! والأكثر عنفاً... والأشد نذالة! أعرفهم

جميعاً، أولئك الذين سيمضون عشرة أعوام في السجن! نعم! ولكنني لست من القوة والمنعة كي أنتقم! وما عسى يجدي ذلك سوى أن يجعل الأمور أشد سوءاً! هو ذا كل شيء.. قررت أن أتفادى ذلك كلياً!... انطلقت أعدو نحو الحشد... دنوت من فريق الشرطة.. عرفتهم بنفسي... «هل رأيتم المعلم؟ كورتيال دي بيريري؟» كنت أسأل في كل الاتجاهات!...

ما من أحد رآه! كنت قد تركته عند الظهر!... وفجأة رأيت المفوض النتن الصغير ذاته، ذلك الذي طالما أرهقنا وحرّض علينا!.... اقتربت منه... بلّغته عن اختفاء المعلم... أصغى إلي... كان متشككاً... «هل تعتقد؟» قال لي... لم يكن واثقاً من كلامي... «ولكنني متأكد من ذلك»... نزلت معه، حينئذ من خلال إحدى الفجوات.. بحثنا كلانا معاً...، صحت!... ناديت!... «كورتيال! كورتيال! انهض! انهض!» عوينا معاً أنا ورجال الشرطة.. مرة! مرتين! عشر مرات!... عاودت المرور أمام جميع الفجوات!... انحنيت أيضاً فوق الهوى السحيقة!... «لا شك أنه في الماخور!» علق الآخر، أفعى الصل الخبيثة!... كنا على وشك أن نغادر... سمت صوتاً فجأة!

«فرديناند! فرديناند! هل لديك سلم؟...».

إنه هو، إنه هو! ما من خطأ! برز من قاع هوة عميقة.... نفسه بجهد شاق!... كان وجهه معفراً بغبار أبيض كالطحين.. ر.. إليه حبلاً قوياً.. أمسك بطرفه.. ورفعناه! خرج من الحفرة!... كا سليماً!... طمأننا بنفسه!... كان قد وجد نفسه فجأة محصوراً منضغطاً على نحو محكم بين جهاز الغوص والجدار، وقد سد أمامه السبل!... ولكنه لم يعثر على قبعته!... أزعجه ذلك في البداية.

فهاج وماج... كان معطفه مهلهلاً... لم يلح كثيراً.. رفض أية مساعدة... ورفض الذهاب إلى الصيدلي... كان هو الآن من ينظر بازدراء إلى الشرطة... «سأرفع دعوى يا سادة»، قال لهم.. ثم انسحب، تخطى الدرابزين، والعوارض الخشبية، والأنقاض... وها نحن أولاء في الخارج...

«افسحوا الطريق!... افحسوا الطريق!...» أبعد الجمهور المحتشد.. كان معطفه ممزقاً في كل مكان.. كان معفراً من رأسه حتى أخمص قدميه... حتى ليبدو كمهرج، وفيما هو يمشي مسرعاً كانت ذرات الجبس تتساقط عنه... زاد من سرعته قليلاً.. كان يجرني إلى أحد المنافذ من جهة اللوفر، متعلقاً بكمي، وقد اعترته رعدة شديدة، لقد زايله التعاظم هذه المرة، وعرف قدر نفسه.

ـ هيا! هيا! بسرعة، يا فرديناند! ألق نظرة خلفك! هل يتبعنا أحد؟ أنت متأكد؟ عجّل يا ولدي!... لن نعود إلى هنا في يوم من الأيام، لن نعود أبداً إلى هذا المنزل.. إنه شرك رهيب! يمكنني أن أؤكد لك هذا! التآمر واضح وضوح الشمس!.. سأكتب رسالة إلى المالك!.

* * *

على هذا النحو تحول مكتبنا إلى فتات، ما عاد لي مطرح أنام فيه... قررنا حينئذ بالإجماع أن أذهب إلى مونترتو!.. عرجنا على «الإيموت».. لم يكن من الممكن أن يحتفظ كورتيال بهيبته بمعطفه الممزق!... لذا فقد أعاره المعلم صاحب الإيموت، بكثير من اللطف معطفاً قديماً. كان بنطاله أيضاً مشققاً في مواضع عدة... لم يكن بد من رتقه... كان الجميع قد رأوا الشغب المصطخب، وسمعوا الجلبة المروعة... وقد غلبهم التأثر جميعاً لما حل بنا!... حتى ناجير، شارك

في ذلـك.. أراد أن يقـوم بـشيء مـن أجلنـا، كـأن يجمـع لنـا بعـض التبرعات.. أفهمته بأننا لسنا بحاجة إلى المساعدة، وأنـه سيكون مـن الصعب علينا قبول ذلك... وأنه ما يزال لدينا بعض النقـود!... شـرب الكثير من الخمر نخب معلمنا، وأبدى لنا ضروب الكرم... ودفع عنا ثمن المشروبات، وجبة إثر أخرى..

كان الجو حاراً بالأحرى، في ذلك اليوم من نهاية حزيـران... بكـل غباره الرهيب.

أفرغنا على الأقل عـشرة ألتـار أو اثـني عـشر مـن النبيـذ لترطيـب حلوقنا اليابسة. وأنهينا حوارنـا! وخرجنـا مـن الحـان متـرنحين... في وقت متأخر جداً!...يغمرنا التأثر والانفعـال!... وفي محطـة قطـارات الشمال، صعدنا إلى القطار الأخير، واتجهنا إلى مونترتو!...

كان الليـل رائقـاً في مونترتـو، لحـسن حظنـا، مرصـعاً بـالنجوم، والقمر ساطعاً أيضاً! استطعنا أن نجد طريقنا تقريباً.. غـير أننـا، لكـي نتحاشى التوغل في مونترتو، وعبر دروبها الضيقة وعلى الأخـص بـين آكامها، كان لا بد لنا مـن أن نـضل الطريـق مـراراً!.... لم يكـن ثمـة مصابيح ولا لافتات هادية... كنا نمشي مستهدين بالحـدس، والفطانـة والغريـزة... قلقـين مـن أن نلفـت إلينـا الأنظـار، ونحـن نـدب بـين الأكواخ... بحيث يمكن أن تنتهي الأمور نهاية سيئة جداً... كـان هنـاك دائماً أربع أو خمس حوادث قتل في السنة على الأقل، بـسبب أخطـاء مأسـاوية مـشابهة!... أشـخاص تـائهون... مغتـرون بأنفـسهم، كـانوا يخطئون أحياناً بين الـدور المتلاصـقة!... أو يجـازفون باجتيـاز سـياج مشبك، يقرعون أبواباً ينبغي أن لا يقرعوها هي بالتحديـد!... فيـسقط هؤلاء الغرباء البائسون صرعى على إثر صلية من طلقـات ناريـة، مـن مسدس جندي وصيف، أو بندقية ليبل... ثم يـتم الإجهـاز علـيهم في

أقل من دقيقتين بأنياب رهط من الكلاب الضارية التي تحرس الأراضي المفروزة... نفاية من الكلاب الهجينة البالغة الشراسة، من أسوأ الضواري الوحشية، المجندة للحراسة... العدوانية بنحو رهيب، والمدربة خصيصاً لهذه الغاية... والجاهزة للانقضاض وانتزاع أمعاء فريستها... ثم لا يبقى من أولئك التعساء أثر.... ينبغي القول أيضاً، لمزيد من الشرح، بأنه في تلك الفترة تماماً ظهرت عصابة بونو، وأشاعت الرهبة في قلوب سكان المنطقة الشمالية الغربية، وعاثت في الأرض رعباً وفساداً!...

كان جميع سكان تلك المنطقة يعيشون في خوف دائم، وكان انعدام الثقة سائداً على نحو مطلق... فما إن يوصد الباب الثقيل، حتى لا يتعرف أحد على أبيه ولا على أمه.. ألا تعساً للتائهين!...

كان المالك الشحيح، ومدخر الأموال الموسوس، يلبد خلف المغاليق، متربصاً طوال الليل، لا تأتيه سنة ولا نوم، يغلق عيناً ويفتح أخرى، ويده متشنجة على الزناد!...

كان سراق الليل الدهاة، والمتسكعون المثيرون للريبة، حينما تبدر من أحدهم أدنى حركة مشبوهة، على يقين بأنهم مقتولون لا محالة! كانوا بحاجة إلى معجزة كي ينشقوا نشقة واحدة بأنوفهم التي يسيل مخاطها!... تيقظ مطلق... شبح مميت دون تردد...

حينما نزلنا في المحطة، لم يكن كورتيال يشعر بالاطمئنان!... كان يرسم في ذهنه طريق العودة إلى البيت.. يتخيل المعابر... والكمائن المختلفة... ويقلب الأفكار في رأسه لحظة من الزمن!... «إلى الأمام!» ومنذ الخطوات الأولى على الطريق، شرع يصفر صفيراً عالياً... نوعاً من لحن تيرولي!... كان خليقاً أن ننبه لوجودنا عبر المعابر الخطرة!... كنا نتوغل في قلب الليل... ثم غدا الطريق رخواً تحت أقدامنا، ذائباً،

محفراً! كنا نميز بغموض كتلاً داخل العتمة.. هياكل أكواخ.. كانت الكلاب تنبحنا، مطلقة عواء حاداً لدى مرورنا بكل حاجز.. هاجت تلك الضواري هياجاً مسعوراً... فحثثنا السير بأقصى سرعة ممكنة، ولكن المطر انهمر! فرحنا نخبط في مستنقع هائل لزج، أشبه بتفل القصب! كان الطريق يمتد صعداً أمامنا، متلوياً متعرجاً.

ـ نحن نمضي الآن... نبهني كورتيال... إلى قمة مونترتو! إنه المكان الأكثر ارتفاعاً... سترى كم نحن مشرفون على ما حولنا!.

كان منزلهما يشكل ذروة المنطقة، غالباً ما حدثني عن ذلك، كان يتوج سائر المشهد الطبيعي!... كانت باريس تستلقي برمتها تحت أنظاره حين ينظر من نافذة غرفته... بدأ يلهث بصوت مسموع!... لم يكن الوحل كثيفاً مع ذلك! فكيف لو كنا نسير في الشتاء؟ أخيراً، وبعد دورة طويلة، ظهرت على البعد علامات ضوء يتحرك متموجاً... «تلك هي زوجتي، هتف حينئذ!... أنت ترى، إنها تكلمني بالإشارات والرموز الضوئية: س... هـ... ا... م، مرة إلى الأسفل ومرتين إلى الأعلى!» أخيراً، ما عاد ثمة خطأ!.. كنا مع ذلك ما نزال نتسلق الطريق الصاعد.. مضاعفين من سرعتنا!... وصلنا في النهاية إلى دارته المسورة... منهوكين، لاهثين... هبطت عجوزتنا المضحكة درج المدخل، وبيدها فانوسها... مسرعة نحو الأب... كانت هي التي انفجرت بالصياح.. لم تدعني أنطق بكلمة واحدة.. منذ ما قبل الساعة الثامنة، وهي ترسل إشاراتها الضوئية مع وصول كل قطار!... كانت خارجة عن طورها تماماً.. فضلاً عن أنها تفاجأت بوجودي؟ دون أن يكون قد أخطرها بذلك!... ما الذي جئت أفعله؟.. كانت تطرح علينا أسئلة سريعة متلاحقة... ثم لاحظت فجأة بأنه قد بدّل معطفه! كنا أشد

كلالاً من أن نخوص في التفاصيل!... سحقاً إذن!... دخلنا الدار، وجلسنا في أول غرفة.. حدثناها بإسهاب عن كل ما جرى! كانت الظنون قد ذهبت بها كل مذهب بسبب هذا التأخر... إذا ما وقع حادث جلل.. ولكنها تراخت الآن تماماً، وداهمتها برودة صقيعية، ما كان بإمكانها أن تتوقع أسوأ من ذلك!.. فلاك! على هذا النحو، تبدلت ملامح وجهها، وغمرها ذهول تام... كان وجهها كله يرتعش، وكذلك شارباها.. ما عاد بإمكانها أن تصدر صوتا!... وأخيراً، انخرطت في البكاء...

ـ إذن، تلك هي النهاية، يا كورتيال؟ هل انتهى كل شيء، قل لي؟ انهارت على كرسيها.. وخيل إلي بأنها على وشك أن تلفظ أنفاسها... كنا كلانا على أهبة الاستعداد لتمديدها على الأرض!... ونهضت أنا لأفتح النافذة... وإذا بها تطفر عن كرسيها، مهتاجة هياجاً فظيعاً... وقد استولت الرعشة على كل كيانها!... استعادت قواها! كانت الأزمة عابرة! وها هي ذي تنتصب على قدميها! ترنحت قليلاً، واهتز ساقاها... ثم جددت قواها.. وضربت الطاولة بجمع يدها فوق القماش المشمع.

ـ تباً! هذا قاسٍ جداً في النهاية! أطلقت على هذا النحو صيحة مدوية...

ـ قاس جداً! قاس جداً! ها أنت قلت ذلك!... استشاط غضباً هو أيضاً، رأته يشب كالحصان امامها.. واكتشفت العجوز على الفور من الذي يكلمها.. كان يقرق كديك.

ـ آه! هذا قاس جداً!... آه! هذا قاس جداً؟ أنا، يا صديقتي، غير آسف على شيء!...لا! لا!... غير آسف بالمرة!... على أي شيء إطلاقاً!...

ـ آه! أنت غير آسف على شيء، أيها الحقير القذر؟ آه؟ أنت مسرور جداً، أليس كذلك؟ ومنزلنا إذن؟ هل فكرت بالكمبيالات؟ إنهم عائدون يوم السبت، يا صغيري!.. يوم السبت، دون أي تأخير... هل تملك الـ 1200 فرنك؟ هل هي في جيبك؟... لقد وعدناهم، أنت تعلم ذلك جيداً!... إنهم ينتظرون!... سيعودون عند الظهر! هل هي موجودة في جيبك؟... ما من ساعة أخرى! عند الظهر تماماً.

ـ تباً! تباً! وألف تباً! في النهاية!... لست أبالي بمنزلك!... يمكنك أن تصنعي منه فطائر بالحلوى!... لقد حررتني الأحداث... هل تفهمينني! قولي يا صقري؟.. لم يعد ثمة مرارة! ولا ضغينة! ولا ديون! ولا احتجاج لعدم الوفاء!.. لا أبالي بكل ذلك! هل تسمعيني جيداً؟ سأخرى على كل شيء! نعم!...

ـ اخر! اخر ديون! ديون! ولكن هل في جيبك النقود، قل، يا أحمقي الكبير؟ مع فرديناند ستمئة فرنك، هي كل شيء، ولكل شيء! أعرف هذا جيداً!.. هل هي معك يا فرديناند؟.. ألم تضيّعها؟ ولكنهم سيعودون من أجل 1200 فرنك، وليس 600 فرنك! ألا تعرف هذا بعد؟.

ـ بفوي! بفوي! ليس ثمة خطوة إلى الوراء على الإطلاق!... إنها الغنغرينا! أنت تقاومين الغنغرينا؟... ليس ثمة سوى البتر!.. هل تسمعيني، يا سجقتي؟ البتر من الأعلى! شربت إذن كل النبيذ الأبيض؟ أشم رائحته من هنا! من الأعلى! ورائحة الثوم أيضاً! أنقذ ماذا؟ عجباً! فالرائحة تفوح من أشداقك! هل أنقذ الجذعة المنتنة! التي تعج باليرقانات؟ والذباب؟ إنه الخراج! اللحم منتن تماماً! ليس ثمة إجراء أبداً! ليس ثمة سوى إجراء واحد! هل تسمعيني؟ ها أنا حي ما أزال!... هل أقبل الهزيمة! التقهقر! المراوغة! آه! لا! هل

أصنع النقانق لأولئك الذي يطعنونني؟ أنا؟ أبداً!... هل تسمعني جيداً يا فرديناند؟ انتفع إذن بكل ما تراه! انظر! حاول أن تفهم معنى العظمة، يا فرديناند! فسوف لن تراها كثيراً!.

ـ ولكن أقسم بأنك أنت الذي شربت!... ولكنكما شربتما كلاكما! جاءاني ثملين، هذان الحقيران!... وهما يصرخان بي أيضاً!.

ـ العظمة! الانفصال، أيتها الحمقاء! الرحيل! رحيلي! هل تدركين هذا؟ أنت لا تدركين شيئاً!... الرحيل بعيداً! بعيداً جداً!.. أقول لك!.. الاستخفاف بالتحديات! بأسوأ التحديات! بأكثرها إثارة للتقزز! ما الذي يمكن أن ينجم عن ضغوطها القذرة؟ عن هذه الضغوط الخرقاء المنفرة؟.. حقيقة جوهري أنا؟ ولكنه النبل، أيتها الفصيد!.. هل تسمعيني؟ أنت التي تفوحين بروائح الأحماض؟... هل ترين ذلك؟ قولي أيتها الكراثة؟ هل ترين النبل! أنت تصغين إلي؟ من أجل منزلك؟ تباً! تباً! تباً!.. النبل! النور! الحكمة الفريدة!... آه! أيها الخدم المعتوهون! أيها اللصوص التافهون!... وا مارينيان (معركة انتصر فيها الفرنسيون على السويسريين)! وا هزيمتاه، يا صغيري فرديناند البائس!... ما عدت أصدّق عينيّ هنا! ولا صوتي!... لقد كنت الساحر الأخاذ! المكلل بالغار! أي انقلاب مفاجئ للأشياء! أنا الذي كنت بالأمس في ذروة المجد، مثقلاً بالشهرة والأمجاد!... من كان الجميع يتزلفون له! من كان الجميع ينتحلون أفكاره! يرهقونه بالملاحقة! ويحتفون به بنوع من التأليه! ماذا أقول؟ من كانوا يوجهون إليه الدعوات من أربعة أقطار العالم! رأيت ذلك بعينيك؟ قرأت عن ذلك؟ واليوم؟ سقوط مروع! بووم!!!.. لا أكثر! انقضت الصاعقة!... لا شيء! ذرة، هذا أنا!... ولكن الذرة يا فرديناند هي كل شيء!... المنفى يا فرديناند!...

المنفى؟ ـ كان صوته في تلك اللحظة مترعاً بكرب شديد... نعم! ذلك هو ما أريده! اكتشفت ذاتي! فتح القدر أبوابه لي! المنفى؟ فليكن! لنا كلانا... كنت ألتمسه منذ زمن بعيد جداً! وها قد حان وقته!... لقد أصابتني الضربة! الضربة السماوية! المجد لله! ضربة محتومة! أطلت الخيانة من وكرها!... أخيراً!... منذ سنوات عديدة وهي تلاحقني! تقرضني! تضنيني!... وها هو التعويض!... يظهر بجلاء! وأنا أكتشفه الآن! نعم! حتمياً، هائجاً... وأمام عيون الملأ!... أي كشف يا فردیناند!... أي مشهد! فاض بي الكيل يا إيريني!... لقدكان التعويض جامحاً! دموياً! هادراً! هل تسمعيني؟... رأيناه بعد ظهيرة هذا اليوم ينقض على صحيفتنا الغراء! يهاجم الفكر! فردیناند شاهد على ذلك! لقد انكمشت! انطويت على نفسي! خرجت من ذلك الكابوس! جريحاً! مرضوضاً! مشوهاً!... آه! أي صراع بغيض! ولكن الورم انفقأ! والحقد انبجس في كل مكان! ونالني منه ما نالني من الأذى! غير أن الذهن ما يزال صافياً، إيه، أيها التعويض المجزي! أوه! ما من تسوية على الأخص! هل تسمعوني جميعاً! أن أذهب الآن لأتملق جلادي؟ السيف! السيف! النار بالأحرى!... كلها جميعاً! أما هذا فلا! آه! بوواه!... تواطأت الآلهة! فليكن!... وهبوني أكثر الهدايا قسوة ومرارة! الحقد! حقد النسور!... المنفى؟ هل أرفضه؟ أنا؟ سيكون هذا نقصاً في احترامي لذاتي!... إنهم يختبرونني!.. يجربونني؟ حسناً!... يضحكون هازئين سلفاً!... ولكنني سأزمجر اعتداداً وكبرياء! بقسوة متناهية؟... هوم! هوم! سنرى!... ذلكم شأن من شؤون الآلهة مع الناس... هل تريد أن تعرف، يا فردیناند؟ كيف سأتدبر أموري؟ كما تهوى، يا صديقي! كما تهوى!... لن تتكدر

قط! اسمعني يـا فردينانـد! أنـت الـذي تجولـت كـثيراً، هـل تعـرف البانثيون جيداً؟... قـل، أيهـا المـشوش البـائس؟... أمـا لاحظـت أي شيء؟ أمـا رأيـت قـط تمثـال «المفكـر»؟ منتـصباً فـوق قاعدتـه.. إنـه هناك.. ماذا يفعل؟ قل لي، يا فرديناند؟ إنه يفكـر يـا صـديقي! نعـم! يفكر فقط! إنه يفكر! إيه حسناً! يا فردينانـد! وهـو وحيـد!... تمامـاً! وأنا أيضاً وحيد!... إنه عارٍ من الثياب! وأنـا عـارٍ أيـضاً!... مـا الـذي ستفعلونه من أجلي أيها الصِغار المـساكين؟... هـذا مـا يقولـه، وهـو ينظر إلينا بعين الشفقة! إلينا كلينـا أيتـها الظريفـة الـضخمة!... وإليـك أنـت أيـضاً!... ايهـا الولـد البـائس المنـذهل بـسبب غدتـه الـصماء! المحزون من زيادة إفرازاتهـا، العـديم الفقـار باختـصار... امـا بـصدد لائمتي البائسة، فما الـذي سـتقدمه لي؟ ممـا يفيـد؟ وممـا لا يفيـد؟ صدى حنون مـن أصـداء سـنواتنا الميتـة؟ مـن تجاربنـا الغـابرة، مـن شتاءاتنا الكالحة! من مخاوفنا الثقيلة!...

ـ كيف وصفتني؟.. كرر مـا قلتـه!... قـل بـسرعة، فأنـا أسمعـك! الكلمات الأخيرة لم تعجبني.. أنت تسخر مني؟ قل، أيها القمامة؟.

لم تكن تحب التلميحات... كانت تهدده بالقطرميز الصيني، كانـت تريد تفاصيل أخرى.. حول ما كان يزعمه!...

ـ لا تصغ إليه، يا فرديناند! لا تصغ إليه!.. ليست هذه أيضاً سـوى أكاذيب أخرى! ليس في فمه سوى الأكاذيب!... ولكن ما الذي فعلتـه في المطبخ؟ قل لي إذن حالاً!... مع خطمـيتي؟.. أنـت لا تعـرف؟... سرق خطميتي أيضاً! وما الذي سرقته من طاولة زيـنتي؟ الكربونـات؟ أنت لا تعـرف أيـضاً؟ ولا تعـرف شـيئاً عـن الحقنـة؟... لا تنكـر؟... وزجاجة شراب الغال؟ أين وضعتها؟.. إنه لا يحترم شيئاً! لقد جلبتـها لأتناولها يوم الأحد!...

ـ دعيني، هيا!... دعيني أرتاح قليلاً!... أنت ترهقيني، تغيظيني، تنكديني! كم أنت محدودة الذهن، يا ظريفتي!... يا ظبيتي... يا لطيفتي! يا ملاكي!... نزعت قبعتها حينئذ، نشقت مخاطها فجأة، ثم تحسست مسند الكرسي الضخم، الباهظ الوزن...

ـ أجبني إذن، وجهت إليه إنذاراً!... أين ذهبت بخطميتي؟...

لم يستطع أن يجيبها بشيء... شرعت ترفع الشيء الضخم... أمسكت بقائمتيه كلتيهما... ورأى هو حركتها، فلاذ بطاولة المكتب، وأمسك بأرضية الصندوق... كان لديهما الآن كل ما يلزمهما!... واختبأت أنا في زاوية الموقد... ثم بدأ يفاوض...

ـ يا كرنبتي الكبيرة (لفظ للتدليل)! أرجوك! أتوسل إليك!، يا كنزي الغالي! أصغي إلي، كلمة واحدة فقط قبل أن تحتدي أكثر!... أصغي إلي! لا تكسري شيئاً!... لقد بعت كل شيء! قسماً بالرب! كل شيء هنا مباع الآن!.

-مباع؟ بعت ماذا؟.

ـ ولكن كل شيء! نعم! كل شيء! في هذا الصباح بالذات! قتلت نفسي كي أخبرك بهذا! بعت كل شيء في «الكريدي ليمنتال»، بعته للسيد رامون! أنت تعرفينه جيداً؟ في كونتانسيو! لم يعد ثمة شيء آخر نفعله!. انتهى الأمر! كل شيء قد بيع! قد صفي! قد نظف! هو ذا الأمر! أنت تفهميني؟ هل فهمت الآن، يا جرادتي (لقب للتدليل). هذا يسكتك أليس كذلك؟ ألا يهدئك هذا؟ غداً كما قلت لك!.. غداً صباحاً سيأتون!...

ـ غداً؟ غداً؟ غداً صباحاً؟ كانت تردد صدى كلماته.. كما لو أنها في حلم!...

ـ نعم، غداً! لقد فعلت ما هو ضروري! ليس عليك سوى أن توقعي على العقد!.

ـ آه! أيها الخبيث الشرير! أيها الوغد المتوحش! آه! لقد انتزع أحشائي، الداعر! ما كنت أعتقد هذا ممكناً في يوم من الأيام!... أنا، الخرقاء!

ألقت بالكرسي حينئذ، وانهدّت فوقه، لبثت مكانها، تتأرجح ذراعاها، دائخة كلياً.. نخرت نخرة، وهذا كل شيء!... لم تكن هي الأقوى في الحقيقة... لقد بلغت أقصى حدود قوتها!... كانت تنظر إليه عبر الطاولة، من الطرف الآخر من الغرفة، إلى حبيبها الفظيع، كما لو أنها تنظر إلى أخطبوط مقزز، إلى غول مهول، كانت تنظر إليه عبر الحويضات المائية الزجاجية.. تحت وطأة كابوس ثقيل من عالم آخر!... لم يكن بوسعها أن تصدق عينيها... لم يعد بمقدورها حقاً أن تفعل أي شيء، ما عاد ثمة طائل من أن تحاول!... نكصت على عقبيها، مهدودة كلياً!... واستسلمت لحزن ثقيل.. كانت تنحب نحيباً عالياً جداً أمام صوانها، وتضرب به رأسها بعنف، فتتهاوى آنيتها كالشلال على الأرض... أما هو فما توقف لحظة!... أفاد من تفوقه... وطفق يعزز موقفه...

- إذن يا فرديناند! ما قولك؟ أنت ترى؟ أنت تتصور ربما؟... يمكن أن تتصور الشجاعة المعنوية؟... أدركت ولا شك؟ آه! جاء قراري متبصراً حكيماً، وأيم الله، قراراً ناضجا... هل تريد أمثلة؟ كم لدينا منها يا سيدتي؟ ولكن لدينا حزمة من الأمثلة! ومن الأعظم شهرة! مارك أوريل؟ تماماً! ما الذي فعله هذا العجوز! في ظروف قاسية مماثلة لظروفنا؟ بعد أن أعياه التعب! وتعرض للتشهير! والملاحقة! ورزح تقريباً تحت ركام من المؤامرات...

الأشد دناءة... والأكثر غدراً، وطاف به أسوأ القتلة!... ما الذي كان يفعله في مثل هذه الحالة؟ لقد انسحب يا فرديناند!... تاركاً لبنات آوى الميدان كله! نعم! التمس عزاءه في العزلة! في المنفى! البسالة الحقيقية!... نعم! كان يتساءل وحيداً!... دون أن يكون حوله أحد!... لم يبحث قط عن رضى الكلاب المسعورة!... لا! بفووو!.. آه! التراجع المخيف!... ونيرنيو النقي الطاهر؟ الذي يعزُّ على الوصف؟ ماذا فعل لحظة المجزرة، حينما تجمعت النسور حول ركام الجثث؟ تتصاعد منها الروائح الفظيعة؟... ماذا فعل، هو، أنقى الأنقياء؟.. العقل المفعم بالحكمة؟ في تلك الدقائق المضطربة، حيث كل كذبة تعادل حياة بأكملها؟ هل حاول أن يستدرك الأمر بالكلام؟ أو بالإنكار؟ أو بمضغ القذارات؟... لا! تحمل وحيداً آلام صليبه!.. تفوق وحيداً!... ابتعد!... أخلد إلى الصمت الكامل!... تجافى عن الكلام! وها أنا ذا يا فرديناند! ألجأ إلى الصمت أيضاً! وأيم الحق!...

لأن دي بيريري لم يكن طويلاً، فقد نهض واقفاً وسط الغرفة، ليلقي علي مواعظه بنحو أفضل... ولكنه كان منتحياً في زاوية صغيرة بين الموقد والصوان الكبير... لم تكن الفسحة من حوله فسيحة... كان ما يزال ينظر إلينا، حين نبتت في ذهنه فكرة!...

ـ ألا ترغبان بالخروج، قال لنا؟... للقيام بنزهة؟... أريد أن أظل وحدي!... دقيقة فقط! أريد أن أسوي أمراً ما!... من فضلكم! من فضلكم! ثانية واحدة!... كان اقتراحه سخيفاً للغاية، في تلك الساعة التي كنا فيها! والمعلمة واقفة على العتبة، متشنجة تماماً داخل شالها، والجو رديء في الخارج!.

ـ أنت تطردنا إلى الخارج إذن؟... ولكنك غدوت بذيئاً كلياً!.

ـ دعوني عشر دقائق على الأقل!... لا أطلب منكم أكثر! هذا ضروري! هذا ملح! لا يمكن تأجيله! إنها خدمة صغيرة!... اتركوني هادئاً ثانية واحدة! ثانية واحدة وحيداً!... ألا تريدان ذلك؟ ليس هذا صعباً... إذهبا وتنزها في الحديقة! الجو في الخارج أفضل من هنا!... هيا! هيا! سأعطيكما إشارة بعد أن أنتهي! ألم تفهما؟...

كان مصراً قطعاً، لم يعد لديه قبو كبير، مثلما في «الجينترون» كي يفكر على هواه!... ما كان لديه سوى الغرف الثلاث الصغيرة ليتجول... عاندا كلاهما، تشبثا برأيهما، تحاججا. حتى رأيت بأنهما كانا سيتماسكان بالشعر!... إذا لم أقد المعلمة إلى الخارج... كانت هي الأشد غضباً واحتجاجاً... جذبتها إذن نحو الرواق...

ـ سنعود بعد خمس دقائق!... قلت لها.. اتركيني أتصرف!... اتركيه هادئاً... إنه مضجر... أنت، أولاً، ينبغي أن أتحدث معك...

أرادت أن تأخذ فانوسها... لم تكن تلك لحظة مناسبة للقيام بنزهة!... كان الجو رطباً مع ذلك! يمكنني القول بانها كانت في ذروة هياجها، وأن الدم كان يغلي في رأسها.. ما عادت تكف عن الصياح.

ـ لقد فعلها بي، الخنزير، الشبق! النذل! فعلها بي، أنا، يا فرديناند!.. بي أنا!...

كانت تتحرك باضطراب شديد على امتداد سياج الحديقة... منحنية قليلاً إلى الأمام مع فانوسها... تهمهم بكل الشتائم... مررنا أمام بعض السقائف... وهناك قررت أن توقفني... دون أن تكف عن النحيب والنخير... أرادت ان تريني شيئاً... رفعت البكرات الكبيرة... فرأيت حينئذ بوضوح النبتات الخضر.. الغريسات الصغيرة... الطبيعة الدقيقة وسط الدمال...

ـ كل هذا يا فرديناند! كل هـذا! هـل تـسمعني؟ غرسـته أنـا.. أنـا وحدي!... وليس هو! آه! لا! بالتأكيد!»... كـان علـي أن أنظـر أيضـاً إلى اللفتـات الـصغيرة، والبزاقـات تزحـف فـوق أوراقهـا!... وأرى الأطباق الصغيرة من أجل الـيقطين... كانـت ترفـع جميـع الأغطيـة... جميع الإطارات... كان هناك هندباء أيضاً. تجولنا في كل مثلـث علـى حدة... وفي النهاية. ما عادت تتمالك نفسها... روت لي كـم تحملـت من عناء خلال فترة الجفـاف! كانـت ترفـع المـاء بالمـضخة، وتنقلـه بالأباريق... من هناك.. مـن صـنبور المـاء... في نهايـة الممـر... كـان حزنها يسكتها... فتجلس... ثم تنهض من جديـد. كـان علـي أيضاً أن أنتبه إلى البرميل الكبير من أجل ماء المطر... والذي لم يكن كافياً...

ـ آه! هذا صحيح!... انتفضت بعد ذلك... أنـت لا تعـرف أسـلوبه معي كزوج... إنه مع ذلك متدلل مغناج؟... أنت لا تعرف إذن شيئاً؟: ولكنه كريه بالغ الحقارة! آه! فهو لم يفعل ذلك بطريقة أفـضل! كنـت مع ذلك أقاومه، وأرفض أن يقتـرب مـني! يمكنـك أن تـصدقني! آه! مهلاً! ما لم أقله لك! كيف كنت أحتد وأدفعه بعيداً!... ولكن مـا مـن حيلة! على الإطلاق! كان عنيداً مثل ستة وثلاثين بغلاً! كـان يـصفعني على وجهي! ولكنني لم أكن أداعبه! يمكنك أن تصدقني! ومـن أجـل ماذا أداعبه؟ من أجل أن يقوض لي أفضل حباكي (قطعة أرض صـغيرة مزروعة محاطة بالقصب)، ويدمر لي أيضاً ثمانية عشر ثلماً مـن أثـلام الجزر! ثمانية عشر ببـساطة!... وأربعـة وعـشرين ثلمـاً مـن الأرضـي شوكي!... لكي يبني ماذا؟ لكي يبني مستودعاً!... خليق أن ترى ذلـك المستودع!... الخنزير لا يعثر على صغاره فيه!... علبة قمامة حقيقية، أقول لك! حفرة مملوءة بالأقذار! ذلك ما فعله بمشتلي الصغير!.

مررنا بتلك الناحية، قادتني بفانوسها...

كان ذلك كوخاً صغيراً واطئا، في الواقع، يبدو كما لو أنه مختف تحت سطح الأرض... مطمور كله تقريباً... كان سقفه فقط هو الذي يظهر للعيان.. نظرت إلى الداخل من تحت أغطيته... ركام هائل:...لا شيء سوى آلات مخلعة.. ملقاة بإهمال فوق بعضها.. مولد ضخم يعلوه الصدأ... خزان وقود مقلوب... دولاب ملتو.. محرك اسطواني.. كان ذلك من ابتكار كورتيال... كنت مطلعاً على ذلك بعض الاطلاع... إنه «مولد الموجات الكهربائية التيلورية»!.. كان هذا الجهاز يساعد على تعجيل نمو النبات... كانت تلك فكرة وأي فكرة!.. كان لدينا عدد خاص من اعداد «الجينترون» مخصص بكامله لهذا الموضوع: «مستقبل الزراعة بمساعدة الموجات التيلورية»... وثلاثة كتيبات أيضاً، وركام هائل من المقالات (مع أربع وعشرين صورة)... من أجل شرح طريقة استخدامها.. وفضلاً عن ذلك، فقد ألقى محاضرتين في البيرو، ومحاضرة في جوفيزي، لإقناع الفلاحين الصغار بفائدة ذلك... ولكن كلامه لم يلامس آذانهم.. وحسب رأي دي بيريري، فإنه يمكن بواسطة «جهاز لاستقطاب الضوء» توجيه حزم من التيارات التيلورية إلى جذور هذا الخضار، أو ذاك النبات!... وإلا فإن هذه الأشعة تضيع سدى، تتبدد تماماً. ولا يستفيد منها أحد قط!... «أقدم لكم، كان يقول لهم، طريقتي في الري الشعاعي تحت الأرضي، الأكثر نجاعة بكثير من أي ري بالماء! وابل التيارات الكهربائية! حامية الفاصوليات السماوية!». وحسب معطياته دائماً، وبقليل من اللوازم، فإن جميع الموجات المخصبة للمغناطيسية تحت الأرضية.. تصبح مهيأة تماماً!... لزيادة نمو سائر الخضار، حسب حاجة كل منها! في الفصل، وخارج الفصل!... كان هذا جميلاً مع ذلك!...

ولسوء الحظ، فبسبب استغراقه في المشاغل الصحفية العديدة، وبسبب العراقيل المتواصلة، والمتابعات الدؤوبة للجينترون، لم يتمكن من الانتهاء من تركيز نظريته... ولا سيما مكثفاته... لم تكن تلك المكثفات تعمل بنحو متزامن.. كان هذا بحاجة إلى مراقبة دائمة... قلما كان بمقدوره أن يشغلها أكثر من ساعتين أو ثلاث، يوم الأحد، لذا فإن الموجات لم تكن كافية.. ولكنه خلال أيام الأسبوع كان يغرق في مشاكل أخرى كثيرة! كان لديه ما يكفي من القيل والقال والمسابقات المختلفة!... لم تكن السيدة دي بيريري تؤمن بأشيائه التيلورية، على الإطلاق... «كررت له مراراً... ولكنني مهما غردت، مها غنيت، مهما عزفت، فإن الأمر سيان عنده.. لن ينجح قط بازارك الإشعاعي الرديء! هذا غير ممكن بالتأكيد! سيكون حماقة أخرى!... ستهدم المنزل بخنادقك! هذا كل ما سنحصل عليه من خضار! التيارات الكهربائية! ما دام هذا ما تريد الحصول عليه!... لن يبقى منه شيء في الأرض! إنها تتبدد في الفضاء أيها الأحمق!... هذا أمر معروف! ألا ترى العواصف! يكفي أن تنظر إلى الطرقات»!... كانا يبددان الكثير من النقود كي يمددا أسلاكهما التلفونية! وواقيات الصواعق إذن؟ لم تكن الحال سيئة مع ذلك! لو استطاعا توفير بعض النقود، إيه حسناً! ما كان عليهما أن يفعلا الكثير!... «كنت سأقول أي شيء كي لا يقوض مبقلتي!... «أنت تتلفظين بحماقات! تتلفظين بحماقات!» لم يكن يجيبني أبداً سوى بالشتائم حينما يرى أنني على حق!... كان يركب رأسه!... وإلا فإنه سينفجر بالأحرى!... آه! أنا أعرف هذا الرجل!.. مدعٍ؟ متغطرس؟ طاووس، ولكنه ليس شيئاً على الإطلاق!... لا يصغي قط إلا إلى الحماقات!... آه! يا لها من هدية جميلة! بعد ثمانية وعشرين عاماً من الصبر والتحمل!... آه لقد اكتفيت!.. تجرعت كؤوس المر التي أمكنني تجرعها... دون أي

جدوى مع ذلك!... وها هو ذا يبيعنا!... يصفّينا! بالتأكيد!... سيبيع قميصه! سيبيع قميصك، يا فرديناند! إنه يبيع كل شيء!... حينما يتملكه جنون التغيير!... فهو لا يعود إنساناً! وإنما طبل من الحماقات! معارض الطيران هي وحدها مكانه! إنه لا يشيخ قط! لا يتضايق قط! لا يتصدع قط!... أنا ألاحظ ذلك! ولست غرة مغفلة! إنه جهنمي! يا فرديناند!... ليست حالته مرضاً! إنها كارثة! ولكنني ما عدت أستطيع السير وراءه.. على الإطلاق! قلت له في البداية حينما تحدث عن طريقته الزراعية هذه... «أنت تهتم يا كورتيال، دائماً، بالأشياء التي لا تعنيك!... أنت لا تعرف شيئاً بالزراعة!... ولا كذلك بالمصاعد أو بصنع آلات البيانو!... ولكنه يريد أن يعرف كل شيء! ذلك هو عيبه، ومنذ البداية... أن يعرف كل شيء! أن يحشر أنفه في كل شق! أن يتدخل في كل أمر، ضياعه يكمن في ادعائه!... فهو يعود اليوم ليتحدث في الكيمياء! ويعود غداً ليتحدث عن آلات الخياطة! وبعد الغد عن الشمندر! ثمة شيء جديد دائماً... ولكنه لا يفلح في شيء بالتأكيد... إنه مؤهل فقط للمناطيد ذلكم هو نسيجه!... كان هذا رأيي ولم أتراجع عنه يوماً! ما كففت قط عن تذكيره بذلك: «يا كورتيال! منطادك! يا كورتيال! منطادك! إنه الشيء الوحيد الذي تجيده! ودونه لن تجني سوى الخيبات! ولكن لا طائل في الإلحاح! خبرتك الحقيقية هي التحليق بالمنطاد! ما من شيء سواه يمكن أن ينقذنا! إذا ما تمسكت بأشيائك الأخرى فستكسر رأسك! سننتهي إلى الخراب! سنصنع زهوراً من ورق!» قلت له ألف مرة! تنبأت، أعدت وكررت! تمسك يا كورتيال بشطيرة الزبد القديمة! منطادك! ولكنه ما عاد يطيق حتى أن أتكلم لفرط ما كان غبياً حينما يعاند كالخنزير! لا يمكن قول عكس ذلك! كنت أنا من يتحمل! فالسيد كان «كاتباً»... لم أكن أفهم شيئاً في الأمور! كان «عالماً»، كان «نبياً»، كان ما لا أدري!

ولكنـه عـاجز عجـزاً مطلقـاً! سـلاب نهـاب حقيقـي! مهـرج! حثالـة قذرة!... نطناط!... أفاق، قلت له ذلـك! لا ذمـة ولا ضـمير! أحمـق حقيقي، ذلك ما يستحقه!، وهو ما سيحصل عليـه! هـي ذي النتيجة الحقيقية لكل ذلك! نعم! انظر إليه كيف غدا!... يطلق إسهاله في كـل مكان! لم يعد يعرف أين يضع رأسه!... يظن بأنني لا أدرك شـيئاً ممـا يجري!.. عبثاً يريل ساعات بكاملها لاسترضائي! ولكـنني لا أنخـدع! أعرف مع ذلك كيف أتخلص من كل ذلك!... لن يمر هذا بـسهولة!.. آه! ولكن لا! ينبغي أن لا ينخدع هو آه! دقيقة! دقيقة! ولكنني لـست خادمة!...».

كانـت تعـود إلى فكرتهـا الثابتـة!... لتتحـدث مـن جديـد حـول «الزيلي»... عن الفترة الأولى من زواجهما... والصعود معاً بالمنطاد... لم يكن من السهل! إذاك أن يتعاظم كثيراً...

لم يكونا يملكان قط ما يكفي من الغاز... كان الغـلاف هـشاً وغـير قابل للترميم... ومع ذلك، فقد كانا في النهاية شابين، وكانت تلك هي الحقبة الزاهية.. كانت تصعد بالمنطـاد كـل أحـد، مـع دي بيريـري... وخلال أيام الأسبوع كانت تعمل قابلة... إضافة إلى عملـها بالحجامـة أيـضاً... كانـت قـد تعرفـت علـى الـدكتور بينـارد الـذي ولَّـد زوجـة الامبراطور... داهمها الانفعال وهي تتحدث عن ذلك... كان بينارد هذا طبيباً عالمياً للتوليد... كنت أشعر ببرد قارس بـين أحـواض مبقلتـها... كانت السماء شديدة الزرقة، وكذلك النـواحي المحيطـة بنـا... كنـت أرتعد من البرد، فأخذت أراوح في مكاني، وأضـرب الأرض بقـدمي لأدفئهما... ارتقينا الممر الصغير المرتفع مئة مـرة... ثم نزلنـا ثانيـة... وعادت تحدثني عن الرهون العقارية... كان منزلهما مبنياً مـن حجـارة صوانية... لا شك أنه قد كلف نفقات باهظة!... هذا إن كنـت أصـدق

بأنه قد سدد حقاً ما كان يدين للمهندس به؟ لم يكن بوسعي أن أعرف كل شيء... فقد كان منغلقاً متكتماً! لم أكن أعرف أيضاً ذلك المدعو رامبون!... ما كنت رأيته قط... وقرض ليمانتال... ما كنت أعرف شيئاً عنه أيضاً! لم أكن في المحصلة، أعرف شيئاً على الإطلاق.

على هذا النحو، وفيما نحن نسرح بأنظارنا بعيداً، بدأنا بتمييز أشكال البيوت الأخرى... والأراضي البور الفسيحة خلفها... والمداخن العالية... ومصنع أركوي، الذي تفوح منه روائح القرفة فوق الكروم والمستنقع، رأينا الفيلات المجاورة... وألق الألوان المختلفة تتمايز شيئاً فشيئاً... كأنما هي في عراك حقيقي، متواثبة وسط الحقول في شبه مهرجان. تلكم ملحمة للون الأصفر والقرميدي، والبولي... ليس ثمة لون منها يثبت في ذلك الفضاء!... لعبة يويو (لعبة الأطفال) وسط الخراء!... داخل البقعة المسورة، على مقربة منا، كان هناك أثر تاريخي حقيقي صغير، كنيسة مصغرة مهجورة، جدرانها من ألواح خشبية منتظمة، نوع من نوتردام، مهرجان للأبنوس!... في داخلها كان كورتيال يربى الأرانب.

كانت المعلمة تتحدث، تثرثر أيضاً، تشرح لي كل شيء!... وفي النهاية، داهمها شعور باليأس والخيبة... لم تعد تجد ما تتحدث عنه... كان ذلك حسبها... كنا قد أمضينا ساعتين كاملتين في الخارج، تحت سياط ريح الشمال!...

- هذا يكفي! إنه يهزأ بنا.. يزعجنا بتكشيراته مع ذلك! سأخرجه أنا أيضاً، مهلاً... سأمسح به الأرض ذلك السوقي القذر!... هلم من هنا يا فرديناند! من باب المطبخ! لقد جاوز الحد هذا المهرج القذر... أخشى أن أصاب بذات الجنب... وتسلقت العجوز بسرعة درج المدخل... وفي اللحظة التي فتحت الباب، إذا بدي بيريري أمامنا

مباشرة، وقد برز من الظل... جاء يبحث عنا بالتأكيد... متبهرجاً على نحو مضحك... كان ملتفاً كلياً بغطاء الطاولة الكبير، على طريقة الحجاج، مع فتحة أخرج منها رأسه...، متزنراً بحبل غليظ؟... هبط الدرجات الخمس على هذا النحو، وقادني من ذراعي إلى الممر... كان يبدو مأخوذاً بفكرة ملكت عليه لبه، واستحوذت على اهتمامه كلياً... جرني إلى طرف الحديقة، وأمام الحوض الكبير... انحنى إلى الأرض واقتلع فجلة، وأرانيها، وضعها تحت أنفي...

ـ هل رأيت؟... قال لي... انظر إليها جيداً!... هل رأيتها؟... هل رأيت حجمها؟... وهذا الكراث، رأيته أيضاً؟ هل رأيته أيضاً، قل، هذا الآخر؟...

خضار غريبة، لم أتعرف عليها مع ذلك...

ـ هل رأيتها؟.

ـ نعم! نعم! أجبته.

ـ تعال إذن من هنا! بسرعة! بسرعة! وقادني إلى الطرف الآخر من الحديقة... انحنى إلى الأرض، جثا على ركبتيه، وزحف قليلاً، ادخل يده بكاملها عبر السياج القصبي... كان يلهث... وطفق ينبش في حديقة جاره الملاصقة... اقتلع فجلة... ورفعها نحوي.. عرضها علي... كان يريد مني أن أقارن... بدا منتصراً... كانت هذه الفجلة، في الحقيقة صغيرة جداً... ضامرة جداً بالتأكيد.. ما تكاد تلوح للنظر... باهتة اللون! وضع الفجلتين كلتيهما تحت أنفي، فجلته وفجلة جاره.

ـ قارن، يا فرديناند! قارن!... قارن! أنا لا أقنعك أو أؤثر عليك! استنتج أنت بنفسك!... لا أدري ما الذي استطاعت أن تقوله لك السيدة دي بيريري! ولكن انظر قليلاً!... دقق النظر! رز بيدك...

الفجلة الضخمة! فجلتي! بأشعة تيلورية! انظر أما فجلته فمن دون أشعة.هي صغيرة جداً كما ترى! قارن! هو ذا! لن أضيف شيئاً!لماذا تشوش أفكارك... النتائج وحدها كافية!... ما يمكن أن نفعله!... ما يتوجب أن نفعله! بمساعدة هذه الأشعة! وأنا لا أمتلك هنا، لاحظ ذلك بدقة. في هذا الميدان الشائك سوى مساعد تيلوري بسيط!... مساعد! أكرر لك!... ليس من النوع الكبير الذي يصدر زوابع من الأشعة!... أحكم إذن بنفسك... هلا فهمتني؟ لا؟ أنت لم تفهمني؟ أنت مثلها!... لا تفهم شيئاً!... ولكن بلى! ولكن بلى! بوجه الضبط! عميان! والفجلة الضخمة! أما رأيتها مع ذلك؟ أما حملتها بيدك؟ والفجلة الصغيرة! أما رأيتها أيضاً؟ الفجلة الضامرة! الهزيلة! التي هي جهيض الفجل؟ إنها مع ذلك وبكل بساطة فجلة؟... لا، ليس هذا بسيطاً؟ انتبه! أنت تجردني من أسلحتي!... وفي مقابلها فجلة ضخمة جداً، يا فرديناند! افترض أن هناك فجلة ضخمة!... انتبه! ضخمة مثل رأسك!... افترض أنني أضخمها هكذا، بمساعدة دفقات تيلورية!... إذن؟ ما قولك؟ فتغدو مثل منطاد حقيقي!... آه؟ ثم أصنع مثلها مئة ألف!... من الفجل! دائماً من الفجل! أكبر فأكبر حجماً، كل سنة حسبما أريد!... خمسمئة ألف... من الفجل الضخم! حجوم هائلة من الفجل! آه لم تر عين مثلها قط! ولكنني سأنهي هكذا بضربة واحدة كل الفجل الصغير! أكتسح السوق! أنشئ تروست! أحتكر السوق! مستحيل! كل هذه الرعلات النباتية، هذه الترهات! هذه النفايات البقلية القذرة!... أريد فجلاً بالغ الضخامة! تلك هي العبارة المناسبة! المستقبل ينتمي إلى الفجل! إلى فجلي أنا!... وما الذي سيمنعني؟... التسويق؟ العالم بأسره!... هل سيكون فجلي مغذياً! سيكون خارقاً!... سيكون طحين الفجل أغنى بخمسين بالمئة من

الفجل الآخر.. سيكون «الخبز الفجلي» من أجل المواشـي!... متفوقاً بالتأكيد على كل الحنطة الاسترالية!... لقـد قمـت بالتحاليـل!... هـل فكرت في ذلك إذن! أليس هذا واضـحاً؟ ألا يعـني لـك شـيئاً؟ ولها أيضاً!... ولكني لو تفرغت للفجـل... كـي آخـذ الفجـل كمثـال! لأن بإمكاني أن أختار اللفت!... ولكن لنركز حديثنا الآن علـى الفجـل!... فتسكون المفاجأة مذهلة! آه! إذن! سأهتم به!... سأوليه كل اهتمامي منذ الآن!.. كل اهتمامي! هل تسمعني؟... أنت ترى من هنا؟..

لم يكن يفلـتني لحظـة، قـادني إلى الجهـة الجنوبيـة... ومـن هنـاك، لاحت لنا باريس برمتها!... أشبه بحيـوان هائـل، منـسحقة عـبر الأفـق.. كانـت سـوداء، رماديـة.. كانـت ألوانهـا تتبـدل.. يتـصاعد منـها البخـار والدخان... مـصدرة ضـجة كئيبـة، هـادرة بـبطء.. بـدت لي علـى غـرار قوقعة... تلـوح فيهـا فرضـات.. ثغـرات.. شـوكات تنـشب رؤوسـها في السماء... لم يكن دي بيريري ليبالي بكل ذلك، كـان لا ينفـك يتحـدث، يعلّق على المشهد... وقف أمام الدرابزين.. وأطلق صيحة خافتـة.. فتـردد الصدى بعيداً في الأسفل...ثم تضخم فوق المقالع الصخرية...

ـ انظر يا فرديناند! انظر!...» حدقت أيضاً حتى جحظـت عينـاي.. بذلت أقصى جهدي.. كنت متعباً جداً في الحقيقة.. لم أكن أرغـب في أن يستأنف حديثه من جديد...

ـ بعيداً، يا فرديناند! بعيداً جداً! هل ترى المدينة الآن؟ في الطرف القصي! هل ترى باريس؟ العاصمة؟...

ـ نعم! نعم! نعم!... هذا صحيح بالفعل!...

ـ إنهم يأكلون، أليس كذلك؟.

ـ نعم يا سيدي كورتيال!..

ـ في كل يوم، أليس كذلك!...

ـ نعم! نعم! نعم!.

ـ إيه حسناً!..اصغ إلي أيضاً.

صمت قليلاً... عانق الفضاء بجلال... وبسط يديه... فتح دثاره الفضفاض... وبدرت منه حركات غريبة... سيطلق ولا شك تحديات أخرى؟... كان يضحك هازئاً... كان متشنجاً.. وراح يطرد... يدفع عنه... رؤيا.. شبحاً.. يضرب رأسه بيديه... آه! هناك نعم! تباً! كان قد خدع! آه! سهواً! ومنذ زمن طويل! آه! ثمة غلطة لم يحسب لها حساب!...ثم سألني.. استجوبني!.

ـ قل إذن، إنهم يأكلون يا فرديناند!... يأكلون! نعم! هو ذا! إنهم يأكلون!... وأنا المجنون الشقي! أين كنت؟ أيتها البسالة المغدورة! لقد عوقبت! أصبت في الصميم! نزفت! هذا ما حدث! هل أنسى؟ أنا؟.. آه! آه! آه! سوف أعاملهم كما هم! وحيث هم! في بطنهم، يا فرديناند! وليس في رأسهم! في بطنهم! زبائن من أجل بطونهم! سأتوجه إلى بطونهم، يا فرديناند.

ثم خاطب المدينة أيضاً.. كل المدينة! هناك حيث تهدر وسط الضباب..

ـ اصفري! اصفري، يا فاجرتي، دمدمي! وزمجري! وانخري! أنا أسمعك!... شرهون!.. شرهون!.. سيتغير هذا عما قريب يا فرديناند!... شرهون! أقول لك!...

هدأ روعه. شعر بالثقة! ابتسم لي!.. وابتسم لنفسه:

ـ آه! كل هذا قد انتهى! أقسم لك على ذلك!... آه! يمكنك أن تصدقني! يمكنك أن تكون شاهداً! تستطيع أن تقول ذلك للمعلمة! آه! العجوز البائسة! آه! لقد انطوت صفحة شقائنا! آه! فهمت! هذا

أكيد! لقد كابد عقلي العذاب! سخروا منه! طاردوني! بصقوا علي! في قلب باريس! حسناً! حسناً! فيلكن! فليذهبوا جميعاً ليتقيحوا! فليقرض الجذام لحومهم! فلينطبخوا في مئة ألف قدر مملوءة بالمخاط والعناكب! سأحركهم أنا بنفسي داخل القدور! ألا فليتحللوا! فليتقلبوا تحت سياط الغنغرينا! هوذا خبز مبارك من أجل هؤلاء المتقيحين! إذا أرادوا أن يستردوني! فأنا ما عدت هنا!... اللهم كفى، يقول العقل! كفى للمآتم!.. للكروش، يا فرديناند!... لنوبات المغص الحاد! أواه! للروث! أوه! للتخبط! بوواه! ولكنه العرس! التحدي؟ ها أنذا! فلينظروا إلى ما حققته من مجد؟ أنا كورتيال! الحائز على جائزة بوبينكورت! وعلى كل النياشين! وألف وسبعمئة واثنتين وعشرين طلعة بالمنطاد!.. أما عن الفجل! نعم! سأريك ما سوف أفعله! ستراني بعينيك! أيها المجد! يا إيريني! أيهذا الحسد الرهيب!.. ما من ساعة أضيعها!. كان يتفحصني قليلاً بنظره.

وسط هذا الطمي المخصَّب في حديقتي الصغيرة.. هذا الترب الرملي! ها هنا:؟ بوواه! نجحت تجاربي! زراعتي الصغيرة! هذا كاف!... ما من وقت أضيعه! كان يعود ثانية إلى فرضياته المجردة، ضاحكاً بهزء!... كان ذلك مضحكاً جداً!...

«أوه! مهلاً! انزع عني كل هذا !... » وكنس بنظره بيته البائس.

ـ إلى الريف! آه! هناك! نعم! إلى الريف؟ آه! هناك سأحط رحلي! الفضاء؟ الغابة؟.. تربية الدواجن؟.. الضروع المترعة بالحليب! الشوفان! الطيور! فليكن!... وبإمكانك أن تصدقني، حول الفجل!... انظر إليَّ جيداً!... بكل الموجات التلورية إذن! كلها، هل تسمعني!... موجات حقيقية!.. سترى كل ذلك يا فرديناند! كل شيء! كل صلصة الموجات!.. كل قصف الموجات!...

كانت المعلمة تسند ظهرها إلى السياج القصبي، بعد أن فقدت القدرة على الوقوف على قائمتيها.. كانت تشخر قليلاً.. هززتها كي تعود إلى الغرفة...

«سأعد لك قليلاً من القهوة!... أظن أنه قد بقي لدينا القليل منها» قالت لي.. ولكن عبثاً كانت تبحث... فقد تجرعها الخبيث كلها، ثم التهم الباقي.. كان قد أفرغ خزانة المطبخ بكاملها.. لم يترك فتاتة خبز! جبنة الكممبير كلها تقريباً! خلال الفترة التي كنا نكتوي فيها من البرد!... وحتى علبة الفاصولياء، مسحها عن آخرها!... سحقاً! وفجأة رأيتها متجهمة هناك!...

صحنا به كي يعود... «سأذهب إلى مركز البريد! أجابنا من بعيد.. سأذهب إلى مركز البريد!... » كان الآن في عرض الطريق... لم يكن مجنوناً.

* * *

قضينا النهار كله نائمين.. كان علينا في الغد أن نخلي المنزل!... كان صحيحاً أنه باع المنزل! وجزءاً من الأثاث أيضاً... كل هذا في صفقة واحدة.. وفضلاً عن ذلك، فقد دفع المتعهد الذي اشتراه سلفة صغيرة كي نخلي المنزل بأقصى سرعة... كان خليقاً رؤية هلعه من أن يهدموا كوخه قبل أن يخرج منه!..

في اليوم ذاته.. عند الظهيرة، وبينما كنا نتناول شيئاً من الطعام شرع المتعهد الذي اشترى المنزل يذرع المكان جيئة وذهاباً أمام سور الحديقة الشبكي... لم نكن راغبين في أن نتركه يدخل، صرفناه مرات عدة... كان خليقاً أن يدعنا نتم طعامنا... سحقاً! ولكنه ما فتئ يقف أمامنا بنفاد صبر، ذلك الكريه! كانت مجرد رؤيته تثير رعبنا... كان يمشي مثبتاً قبعته بيده..يهشم حواف السور، وينتزع قطعًا منها.. ثم ما

يلبث أن يسير مسرعاً، ويداه خلف ظهره.. محنياً إلى الأمام، متغطرساً. كان يروح ويجيء مثل حيوان في قفص! ولكنه مع ذلك كان ما يزال على الطريق العريض! وفوق ذلك، كان يصيح بنا كل خمس دقائق عبر البوابة: «هدئوا من روعكم، انتبهوا إلى حمامي على الأخص! لقد رأيت الحوض! كان سليماً! انتبهوا إلى الحوض! فهو يكلف مئتي فرنك!...».

ثم ينفد صبره بعد لحظة، ولا يطيق الانتظار!.. فيدخل إلى الحديقة مع ذلك، ويسير في الممر ذهاباً وغياباً... كنا ننزل جميعاً مسرعين.. وندفعه دفعاً خارج الحديقة... لم يكن ذلك من حقه! كان كورتيال ناقماً جداً على ذلك الوقح!...

«لن تحوز على ملكية البيت إلا في الساعة السادسة مساء! حتى وقت الغسق! يا سيدي الكريم! حتى وقت الغسق!... هذا محدد بوضوح في شروط البيع...» كان ثمة ما يدفعه إلى التخلي عن الرزانة!...

ولكن الآخر كان يعود إلى المراقبة، متذمراً أكثر فأكثر، إلى حد أننا أغلقنا النافذة كي نستطيع مناقشة أمورنا بنحو أفضل... كيف كنا سنغادر وشيكاً؟ وبأي اتجاه؟ كم بقي معنا من النقود؟ تلك التي مع كورتيال؟، والتي معي؟.

كان من المؤكد بأن خطة دي بيريري الزراعية، وآليته الشعاعية الأرضية ستكلفنا مبالغ طائلة! كان يقسم أيماناً مغلظة بأن ذلك لن يكلف غالياً جداً.. أخيراً، كان المشروع مغامرة... لم يكن أمامنا إلا أن نصدقه.. كان لديه مكان من أجل مغامرته هذه.. على تخوم السين إيواز، قريباً من بوفيزيه... فرصة ثمينة... حسب زعمه... ثمة مزرعة بكاملها، سيتركونها لنا، بلا أي مقابل.. بالإضافة إلى وكالتها التجارية

بالطبع... لقد طوّقنا السوقي الداعر! كنا جزءاً من مشروعه! كان قد أرسل برقية إلى صاحبها بهذا الخصوص... أخرج من جيبه إعلاناً صغيراً، ورقة صغيرة بعنوان «صدى المزدرعات». كان مستمتعاً برؤية رؤوسنا مشرئبة نحوه، لنصغي إليه... لم نكن أنا والجميلة الضخمة رائقي المزاج... «أرض من عدة قطع، في جنوب البلاد. صالحة لزراعة البقول، ليس بنحو حصري... مع أبنية ذات صيانة تامة.. الخ...

_ تشجعوا! تشجعوا! عجباً! ماذا تريدون أن أكتشف لكم؟ شاليه في غابة بولونيا؟.. أو في باغاتيل؟... كان خليقاً أن يخبرني!... شرع يحلم بالآفاق المستقبلية... كان يجيد القراءة بين السطور، في ورقة الملكية الزراعية. كان علينا أن نهتبل الفرصة الآن أو أنها ستضيع إلى الأبد!...

كنا كلما ازدردنا لقمة أثناء الغداء، كان مالك البيت الجديد يزيد من جلبته، كان متشنجاً عن السور الشبكي... وقد أثار شفقتنا حقاً بعينيه اللتين خرجتا من محجريهما... وهبطتا إلى وجنتيه... كان يعوي دون توقف، حتى ما عاد بوسعه أن يغلق فمه... كان يصدر الآن فقاعات كبيرة من فمه.. لن يتمالك نفسه بالتأكيد حتى الساعة السادسة! كانت لهفته عنيفة جداً!... «الرحمة! الرحمة!» طفق يتوسل إلينا بضراعة...

كان على كورتيال أن يتعجل قليلاً في التهام جبنته، ويهرع إلى مركز البريد، كي يؤكد موافقته على استثمار تلك الملكية. تركنا الزبون يدخل، فجعل التعيس يلعق درج المدخل، عرفاناً بجميلنا!.

انهمكت مع السيدة دي بيريري في ترتيب الأمتعة... وجمع سائر الأطمار، والقدور، والفرش... ما لم يكن قد بيع!... كل ما كنا سنحمله معنا خلال مغامرتنا!.. وفوق ذلك، كان علي أنا أيضاً أن

أذهب تحت جنح الظلام حتى قناطر مونتبانسييه لأتأكد مما إذا كان بمستطاعي إنقاذ أي شيء من بين الأنقاض والحطام؟ إذا ما كنت سأجد وسيلة لإنقاذ آلتنا الناسخة، الجديدة جداً، عنوان فخرنا! الرائعة، والضرورية جداً... والفرن الصغير الذي يعمل على الزيت؟ وربما أيضاً، وفي الوقت نفسه ثلاثة أو أربعة رزم من الكراسات والكتيبات القديمة؟... وخصوصاً ما يتعلق بنشأة الكون، وبنبات الحلفاء، والتي كان كورتيال حريصاً عليها.. عسى أن لا تكون الفرصة قد أتيحت لأولئك الوحوش لتدمير كل شيء؟ وأن يكون قد بقي القليل سليماً تحت الحطام... مثل مقياس الارتفاعات الدقيق الذي أهدي إليه من أميركا الجنوبية!... سيداهم الاكتئاب كورتيال إن لم نعثر عليه، وننقذه من المحنة!.. أخيراً! سأقوم بالمحاولة!... كنت مستعداً على هذا النحو!... ولكن ما كان هزلياً جداً هو أن السيدة دي بيريري كانت تريد الذهاب أيضاً!... ما كان لديها الثقة على الإطلاق! كانت تريد التأكد بنفسها!... بصدد استعادة الأشياء لم تكن تقبل بأن تتركني اذهب وحدي!... !... «سأذهب معك، يا فرديناند! سأذهب معك!...» لم تكن قد رأت بعينيها كل فصول الكارثة!...كانت تحتفظ ببعض الأمل!... معتقدة ربما بأننا سننقل الأشياء بالعربة!...

عاد كورتيال من مركز البريد، جال هو والسيدة دي بيريري في الغرفة لإ فراغ ما تبقى من خزائن الحائط الأخيرة.... كان قد تجادل مع المتورم الآخر... الذي لم يكن يكف عن الاحتجاج بأننا قد خرقنا الشروط!... لم يكن بد من التصادم معه كي نستطيع تخليص ثيابنا من براثنه، وبعض الحقائب الأخرى... وقد أثار هذا غضبه زاعماً أن حقوقه قد هضمت، دفعناه إلى الخارج دفعاً كي يتعلم اللياقة والأدب! فشرع ذلك الفظيع يدفع أعمدة السور الشبكي حتى قلبها

بكاملها.. ولبد في داخل الحديقة متجمداً في مكانه مثل جرذ!... ما رأيت لدى مالك قط مثلما رأيت لدى هذا الرجل من التشنجات العنيفة! كان مالكاً فظيعاً!... لم يلاحظ أيضاً. لفرط ما كان مبلبلاً، خروجنا أنا والعجوز.. وفي المحطة صعدنا في قطار عائد إلى المدينة.

حين وصلنا إلى باريس، كان الوقت متأخراً جداً، حثثنا الخطى... وفي الشوارع المؤدية إلى «القصر الملكي» لم نصادف أحداً... كانت جميع الحوانيت المجاورة قد أقفلت أبوابها. أما قصرنا فما عاد سوى حفرة فاغرة فاها باتساع.... لجة من الخراب تراكمت فيها عوارض خشبية ضخمة مخلعة ومحطمة... أدركت العجوز حينئذ بأن ما جرى كان كارثة حقيقية!.... لم يبق أي أثر لمكتب "الجينترون"! لم يكن ذلك مزاحاً أبداً!... لا شيء على الإطلاق سوى ركام قذر مقزز.. انحنينا فوق الثقب الواسع، وأنعمنا النظر في البقايا الباقية من الأشياء... استطعنا التعرف على قطع كبيرة من قصرنا الحصين!... كان ما يزال هناك أيضاً الجهاز المسيخ! المنجنيق الرهيب، غائصاً على نحو مائل وسط اللجة، بين صقالة السقف والقبو، مغلقاً الفجوة!... حين رأت الأم كورتيال كل ذلك، أرادت أن تجرِّب مع ذلك، أن تنزل إلى قاع الهوة... كانت تأمل في أن تجد شيئاً ما يمكن إنقاذه.. حذرتها بأنها كانت تخاطر، على هذا النحو... إذا ما لمست أي شيء... فستجعل الأنقاض بكاملها تنهار!... وتسحق رأسها!... ولكنها أصرت على النزول... واندفعت بتوازن فوق العارضة التي كانت ما تزال معلقة... كنت أمسك بيدها... من فوق.. وقد غلبني التوتر وأنا أراها تتمايل فوق الهوة... كانت قد حزمت كل تنانيرها وشمرتها حتى خصرها. وحين لمحت بطرف عينها فجوة بين الجدار وجهاز الغوص.... هبطت منها، واختفت في قلب الظلمة... كنت

أسمعها تنبش في قاع الهوة.. نبهتها حينئذ إلى الخطر المحدق بها... كنت أرتعد فرقاً... كان صدى صوتي يتردد كما لو في داخل كهف... لم تعد تجيبني.. وبعد مرور نصف ساعة تقريباً صعدت إلى حافة الثقب... كانت هي التي نادتني لأساعدها على الصعود...أمسكت، لحسن الحظ، بعرى قميصها.. جذبتها بكل قواي.... فبرزت إلى السطح... كانت قد تمرغت كلياً بكتلة الأقذار... لم تكن أكثر من صرة ضخمة... رفعتها إلى حافة الفجوة... حتى بلغ مني الجهد!... كان ثمة مقاومة هائلة تشد إلى الأسفل... رأيت بأنها كانت تسحب وراءها أيضاً شيئاً ما... قطعة كبيرة من غلاف المنطاد!... جزءاً بكامله من «الأرخميدس...» عريضة للغاية! كنت أعرف جيداً هذه الأنقاض، وقد أخفيتها أنا بنفسي بين العداد والنافذة الصغيرة، كان لديها ذاكرة ممتازة! كان البشر يرين على محياها...

ـ هذا سيفيدنا، أنت تعلم! كانت تقول لي مبتهجة. إنه من الكاوتشوك الأصلي! الحقيقي! وليس مزاحاً! ليس لديك فكرة كم هو متين...

ـ ولكن نعم! ولكن نعم!... أعرفه جيداً، كنت أقطع منه كثيراً لصنع وصلات في جلد منطادنا... ولكن هذا كان ثقيلاً جداً، عظيم الحجم... وحتى بعد طيه إلى حجم أصغر، كان يشكل حزمة حقيقية مع ذلك... كبيرة وثقيلة بوزن رجل تقريباً... لم تقبل أن تتركه هنا.. عزمت على أخذه بأي وسيلة...

ـ أخيراً، فلنسرع... قلت لها.. كانت قوية البنية، حملته على ظهرها، وانطلقت به.. رافقتها مسرعاً حتى شارع رادزويل...ثم قلت لها:

ـ تابعي السير إلى الأمام، يا سيدتي، ولكن لا تسرعي الآن! سيري بتمهل!... توقفي عند كل ناصية من نواصي الشارع. حاذري

من العربات! لديك الوقت كله! أنا أتبعك!.. سألحق بك في شارع لافاييت! علي أن أعرج على «الإيموت»؟ ليس ثمة فائدة من أن يروك هناك... تركت مفتاحاً مع الفتى هناك!... مفتاح المكتب!... أريد أن أسوي بعض الأمور!.

لم تكن تلك سوى ذريعة كي أعود أدراجي، كنت أود أن ألقي نظرة تحت القناطر لعلي أعثر على فيوليت... كانت تقف في مثل هذا الوقت في غاليري كولونيال... لمحتني من مسافة بعيدة.. فشخصت بأنظارها إلي!... وهتفت: «يوب! يوب!...» ثم أقبلت علي متهللة.. كانت قد رأتني مع العجوز... ولم تجرؤ على الظهور أمامها... تحدثنا حينئذ بصراحة، وروت لي كل التفاصيل... ما الذي جرى منذ رحيلنا.. بعد وقوع الواقعة... أي اضطراب ألم بالغاليري! لم تتوقف الأوضاع عن التأزم دقيقة واحدة! حتى النساء من صويحباتها تعرضن لاستجواب البوليس، والرد على ألف سؤال من أسئلتهم!... كانوا يغمرونهن بالكلام المعسول للوشاية بنا، والتحدث عما كنا نقوم به!... إذا ما كنا نبيع الأفيون؟ أو نتعاطى القمار؟ أو نضع الرهون في السباقات؟ أو نعرض صوراً خلاعية؟ إذا ما كنا نستقبل أشخاصاً غرباء؟ أو إذا ما كان لدينا مسدسات؟ أو نستقبل فوضويين؟ استولى الرعب على الفتيات... وما عدن يتجرأن على العودة أمام أنقاضنا! صرن الآن يمارسن الصيد في غاليريات أخرى... وقد استحوذ عليهن منذئذ هلع من أن يصادروا منهن بطاقاتهن! حصدت الفتيات كل النتائج!... كان الجميع يشكون ويتذمرون منا.. كل التجار المتاخمين لمكتبنا كانوا يتميزون غيظاً، ثائرين ضدنا على نحو لا يصدق... ينفثون حقدهم وضغائنهم على نحو مسعور. وقد قدموا عريضة إلى مركز بوليس السين، يطالبون فيها بتطهير «القصر الملكي» حتى لا يعود وكراً للفسق والدعارة! لم يكن

ذلك ملائماً لهم! ما كانوا أيضاً راغبين بأن تتلوث سمعتهم بسببنا كظواهر ساقطة منحطة!... أما فيوليت التي كانت تستلطفني وتؤثرني فكانت ترغب بأن أبقى... ولكنها كانت على يقين من أننا إذا عدنا إلى هذه المطارح، فسنثير احتجاجاً عنيفاً ضدنا، وسيقودوننا إلى السجن فوراً!... كان ينبغي أن نتخلى كلياً عن البحث بين الأنقاض!.. الفرار! الفرار! ينبغي أن لا تقع عيونهم علينا ثانية!... لن يجدينا التظاهر بأننا ضحايا تعساء!... كان ذلك رأيي أنا أيضاً!... الفرار، هو ذا كل شيء! ولكن بالنسبة إلي، ما الذي سيكون علي أن افعله إذا بقيت؟ كيف سأعمل؟ لقد أرَّقها هذا قليلاً... لم يكن بوسعي أن أحدثها كثيراً!... فأنا لم أكن أعرف الكثير عما نحن مقبلون عليه.... كنا ذاهبين إلى الريف بالتأكيد.. حينئذ ارتأت، على الفور، حينما سمعت بذلك، بأنه سيكون بوسعها أن تأتي لتراني في الريف... لا سيما إذا ما سقطت فريسة للمرض!... كان هذا يوافيها بين حين وآخر! وفي كل مرة، كان عليها أن تبارح عملها أسبوعين أو ثلاثة على الأقل، ليس فقط بسبب مرضها، وإنما أيضاً من أجل رئتيها.. كانت قد بصقت دماً أكثر من مرة... لم يكن السعال يعاودها في الريف... كان هذا علاجاً ناجعاً بالتأكيد.. على هذا النحو، اتفقنا فيما بيننا.. كان علي أن أكتب لها أولاً، على البريد المسجل... لكن الظروف حالت دون ذلك... كان هناك عوائق كثيرة.. لم أستطع أن أحافظ على وعدي لها.. كنت أؤجل دائماً رسالتي إلى الأسبوع المقبل... ولكنني مررت بالقصر بعد انقضاء سنين على ذلك... كان هذا في أيام الحرب.. لم أعثر عليها بين الأخريات... سألت عنها كل النساء... ذكرت أمامهن اسمها، فيوليت... فلم أسمع منهم أي خبر عنها... ما من واحدة كانت تتذكرها... كن جميعهن جديدات...

غادرت فيوليت إذن في تلك الليلة... كان علي أن أتحمل مشقة أخرى... فقد قررت أن أعرج على باساج بيريزيناس. كي أخبر والديّ بأنني كنت راحلاً إلى الريف مع دي بيريري... كي لا يقوما بأية حماقة... كأن يبحثا عني عن طريق البوليس...

حينما وصلت كانت والدتي ما تزال في مخزنها ترتق بضاعتها الرخيصة.. نزل والدي في تلك اللحظة... كان قد سمعنا نتكلم... لم أكن قد رأيته منذ عامين... وبدا لي فجأة، مخيفاً وسط ذلك الغبش الذي ينشره ضوء الغاز والذي كان يجعل الوجوه كابية!... ولأنه فوجئ بوجودي، ربما، بدأ يفأفئ ويتلجلج، بحيث أنه اضطر إلى الصمت... ما كان قادراً على أن يلفظ كلمة واحدة!... لم يكن يفهم أيضاً ما كنت منهمكاً في شرحه، بأنني كنت ذاهباً إلى الريف. لم يبديا كلاهما أي مقاومة أو اعتراض... لا!... كانا يريدان أي شيء!... شريطة أن لا أعود قط إلى العيش في كنفهما ثانية!... وسواء تدبرت أمري هنا! أو في أي مكان آخر! لا يهم كيف! فإن ذلك لا يعنيهما في شيء!.. في ليل دوفرانس أو في الكونغو... لم يكن ذلك يقلقهما بأي حال من الأحوال.

كان والدي يبدو محطماً، بثيابه القديمة، وبناطيله الفضفاضة على الأخص!... كان قد اعتراه هزال شديد، وظهرت على وجهه الغضون والتجاعيد، كان ينظر إلي من تحت واقية قبعته المندفعة إلى الأمام... لم يكن يفهم معنى العبارات... عبثاً كنت أكرر له بأنني أعتقد بأن هناك مستقبل للزراعة...«آه! آه!» كان يجيبني على هذا النحو... لم يكن حتى مفاجأً بما أقول!...

ـ أشعر يا كليمانس... ماذا أقول؟ ماذا ترين أنت؟ أشعر بصداع شديد... منذ ما بعد الظهر... هذا غريب مع ذلك!... أليس الجو حاراً؟...

كان ما يزال يبدو كالحالم... كان يعتقد بأنه بتوعكه هذا، نفسه من الاهتمام بشأني، سواء بقيت أم رحلت! كان يعاني ضجراً ثقيلاً... ولا سيما منذ إخفاقه الشديد في الانتقال إلى «مركز الإطفاء».. ما عاد يستطيع الكف عن اجترار حسراته... كانت تلك ضربة في الصميم... ففي مكتب «الكوكسنيل» ظل يعاني أشد المعاناة... كان لا يبرح يتعرض على الدوام لامتهان كرامته!... رازحاً تحت وطأة ألوان الشقاء بحيث تمر عليه أسابيع عدة دون أن يحلق ذقنه... كان مزعزعاً كلياً... حتى ليرفض أن يغير قميصه.

حينما وصلت، لم يكونا بعد قد تناولا عشاءهما.. تحدثت لي مطولاً عن الأوقات العسيرة التي مرَّا بها، وعن آفاق العمل في المخزن... فرشت غطاء المائدة. كانت ما تزال تعرج، ولكن ربما أقل قليلاً مما في السابق... غير أنها كانت تتألم كثيراً مع ذلك، وعلى الأخص من ساقها اليسرى الآن. لم تكن تكف عن الشخير وهي تأكل، وعن إصدار أصوات من فمها.. فحينما كانت تجلس لتهدهد ألمها قليلاً... كان هو يعود من جولته على الحوانيت لتسليم بعض البضائع... واهناً وهناً شديداً... ينضح عرقاً أكثر فأكثر.. جلس هو أيضاً إلى المائدة.. لم يعد يتحدث، ولم يعد يتجشأ... كان يأكل فقط بمنتهى البطء والتمهل... كان العشاء من الكراث.. وبين الفينة والأخرى، كان يعود قليلاً إلى الحياة، عبر رعدة تسري في أوصاله... حدث ذلك مرتين، في الحقيقة، خلال وجودي... كان يدمدم حينئذ فوق طبقه، بشتائم جشاء... مخنوقة كلياً...: «تباً! أي خراء!..» ثم يعود إلى تململه.. نهض عن الطاولة، ومضى مترنحاً على هذا النحو... حتى وصل إلى الحاجز الصغير الذي يفصل الغرفة عن المطبخ... كان هذا رقيقاً كما لو أنه من ورق.. نقر بيده نقرتين أو

ثلاث... فنال منه الجهد.. تراجع مكوراً جسده... وتكوم فوق كرسيه... عيناه غائصتان في البلاط.. تحت قدميه... وذراعاه ترجحان... رفعت أمي قبعته عن عينيه بلطف لتجعل واقيتها مستوية تماماً.. أشارت إلي بأن لا أنظر إليه.. كانت أمي قد اعتادت الآن على الوضع.. ما كان ذلك ليزعجه، قط... ولم يعد يوليه أي اهتمام..كان، إلى حد بعيد، سجين تعاساته في المكتب... كانت تستحوذ عليه، وتنطبع على أساريره... منذ شهرين أو ثلاثة، لم يعد ينام أكثر من ساعة في الليل... كان رأسه مشدوداً برباط من القلق الممض، مثل حزمة واحدة... أما ما تبقى فما عاد يعنيه... وحتى أمور تجارتها، ضرب عنها صفحاً... ما عاد يريد بأن يكلمه أحد عنها.. كانت أمي تتدبر الأمور بحكمة... لم أعد أعرف حقاً ماذا أقول... لبثت ساكناً مثل دمل! ما عدت أجرؤ على الحركة! حاولت قليلاً مع ذلك أن أتحدث عن أخباري... عن مغامراتي الصغيرة... دون أن التزم الحقيقة كلياً... أشياء فقط لتسليتهما.. ثرثرات صغيرة بريئة كي أجلو الغم والارتباك!.. وحينذاك تجهمت أساريرهما، لا لشيء إلا لأنهما سمعاني أمزح!... وانقلب ذلك إلى نتيجة عكسية تماماً!... آه! سحقاً!... ولكنني كنت غارقاً في حضيض البؤس!... كنت أتمرغ بالروث أيضاً!... كنت غائطاً في النهاية أيضاً!... كل بؤس العالم تخثر في إستي! أنا أيضاً، كنت فاقداً رشدي! لم يكن حالي أفضل من حالهم!... ما جئت لاستجديهما! لا نقوداً! ولا طعاماً!... ما طلبت منهما أي شيء!... كل ما أريده هو أن لا يغمروني بتأوهاتهم كالأغبياء!... لأنني ما جئت لأذرف الدموع حزناً على تعسهم!.. ولا لأرم بعض أحزانهم.. ما جئت طالباً العزاء أيضاً!... ولا لأنوح في المحصلة... جئت ببساطة، لأقول «وداعاً».. سحقاً! نقطة، هذا كل شيء.

بعد انقضاء لحظة، قلت لهما بلهجة يخالطها المزاح:

ـ سأرسل لكما من الريف بـذور الدوديـة الأرجوانيـة!... ستتسلق حتى الطابق الثالث!... وتعـرش فـوق الواجهـة الزجاجيـة!... رد أبي على الفور، بخشونة:

ـ آه! أرى جيداً بأنك لست أنت الذي يكافح، ويكـسر صـلبه هنا. لست أنت الذي يرهق نفـسه وهـو في الثامنـة عـشرة مـن عمـره! كي يتحمل واجبه! آه! جميلة هي اللامبالاة...

آه! سحقا! لم يكن هناك كروب سوى كروبهم، لم يكن هناك سوى ضنكهم هم، سوى محنهم الرهيبـة، أمـا محـني أنـا فـلا وجـود لهـا بالقياس إليهم! وإذا ما وجدت نفسي في مهاوي التعاسـة، فلـم يكـن ذلك إلا بسبب خطئي أنا وحدي!.. حسب رأيهما، الغليظـي القلـب.. أية خدعة قذرة! سحقاً! وألف سحقاً! أية وقاحة! بينما لم يكونـا همـا سوى ضحيتين!... سوى بريئين!... شهيدين دائماً وأبـداً! لا يحـق لي مقارنة نفسي بهما!.. لا يحـق لي التفـريط بـشبابي الفريـد! وأن أظـل ضائعاً إلى الأبد!... أنا من يتوجب عليه الإصغاء! من يتوجب عليه أن يتخذهما مثالاً!... هذا لا جدال فيه!... ولما كانت أمي تراقبني، على هذا النحو، وأنا جالس على المائدة، أمام طبق الفاصولياء، فقـد عـاد الماضي دفعة واحدة أمام عينيها. كانت تجد مشقة في كـبح دموعهـا.. كان صوتها مرتعشاً.. ومن ثم فقد فضَّلت أن تلزم الصمت.. كانت أمي ضحية حقيقية... كنت ربما سأطلب منها العفو والغفران... عن جميع أخطائي، ونزواتي، وفجوري الـذي يفـوق الوصـف، ونكثـي الـدائم بوعودي!... إذا كان هذا يفيد في تهدئة روعها!... إذا كان هذا وحده هو السبب في تفجعها وأنينها، إذا كان هذا وحده هو الذي يجعل قلبها يتفطر!... فسأطلب منها العفـو والمغفـرة! ثم أرحـل علـى الفـور!...

سأعترف بالتأكيد، كي أضع حداً لكل هذا، بأن حظي كان غريباً كل الغرابة! منكوداً على نحو لا يصدق! وأنني كنت فاسداً فظيعاً... وأنني كنت أقضي وقتي في اللهو والعبث!... حسن! سأقول لها أي شيء كي تنتهي من ذلك... كنت أنظر إلى الباب... ولكنها أشارت إلي بالمكوث... كان هو من صعد إلى غرفته... لم يكن قد ثاب إلى هدوئه على الإطلاق.. استغرق خمس دقائق على الأقل، للوصول إلى الطابق الثالث... ولما أن بقينا وحدنا، على هذا النحو، عادت ثانية إلى التأسي وتفريغ ما في قلبها من الأحزان... روت لي كل التفاصيل...كيف كانت تتصرف لتدبير شون المعاش! وعن عملها الجديد... كيف تخرج كل صباح إلى مخزن المطرزات بخيوط القيطاني... وأنها وفرت منذ ثلاثة أشهر ثلاثئمة فرنك تقريباً عن أتعاب عمولتها، وفي فترة ما بعد الظهر، كانت تراعي صحتها، فتمكث في الحانوت، ممددة ساقها على الكرسي... لم تعد راغبة في رؤية الطبيب كابرون... فهو لا يتكلم إلا عن الراحة والبعد عن الحركة! في حين أنه كان عليها أن تتحرك!... ذلك هو مبرر وجودها الوحيد...كانت تفضل أن تعالج نفسها بنفسها، حسب طريقة راسباي... فقد اشترت كتابه.. وهي ملمة بكل المناقيع الساخنة... وكل الخلطات، والنباتات الطبية... وهي تدلك ساقها كل مساء بزيت الخزام... كان يسبب لها دمامل مع ذلك، ولكن ألم هذه الدمامل وانتفاخها كانا محتملين. كانت تفقأها على الفور تقريباً، لأنها لم تكن تستطيع السير بوجودها... ذلك هو الأمر الأساسي!...أرتني ساقها بكاملها.. كان اللحم مغضّناً كما لو كان ملفوفاً على عصا، بدءا من ركبتها! كان مصفراً، تعلوه قشور كبيرة وندوب تنزُّ قيحاً... «هذا لا يعود شيئاً ما إن ينز!... يخف الألم على الفور، ويصبح وضعي أفضل... ولكن قبل ذلك يكون الألم مبرحاً... فما دام الدمل ما يزال بنفسجياً! فإنه يظل مغلقاً!... لحسن الحظ، فإن لدي كماداتي!... ومن

دونها، لا أدري ما الذي يمكنني أن أفعله!... إنها تريحني!... ليس لديك فكرة!... من دونها سأغدو مقعدة»... ثم عادت تحدثني عن أوغست... كيف كان يتآكل من الداخل.. ولا يتحكم بأعصابه... حدثتني عن مخاوفه الليلية... هلعه من طرده من الوظيفة... كان هذا هو الأشد هولاً بينها... كان يوقظه من نومه مذعوراً... ينتصب فوق السرير بقفزة واحدة، وهو يصرخ: «النجدة! النجدة!» كان صراخه آخر مرة من القوة بحيث استيقظ جميع سكان الباساج على صراخه مذعورين... ظنوا أنه كان يخوض معركة... وأنني قد عدت لأخنقه! هرعوا جميعاً مسرعين! وحينما تلم به تلك الرعدات يفقد رشده تماماً، ولا يفيء إلى نفسه.. كان من المستحيل أن يستقر في سريره، ويخلد إلى السكينة... اضطروا إلى أن يضعوا فوق رأسه مناشف مثلجة طوال عدة ساعات... وطوال الفترة التي تستمر فيها تلك النوبات، مبرحة به دائماً أكثر فأكثر، كان يكابد عذاباً جهنمياً!... فلا يعود يخرج من كابوسه... ولا يدري ما الذي يتفوه به... ولا يتعرف إلى أحد ممن حوله... ثم يخلط بين الجيران... كان أكثر خوفه من السيارات... وفي الصباح غالباً، حينما لا يكون قد أغمض جفنه، على هذا النحو، طوال الليل، كانت هي التي تقوده حتى باب دائرة عمله... ولكن هذا لم يكن كل شيء... كان عليها أيضاً أن تدخل لتسأل حاجبة المبنى إذا لم يكن قد جدَّ جديد؟ إذا كانت قد علمت بشيء؟ بخصوص أبي... إذا لم يكونوا قد صرفوه من العمل؟.. لم يعد يميِّز قط ما هو حقيقي عما هو متخيل... ومن دونها قطعاً!... سوف لن يذهب على الإطلاق!... ولكنه سيغدو حينئذ ملتاثاً... وسيودي اليأس بعقله تماماً، لم يكن لديه ظل من شك بصدد طرده من وظيفته... كان الأمر يتطلب توازناً فائقاً كي لا يغرق كلياً.. كانت هي من يمشي على حبل البهلوان.. ما كان ثمة لحظة تضيعها، بغية رده إلى صوابه... وفضلاً عن ذلك فإن تأمين القوت لم يكن سهلاً

ميسوراً... كان عليها أيضاً أن تطوف... من أجل مخرماتها المزركشة بالقيطاني، عبر شوارع باريس... وأن تقتحم زبونها بسرعة... كانت تجد الوسيلة أيضاً لفتح حانوتها... بضع ساعات بعد الظهيرة... حين تفتر الحركة في الباساج، ولكنَّها لم تكن تهدأ قط!... كان عليها، الليل بطوله، أن تهب إلى العمل من جديد، كي لا يسلم نفسه إلى وساوسه، ولا تستفحل مخاوفه... كانت تضع قنديلاً للسهر، على طاولة، في وسط الغرفة، ثم تعمد، فوق ذلك، كي يتمكن ربما من الاستسلام للنوم، إلى سد أذنيه بسدادتين صغيرتين من القطن المبلل بالفازلين.. لأنه كان يرتعد لدى صدور أقل ضجة... فما أن تدب الحركة في الباساج، حتى يبدأ بائع الحليب برفع عقيرته في ساعة مبكرة جداً... كان صوته من القوة والحدة إلى درجة أنه كان يرج زجاج النوافذ... على هذا النحو، وبهاتين السدادتين كان الوضع أفضل قليلاً... كان هو يقول ذلك...

كانت أمي تتحمل بالتأكيد، وهو ما يمكن إدراكه بسهولة، مزيداً من العناء لكونها مضطرة إلى الوقوف بجانب أبي ليل نهار... متأهبة على الدوام.. ترفع روحه المعنوية، وتحميه من وساوسه! إيه حسناً! لم تكن تشكو أكثر مما ينبغي! ولو أنني تخليت عن خبائثي وسوء خلقي.. وأظهرت روح الندم والتوبة!.. وأدركت عيوبي ونقائصي... وعقوقي القذر... فلعل ذلك كان سيعزيها ويواسي آلامها... هذا لا يحتاج إلى برهان!... كان سيهدئ من روعها.. ستقول لي بعد ذلك: «اسمع يا بني، بقي لك مع ذلك حظوظ صغيرة... لم يتلاش الأمل كلياً!.. قلب أبيك ليس من حجر! إنه ليس مشوهاً، على نحو لا يمكن إصلاحه! ربما سيكون بمقدوره أن يتخلص من كل ذلك..» كان هذا شعاع أمل وسط محنتها.. عزاء أثيراً إلى نفسها... لكنني لم أكن صالحاً لمثل هذا على الإطلاق... عبثاً كل ما سأقوله، فهو لن

يخرج من قرارة قلبي... لم أكن آنس في نفسي القدرة على ذلك. كنت حزيناً بلا ريب.. كنت أراها بالغة التعاسة بالتأكيد! كان صحيحاً بلا جدال! ولكنني لم أكن أحمل حزني لأسفحه أمام أحد من الناس! ولا سيما أمامها هي!... ومن ثم، ورغم كل شيء... وبعد كل حساب، منذا الذي كان يتحمل المر والهوان، حينما كنت صغيراً تحت سقفهما... لا أفهم شيئاً من شيء؟ لم تكن هي وحدها حينذاك!... كنت أنا أيضاً!... أنا دائماً! وكانت هي تحمِّلني ما لا أطيق.... تذوقت الخبيصة كلها، ! الخراء! كانت هي التي تتفانى وتضحي، لا نكران في ذلك.. حسن! تمام!... ولكن كل هذا كان يقززني حينما أعاود التفكير به، يقززني إلى أبعد حد! سحقاً! كان ذلك خطؤها أيضاً! لم يكن ذلك رأيي وحدي!... كان هذا يجعلني أكثر سوداوية... من كل ما تبقى من القذارات.. ما كان هناك طائل من أن أحاول التحدث إليها بشيء!... كانت تنظر إلي مجتثة القلب، كما لو كنت قد جئت لأقتلها! كان من الأفضل لي أن أولي الأدبار!... كنا سنرهق بعضنا مزيداً من الرهق... تركتها مع ذلك تتمدد.. لم أعد أفتح فمي.. كان بوسعها أن تخرج وتتركني إذا شاءت!... لقد تسلت بعض التسلية... وأزجت إلي النصائح!... كل الكلمات اللطيفة سمعتها أيضاً.. كل ما كان ضرورياً لرفع معنوياتي!... من أجل أن لا أستسلم بعد لغرائزي! لكي أقتدي بالأمثلة الصالحة، وأنتفع بها!... وحين رأتني ألتزم الصمت، ولم أعد راغباً بأن أجيبها... غيَّرت نهجها.. كانت تخشى أن تكدرني، فحاولت ملاطفتي وتدليلي... نهضت إلى خزانة مطبخها، لتبحث لي عن قنينة شراب سكري... كانت هذه لي، كي أحملها معي إلى الريف، ما دمت ذاهباً إلى هناك.. وقنينة أخرى من شراب منشط... كان لا بد من أن تحذرني بإلحاح من عادتي

السيئة في ازدراد الطعام بسرعة كبيرة!... لأنني سأؤذي معدتي..
وأخيراً، سألتني إن كنت بحاجة إلى نقود، لرحلتي أو لشيء آخر؟
«لا، لا! أجبتها... لدينا كل ما يلزمنا!...» وأريتها المبلغ الذي
أحمله.. كان مؤلفاً كله من أوراق نقدية من فئة المئة فرنك... إذن؟
وعدتها، كي ننتهي، بأن أكتب لها، وأطلعها على أخباري... وكيف
تسير أحوال مشروعنا... لم تكن تفقه شيئاً في أمور كهذه... كان ذلك
عالماً مجهولاً بالنسبة إليها.. كانت تثق بمعلمي!... كنت أجلس على
مقربة من الدرج، نهضت، وحزمت صرتي...

ـ ربما يكون من الأفضل، رغم كل شيء، أن لا نوقظ والدك الآن؟... أليس كذلك؟... ماذا تقول؟ إنه نائم ربما.. ألا تظن أنت؟... لقد رأيت... كيف ينقلب لدى أدنى انفعال؟... أخشى حين يراك راحلاً أن يوافيه الاضطراب من جديد!.. ألا تعتقد بأن ذلك أدعى إلى الحيطة؟... ألا ترى بأنه سيفاجئني ثانية بنوبة من نوباته، مثلما فعل قبل ثلاثة أسابيع!... لن يعود بوسعي أن أجعله ينام... لا أدري ماذا سأفعل كي أتفادى ذلك!... كان هذا هو رأيي أيضاً... كنت أرى بأن من الحكمة أكثر أن أنسل بهدوء تام... منتهزاً فرصة هبوب نسمة ندية... همسنا لبعضنا كلمات الوداع «إلى اللقاء»... كانت ما تزال تنبهني بصدد ثيابي الداخلية..لم أصغ إلى بقية كلامها.. انسللت مسرعاً من الباساج..ثم من الشارع القريب من مضمار السباق... عدوت بسرعة... كنت متأخراً كثيراً... كانت الساعة الليونية تعلن منتصف الليل بالضبط... كان كورتيال وجميلته الكبيرة ينتظراني منذ ساعتين اثنتين أمام كنيسة سان فينسان دي بول.. مع عربتهما اليدوية!...

سرت صعداً في شارع هوتفيل... لمحتهما من مسافة بعيدة جداً واقفين تحت أحد مصابيح الغاز... كان ذلك رحيلاً حقيقياً... كان هو الذي نقل

جميع الأمتعة، وما برح يتصبب عرقاً!... كان عليه أن يخلي المنزل مع ذلك.. ويصطدم بسيد البيت الجديد... كانت العربة اليدوية تغوص في الأرض لفرط ما كانت مثقلة، وغاصَّة بالأشياء القديمة العديمة القيمة!... المحرك والمولد، وفوقهما الفرش والثياب!.. والستائر المزدوجة، والمطبخ بكامله... كان قد أنقذ القسم الأعظم من الأشياء!... حتى إنه ليستحق التهنئة! كان قد ارتدى، معطفاً آخر، لم أكن رأيته من قبل... تساءلت، ترى أين عثر عليه؟ أية لؤلؤة جميلة!...علقت على هذا النحو.. كان هذا من عهد الشباب.. وقد شمَّر أذياله وثبتها بدبابيس، لم تكن العجوز تعتمر قبعتها «زهرة الارطنسيا المرصعة بالكرز»! كانت قد وضعتها فوق قمة العربة... كي لا تلوثها!... ووضعت على رأسها بدلاً منها شالاً أندلسياً جميلاً جدا، مطرزاً بكامله، بألوان زاهية.. كان هذا يبدو متألقاً تحت ضوء المصابيح.. شرحت لي على الفور بأن هذا الشال أكثر عملية من أجل الرحلات البعيدة... وأنه يحفظ الشعر جيداً...

لما أن التأم شملنا أخيراً، وتناقشنا قليلاً حول مواعيد القطارات، انطلقنا متمهلين صوب المحطة... كنت سعيداً منشرحاً، يمكنني قول ذلك!... كان شارع لافاييت وعراً!... كان دي بيريري نفسه هو من يجر العربة من الأمام، وكنا أنا والمعلمة ندفع من الخلف. كنا متأخرين، بحيث فاتنا القطار الأخير مع ذلك... كان ذلك خطئي أنا!... كانت الساعة الآن الثانية واثنتي عشرة دقيقة!.. أما قطار الصباح فكان ينطلق بعد خمسين دقيقة تقريباً!.. كان لدينا متسع من الوقت كي نفك عربتنا الرديئة، وننقل كل بازارنا مرة واحدة!... إلى القاطرة الأخيرة... وفيما تبقى من الوقت نتناول كوباً من العصير بالكريم من حانوت قريب، كان هذا هو إفطارنا، وبعد ذلك تناولنا ثلاثتنا بنهم قهوة موكا. كنت أنا من يمسك الصندوق.

* * *

حططنا رحالنا في قرية بيرسان - النهر... كانت قرية لطيفة وادعة، تقع بين تلتين وغابتين... يتوسطها قصر باذخ بأبراج عالية تتوج المشهد البديع... وفي اسفل البيوت يقوم السد، هادراً بمهابة وجلال... كان كل ما حولنا، في المحصلة، يوحي بالأناقة والجمال... لن يكون في وسعنا أن نختار أفضل من ذلك، وحتى من أجل قضاء العطلة!... نقلت ملاحظتي تلك للمرأة العجوز... ولكنها لم تكن خلية البال... كان ينتظرنا عمل شاق، إنزال الأمتعة. وإخراج المحرك من القاطرة... كنا مضطرين إلى طلب المساعدة..

لاحظ ناظر المحطة متاعنا... وأعتقد بأننا «فريق فني جوال» جاء من أجل المهرجان الذي يقام عادة في القرية! لعرض أمسيات سينمائية، وأخبرنا بأن علينا العودة، مرة أخرى!... لأن المهرجان اختتم عروضه منذ خمسة عشر يوماً!... لم يشأ دي بيريسيري أن يظل هكذا في وضع ملتبس... وكشف على الفور ما خفي من الأمر!... وأطلع القوم بنحو واف، على جميع مشاريعنا.. أراد أن يتحدث على الفور، إلى كاتب العدل!... لم يكن الأمر مزاحاً! وإنما «قرار زراعي مبرم!...» تقدم بسرعة ثلاثة رجال شاحبين معفرين بالتراب نحو أشيائنا ونبشوا فيها على نحو متطفل... كانوا يتداولون حول متاعنا ويقلبون ألف فكرة في رؤوسهم بشأنها. ما كان بمقدورنا، نحن الثلاثة، فقط، أن ندفع بعربتنا كل هذا الحمل الثقيل فوق الطريق الترابي! وقد جربنا ذلك في شارع لافاييت!... كانت قريتنا الزراعية بعيدة جداً أيضاً، ، لذا كنا بحاجة إلى حصان على الأقل!... قابل الفلاحون طلبنا على الفور بفتور!... أخيراً، تمكنا من الانطلاق.

ما إن استقرت جميلتنا الضخمة فوق العربة التي تجرها الخيول حتى أشعلت غليونها!... وتراهن الرجال حولنا بأنها رجل في ثياب امرأة!.

كان ما يزال أمامنا أحد عشر كيلو متراً للوصول إلى مزرعتنا في قرية بليم الصغرى! يعترضها العديد من المنحدرات!... كانوا قد أخبرونا بذلك في بيرسان.. كان دي بيريري قد وثق مستنداته بعناية هنا وهناك... لم يطل به الوقت من أجل توقيع أوراقه... كان قد عامل كاتب العدل بغلظة... راح يتفحص الآن الحقول الخضراء من فوق العربة... وإلى جانبه في العربة أحد الفلاحين... لم يتوقف كورتيال عن الكلام طوال مسيرتنا، فيما هو يبسط خارطته فوق ركبتيه.... كان يعلق على كل تضريس، وكل تموج للأرض... ويستجلي مواقع أصغر السواقي.. كان يحدق بعيداً، واضعاً يده فوق عينيه مثل مظلة... دون أن يعثر على أي من تلك السواقي... ألقى علينا محاضرة دامت ساعتين كاملتين على الأقل، في كل ما كان يعن له.. حول الإمكانيات، وبطء عملية التطوير، وقلة المردود الزراعي في المنطقة، لأن «البنية التحتية الجيوديزية» لا تعطي مردوداً كاملاً... آه! هكذا!... قال هذا على الفور، وكرره مرات عديدة!... لن ينطلق إلى العمل دون أن يقوم بتحليل التربة!.. كان الجو رائعاً.

* * *

لم تكن الأمور قط في بليم الصغرى مثلما وصفها لنا كاتب العدل. أمضينا فيها يومين كاملين قبل أن يتبين لنا من أمرها ما تبين.

كان الخراب يعيث بأرجائها.. وهو ما لم تنوه إليه الأوراق! فالعجوز الذي كان يدير المزرعة في الفترة الأخيرة، مات قبل شهرين من نهاية العقد، وما من أحد من أفراد عائلته، كما يبدو، كان يرغب بالأرض، ولا بالكوخ، ولا بالضيعة الصغيرة... دخلنا أكواخاً متداعية أخرى أبعد قليلاً..طرقنا جميع الأبواب... دلفنا إلى داخل أهراءات الحصيد، فما وقعنا قط على أثر للحياة... وأخيراً

اكتشفنا، مع ذلك، بالقرب من حوض للماء، في أعماق نوع من خص متداع فلاحين عجوزين طاعنين في السن، إلى حد أنهما ما عادا يستطيعان الخروج من كوخهما... كانا قد أصبحا كفيفين تقريباً!... وأصمين أيضاً... كانا يبولان طيلة الوقت أحدهما على الآخر... تلك هي تسليتهما الوحيدة.. حاولنا التحدث إليهما... لم يكونا يعرفان بماذا يجيباننا... كانا يشيران لنا بأن نغرب عن وجهيهما.. وندعهما ينعمان بالهدوء... لقد فقدا عادة استقبال الزائرين... لذلك فقد أثرنا الخوف فيهما...

* * *

لم أجد كل ذلك فألاً حسناً... هذه الضيعة الخاوية على عروشها... وهذه الأبواب المفتوحة دائماً على مصاريعها... وهذين العجوزين اللذين ما كانا يريدان استقبالنا... وهذه البوم التي تنعق في كل مكان.

على العكس من ذلك، كان هو، دي بيريري، قد وجد في كل ذلك خيراً وأبقى!... كان هواء الريف المنعش قد أحيا ذابل نشاطه... رغب في البداية، بارتداء زي مناسب... ولأنه فقد قبعته البانامية.. كان مضطراً إلى أن يستعير من عزيزته الكبيرة... قبعة قش مرنة، ضخمة، مع رباط تحت الذقن... احتفظ بمعطفه الرمادي الجميل... بالإضافة إلى قميص ناعم، ورباط عنق عريض، وأخيراً صندل ضخم (لم يتحمله على الإطلاق)، كان يعود بعد مسيرات طويلة عبر الحقول عاري القدمين دائماً... ولكي يبدو كفلاح حقاً لم يكن يترك مجرفته الصغيرة الجميلة... كان يحملها بمرح وحيوية فوق كتفه الأيمن. كنا نمضي، هكذا، كل ظهيرة، نفحص الأراضي البور، باحثين عن مطرح مناسب نبذر فيه بذور الفجل.

كانت السيدة دي بيريري، تشتغل، من جهتها.. فقد تولت أمور المشتريات، وإدارة شؤون الكوخ، وأخيراً، وعلى الأخص، كانت هي التي تذهب إلى سوق بيرسان النهر، مرتين في الأسبوع. كانت تحضر الطعام، وترمم الكوخ كي يغدو صالحاً للسكنى قليلاً... ومن دونها، لم نكن لنذوق لقمة قط، لفرط ما كان طهو الطعام في الموقد مربكاً!... فمن أجل أن تعد لنا عجة بالبيض فقط، كان كل ما تستخدمه لإشعال النار يذهب بشهيتنا!...

لم نكن، أنا ودي بيريري ننهض في ساعة مبكرة، ينبغي الاعتراف! وكان ذلك يجعلها تحتج وتدمدم، كانت تريد دائماً أن نبكر في النهوض! أن نعمل أي شيء مفيد!... ولكن ما إن كنا نغادر الكوخ.. حتى لا تعود لدينا رغبة بالعودة... فتداهمها حينئذ مشاعر غضب أخرى... كانت تتساءل، المعلمة المسكينة، عما كنا نفعله خلال هذه الغيبة الطويلة في الخارج؟ كانت جولاتنا الطويلة تبعث البهجة في جوانح دي بيريري... كان يكتشف كل يوم جوانب جديدة في القرية.. وبفضل خارطته كان ذلك يغدو عملاً تعليمياً بالغ الفائدة... وفي فترة ما بعد الظهيرة، كنا، على هذا النحو، نلوذ بركن غابة أو ببطن تلة، فنسترخي بهناء... وحينما يشتد الحر قليلاً.. كنا نتجرع زجاجة جعة نحملها معنا... كان بوسع دي بيريري أن يغرق في التأمل.. ما شاء له ذلك... لم أكن أزعجه كثيراً... كنت أهوم في النعاس.. فيما كان هو يتكلم وحده.. مجرفته ملقاة على الأرض قرب أقدامنا.. كان الوقت يمضي دونما كدر... ذلكم كان تغيراً حقيقياً.. السكينة.. سلام الأحراج!... ولكن النقود كانت تتبخر... كانت المعلمة هي التي تشعر بالقلق، فما تنفك تعيد حساباتها كل مساء.

***

بشأن اللباس، ائتلفت بسرعة مع الظرف الجديد.. شيئاً فشيئاً تلقفك الأرض.. وتنسى نفسك وما تجرُّه الأيام.. هيأت لنفسي أخيراً زياً بسيطاً ومتيناً. سروال دراجين، ومعطفاً خريفياً قصصت أذياله حتى منتصفه، وخطت حواشيه بخصر بنطالي، فغدا المجموع منفوخاً... حاراً قليلاً، ولكنه مريح.. كان زيِّي هذا يميزني من بعيد جداً.. استجابت الجميلة الضخمة لرأينا، وارتدت بناطيل أيضاً، مثل بناطيل الرجال... ما عاد لديها تنورة واحدة ترتديها... وقد وجدت هذا أكثر عملية... كانت تذهب بزيِّها هذا إلى سوق بيرسان.. فتجد أولاد المدرسة ينتظرونها عند مدخل البلدة. كانوا يستفزونها، ويقذفونها بالبعر، والزجاجات الفارغة، والحصى الكبيرة... وكان ذلك ينتهي إلى شجار صاخب... لم تكن تستسلم للتحقير!... ثم ما يلبث أن يتدخل رجال الدرك.. ويطلبون منها أوراقها!... كانت تشمخ بأنفها وهي تخاطبهم: «إنني امرأة شريفة، أيها السادة! يمكنكم أن ترافقوني!... ولكنهم ما كانوا راغبين في ذلك.

* * *

كان الصيف قائظاً!... ظننا أننا لن نرى له نهاية.. كان الحرُّ يغري بالتسكع، فبعد أن يرتشف دي بيريري قدح الخمر الذي يعقب فنجان القهوة، كنت أتسلم وإياه مفاتيح الحقول... كنا ننطلق، بمزاج رائق، في فترة ما بعد الظهيرة، عبر الحقول المعدة للزرع، ضاربين في الأثلام المحروثة، وحين نلتقي بأحد الفلاحين، كنا نبادره بالتحية بتهذيب فائق... كنا نسوق حياة وادعة!... وكان هذا يهيج فينا ذكرى الأيام الجميلة لتحليقاتنا بالمنطاد... ولكننا كنا حريصين على أن لا نأتي على ذكر خيباتنا الجوية أمام السيدة دي بيريري... ولا على ذكر «الزيلي»!... ولا «أرخميدس»!.. وإلا فإنها تنخرط حينئذ بالبكاء،

ولا يعود بوسعها أن تكتم أحزانها... كانت تعاملنا كشخصين نتنين... كنا نتحدث، بالأحرى، عن أشياء أخرى... كان خليقاً أن لا نعود إلى ماضينا!... بل أن ننتبه إلى المستقبل... أن نذكره بألف احتراس... لأنه كان غائماً، محفوفاً بالمخاطر... كان مستقبلنا قلقاً رجراجاً... لم يكن يرتسم بوضوح أمام أعيننا... كان كورتيال متردداً دوماً... يؤثر المزيد من الانتظار، وعدم الانطلاق إلا على قدم ثابتة... وبين كل تأمل وتأمل، وخلال فترات ما بعد الظهيرة، أثناء طوافنا في الحقول، كان يضرب بمجرفته ضربة هنا، وضربة هناك.. بغية تفحص التربة، كان ينحني على الأرض ليعاين، يروز بيده، يسبر التراب المقلوب حديثاً... كان يعصره بيده، فيحوله إلى ذرات ناعمة، ثم يذريه بين أصابعه كما لو أنه يريد أن يستخلص منه ذهباً... ثم يقرع كفيه أخيراً، وينفخ فوقهما نفخة قوية... فتتطاير الذرات في كل اتجاه...كان يبرطم!..« بتستت! بتستت بتستت... هذه الأرض ليست طيبة يا فرديناند! ليست غنية! همم! همم! كم أشعر بالخوف على الفجل همم! ربما تصلح للأرضي شوكي؟ وللسيسارون، أيضاً؟... كنا نغادر المكان دون أن نبت في الأمر.

على المائدة كانت زوجته تسألنا للمرة المئة، إذا ما استقر رأينا على نوع خضارنا التي سنزرعها؟.. إذا كنا قد حددنا اختيارنا؟... وأن هذه، ربما هي اللحظة المناسبة؟... كانت تقترح الفاصولياء... ليس مباشرة بالتأكيد، وكان كورتيال ينتفض لدى سماعه مثل هذه الأشياء!...

- فاصولياء؟.. فاصولياء؟... هنا؟.. في هذه الأرض المتشققة؟... هل تسمع يا فرديناند؟.. فاصولياء؟... في أرض دون منغنيز! لماذا لا تقولين بازلاء؟... هيه؟.. أو باذنجان!... إن هذا ليتجاوز الحد!...كان ساخطاً!.. أو معكرونة! أقول لك!.. كمأة!... هيا! كمأة!..

كان يترنح طويلاً عبر الكوخ، هادراً مثل دب... ولا يبرح غاضباً طوال ساعات. حينما يستثيره اقتراح غريب. كان شكساً عنيدا بشأن ذلك! الاختيار الحر! الانتقاء العلمي!.. وكانت هي تفزع إلى ركنها، لتنام وحيدة... كانت قد أعدت لنفسها نوعاً من مخدع محمي من التيارات الهوائية الغادرة...كنا نسمعها تنتحب من الجهة الأخرى للحاجز... كان قاسياً معها...

***

لا نكران في أنه ما كان ينقصها الشجاعة، ولا الدأب!... ولا التفاني على الإطلاق... فلكي تعيد تأهيل المسكن العتيق، صنعت المعجزات حقاً... لم تكن تكف لحظة عن العمل.. لم يكن ثمة في كوخنا شيء يدور... أو يسحب... لا مضخة الماء ولا الطاحونة الهوائية اللتين كان من المفترض أن ترفعا الماء من البئر... وكان الموقد ينهار فوق الحساء.. اندفعت تغطي بالجبس سائر الشقوق في الجدران والحواجز، تسد هي بنفسها كل الثقوب، وكل الشقوق في جدران المدخنة... تصلح مصاريع النوافذ، وتعيد تركيب قطع الآجر والأردواز... وتثبت كل المزاريب... ولكن ما إن هبت أول عاصفة، حتى تسرب المطر بغزارة داخل الغرف، رغم كل شيء، من ثقوب السقف... كنا نضع تحت المطر الدالف آنية معدنية... واحدة تحت كل ساقية... وهكذا، من إصلاح إلى تجديد كانت تنهض بأعمال خارقة، وليس مجرد ترقيعات يسيرة! استبدلت، على هذا النحو المفصلات الضخمة للبوابة الكبيرة، وأصلحت قطع الأثاث، والأقفال.. ما كان شيء يبعث الخوف في نفسها.. كانت تبدو واسعة الحيلة، فائقة المهارة... ومن ثم فقد كانت تحمل على كاهلها، بالطبع، جميع أعمال البيت، والطبخ. كانت تقول ذلك هي نفسها!...

أما بصدد غسيلنا فكان يتناقص شيئاً فشيئاً... حتى ما عاد لـدينا سـوى صرة صغيرة جداً... بضعة قمصان.. ومن دون أحذية إطلاقاً.

بخـصوص العظايـات الـتي كانـت تخـرج مـن شـقوق الجـدران الضخمة، فقد خـاب مـسعاها، لم تكـن قـد أحكمـت سـد الـشقوق بجبسها!... كان دي بيريري يوجه إليها نقده، فما تلبث أن تنهض من جديد إلى سد الثقوب والفجوات.. وبفضلها هي، بالتحديـد، استعاد ذلك الوجار المنخور قوامه.. غير أنه لم يكن سـوى أطـلال متداعيـة، أكثر أو أقل... ومهما فعلت من أجل ترميمه، فسرعان ما كـان يتحـول إلى حمأة من الوحل والأقذار...

عبثاً كانت بطلة، معلمتنا التعيسة، فعملية استئصال مبايضها كانـت تربكها أكثر فأكثر.. ربما كان ذلك عائداً إلى قيامها بالكثير من الأعبـاء المضنية؟.. كانت تنضح شلالات من العرق... تـسح فـوق شـاربيها.. ترافقهـا فـورات احتقائيـة.. وفي المـساء تكـون مـستفزة الأعـصاب، متحفزة لـتفجير حمـم غـضبها، لفـرط مـا تكـون منهكـة مـن إعـداد الكراث.. فما إن تبدر من أحدنا أقل كلمة، في غير محلها.. حتى يثور الإعصار! تـارابوم!... غـضب جـامح مفلـت العنـان.. كانـت تنفجـر للاشيء... ولا يتوقف سيل الشتائم بعد ذلك.

ما كان ينبغي علينا، علـى الأخـص، أن نتوقـاه هـو التلمـيح بأقـل كلمة إلى حكايات دارتها الجميلة في مونترتو!... كانت تحـتفظ بتلـك الدارة تحت بلعومها.. تتأكلها مثل خراج، فما إن نمسها بكلمـة، مـن قريب أو من بعيد حتى تنقض علينا بشراسة متناهية مؤكدة بأنها كانـت مؤامرة! كانت تنعتنا بالدمامل، وباللواطيين، مـصاصي الـدماء.. كـان ينبغي أن نضعها في فراشها بالقوة!...

كانت الصعوبة التي تواجه دي بيريري دائماً هي أن يتخذ قراراً بشأن خضراواته الفريدة... كان لا بد من اختيار شيء آخر... كان يشك الآن بنجاح الفجل... أي نوع من الخضراوات إذن كان علينا أن نباشر به؟ أي صنف منها سيكون مناسباً للأشعة التيلورية؟ والتي ستضاعف حجمه أضعافاً؟ ومن ثم، كانت هناك مسألة اختيار التربة... وهي ليست مسألة سهلة!... كانت تقتضي تحريات بالغة التدقيق... كنا قد ضربنا بمجرفتنا ضربات استكشافية في جميع أراضي المنطقة، في محيط دائرة قطرها خمسة عشر كيلو متراً!... لن نقتحم إذن، ميدان الزراعة على غير هدى.. كنا نفكر بإمعان! هذا كل شيء.

في الجهة المقابلة لبيرسان، إلى الجنوب قليلاً، وسط محيط تحرياتنا، وقعنا ذات يوم جميل على قرية لطيفة حقاً، حفيَّة أيَّما حفاوة... إنها سالينيون آن ميسلوار!... كانت تبعد عن بليم الصغرى، سيراً على الأقدام، مسيرة ساعتين... لن يخطر لعجوزتنا المضحكة حقاً، في أي يوم من الأيام أن تلاحقنا حتى ذلك المخبأ... كانت الأراضي الزراعية المحيطة بميسلوار. بحسب تحريات كورتيال التي أجراها على الفور، أكثر غنى من أرضنا، بمحتواها «الإشعاعي ـ المعدني»، فهي إذن، بحسب تقديراته أكثر خصوبة بكثير، وقابلة للاستغلال سريعاً... كنا نعود لدراستها كل يوم بعد الظهر!... كانت قوة هذه الأرض كامنة في غناها بمادة «الكاديميو بوتاس!» وبالكالسيوم على الأخص. فحين لمس كورتيال تربتها، وشم رائحتها على الأخص شعر بذلك على الفور، كانت تبدو خارقة بمحتواها... ولدى التفكير بها أكثر انتهى إلى التساؤل عما إذا كان ذلك المحتوى بالذات أغنى من أن تحفزه «الأشعة التيلورية»... لأنه إذا لم نفلح في تركيز الأشعة بنحو مكثف

فإن خضارنا ستفرقع.. آه! وسينفجر لبها!... كان ذلك هو الخطر المحتمل، النقطة الحرجة الوحيدة!... كان كورتيال يحدس بذلك... يتحتم عليه إذن أن يعدل عن زراعة الخضار الباكورية في هذه الأرض الغنية جداً، وأن يختار صنفاً غليظاً ومقاوماً بخشونة، كاليقطين على سبيل المثال... ولكن ماذا بشأن التسويق؟... يقطينة واحدة لكل مدينة؟ يقطينة عظيمة الجرم؟ لن يستوعب السوق كل اليقطين!... لا بد إذن من التداول في الأمر! كانت تلك معضلات جديدة! فالأمور تجري دائماً على هذا النحو.

كانت الحانات في تلك القرية تقدم شراب السدر على الأخص... لم يكن له رائحة البول! وهو ما كان نادراً في الريف، لا بد من الاعتراف بذلك! كان يصعد قليلاً إلى الراس، ولا سيما الشديد الرغوة... كنا نرتشف الكثير منه.. خلال جولاتنا الاستكشافية! وكان أكثر شربنا في حانة «الغروس بول».. النزل الوحيد في تلك القرية... كنا نرتاده أكثر فأكثر... كان موقعه في مركزالقرية مطلاً بالضبط على سوق الدواب... وقد خضنا في حوارات مطولة مع الفلاحين، واطلعنا على عاداتهم.

لم يقم دي بيريري سوى بقفزة واحدة ليرتمي على صحيفة «باريس الرياضة»... كان محروماً منذ زمن طويل... كما كان يردد لجميع من حوله... وقد استطاع أن يطلعهم بالمقابل على معلومات مفيدة... دروس صغيرة حول مواشيهم!... وبضع طرائق ممتازة، بارعة أيما براعة كي يراهنوا في سباقات الخيل في ميدان «فينسين».. كان يبني معهم علاقات طيبة... ويلتقي بمربي المواشي... كنت أتركه يتحدث معهم، وألتفت إلى خادمة الحان... كنت أستلطفها جداً... لم أكن أضيع وقتي في الانصات إلى القرقعة من حولي... أطلعتها على كل

شيء.. كل ما كنت أعرفه.. فأحدث ذلك فيها تأثيراً مغناطيسياً! كانت ترغب في ترك عملها، والذهاب معنا إلى المزرعة! غير أن هذا سيكون متعذراً مع الأم دي بيريري... لا سيما أن العجوز بدأت تشتبه بنا الآن.. كانت ترانا غالباً قاصدين تلك الميسلوار... كانت تشتبه بقشة صغيرة... ولا تنفك تطرح علينا أسئلة مضحكة.. كنا ما نزال مترددين بصدد تحرياتنا حول الخضار... صار تصديقها لكلامنا يتضاءل أكثر فأكثر... كانت البلهاء تسعى وراءنا بحثاً عنا... كان الصيف يمضي حثيثاً... وعما قريب سيحين موسم الجني والحصاد!... سحقاً!...

في «الغروس بول» تغيَّر مسلك القرويين فجأة... وغدوا مسلين للغاية. وبين قدح وقدح كانوا يتعجلون قراءة «باريس ـ السباقات».. كان دي بيريري هو من يتدبر أمر رهاناتهم. كان يرسل تلك الرهانات الصغيرة... ليس أكثر من خمسة فرنكات لكل منهم، في مظروف خاص إلى صديقه القديم... خمسون فرنكاً في الحد الأقصى!... لم يكن يأخذ منهم أكثر!... كان يرسل الرهانات في أيام الأربعاء والجمعة والسبت... ودائمًا إلى حانة «الإيموت»، ودائماً بمساعدة ناجير!... كنا نحصل نحن على خمسة قروش لكل رهان!... ذلكم هو كسبنا الزهيد!... كنت قد علَّمت الخادمة، أغاتا الصلبة، كيف ينبغي عليها أن تفعل كي تتفادى الحمل،... وفجأة، يمكنني القول، تولهت بي... كانت مستعدة أن تفعل كل شيء من أجلي!...! كان مصيرها إلى أحد المواخير، بالتأكيد.. ما كان علي سوى أن أشير باصبعي... ومع ذلك فليس بتأنقي كنت قد شغفتها!... كنت أثير فزع عصافير الدوري! وليس بالفلوس!.... فأنا ما أعطيتها فلساً واحداً!... كان ذلك بتأثير السحر الباريسي! هو ذاك.

ولكن حينما كنا نعود في المساء، كان العنف يتفاقم مزيداً من التفاقم!... لم تعد ايرين لطيفة مسلية!... كنا نصل متأخرين أكثر فأكثر!... كان علينا أن نتحمل النوبات العنيفة!... وحفلات الصراخ الفظيعة!... كانت تنتف شعرها، خصلاً وأقراصاً! حتى يسيل من رأسها الدم! لفرط ما كان يتلكأ في اتخاذ القرار باختيار صنف خضراواته المناسب، وأرضه ذات الشروط المثلى!... انخرطت المعلمة، وحدها في أعمال الحقول... كانت تقلب التربة بنحو جيد!... لم تكن تعرف بعد شق أثلام مستقيمة تماماً... ولكنها مع المزيد من التجربة والمران أفلحتْ في ذلك!... كانت تستصلح الأرض بنحو يثير الإعجاب. لم يكن الحيز ينقصها كي تتوسع في عملها ما شاء لها التوسع.. ففي بليم الصغرى يمكن للمرء أن يولي وجهه حيث يشاء... كل الأراضي كانت بوراً... إلى اليمين، إلى اليسار، جنوباً، شمالاً... لم يكن هناك جيران، وحتى إلى الغرب!... كانت الأرض كلُّها أشبه بصحراء بلقع... قاحلة تماماً...

ـ أنت تنهكين نفسك يادبدوبتي الكبيرة! كان كورتيال يتوجه إليها بالكلام على هذا النحو، في وقت متأخر من الليل حين نجدها منكبة على كومة من التراب، منهمكة في قلبها وتسويتها! أنت تنهكين نفسك! هذا لن يفيد شيئاً!... هذه الأرض من أكثر الأراضي قحولة! عبثاً أقتل نفسي لإقناعك!... القريون أنفسهم هنا تخلوا واحداً بعد الآخر عن الزراعة!... أعتقد بأنهم سيتحولون إلى تربية المواشي!... كذلك فإن تربية المواشي في هذه السهول! بكل هذه الطبقات الصلصالية التحتية!... وهذه الصدوع الكلسية ـ البوتاسية. لا أراها مثمرة!... إنه مشروع خاسر... سيصطدم ولا شك بعقبات كأداء!... واحتمالات هائلة!... أتوقع!... أتوقع!... سقاية مثل هذه العجنة!... آه؟ مهلاً! مهلاً!.

ـ وأنت أيتها القمامة الكبيرة؟ قل إذاً؟ منذا الذي سيسقيك؟ قل لي قليلاً؟... فأنا أصغي إلى ما تقول؟... هيا!..هيا؟ تفضل!.

كان ينكص على عقبيه، عازفاً عن قول المزيد.. وينطلق مسرعاً نحو المزرعة... أما أنا فكان لدي عمل أيضاً كان علي أن أصنِّف، لدى عودتنا كل مساء، جميع عيناتنا التي أخذناها من التربة خلال النهار... فوق لوحات خشبية، كل عينة على حدة... ثم أضعها حول المطبخ... في أقماع صغيرة... جميع عينات التربة في محيط عشرين كيلو متراً دائرياً كانت تلك تشكل مادة غنية، بانتظار اليوم الذي سنختار فيه... ولكن عينتنا الأغنى، والتي هي معقد أملنا كانت بلا ريب، تلك التي أخذناها من سالينيون.

***

على هذا النحو، ويوماً بعد يوم اكتسبنا شعبية كبيرة في(الغروس بول). صار سكيرونا السذج يميلون بقوة الى السباقات!... حتى بات لزاماً علينا أن نخفف من غلوائهم... كانوا يجازفون بنقودهم بسهولة... صاروا يريدون ان يراهنوا بخمسة عشر فرنكاً على جواد واحد!... كنا نرفض بإصرار مثل هذه الرهانات!... ما عدنا مستعدين لمواجهة الضغائن والأحقاد... كنا نغلق إستنا على نصيبنا الصغير... ملتزمين أقصى الحذر. كانت أغاتا الخادمة تتلوى من الضحك، مستمتعة بوقتها ما شاء لها الاستمتاع!... كانت قد تحولت إلى بائعة هوى في النزل الذي تعمل فيه!... كانت انقلابات عجوزتنا هي التي تكدرنا!... بكل نوباتها الفجائية، وإنذاراتها النهائية... ما عاد بمقدورنا تحملها... كانت تزعجنا بزعيقها... كان كورتيال قد غير تكتيكه بصدد ذلك... ما عاد يسخر من عملها... بل صار يشجعها ويحثها على عزق الأرض وتقليبها... فراحت على هذا النحو تحرث

قطعة إثر قطعة، أسبوعاً بعد أسبوع مساحات شاسعة !... كانت تثير خوفنا بالتأكيد... ولكنها إذا ما توقفت عن العمل فسيغدو الوضع أسوأ بالفعل... لقد سئمت حتى النخاع من ترددنا، كانت هي التي اتخذت قراراً بزراعة البطاطا! وما كان بمقدورنا منعها... فقد ارتأت أن البطاطا صنف مثالي في النهاية... ثم انطلقت تواً إلى التنفيذ. ما عادت تطلب رأينا. وما إن غرست درناتها على مساحة فسيحة حتى انبرت إلى الحديث مع كل من كانت.تلتقي بهم، في بيرسان، خلال ذهابها وإيابها، بأننا بدأنا تجاربنا بإنتاج«البطاطا العملاقة» بفضل الأشعة الكهربائية! وسرت شائعتها هذه سريان النار في الهشيم.

في«الغروس بول» خلال فترة ما بعد الظهر كانوا يرهقوننا بالأسئلة... نحن الذين كنا حتى ذلك الحين، أثيرين هانئين في الطرف الآخر من دائرة القضاء، محاطين بالترحيب والتسامح، ينتظر قدومنا جميع فلاحي المنطقة، بدأنا نلمح الاستياء بادياً على وجوههم... كانت زراعتنا تبدو مريبة... كنا نغدو موضع الغيرة والحسد...«باتات! باتات!» صاروا ينادوننا على هذا النحو.

* * *

ما عاد ثمة سبيل إلى الهرب! فقد غدت العزيزة الضخمة، يوماً بعد يوم هولاً مفزعاً! صارت الآن، بعد أن حرثت هكتاراً كاملاً، تمارس علينا سلطاناً مطلقاً!... كنا نحجم عن التحدث إليها... كانت تهددنا بأنها ستلاحقنا إلى أي مكان، إذا ما عاودنا التجوال والتسكع، إذا لم ننخرط في العمل أربعاً وعشرين ساعة!... ما عاد ثمة فرصة للراحة!... كان علينا أن ننفذ ما وعدنا به، أن نخرج المحرك والمولد... أزلنا الصدأ عن المولد الضخم... شغلناه قليلاً... صقلنا جيداً لوحة المقاومة... كان هذا كافياً!... ثم لاحظنا إننا بحاجة إلى

السلك النحاسي... كان يلزمنا كمية كبيرة من بكرات هذا السلك كي نلفه على نحو متعرج، بين كل أثلام البطاطا، على امتداد حقلنا المزروع... لن يكفينا خمسمئة متر! كنا بحاجة إلى كيلو مترات منه. دون ذلك لن تنجح التجربة... دون هذا السلك النحاسي لم يكون ثمة أشعة تيلورية ممكنه!... ولا سباخة مكثفة... لن نحصل على الدفق الكاتودي... كان هذا هو الشرط الذي لاغنى عنه... لم تكن هذه الحجة سيئة في نهاية المطاف... اعتقدنا في البداية بأن هذا السلك اللعين سيغدو عذرنا المقنع، حجتنا القوية التي تقنع عجوزتنا بأن تتراجع إزاء الكلفة الباهظة لهذا السلك... ويجعلها تفكر قليلاً، وتدعنا في سلام... ولكن على العكس، لاشيء من هذا على الإطلاق!... لقد أجج هذا غضبها بالأحرى... وهددتنا إذا ما عدنا إلى التسكع على مألوف عادتنا... إذا ما نكلنا بما وعدنا به، فستذهب وحدها لتقيم في سالينيون، لتعمل قابلة، ولن يتأخر ذلك إلى أبعد من الأسبوع القادم! آه! لعمر الحق ما عاد هناك ذرة من الحب! لقد ضربت لنا على الوتر الحساس!... ولكن حتى لو افترضنا حسن النية، فإن جعبتنا تكاد تكون خاوية، لم يبق فيها من القروش ما يكفي لشراء مثل هذه المواد المكلفة... ولكن تبا! كان هذا هو البوار!... منذا الذي سيبيعنا بالدين؟... ما كان ثمة فائدة من المحاولة...

من جهة أخرى، لم يكن ممكناً إطلاع العجوز على حقيقة وضعنا بوجه الضبط... بأننا كنا، على الأخص، قد بددنا رصيدنا الزهيد جداً... ما تبقى لنا من نقود الخوري، بددناه في المراهنات عبر المراسلة... آه! أضعناه في النهاية... كانت تلك ضربة قاصمة، وأيم الحق... نهاية مشروع الموجات التيلورية... كارثة ماحقه... كنا حقاً غارقين في الضيق والسأم... غدت العجوز الآن متعصبة لرأيها تعصباً

أعمى، مصرة على موضوع البطاطا... كان إصرارها على هذا الموضوع قد غدا حشيشة كيف، على غرار موقفها من الصعود بالمنطاد، أو من أجل بيتها في مونترتو... ما عاد ثمة وسيلة لثنيها عن ذلك! فحينما كانت تنذر نفسها لعمل من الأعمال، فإنها تدوّم فيه على غرار مثقب في الخشب!... كان هذا موجعاً للغاية!...

ـ أنت قلت لي ذلك عشر مرات... مئة مرة! بأنك ستطبّق عملياً طريقتك الكهربائية القذرة؟ لم أختلق ذلك من خيالي... من أجل هذا جئنا جميعاً إلى هنا، أليس كذلك؟ أنا لا أخترع شيئاً... من أجل هذا بعت منزلنا بكسرة خبز؟ نفضت يدك من صحيفتك؟ وقدتنا جميعاً طوعاً أو كرهاً إلى هذا المستنقع الموحل!... إلى هذه الحمأة!... إلى زريبة الخنازير هذه!.. نعم؟.

ـ أجل يا محبوبتي الغالية!..

ـ إذن، حسن!... أريد أن أرى! هل تسمعني؟ أريد أن أرى كل ما وعدت به!... لقد ضحيت بكل شيء!. بكل حياتي!.. بصحتي.. بمستقبلي... بكل ما أملك!... لم يعد لدي أي شيء... أريد أن أراها تنبت!... هل تسمعني؟ تنــبت!!!...

انتصبت أمامه متحدية، ألقت بكل ذلك، مباشرة، في وجهه!... ولفرط ما قامت بأعمال شاقة صارت تمتلك عضلات لا سبيل معها إلى المزاح!... أشبه بمطارق ثقيلة!... كانت تمضغ التبغ وهي تذرع الحقل جيئة وذهاباً... لم تكن تشعل غليونها إلا في المساء، وحين تذهب إلى السوق.. كان على أوسيب، ساعي البريد، الذي لم يعد يأتي إلى مطارحنا منذ سنوات، أن يعود إليها من جديد.. كان يقوم بذلك مرتين كل يوم!... سرت الشائعة، بسرعة البرق، في

المقاطعات الأخرى، بأن بعض المزارعين يقومون بالأعاجيب، يحققون معجزات في زراعة البطاطا، عبر الدفق المغناطيسي...

كانت عصابتنا القديمة من المخترعين قد اشتمت الأثر!... وبدوا جميعاً سعداء بالعثور علينا تلاثتنا، سالمين.. فشنوا هجوماً كاسحاً على مشاريعنا وخططنا!... وفجروا جميع أحقادهم وضغائنهم فوق رؤوسنا!.. كان ساعي البريد يعتل ثلاثة مرات في الأسبوع حقائب بكاملها من المخطوطات... كان خرجه من الثقل بحيث انكسر هيكل دراجته بسبب ذلك... فوضع لها سلسلة مزدوجة... كانت دراجته قد انحنت إلى الأسفل.. فطالب بدراجة أخرى جديدة من مكتب الولاية.

منذ الأيام الأولى، عاد دي بيريري إلى الاستغراق في التأمل.. كان ينتهز دوماً أوقات فراغه، وعزلته,... يخالجه الشعور بأنه مستعد في النهاية لمواجهة احتمالات القدر. أياً كانت تلك الاحتمالات!... كنت أراه دوماً غارقاً في أفكاره وتأملاته! دون أن ينقصه التصميم على اتخاذ القرار الحاسم!... كان يواجه قدره!... دون أن يكون واثقاً جداً.. ولا متشككاً جداً.. كان متأهباً بوجه الضبطّ!...

ـ انظر يا فرديناند! انظر ملياً!... الأحداث تدور مثلما توقعتها تقريباً!.. مع قليل من السبق وحسب!... إيقاع سريع بعض الشيء.. لم أكن أتوقعه!... ومع ذلك، فأنت ترى.. لاحظ! لا تضيع فتاتة صغيرة! ذرة مشعة واحدة!... أنظر باندهاش يا ولدي، كيف سيصرع كورتيال، يذلل، يرغم، يقيِّد، يخضع القدر المارق!... أنظر إلى ذلك! اندهش! تعلم! حاول أن تكون جسوراً، مستعداً لاستقبال اللحظة! وحينما تكون جاهزاً سأنقلها إليك! وهوب! عانقها! اخنقها! سيكون هذا دورك! قبِّلها، فضَّ بكارتها، تلك البغي! ليست حاجاتي الشخصية سوى حاجات ناسك متزهد! أرتوي بسرعة! أتخم! أغرق

في البحبوحة! اجرحها يا فرديناند! اسفح كل عصيرها!... فعمرك عمر النشوات! اغتنم! استغل! تباً! اسطع! إفعل بها كل ما تهواه! سيكون لدي منها دوماً أكثر مما ينبغي!.. عانقني يا فرديناند!.. عجباً! نحن محظوظان!.

لم يكن من السهل أن نتعانق، بسبب معطفي المعلق بخصر بنطالي!... والذي كان يعيق حركاتي... ولكنه كان يبعث فيّ حرارة عالية... كان ذلك ضرورياً!! فالشتاء على الأبواب!... وكوخنا، في معظمه، رغم الموقد، وسد الشقوق بالجبس، معرض للتيارات الهوائية.. كان يحتفظ بكل الرياح المتسربة من الشقوق، وبالقليل من الحرارة...كما لو أنه مصفاة للصقيع... كان قد بلغ أرذل العمل حقاً.

في تلك الفترة بالذات خطرت لدي بيريري فكرة رائعة بعد فترة طويلة من التأمل، في حان «الغروس بول» وفي قلب الغابات... كان يرى أثناء تأملاته على نحو أعمق وأبعد من المعتاد!... كان يحدس بما يحتاجه الناس...

ـ لنضرب صفحاً عن الأفراد! لقد انتهينا منهم!.. ما عادوا يقدمون أي شيء على الإطلاق.. خليق بنا الآن أن نتوجه إلى العائلات، يا فرديناند! مرة واحدة وإلى الأبد.. ودائماً إلى العائلات! كل شيء من أجل ومن خلال العائلات!...

إلى «الآباء الجزعين في فرنسا» أطلق نداءه! إلى أولئك الذين يضعون مستقبل أحبائهم الصغار فوق كل اعتبار!... إلى أولئك الذين يصلبون ببطء على صليب الحياة اليومية، في أعماق المدن الفاسدة، المتعفنة، المخبولة!... إلى أولئك الذين يريدون أن يفعلوا المستحيل لإنقاذ ملاكهم الشاروبيم الصغير من المصير القاسي لعبد رقيق في

حانوت من الحوانيت... أو لمسلول خلف عداد الحسابات.. إلى الأمهات اللواتي يحلمن لصغارهن الظريفين بحياة سوية وسعيدة في الهواء الطلق!... بعيداً عن العفونات المدينية... بمستقبل مضمون من خلال عمل صحي.. في حضن الريف... في غمرة أفراح مغسولة بأشعة الشمس! وديعة، ومتكاملة!... سيتعهد دي بيريري بتأمين كل هذا، إضافة إلى أشياء أخرى.. ويتكفل هو زوجته برعاية كاملة لجميع أولئك المحظوظين الصغار، بكل ما يتعلق بتعليمهم الابتدائي، والثانوي أيضاً، «العقلاني» بالتأكيد، وأخيراً، بتعليمهم العالي«الوضعي، في تدجين الحيوانات، والبستنة»..

كان استثمارنا «الراديو تيلوري» سيتحول على الفور، عبر إسهام الآباء المكتتبين، إلى «تعاونية لتحسين العرق الجديد»... بهذه العبارة عنونا إعلاناتنا عن مزرعتنا، وميادين نشاطها.. وغطينا بإعلاناتنا، خلال بضعة أيام، العديد من أحياء باريس «أرسلت جميعها من قبل طابعنا تابونييه»، إلى أشد الأحياء ازدحاماً، وأكثرها انغلاقاً وتعفناً، بالإضافة إلى بعض التجمعات السكانية المتاخمة لآشير حيث الجو موبوء بالعفونة والرطوبة.. لم يكن يخالجنا سوى تخوف وحيد.. هو أن يجتاحونا في وقت أبكر مما ينبغي! كنا نخاف من الحماس الجنوني المنفلت خوفنا من الطاعون...

لم يكن ثمة ما يقلقنا بشأن توفير فائض من الغذاء، بفضل «أشعتنا التيلورية»!... لم يبق، في المحصلة، سوى مشكلة حقيقية وحيدة... أن تعجز الأسواق عن استيعاب بطاطنا «العملاق»!... ولكننا سنفكر بذلك في أوانه!... سنسمن بها الخنازير!.. الأمر سواء.. سنقيم أيضاً فناء واسعاً للدواجن!... سيكون لحم الدجاج جزءاً من طعام الفتيان الرواد!... كان كورتيال من أنصار هذه التغذية المختلطة... اللحوم

غذاء مفيد للنمو!..... أما بخصوص اللباس، فالأمر هين، لن نواجه فيه أية صعوبة، سيرتدي جميع فتياننا ثياباً كتانية من إنتاج مزرعتنا!... ننسجها معاً بأيدينا، بطريقة منتظمة خلال أمسيات الشتاء الطويلة!... سيكون هذا حدثاً مجلجلاً... يدوي صداه في الآفاق! خلية نحل زراعية جذلى! ولكن تحت سلطان العقل! وليس الغريزة وحدها! آه! كان دي بيريري يشدد دائماً على هذا التمييز! كان يرغب بأن يسير مشروعنا على نحو إيقاعي!... سيال! حدسي!... على هذا النحو كان دي بيريري يلخص الوضع. ففيما يكون فتيان «العرق الجديد» يلهون ويلعبون، فإنهم يتعلمون كل شيء، ويقوون رئاتهم، ويقدمون لنا، في غمرة الفرح يداً عاملة مفعمة بالتلقائية، متعلمة بسرعة، وثابتة، ومجانية كلياً!... مسخرين طاقتهم الفتوية، من دون أي إكراه، في خدمة الزراعة.. «الحديثة المتعددة الإشعاع».. هذا الإصلاح العظيم سيكون نابعاً من القاع، من نسغ الريف ذاته! وسيزهر في حضن الطبيعة! ويفوح بأريجه علينا جميعاً!. كان كورتيال يستنشقه سلفاً!... كنا معتمدين كلياً على الفتيان، على حماسهم وحيويتهم، بوجه خاص، لاقتلاع الأعشاب الضارة من الحقل! اجتثاثها، واستصلاح الأرض أيضاً!... تسلية حقيقية خفيفة للأطفال! ولكنها تعذيب ممض للراشدين الكبار!... وحينئذ فإن دي بيريري، بعد أن يتخلص من ذلك الطوفان الهائل من أعمال الزراعة الوضيعة. يمكنه أن يتفرغ كلياً لتركيز «مجموعته المولدة للأشعة» على نحو بالغ الدقة! سيقود عملية «الدفق المغناطيسي»، دون أن يقوم بأي عمل آخر! سيغرق باطن تربته، سيرهقها بكل سيول الأشعة التيلورية.

عرضنا برنامجنا بوضوح في إعلاننا، وأرسلنا منه عشرة آلاف نسخة، من حي إلى آخر... هل كان سيلبي التمنيات المضمرة؟.. ألف رغبة ضمنية.. تلقينا على الفور تقريباً فيضاً هائلاً من الرسائل...

تضمن تعليقات فظة... ولكنها كانت بأكملها حافلة بـالإطراء.. أما مـا بـدا مـثيراً للاهتمـام لـدى أغلبيـة المـشجعين فهـو التواضـع الـشديد لمطالبنا المالية.. كنا، بوجـه الـضبط، قـد بنينـا حـساباتنا علـى آخـر قيراط... كان من بـالغ الـصعوبة أن يحقـق مـشروعنا عائـداً مجزيـاً... فلكي نقـود، علـى هـذا النحـو، طفـلاً، منـذ نعومـة أظفـاره (ست سـنوات، في الحـد الأدنى) حـتى بلوغـه سـن الخدمـة العـسكرية، ونـؤمن لـه المـسكن والغطـاء، خـلال ثلاثـة عـشر عامـاً، وننمـي شخـصيته، ورئتيـه، وعقلـه، وذراعيـه، ونخلـق لديـه الميـل إلى الطبيعة، ونعلمه مهنة عظيمة جـداً. ونمنحـه أخـيراً، وبوجـه خـاص، لـدى تخرجـه مـن تعاونيتنـا الإنتاجيـة، دبلومـاً رفيعـاً، ومعترفـاً بـه «كمهندس راديو غروميتري» لم نكن قـد طلبنـا مـن الآبـاء، عـن كـل ذلك، سـوى مبلـغ إجمـالي، محـدود، مقـداره «400» فرنـك.. مـن المؤكد أن هذا المبلغ، هذا العائد الفـوري كـان يـؤمن شـراء الـسلك النحاسـي وتجهيـز الـدارة الكهربائيـة... والبـث تحـت الأرضـي.. وبتسريع زراعاتنا ودفعها إلى الأمام سيكون المـستقبل لنـا!.. لم نكـن نطلب المستحيل!... كي نبدأ... أربع قاطرات من البطاطا في الشهر.

***

ما إن اتخذ المشروع ملامح أوليـة، حـتى بـدأت العجـوز، بحكـم طبيعتها، باعتراضه بألف مناورة عدائية، ماكرة، بارعـة، عـصية علـى الكلال... لا يمكن نكران ذلك!... لقد تغلغلت القدرية المأسـاوية في ألياف أعصابها، وأعطبت النسيج ببطء، وكانت من العمـق، إلى حـد أن القباطنـة الأشـد حنكـة ومهـارة، والفـاتحين الأعظـم جـسارة، لا يمكنهم، ولا ينبغي لهم، من أجل النجاة من الكارثة، وعـدم الانتـهاء إلى البوار، إلا الاعتماد، بوجه الضبط، على معجزة خارقـة... تلكـم

هي الطبيعة، تلكم هي اللازمة المتكررة، النتيجة الحقيقية لأكثر الاندفاعات إثارة للإعجاب.. إن العبقرية الإنسانية تفتقر إلى الحظ... ذلكم هو الدرس الكوني الشامل!... خليق أن نحث الأشخاص الأعظم جسارة على التروي!... أن نجعلهم يفكرون بسفالة القدر!... ببوادر النحس التي تلوح في الأفق! أواه! يلتهم القدر الرجاءات، مثلما يلتهم العلجوم الذباب... يقفز في إثرها! يسحقها! يمزقها! يزدردها! يتلذذ بها! يحولها إلى بعرات صغيرة جداً، إلى تقدمات نذور لآنسة مقبلة على الزواج.

ونحن الآخرون، في بليم الصغرى، مع مراعاة الفوارق بالتأكيد، تلقينا الضربات من كل حدب وصوب... منذ بداية أعمالنا.. وأولها من كاتب العدل في بيرسان... كان يأتي إلينا كل يوم بعد الظهر.. منذراً متوعداً.. كي نصفي له حسابه. لقد قرأ في الصحف تحقيقاً مثيراً حول تجاربنا الباهرة... كان يعتقد بوجود موارد خفية مستورة، وبأننا كدسنا أرباحاً طائلة!... وجعل يطالبنا بنصيبه المستحق من عوائد مزرعته التي كانت مرتعاً للبوم والغربان، وأراضيه الصلصالية القاحلة! ومن ثم فإن دائنينا من أيام القصر الملكي شرعوا يضرطون ضراطاً متواصلاً بعد أن نفد صبرهم.. تابونييه أيضاً! الذي كان لطيفاً جداً في البداية، غدا شخصاً حقيراً... كان يقرأ الصحف هو أيضاً!... وفهم من تلك القمامات بأننا كنا غارقين في النعيم.

بالإضافة إلى الأوراق العديدة المكتوبة باليد، بصدد «التحريات» التي توشك أن تبدأ، أغرقونا بأوراق جديدة مدموغة!... من كل صنف ولون!... وجدنا أنفسنا قيد شعرة من عدة عمليات حجز جميلة!...حتى قبل أن نرى لون بطاطتنا الأولى! وانتهز الدرك الوضع كي يقوموا بجولة صغيرة على هذا النحو، ليتأكدوا بأنفسهم من قيافتنا

المضحكة، ومن طرائقنا المدهشة... كانت إعلاناتنا الظريفة «حول العرق الجديد» قد أثارت انفعال مأموري المقاطعة، وأعرب مفتش الأكاديمية، بشيء من الحسد، بالضرورة، عن بعض الشكوك حول حقوقنا بافتتاح مدرسة!.. كان هذا مشروعاً مشبوهاً! بدوا بالضبط نصف خبثاء. انتهزوا فقط الفرصة السانحة، وكان هذا محتماً، لإخطارنا، بلطف مع ذلك، بأن من الأفضل أن نأخذ في حسباننا. بأن مشروعنا لا يعدو أن يكون «حضانة»... أو «مخيماً للعطل».. أو حتى «مصحاً».. أما إذا أصررنا على الجانب التربوي، فإننا نضع، بالضرورة، كلَّ السلطات خلف ظهرنا!...

مأزق ذو حدين أحلاهما مر!.. إما الهلاك؟.. أو البدء بالمشروع؟... كنا نفكر دون أن نكون مصممين كل التصميم.. حينما وصل إلينا فريق من الآباء المتطفلين، في يوم أحد، سيراً على الأقدام. في نحو الساعة الرابعة بعد الظهر، كي يكوّنوا فكرتهم الخاصة... تفحصوا الأماكن بعناية، جميع الملحقات بالمشروع، المظهر العام لميدان عملنا.. ثم ما عدنا رأيناهم بعد ذلك قط!..

آه! كدنا نفقد الأمل! رياح كثيرة كانت تجري بعكس ما نشتهي؟... عدم الفهم الكريه!... وتلك العدوانية المجسدة! آه! كان هذا طفاح الكيل حقاً! وفي النهاية استقبلنا ذات يوم جميل، والسماء مشرقة وضاءة، فريقاً من ثمانية عشر مشجِّعاً متحمساً تقريباً، جاءوا على التوالي! آباء يتمتعون بدرجة من الوعي، كانوا يكرهون المدينة، ويلعنونها على الملأ، ويلعنون هواءها الملوث! كانوا منحازين إلى رأينا بصراحة!... تجندوا على الفور من أجل مشروعنا الإصلاحي «العرق الجديد».. وأرسلوا لنا صغارهم مع قسط على الحساب، من

أجل أن نضمهم للتو إلى صفوف الكتيبة الزراعيـة!... مئـة فرنـك من هنا، ومائتا فرنك من هناك... والبـاقي يـصل فيمـا بعـد!... كـم من السلف دفعت!... ولكن لا أحد منهم دفـع المبلـغ بكاملـه! سيكون هذا فيمـا بعـد، ذلـك مـا وعـدوا بـه... نوايـا حـسنة في المحـصلة! بإخلاص ملموس بالتأكيد... ولكنه مبهم قليلاً.. التـوفير، التحـوط... والكثير من عدم الثقة!...

أخيراً، صار الأولاد هنا أمامنا!.. خمسة عشر بالإجمال.. تـسعة فتيان.. وست فتيات، وثلاثة لم نر وجوههم أبداً. كان من الأفـضل أن نقوم باحتياط صغير بالإصغاء إلى نصائح القاضـي الاحتيـاطي.. تلكم هي الحكمة!... استخدام الحيلة في البداية! قليل مـن الحـذر لن يضرنا... وفيما بعد، حينمـا تـنجح التجربـة، وتفـرض الأمـور نفسها!... فسنذهب لنتوسل إليه!... حينئذ سننشر رايتنا... «العـرق الجديد. زهرة الحقول».

لم يكن بوسعنا شراء الكـثير مـن الأشـياء بمـا جلبـه أولاد الدفعـة الأولى من نقود! ولا حتى الأسِرَّة الضرورية... ولا الفـراش أيـضاً!... نمنا جميعاً على القش... بالتساوي!... الفتيات في جهة.. والفتيـان في جهـة أخـرى... لم يعـد بمقـدورنا الآن مـع ذلـك أن نعيـدهم إلى آبائهم!... لقد تبدد المبلغ الزهيد خلال ثمانيـة أيـام بعـد أن تـوزع في دزينـة مـن الاتجاهـات! كاتـب العـدل وحـده طالـب بثلاثـة أربـاع المبلغ!... وذهب الباقي في شراء السلك النحاسـي... خمـس بكـرات تقريباً على الأرجح... ولكن من النموذج الممتاز، محمول على مسند قابل للدوران.

* * *

كانت جميلتنا الضخمة قد زرعت منذ البداية، تحسباً لمعاكسات الخط، نوعاً من البطاطا من الصنف البالغ الجودة، والذي كان ينمو حتى في زمهرير الشتاء... لم يكن هناك ما هو أشد صلابة منه... وحتى لو افترضنا الأسوأ... بأن أشعة كورتيال لن تعطي كل ما كنا نتوقعه منها، فسيكون بإمكاننا أن نجني منه غلة وفيرة... سيكون هذا ولا شك خارقاً للمألوف لأنه سيمنع البطاطا من أن تنتش!... ويكون الموسم استثنائياً لم تره عين من قبل! انخرطنا جميعاً في العمل.. لففنا الأسلاك في كل مكان أشار إليه كورتيال... ولكي نكون أكثر اطمئناناً، كنا نلف السلك النحاسي ثلاث لفات حول كل ثلم!... كان ذلك عملاً لا ينسى!... ولا سيما حين كنا نعتلي خاصرة التلة.. تحت لفح ريح الشمال.. كان أطفالنا يرتعون مع ذلك في عباب تلك الريح الصقيعية القاسية! كان الأمر الجوهري بالنسبة إليهم أن يظلوا خارج الغرف المغلقة! وأن لا يقضوا دقيقة واحدة داخلها! كانوا جميعاً تقريباً قد جاؤوا من الضواحي.. لهذا لم يكونوا طيعين، ولا سيما دودول، وهو طفل صغير، بالغ النحول، كان يريد أن يلمس جميع الفتيات... كان خليقاً أن نجعله ينام بيننا.. ثم بدؤوا يسعلون.. ولحسن الحظ فإن عزيزتنا الضخمة كانت ملمة بعض الإلمام بالطب والعلاج. كانت تغطيهم بالكمادات من الرأس حتى القدمين!... كان الأمر سيان بالنسبة إليهم؟ حتى لو سلخنا جلودهم! شرط أن لا نغلق عليهم الأبواب!.. كان نداء الخارج يشدهم بقوة!... دائماً ورغم كل شيء!... كنا نلتهم كميات كبيرة من الطعام!... معتمدين اعتماداً كبيراً على الحساء.

بعد ثلاثة أسابيع من العمل كان حقل البطاطا الشاسع مغطى بشبكة من أسلاك النحاس، مع ألف وصلة بين الأثلام... لم يبرح دي

بيريري يضخ صلصته الشعاعية عبــر أليـاف البطاطـا!... آه!.. أطلق العنـان لآلاتـه العتيقـة، يقـرع بهـا حقـل البطاطـا... في ربـع الساعة الأولى... كانـت تنبعـث سلـسلة اهتـزازات مخيفـة...ثم يبـدأ تفريـغ شحنات تيلورية كثيفة جداً، تتخللها اهتزازات صغيرة متناوبـة... كـان ينهض أيضاً في منتصف الليـل كـي يطلـق المزيـد مـن الـشحنات في عروق البطاطا، كي ينعشها كلياً.. كي يحرضها إلى الحد الأقصى. كان ذلك يقلق العزيزة الضخمة حين تراه يخرج هكذا في الجو الـصقيعي.. فتنهض من مرقدها مرتجفة... وتهتف به أن يغطي جسده جيداً.

***

كان العمل يسير على هذا النحو، منـذ شـهر، حـين بـدأ كورتيـال يبحث لنفسه، في إحدى اللحظات، عن حجج ومعـاذير... كـان هـذا نذيراً سيئاً جداً!...

ـ كنت أفضِّل، قال لنا، بأن أجرِّب مع ذلك على الكراث!... كـان يكرِّر هذا أمام عجوزه، ولا ينفك يـردده بـين وقـت وآخـر! راغبـاً أن يرى رد فعلها.. «ماذا تقولين بشأن الفجل؟..» كانت زوجته تنظـر إليـه شزراً، وترفع قبعتها قليلاً، لم تكن تحب تلميحاتـه.. كـان القـرار قـد اتخذ، عجباً! ولم يعد خليقاً أن يتهرب!.

كــان روادنـــا الـــصغار يتفتحـــون كـــالزهور، مـــستفيدين مـــن استقلاليتهم!.. لم نكن نلزمهم بشيء، كـانوا يفعلـون مـا يـشاؤون في المحـصلة!... وحـتى قواعـد انـضباطهم..لم نتـدخل فيهـا!... كـانوا يتضاربون بعنف شديد... وكان أصغرهم هو الأشد خبثـاً، إنـه دودول دائماً، بأعوامه السبعة والنصف!... أما أكبــر أفراد الفريق فكان فتـاة، شابة تقريباً، إنها ميزانج ريمبو، الشقراء، ذات العيـنين الخـضراوين، والإليتين المتموجتين، والنهدين النافرين... السيدة دي بيريري، الـتي

لم تكن ساذجة جداً، لم تخف شكوكها وقلقها تجاه الفتاة، ولا سيما أثناء حيضها!... كانت تهيئ لها نوعاً من ساتر خاص للنوم في زاوية من مستودع الحصيد، كي تنام وحدها، طيلة الفترة التي تنعزل فيها! ولكن هذا لم يكن يمنعها من الانفلات خفية.. كانت نداءات الطبيعة قد استيقظت لدى هؤلاء المخاطيين. وقد فاجأها ساعي البريد، أوسيب، ذات مساء، خلف الكنيسة، في طرف الضيعة، في وضع مشبوه مع تاتاف، وجول وجوليان!... كان الأربعة معاً.

كان ذلك الساعي يعاملنا بلؤم شديد، بسبب مسيراته الدائمة إلى مزرعتنا.. لم يحصل على دراجته من إدارة المقاطعة.. كان عليه أن ينتظر سنتين اثنتين كي يحصل على دراجة جديدة.. لم يكن يحق له ذلك.. ما عاد بمقدوره أن يتحملنا... كان يطالبنا بحذاء، نحن الذين لم نكن نمتلك أحذية!... وبسبب سيره المتمهل، لم يكن يفوته أدق التفاصيل، بالضرورة... وفي اليوم الذي فاجأ فيه الأولاد يلهون.. قفل عائداً إلينا، سيراً على قدميه.. جاء خصيصاً كي ينعتنا بالقذرين... كما لو أننا كنا نحن المسؤولين! ذلكم دوماً شأن المتلصصين.. يستمتعون في البداية، بكل خلية من خلاياهم... ولا يضيعون ذرة من المشهد، وحينما ينتهي احتفالهم الشبقي، يستشيطون غضباً!... وقد وجد ساعينا من يحدثه عما رأى!.... كان لدينا هموم أخرى، لها أخطارها المختلفة.

فجأة، لم تعد حركة المرور تهدأ في ضيعتنا الخربة التي طلَّقت الزراعة منذ عشرين عاماً... فبعد أن شاعت حكاية بطاطنا.. لم يتوقف موكب المتطفلين عن الذهاب والإياب، من الصباح وحتى المساء، سرت الشائعات، والأخبار الملفقة في كل أرجاء المقاطعة.. كان سكان بيرسان وسالينيون قد عرفوا بالأمر عن كثب، فجاؤوا يريدون عينات، ويطلبون آلاف التوضيحات، بإلحاح شديد... ويسألون ما إن

كان ذلك يشكّل خطراً؟ ما إذا لم يكن من الممكن أن تنفجر الآلـة؟ أو ترتج الأرض بسببها؟ أما دي بيريري فكان يبـدي مـع مـرور الوقـت، ومع التقدم في التجربة تحفظاً شديداً. كان يكرر كلمات «إذا، و«ربما» كثيراً، مما كان يوحي بالشؤم والتطير. كانت كلماته مثيرة للقلـق أكثر فأكثر... لم أكـن أسمـع مـن لـسانه كلمـات «إذا» و«ربمـا» في القـصر الملكي... بعد أسبوع على وجه التقريب كان ينبغي أن يوقـف المولـد والمحرك.. شرح لنا حينئذ بأن ثمة خطراً كبيراً الآن في إطـلاق المزيـد من الموجات.. وأن من الأفضل التوقف قليلاً... ثم نستأنف بعـد فتـرة وجيزة... بعد استراحة قصيرة... كان من الممكن للموجـات التيلوريـة أن تسبب بالتأكيد بعض الاضـطرابات الـصحية... والمـضاعفات غـير المتوقعـة... والاخـتلالات الفيزيولوجيـة. كـان دي بيريـري، يـشعر شخصياً بالتشبع المغناطيسي، وصارت تنتابه دوخات بين حين وآخر.

ما إن سمع الفلاحون الفضوليون تلك العبارات حـتى ارفـضّوا مـن حولنا، يغشاهم القلق الشديد. وفجأة، انهالت علينـا الـشكاوى! عـاد رجال الدرك لرؤيتنا.. ولكن لم يكن ثمة ما يقال حـول تعاونيتنـا... لم يكن يكدر أولادنا أي مكدر.. ما كـان أحـد منـهم مريـضاً... كنـا قـد فقدنا أرانبنا السبعة في جائحة مهلكة! لم تقاوم قساوة الطقس ربمـا؟.. أو بسبب الغذاء؟.. انصرف رجـال الـدرك في النهايـة.. أبـدى روادنـا العزيزون شعوراً بالملل الشديد من طعامنا المشترك الذي كـان مناسـباً لأسبـرطيين... احتجوا احتجاجاً شديداً، ورفعوا رايـة التمـرد... لقـد نمت أجسادهم بالتأكيد!... كـانوا سـيلتهمون المقاطعـة بأكملـها.. ثم وقع اختيارهم على وسائل أخرى.. كانت بمبادرة منـهم... ففـي أحـد الأيام عادوا إلينا بثلاث ربطات من الجزر... وفي اليوم التالي بصندوق من اللفت... ومرة أخرى بفاصولياء... كل هذا لإعـداد الحـساء! وقـد

حسّن ذلك من سوية طعامنا.. وأخيراً عادوا بدزينة من البيض، وثلاث ليبرات من الزبدة وشحم الخنزير... لم يكن لدينا منها منذ زمن طويل، ينبغي الاعتراف! لم يكن ذلك سلباً لمواد كمالية! أو عملاً نابعاً من نوايا شريرة!... فالسيدة دي بيريري لم تعد تخرج إلى السوق تقريباً منذ زراعتنا المكثفة، كانت دائماً تتجول في محيط الحقل، وتقوم بترميمات هنا وهناك كي يتحقق النجاح المطلوب... ما عادت تذهب إلى بيرسان إلا مرة واحدة كل أسبوع. على المائدة، لم يعد أحد يبدي انزعاجاً!... كنا جميعاً نأكل بوفرة!... تلكم هي الضرورة القهرية!... في اليوم التالي أيضاً عادوا بدجاجة عجوز، منتوفة الريش كلياً... ما لبثت أن تحولت إلى مرق شهي.. وليمة في إثر وليمة، لم يكن ينقصنا سوى قليل من الخمر.. لم نقترح ذلك صراحة.. غير أننا في النهاية، ورغم كل شيء صار النبيذ في متناول أيدينا في جميع الأيام التي تلت.. نبيذ من مختلف الألوان.. ترى، أين كان الأولاد يعثرون على كل ذلك؟ لم نطرح أي سؤال!... ما من ضرورة للشروح والتفسيرات... كانت نيران الحطب رائعة جداً، غير أن الأمر لم يكن سهلاً ميسوراً، كانت تغذيتها أمراً معقداً، كانت تستهلك الكثير من الحطب دفعة واحدة، بحيث ينبغي إضرامها طوال الوقت.. عثر الأولاد على كتل من الفحم.. ونقلوها على عربة نقالة بذراعين عبر الحقول... صار لدينا موقد باذخ!... كنا مستخفين بالأخطار... كان اعتمادنا منصباً على البطاطا بغية استعادة التوازن... والشرف المهدور، وكل ما تبقى!... وتلافي الانتقامات الحاقدة.

كنا نذهب لرؤية البطاطا، ومراقبتها كما لو أنها جواهر حقيقية، ونقتلع واحدة كل ساعة، كي نتأكد على نحو أفضل... عادت مولدات الأشعة إلى الدوران... كانت تهدر ليل نهار!... كنا ننفق الكثير على

شراء البنزين... ولكننا لم نكن نلمس الكثير من التقدم... فالبطاطا التي كان يجلبها الأولاد، والخضار «المسروقة» كانت أجود بكثير!...

لاحظ دي بيريري ذلك بوضوح، فوقع في حيرة من أمره... كان سلكنا النحاسي، في رأيه من نوعية رديئة... لم يكن صالحاً لتوصيل الأشعة، بقدر ما كنا نظن لأول وهلة... ليس بالمقدار اللازم...كان هذا محتملاً.

* * *

عدنا إلى «الغروس بول» بعد فترة من الانقطاع... عدنا إليه مرة وحيدة لكي نرى الأمور.. فقوبلنا ببرود وجفاء شديدين، تفوه! لشد ما كان استقبالهم لنا قبيحاً! آغانا الخادمة، لم تعد هناك، كانت قد رحلت مع طبَّال المدينة، وهو أب لعائلة!... كانا قد غرقا معاً في حمأة الرذيلة... حملوني أنا مسؤولية إفساد الفتاة. ففي القرية، وفيما يجاورها من البلدان كان الجميع يتهمني.. مع أنَّ الجميع كانوا قد ناموا معها!.. لم يكن ثمة خطأ! كنت أنا من أفسد الفتاة! هكذا كانوا يقولون.. أعرض الجميع عنا، وما عادوا راغبين بالتعرف علينا، لا أنا ولا كورتيال!... رفضوا أن يراهنوا معنا... كان الحلاق المقابل لمركز البريد قد تلقف كل الرهانات.. استعاد طريقتنا بكاملها، وحتى المظاريف والطوابع...

كانوا يعرفون أيضاً أشياء أخرى، رواد «الغروس بول» هؤلاء، بخصوص غرائزنا المنحطة!.. كانوا يعرفون، على الأخص، بأننا كنا نقتات على حساب سكان القرية!... الدجاجات التي لم يعثروا عليها في محيط عشرين كيلو متراً دائرياً.. الزبدة أيضاً والجزر!.. كنا نحن البوهيميين المتشردين من فعل كل ذلك!.. لم يقولوا لنا ذلك

صراحة، لأنهم كانوا ماكرين... ولكنهم ألمحوا لنا إلى طلقات بندقية لن تكون موجهة إلى كل الناس.. وإنما إلى عصابة الأوباش الذين سينتهون مع ذلك إلى السجن!... اللهم آمين!... ووجهوا لنا أخيراً بضع ملاحظات جارحة.. غادرناهم دون أن نقول: «إلى اللقاء» واستغرق طريق عودتنا إلى بليم ساعتين كاملتين... أمضيناهما في التفكير بذلك الاستقبال القبيح.

لم تكن أمورنا تسير على ما يرام... و ما كانت مشاريعنا تبشر بنتائج مثمرة... كان دي بيريري يدرك هذا جيداً.. كنت أعتقد بأنه سيحدثني عن ذلك.. ولكنه مضى يتحدث عن أشياء أخرى مختلفة، وفيما نحن عائدان على الدرب الترابي... كانت هناك فوقنا نجوم وكواكب أيضاً... بأبعادها السحيقة، ومذنبات وشهب... أخيلة سحرية بهية، تتواثب وتهوي... كويكبات هي من الكثافة، بحيث يظنها الرائي سحباً من النجوم...

كنا نمشي منذ وقت طويل.. شرع كورتيال يلهث... كان لديه دائماً شغف بالغ بكل ما يتعلق بالسماء وبالمسارات الفلكية... كان ذلك يحدث فيه اضطراباً... لم يكن بد من أن نبطئ خطونا... تسلقنا أكمة... كان يلتقط أنفاسه... جلسنا هناك.

ـ أنت ترى يا فرديناند بأنني ما عدت أستطيع.. ما عدت أستطيع أن اعمل شيئين في وقت واحد.. أنا الذي كنت أعمل دائماً ثلاثة أو أربعة أشياء.. آه! ليس هذا غريباً يا فرديناند!... ليس هذا غريباً!.. لا أقول الحياة يا فرديناند، وإنما الزمن !.... الحياة، هي نحن! إنها لا شيء... أما الزمن فهو كل شيء.. انظر إذن إلى كوكبة «أوريون» الصغيرة.. هل ترى «سيروس»؟ على مقربة من «فليو»؟ إنها تمضي... تمضي... لتلتقي بكوكبة أنتيوب الكبيرة... كان منهكاً.. ذراعاه

مسندتان إلى ركبتيه... أنت ترى يا فرديناند بـأنني سـأتمكن في أمسية مثل هذه الأمسية من العثور على يبتلجوز... في ليلة كريـستالية مفعمة بالرؤى... ربما ما يزال بإمكاننا ذلك بواسطة التلـسكوب.. التسلكوب الذي لست قريباً من العثور عليه!... آه! تباً! أي خلط سـخيف حينما أفكر بهذا... آه! هل تصدق يا فرديناند؟ آه! هل تـصدق؟ آه! قـل إذن بأنك فهمت؟....

كان يستمتع بذكرياته.. لم أجـب بـشيء... لم أرغـب في أن أكـون مسؤولاً عن تزيين أوهامه.. فحينما يعاوده تفاؤله لم يكن يتلفظ سوى بحماقات... ثم تابع حديثه لي شذر مذر...

«فرديناند! أنت ترى، يـا فتـاي الـشجاع.. آه! أحـب أن أكـون في مكان غير هذا المكان! في مكان آخـر مختلـف كليـاً، أنـت تعلـم!... مكان آخر... سيحدث ذلـك...» كـان يقـوم بحركـات أيـضاً، يرسم قطوعاً نصف دائرية.. رافعاً يديه نحو المجـرة... عاليـاً عاليـاً جـداً في الفضاء... كان ما يزال يعثر على ومـضة.. علـى شيء صغير يـشرحه لي.. كان يريـد... ولكنـه مـا عـاد يـستطيع... تتحـشرج الكلمـات في حلقه... كـان صـدره هـو الـذي يؤلمـه... «لقـد سـبَّب لي الربـو هـذا الخريـف!» قـال لي تلـك الملاحظـة... ثم مـا لبـث أن أخلـد إلى السكينة... أغفى هنيهة.. مقلِّصاً جسده فـوق العـشب.. أيقظتـه خشية البـرد.. وبعد نصف ساعة ربما، استأنفنا سيرنا، على مهل شديد.

* * *

ما رأيت قط في يوم من الأيام أطفالاً يتفتحون بهذا القدر من القوة والسرعة. مثلما رأيت أطفالنا، غدوا أقوياء جداً، مفتولي العـضل منذ أن صاروا يلتـهمون الطعـام بـوفرة!... كانـت المائـدة تغـص باليخنة

الغليظة!... كانوا يأكلون بنهم حقيقي، وكانت الخمرة في متناولهم جميعاً... لم يكونوا يتقبلون اللوم والتوبيخ، ولا يستمعون إلى أية نصيحة! ما كانوا راغبين بأن نقلق بشأنهم!... كانوا يتدبرون أمورهم بمفردهم تماماً!...

كان أكثر خوفنا على ميزانج، من أن تقع ذات يوم بين براثن ماجن فاسق، وتحمل منه!... كانت تبدو أحياناً سادرة في الأحلام، وهو ما كان ينبئ بأفدح الأخطار... كانت السيدة دي بيريري تفكر بها طوال الوقت... وترسم صلباناً على المفكرة تشير إلى مواعيد طمثها.

كان روادنا الصغار لا ينفكون يحومون حول أفناء الدواجن، وينبشون مخازن الغلال، من الصباح وحتى المساء! كانوا ينهضون من نومهم إذا شاؤوا... كان هذا يتعلق بأطوار القمر... لم يكونوا يروون لنا إلا القليل من مغامراتهم... كنا نقوم بأعمالنا الزراعية في ساعات الصباح... وحين يحين موعد تحصيل القوت كان صغارنا الظرفاء يغدون أعجوبة في النشاط والحذق... كانوا يتوزعون في كل الاتجاهات، في آن واحد... لم يكن يراهم أحد، مع ذلك... كانوا يقلدون الهنود الحمر بدقة تامة! مفعمين بالدهاء وسعة الحيلة. وبعد مرور ستة أشهر في الاستكشاف، واقتفاء الآثار على نحو خارق، في مختلف النواحي والبقاع.. امتلكوا حتى ألياف أعصابهم حسَّ الاتجاه، وسط متاهة الخبايا المجهولة، وأسرار أصغر المخابئ! وموقع جميع القلاع المحصنة!... على نحو أفضل من أرانب البراري، يرودونها على حين بغتة... ليس ثمة ما يضاف إلى هذا.

من دونهم، كنا، ببساطة سنهلك بؤساً وجوعاً!... كنا سنعيش في عوز قاتل! ألا ما كان اعظم ما قدموه لنا.. كانوا يفرحون برؤيتنا شبعى متخمين! ما كنا نملك سوى أن نغمرهم بالمديح..

كان الكبار من ظرفائنا يكظمون غيظهم، ويتحملـون أوامرنـا على مضض... كـانوا يريـدون أن تكـون لهـم كلمـة... مـا عـاد الوضع محتملاً بالنسبة إليهم! أليس موضوع القوت هـو الحكـم؟ والقـول الفصل؟ لو انصرف عنـا الأولاد لمتنـا جوعـاً!.. فـالريف قـاس لا يرحم... ما من كلمة آمرة كانت تـصدر عنـا. كانـت المبـادرة هـي القاعدة دومـاً... كـان والـد ريمونـد، مـشعل المـصابيح في قطاع لوفالوا هو الوحيد الذي جاء لزيارتنا خلال أول شتاء... كـان ذلـك أسهل بالنسبة إليه لأنه يستطيع الحـصول علـى إجـازات... لم يكـد يتعرف على ريموند لفرط ما وجده قوياً مـتين البنيـان... هـو الـذي كان هزيلاً ضامراً حـين وصـل إلينـا، غـدا الآن بطـلاً رياضـياً! لم نحدّثه عن شيء... كان ريموند ولداً رائعاً، ما كان أحد يجاريـه في سرقة البيض... كان يلتقط البيـضة مـن تحـت الدجاجـة... دون أن يجعلها تقرق!... يد لص حقيقي.. كان الأب رجلاً شريفاً، أراد أن يسددنا دينه... تحدث أيضاً عن أن ولده ريموند غدا الآن من القـوة والعافية بحيث يمكنه أن يعيـده معـه إلى لوفـالوا... كـان يجـده في أفضل حـال!... لم نقبـل بـذلك.. كـان هنـاك معارضـة شـديدة... ورددنا له نقوده هدية... كان مـا يـزال يـدين لنـا بثلاثمئـة فرنـك.. ولكن بشرط واحد هو أن يتـرك ولـده ليكمـل تعليمـه حـتى نهايـة الموسم الزراعي!... كان ذلك الفتى الصغير يساوي وزنه ذهباً... ما كنا راغبين على الإطلاق بـأن نفقـده! وكـان الفـتى سـعيداً بالبقـاء معنا... لم يطلب أي تغيير... على هذا النحو انتظمت حياتنا... كنـا مكـروهين في كـل مكـان حولنـا، علـى امتـداد عـشرين كيلـومتراً دائرياً... كانوا يشنؤوننا أشـد الـشنأ، ولكنـهم، مـع ذلـك، كـانوا عاجزين عن أن يثبتوا علينا أي جنحة صغيرة، في معتزلنـا البعيـد، في بليم الصغرى.

كانت الجميلة الجسيمة تتضخم أكثر من الجميع من جراء الفواكه المسروقة... لم يكن لديها إذن ما تقوله، على الإطلاق! لم يكن حقلها ليغذيها! ولا كذلك قبعتها! ولا سروالها! كانت تطلق آهات حرَّى حينما ترشف مشروبها... لم تصدق عينها وهي تجد نفسها تعتاد شيئاً فشيئاً على تلك القرصنات التي لا حصر لها!... كانت تلجأ إلى الكحول... بسبب حزنها الكظيم ربما... قدح صغير.. قدح آخر.. ثم قدح بعد القهوة!... فلتكن مشيئة القدر! كانت تتأوه بسبب ذلك... ما دامت لم تعد تصلح لشيء! وتتوجه بأنظارها نحو كورتيال.

داخل هرينا، وداخل مستودعنا تحت الأرضي، وفي كوخ منعزل كنا نكدِّس مؤننا!... كان الأولاد يهبون لنجدة من يعود منهم بغنائم أكثر من الجميع خلال يوم واحد!... صار بمقدورنا أن نصمد ستة أشهر... فقد تزودنا بكل ما يلزمنا! بهارات! زبدة صناعية! وكل شيء بالتأكيد... ولكننا كنا ثمانية عشر على المائدة! ستة عشر منهم ما يزالون في طور النمو! وكان هذا يعني الكثير، ولا سيما في غمرة أعمال الريف!...

رائدتان من روادنا، في الحادية عشرة والثانية عشرة عادتا إلينا بأربع عشرة صفيحة من البنزين! من أجل محرِّك المعلم، وقد طفح وجهه بالبشر والسعادة! وفي اليوم التالي كان عيد ميلاده، عاد الأولاد الآخرون من قرية كوندوار، على مسافة سبعة كيلومترات من قريتنا، حاملين سلة كبيرة من حلوى الروم والزبيب، والحلوى الإصبعية، وحلوى البسكويت بالزبدة، وحلوى السانت هونوريه بالقشدة، مع كل أنواع المقبلات المشكَّلة! إضافة إلى ذلك، ومن أجل خلق جو من الدعابة، جلبوا معهم الفواتير مدموغة!... كان ذلك ذروة النباهة والفطنة! كانوا قد دفعوا ثمنها كلها نقداً!... شطارنا الأعزاء! صاروا

يختلسون الآن نقوداً في قلب الريف!... نقوداً لم يقدمها الحقل! كان ذلك مذهلاً والحق يقال! وهو ما لم نعترض عليه، أو نتأفف منه، ما عاد لدينا سلطان عليهم، غير أن مثل هذه الخفة والبـراعة كان لا بد لها أن تترك آثاراً صغيرة مع ذلك... فبعد يومين جاء رجال الدرك يسألون عن غوستاف، الفتى الكبير، وعن ليون الصغيرة... أخذوهما معهم إلى بوفيه... ما كنا نملك أن نحتج... كانا قد نشلا معاً محفظة جيب! كان هذا شركاً بلا قيد ولا شرط، وعلى حاشية إحدى الطرق!... كمين حقيقي!... كان هناك إثباتات رسمية قاطعة!.. أربعة شهود!... ما كان من الممكن دحضها... ولا تسويتها بسهولة!... كان من الأفضل التظاهر بالمفاجأة، والدهشة، والخوف! وقد تظاهرنا بكل ذلك.

* * *

أوقفوا الفتى لوسيان، صغيرنا المجعد الشعر، بعد أربعة أيام على ذلك! بتهمة بسيطة! سرقة قفص للدجاج!... وفي الأسبوع الذي تلا ذلك جاؤوا يطلبون «فيليب أوي دي فير».. غير أنهم لم يجدوا إثباتاً ضده.. فاضطروا لإعادته إلينا!... كانت تلك مجزرة مع ذلك! كنا نشعر بأن الفلاحين البطيئين دوماً في اتخاذ قرارهم، بدؤوا يقسمون الأيمان الغليظة الآن بأنهم سيدمرون مشروعنا برمته... كانوا يصبون علينا لعناتهم الساخطة!...

شرعوا يهددوننا، فوق ذلك، بأنهم سيحرقون كوخنا بكامله ونحن في داخله!... كان لدينا قناة اتصال دائمة هي الساعي أوسيب.... ولاذ الأولاد لحسن الحظ عن الأنظار، اختبؤوا كالجرذان في الجحور... ما عادوا راغبين في المغامرة.

كانت الظريفة الجسيمة هي من تلقى الصدمة الأولى من السكان الثائرين.. كان عليها أن تغادر بسرعة سوق بيرسان... ولكنها رغبت أن تقوم بتجارة صغيرة، عرضت عليهم سلة مملوءة بالبيض الطازج... لم تسر الأمور على مايرام... فسرعان ما تعرفوا على مصدر البيض... فهاجوا وماجوا! ودعوا بالويل والثبور وإنزال العقاب بها!... فاتخذت على الفور، كدأبها دائماً، سمة الغطرسة والكبرياء، فافرنقعوا من حولها... ولكنها عادت إلى الضيعة متشنجة تماما!... غلت لنفسها في الحال إبريقاً كبيراً من خليطتها، نوعاً من النقيع المؤلف من النعناع وعشبة رعي الحمام، مع القليل من النبيذ الأحمر... كانت تميل إلى الطعوم القوية الحادة، وعلى الأخص كل أنوع النبيذ المطبوخ، وفي بعض الأحيان حشيشة الجروح!... كان هذا ينعشها بسرعة كبيرة. كان ذلك الخليط من النوع الذي تنصح به القابلات في تلك الفترة... أفضل المنشطات للحاضنات...

كنا جميعاً متحلقين حولها نعلِّق على الاعتداء... وندرس النتائج المترتبة عليه!... كانت زجاجات النبيذ مصفوفة على الطاولة.. حين عاد عريف الدرك!...وبادرنا بالسب والشتم... ومنعنا جميعاً من الإتيان بأي حركة.

- سنستدعيكم كلكم في نهاية الأسبوع القادم! كفى مهزلة! لقد طفح الكيل وزاد! حذرناكم بما فيه الكفاية!... ستذهبون جميعاً يوم السبت، إلى مركز المقاطعة! صار أمركم مكشوفاً للجميع!... إذا ما صادفت ثانية واحداً من أشراركم الصغار هؤلاء يتسكع، في مكان ما.. إذا ما ابتعدوا ثانية عن حدود الضيعة، فسأضعهم في السجن فوراً! فوراً! هل هذا واضح؟.. هل هذا مفهوم؟...

بدا العريف وكأنه يمسك بين يديه كلَّ الإدانات التي تدخلنا إلى السجن عشرين عاماً من الأشغال الشاقة! بالنسبة إلى كورتيال! والسيدة!

وأنا أيضاً! سوف لن تنقصهم الحجج والذرائع!... خطف الأولاد!... الفجور!... اختلاس الأطعمة بمختلف أنواعها!.. خرق الأنظمة... الإفادات الكاذبة... الإخلال بالآداب العامة... السطو على المنازل!... النصب والاحتيال!... النهب تحت جنح الظلام!... إيواء جانحين!... في النهاية، كان هناك شلال من الإدانات.. تشكيلة وافية للغاية!... لقد أفحمنا العريف وربط ألسنتنا!... ولكن السيدة دي بيريري التي ارتعشت قليلاً في البداية، وهذا مفهوم، شعرت بأنها أفضل حالاً بكثير... لم تقل: أوف! ولا يوب! وثبت وثبة رجل واحد... انتصبت على قدميها فجأة... باندفاعة كاللهيب، ساخطة سخطاً وحشياً، منتفخة الأوداج من الغضب، فدبت الرعشة في أوصال العريف... تحت وطأة الهجوم!... لم يصدِّق أذنيه!... كان يطرف بعينيه... لقد خلبت لبه، تلك هي العبارة الصحيحة... ردت عليه بعبارات ما كان بإمكانه الرد عليها! ما كان هذا القذر الخشن، الجافي الطباع ليصدق على الإطلاق... اتهمته بدورها بأنه كان يحرض شخصياً على الفتنة، بين صفوف الفلاحين، على كل تلك الثورة الفلاحية البغيضة! كان هو المسؤول الأول... وشرع العريف يترنح داخل بوطه... منذهلاً! رافاً بجفنيه، مرعوياً تحت سياط لسانها الحاد.. كانت تصفه باحتقار بالغ، وتهكم مرير بـ «البائس التعس»... وسرعان ما اتخذ موقف الدفاع... ما عاد لديه كلمة يقولها... وهبّت واقفة لتستعيد قبعتها... كانت تخطر شامخة أمام الرجل... والغضب ملء أعطافها مثل كوبرا!.... أرغمته على التقهقر... أوصلته إلى الباب، وولّى مدبراً مثل جبان رعديد، امتطى دراجته، وانطلق متعرجاً من حافة الطريق إلى حافتها الأخرى... كان يوغل في قلب الليل مستهدياً بمصباحه الأحمر الصغير... رأيناه يختفي... ما عاد بمقدوره أن يمشي بخط مستقيم.

***

بعد أيام ثلاثة، تسللت إحدى رائداتنا، هي كاميل، وكانت أريبة ماكرة مع ذلك، تسللت عبر حديقة بريسبيتير، في قرية لاندرسون، الواقعة خلف دغل شائك في طرف الغابة، وخرجت كالبرق من المطبخ بعد أن سطت على قطعة كبيرة من جبن بارميسان الجاف، وعلى أسماك أربيان، وثمار البرقوق... وزجاجتي نبيذ... أخذت كل ما وقعت عليه يدها، وحتى قارورة نبيذ القداس... كان هذا بالغ الخطورة! يعادل مبلغاً كبيراً من المال!... كانت تلك جريمة صريحة!... هرع الجميع خلفها.. وقبضوا عليها فوق الجسر... ما عاد بوسع البنية الإنكار! قادوها إلى سجن فرساي!... لم يفوِّت ساعي البريد الفرصة، ذلك الأفعى السامة... جاء إلينا مباشرة كي يروي لنا ما حدث... قام بدورة طويلة عن عمد!... كان وضعنا قد غدا حرجاً للغاية... تزعزع الحبل الذي كنا نسير عليه... ما عاد خليقاً أن نتشاطر كثيراً ونخدع أنفسنا منذ الآن... صار من المؤكد أن جميع أولاد التعاونية سيقعون في قبضة الأهالي خلال مغامراتهم... سيضيعون واحداً بعد الآخر في غزواتهم من أجل التمون... حتى لو ضاعفوا الحذر... وحتى لو خرجوا في عتمة الليل حسب.

بدأنا من جديد نقتر في الغذاء، ونحتاط أكثر فأكثر... لم يعد لدينا الكثير من السمن الصناعي، ولا من الزيت، ولا السردين... والتي كنا نحبها كثيراً. بدأنا نعاني من جديد من فقدان التون والسردين... ما عاد بوسعنا إعداد البطاطا المقلية... كنا نظل لابدين خلف مغاليق شبابيكنا.. نراقب المنافذ المؤدية إلى أبوابنا.. يساورنا القلق من أن نكون بعد الغروب هدفاً لبندقية أحد الفلاحين... كانوا يظهرون من وقت لآخر.. يمرون فوق دراجاتهم على امتداد نوافذنا وبنادقهم في أيديهم. كان لدينا نحن أيضاً بندقية صيد قديمة بسبطانتين، وخردق غليظ... ومسدس

محشو... كان المزارع السابق قد ترك هذين السلاحين... كانا معلقين دائماً خلف السل الكبير، فوق مسمار داخل المطبخ.

كنا ذات مساء، متحصنين، على هذا المنوال، داخل الغرف، لم يكن لدينا قط أي عمل، ولم يعد بوسعنا الخروج، نهض كورتيال إلى البندقية القديمة وأنزلها عن المسمار... وبدأ بتنظيفها... أدخل فتيلة مربوطة بخيط داخل السبطانتين، مبللة بالنفط، وحرك زناد الرمي.. شعرت بأن حالة الطوارئ قد دنت.

***

لم يعد في تعاونيتنا سوى سبعة أطفال... أربعة أولاد، وثلاث بنات... كتبنا إلى آبائهم نسألهم ما إذا كانوا يريدون أن يستعيدوهم؟ أخبرناهم بأن تجربتنا الزراعية صادفت بعض العقبات... وأن ظروفاً قاهرة كانت ترغمنا مؤقتاً على إعادة بعض القاصرين منهم.

لم يجب أحد من أولئك الآباء القذرين! كانوا لا مبالين قطعاً!... لا بل سعداء جداً بالتخلص من أبنائهم... سألنا الأولاد، دون سابق إنذار، إذا ما كانوا يرغبون بأن نضعهم في إحدى المبرات؟... في مركز القضاء، على سبيل المثال؟... وما إن سمعوا تلك الكلمات حتى ثارت ثورتهم علينا، بطريقة عدوانية، مفعمة بالسخط الشديد، حتى خيل إلي لحظة بأن الأمور توشك أن تنتهي إلى مجزرة!... ما عادوا يقبلون بشيء... استسلمنا على الفور... كنا قد أعطينا دائماً لهؤلاء الصغار القذرين أكثر مما ينبغي من الاستقلالية.... ولم يعد بوسعنا الآن ضبطهم!... لم يكونوا يبالون بأنهم كانوا يتحركون بأسمال ممزقة، ولا يتعلمون شيئاً! ولا حتى بمحض الصدفة... علام ينخرون ويثورون إذن في حين أننا كنا نضجرهم أشد الضجر!... ما عاد يعنيهم أن يفهموا الوضع!... عبثاً كنا نشرح لهم بأن الحياة لا

تستقيم على هذا النحو... وأنهم سينتهون ذات يوم نهاية سيئة... كانوا يلقون بكل هذرنا البائس عرض الحائط... ويعتبروننا مقززين جداً... مرائين كريهين!... كانوا يرفضون كل ما ندعيه.. يرفضون أن يسمعوا.. لقد صنع مشروعنا بالفعل «عرقاً جديداً» من ضخام الأجسام... دودول، مدلل الفريق خرج يبحث عن البيض... أما ريموند فلم يعد يجرؤ على الخروج.. كان قد غدا ضخماً جداً ثقيل الحركة... أما الصغير دودول فقد غدا أشبه بفرقاطة ميدوز (فرقاطة غرقت في السواحل الأفريقية).. كان الجميع يتضرعون إلى الله، يصلّون له طوال الوقت الذي كان فيه خارج الزرعة... كي يحميه الرب ويعود إلينا سالماً وغانماً... وقد عاد بحمامة، التهمناها مع الجزر... كان دودول أكثر خبرة بدروب الريف من كلاب الصيد!... فعلى بعد مترين لا يعود بمقدور أحد أن يميزه... كان يظل مختبئاً ساعات طويلة كي يسرق بيوضه... دون شرك! ولا أحبولة! بإصبعيه الصغيرين فقط. كويك! كويك!..كان يطلعني على كلمة السر.. كان ذكاؤه مرهفاً إلى حد كبير... «انتبه، درت عشر دورات... ولم تسمعني!» كان ذلك صحيحاً، لم نكن نسمع شيئاً.

***

كسروا لنا نافذتين في أسبوع واحد.. مر فلاحون آخرون على دراجاتهم بسرعة.. ورجمونا بالحجارة أكثر فأكثر... كانوا يختبئون، ويعاودون المرور... كان شنآنهم قد غدا مخيفاً ومثيراً للتقزز... كنا نظل هادئين مع ذلك!... دون أن نرد عليهم بأي شيء على الإطلاق!... كان علينا بالتأكيد أن نرد على التحدي بطلقة من بندقيتنا على مؤخراتهم! ما عاد روادنا يظهرون للملأ في واضحة النهار... صاروا يخرجون فقط قبل الفجر، وأحياناً بعد الغروب، مرة أو مرتين

فقط! وفي بكرة الصبح كي يروا طريقهم...كان الفلاحون قد أطلقوا داخل حواكيرهم المسورة، في عموم قرى القضاء كلاباً شرسة هائجة، أشبه بوحوش كاسرة.

وفوق ذلك، كانت تعوزنا الأحذية من أجل تلك الرحلات المخيفة وسط الدروب الصخرية... كان ذلك عذاباً لا يطاق!... ومع أن ظرفاءنا الصغار مدربون جيداً، فإنهم كانوا يجرحون أقدامهم غالباً... في الصباحات الباكرة، كانت ثيابهم تبدو، تحت زخات المطر، ولا سيما في بداية تشرين الثاني، أشبه بكمادات لاصقة مضحكة!... بدؤوا يسعلون أكثر فأكثر.. عبثاً كانوا أوغاداً صغاراً أقوياء وقراصنة... فهم لم يسلموا من النزلات الصدرية!... وفي أثلام الحقول الشاسعة المحروثة كانوا يغوصون حتى إلياتهم!... كانت قواهم تخور غالباً أيام البرد القارس.. ما عاد ذلك ممكناً من دون أحذية!.. كانوا ربما سيفقدون أرجلهم... حينما كانت الريح الشتائية تهب على نجدنا. تصفعه بسياطها وتكتسح الشمال بكامله!... كنا نتدفأ جيداً في المساء، ولكننا نكاد نختنق داخل الغرفة الصغيرة، لفرط ما كانت تغص بسحب الدخان.. كنا نوقد النار بحطب رطب كلياً، بعد أن استنفدنا الفحم منذ أسابيع.. كنا نعاني من ذلك أشد المعاناة... فنطفئ كل شيء!... ولكننا نلبث خائفين من أن تظل النار معسعسة في الحطب... فنسكب الماء فوقها... ولم يكن أمام الجدين بعد ذلك إلا النوم...

غالباً جداً ما كان كورتيال ينهض في منتصف الليل... بعد أن يجافيه النوم.. فيحمل فانوسه الشاحب، وينطلق إلى الهري، ليعبث قليلاً بمجموعته الكهربائية... كان يشغلها بضع لحظات... فتنتفض زوجته فوق فراشها القشي، وتذهب لتتأكد مما يجري... كنت أسمعهما يتنازعان في أعماق الفناء...

كانت تعود بعد ذلك مسرعة... لتوقظني.. راغبة أن تريني البطاطا.. آه! لم يكن الوضع جميلاً جداً!... فتلك التي نبتت في محيط الموجات كانت تعلوها البثور والدمامل... منفرة الشكل والرائحة! اللعنة!... كانت تريد أن تجعلني شاهداً... لم تتضخم حبات البطاطا كثيراً... كان هذا بادياً للعيان... ولكني ما كنت لأجرؤ كثيراً على الإدلاء بأية ملاحظة.. أو أن أشاركها الرأي أكثر مما ينبغي... غير أنه ما كان بوسعي أن أقول العكس... كانت البطاطا منخورة، متصلبة، مقززة بسبب العفونة... مغطاة بسرف الذباب والديدان فوق ذلك!... تلك هي بطاطا كورتيال. لن يكون بوسعنا حتى أن نأكلها، ولا حتى في حسائنا، نحن.. رغم أننا لم نكن متشددين بالمرة في طعامنا!... كانت السيدة كورتيال واثقة كل الثقة من أننا لن نحصد من زراعتنا سوى الخيبة والإخفاق...

ـ ورغم هذا يا فرديناند! فهو يزعم بأنه سيذهب لبيعها في الأسواق؟ أليس كذلك؟ قل لي!... لمن سيبيعها إذن؟.. لقد طفح الكيل؟ آه! أية وقاحة! أسأل نفسي أحياناً!.. ترى أين يمكن أن يوجد ذلك الأبله الذي سيشتري منه مثل هذه الأقذار؟... أين هو إذن ذلك المهرج الذي سأرسل له سلة منها! آه! قل لي إذن، أريد أن أراه حالاً!... آه ! لشد ما هو مدرع، ثوري العجوز! آه! قل إذن، حينما أفكر في ذلك!... ولكن ماذا يمكنه أن يظنني؟.

من الصحيح أن البطاطا كانت مقزِّزة!... لا علاقة لها بتلك التي زرعناها، والتي كانت بالغة الجودة!... كنا قد بالغنا في التدقيق حول مصدرها، وتفقدناها في الليل والنهار... وها هي ذي الآن، متعفنة كلياً، تعج بالهوام، وسرف الحشرات ذات الألف قائمة... كانت رائحتها كريهة أيضا! مثيرة للغثيان... لم يكن هذا الأمر عادياً... كان ظاهرة غريبة

وأيمً الحق.. كانت تلك الرائحة تجعلني أقشعر.. تفوح منها إلى مسافة بعيدة.. نادراً جداً ما يحدث هذا.. يا له من سوء حظ غريب..

ـ شوت! شوت! كنت أقول لها.. ستوقظين الصغار!...

كانت تعود إلى حقل التجارب، مصطحبة فانوسها.. ومجرفتها... تنكش هنا وهناك باحثة عن الحبات الأكثر تدوداً، كانت تفلقها واحدة بعد أخرى... بقدر ما وسعها ذلك! وتظل هكذا حتى انبلاج الفجر...

***

كان من المستحيل حقاً أن نخفي لوقت طويل مثل هذا الاجتياح الكاسح للهوام... كان الحقل يعج بها، حتى غطت سطحه بكامله.. وتفشت العفونة على نطاق واسع جداً. عبثاً كنا نقلِّم، ونقتلع ونعزق، فقد كانت في ازدياد دائم... لم يكن هذا كل همُّنا... فقد شاع الخبر في جميع أرجاء المنطقة... وجاء الفلاحون يدفعهم الفضول والتطفل... كانوا ينبشون عن بطاطنا كي يتأكدوا بأعينهم!... وحملوا معهم إلى والي المقاطعة عينات من زراعاتنا!... مرفقة بتقرير أعده الدرك حول تصرفاتنا المريبة المشبوهة! أرسلوا أيضاً إلى باريس سلالاً بكاملها تعج بسرف الديدان والحشرات... إلى مدير متحف العلوم الطبيعية!... كان ذلك قد تحول إلى واقعة لا سابق لها!... وبحسب الشائعات الفظيعة، كنا نحن الجناة، المسببون الأصليون لوباء زراعي!... لم تشهده المنطقة من قبل...لآفة سباخية غير مسبوقة!...

نتيجة للموجات الشعاعية المكثفة، ولعمليات «الحث» المؤذية، وللتمديدات الجهنمية لألف شبكة من أسلاك التوصيل النحاسية... كنا قد أفسدنا الأرض!... وأطلقنا جنّي اليرقانات الحشرية من قمقمه!... في قلب الطبيعة البريئة!... كنا قد ولَّدنا هناك، في بليم

الصغرى، عرقاً خاصاً من اليرقانات، هجيناً كلياً، قارضاً بنحو مريع، يفتك بجميع البذور المزروعة، لأي نبات كان، أو لأي جذر!... وحتى للأشجار! والمحاصيل! وأكواخ القش! لبنية الأثلام نفسها! ولكل منتجات الألبان! دون أن يستثني أي شيء بالتأكيد!... منتناً، ممتصاً، مذيباً...قارضاً حتى لسكة المحراث!... مبتلعاً، هاضماً، الصخر، والصوان مثلما يهضم الفاصوليا! كل ما يعترض طريقه، فوق السطح، وفي أعماق التربة!... ملتهماً الجثث أو البطاطا!.. كل شيء على الإطلاق!... ومتكاثرة هكذا، في عزّ الشتاء، مضاعفة مناعتها خلال البرد القارس، متوالدة بكثافة، بأعداد هائلة لا يحصيها العد، نهمة أكثر فأكثر!... عبر الجبال! والسهول! والوديان!.. بسرعة الموجات الكهربائية!... بسبب دفق آلاتنا، فإن المنطقة المحيطة ببليم لن تلبث طويلاً حتى تغدو قاعاً صفصفاً، تعج بالعفونة!... تربة قذرة مقزِّزة!... بالوعة هائلة من الدعاميص!... زلزالاً من اليرقانات الزاخرة!... وبعد ذلك يأتي دور بيرسان!... ثم دور سالينيون!... تلكم كانت الآفاق التي تلوح في الأفق!... لم يكن بمقدورنا أن نتنبأ أين ومتى سينتهي ذلك!... هذا إن توفرت لنا يوماً الوسيلة لحصر الكارثة!... كان علينا أولاً انتظار نتائج التحليلات!... كان من الممكن جداً أن ينتشر هذا الوباء في كل جذور النبات في أرجاء فرنسا... أن يلتهم الريف بكامله!... بحيث لا يبقى أي شيء سوى الحصى فوق الأرض!... وأن تجعل يرقاناتنا أوروبا بأسرها غير صالحة للزرع على الإطلاق... ليس أكثر من صحراء بلقع تغطيها العفونة، وحينئذ، وهذا أوان القول، سيتحدثون عن وبائنا في بليم.. على امتداد وعصور عصور.. مثلما ما نزال نتحدث اليوم عن تلك الأوبئة التي ورد ذكرها في الإنجيل...

لم يعـد الأمـر مزاحـا علـى الإطـلاق.. أدلى كورتيـال بتلـك الملاحظات إلى ساعي البريد حينما مرَّ بنا، كانت هذه أقل مـرة نفث فيها سمه ذلك الأوسيب «دون دراجة»... «هذا محتمـل، في الواقـع، وأيّـم الله!» أجـاب أوسـيب.... ولم يـضف شـيئاً، لقـد غـدا هـذا السلطعون كريهاً أكثر فأكثر، ما عاد لدينا قطرة خمر... لا شيء نقدمه له... كان وجهه يرشح بالخبث والضغينة.. أربعة عشر كليـو متـراً دون أن يبل ريقه!... كان خليقاً أن يصب علينا حقده؟... كـان يـدب فـوق طريق بيرسان ثلاث مرات في اليـوم، خصيـصاً مـن أجـل بريـدنا!... كانوا يكتبون لنا من كل مكان، لم تكن تلك غلطتنا نحن!....

تضاعفت مراسلاتنا عـشرة أضـعاف... أنـاس كـثيرون يريـدون أن يعرفوا كل شيء... يريدون أن يأتوا لإجراء حوار معنا!... طنابر مـلأى بالشتائم!...

ــ حـسن! حـسن! الخـواطر تغلـي!... أنظـر إلى هـذه الرسـائل الجميلة! إنها أكثر ديدانية بـألف مـرة مـن كـل أرض كوكبنـا!.. أنـت تعرف ما بداخلها مع ذلك! إنها محشوة! زاخرة! كالجيفة! هـل تريـد أن أقول هذا لك؟ علينا أن نتحمل كل ذلك!...

***

قلنا لأنفسنا، لعل بطاطنا مع ذلك، حين نغليه على نار هادئـة... حين نبرشه....ونغمسه بالدهن ونتفنن في طبخه أكثر أو أقل، بطريقـة حاذقـة... فسنفلح ربما في جعله سائغاً للأكل رغم كل شيء.. جربنا عليه كل فنون الطعام... ما من شيء على الإطلاق جعلـه سـائغاً... كـان يتخـذ في قـاع الطنجرة شكل جيلاتين.. ويتحول بعد ساعة.. أو ربما سـاعة ونـصف إلى قالب كاتو من يرقانات الديدان... تفوح منه باستمرار رائحة مقززة... كـان كورتيال يشمئز وقتاً طويلاً من نتيجة طبخنا.

ـ تلكم هي هيدرات الألمونيوم! إحفظ هذا الاسم جيداً يا فرديناند! إحفظ هذا الاسم!.. هل ترى هذا النوع من براز الأطفال؟ صارت أراضينا محشوة به! كلياً!... لست بحاجة، حتى إلى تحليل! لقد سرع سلفور الكربون بتشكل هذه الهيدرات، هنا يكمن سبب المصيبة التي لحقت بنا!... لا يمكن قول عكس ذلك!... أنظر إلى القشرة كيف اصفرت.. كنت أرتاب دوما بذلك!... هذه البطاطا!.. انتبه!... سأقول لك!... ستصلح كسماد جيد!... خاصة مع البوتاس... هل رأيت البوتاس أيضاً؟.. ذلك هو من ينقذنا! البوتاس! إنه يتحد بنحو خارق.. يترسب في الدرنات!.. أنظر قليلاً كيف تلمع! هل ميَّزت جيداً تلك الشذرات الدقيقة؟... فوق الغلاف الذي يحيط بكل جذير؟.. كل هذه الكريستالات الصغيرة جداً؟.. كل ما يلتمع بلون أخضر؟.. وبنفسجي؟.. هل تراها بوضوح؟... هذه يا صديقي فرديناند هي التحولات!.. أجل!.. التحلل المائي.. آه! ولكن نعم!.. لا أكثر!... ولا أقل!.. تلك هي النتيجة التي نجمت عن تيارنا.. نعم، يا صغيري!... نعم تماماً!... إنها البصمة التيلورية! لا يمكن أن أقول شيئاً أفضل، عما حدث!.. أنظر جيدا بعينيك كلتيهما! حدِّق ما وسعك التحديق! لا يمكنني أن أبرهن لك أكثر مما تراه عيناك!... ما من حاجة لبراهين أخرى!.. البراهين؟... هي ذي يا فرديناند!.. هي ذي! وهي الأفضل! ذلك ما كنت أتنبأ به، بوجه الضبط!... ذلكم تيار لا شيء يوقفه! أو يبعثره! أو يحرفه عن مساره!.. ولكنه يبدو بوضوح.. وهو ما أسلم به أيضا، محمَّلاً بأكسيد الألمنيوم!... وهي نتيجة ضارة أخرى!... ولكنها نتيجة عابرة!... عابرة جداً!... ناجمة عن درجة الحرارة! فالدرجة المثلى لأوكسيد الألمنيوم هي 12 درجة ونصف! لاحظ جيداً! ونصف!.. هل فهمت؟...

***

بعد انقضاء أسبوعين أيضاً.. بدأنا نقنن في كمية الدسم الصغيرة، بحيث ما عدنا نعد الحساء سوى مرة واحدة في اليوم... لم نعد نخرج من الكوخ إلا لماماً... كان المطر يهطل مدراراً... وكان الريف يعاني أيضاً، هامداً تحت وطأة الشتاء... كانت الأشجار ترتعد... وقد سربلتها الريح بالأشباح... ما إن كنا نلعق صحوننا حتى نعود سريعاً إلى أكوام القش كي نحتفظ بحرارة أجسادنا!... ولا نبرح نتمرغ فوقها، على هذا النحو، أياماً بطولها، متكومين بعضنا على بعض، دون أن نفتح أفواهنا.. أو ننبس بكلمة.. وحتى نيران الحطب لم تعد تدفئنا.. فحين كنا نضرمها أحياناً في تلك الحجرة توافينا نوبات سعال رهيبة، بسبب الدخان. ومن ثم فقد غدونا هزيلين ضامرين... سيقاننا كقصبات المزمار.. ألمَّ بنا وهن شديد غير عادي... حتى بتنا غير قادرين على الحركة... لم نعد نلوك الطعام، ولا نقوم بأي شيء على الإطلاق.. ليست المجاعة مزاحاً وأيّم الله.... لم يعد يزورنا ساعي البريد... لا بد أنه قد تلقى أوامر بذلك... ما كانت قوانا لتنحط بهذه الصورة لو كان ما يزال لدينا بعض الزبد، أو حتى القليل من المارغرين... كان هذا ضرورياً في الشتاء!... كان ينتاب كورتيال في تلك الأيام وعكات غريبة، وخاصة حين يشتد قرس البرد، ويتناقص طعامنا أكثر فأكثر... كان قد أصابه كما يبدو التهاب معوي حاد جداً.. فكان يعاني آلاماً شديدة في بطنه.. ويتلوى فوق فراشه القشي... لم يكن ذلك بسبب الطعام!... كان يناقش زوجته حول ذلك، وحول الحقن الشرجية... إذا كان من الأفضل له أن يستخدمها؟ أو لا يستخدمها على الإطلاق؟...

- ولكن ليس هناك شيء في بطنك! كانت تجيبه! فكيف تقول إنه يقرقر؟... لا يأتي المغص المعوي هكذا بسهولة!...

ـ وأنا أقسم لك مع ذلك بأنني أشعر به يخترق أمعائي! آه! القذر... يكاد يفجِّر بطني طوال الليل!... إنه مغص جاف... كما لو أن أحشائي منعقدة!... آه! ما قولك إذن؟...

ـ ولكن هذا بسبب البرد!... هيا يا أحمقي البائس!...

ـ ليس هذا بسبب البرد على الإطلاق؟...

ـ إنه الجوع إذن؟...

ـ ولكني لست جائعاً!... أشعر بأنني سأتقيأ بالأحرى!...

ـ آه! أنت لا تعرف ما تريد!...

لم يكن يجيبها بعد ذلك... كان يغوص في مرقده... ولا يعود راغباً في أن يحدثه أحد... أما بصدد زراعتنا... فلم يعد بإمكانه أن يفعل أي شيء... لم يعد ثمة بترول في المستودع، ولا حتى صفيحة صغيرة واحدة لتشغيل آلاته.

مر علينا يومان أيضاً، تحت وطأة الانتظار والخور... كانت العزيزة الجسيمة لابدة في أحد الأركان، متدثرة بستائر قديمة، ما عاد بمقدورها أن تتمالك نفسها، كانت جميع أسنانها تصطك، وقد اعترتها قشعريرة حادة.. نهضت إلى المستودع، نبشت في بعض الحقائق!... وشقَّت نوعاً من قميص نوم، وتنورة اسكتلندية متينة، ثم لفت كل هذه القطاع الكتانية حول خصرها!... فبدت مثل أحد أفراد قبيلة «الزولو»! حتى أنها هي ذاتها وجدت نفسها مضحكة!... أثار البرد فيها ضحكاً وحشياً!... ولكي تدفئ نفسها أكثر انطلقت ترقص رقصة صاخبة، وتدق قدميها بالأرض! حول الطاولة الضخمة! انفجر الأولاد في قهقهة عالية وهم يشاهدونها هكذا!... وشرعوا يثبون معها في نوع من الفرندول (رقصة شعبية)!.. كانوا يعدون خلفها.. متعلقين بأذيالها، وأنشات هي تغني لحناً صغيراً:

تلك هي بنت الطحان

إنها ترقص مع الصبيان

فقدت رباط ساقها

رباط ساقها...

نادراً ما كان يعتري الأم كورتيال مثل هذا المزاج الغنج!... لا ريب أنه كان غريباً في تلك اللحظة... ما عـاد لـديها ذرة مـن التبـغ... كـان كورتيال قد استولى على كل تبغها!... شرعت تدمدم بشأن غليونهـا... كان الأولاد قد انتزعوا كل شرائط الكتان الملفوفة حـول خـصرها.. ثم قلبوها فوق القش.

ـ تباً! تباً! تباً! هيا افرنقعوا جميعاً!... أيها العميـان! المخـاطيون! الزريون! النشالون! الأقحاب!... كانت تشتمهم.. وكان ذلك يجعلـهم يغرقون أكثر في الضحك.

ـ كورتيال، هل تـسمعني؟... لم يكـن يـسمع... أدار رأسـه داخـل جحره... كان يئن... يدمدم...كـان هـذا بـسبب كرشـه وبـسبب ذلـك المـزاح! وراح الأولاد ينطـون فوقـه، الأولاد الأربعـة، والبنـات الثلاث!... ولم يجب بشيء مع ذلك.

تساءلنا بعد مرور وقت قصير، ترى أين ذهـب دودول؟..كـان قـد خرج قبل ساعتين... زاعماً أنـه ذاهـب لقـضاء حاجتـه.. آه!.. وسـرى القلق فينا جميعاً!... لم يعد إلا في ساعة متأخرة من الليل! يقود عربـة شحن بدوية محملة!... كان قـد قطـع اثـني عـشر كيلـومتراً!... حـتى محطة قطارات بيرسان... وعاد بأقصى سرعة! كـان قـد وقـع هنـاك، فوق رصيف بيرسان على نعـم لا تخطـر علـى بـال.. اختطفهـا وطـار إلينا.. شـحنة هائلـة مـن البقالـة... عـاد إلينـا بزبـدة!... قالـب كـبيرة

بكامله!... ومشكاكين كاملين من النقانق! وثلاث سلال من البيض... وكمية من السجق، ومن المربيات... وكبد سمين!... حمل كل ذلك على نقالة بعجلتين... سطا على كل ذلك من أمام مستودع المحطة، فيما كان قطار النقل يقوم بمناورة لتحويل خطه.. لم يستغرق دودول أكثر من دقيقتين، كي يسرق كل هذه الخيرات! كان الخبز فقط هو ما ينقصنا... ولكن هذا لم يمنع من أن نولم وليمة!... شيئاً ما باذخاً!... أشعلنا ناراً عظيمة! وضعنا في الموقد شجرة بكاملها تقريباً!.

حين سمع كورتيال تلك الجلبة، صحا من نومه تماماً... ونهض إلى الطعام بهمة عالية.. ثم اندفع يلتهم بسرعة شديدة، دون أن يلتقط أنفاسه. كان يمسك كرشه بكلتا يديه، ويهتف بين لقمة وأخرى: «آه! اللعنة!... آه! اللعنة!...» ولم تتوان الجسيمة الجميلة هي أيضاً!... فقد أبلت أحسن البلاء!... تزقمت حتى التخمة خلال دقيقتين اثنتين، ثم اضطرت بعد ذلك إلى أن تتمدد!... راحت تتقلب على الأرض... على بطنها وظهرها... ببطء وهدوء... «آه! يا أولادي! آه! يا كرنباتي الغالية! آه! يا صغاري الظرفاء الأعزاء! آه! قسماً بالإله الرحيم! لن يطول الوقت حتى تنتهي هذه الغمة! آه! ليس ثمة ما هو أفضل مع ذلك!» كان كورتيال يردد على هذا النحو!... كان قد أتخم تماماً!... «آه! لن يطول الوقت! قسماً بالرب!... أه! ليس هناك ما هو أفضل!..» ثم ما عاد يستطيع أن يقول شيئاً. لم يكن يصدِّق المعجزة التي حدثت أمام عينيه.

***

كانت الساعة حوالي الخامسة على الأرجح... لم يكن الصبح قد انبلج بعد... حينما سمعت كورتيال يتحرك فوق فراشه القشي... نهض من مرقده، وانتصب واقفاً... فقدَّرت الساعة بحسب حالة

الموقد.. بحسب حالة النار التي كانت قد خمدت تقريباً... - لنفسي: «لقد انطفأت النار، سيشعلها بالتأكيد!... ما عاد - البرد!... سيذهب لإعداد القهوة... سنشربها سوياً!... هو ذاك!.. توجه إلى المطبخ بالفعل.. كان ذلك عادياً... سمعته يحرك الإبريق. لشد ما كان لدي رغبة للالتحاق به... لارتشاف كوب على الفور. ولكن كان يفصل بين جحري وبين الباب جميع الأولاد الذين كانو يشخرون... تداخلت أجسادهم بعضها ببعض... وألقوا رؤوسهم في كل اتجاه.. خشيت أن أدوس فوقهم... لبدت إذن داخل وكري... لم أكن أرتعد من البرد على كل حال... كنت محمياً بالجدار... كنت أتلقى لفحات البرد أقل من الأب العجوز. لم تكن تنتابني سوى رعشة خفيفة وهذا كل شيء. انتظرت أن يعود بالإبريق كي أوقفه في الممر، ولكنه لم يكن لينتهي من قرقعته. كان يجرجر نفسه هناك في أعماق المطبخ... كنت ما أزال أسمعه منذ وقت طويل يعبث بالمواعين... ثم سمعته يفتح الباب المفضي إلى الطريق... فكرت ملياً! «عجباً! هل خرج إذن ليبول؟». لم أعد أفهم.. انتظرت عودته طويلاً... وداهمني نوع من الخوف في تلك اللحظة... كدت أن أنهض... ولكنني أغفيت... كان الخدر يسري في أوصالي.

* * *

ثم سقطت في كابوس... رأيت نفسي فيما يرى النائم مشتبكاً في قتال مع العجوز المضحكة!... تلك التي كان تقود الرقصة مع الأولاد... أفلتّ من بين يديها... فعاودت الهجوم... أي زعيق... أي هذيان! لم يعد بمقدوري الخلاص منها.. صخب مريع! صراع غرقى في اليم!... كانت تقرع رأسي بأسئلتها... حاولت الدفاع عن نفسي أمامها، غطيت نفسي بالقش.. ولكنها كانت تتشبث بي، ممسكة

برأسي!.. زعقت بملء صوتي في وجهها!... صرخت ما وسعني الصراخ!... كانت تشد أذني بكلتا يديها.. ما عادت تريد أن تفلتني... «أين ذهب كورتيال؟...» استيقظت على سؤالها وهي تعوي به بملء صوتها!... كانت عائدة من المطبخ.. بحثت طويلاً عن القهوة... لم يبق منها قطرة واحدة!... فداهمها حينئذ القلق!... جميع الأواني كانت فارغة!...امتص الفاسق كل شيء.. جميع الطاسات، وأباريق القهوة الثلاثة، شربها وحده قبل أن يخرج... سألتني إذا كان قد قال لي أي شيء؟ كانت تريد أن تعرف بكل وسيلة...

ـ ولكن لا! ولكن لا! لم يقل لي كلمة واحدة!...

ـ من أي جهة خرج؟....هل رأيته في الفناء؟...

ـ ولكن لا!... ولكن لا!... لم أر أي شيء... وفي تلك اللحظة نهضت ميزانج مرتعدة، وقد تملكها اضطراب فظيع... كانت قد حلمت بحلم غريب... رأت في منامها المعلم كورتيال يعتلي ظهر فيل... لم تكن تلك لحظة تصديق حماقات... حاولنا، بالأحرى أن نتذكر ما قاله في ذلك المساء بالذات... لقد أكل مثل ستة وثلاثين رجلاً.. هذا ما كنا نتذكره... لعله شعر بنفسه متوعكاً؟... منحرف المزاج؟... والبرد في الخارج؟... هنا بدأت الافتراضات.. ودون أن نضيع الكثير من الوقت انطلقنا للبحث عنه مع جميع الأولاد نبشنا كل أكوام القش... فتشنا جميع أركان المنزل... وملحقاته، والمستودعين، وحجرة الآلات... لم يكن إذن موجوداً داخل المسكن؟ انتشرنا عبر الحقول... في الأنحاء المجاورة.. وتوغلنا أبعد من ذلك أيضاً... بحث بعضنا في شعاب الهضبة، وبين الآجام... ونقّب آخرون في جميع أنحاء النجد... أطلقنا كلب دودول... ولكن كورتيال لم يعد أكثر من زبدة على الإست!... اجتمعنا من جديد.. ثم

انطلقنا للبحث ثانية في الغابة الصغيرة، من دغل إلى دغل.... غالباً ما يتسكع هنا... وفجأة لاحظ الأولاد بأن هناك شيئاً مكتوباً مأطورة الباب الخارجي الكبير... «حظ سعيد! حظ سعيد!» بحروف كبيرة.. كانت تلك كتابته فعلاً.

لم تفهم العجوز شيئاً لأول وهلة... كان تدمدم هكذا: « . سعيد! حظ سعيد!» ولم تتوقف عن ترداد ذلك.

ـ ماذا يعني هذا؟... ولكن، تباً! ولكنه هرب!.. أثار هذ اضطرابها دفعة واحدة!.. ولكنه يسخر بي! آه! قسماً!... آه! حظ سعيد!... ما قولك إذن؟.. حظ سعيد؟ إنه يقول لي أنا!... أنظر . يخاطبني!... آه ماذا تقول إذن؟ وانبعث في داخلها حقد دفين! آه! كان سخطها متجاوزاً كل حد.. مخيفاً بلا ريب!...

- ولكن هذا جائر!... السيد يهرب!.. السيد يتذمر! السيد يذهب في نزهة... السيد يمضي إلى العربدة والمجون في المدينة! القذر! الداعر!... وعلي أنا أن أكتفي بدور الجدة!.. ترك لي إذن كل الروث؟ أليس كذلك؟ ترك لي كل ماء المزابل!... وإذا ما تعثرت... تدبري أمورك أيتها الأتان العجوز!... إقطعي حبلك!... وبعدئذ... حظ سعيد!... وحينئذ فإنني أجد كل هذا معقولاً؟... قلها يا فرديناند؟ أهذا هو رأيك؟.. آه! أية وقاحة منه ذلك الأجرب!...

كان الأولاد فاتحين أفواههم عن آخرها، وهم يسمعونها تصيح وتولول!... لم أكن أريد أن أحرّك نار هياجها!... تركتها تبرد قليلاً... ولكنني كنت أقول في داخلي: «العجوز الصغير، لقد ضجر منا جميعاً، ومن الزراعة!... وهرب إلى أبعد ما يمكنه الهروب... سوف لن نراه عمّا قريب!...» كنت أستشعر ذلك... كنت أتذكر الكلمات

التي كان يقولها.. كانت ذكراها تلح علي... من المؤكد أنه كـان يتفـوه بالكثير من الحماقات... ولكنه كان مع ذلك، قد اتخذ قـراره، اتخـذه في النهاية على الأرجح؟... القذر... يتركنا نسقط على هذا النحو؟... حتى أعناقنا في خضم البؤس... كانت تلك طريقته مـع ذلـك... كـان ماكراً بحق، حقوداً، متكتماً... مثل ستة وثلاثـين دبَّـاً... لم يكـن هـذا مفاجئاً... كنت أعرفه أيضاً منذ زمن طويـل... «لا قيمـة للتفاصـيل!... إنها تجعل الحياة سوداء قاتمة!... ما نحتاج إليـه إنمـا هـو القـرار!... القرار العظيم!... يا فردينانـد! القـرار العظـيم!... هـل تـسمعني؟»... كنت أسمعه!... كان ذلك كلامه دائماً!... ولكنه إذا كان قـد رحـل... نهائياً!... فإن تلك حقارة تفوق الوصف!.. فعلة مقـززة حقـاً... كيـف سنتدبر أمورنا في هذه الوضع البـالغ التعقيـد؟... لقـد كانـت العجـوز على حق ألف مرة!... ما الذي كان بإمكاننا أن نفعله ببازاره التيلوري؟ لا شـيء قطعـاً! وإذا مـا اتهمنـا الجميـع بإفـساد الأرض؟ فمـا الـذي سيكون علينا أن نجيب به؟.. ستنعقد ألسنتنا بالتأكيد؟ كان بوسعه هو، بأسـاليبه أن يـدوخهم، أن يحيرهـم، أولئـك المتوحـشين!... ولكـن نحن؟ لم يكن لنا وجود على الإطلاق.

***

لبثنا هكذا مذهولين خرساً... كنا نحاول التأكد من الأمـر... كانـت العجوز تثوب إلى السكينة قلـيلاً قلـيلاً... شـرع الأولاد ثانيـة ينبـشون القش... دخلـوا الهـري، وقلبـوا جميـع حـزم القـش... «لـن يعـود؟ أبداً؟...» كانت تلك هي اللازمة.

ما كان له في بليم قبو يختبئ فيه مثلما في قصره الملكي... ربمـا لم يكن قد ابتعد كثيراً؟... ربمـا كانـت هـذه مجـرد نـزوة؟ طفـرة

مهـــووس؟.. أيـــن ســـنذهب نحـــن والأولاد إذا لم يرجـــع علـــى الإطلاق؟... ولفرط ما فكرت العجوز استعادت شيئاً من الأمـل... كانت تقول لنفسها بأن هذا لم يكن ممكناً... بأن لديه ربما قليلاً من القلب... وأن ذلك ليس أكثر من تمثيلية هزلية قذرة حمقاء... وأنـه سيعود قريباً رغم كل شيء... بدأنا نـستعيد الثقـة... دون أي مـبرر معقول... بل لأن ذلك كان حتمياً حسب.

انقضت فترة الصباح، وفي الساعة الحادية عشرة علـى الأرجـح... أطل علينا الوغد ساعي البريد... كنت أنا أول من لمحه... شاهدته من النافذة.. اقترب قليلاً... لم يـشأ أن يـدخل...ظـل منغرسـاً هنـاك أمـام الباب.. أشار إلي بأن أخرج... لأنه يريد أن يتحدث إلي.... وأن أخـرج إليه بسرعة.. قفزت من الباب... التقيـت بـه تحـت الـسقيفة... همـس إلي، وقد أخذ الانفعال منه كل مأخذ:

ـ أسرع، الحق بعجوزك!... إنه ممدد هناك على الطريق، بعد ممرٍّ دروف.. بالقرب من طلعة سالينيون!.. هل تعرف العبـارة الخـشبية؟.. لقد قتل نفسه هناك!... في منطقة بلاكيه... سمعه الابـن ارتـون والأم جان... كانت الساعة السادسة تماماً حـين أطلـق النـار علـى نفـسه... ببندقيته الضخمة... طلبا مني أن أخبرك... كي تنقل جثتـه إن شـئت... أنا، لم أقل شيئاً... هل فهمت؟... هما لا يعرفان أي شيء أيـضاً... لم يسمعا سوى الطلقة..ثم إليك هاتين الرسالتين... كانتا مرسـلتين إليـه.. لم يقل «وداعا».. مضى على امتداد السور... لم يكن قد استلم دراجته بعد... جاء إلينا عبر الحقـول.. رأيتـه يأخـذ الطريـق الـصاعد، طريـق بريون، متوغلاً عبر الغابة.

* * *

كررت ما قاله الساعي في أذن العجوز بصوت هامس.. كي لا يسمع الأولاد.. قفزت قفزة واحدة نحو الباب، وانطلقت لا تلوي على شيء... كانت تعدو كالريح فوق حصباء الطريق... لم تتح لي الوقت كي أكمل.. كان علي أن أهدئ الأولاد.. كانوا يستشعرون قدوم كارثة...

ـ إياكم أن تبردوا... لا تخرجوا أنوفكم خارج المنزل!... سألحق أنا بالعجوز!... أما أنتم فابحثوا ثانية عن كورتيال... أنا متأكد أنه ما يزال هنا!... مختبئاً في مكان ما!... إنه لم يذب فجأة!... إقلبوا كل القش!.. حزمة بعد حزمة!... لا ريب أنه يغفو في القاع! سنذهب نحن لمقابلة الدرك.... لقد طلبونا في ميسلوار!... من أجل هذا جاء ساعي البريد... سننتهي من هذا بسرعة... لا تخروا بسراويلكم!.. أبقوا هنا هادئين! سنعود خلال ساعتين.. لا يسمعن أحد صوتكم في الخارج! إبحثوا في غرفة الدرج!... ألقوا نظرة في الإسطبل!... لم نبحث سابقاً في الصناديق!...

كان الأولاد يشعرون بالفزع من رؤية الدرك... كنت مطمئناً إذن! بأنهم لن يتعقبوا أثرنا بالتأكيد! كانوا يشتمون رائحة ما... ولكن من أين؟... لم يكونوا يعرفون أي شيء.

ـ أغلقوا الأبواب الكبيرة جيداً على الأخص!... أوصيتهم أخيراً... حاولت أن ألمح شبح المعلمة من النافذة.. ولكنها كانت قد توارت بعيداً!... انطلقت في إثرها مهرولاً... كنت عاجزاً عجزاً شديداً عن إدراكها!... كانت قد غاصت باندفاع عاصف وسط الغابة، وعبر الأرض المحروثة!... أخيراً حثثت السير! كان ينبغي أن تنخلع مفاصلي! سحقاً! من أجل أن ألحق بها!... كنت أستجمع مع ذلك أفكاري.. على هذا النحو... فيما أنا أعدو بسرعة!... وسط

حمى الركض... كانت تساورني شكوك فظيعة... «تباً! كنت أقول لنفسي!... أنت مستهدف أيضاً يا صديقي! ذلك هو الخازوق الكبير... الحيلة الخبيثة!... حكاية جسر دروف الصغير؟.. الهنود الحمر! أضاليل ترشح بالغدر! كذبة وقحة!... فخ مشؤوم، ثم ينتهي كل شيء» آه!... كنت أرتاب بقوة!.. بهذا الساعي القذر!.. كان قادراً على فعل كل شيء، هذه النخامة!... والآخرون من آكلي اللحم البشري؟... لشد ما كنا نشتبه بهم!... ذلك كل ما خطر لي وأنا أعدو بسرعة!... وجدّنا العجوز! في تلك اللحظة؟... في ذلك الوقت الذي كنا نشق رئاتنا فيه!... من أجل جثته!... ترى أين هو الآن؟.. ربما كان في «الغروس بول» يقتطع حصته من الرهان! ويبول شراب الأنيسون!... كنا ما نزال نحن الضحايا!... لن يفاجئني ذلك قط!... فبصدد أنه أحمق وماكر، ما كان ثمة شك في ذلك!... ولا ظل من شك!... كنا نحن المخدوعين!...

بعد أن اجتزنا مسافة طويلة وسط الأراضي المحروثة... ووسط الكتل الترابية الضخمة، كان علينا أن نتسلق منحدراً وعراً حتى قمة التلة... حينما بلغنا الذروة كشفنا المشهد كله تقريباً!... كنا نلهث أنا والمعلمة، أسوأ من بقرتين. جلسنا لحظة فوق ركام من الردم كي نشرف على المكان بنحو أفضل... كان نظرها ضعيفاً، العجوز البائسة... ولكنني كنت أمدُّ طرفي بعيداً، أحدِّق ببصر حديد... كنت أرى كل شيء على مسافة عشرين كيلو متراً بخط مستقيم... من هناك، من أعلى القمة رأيت العبارة الصغيرة، بعد المنحدر، فوق نهر دروف الذي كان يتابع مجراه في الأسفل، ورأيت عطفة الطريق... ثم ميَّزت بوضوح، نوعاً من لفافة ضخمة، ممددة على قارعة الطريق... ليس ثمة خطأ!... كانت بارزة بوضوح فوق الحصباء، على مسافة

ثلاثة كيلومترات تقريباً... آه! وفي اللحظة ذاتها، وعبر نظرة مدققة!.. عرفت كنه هذه اللفافة... من خلال المعطف الرمادي... والبنطال الأصفر، بلون الصدأ... انحدرنا مسرعين من أعلى التل... «سيري دائماً! سيري دائماً على خط مستقيم! قلت لها... أما أنا فسأنعطف من هنا!... عبر الدرب الضيق!...».

هدَّ الركض قواي.. كنت خلال دقيقة في الأسفل... فوق الكومة الممددة تماماً... أمامها بالضبط.. كان العجوز متيبساً... متقلصاً داخل بنطاله... كان هو إذن!.. غير أن رأسه كان مجزرة رهيبة! كان منفجراً كلياً... بحيث ما عاد ثمة جمجمة.. فحين أطلق النار عن قرب كان يحتضن بندقيته بكلتا يديه... وقد دخلت فوهتا الإطلاق في فمه، واخترقتا رأسه بكامله، نفذتا عبر خبيصة دماغه.. عبر اللحم الممزق، المتحول إلى أشلاء، إلى بلغم، إلى أهداب متناثرة... جلطات ضخمة متخثرة... وأقراص من الشعر... لم يعد هناك عينان على الإطلاق... كانتا قد انفجرتا وخرجتا من محجريهما... وبدا أنفه كما لو أنه مقلوب إلى الداخل... لم يعد وجهه سوى ثقب هائل... بحواف دبقة، على غرار كرة من الدم مغلقة... وفي الوسط منها... عجينة ضخمة... متخثرة... كان ثمة سواق من دم تسح حتى الطرف الآخر من الطريق... وعلى الأخص من ذقنه التي غدت كإسفنجة، وتصل حتى الخندق..مشكلة بركاً متجمدة.. شاهدت العجوز كل ذلك... ظلت هناك جامدة أمامه... دون أن تقول أوف!... اتخذت حينئذ قراراً.. قلت للعجوز: «سننقله إلى حائط الردم على جانب الطريق...» جثونا على ركبنا.. حركنا قليلاً، في البداية، الكتلة بكاملها... حاولنا انتزاعها من بركة الدم... بذلنا الكثير من الجهد!... كنت أنا أجر من جهة الرأس... ولكن الجثة لم تتزحزح من مكانها قط!... ما استطعنا

تحريكها قيد شعرة!... كانت ملتصقة بشدة، ولا سيما الأذنين اللتين التحمتا بالأرض!... كانت قد تحولت إلى كتلة واحدة مع الحصى والدم المتخثر.. استطعنا أن نحلحل الجذع والساقين عبر جذبهما بقوة... ولكن ليس الرأس!... كان ذلك اللحم المفروم يشكل بلاطة متماسكة مع حصى الطريق.. لم يكن ذلك ممكناً.. كان الجسد متقلصاً على هيئة حرف Z... وقد انغرزت البندقية داخل الرأس.. لا بد في البداية، من إرخائه... ثم نزع البندقية... كان حقواه مائلين... ومؤخرته ملتصقة بالعقبين... كان متشنجاً تماماً... ألقيت نظرة فاحصة فيما حولي، فرأيت مزرعة أسفل الطريق... كانت ربما مزرعة ساعي البريد؟... تلك التي حدثني عنها؟... في منطقة بلاكيه.. قلت لنفسي: «هذا هو المكان بالذات... إنه هو بالتأكيد!...» وأخبرت عجوزتي...

ـ هيه! لا حاجة لتحريكه بعد، إذن!... قلت لها... أنا ذاهب للبحث عن بعض الناس!... سأعود حالاً!... سيأتون لمساعدتنا. لا تعودي إلى تحريكه أبداً! هذه هي مزرعة جان.. هؤلاء هم الذين سمعوه يطلق النار.

وصلت، على هذا النحو، إلى المبنى... قرعت الباب في البداية، ثم مغلق النافذة... ما من أحد أجابني أو انتبه إلي.. قرعت ثانية...قمت بنصف دورة عبر الاصطبلات...ثم عدت إلى الفناء.. قرعت الباب وعاودت قرعه! صحت بملء صوتي.. فلم تبدر منهم أية حركة!... شعرت مع ذلك بأن هناك أناساً في الداخل! كانت مدخنتهم تطلق الدخان في الفضاء!... هززت الباب الثقيل بعنف.. دققت عليه بقوة! قرعت زجاج النوافذ.. كنت عازماً على أن أخلع مصاريعها إذا لم يجيبوا... أطل علي وجه من الداخل!... إنه أرتون ابن الأم جان!... من زوجها الأول... لم يجازف كثيراً... أظهر أنفه فقط... شرحت له

ما أريد... بأن يساعدنا في نقل الجثة...آه... لقد ألهبها ذلك على الفور... حين سمعت ما طلبت من ابنها... كانت هي التي عارضت... ثم اهتاجت دفعة واحدة!... لم تكن تريد أن يقال بأنهما لمسا الجثة!... منعت ابنها الصغير الرعديد حتى من أن يفوه بكلمة... لم تكن تريد له حتى أن يخرج من الباب!... فلبث واقفاً هناك! تباً! إلى جانب أمه! إذا لم أستطع رفعه عن الطريق، فليس علي سوى أن أخبر الدرك!... «فهم مصنوعون من أجل ذلك!..» هذا ما قالته لي.. أما آل أرتون فليس لهما علاقة بهذا الشأن على الإطلاق... فهم لم يروا شيئاً!... ولم يسمعوا شيئاً!... ولم يعرفوا أي شيء عما حدث!...

كانت الأم دي بيريري قد ارتقت ظهر أكمة... وطفقت تراقبني وأنا أفاوض!... كانت تطلق صرخات وحشية... وتعول عويلاً مشؤوماً... كان ذلك جزءاً من طبيعتها... فعلى الفور، وبعد صدمة الانفعال الأولى، ما عادت تحتمل!.. أريتهما من بعيد، أريت ذينك المتوحشين المرأة البائسة التي استبد بها اليأس!...

- أنتم تسمعون! ألا تسمعون؟... الآلام الفظيعة؟ من غير الممكن، مع ذلك أن تترك زوجها هكذا وسط الوحول!... ولكن مم تخافان؟... ليس هذا كلباً والله!... وليس به سعار!... ليس هذا عجلاً!... وليس به قروح!.. لقد قتل نفسه، وهذا كل شيء!... كان رجلاً سليماً من الأمراض... ليس به مرض معدٍ!... أرجو على الأقل أن تسمحوا بإيوائه بعض الوقت في هريكم!... ريثما يصل الآخرون!... قبل أن تمر فوقه العربات...ستمر فوق جسده! لم يبدلا رأيهما، الخراءان!... كانا يعاندان أكثر كلما كنت ألح عليهما... «ولكن لا! ولكن لا!..» كانا يعارضان بشدة! وبدا من المؤكد بأنهما لن يستقبلاه!... في هريهم على الإطلاق!... لم يقبلا حتى أن يفتحا

لي الباب... كان يطلبان مني الذهاب إلى أي مكان آخر.. بدأا فعلاً بمضايقتي.. فقلت حينئذ لذلك المصران المشوه...

«حسناً! حسناً! يا سيدتي! لقد فهمتك!... أنت لا تريدين ذلك؟ هذه كلمتك الأخيرة؟ النهائية؟ جيد جداً! حسن! جيد جداً!... ولكن إليك ما سأفعله من أجل إستك! سأبقى هنا! ولكن نعم! هكذا!... سأبقى هنا طوال ثمانية أيام! سأبقى طوال شهر! سأبقى طوال الوقت الذي سيكون ضرورياً!... وسأظل أصرخ حتى يصلوا!... سأصرخ لكل الناس بأنك أنت!... أنت التي دبرت كل شيء لقتله!...» آه! سرت البرودة في أوصالها، فجأة..آه! أي رعب! تباً!...آه! أي هول انتابهما!... واصلت أنا زعيقي!... ولكنني لن أنفّس وأتراخى!... سأقع في نوبة من الصرع لكي أتمكن منهما!... لفرط ما كدراني ذانك القذران!... ما عادا يعرفان كيف يهدئاني... كانت العجوز، بعيداً فوق الردم تصيح بي أكثر فأكثر... كانت تريد أن أسرع... «فرديناند! رد علي يا فرديناند!.. إجلب الماء الساخن!... هات معك كيساً! وممسحة من الجنفاص!...» الشيء الوحيد الذي وافق عليه، ذانك الوغدان... في نهاية المطاف.. لفرط ما هذرت، ولكي أفلت قليلاً مصراع نافذتهما، هو أن آخذ عربتهما اليدوية ذات العجلتين، بشرط أن أعيدها إليهما في اليوم ذاته، مغسولة تماماً.. منظفة!... ومطهرة بماء جافيل!... أصرا على ذلك بنحو خاص!... وكرراه عشرين مرة!.. صعدت إذن الأكمه مع ذلك الماعون... ولكنني اضطررت إلى النزول ثانية والعودة إليهما لأطلب منهما سكيناً.. لاقتلاع الأذن الملتحمة بالأرض، وكسر جلطات الدم المتخثرة بشدة... وتم لي ذلك بهدوء... ولكن الدم انبجس حينئذ من جديد.. وتدفق بغزارة شديدة... لم تعد صدرة الفلانيل التي كان يرتديها سوى كتلة كبيرة من الجيلاتين، عصيدة

داخل معطفه... وتحول لون المعطف الرمادي بكامله إلى لون أحمر!... ولكن ما كان مثيراً للفزع أكثر من كل شيء، هو نزع البندقية.. كانت سبطانتها عالقة بقوة داخل السدادة الهائلة من اللحم المختلط بالدماغ... مشدودة بإحكام، ملتحمة بشدة داخل الفم والجمجمة!... كنا مضطرين إلى أن نعمل سوياً على إخراجها.. كانت العجوز تمسك بالرأس من جهة، فيما كنت أسحب من الجهة الأخرى، ممسكاً بأخمص البندقية... وحينما أفلتها الدماغ اندفق عصيره بقوة أكبر أيضاً... وراح يقطر بغزارة.. مدخناً أيضاً.. كان ما يزال حاراً... وانبجست موجة من الدم من العنق.... من المكان الذي كانت البندقية قد نفذت منه.. كان قد سقط على ركبتيه... وخرَّ بثقله على هذا النحو، فغاص أنبوب البندقية في عمق فمه... وثقب الرأس بكامله..

حينما حررناه من البندقية، قلبناه على ظهره.. فارتفع بطنه ورأسه إلى الأعلى.. وظل منطوياً مع ذلك! على صورة حرف Z... استطعنا، لحسن الحظ أن نحمله، ونركزه داخل صندوق العربة اليدوية... ولكن العنق وجذعة الرأس كانا يعيقان الحركة قليلاً مع ذلك.. كانا يترجحان أمام عجلة العربة... خلعت العجوز وزرتها وتنورتها السكوتلندية ودثرت بهما الرأس على نحو أفضل... كي توقف سيلان الدم قليلاً... ولكن ما إن دفعنا العربة، وشرعت تصطدم بالأرض وترتج، حتى عاد الدم يتدفق أيضا، وبنحو أكثر كثافة دوماً!... كان من الممكن اقتفاء أثره على الطريق... كنت أدفع بالعربة متمهلاً مع ذلك... بخطى صغيرة... أتوقف كل دقيقتين... واستغرق منا ذلك ثلاث ساعات على الأقل، كي نقطع ستة كيلومترات!... من بعيد، رأيت الدرك.. خيولهم بالأحرى... واقفة أمام المزرعة بالضبط... كانوا ينتظروننا... أربعة أنفار مع العريف... وشخصاً مدنياً أيضاً،

ضخم الجثة، لم أكن أعرفه... ما كنت رأيته من قبل... كنا نتقدم بالسنتمترات... لم أعد متعجلاً على الإطلاق.. وصلنا، مع ذلك، في النهاية... كانوا قد رأونا من بعيد.. من قمة النجد، على الأقل... كانوا قد ميزونا بالتأكيد قبل أن ندلف إلى الغابة.

ـ هيا! أنت أيها الفقاعة. اترك عربتك تحت القنطرة! أدخلا هنا كلاكما!... سيأتي المفوض عما قريب.. ضعوا القيود في يديه! وفي يديها أيضاً!... حبسونا داخل الهري... ولبث رجال الدرك واقفين أمام الباب.

***

انتظرنا في الداخل، على هذا النحو، عدة ساعات فوق القش... كان يتناهى إلي أصوات حشد كبير من الرعاع يتألب أمام المزرعة. كان هؤلاء من سكان القرية!... توافدوا بالتأكيد من جميع أرجائها... كان العديد منهم يقفون تحت عقد القبة على الأرجح... كنت أسمعهم يتحاورون... لم يكن المفوض قد وصل... وما انفك العريف يدخل ويخرج، هائجاً أشد الهياج... راغباً أن يظهر حمية وحماساً قبل وصول العدالة... كان يلقي الأوامر إلى دركه...

ـ أبعدوا جميع الفضوليين! أحضروا لي السجينين!... كان قد طرح أسئلة على جميع الأولاد!... أحضرونا أمامه، ولكنه أعادنا إلى الهري... وخرج... كان يريد أن ينهك أعصابنا، القحب!... مبدياً حماسة مفرطة... كان يعاملنا بفظاظة، عازماً أن يزرع الخوف في قلوبنا! كي نعترف على الأرجح.. كي ندلي له على الفور باعترافات! كان يشتبه بنا!... لم يكن مسموحاً لنا كما قال، بأن نجرجر الجثة! كانت هذه جريمة بحدٍّ ذاتها!... لم يكن يجوز لنا أن نلمسها على

الإطلاق!... فقد كانت في وضع جيِّد على الطريق!... لم يعد بمقدوره الآن أن يكتب المحضر.. آه! سنقضي بسبب ذلك خمسة وعشرين عاما في السجن جالسين على دبرنا قسماً معظماً! آه! لم يكن يحبنا اللواطي! وانهالت على رؤوسنا أفظع التهاويل وأقذر الشتائم من ذلك الفرج القذر.

لم تعد العجوز تتكلم منذ أن عدنا إلى المزرعة. لبثت هكذا غارقة بدموعها، مقعية بالقرب من الباب. كانت فقط تطلق حازوقات، واثنتين أو ثلاث أنات بين وقت وآخر. كنت أنا من توجهتْ إليه بالحديث:

«ما كنت قط لأصدق يا فرديناند!... هذا، لعمر الحق، يتجاوز كل الحدود!... أي شقاء عظيم يا فرديناند!... ما عادت قواي تتحمل!...لا!... ما عدت أستطيع!... ما عدت أصدق! لا أصدق بأن هذا حقيقي، قل أنت؟ أهذا حقيقي فعلاً؟ هل تصدق بأن هذا حقيقي، قل لي أنت؟ آه! أسمعني بأن هذا ليس ممكناً!...» كانت تعاني من دوار شديد، استتب الوهن في أوصالها... وعشي بصرها تماماً... ولكن حينما عاد عريف الدرك إلى هذره، ونعتنا بالمجرمين العفنين، بلهجته السوقية... أثار هذا ثورتها... عبثاً كانت خائرة القوى... فقد انتفضت تحت وقع الشتيمة... وتأثيرها الجارح.. هاجت مثل وحش كاسر وهبت واقفة أمامه!

- عفواً! عفواً! قالت ذلك بتحد... لم أسمعك جيداً... ماذا قلت؟ استردت قواها تماماً... ما الذي قلته الآن؟... بأنني أنا الذي قتلته؟.. ولكنك متعتع من السكر يا صغيري! آه! متمادٍ في الوقاحة!... ولكنك مجنون إذن؟...ولكن كيف؟.. هل جئت لتتهمني أنا؟... بمقتل هذا السوقي الداعر؟... هذا النصاب المخادع؟... هذا

المجـرم الـشقي؟... آه! ولكـنني حافظـت علـى هـذه الهامـة الطفيلية!...آه! هذه الهامة التي سببت كل شقائي! ولم تفعل قط شيئاً غير ذلك!... ولكنني أنا!.. هل تسمعني! ولكـنني أنـا! أنـا بالتحديـد من التي قتلها هو دوماً!... آه! مصاص الدم؟ ولكنه هـو! ولـيس مـرة واحدة فقط! ليس عـشر مـرات!... لـيس مئـة مـرة!... ولكـن ألـف! عشرة آلاف مـرة!... ولكـنكم لم تكونـوا قـد ولـدتم بعـد حـين كـان يقتلني كـل يـوم!.. ولكـنني مـشيت علـى أربـع مـن أجلـه!... نعـم! انتزعت كل أحشائي!... كنت أظل أسابيع دون طعـام كـي لا يقـودوه إلى رونجي (سجن مشهور)!... عـشت كـل حيـاتي هـل تـسمعني؟.. مسحوقة! مخدوعة!.. أنا! نعم.. مجتثة، نعم، كـل حيـاتي مـن أجـل هذا النـذل!... ولكـنني فعلـت كـل شـيء مـن أجـل أن أخلـصه مـن الموت!... كـل شـيء!.. جميـع النـاس يعرفـون ذلـك جيـداً!... مـا عليـك سـوى أن تطـرح علـيهم أسـئلتك!.. علـى الأشـخاص الـذين يعرفونـه... والـذين يعرفوننـا... الـذين عرفـوني!... إذهـب إذن إلى «القصر الملكـي»!.. إذهـب إذن وانظـر بعينيـك في مونترتـو!... فأنـا معروفة هناك!... جميعهم يعرفـون مـا الـذي فعلتـه... كيـف تعـذبت حتى المـوت!... يمكـن لفردينانـد أن يحـدثك!.. هـو شـاب حـدث السن ولكنه يدرك الأمور جيداً!... لقد فعلت المستحيل يـا سـيدي!.. كي لا يغرق في الوحول!... فعلـت المعجـزات!.. كـي لا يـسقط في حمأة العار!... كانت تلك طبيعته!... كان يتمرغ في الـدرك الأسـفل، على نحو أعمق من سمكة ترويت إذا ما ترك وحده لحظـة واحـدة!... كان ينزلـق إلى قـاع كـل الموبقـات... لم يكـن يملـك مقاومـة حيـال ذلك! نعم... لست خائفة من قول هذا!.. جورة مرحاض! ليس لـدي ما أخفيه!... جميـع النـاس يعرفـون ذلـك أساسـاً... مـا مـن ضرورة

للخجل! سحقاً!... كان لديه كل النوازع الدنيئة!.. كلها!...كل المساوئ المخزية! لا شك أنكم أنتم، رجال الدرك، أصغر سناً من أن تفهموها!... بل وأصغر سناً من أن تسمعوها!.

كانت تحدق في وجوه الدرك!... وقد انتفش شعرها وسقط على عينيها، خصلاً رمادية مشعثة... كانت تتصبب عرقاً... ترنحت قليلاً، ثم عادت إلى الجلوس.

ـ إذا نظرتم إلى الطريقة التي ختم بها حياته، ألا تجدون هذا مفهوماً؟... أهذا كل ما جئتم لتقولوه لي الآن؟ لتعاملوني كبغي؟.. تلك هي مكافأتي!... لو تعلمون كل ما عليه من ديون! آه! أنتم لا تعلمون شيئاً عن ذلك أيضاً!... وكيف كان يدير ظهره لها!... يغرس علماً هنا!... وعلماً هناك!.. اذهبي وسدديها يا عجوزتي العزيزة! ودائماً ديون جديدة!... شقي بطنك... فأنت هنا من أجل هذا! يتخذ حيناً سمة التعاظم! وحيناً يذر الرماد في العيون! ويستخدم أحيانا الكلام المعسول! سيري مثلما أوجهك!... على هذا النحو عاش حياته كلها! لم يكن يفهم سوى هذا! التمرغ في الخبائث والموبقات! ليس لديه ذرة من شعور!.. كانت العجوز متلفعة بأحزانها، تصرخ تحت وطأة الارتعاشات والترنحات!...

ـ كنت أنا! كنت أنا من حافظ على منزله حتى النهاية! ولو لم أدافع عنه، لكان باعه منذ زمن بعيد! لم يكن يستطيع أن يتمالك نفسه!... وقد استغل المحنة القاسية التي ألمت بي حينما وقعت فريسة للمرض، وما عاد بوسعي أن أدرك شيئاً من شيء!.. فصفى كل شيء!... ابتلع كل شيء!.. باع كل شيء بسعر زهيد! اسألوا إذن إن لم يكن هذا صحيحاً؟... إن كنت كاذبة!... لم يكن يراعي وضعي! أدنى مراعاة على الإطلاق! ما كان يستطيع!... كان ذلك أقوى منه

بكثير! كان ينبغي إذن أن يعذبني حتى الموت!.. كل شيء من أجل فسوقه!... من أجل رذائله!... من أجل خيوله!.. وسباقاته! وحماقاته!... وكل حفلات سكره!... وما عدت أدري ماذا أيضاً! وسخاؤه! يغدقه على أشخاص مجهولين!.. يعطيهم أي شيء! شرط أن يكون من الممكن تقديمه!... شرط أن لا يبقى بين يديه!... ولأنفجر أنا غيظاً!... فالأمر سيان لديه!.. كان هذا ما أراده دوماً! ثلاثون سنة على هذا المنوال!.. ثلاثون سنة وأنا أتحمل كل شيء... ثلاثون سنة ليست لحظة!... وها أناذا الآن أتهم بقتله!... بعد كل الإذلالات والإهانات!... بعد أن كابدت كل شيء؟...آه! ما قولك إذن! ألا إن هذا يتجاوز الحد!... وعند وصولها إلى هذه الفكرة الرهيبة، فارت من جديد! كيف؟ كيف؟ الرب لا يسمح بذلك! هو ذا قد تشوه.. قد رحل!... تحول إلى خبيصة من اللحم والدم! وأنا الآن من يكون الجاني؟ آه! على رسلكم! ولكن هذا طفاح الكأس!.. ثمة شيء مقلوب!... آه! يا للقذارة! آه! سيظل يقال حتى النهاية بأنه دمَّر حياتي هذا المهرج القذر الهالك العفن!... ولكنني خادمة!... وبقيت خادمة! تماسكي إذن أيتها العجوز الحمقاء! لن يبقى لك أي شيء! ولا حتى سن واحد! لن يبقى لك إلا الديون! إلا الديون! وهذا لا يعنيه في شيء! هو! ما دام يبدد!... كل شيء! ما دام يوردني مورد الهلاك!... فرديناند يعرف هذا جيداً! لقد رأى الوضع!... رأى كيف كافحت، وثرت، وفجرت دماغي أيضاً حتى الثانية الأخيرة!... كي لا نغادر مونترتو!... كي لا نأتي إلى هذه البقعة القذرة! ليدفنني مع بطاطه!... ما كان ثمة بيدي حيلة!... كان متشبثاً بأهداب الشقاء والنحس!.. فرديناند يعرف هذا أيضا!... أضعت كل ما أملك!... فقدت كل شيء من أجل هذا المهرج! هذه الظاهرة القميئة! فقدت مركزي. ومهنتي! وهي مهنة جليلة، وأصدقائي! جميعاً!.. فقدت

والدي"! ما عاد ثمة شخص واحد يريد أن يرانا!... لا أحد سوى نفايات من قطاع الطرق! عصابات من الأوباش الجامحين! الفارين من شارنتون!... أتلفت صحتي!... عمليتي الجراحية في البداية! ثم شخت عشرين عاماً خلال الأشهر الستة الأخيرة!... لم أكن قط قبل أن أعرفه أشكو من أي مرض!... لم أكن أعرف ما هو الزكام!... كنت أهضم كل شيء!... كان لدي معدة طاحنة!... ولكنني لفرط ما كابدت من الكوارث!.. فهو لم يجلب قط سوى الكوارث!... وهي لم تكن تنتهي في يوم من الأيام! فما إن نتخلص من كارثة... هوب! حتى يسوق لي كارثة أخرى! ودائماً أشد فداحة!... فقدت مقاومتي! من السهل فهم ذلك! وقد أجروا لي عملية جراحية مشؤومة!... قال لي الأطباء في مشفى الجراح بيان... «لا تعودي إلى مثل هذه الحياة يا سيدة دي بيريري!... فسيؤدي بك ذلك إلى عواقب وخيمة!.. التزمي جانب الحذر والاحتراس!... اتخذي كل الاحتياطات!... إياك القلق والانشغال الزائدين!...» آه! ولكنك ستلقين بنفسك إلى التهلكة! كان الوضع يزداد سوءاً من سنة إلى أخرى!... ما من دقيقة هدوء أبداً... سوى دعاوى! وإنذارات!... ورق أخضر... وورق أصفر!... والدائنون على الأبواب! وأنا أعاني كل صنوف العذاب والألم! هكذا عشت حياتي.. معذبة في الليل والنهار!... بالضبط! مثل مجرمة حقيقية!... من أجله هو ثانية! من أجله هو دائماً!... منذا الذي يمكنه أن يصمد؟... لم أنم منذ عشرين عاماً، ليلة واحدة كاملة! إن شئتم أن تعرفوا كل شيء! تلكم هي الحقيقة الناصعة!... لقد انتزع مني كل شيء!.. النوم، الشهية، كل ما ادخرته!... تنتابني نوبات حمى لا أعود قادرة على الوقوف بسببها!... ما عدت أستطيع الركوب في عربة! لأنني أشعر بالغثيان على الفور!... وعندما أمشي بأقل سرعة أرى نجوم الظهر!.. ثم يقال لي الآن بأنني أنا التي قتلت!... هذا

لعمري هو الطامة الكبرى! عجباً! انظروا إذن بأعينكم قبل أن تتفوهوا بمثل هذه الأشياء!.

قادت رجال الدرك الأربعة والعريف إلى القبة.. اقتربت من الجثة، وشمرت بنطال الميت..

ـ أنتم ترون حذاءه؟.. ترونه جيداً!.. إيه حسناً، إنه الوحيد الذي يملك حذاء!... ليس هناك حذاء آخر في هذا المنزل!... نحن الآخرون جميعاً بلا أحذية!... على الإطلاق! لا فرديناند! ولا الأولاد!.. ثم رفعت بنطالها كي يتأكد الدرك من ذلك!.. قدماي حافيتان أيضاً أنا الأخرى!.. هيا! يمكنكم أن تروا بأعينكم!.. حرمنا أنفسنا طوال الوقت من أجله!... من أجله هو وحده.. كان هو من يأخذ منا كل شيء!... ونحن أعطيناه كل ما نملك!... كل شيء كان له!... دائماً كل شيء! منزلان... وصحيفة! وفي «القصر الملكي» كان لديه محركات!... ومئة ألف قطعة من العتاد أيضاً، وتصليحات جهنمية!... لست أدري كم كلفت من المال!... ومن عينيّ.. كل ذلك البازار كي يرضي هوسه ونزواته!... ليس بوسعي حتى أن أروي لكم كل شيء... آه! لم نعارضه قط في يوم من الأيام! آه! ليس بسبب ذلك، أؤكد لكم، قتل نفسه!... لقد كان فاسداً!.. كان متعفناً! انتبهوا! متعفناً! هل تريد عدة كهربائية؟... حسن جداً، يا صغيري! هي ذي! هل تريد أن نذهب إلى الريف؟.. حسن جداً!... سنذهب!...هل تريد بطاطا أيضاً؟.. لا بأس!... ما من راحة أبداً!... ما من تردد! ما من تشويش! فالسيد لا يستطيع الانتظار!.. هل تريد القمر أحياناً؟... ولكن قلبي هو ما تريده تماماً!... نزوات جديدة دوماً!... أفكار جديدة مهووسة!... من الأسهل، أيها السادة، تحمل طفل في الشهر السادس من عمره!... كان يحصل على كل ما يشتهيه!

ما كان لديه الوقت حتى ليتكلم! آه! كان ذلك ضعفي وأيم الله!.. آه! أن أتلقى العقاب إذن!... لو كنت عرفت هناك!.. مهلاً! حينما وجدت رأسه نتفاً ممزقة... ما ستقولونه لي الآن. آه! لو كنت عرفت ذلك!... إيه حسناً يمكنني أن أقول هذا لكم! آه! ما كنت لأعود به إلى هنا إطلاقاَ! ولكنني لا أعرف ما الذي سيشعر به الفتى حينئذ!... ولكنني كنت أنا، ولكنني أنا، هل تسمعون! أنا! التي كنت سأقلبه بالأحرى إلى داخل الخندق! ولن تأتوا حينئذ لتزعجوني!... ذلكم ما كان ينبغي أن أفعله!.. بهذه العفونة الخبيثة القذرة! ذلكم ما يستحقه! لست أبالي أن أذهب إلى السجن... الأمر سيان بالنسبة إلي!... لن أكون هناك أكثر شقاء من أي مكان آخر!... ولكن اللعنة! آه! اللعنة! لا! مع ذلك! فأنا لا أريد أن أكون غبية بهذا القدر!.

- هيا! هيا! تعالوا إلى هنا! ستروون كل هذا للآخرين! أجيبي أولاً على الأسئلة! كفى نقاشاً!.. هل قلت بأنَّك لم تكوني تعرفين البندقية التي قتل نفسه بها؟... ونقلته إلى هنا مع ذلك؟ والفتى الصغير. هل كان يعرفها؟... كانت مغروسة في رأسه؟ أليس كذلك؟ هل وجدتموها هكذا؟ هل أخرجتماها كلاكما؟.. كيف حدث ذلك برأيكما؟...

- ولكنني لم أقل قط هذا، بأنني لم أكن أعرف البندقية!... كانت هناك معلقة على الجدار فوق السل الكبير..كان الجميع يرونها دائماً!.. اسأل الأولاد!..

- هيا! هيا! لا تدلي بتفسيرات غبية! أعطوني أسماءكم على الفور، مكان الولادة... اسم العائلة؟... الضحية أولاً!... التاريخ؟... كيف كان يسمى أخيراً؟... كورتيال؟... كيف؟...أين ولد؟... ماذا كان يعمل؟...

ـ لم يكن يدعى كورتيـال علـى الإطـلاق!... أجابـت فجـأة!... لم يكن يدعى دي بيريري!... ولا جان! ولا مارين! كان قد اختلـق هـذا الاسم!...من جملة ما اختلق!... كان اسماً مختلقاً أيضا! كذبة!... من جملة أكاذيبه!... كان يـدعى دائمـاً! وفي كـل مكـان! ليـون... ليـون شارل بونيه!... ذلـك هـو اسمـه الحقيقـي!... لـيس هـذا هـو الـشيء نفسه، أليس كذلك؟... وأنـا أيـضاً ادعـى هونـورين بوريغـارد ولـيس ايرين! هذا أيضاً اسم اخترعه لي!... كان ينبغي أن يغير كـل شـيء!... لـدي الـدلائل علـى كـل هـذا!... إنهـا في حـوزتي!... لم أقـل شـيئاً لخداعكم، إنهـا لم تفـارقني في يـوم مـن الأيـام!... لـدي هنـا دفتـر العائلة!... سأبحث عنه أولاً... ولد في فيل ـ آفـاري عـام 1852... في 24 أيلـول... ذلـك كـان يـوم مولـده! سـأبحث لكـم عنـه في الغرفـة الأخرى... إنه داخل حقيبة يدي... تعال معي يا فرديناند!..

كان العريف يدوّن... «رافقا السجينين!» أوعز إلى الدركيين...مررنا أمام العربة النقالة.. ثم عـدنا ثانيـة.. سـأل أحـد الـدركيين العريـف... باعقاً، من تحت القبة!.

ـ ألا يمكن إدخالها الآن؟...

ـ إدخال ماذا؟..

ـ الجثة! يا عريف!... هناك كثيرون قد تحلقوا حولها!.

كان خليقاً أن يفكر..

ـ أدخلوه إذن!... قال العريف.. انقلوه إلى المطبخ! أخرجـه الـدركيان من العربة النقالة.. رفعاه بهدوء.. ونقلاه إلى المطـبخ... وضـعاه فـوق البلاط... ولكن جسده ظل معوجاً تماماً.. لم تكـن سـاقاه قـد ارتختـا أبداً... ركعت العجوز على ركبتيها كي تنظر إليه مـن مـسافة أقـرب...

وأطلقت من جديد أنات حرى... وانهمرت دموعها سواقي... كانت تشبث بي عبر أغلالها، وقد برح الكرب بها، حتى ليبدو فعلاً بأنها ما جاءت إلا لترى بأنه ما عاد سوى عجينة من اللحم والدم.

ـ آه! آه! انظر يا فرديناند!... أنظر!... كانت قد نسيت بطاقة العائلة، لم تعد تريد إخراجها من محفظتها... لبثت هكذا واجمة فوق الكومة..

ـ ولكن لم يعد له رأس، يا إلهي! لم يعد له رأس يا فرديناند! يا عزيزي! يا عزيزي! رأسك!... لم يعد له رأس!...» كانت تتوسل، تجرجر نفسها تحت أرجل الدرك... تزحف بين جزماتهم... وتتدحرج على الأرض.

«مشيمة!... إنه مشيمة!... أنا أعرف المشيمة!... رأسه!... رأسه الشقي!.. إنه مشيمة!... هل رأيت يا فرديناند؟ هل ترى؟... أنظر!... آه! أوه! أوه!... طفقت تطلق صرخات مذبوحة!...

«آه! كل حياتي!.. آه! كل حياتي!... آوه! آوه!...» كانت تنشج هكذا بصوت أكثر حدة.

ـ لست أنا، أيها السادة، من فعل هذا!... لست أنا مع ذلك!.. أقسم لكم بأنني لست أنا!.. أقسم لكم! كل حياتي كانت من أجله!.. من أجل أن يكون سعيداً!... لكي لا يشكو أبداً!... كان بحاجة إلي!... في الليل والنهار... يمكنني أن أؤكد ذلك!... ليس هذا كذبا! أليس كذلك يا فرديناند؟ أليس هذا صحيحاً؟ بذلت كل التضحيات دوماً!... لم يعد له رأس! آه! كم تحقدون علي كلكم!... لم يحتفظ بأي شيء!... حظاً سعيدا!... حظاً سعيداً! قال قبل أن يرحل.. عزيزي البائس!... حظا سعيداً!.. يا إلهي! لقد رأيتم؟.. كان هذا مكتوباً!.. كان هو من كتبه مع ذلك!... كان هذا مكتوباً بيده! لست أنا

من كتب ذلك! البائس المنكود! لست أنا! حظاً سعيداً! إنـه هـو! هـو وحده وأيم الله! أنتم رأيتم كتابتـه! آه! لـيس أنـا!... هـذا واضـح مـع ذلك!... أليس هذا واضحاً؟...

كانت قد تمددت بطولها على الأرض الترابية الممهـدة... وجعلـت تصدمها بكل جسدها... وتلتصق بكورتيـال... كانـت تنتفض وهـي تتوسل.. وتكلمه مع ذلك...

ـ كورتيال! أرجوك يا كورتيال... قل لي! قـل لي، يـا عزيـزي!... لماذا فعلت هذا بنفسك؟...لماذا كنت شريراً إلى هذا الحـد؟ قـل لي؟ يا رجلي الكبير! يا كنزي!... كانت تلتفت إلى الدرك..

ـ إنه هو! إنه هو! إنه مشيمة! إنه مشيمة!... واعترتها رجفة قويـة... كانت تلتهم خصل شعرها... ما عاد يسمع صوت في الغرفة لفـرط مـا كان عويلها حاداً... كان الفضوليون المحتشدون على النافذة يصعدون فوق بعضهم بعضاً.... فيما كانت هي تعـض أغلالهـا، متـشنجة فـوق الأرض، غارقة في بحران ثقيل، أنهضها الدرك بـالقوة، ونقلوهـا إلى مخزن الحصيد... كانت تطلق صرخات مصلوب... تتـشبث بالبـاب... تخر على الأرض، وقد طار صوابها داخل الهـري... «أريـد رؤيتـه!.. أريد رؤيته!... كانت تـصيح مولولـة...أروني إيـاه!.. يريـدون أخـذه! القتلـة! النجـدة! النجـدة! يـا صـغيري! يـا صـغيري! لـيس أنـت يـا فردينانـد! لـيس أنـت!... لـيس أنـت يـا عزيـزي!... أريـد أن أراه!.. رحماكم! أريد رؤيته!...» وظلت ساعة على هذا الحال. كان لا بد من أن يعودوا إليها، ويفكوا أغلالها... وحينئذ هدأت قلـيلاً... ولم يفكـوا أغلالي. وعدتهم مع ذلك أن أبقى هادئا.

* * *

بعد الظهر وصل دركي آخر على دراجة هوائية... جاء خصيصاً من بيرسان ليخطر العريف بأن لا يلمسنا من قريب أو بعيد... وأن المحكمة على وشك أن تصل... وليس المفوض... لأن تلك هي أوامر قاضي التحقيق ذاته.. أمرنا نحن أيضاً بأن نجهز أمتعة الأولاد، لأنهم سيرحلون في الساعة الأولى من صباح الغد... كان هناك من ينتظرهم في فيرسي، في ملجأ لرعاية الأطفال... كان هناك أيضاً من ضمن الأوامر!... أن لا يبقى أحد منهم بعد الساعة العاشرة صباحاً!... سيأتي شخصان مختصان من بوفيه، من أجل أن يقودوهم.. يصطحبوهم إلى المحطة...

كررنا الأوامر على مسامع الأولاد الذين كانوا متجمعين في الفناء. كان لا بد من إخبارهم، مع ذلك، بأن مشروعنا التعليمي قد انتهى... وأن بقاءنا هنا غدا متعذراً!... لم يكونوا يفهمون بعد بوضوح... تساءلوا، ما الذي سيفعلونه هم؟... أين سيذهبون بهم؟... إذا لم يكن ذلك مزاحاً؟.. حاولت أن أفهمهم بأن حكايتنا هنا قد انتهت. وأن أمورنا هنا ما عادت ممكنة! فلم يعترضوا على الإطلاق!... وأن القاضي أمر بأن نصفي كل أعمالنا هنا! ونرسل على الفور جميع فتيان «العرق الجديد» إلى بيوتهم، وأنهم، في المحكمة، على وشك أن يوقفوا كل زراعتنا «التيلورية»، في الوقت ذاته... لأنهم ما عادوا يريدون كل أشيائنا! وأنهم وحوش حقيقيون... عديمو الرحمة! مصممون! وأن كل ذلك قد انتهى! وأننا على وشك اللقاء بآبائنا!... ولا بد لنا، في هذه المرة من أن نعود إليهم!...

كنت كمن يتكلم الصينية... كانوا قد فقدوا عادة معاملتهم كأطفال... واستقلوا برأيهم أكثر مما ينبغي.. ما عادوا يعبؤون بأمور الطاعة!... لم يكن أمراً معقداً جمع أمتعتهم!.. ما كان لديهم، في

المحصلة، سوى عظامهم... وبناطيلهم القصيرة فوقها!... أما بشأن القيافة... فكان لديهم بضعة أحذية، من غنائمهم، ولكنها لم تكن قط على قياس أرجلهم... لذا فإنهم لم يلبسوها... كانوا بالأحرى يسيرون حفاة!.. وقد أمكنهم أن يصطحبوا معهم كومة من الأشياء المتنافرة... أعدادا لا تحصى من المسامير، والصنانير المعقوفة، والمنجنيقات الصغيرة، والنقافات، والحبال الرفيعة، وأشراك الدبق، ومجموعة كاملة من المباشر والمقارض، وجميع المطاوي النباضة، وشفرات حلاقة أيضاً، مقابضها من عصي طويلة.. وملقطين اثنين... كان دودول هو الوحيد من بينهم الذي لا يملك أي شيء.. كان يعمل بأصابعه حسب... كان الأطفال يعتقدون بأن هذه الأشياء، ستفيدهم أيضاً حيث يذهبون بهم.. لم يكونوا يدركون شيئاً!... كنت قد ألححت عليهم مع ذلك بأن يحترسوا... ما كانوا ينظرون بخطورة إلى ما يجري... كانوا قد رأوا العجوز بوجهه المحطم! وسمعوا عجوزه من وراء الباب... وهي تولول... ولكن هذا لم يعد يخيفهم...

ــ أنا! اسمع! قال لي دودول، أقسم لك بأننا سنعود يوم الخميس!...

ـ أنت لا تعرفهم يا صغيري! أجبته.. لا تقوموا على الأخص بأي أفعال عنيفة!... فسيسجنونكم مدى الحياة!... لديهم سجون رهيبة!... حذار! إكتموا أفكاركم! ولا تفتحوا أفواهكم بكلمة...» حتى ميزانج، أخذها العناد والتمرد: «فرديناند! فكر ملياً! إنهم يرحلوننا بسرعة كي لا نرى الدفن!... كل هذا باطل لا قيمة له!... سنعود بالتأكيد يوم الأحد!... حينما ينتهي كل هذا!...» كانت تلك رغبتي أنا أيضاً... حزموا جميع أشيائهم الصغيرة المسروقة... لم يكن هناك نقاش حول تقاسمها.. رغبوا أن يأخذوا كل القطع المطاطية

السميكة... كانوا أبطالاً في صيد عصافير الدوري!... أخذوا معهم بكرتين أيضاً من الشريط النحاسي... والذي كان وزنه ثقيلاً!... كان قد بقي منه الكثير، اللعنة! صندوق مملوء داخل المستودع.

وصلت السيدتان المرافقتان في وقت أبكر مما كنا نتصور... نوع من الراهبات، من دون قبعات، ولكن بثياب رمادية مرتفعة، تغطي الصدر والكتفين، متشابهة تماماً، وقفازات من دون أصابع، وأصوات غريبة بالغة الرقة، ومفعمة بالإلحاح... كان الليل ما يزال مخيماً..

ـ إذن، هيا يا أولادي الأعزاء... ينبغي أن نسرع قليلاً... قالت السيدة الأشد نحافة بينهما... آمل بأنكم ستكونون عاقلين!... سنقوم الآن برحلة جميلة.... صفا الأولاد في طابور واحد، اثنين اثنين... ولكن دودول كان وحيدا في المقدمة... كانت تلك هي المرة الأولى التي ينتظمون فيها.. ثم سألتا الجميع عن أسمائهم...

ـ الآن ينبغي أن تتوقفوا عن الحديث فيما بينكم... أنتم أولاد صغار عاقلون جداً!... ما اسمك أنت أيها اللطيفة؟...

ـ ميزانج بوتيت ـ بو! أجابت الفتاة. كان الآخرون فعلاً يسمونها على هذا النحو. كانوا ما يزالون تسعة بوجه الإجمال... خمسة أولاد، وأربع بنات. وقد ترك لنا دودول كلبه... لأنهم ما كانوا يريدونه في فيرسي... ثم فرقوا الصف فجأة... كانوا قد نسوا المعلمة العجوز!... كانت هناك، لم تبارح هريها.. عانقوها بسرعة.. وسالت قطرات من الدموع على وجناتهم... لم يكن الفراق مبهجاً مع ذلك.... بسبب تلك الظروف العصيبة... بكت ميزانج أكثر من الجميع.

ـ وداعاً يا فرديناند!... وداعاً يا فرديناند! إلى اللقاء!... كانوا يهتفون لي أيضاً، من الطرف الآخر للفناء. ثم جمعتهما السيدتان من جديد.

ـ هيا، يا أولادي! هيا!... هيا يا بناتي الصغيرات... ظلوا يرسلون لي نداءاتهم الأخيرة من طرف الطريق... «إلى اللقاء أيها الصديق! إلى اللقاء...!».

سحقاً! سحقاً! كنت على يقين بأن العمر أشأم رهيب... حافل بالكروب... الأولاد، مثلهم مثل السنين، لن أراهم بعد أبداً. كلب دودول، حبسناه مع العجوز. كانا يبكيان معاً. كان هو من يئن بنحو أكثر تفجعاً. والحق أن ذلك اليوم، يمكنني القول، كان واحداً من أشقى أيام حياتي. تباً!.

* * *

ما إن رحل الأولاد، حتى استقر العريف ورجاله داخل المطبخ. ولما أن رأوني هادئاً مطمئناً، فكوا قيودي... كانت الجثة على مقربة منا... لم يعد لدى الدرك ما يفعلونه سوى أن ينتظروا وصول النائب العام غداً.. والذي سيجري تحقيقاً، كما يقولون، وراحوا يعلقون على ذلك! كفوا أخيراً عن شتمنا وتعذيبنا، كانوا قد جاعوا حينئذ، فنهضوا إلى الخزن يبحثون عن شيء يسدون به رمقهم.. فإن لم يجدوا طعاماً.. فلعلهم يعثرون على جرعة من الخمر يتمضمضون بها.. ولكن ما عاد لدينا نقطة شراب، ولا مضغة من طعام.. فقاموا إلى النار وأضرموها.. كان المطر يتساقط داخل المدخنة.. والجو زمهرير قارس.. كنا في شباط، أقصر الشهور، وأخبثها أيضاً!.. كانت بداية الشتاء رحيمة.. أما الآن فإن الفصل ينتقم بقسوة.. كان حبل الكلام قد انقطع بين رجال الدرك.. كانوا فلاحين في أعماقهم.. كانوا يجرجرون جزماتهم في كل مكان.. رحت أراقب رؤوسهم عن قرب.. فيما هم يدخنون غلايينهم.. وقد تحلقوا حول طاولتنا.. اتيح لي الوقت كي أتأملهم.. كان ثمة شعر كثيف أشبه بالوبر يغطي

وجناتهم، بدءاً من عيونهم. كما أحاطت بأعناقهم لبدات من الشعر صعدت حتى آذانهم.. كانوا مسيخين بوجه الإجمال، متكرشين بالأخرى! ولاسيما واحد منهم كان حجمه يعادل ضعفي زملائه الآخرين.. كانت قبعاتهم المقرنة تشكل هرماً وسط الطاولة، مشكوكة ببعضها على هيئة عمود.. أما جزماتهم فكانت مصنوعة للسير بها سبعة فراسخ!.. وحين كان خمستهم ينهضون تصدر سيوفهم، وهم يجرجرونها خلفهم، صليلاً كصليل الخردة.. ولكن ظمأهم ما فتئ يزداد.. فمضوا إلى عجوزين في طرف القرية يلتمسون شيئاً من شراب السدر.. وفيما بعد، في حوالي الساعة الثامنة ربما أقبل عليهم دركي آخر.. قادماً من مخفرهم... حاملاً بعض النبيذ، وقليلاً من الطعام.. خمس قصعات.. كان قد بقي لدينا بعض القهوة، فقلت لهم أن بإمكاننا إعداد كوب منها، بشرط أن يتركونا نطحنها، كانوا راغبين كثيراً بذلك. خرجت العجوز من مستودعها، فتحوا لها الباب، كانت نوبة غضبها قد تلاشت، لم يحصل أولئك العمالقة من الطعام، سوى على قصعة صغيرة لكل منهم!.. ورغيف واحد للخمسة!.. كان لدى العجوز بعض من شحم الخنزير، كنت أعرف ذلك، كانت قد ادخرت كمية قليلة منه، مع بعض العدس في مخبأ لها، وبعض اللفت، وربما نصف ليبرة من المارغرين..

ـ يمكنني أن أعد الحساء! قالت لهم.. الآن وقد رحل الأولاد.. لعلي أستطيع أن أطعمكم جميعاً!... وافقوا بسرور بالغ.. وربتوا على أفخاذهم.. ولكنها عادت إلى التباكي مع ذلك.. كان لدينا قدر كبير! يتسع لخمس عشرة قصعة على الأقل.. ثم وصلت خمور أخرى، جاءت مباشرة من بيرسان.. كانت زوجة العريف هي التي أرسلتها مع صبي، وأرسلت معه أيضاً رسالة وصحيفة.. جلسنا على مقربة منهم..

وقاسمناهم الطعام والشراب.. كان قد مرَّ علينا أكثر من أربع وعشرين ساعة لم نذق فيها طعاماً قط.. كان الدرك يطلبون المزيد من الحساء.. أفرغنا القدر بكامله.. دارت بينهم الأحاديث.. ودبت الحيوية في عروقهم.. كانوا قد أقبلوا على الحساء بشهية، يلتهمون منه ما استطاعوا سبيلاً.. فكوا زنانيرهم علناً.. واحد من الخمسة.. ليس العريف.. واحد كان أصلع تماماً، بدا فضولياً أكثر من الآخرين.. وسأل المعلمة عما كان الميت يعمل قبل أن يأتي إلى الزراعة.. كان هذا يثير فضوله.. حاولت أن تجيبه.. ولكن لم يكن في طوقها أن تتحدث بوضوح.. كانت تغص بالكلمات.. وتذوب في تنهدات حرَّى... يسيل مخاطها في صحنها.. ثم عطست في حقِّ البهار.. فانفجروا جميعاً في الضحك حتى بانت نواجذهم.. وتطاير البهار فوق وجهها... كانت تسكب في الحساء كمية كبيرة من الفلفل.. أوه! أو! أواف! غدا جو الغرفة حاراً.. كانت النار تزغرد في الموقد.. وكانت الريح تهدأ أحياناً فتضطرم النار وتنشر الدفء داخل الكوخ، ثم تغير اتجاهها، فتكتسح الكوخ حينئذ، فنكاد نختنق بالدخان.. على هذا الغرار كانت الأمور تجري في الريف على الدوام.

ما عاد العريف الجالس على طرف المقعد يتحمل الحر.. فخلع سترته.. وفعل الجميع مثله.. لم يكن بوسع موظفي المحكمة الحضور إلا في الغد.. لن يكون هناك إذن ضجة أو فضيحة.. كان الدرك يتساءلون عن سبب استبعاد مفوضهم من القضية؟.. كان هذا الموضوع يذكي فضولهم. ولماذا النائب العام، على الأخص؟.. وبمثل هذه السرعة؟.. لابد أن هناك خلافاً بين قلم المحكمة وبين النائب العام.. ذلك هو الاستنتاج الجميل الذي خلصوا إليه.. إذا كان هناك خلافات، على هذا النحو، فسنضيع نحن بالتأكيد.. هذا ما كنت

أفكر به، استأنف العريف عشاءه شيئاً فشيئاً.. التهم وحده تقريباً قرصاً من جبن كممبير!.. وقطعة خبز كبيرة مزبدة!.. وفوق كل ذلك، جرعات من النبيذ الأحمر!.. لقمة!.. جرعة..! لقمة!.. جرعة!.. كنت أشاهده وهو يفعل ذلك.. غمز لي بطرف عينه!.. كان قد غدا ودوداً جداً.. وانبرى إلى العجوز يسألها، على هذا النحو، دون أية خشونة، ودونما خبث بالتأكيد، عما كان يفعله إذن كورتيالها، قبل أن يأتي إلى بليم؟.. ولكنها لم تفهم سؤاله بوضوح، كانت قد غدت مخبلة لفرط ما ناحت، أجابته «روماتيزم!» لم تعد تفهم شيئاً مما حولها.. وعاودتها الدموع.. رجته وتوسلت إليه بأن يتركها في المطبخ.. بالقرب من الميت.. قليلاً من الوقت.. كي تسهر بعض الوقت.. حتى منتصف الليل مثلاً!.. ما عاد لدينا زيت ولا بترول.. شمعات فقط، ولكنها كانت تشكيلة منوعة.. كان الأولاد يختلسونها دائماً من كل مكان، حينما كانوا يذهبون للغزو في كل مرة.. ما كانوا يقضون في المزرعة إلا وقتاً قليلاً.. كانوا قد جلبوا لنا شموعاً من كل الأحجام!.. حتى صار لدينا منها تشكيلة كبيرة، كانت العجوز تريد إشعال اثنتين منها.. ملَّ العريف من سماعها وهي تنوح...

ـ هيا! هيا!.. وعودي بسرعة! في الحال!.. لا تشعلي النار!.. وإياك أن تلمسي الميت، هيه؟ وإلا فسأغلق عليك باب المستودع، وبصورة نهائية هذه المرة!..

خرجت من الغرفة.. وبعد لحظة نهض دركي، بعد أن أبطأت بالعودة، ليرى ماذا تفعل.. كانوا يتساءلون: «ترى، ما عساها تفعل هناك؟...».. كنت أرافقها... كانت قد ركعت على ركبتيها أمام الجثة..

ـ ألا أستطيع أن أغطيه؟.. ـ آه! لا، أجابها الدركي.. ــ ليس هذا لأنه يثير في الخوف، أنت تعلم! ولكن بنبغي أن يغطوه.. لا يمكنهم

أن يأخذوه بهذه الصورة!.. سوف لن أحركه! أنا أعدك!.. ليس بي حاجة إلى أن ألمسه! أريد أن نضع تحته قطعة من القماش!.. هذا فقط!.. هذا كل شيء!.. قطعة قماش تحته، وتحت رأسه.

تساءلت بيني وبين نفسي، ترى، ما الذي كانت تريد أن تضعه تحته؟.. أغطية سرير؟.. لم يكن لدينا قط أي غطاء في بليم! كان عندنا العديد منها، ولكنها لم تعد أكثر من مزق.. ومتعفنة بالتأكيد!.. ما عدنا نستخدمها منذ أن صرنا نرقد على القش.. ما دمنا ننام بثيابنا.. بقايا مهلهلة.. لم يقبل الدركي.. كان يريد منها أن تطلب هي ذاتها إذناً من العريف.. ولكن العريف كان يشخر.. بعد أن غطس في النوم فوق الطاولة.. كنا نلمحه عبر الباب.. أما الدرك الآخرون فكانوا يلعبون الورق.

ـ انتظري! سأذهب إليه.. قال الدركي أخيراً.. لا تلمسيه قبل أن أعود.. ولكنها لم تعد تطيق الانتظار...

ـفرديناند! هيا إذن! أسرع يا صغيري! إذهب بسرعة إلى فراشي القشي.. أنت تعرف شق الجدار.. حيث أطوي قشي؟... إنبش قليلاً، أدخل ذراعك باتجاه القدمين.. ستجد القطعة الكبيرة!.. أنت تعرفها جيداً.. قطعة «الأرخميدس»!.. القطعة الحمراء!.. إنها كبيرة بما يكفي، أنت تعلم... ستكون مناسبة تماماً.. ستلتف جيداً حوله!.. إذهب وائتني بها حالاً.. لن أتحرك من هنا!.. هيا أسرع!..

كان هذا صحيحاً.. فقد وجدتها على الفور.. كانت تفوح برائحة الكوتشوك الكريهة.. تلك هي القطعة التي أنقذتها من أعماق الأنقاض ليلة الكارثة.. كشطتها أمامي.. ثم فرشتها على الأرض.. كان نسيجها ما يزال متيناً.. ولكن لونه كان قد بهت، وتحول إلى لون كستنائي.. لم ترغب في أن أساعدها كي نلف كوريتال بداخلها.. فعلت ذلك بنفسها.. كان عليها أن لا تحركه...دست النسيج بكامله

تحت الجثة، بنحو أفقي... بمنتهى الهدوء بالتأكيد.. بقي لديها ما يكفي من الطول كي تغلف الجثة بكاملها، وتخفي كل لحم الرأس أيضاً.. كان العريف يراقبنا ونحن نفعل ذلك.. كان الدركي الآخر قد أيقظه.. «إذن، صاح بنا من بعيد.. سوف تخفونه أيضاً؟.. أليس كذلك؟.. أنتم مهووسون حقاً؟».

ـ لا توبخني، يا سيدي الطيب!.. لا توبخني!. أنا أتوسل إليك! لقد بذلت كل جهدي!.. توجهت إليه راكعة على ركبيتها، لم أرتكب أي خطأ!.. لم ارتكب أي خطأ!.. هلم فانظر!.. هلم فانظر إليه!.. بنفسك!.. فهو ما يزال مثلما كان.. صدقني!.. صدقني! أتوسل إليك!.. أيها السيد المهندس! كانت تخاطبه على هذا النحو فجأة، السيد المهندس!.. ثم عادت إلى عويلها...

ـ كان يصعد في السماء، يا سيدي المهندس!.. أنتم لم تشاهدوا ذلك!... يمكنكم أن تصدقوني بالتأكيد!.. ولكن فرديناند رأى ذلك!.. أليس صحيحاً أنك رأيت هذا يا فرديناند؟.. رأيت كيف كان يصعد بمنطاده!... قل يا صغيري؟... قل لهم ذلك!... قل لهم يا صغيري!... لا يريدون أن يصدقوني!... رحماك! يا يسوع الرحيم! سأتلو صلاتي! فرديناند! سيدي المهندس! أيها القديسة ماري! يا ماري! يا حمل السماء! صلي من أجلنا! فرديناند! أتوسل إليك! قل لهؤلاء السادة! هل تريد؟... هلم إلي، واتل صلاتك! تعال بسرعة!... تعال إلى هنا! هذا صحيح أليس كذلك؟.... باسم الأب! والابن! والروح القدس! أنت تعرف هذه الصلاة يا فرديناند؟ أنت تعرف كيف تصلي؟...

كان الرعب قد استحوذ عليها.. فجحظت عيناها، وغشيهما البياص..

ـ أنت لا تعرفها؟.. ولكن بلى أنت تعرفها!... إغفر لنا خطايانا!... هيا لنصل معاً! هنا! هكذا! سأستغفر لك!... هيا!... كرر ما أقوله! تباً لك! أيها الخاطئ الصغير!...

وهوت علي حينئذ بصفعة مدوية!... فانفجر الآخرون في ضحكة مجلجلة حتى كلَّت خواصرهم..

ـ آه! آه! أنت تعرفها جيداً إذن!... كان يصعد يا سيدي المهندس، كان يصعد، وكان ذلك سحرياً!... انتبهوا، إلى 1800م!... صعدت معه في كل مكان.. نعم!... صعدت!... يمكنكم أن تصدقوني الآن!... تلك هي الحقيقة كاملة!... أقسم على ذلك! أقسم على ذلك!... وحاولت أن ترسم بيدها إشارة الصليب!... فلم تستطع إكمالها.. كانت مخبلة داخل أسمالها..

ـ وسط الهيدروجين! وسط الهيدروجين! يا سادتي الأعزاء!... يمكنكم أن تسالوا من تشاؤون!... ليس هذا كذباً!... ثم ركعت بالقرب من الجثة، وألقت بنفسها فوقها.. وأخذ تتوسل.

ـ يا عزيزي التعس!... يا حبيبي التعس!... ما عاد أحد يصدقك الآن. آه! هذا فظيع جداً! ما عاد أحد يريد أن يصدقك!... ما عدت أعرف كيف أقول لهم؟... ما عدت أعرف ماذا أفعل؟ لا أعرف كم مرة صعد؟ ما عدت أعرف كم! أنا المرأة الكريهة!... إنها غلطتي أنا!... إنها غلطتي. أيها السيد المهندس!... آه! نعم! آه! نعم! أنا من ارتكب كلَّ هذا الخطأ!... ارتكبت بحقه كل الأخطاء! صعد مئتي مرة!... مئة مرة!... ما عدت أتذكر يا حبيبي!... مئتي مرة!... ست.. ستمائة مرة!... ما عدت أعرف!... ما عدت أعرف شيئاً!... هذا فظيع!... أيها السيد المهندس!... ثلاثمئة!... بل أكثر! أكثر بكثير!...

لا أعرف!... كانت تضمه داخل الغلاف المطاطي!... وقد تشنجت تماماً فوقه.. «كورتيال! كورتيال! ما عدت أعرف شيئاً..» كانت تضغط على حنجرتها بقوة، وتحرث رأسها بأصابعها..، وتنتف خصلاً من شعرها، وقد بلغ هياجها كل مبلغ، متمرغة بالأرض.. ثم عادت تنبش ذاكرتها من جديد..

ـ ثلاثمئة!... عشرة آلاف! يا يسوع! خمسة عشر!... 1800م! يا يسوع! وأنت يا فرديناند! ألا يمكنك أن تقول شيئاً؟... هذا صعب جداً!... تباً!... وضاعت من جديد وسط الأرقام.

«يا سادتي الضباط!... يا فرديناند!... يا سادتي الضباط!» صارت تخاطبهم على هذا النحو «قسماً بالسماء! هو ذاك، لقد عرفت الآن!»... ونهضت معتمدة على مرفقيها... «مئتان واثنتان وعشرون مرة!... هو ذاك!... مئتان واثنتان وعشرون مرة!» ثم انهارت ثانية على الأرض.. «تباً! لم أعد أعرف شيئاً!... حياتي! حياتي!..» كان حرياً أن ينهضها رجال الدرك.. قادوها إلى المستودع.. أغلقوا عليها الباب. وحين صارت وحيدة على هذا النحو، استسلمت رويداً رويداً.. بل إنها هجعت.. وفيما بعد، دخلت برفقة الدرك لرؤيتها، فعادت تحدثنا من جديد، ولكن على نحو متعقل. ما عادت ملتاثة على الإطلاق.

* * *

لبثنا ننتظر طوال ساعات الصباح.. ظلت العجوز هاجعة في فراشها القشي.. تغط غطيطاً عالياً.. جاء رجال المحكمة حوالي الظهيرة... وفي مقدمتهم قاضي التحقيق الذي بدا ضخماً متدثراً جيداً بالفرو.. كان يزأزئ (يلفظ الجيم زاياً) وسط نفثات البخار

المنطلقة من فمه، ويعطس، وينخرط بين الحين والآخر في نوبات سعال حادة.. نزل من عربته مع موظف آخر، أصهب، يعتمر قبعة تغوص حتى عينيه.. إنه طبيبه الشرعي. عرفه رجال الدرك على الفور كان البرد شديداً حقاً.. لم يكونوا قد تدفؤوا في أي مكان.. كانوا قادمين من محطة بيرسان..

ـ أحضروهما إذن إلى هنا.. أمر القاضي رجال الدرك، ما إن وطئت قدماه الأرض... أحضروهما إلى الغرفة الكبيرة! أحضروهما معاً! المرأة والصبي! سنرى الجثة فيما بعد!.. لا أحد يحركها؟... أين وضعتموها؟... أحضروا لي أيضاً أدوات الجريمة؟.. ماذا كان هناك؟... بندقية؟... والشهود؟... هل هناك شهود؟...

بعد مرور دقائق وصلت عربتان أيضاً.. إحداهما مكتظة برجال البوليس والشرطة المدنية.. والأخرى، وهي عربة كبيرة مفتوحة الجانبين، محشوة بالصحفيين.. انتشر هؤلاء، على الفور في كل أرجاء المزرعة.. وفي الداخل.. وفي الأنحاء المجاورة.. كان هؤلاء الصحفيون أشد إزعاجاً من الفلاحين، يكتنفهم الهياج على الأخص!.. وقد وافتني رعدة شديدة تحت وميض مغنزيوم كاميراتهم حينما كان عليهم أن يلتقطوا صوراً لوجهي، ولوجه العجوز أيضاً، في كل أوضاعه الجانبية!... لم تعد تعرف كيف تخفي نفسها عن الأنظار!... كانت مجبرة على البقاء هناك، بين شرطيين إثنين.. ولكن لم يعد بإمكان أحد التحرك لفرط ما غدا الحشد متراصاً.. واعترى النائب العام سخط شديد! كان الحشد يتدافع حوله، ومن فوقه!... فأصدر الأمر للشرطة بإخلاء المكان فوراً.. لم يتأخر الشرطة... دحروا الحشد المزدحم، وأوقعوه أرضاً.. وخلا المحيط بسرعة من الناس، وسائر الفناء أيضاً..

كان المزأزئ يشعر بلسعات البـرد، ويرتعد داخل معطفه المفرى. متعجلاً في إنهاء التحقيق، كان هذا بادياً للعيـان. لم يكـن راضـياً عـن شرطة النظام، فيما كان رئيس قلمه يبحث عن ريشة.. بعد أن كـسرت ريشته.. لم تكن جلسة المزأزئ فوق المقعد مريحـة علـى الإطـلاق... وكانت الحجرة رحبة جداً، مشبعة بالرطوبـة، والنـار خامـدة تمامـاً.. كان يقرع كفيه أحدهما بالآخر.. ثم خلع قفازيه كـي يـنفخ عليهمـا... وجعل يمص أصابعه.. فيما غدا أنفه كحجر الجمشت. ثم عاود ارتـداء قفازيه، وراح يلوي مؤخرته.. ويقرع قدميه بالأرض... ولكنه لم يكـن يشعر بالدفء. كان جميع المرائين والمتـزلفين يقفـون أمامـه.. ينفثـون أنفاسهم فوقه، فتتعالى في الفضاء.. فيما كان رئيس قلمه يـنط خلفـه.. لم يكتبوا شيئاً علـى الإطـلاق.. أراد أن يـرى البندقيـة، وطلـب مـن الصحفيين: «صوروا لي إذن هذا السلاح طالما أنكم هنـا!...» ثم قـال للعريف: «إرو لي كل الحكايـة!...» وحينئـذ فـإن الكـبير الكـرش لم يتعاظم مثلما كـان يفعـل أمامنـا! صـار يغمغـم بـالأحرى... لم يكـن يعرف، في الواقع، أي شيء ذي بال... لاحظت ذلـك علـى الفـور.. ثم خرج مع القاضـي.. وذرعـا أرض الفنـاء طـولاً وعرضـاً.. ولمـا أن انتهوا من ثرثرتهم، عادوا إلى الصالة... وجلـس المـزأزئ في مقعـده ثانية.. كنت أنا من توجه إليه الآن بالحديث.. رويت له على الفور كـل شـيء.. كـل مـا كنـت أعرفـه.. لم يكـن يـصغي إلي بانتبـاه: «مـا اسمك؟»...، «فرديناند، مواليد غوربفوا» «عمرك؟»... فقلت له كـم عمري «ووالداك ماذا يعملان؟» فقلت له أيضاً.. «حسناً! إبق هنا.. قال لي.. وأنت؟...» كان ذلك دور العجوز.

- إحك لي قصتك، وعجلي، على الأخص.. ونهض مـن مقعـده.. لم يشأ أن يظل جالساً.. كان سارحاً بأفكـاره في كـل اتجـاه.. مـا عـاد

يحس قط بـرجليه.. عبثاً كـان يـضرب بهمـا الأرض.. كانـت الأرض ثلاجة تحته!... ولا سيما أرضنا الشديدة الرطوبة..

ـ آه! دكتور! توجه إلى طبيبـه الـشرعي.. قـدماي إذن!.. لم يـشعل أحد النار هنا في يوم من الأيام؟ ما عاد لديهم حطب علـى الإطـلاق.. رجال الدرك أوقـدوه كلـه!... كـان يقـاطع علـى هـذا النحـو حكايـة العجوز...

ـ آه! أرى بوضوح، بأنكم لا تعرفون شـيئاً ذا قيمـة! بـئس الأمـر! بئس الأمر! سنرى كل هذا فيما بعد!... سنرى ذلك في بوفي!.. هيـا! هيا! فلنذهب!.. هل شاهدت الجثة يا دكتور؟ هيه؟ إذن ماذا تقـول في الأمر؟ هيه؟ وخرج الاثنان كلاهما.. تداولا في المطـبخ لحظـة.. غابـا ربما عشر دقائق.. ثم عادا..

ـ تماما! قال المزأزئ.. أنت! الزوجة!.. زوجـة كورتيـال! لا! دي بيريـري!.. لا؟ تبـاً!.. أنـت حـرة مؤقتـاً! ولكـن ينبغـي أن تـأتي إلى بوفي!.. رئيس قلمي سيحدد لك موعداً !.. سأرسل مـن ينقـل الجثـة غداً.. ثم توجه إلى الصحفيين قائلاً: هذا انتحـار، كمـا يبـدو! ولكننـا سنرى بعد التشريح... ربما ستكونين حرة كلياً!.. أخـيراً سـنرى.. أمـا أنت! كان يقـصدني أنـا.. فيمكنـك أن تـذهب!.. يمكنـك أن ترحـل! ينبغي أن تعود حالاً إلى بيتك! إلى والديك!.. ستعطي عنوانـك لقلـم المحكمـة!.. إذا احتجتـك، سأسـتدعيك! تمـام! هيـا! هيـا! أيهـا العريف! ستترك هنا دركياً، ألـيس كـذلك؟... دركيـاً واحـداً! حتـى صباح الغـد! إلى أن تـصل عربـة الإسـعاف! هيـا! بـسرعة يـا رئـيس القلم!.. هيا! هل انتـهيتم أيهـا الـصحفيون؟ ليخـرج مـن هنـا جميـع المراسلين!.. لا يبقين أحد هنا سوى العائلـة والـدركي! هـو ذا الأمـر أيها الدرك! لن تدعوا أحداً يدخل في الليل، هيـه؟ أو يلمـس الجثـة!

أو يخرج من هنا! هذا مفهوم؟ فهمتم كل شيء؟.. حسناً!.. هيا! لا أحد!.. لا أحد! هيا! إلى العربة، يا دكتور!..

كان ما يزال يضرب نعليه بالأرض، ويتململ أمام عربته اللاندو.. ما عاد يتحمل البقاء لحظة!.. لقد أشفى على الهلاك من البرد، على الرغم من دثاره الفضفاض، ومن جلد المعزاة السميك الذي رفعه حتى حاجبيه.. حتى قبعته المدورة!.. وحينما وضع قدمه على المرقاة صاح:

ـ أيها الحوذي! أيها الحوذي! أنت تسمعني! أليس كذلك؟ انطلق بسرعة!.. ستتوقف بنا في سير دانس! أمام مكتب التبوغ! الواقع إلى اليسار!... بعد المعبر المرتفع! أنت تعرفه جيداً؟... آه! دكتور! لقد انتابتني قشعريرة ما عرفتها طيلة حياتي؟... بردت لشهر كامل من دون ريب! وأكثر!... أكثر من كل الشتاء الماضي!.. آه !... لا أدري ماذا أفعل للحصول على كوب شراب ساخن! أنت تعرف!.. كادوا يزهقون روحي في تلك الغرفة!... هل رأيت تلك الثلاجة؟... هذا مستحيل!... لو جلسنا في الخارج لكان الوضع أفضل!... هذا لا يصدق! آه! ولكن هذا سيحفظ الجثة!...

ثم أخرج رأسه من تحت معطفه الثقيل في اللحظة التي أقلعت فيها العربة.. وألقى نظرة شاملة على المزرعة.. كانت عربة الدرك في المقدمة!.. سِطْ الجياد أيها الحوذي.. وانطلقوا كالإعصار شطر بيرسان.. لم يلبث رجال الشرطة، ورئيس القلم، والموظفون المدنيون كثيراً! انسلوا خلف النائب العام بعد مرور خمس دقائق.. عاد الصحفيون... صوروا أيضاً بضع صور... كان أولئك الوقحون يعرفون كل شيء! آه! كانوا متحررين تماماً.. يعرفون جيداً كل الخفايا..

ـ هيا! هيا! قالوا لنا.. لا تقلقوا بالمرة... من الواضح أنه لا يد لكم في الأمر!.. كل هذا ليس سوى إجراءات إدارية! شكليات تافهة! من أجل المظاهر فقط! ينبغي أن لا تقلقوا! سيخلوا سبيلكم في الحال!. ليست هذه سوى مراسم! كانت العجوز حزينة مع ذلك..

ـ نحن نعرفه جيداً!.. ليست هذه هي المرة التي نراه يحقق!.. لو كان لديه شكوك حقيقية لبقي وقتاً أطول بكثير! ولكان صلباً مثل رصاصة! كان سيقودكما كلاكما إلى السجن!... آه! ما كان ليتردد حينئذ! نحن نعرفه مع ذلك! ظِلٌّ من شبهة فقط! ومن ثم هوب، وسيحوم فوقكما مثل طير جارح! آه! إذن، كان هذا مؤكداً لا جدال فيه! آه! كم هو مخيف حين يلوح ظِلٌّ من شك! آه! إنه لا يحلّق وسط الغيوم... آه! داهية حقيقي! آه! ليس ثمة مزاح معه!.

ـ إذن، أنتم أيها السادة، أنتم متأكدون بأنه لن يعود؟... وأن هذا ليس فقط بسبب البرد؟ ربما رحل بسبب البرد؟..

ـ آه! ولكن عينيه لا تبردان! آه! يمكنكم أن تكونوا مطمئنين! لكن هذا ليس سوى مزاح! آه! على رسلكم! فأنا ما عدت أدهش قط! إنه يأتي لأقل شبهة!... إذن! هيه! كانوا جميعاً مجمعين على هذا الرأي...

صعدوا إلى عربتهم.. كانوا يتحدثون عن النساء.. كان ينبغي أن ينطلقوا بهدوء.. فقد كانت محاور العربة تطقطق.. كان عددهم أكبر من أن تتحمل العربة.. تكوموا فوق بعضهم.. كان هناك اثنان منهم قدما خصيصاً من باريس... وقد أسفا كثيراً على هذه الرحلة.. ولفرط ما لاحقتهم العجوز بأسئلتها فقد انتهوا إلى الغناء في جوقة واحدة، وعلى نحو موقع:

«ليست هذه جريمة!... بوب! بوب! بوب!.

«ليست هذه جريمة!... بوب! بوب! بوب!.

داقين أعقابهم، على هذا النحو فوق الأرضية الخشبية حتى كادوا أن يحطموها.. كانوا، في المحصلة يضحكون بانشراح، وينشدون أشعاراً خليعة، ثم رحلوا باتجاه قصر دوبانلوب!.

***

سرعان ما وجد الدركي الذي بقي معنا، كوخاً آخر في الضيعة، خاوياً تماماً، قريباً من منهل الماء، حيث كان بإمكانه أن يورد حصانه. لقد فضَّل ذلك المكان على مزرعتنا.. كان اصطبلنا ركاماً من الأنقاض.. يرشح سقفه بالمطر، وتجوبه تيارات الريح الصافرة مثل جوقة من الأورغات!.. كان حصانه يعاني الأهوال داخله، فلا ينفك يتمايل ويترنح على قوائمه من لسعات البرد. لهذا قاده إلى مكان آخر.. ولكنه ما لبث أن عاد إلينا.. ربما قبل ساعة من العشاء.. كان يريد أن يقول لنا شيئاً..

- أصغيا إلي كليكما! أيها الصعلوكان! بوسعكما أن تظلا هادئين هنا؟ ينبغي علي الذهاب إلى توسن!.. كانت هذه ضيعة بعيدة قليلاً، على الطرف الآخر من غابة بيرلوت.. لا بد لي من التماس بعض الشوفان لحصاني، لم يعد لدي منه حبة واحدة في خرجي! أخت زوجتي مقيمة هناك.. إنها موظفة في مكتب البريد.. سأظل عندها ربما حتى موعد العشاء.. سأعود بعد ذلك بقليل.. ولكن ليس بعد الساعة العاشرة!.. إذن! فأنتما لن تقوما بأية حماقة، هيه! ما عاد لدي حبة من الشوفان!.. ثم إنني سأذهب مع حصاني.. لقد سقطت حذوته أثناء المسير، لذا فإنني سأمر على البيطري.. وأعود راكباً.. سأعود هكذا

بنحو أسرع.. إذن هذا مفهوم؟ هيه؟ لن تدعوا أحداً يدخل هنا؟.. كان هذا مفهوماً، بالطبع.. فهو لم يكن ليضجر نفسه بالبقاء معنا.. كان ذاهباً ليملأ معدته بالطعام الشهي.. «ريح طيبة» قلنا له... اجتاز المزرعة يجر حصانه خلفه.. ثم رأيته يبتعد.. كان الليل قد لف الكون ببردته السوداء..

بقينا كلانا أنا والعجوز، وجهاً لوجه، لم ينبس أي منا بكلمة.. كنت أنتظر أن يعم الظلام كي أخرج.. لأجمع بعض الحطب.. انطلقت بسرعة.. انتزعت من حباك المزرعة ثلاثة ألواح خشبية دفعة واحدة.. قطعتها إلى قطع صغيرة.. ولكنها كانت تدخن مع ذلك.. كان الجو شديد الرطوبة.. جلست أنا والعجوز حول النار.. كنت مغتبطاً لأننا نلنا قليلاً من الدفء.. لم يكن ذلك باذخاً! كان علينا أن نغلق عيوننا، بسبب الدخان الذي كان يخزها بقسوة.. كانت قد استعادت رشدها تماماً بعد تلك الحفلة.. ولكن لشد ما كانت قلقة!.

ـ هل تصدق أنت؟ بأن الدرك لن يكلموننا ثانية؟ ألا تعتقد بأنهم يخفون مكيدة ما؟... كانت تسألني.. أنت سمعتهم مع ذلك، كيف كانوا يثيرون الشكوك حولنا؟ جميعهم! لا ريب أنك رأيت ذلك من الوهلة الأولى.. هكذا فجأة!.. آه! ما قولك في أنها خدعة حقيرة! هيا إذن! آه!.

ـ أي درك؟...

ـ ولكن نعم! الدرك.

ـ أوه! العريف، ليس هذا سوى فلاح فظ!.. ألم تري كيف فقد القدرة على الكلام! وبدأ يتلعثم! أمام المحققين؟.. لقد امحى أمامهم!.. ما عاد يعرف أين هو! ما عاد لديه كلمة يقولها!.. لم ير أي

شيء ذلك الثؤلول! ماذا كان سيقول إذن؟... الصحفيون قالوا هذا بوضوح.. رأيت بعينك مع ذلك!.. فهؤلاء كانوا سيلاحظون.. إنهم يعرفون كل الحكاية.. كانوا سيخبروننا بالتأكيد.. فهم لا يحبون النائب العام... لم يكن هناك سوى تخمينات.. ثرثرات فارغة! ولا شيء آخر.. ما كانوا ليفرنقعوا هكذا مثل ضرطة.. لو كانوا يفكرون باحتجازنا! آه! لا إذن!.. ليس ثمة خطأ.. كان سيبقى هنا جميع رجال الدرك! ولكن هذا واضح كل الوضوح، هيا!... أما سمعت المزأزئ نفسه! حينما خرج؟ ماذا قال للآخرين!... «ما جرى إنما هو انتحار!» ذلك كل شيء! ليس هذا خافياً!.. الطبيب أيضاً رأى ذلك!.. لقد سمعته حين كان يقول للشرطي الصغير: «الطلقة يا صديقي، من الأسفل إلى الأعلى! من الأسفل إلى الأعلى!...» كان هذا واضحاً! إنه لا يمزح!... هو ذاك!... لا ضرورة لاختلاق الأوهام!... هذا كاف مع ذلك!.

- آه! في الواقع، أنت على حق!... أجابتني بكل هدوء.. ولكنها ظلت متشككة.. لم تكن واثقة تماماً.

- كيف سيدفنونه؟.. سيشرحونه أولاً؟ وبعد ذلك؟ لماذا يفعلون ذلك هيه؟.. أليس لديك فكرة؟.. لا بد أنهم يبحثون أيضاً عن شيء ما؟..

- هذا ما لا أستطيع أن أجيبك عليه..

- كم أرغب لو أنهم يدفنونه في مونترتو.. ولكن هذا بعيد جداً الآن.. ما داموا سيذهبون به إلى بوفي.. سيدفنونه هناك إذن؟ كم أود أن أقيم له قداساً.. سأطلب منهم ذلك.. هل تعتقد بأنهم يقبلون؟... وهذا أيضاً لم أكن أعرف عنه شيئاً.

ـ أسأل نفسي، ما الذي سيكلّفه قداس صغير في بوفي؟.. داخل كنيسة صغيرة، ببساطة!.. من أدنى درجة، على سبيل المثال؟ ليس هذا مكلِّفاً بالتأكيد.. أنت تعلم.. لم يكن هو نفسه متديناً، ولكن في النهاية مع ذلك.. لقد عذبوه بما يكفي! قليل من الاحترام لن يكون سيئاً.. ترى، ماذا سيفعلون به أيضاً؟.. ألا يكفي إذن ما رأوه هكذا بأعينهم؟ ليس هناك أي أذى في جسده، الرجل الشقي!... ما دام كل شيء كان في رأسه.. هذا مرئي من الوهلة الأولى، يا إلهي.. هذا رهيب جداً!... عادت ثانية إلى النحيب...

ـ آه! يا فرديناند يا رجلي الصغير الطيب!... حينما أتخيل كيف أمكنهم أن يعتقدوا ذلك!.. آه!.. ومن ثم فأنت تعلم.. الأمر سيان بالنسبة إلي!.. الآن.. ولكن بالنسبة إليك؟ هل تظن بأن هذا قد انتهى؟.. أنت، يا صغيري البائس، ليس الأمر نفسه بالنسبة إليك.. ينبغي أن تدافع عن نفسك! فالحياة ما تزال أمامك!... أنت لست مثلي!... وليس لك يد في كل هذا.. على العكس!.. على العكس يا إلهي!.. ينبغي عليهم أن لا يضايقوك أبداً.. هل تأتي معي إلى بوفي؟..

ـ إذا تمكنت.. فسأذهب.. ولكنني لا أستطيع.. ليس لدي ما أفعله في بوفي!.. فقد قال لي ذلك المزأزئ نفسه: «عد إلى والديك..» كررها مرتين.

ـ أوه! إذن، دعك من الحماقات!... اذهب يا صغيري! اذهب إلى والديك. ما الذي ستفعله حين تصل؟.. هل ستبحث لنفسك عن شيء ما؟..

ـ ولكن، نعم!..

ـ أنا أيضاً! علي أن أبحث.. يعني.. إذا تركوني أذهب بسبيلي.. آه! يا فرديناند!.. بينما أنا أفكر في هذا!.. وبدا كما لو أن خاطراً خطر لها فجأة.. تعال من هنا.. سأريك شيئاً!... قادتني إلى المطبخ.. صعدت فوق المقعد الصغير، واختفت حتى حزامها خلف السل الكبير.. نبشت في إحدى الزوايا.. زحزحت الأجرة الضخمة.. فتساقط السخام الأسود في كل مكان.. هزت حجراً آخر أيضاً، فتقلقل، وتزحزح من مطرحه.. انتزعته.. وأخرجت من ثقب في الجدار أوراقاً نقدية.. وقطعاً من النقود أيضاً.. لم يكن لدي علم بهذا المخبأ.. ولا كورتيال أيضاً بالتأكيد.. كان هناك ما يعادل مئة وخمسين فرنكاً، وبضع قطع من فئة الخمسة فرنكات.. دست في يدي، على الفور، ورقة من فئة الخمسين فرنكاً.. واحتفظت بالباقي..

ـ سآخذ أنا المئة فرنك، والقطع النقدية الصغيرة.. هيه؟.. هذا سيغطي نفقات سفري، وربما نفقات الكنيسة أيضاً إذا ما مكثت هناك خمسة أو ستة أيام. لن يستمر هذا، على الأرجح، زمناً أطول؟.. سيكون لدي ما يكفيني!... ألا تعتقد ذلك؟.. وأنت؟ أليس معك عناوينك أيضاً.. أنت تتذكر ولا ريب جميع عناوين أهلك؟..

ـ سأذهب تواً لرؤية صاحب المطبعة.. أجبتها.. أفضّل أن أبحث هناك عن عمل..

قامت إلى الشق ونبشت فيه ثانية، وأخرجت منه أيضاً لويسية (ليرة ذهبية فرنسية تعادل عشرين فرنكاً)، وقدمتها لي.. ثم عادت إلى الحديث عن كورتيال.. ولكن من دون انفعال على الإطلاق..

ـ آه! أنت تعلم يا صغيري فرديناند!... كلما أفكر به.. أتذكر المحبة التي كان يكنّها لك.. لم يكن يظهرها بالتأكيد!.. أنت تعرف

هذا أيضاً.. لم يكن هذا نسيجه.. طبيعته... لم يكن منفتحاً!.. ولا مداهناً!.. أنت تعرفه جيداً.. ولكنه كان يفكر بك دائماً.. حتى في أحلك الأوقات.. لقد كرر لي ذلك مراراً!.. قبل ثمانية أيام فقط!.. «فرديناند.. أنت تعلمين يا إيرين، إنه طبيعة نقية، إنني أثق به ثقة مطلقة.. لن يسبب لنا في يوم من الأيام أي تكدير!... إنه شاب! نزق! ولكنه فتى صادق!.. لم يخلف وعده قط!.. وهذا يا إيرين! هذا نادر في أيامنا!...» وأضافت أيضاً: «آه! كان يقدرك تقديراً رفيعاً!.. كان أكثر إخلاصاً من صديق!.. هيا! أؤكد لك... ومع ذلك، يا للرجل الشقي! كان لا بد له من أن تساوره الشكوك!.. فقد عاش العديد من الخيبات!.. وكيف خدع! بمئة ألف طريقة! وكل طريقة شائنة أكثر من الأخرى!.. وإذن، كان يحق له أن يكون خشناً!.. ولكنه ما تكلم يوماً كلمة سيئة بحقك! ما شعر يوماً بمرارة تجاهك!.. كان يثني عليك دائماً.. لشد ما كان يريد أن يدللك.. ولكنه لم يستطع! كانت حياته بالغة القسوة... ولكنه طالما قال لي، حينما كان يحدثني عن أي شيء.. «انتظري قليلاً!.. صبراً!.. سأجعل هذا المساعد الشاب يتفوق على جميع أقرانه ويجمع ثروة كبيرة..» آه! لقد استطاع أن يفهمك حق الفهم.. وأنت تعلم كم كان يؤثرك ويحبك..

ـ أنا أيضاً، يا سيدتي، أنا أيضاً!..

ـ أعلم! أعلم يا فرديناند!.. ولكن الأمر ليس نفسه.. فأنت ما تزال فتياً لحسن الحظ!.. ما من شيء يفطر القلب حزناً في مثل عمرك! أنت الآن، تبني حياتك.. ليس ذلك سوى بداية.. يصعب عليك فهم ما أقول..

- كان يحبك أنت أيضاً.. قلت لها.. كثيراً ما حدثني عن ذلك.. لشد ما كان متعلقاً بك، من دون وجودك إلى جانبه لم يكن شيئاً.. لم يكن له أي وجود.. «أنت ترى زوجتي جيداً؟ كان يقول لي..» كنت أبالغ قليلاً.. كي أدخل في قلبها العزاء والسلوان، فعلت كل ما بوسعي.. حينئذ انهمرت دموعها من جديد..

- لا تبكي، يا سيدتي! ليست الساعة ساعة بكاء الآن.. خليق بك أن تتصلبي، فأنت لمَّا تنتهي بعد!.. هناك، في بوفي.. سيكون عليك أن تتكلمي.. ربما سيتحتم عليك أن تدافعي عن نفسك! سيتضايقون حينما يرونك تبكي.. رأيت ذلك بعينيك!.. وأنا أيضاً سيكون علي أن أدافع عن نفسي.. أنت قلت ذلك بلسانك..

- نعم! أنت على حق يا فرديناند! هئ! هئ! نعم هذا صحيح.. أنا ملتاثة يا فرديناند.. لست سوى عجوز مجنونة!.. حاولت أن تقاوم دموعها.. ومسحت مآقيها..

- ولكن أنت! أنت تعلم، كان يحبك كثيراً.. آه! أؤكد لك ذلك يا فرديناند... لا أقول هذا لأدخل السرور في قلبك.. كنت تعرفه بالتأكيد، أليس كذلك؟ كنت تعرف جيداً دخيلة قلبه.. على الرغم من أنه كان قاسياً أحياناً.. صعباً في تعامله معنا...

- نعم! نعم! كنت أعرف، يا سيدتي!..

- والآن، وقد قتل نفسه على هذا النحو.. لكم هذا مريع! هل تصدق أنت؟.. أنا لا أصدق ذلك!... هذا لا يصدق!.. لم تكن تستطيع أن تكف عن استفظاع ما حدث..

- فرديناند! عاودت من جديد.. فرديناند! أصغ إلي!.. بحثت عن الكلمات المناسبة.. فلم توافها أية كلمة.. آه! نعم!... كان لديه

ثقة يا فرديناند!.. أنا واثقة.. وأنت تعرفه أليس كذلك؟ لم يعد يصدِّق أحداً..

لم يكن حطبنا يلتهب بأي صورة من الصور.. اجتاح دخانه الغرفة بكاملها.. كان يطقطق، وتتطاير منه شرارات في الفضاء.. ثم خمدت نارنا بعد ذلك.. قلت للعجوز.. «سأذهب للبحث عن أي شيء يشتعل!». كنت سأتوجه إلى الهري، فربما وجدت هناك حزمة عيدان جافة.. قررت أن أنتزع قليلاً من العيدان من الحاجز المعرش.. انحرفت قليلاً باتجاه الفناء.. التفت خلال مروري باتجاه البئر، مددت نظري بعيداً صوب الأرض المنبسطة.. لاحظت شيئاً يتحرك.. خيل إلي بأنه شخص معتوه.. «من غير الممكن أن يكون الدركي؟.. فهو لن يعود بهذه السرعة؟.. ذلك ما كنت أفكر به! ولكن هذا بطيء الحركة.. شخص يقوم بغزوة إلى المزرعة.. قلت لنفسي..» «هيه هناك! هيه هناك! صحت به.. ما الذي تبحث عنه أيها المعتوه؟...» لم يجب بشيء.. ثم ولّى هارباً.. استدرت فجأة على أعقابي.. لن أذهب باتجاه الهري.. استقر في وهمي أن ثمة أمراً مريباً يحدث هنا.. وقلت لنفسي: «سحقاً! سحقا! تراجع يا توتو..» انتزعت بسرعة بعض العيدان من السياج.. «هذا يكفي».. قلت لنفسي.. و انطلقت عائداً بسرعة.. سألت العجوز:

- هل رأيت أحداً.

- ولكن لا!.. ولكن لا!.. قالت لي.

حينئذ، وفي تلك اللحظة ذاتها، رأيت بوضوح ومن خلال زجاج النافذة المقابلة، على مسافة خطوتين وجهاً يحدق بي.. رأساً ضخماً.. رأيت قبعته أيضاً.. وشفتيه وهما تتحركان.. ولكنني لم

أتمكن من سماع كلماته.. اقتربت حاملاً شمعة بيدي.. فتحت النافذة الكبيرة، لأفاجئه متلبساً.. كان شجاعا!.. عرفته حينئذ على الفور!.. ولكن هذا كاهننا قسماً بالرب!.. إنه فلوري المهبول!.. بوجه الضبط!.. اللعنة!.. كيف وصل إلى هنا؟.. ومن أين جاء!.. كان يغمغم لي.. ويقذف في وجهي رشاشاً من اللعاب. كان يومئ ويؤشر!.. مفعماً بالسعادة لعثوره علينا جميعاً!.. على أصدقائه!.. أخوته!.. تسلق مصراع النافذة الصغيرة.. وها هو ذا بشحمه ولحمه داخل الغرفة.. طافحاً بالبشر!.. ينط!.. ويحجل حول الطاولة.. ما عادت العجوز تتذكر وجهه، ولا اسمه، ولا الظروف التي جمعتنا به!.. هفوة صغيرة من هفوات الذاكرة...

- إنه فلوري!... هيا! إنه فلوري!... فلوري جهاز الغوص! ألا ترينه؟... انظري جيداً!...

- آه! ولكن هذا صحيح وأيّم الحق.. آه! ولكن نعم، إنه هو بوجه الضبط!... آه! سيدي الخوري!... آه! اعذرني! آه! إذن فأنت علمت؟ آه! ولكن نعم إنه أنت!.. آه! ولكنني غدوت مجنونة!... آه أنا أتذكرك الآن!. آه! لم أكن أتذكرك!... ألم تعلم بالكارثة الفظيعة؟...

لم يكن هو ليتوقف لحظة!... استمر يقفز! ويحجل! ويرقّص ساقيه!... دون أن يولينا أي انتباه.. كان يدور دورة كبيرة! ثم يقوم بقفزات صغيرة!... ثم ما يلبث أن يتراجع بضع خطوات إلى الخلف.. وثب فوق الطاولة.. وهو يرتعص باستمرار... ونزل بعدئذ بقفزة واحدة... كان طيلسانه ممرغاً، مدرعاً بالروث والوحول... حتى إبطيه... حتى أذنيه!.. آه! أجل! كان هو بالتأكيد، الشخص

الذي لمحته قبل لحظات في الحقل!.. وأخاف كلٌّ منا الآخر!... آه! كان مزودا بعتاد غريب عجيب!... رحل ثقيل معلق فوق ظهره... عدة جندي كاملة.. مع مزودتين! ومطرتين! وثلاث قصعات بالإضافة إلى بوق صيد، عظيم الحجم، لطيف الشكل، معلق على كتفه بحمالة! كل هذا كان يقعقع مع كل حركة من حركاته.. لم يتوقف لحظة!... كانت قبعته هي التي تضايقه أكثر.. تهوي كالمجداف فوق عينيه... ثم تشمخ مثل نخلة عظيمة فوق رأسه.. ومن ثم فقد كان الرجل مزينا أجمل زينة.. كان طيلسانه مزداناً بالرتب والميداليات... وبالعديد من أوسمة جوقة الشرف... وكل هذا كان معجوناً بالأقذار، إضافة إلى صليب ثقيل، يسوع من العاج، يهتز يمنة ويسرة في طرف سلسلة كبيرة... ولفرط ما كان كاهننا الجميل مغسولاً بالعرق، كان يقطر في كل مكان من أرض الغرفة... على غرار مرشة متحركة... كان طيلسانه مشقوقاً من الظهر، من أعلاه إلى أسفله، والأشواك ما تزال عالقة به.

ما عادت العجوز راغبة في رؤيته يتحرك على هذا النحو... كانت تريد أيضاً أن تقنعه بالجلوس... كان لديها لهفة شديدة بأن يهدأ.. أشرت لها بإشارات بأن لا تزعجه!... وأنه سيهدأ ربما وحده!... وأنه ما من ضرورة لتهييجه أكثر.. ولكنها لم تشأ أن تسمعني... كانت مسرورة برؤيته من جديد.. وحاولت إيقافه وتثبيته في الزوايا الصغيرة... فكان يزمجر مثل وحش ضار... ويصدم نفسه بالجدار فجأة، منكساً رأسه، مستعداً للهجوم.. لم يعد يصغي إليها... كان يضغط بأصابعه فوق فمه، ويوصيها بالسكوت... «شوت! شوت!» ويلقي نظرات شزراء حوله!.. متابعاً حركاته.

ـ أنت لا تعلم، يا سيدي الكاهن؟ أرى بأنك لا تعلم!.. آه! لو أمكنك أن ترى!... لو كنت تعرف ما حدث!...

ـ شوت! شوت!...السيد دي بيريري؟... السيد دي بيريري؟ كان هو الآن من يسأل... «هيه؟ السيد دي بيريري؟...» أمسكها من كتفيها، وشخر في وجهها، بعنف شديد.. واعترت فمه بكامله عرّة عصبية.. تشنج بعدها... وتمدد على الأرض وهو ينتفض ويرتج...

ـ ولكنه ليس عندي، يا سيدي الخوري!.. ولكن لا!.. إنه ليس عندي! أنت لا تعرف شيئاً إذن؟... إنه ليس هنا، التعس!... لم يعد هنا، الشقي!... هيا!.. ألم نقل ذلك لك؟...

ـ عجلي!... عجلي!... كان يضايقها بشدة!...

ـ ولكنه مات، هيا!.. ما عاد موجوداً!... قلت لك هذا مع ذلك... ولكنها وجدت أمامها شخصاً أشد إصراراً وتصميماً منها...

ـ أريد أن أراه!... أريد أن أراه!... لم يتخل عن فكرته الهوسية.. «هذا جد مستعجل!.... شوت! شوت!... بسرعة! بسرعة...» وعاد إلى الدوران حول الطاولة، على رؤوس أصابع قدميه! نظر فوق، وتحت، وداخل السل الكبير أيضاً... وجد أمامه الخزانتين... انتزع المفاتيح.. خلع الصندوق الخشبي... لوى مفصلاته... كان ساخطاً جداً... ما عاد يطيق المقاومة... كانت عرّته قد قلبت شفته بأكملها!.

- سيدي الخوري!... سيدي الخوري!... لا تفعل هذا!... كانت تحاول إقناعه...

- فرديناند! أتوسل إليك! قل ذلك للسيد الخوري!... أليس كذلك يا صغيري، بأنه مات؟ قل لسيدي الخوري!.. كانت متعلقة بمزودته...

ـ اذهب إذن، وانظر إلى الباب. هذا مكتوب مع ذلك!... أليس هذا صحيحاً يا فرديناند؟... «حظاً سعيداً»... وتمسكت ببوق الصيد!... فراح يجر وراءه... العجوز، والطاولة، والكراسي، والصحون!...

ــ كفى! كفى! وقاحات! أنتما وقحان! كلاكما وقحان!... أريد المدير!... جينترون كورتيال!... ألا تسمعاني؟.. هو وحده!... هل تسمعاني؟... هو يعرف! هو يعرف!.. جينترون! هيا!... أنا أنتظر!... يريد أن يراني حالاً؟... موعد! موعد!.. وأفلت منها هائجاً... فتقهقرت، وارتطمت بالجدار...

ـ كفى! كفى! أريد أن أتحدث معه!.. لن يمنعني أحد!... من يريد أن يمنعني؟... وشمَّر أذيال طيلسانه... وراح ينبش في كل جيوبه.. ثم أخرج أوراقاً صغيرة.. مزقاً، قصاصات صحف...لبث هكذا راكعاً على ركبتيه، في غمرة اضطراب محموم!... زمناً طويلاً، طويلاً! كان يغمغم، ويعيد إحصاء وريقاته واحدة بعد أخرى... يملس تجاعيدها.. ويبسطها من جديد.. ويدعك أوراقاً أخرى، ليحولها إلى كريات...

ـ شوت! شوت!...بدأ من جديد.. لم يعد يريد أن نتحرك من أماكننا. هي ذي!... هذه هي الأصلية!...أليست هذه؟ أنت ترى جيداً!.. المخطوطة الفرعونية الأصلية!... نعم!... ومد لي قبضة من أوراقه...

ـ هي ذي! أيها الصبي!.. وضغط في راحة يدي... كرية من الورق... كريّتان.. السيد المدير! السيد المدير!...

سـحقاً! كـان تلـك الفكـرة تـستحوذ عليـه... ولا ينفـك غـضبه يتفاقم!.. ثم شبَّ بحيوية من جديد... وقفـز فـوق الطاولـة.. كـان مـا يزال يطالب بكورتيال بكل إصرار، وضع بوق الصيد في فمـه، ونفـخ فيه نفخة قوية، فأطلق هديراً مدوياً شق فـضاء الغرفـة.. أعقبـه غـاق، غاق، ثم حشرجات صغيرة!...

ـ سيأتي... إنه ينتظرني!... كرر ذلك عـشر مـرات، عـشرين مـرة متتالية... وما لبث أن تعلّق بثيابي، فسال لعابـه فـوق رأسـي، ونفـث أنفاسه في عيوني... كان يفوح بـرائحة نتنة، الخبيـث... وأخبـرني حينئذ، عبـر فورات متلاحقة كيف وصـل إلينـا... كـان قـد نـزل في فـري ـ كـونتروفيرت، في محطـة «الـديبارتمنتال»، علـى بعـد إثـنين وعشرين كيلو متراً من بليم! كان «الآخـرون» يلاحقونـه، «الآخـرون» أضاف ثانية.. وشدَّ على خناقي كي يثبت لي ذلك...

ـ شوت! شوت!... كرَّر لي ذلك حينئـذ.. الآخـرون الأقويـاء!... أجل! أجل! واستدار إلى النافذة... وحدَّق خارجاً ليتأكد مما إن كانوا قد تبعوه؟... ثم توارى، وشرع يدمـدم، محتميـاً بمـصراع النافـذة.. قفـز ثانيـة.. تفحـص الأركـان والزوايـا حولـه... ثم ذهـب وبـال في الموقد... لم يزرر فتحة سرواله... وعـاد علـى الفـور ليختبـئ خلـف المصراع... لا ريب في أنه كان قـد رأى الأقويـاء.. كـان يحـرِّك فكـه كمن يجتر...ويحشرج مثل خنزير بـري...

ـ آه! آه! قال لي... أبداً... رروواه!...رروواه!.. أبداً!... ثم اسـتدار نحوي.. ومد قبضتيه أمام وجهي... لشد مـا تغـير هـذا الرجـل، منـذ قصرنا الملكي.. لشد ما غـدا عنيفـاً متوحـشاً! كأنمـا كـانوا يطعمونـه العقارب هناك، داخل السجن.. سحقاً! لقـد غـدا بـالغ الـشراسة!...

كمن يسري في عروقة حامض الكبـريت!... ما عـاد يتوقـف!.. ظـل يجول ويجول! ويصطدم بالجدران... يهـدد.. ويتوعـد!... مـا عـدنا نتفوه بكلمة أنا والجدة.. خيم علينا الذهول أخيراً... ولكنه مـا بـرح يلاحقـني... ذلـك الخـوري المخبـول. سـأطرحه أرضـاً بضربة مـن الخلف!... صوبت نظري نحو وتد خشبي جميل مركون بـالقرب مـن النافذة.. كنـا نـستخدمه في تحريـك الجمـر.. ينتـهي بمقـبض معـدني ثقيل... كـان هـذا كـاف لرأسـه... ولكـن سينتهي ذلـك إلى جريمـة أيضاً... أشرت للعجوز أن تبتعد قليلاً... أن تتراجع صـوب الجـدار.. تفوه! كنت أفضل مع ذلك لو أنـه يـصمت... لـو لم أكـن بحاجـة إلى لمسه... تباً، تباً!... لشد ما كان قبيحـاً!.. لـشد مـا كـان مغفـلاً!... فليتوقف عن امتطائنا هذا الوغد القذر... وعن قرع رؤوسـنا بهذيانـه.. لم يصدّق ما رويته له... كان مقتنعاً بأننا نخفيه عنه.. حـتى غـدا ذلـك جحيماً في النهاية!... قلت للعجوز!.

- بئس الأمر! هذا يكفي! هذا المرحاض! سأريه الجثة مع ذلك...

- لا تفعل ذلك، يا فرديناند!... لا تفعل ذلك! أتوسل إليك!...

- بلى! بلى! ربما سيبـرده ذلك... ربمـا سـيدرك الخبيـث حقيقـة الأمر!.. لقد غدا فظاً هذا الفـرج القـذر! إنـه مجنـون... وبعـد ذلـك سنطرده إلى الخارج!... كان ما يزال يتخبط، يصطدم بكل شيء!... كان يرفع الطاولة بأكملها... والتي كانت باهظـة الـوزن والحجـم مع ذلك!... لكم كان قوياً ذلك المتوحش!...

«المدير!... المدير!.. عاود البعاق... أعطيته كل شيء!...» ركـع من جديد على ركبتيه، واحتضن صليبه... وصلب ألـف مـرة.. غارقـاً في حال مـن الـذهول.. ذراعـاه متـدليتان إلى الجـانبين، كمـا لـو أنـه

المسيح المصلوب نفسه!... ثم هب واقفاً كما لو كان مدفوعاً بنابض.. وقف على رؤوس قدميه، ثم مشى ثانية.. عيناه مثبتتان في السقف!... وعاود هذره مجدداً...

كانت تجذبني بشدة، لم تكن تريد أن أريه الآخر... داخل المطبخ... جعلت تشير لي بإشارات: «لا! لا!».. فلننته من هذه الكوميديا... كان كأسي قد طفح...

- تعال من هنا!... أمسكت ببوق صيده... وهوب! قدته كالدابة نحو المطبخ... آه! المنكوح القذر!... لم يعد يصدقنا!...لا!... حسناً!، سيرى الآن بعينيه، الوغد.. كل المجانين سواء.. يفرحون حين نعاكسهم.. هيا! هيا!... هلم يا أبلهي! وهويت على مؤخرته بركلة قوية!... جعلته ينط قليلاً! كان هو الآن من لم يعد يريد!... آه! غدوت الآن شريراً، أنا أيضاً!... كان يتراجع، ويحمحم! فرحت أدفعه دفعاً في نهاية الرواق.

- هوب هيا!... خذي الشمعة يا سيدتي، خذي إذن شمعتين.. حري أن يرى بأم عينيه.. أن يملأ بصره تماماً... ينبغي أن لا يعود إلى إزعاجنا!... وحين وصلنا المطبخ، جثوت على ركبتي... انحنيت نحو الأرض أيضاً.. أريته، هناك تحت أنفه تماماً، الجثة الممددة على الأرض داخل الغلاف المطاطي... يمكنه الآن أن يتأكد بوضوح... وضعت الشمعة الثانية على مسافة قريبة..

- هوذا، هل رأيته جيدا:.. قل أيها الكديش الأبله؟... سوف لن تعود لإزعاجنا؟.. أليس كذلك؟ هذا هو فعلاً؟ أنت تعرفه؟... لا تعرفه؟.. اقترب قليلاً... وشخر.. وبدت عليه علامات الريبة... كان يلهث على امتداد الساقين المتصلبين... ركع على ركبتيه....

وتلا صلاة طويلة... ما عاد يتوقف... ثم التفت... ونظر إلي أيضاً... وعاد إلى صلاته!...

ـ إذن؟ هل رأيته.. قلت له...فهمت مع ذلك، قل أيها المعتوه؟... والآن، هل ستلبث هادئاً؟ وتتصرف بلياقة؟... هل ستذهب الآن لتأخذ قطارك وترحل؟...

ولكنه لم يكف عن النخير، وعن تحسس الجثة أيضاً... جذبته حينئذ من ذراعه... أردت أن أبعده قليلاً... كنت راغباً في إنهاضه.. ووافته حينئذ نوبة من نوبات غضبه، وأهوى على ركبتي بضربة ثقيلة من كوعه... آه! كدت أتقيأ من ألم الضربة! آه! لشد ما آلمني!.. رأيت النجوم في وضح النهار!.. آه! تمالكت نفسي بصعوبة حتى لا أسقط فوقه على الفور... كان هائجاً، السلطعون القذر!... كنت سأسحقه، كومة الأقذار!... ولكن العجوز عارضتني مع ذلك... كانت تعتبر ذلك صادراً عن طيب قلب منه.. عن نوايا حسنة.. كانت تحاول استرضاءه.

ـ رأيت بعينيك، يا سيدي الكاهن! رأيت إذن بوضوح، بأنه قد مات! ... لقد سببت لنا جميعاً الغم والكدر!... هذا ما فعلته!... لم يعد التعس موجوداً بيننا!... وقد منعنا الدركي من ذلك!... لم يكن يريد أن يدخل أحد إلى هنا... وقد وعدناه بذلك! سوف تجعله يعاقبنا!... أنا وفرديناند، ما الذي ستفيده من ذلك؟.. أنت لا تريد أن يعاقبنا بالتأكيد...

في تلك اللحظة، قلت لنفسي: «إيه حسناً! ما دام لا يريد أن يصدقنا بأية صورة من الصور... فسأكشف له عن الرأس كله... ما دام يعتقد، على هذا النحو، بأننا نخفيه عنه!.. بعد ذلك سألقيه

خارجاً!.. آه! هذا لن ينتهي قط!..» رفعت إذن إحدى زوايا الغلاف.. وقربت الشمعة أيضا.. كشفت له عن كل تلك العصيدة الجميلة... تريد أن تشاهد، قل! فلتتأكد بنفسك... جثا على ركبتيه أيضاً كي يرى على نحو أفضل... فكررت له!.

ـ حسنا أيها الأحمق العجوز! هل تأتي الآن؟.. جذبته قليلاً... لم يشأ قط أن يتحرك! عاند بقوة.. رافضاً أن يتزحزح.. وجعل ينخر فوق كومة اللحم... «همم! همم!» كان يهمر كالوحش! آه! ثم تهيج فجأة!... واعترته رعدة قوية...فطفق هيكله كله ينتفض!... أردت حينئذ أن أغطي الرأس!... كان هذا كافياً!... ولكنه جذب الغلاف بشدة.. كأنما ألمَّ به سعار! ما عاد يريد قط أن أرد الغطاء!.. غمس أصابعه داخل الجرح الغائر... ثم دس يديه كلتيهما في اللحم... فغاصتا في كل الثقوب... وشرع ينزع الحواف الرخوة!... وينبش أعمق فأعمق.. حتى اصدمت يده بالعظام!... فأمسكها بقبضته! فطقطقت... وجعل يهزُّ يده ويتخبط كما لو كان عالقاً بفخ... وفيما هو كذلك انفزر نوع من جيب! فاندفق العصير على هيئة رشاش! خليطٍ من الدماغ والدم، انهمر حول الجثة!... واندفع في كل الاتجاهات!... نزع يده حينئذ.. فتلقيت كل تلك الصلصة في وجهي!... حتى لم أعد أرى شيئاً!... أي شيء على الإطلاق!.. صرت أتخبط!... فانطفأت الشمعة!... كان الرأس يرشق باستمرار!.. آه! ينبغي إيقاف ذلك الشلال... ولكني لم أعد أرى شيئاً!.. اندفعت بسرعة... وقد طار صوابي... متحسساً طريقي دون تبصر! اصطدمت به فجأة صدمة قوية... فانقلب الخبيث على قفاه... مرتطماً بالجدار.. بوم! بلاك! أخذتني الحمية!.. كنت سأسحقه.. ولكنني توقفت!... كبحت اندفاعتي، وقفت على الفور!... ثبت إلى رشدي! تباً!...

لا أريد له أن يموت وسط هذا النقيع!... مسحت عيني! استعدت رباطة جأشي!... ينبغي أن يسترد وعيه حالاً، لا أريد أن يظلّ طريحاً على الأرض!... ركلت خاصرتيه بحذائي بضع ركلات!... نهض قليلاً.. هذا أفضل!... أهويت على وجهه بصفعة قوية.. فجعله ذلك ينهض في الحال... وأفرغت العجوز فوق رأسه حوض مائها كله.. وما فيه من ثلج... فجعل يئن ويشكو.. استقامت الأمور أكثر فأكثر!... ولكنه كان مستسلماً حينئذ، لا من يده ولا من رجله!.. آه! الانتفاخ القذر! بفلووك!... تمدد على الأرض!... وجعل يرتعش مثل أرنب...ثم ما عاد يتحرك قط!.. البيضة القذرة!.. آه، لقد فقد تماسكه ووهى كلياً!... ألقيت نظرة سريعة من الباب... ومن ثم نقلناه أنا والعجوز إلى حافة الطريق.. لم نكن راغبين بأن يبقى في غرفتنا.. وأن ينسبوا إلينا الحالة التي آل إليها!... دقيقة واحدة! ونضيع بعدها!.. حين يجده الدركي داخل غرفتنا؟ ومغمى عليه أيضاً!.. وتحت رعايتنا الحانية!... آه! يا لها من نوغا لذيذة حينئذ!... سنغدو بعدها في مهب الريح!.. ينبغي أن لا يعرف أحد أنه كان في الداخل.. ما من أحد رأى، وما من أحد سمع!.. الخلاص! الخلاص! لا رحمة ولا من يرحم!.. آه! إلى الخارج! يحيا الهواء الطلق!.. كان مغمى عليه كلياً!.. ولكنه كان يدمدم قليلاً مع ذلك... وطفق يشخر وسط الوحول، والمطر يهمي فوقه مدراراً.. قفلنا راجعين بسرعة أنا والعجوز.. أرتجنا بابنا بإحكام.. كانت هبات الريح الباردة تتسرب إلينا محملة بالصقيع..

- لم يعد بنا حاجة إلى أن نتحرك!.. وحتى لو نادى!.. فنحن لا نسمع شيئاً!.. حينما يعود الدركي الآخر!.. سنتظاهر بالبلاهة، وهذا كل شيء!.. سنقول بأننا ما رأيناه، وما عرفناه! هو ذا.. ذلك شأنه هو. إذا ما وجده هناك! حسن! فهمت العجوز.. وأقفل الموضوع.

مرت ساعة ربما!... وربما أكثر قليلاً.. انهمكت بترميم أوضاع المطبخ.. بينما كانت العجوز تراقب من زجاج النافذة...

- لا تنظري إلى ما جرى هنا يا سيدتي!.. لا تلتفتي نحوي!... لا تشغلي نفسك بأمور التنظيف!.. راقبي جيداً ما يجري في الخارج!.. سأمدد الجثة ثانية.. وأصلح من وضع المحفة.. إنه ما يزال ينزف بغزارة عبر النسيج المطاطي.. سأجلب قليلاً من العشب اليابس.. وأفرشه حول المحفة.. لا بد من تجفيف برك الدم هنا وهناك!.. سأضع القش تحت الرأس.. على هيئة وسادة سميكة.. ولكن الأمر الأصعب حينئذ كان الرشاش المتطاير!... والذي خلف بقعاً وصلت حتى السقف... وجلطات متخثرة أيضاً، ملتصقة بالجدران!... كان هذا مقززاً حقاً!... حاولت أن أغسل بالماء كل تلك الآثار... ومسحتها بالاسفنجة أيضاً... ولكن ذلك كان يترك علامات يستحيل إزالتها.. تعساً لي!... كان علي أخيراً أن أنتهي من ذلك!... حملت الشموع!... وخرجت!... ثم لبدت بالقرب من العجوز... ورحنا ننتظر معاً.. آه! أي خوف كان يتملكني!... خوف رهيب.. من أن يلاحظ الدركي الآخر؟...أن ينتبه إلى حلبة صراع الثيران في المطبخ؟.. آه! الخيارة الجميلة! كيف سنتصرف؟... لا سيما إذا عثر على الخوري، مغشياً عليه هكذا على قارعة الطريق!... كان هذا ملحقاً إضافياً جميلاً!... ولكن الدركي الحقير لم يعد أبداً... لا شك أن أخت زوجته قد استقبلته بحفاوة وأعدت له اللحم والخضار!... اضطجعنا على الأرض!... وضعنا تحتنا الكثير من القش اليابس... لم أكن أتفوه بكلمة... كنت غارقاً بالتفكير... لن ينتهي هذا الليل أبداً!... لم يكن بمقدوري ألبتة أن أغفو لفرط ما كانت أوصالي ترتجف... لا أتصور أنني شعرت بمثل هذا الرعب في يوم من الأيام.. وعلى حين فجأة، سمعت نفير بوق...

ولكن تباً! إنه بوق الصيد!... كان صوته قادماً من جهة الحقل!... من مكان قريب جداً! قلت لنفسي: «لكنه هو!... آه! البهيمة القذرة!» تعرفت على كل عقعقات بوقه! لقد باشر الهجوم! سيستلمنا من جديد!... آه! المنكوح! آه! الملتاث!... كان يضاعف كل ألوان النعيق! كل عزيف العواصف النكباء!... ببوقه الأبح! كان هذا حسبنا! مع ذلك! كان ينفخ داخله من أعماق روحه!... آه! أية فقمة! آه! لا بد من أن يغدو مضحكاً، كاهن كهذا... آه! يا للمسخرة! آه! أي ضجيج!.. أي جذام قذر!... أي جرو أجرب!... أي مغص!... آه! إنه هو إذن، كنت على يقين!... ومع ذلك، تباً! كان من الأفضل أن يقرقر، ما شاء له ذلك، مهما كان مقززاً!... فتلك علامة على أنه ما زال يتنفس... خليق أن يكون سعيداً!... فهذا دليل على أنه لم يتيبس! آه! القذر! «آه! إبعق! إبعق! تعس حظك!» وأنا أرسل إليك نفخات ونفخات من ترمبوني!... (بوق ذو انبوبين) آه! لقد استعاد أنفاسه!... ما عاد يتوقف أو يستريح!... تايوت! تايووت! آه! بوق النعيق!... أنفخ إذن كما تشاء؟... كان هذا خيراً من أن يفطس!...نعم! ينبغي الاعتراف! سحقاً! ولكن ذلك كان مقززاً، مثل الفواق! مثل مغص في نحاس البوق! آه لشد ما كان يزعجنا، مع ذلك، بمزرابه، رئيس الصيادين بالكلاب ذاك!.. ما عاد يتوقف! ليس أكثر من دقيقة صغيرة! ثم يستأنف على الفور!... ودائماً أكثر! ليس ثمة خطأ ممكن! إنه مهووسنا فعلاً!... واصل تبويقه حتى الساعة السادسة والنصف على الأقل... كان الصباح قد انبلج، حينما سمعنا قرعاً على زجاج نافذتنا.. كان هذا دركينا!... لقد عاد أخيراً... وصل في الوقت المناسب... زعم أنه نام في بليم... بالقرب من حصانه... وأنه لم يتمكن من أن ينعله في توسن... كان الوقت متأخراً جداً... ولم يجد الحداد.

ـ من الذي كان ينفخ بـالبوق إذن في حقلكـم؟ طـوال الليـل!.. ألم تسمعوا شيئاً؟ سألنا الدركي على الفور...

ـ لا!.. بالبوق؟... آه! لا!... أجبناه... لا بالتأكيد! لم نسمع إطلاقاً!.

ـ عجباً، هذا غريب مع ذلك.. العجوزان قالا لي ذلك...

ثم فتح النافذة... وإذا بالخوري أمامه بالضبط.. كان يقفز مرحاً مثل جدْي... لم يكن ينتظر سوى تلك اللحظة... ارتمى على ركبتيـه وسـط الغرفـة... وبـدأ مـن جديـد! «أبانـا الـذي في الـسماوات... ليتبـارك ملكوتك!...» كان يكرر... ويكرر طوال الوقـت.. مثـل فونـوغراف... ويقرع خاصرتيه بقبضتيه!... كان كيانه كلـه يـرتعش... ولا يـبرح يـنط علـى قائمتيـه! محمـلاً نفـسه العنـاء والألم... لم يكـن ليتوقـف ثانيـة واحدة.. وقد ارتـسمت علـى وجهـه تكـشيرة بـسبب الآلام... كانـت إيماءاته تعبِّر عن العذاب المبرح!... «تبارك ملكوتـك!...» لبـث يـردد بصوت مرتفع.

«أوه! حسن إذن!.. أوه! حـسن إذن!..» كـان الـشرطي قـد التـبس عليه أمر هذا الدعم الذي وقـع عليـه... «آه! هـذا غريـب...» لم يكـن يعرف ماذا يقرر... كان هذا يسد له بعـض الثغـرات... كانـت العجـوز منشغلة في مكان آخر، تغلـي لنـا القهـوة.. كانـت تلـك هـي اللحظـة المنشودة!... فقـد أوقـف المبتـهل إلى الله القـديس أنطـوان صـلاته، حينمـا رأى قهوتنـا مقبلـة... وثـب إلى قـدح معـدني.. كـان يريـد أن يشرب جميع الأقداح!... آه! كان منهكاً تماماً وشرع يـشرب مـن فـم الإبريـق أيـضاً... فـاحترق فمـه بكاملـه... وراح يـنفخ مثـل قـاطرة... انفجر الدركي يضحك من أعماقـه!... «ولكـنني أعتقـد أنـه مجنـون، تباً! من المؤكد أنه ليس طبيعياً... آه! من المؤكد أنه لـيس كـذلك!...

آه! قلت هذا لنفسي!... ولكن هذا ليس من شأني!... الأمر سيان عندي!... ليست مهمتي الاهتمام بالمجانين! أنا أعرفهم! إنها مهمة مؤسسة الإسعاف... ولكنني لا أظن بأن هذا خوري... ليس له هيئة الخوري!... ترى من أين سيكون قد جاء؟... ربما يكون هارباً؟ من المشفى إذن؟ لم يأت بالتأكيد من حفلة راقصة؟.. ألا يكون ثملاً؟... ربما جاء من حفلة تنكرية؟ ليس هذا، على أي حال، من شأني، على الإطلاق!... ولكن إذا كان هارباً!... فهذا إذن! هذا إذن من اختصاصي! هذا يعنيني إذن بالتأكيد!... ولكنني لا أتبين كم عمره قسماً بألف رعد! إيه! بابا!.. كم عمرك... لا تريد أن تقول لي كم عمرك؟...» لم يجب الآخر الرياب بأي شيء... كان يلحس القهوة من قاع الأقداح...

ـ آه! إنه حاذق مع ذلك؟ يشرب حتى بأنفه! آه! قل إذن؟ هيه بابا!... آه! الواقع أن بوقه جميل... آه!... يا له من تحفة فريدة!... آه! إنني أتساءل من أين أمكنه أن يجيء؟.

* * *

ما إن ارتفعت شمس الصباح قليلاً حتى تدفق على ضيعتنا جيش لجب من الفضوليين!... كنت أتساءل، ترى، من أين أمكن أن يأتي كل هؤلاء؟... في هذه البلدة المقفرة كالصحراء، كان هذا لغزاً محيِّراً... من بيرسان؟ لم يكن فيها قط هذا العدد الغفير من الناس!... وفي ميسلوار أيضاً.. لا شك أن هذا الجمع قد توافد من مكان بعيد جداً... من مقاطعات أخرى... ومن أرياف أخرى... كان عددهم يزداد ويتكاثف حتى غطوا جميع أرضنا المزروعة... ولم تعد تتسع لهم الطريق... لفرط ما كانوا منضغطين... كانت جحافلهم قد

اكتسحت الحقول، وانهارت أكمتا الردم تحت وطأة أقدام أولئك الرعاع... كانوا متلهفين جميعاً لرؤية كل شيء دفعة واحدة، أن يعرفوا كل شيء، ويقلبوا كل شيء... كان المطر ينهمر فوقهم بغزارة.. دون أن يزعجهم ذلك في شيء... ظلوا، مع ذلك معجونين، على هذا النحو، وسط الوحول... ثم اجتاحوا أرجاء فنائنا في نهاية المطاف.. مطلقين هديراً أجوف...

في الصف الأول، على زجاج نافذتنا، تشكل نوع من حشد فوضوي من الجدات المسنات! آه! لشد ما كان منظرهن قميئاً وهن ملتصقات بمغلاقي النافذة. كن ربما في الخمسينات من العمر على الأقل... وما برحن ينعقن أكثر من الجميع.. ويتقاتلن بالمظلات!.

وصلت أخيراً سيارة الإسعاف... كانت تلك هي المرة الأولى التي يجازفون بالخروج بها من المدينة... كما أخبرنا السائق.. كان المستشفى الكبير في بوفيه هو الذي اشتراها... كم وكم من الأعطاب أصابها أثناء الطريق! ثلاثة انفجارات في العجلات.، عجلة بعد الأخرى!... وتسربان اثنان للبنزين... كان من المفروض الآن العمل بسرعة من أجل العودة بها قبل حلول الليل.. أخرجنا النقالة منها.. وأمسك كل واحد بذراعيها من طرف!... لم يكن خليقاً إضاعة ثانية واحدة!... كان الميكانيكي يشعر بخطر جديد... فقد توقف محركه فجأة... لم يكن ينبغي أن يتوقف على الإطلاق!... ولا ثانية واحدة!... كان ينبغي أن يدور في المكان ذاته!... ولكن ذلك كان يشكِّل خطراً بسبب ارتدادات ألسنة لهب صغيرة كانت تنشأ لدى تشغيله... ذهبنا لإخراج كورتيال... فاندفع الناس نحو الأبواب والمنافذ... كانوا يدفعوننا بعنف.. ويسدون عقد البوابة والممر الصغير أمامنا، بحيث أننا لم نجد بداً من أن ننهال عليهم ضرباً ولطماً، ونشق

طريقنا فوقهم خلف الدركي، على غرار مصفحة ثقيلة، مطلقين أقذع الشتائم.. ثم عدنا مسرعين مع المحفة، وزلقناها بقوة على مزلاجيها حتى عمق العربة.. فاختفت تماماً.. ثم اسدلت الستائر المصنوعة من المشمعات السوداء... وهكذا انتهى كل شيء!... توقف الفلاحون عن الحديث فيما بينهم... ونزعوا قبعاتهم... أما الفلاحات فحركن أيديهن، جميعاً، عجائز وصبايا ليرسمن إشارة الصليب.... فيما كانت أرجلهن غائصة في الطين... وسأبكيك بدموع سخينة... كن يجتررن صلواتهن... وفوق الجموع المحتشدة كان المطر ينهمر بغزارة، اللعنة!... صعد سائق العربة حينئذ إلى مقعده.. أشعل المحرك... بي! بي! تاب! تي! بي! تاب! بي! بي! تجشؤات فظيعة.. كان المحرك قد تبلل، فطفق يطلق شخيراً من جميع قساطله... ثم حزم أمره أخيراً!... وقفز قفزة... ثم قفزتين... ثم استأنف الدوران... ولما رأى فلوري الكاهن الجثة وهي تمضي على هذا النحو.. اندفع يعدو خلف العربة، حتى أدركها بعد مئة متر تقريباً... كان هياجه قد بلغ كل مبلغ، فمضى فوق الطريق يرفرف بيديه... ثم قفز فوق رفراف العربة!... كان خليقاً أن نعدو نحن الآخرين!... وننتزعه بكل ما لدينا من قوة! كان يقاوم مقاومة وحشية!... ولكننا أنزلناه وحبسناه داخل مستودع الحصيد! غير أن المحرك توقف ثانية، وما عاد راغباً في الدوران على الإطلاق! فاضطررنا إلى أن ندفع العربة معاً حتى ذروة الأكمة.. بكل ما نملك من حمية.. وفجأة كرت العربة مسرعة، مقرقعة، مرتجة، مطلقة حشرجات ثقيلة عبر المنحدر... ثم تكرر الموقف بعد نحو ثلاثة كيلومترات!... آه! كانت تلك رياضة! وأي رياضة!... عدنا بعدها إلى المزرعة... وجلسنا في المطبخ... منتظرين أن يتعب القوم، بعد فترة من الوقت ويختفوا عن عيوننا.. ما عاد ثمة شيء يشاهدونه...

كان هذا بدهياً... ولكنهم لم يتحركوا من أماكنهم مع ذلك. أما أولئك الذين لم يكن لديهم مظلات، فجلسوا في الفناء، وداخل الهري الأوسط، وتناولوا طعامهم الذي اصطحبوه معهم... وأما نحن فقد أغلقنا علينا بابنا ومصاريع نوافذنا.

نقّبنا ضمن أشيائنا، ضمن القليل المتبقي الذي كان مهملاً، عما يمكن أن نأخذه معنا من ملابس محتملة... ينبغي القول بأننا لم نجد الكثير! وجدت العجوز شالاً... فيما كانت ما تزال تحتفظ ببنطالها. لم تكن ترتدي سوى أسمال بالية مثلنا نحن الآخرين. ما عاد لديها تنورة واحدة لترتديها... أما بشأن الطعام، فكان ما يزال لدينا قطعة صغيرة من جلد الخنزير المقدد، في قاع الإناء الذي كنا نضع فيه اللحم المملح... تصلح طعاماً للكلب... كنا سنصطحبه معنا أيضاً إلى المحطة، فقدمناها له، ثم اكتشفت، لحسن الحظ، صدرة مخملية صغيرة مقلمة خلف خزانة الثياب، ذات أزار من عظم، قطعة حقيقية خاصة بخفراء الصيد... كان الأولاد قد سرقوها... ولم يخبروا عنها أحداً.

إضافة إلى معطفي المعلق ببنطال الدراجين... كانت هذه الصدرة توفر لي المزيد من الدفء رغم كل شيء!... بالنسبة إلى الثياب الداخلية كنت خالي الوفاض كلياً!... لم يكن لدي قطعة واحدة منها!... أما بشأن الحذاء؟... فكان حذائي ما يزال متماسكاً، كنت قد شققته قليلاً لأن قياسه كان صغيراً جداً... ومن ثم فقد كان مجهزاً من الأسفل بنعل مرن ولكنه بارد... كان على العجوز أن تعاني مشقة بالغة في السير على الطريق بسبب صندلها المطاطي المثقب، والذي كان يعب الماء عباً... كانت تحاول تغليفه بصحف قديمة، وتلف حولها خيوطاً... كي يغدو أشبه بحذاء حقيقي، ولا يعود ينزلق تحت

قدميها... كانت بيرسان بعيدة جداً!... وكانت بوفي أبعد منها... لم تكن العربة أمراً وارداً في الحسبان!... أخذنا معنا قليلاً من الماء... وانضممنا إلى الدركي الذي كان عليه أن يرافقنا، كان ممسكاً بعنان حصانه الذي ظل من دون نعال!... أراد الخوري أن يذهب معنا!... كنت أفضل أن نتركه هنا! أن نغلق عليه وراءنا بالمفتاح... ولكنه كان يثير جلبة فظيعة حينما خيل إليه بأنه سيظل وحيداً... لم يكن هذا حلاً إذن!... لنفرض أننا تركناه وراءنا، وأغلقنا عليه الكوخ.. ثم قام بتحطيم كل شيء، ذلك المهووس. كأن يتسلق السقوف؟... أو يسقط في أحد المجارير؟... فيكسر عضوين أو ثلاثة من أعضائه؟... من الذي سيكون الجاني إذن؟... من الذي سيوجه إليه الاتهام؟... سيكون رأسنا بالطبع هو المطلوب... وسنودع السجن حينئذ!... ليس ثمة ظل من الشك!... فتحت له باب الكوخ إذن.. فارتمى بين ذراعي!... وفاضت مشاعره الحميمة تجاهي... ولكننا لم نعثر على الكلب... بحثنا عنه ساعة على الأقل، في الهري، وفي المستودع... لم يكن موجوداً في أي مكان... ذلك المقمل... وأخيراً عاد حين صرنا على أهبة الرحيل...

جميع أولئك الأجلاف في الخارج، الذين كانوا ما يزالون ينتظرون، لم ينبسوا بكلمة حين رأونا راحلين... لم يقولوا أف!.. مررنا تحت أنوفهم بالضبط.. كانوا يملؤون الأقنية.. فلاحون.. وفلاحون أيضا.. معفرون، غبر الوجوه.. انطلقنا إذن على الطريق.. سرنا... وسرنا... ننقل خطونا بحذر شديد... لم يكن أحد رائق المزاج سوى المتشرد الآخر... كان ينط هنا وهناك... ولكن ما كان يؤرق ذلك الخوري أشد الأرق هو معرفة خط سيرنا.. "هل سنرى شارلمانيي؟..." كان يسألنا بصوت عال... ثم لا يلقي بالاً إلى

ردودنـا!.... مـا عـاد يريـد أن يفارقنـا... لم يكـن بيـدنا حيلـة قـط للتخلص منه. كان الطواف في الأرض يبهجه أيما إبهاج!... فـلا يـبرح يعدو أمامنا مع الكلب الصغير.. قافزاً من تلعه إلى تلعة.. نافخـاً ببـوق صيده بين وقت وآخر... كان ينفخ داخله طوطات صـغيرة!... وحـين نلحق به ينضم إلينا بحيوية... كان يحمحم مثل حمـار وحـش... بلغنـا على هـذا النحـو مـشارف بيرسـان مـصحوبين بتبويـق حـاد... وعنـد مدخل البلدة.. انعطف الدركي إلى اليسار... كانت مهمتـه قـد انتـهت هنا... فتركنا نتـدبر أمورنـا... مـا عـاد حريـصاً على مرافقتنـا خطـوة واحدة أخرى... لم يكن ذلـك مـن مهامـه.. سـلكنا طريـق المحطـة.. استعلمنا على الفور عن مواعيد القطارات... عن القطـار الـذي سـيقل العجوز إلى بوفي. كـان سـينطلق بعـد عـشر دقـائق بالـضبط!... قبـل ساعة من قطار باريس... توجهت العجوز إلى الرصيف المقابـل.. لقـد دنـت لحظـة الـوداع.. لم نقـل أي شـيء خـاص.. لم نتواعـد علـى الإطلاق.. تعانقنا...

ـ آه! ولكنني وخزتك يا فردينانـد!.. كانـت هـذه لحـيتي.. علقـت العجوز مازحة!... كانت شجاعة وأيّم الحق.. تلك مزية نادرة في مثـل ذلك الظرف العصيب... ما كانت تعرف إلى أين ستولي وجههـا... ولا أنـا كـذلك. لقـد ضـاقت علينـا الأرض بمـا رحبـت، وسـط تلـك الكروب!... لم يكن لنا أي مفزع آمن نلجأ إليه!... كان هذا متوقعاً في المحصلة... ماذا عسى يمكن أن يقال...

ألم بالخوري، على الفور، شعور بالخوف.. فـانكمش علـى نفسه في أحد الأركان... ولكن عينيه لم تفارقاني لحظة... ما كـان ينظـر إلى أحد سواي فوق الرصيف، وقد جحظت عيناه حتى كادتا تخرجان من محجريهما... كان الناس من حولنا يتساءلون عما يمكن أن نفعله هنـا؟

ولا سيما هو ببوقه... والعجوز ببنطالها... وأنا بصدرتي المهدبة... لم يكونوا يجرؤون على الاقتراب منا كثيراً... وفي إحدى اللحظات مرت موظفة مكتب البريد، قريبة الدركي، وتعرفت علينا... «ولكن هؤلاء هم مجانين بليم!» هتفت المرأة!... فدب الذعر فيمن حولنا.. ولكن قطار بوفي، لحسن الحظ، دخل إلى المحطة في تلك اللحظة... فتحولت الأنظار إليه... انطلقت العجوز الضخمة.. صعدت الرصيف المحاذي لسكة القطار... ولبثت لحظة عند بوابة القاطرة مع كلب دودول الصغير... لوحت لي بإشارات الوداع!... فلوحت لها بيدي مودعاً... وفي اللحظة التي أقلع فيها القطار، تملكها كرب عظيم! شيء ما مروع!...وبدا لي وجهها من خلال كوة الباب مقطباً تقطيباً وحشياً... ثم صرخت «ررااه! ررااه!» على غرار حشرجات شخص ذبيح... أو صرخات حيوان لحظة الفتك به...

ـ هرديناند! هيرديناند! كان ما يزال بوسعها أن تصرخ... هكذا عبر المحطة.. أعلى من كل الضجيج.. ثم غاص القطار في النفق... ما عدنا رأينا بعضنا في يوم من الأيام!... ما عدت رأيت المعلمة قط.. ثم علمت فيما بعد أنها ماتت في سالونيك، علمت ذلك في فال ـ دو ـ غراس عام 1916. كانت قد سافرت كممرضة على متن سفينة نقل. وماتت بسبب نوع من الزهري لا أدري كنهه، ولكنني أعتقد بأن موتها كان بسبب التيفوس. بقينا إذن كلانا، أنا والكاهن فوق الرصيف الآخر، رصيف باريس. لم يكن يعي شيئاً على الإطلاق.. ما السبب في وجودنا هنا... ولكنه توقف أخيراً عن النفخ ببوقه!... كان يشعر بالهلع من أن أتركه فجأة على الطريق... وما كاد القطار يتوقف حتى قفز أيضاً داخل القاطرة، خلفي تماماً، ولبث ملتصقاً بي حتى باريس... ثم فقدت أثره في إحدى اللحظات لدى خروجنا من

المحطة... كنت قد تسللت من باب آخر... ولكنه لحق بي على الفور، الحقنة اللعينة!... أضعته ثانية في شارع لافاييت... مقابل الصيدلية، بوجه الضبط.. انتهزت فرصة الازدحام... وقفزت في إحدى الترامات وسط ركام من العربات... غادرته إلى مكان أبعد قليلاً... نزلت في بوليفار ماجنتا... كنت أريد أن أظل وحدي بعض الوقت.. أفكر، إلى أين سأولي وجهي...

كان الزي الذي ارتديه بالغ الغرابة... لم يكن لائقاً للسير به في مدينة من المدن... كان الناس يلتفتون نحوي بفضول...تلك هي على الأرجح لحظة انصراف الموظفين من المخازن والمكاتب... لا ريب أن الساعة كانت قد تجاوزت السابعة مساء. كنت أخلِّف لديهم انطباعاً ما مع ذلك، بمعطفي العجيب الذي كنت قد قصرته.. تواريت في ظل أحد الأبواب. كان منظر معطفي هو الأشد عسراً على الهضم... كنت منفوخاً تماماً بسبب بنطالي الكيلوت (بنطال الدراجين والفرسان)، والذي كان يعطيني شكلاً مدهشاً! لم يكن بمقدوري أن أغيِّر تلك الثياب... ما كان لدي قميص! ولا قبعة أيضاً... ما كان لدي سوى قبعة الصغير دودول، وهي مصنوعة من جلد مقسّى! كنت أضعها فوق رأسي كيفما اتفق، كان هذا مستحيلاً... طوحت بها خلف أحد الأبواب... لم ينقطع سيل العابرين... لذا فإنني لم أجازف بالظهور على الرصيف، بذلك الزي الغريب... كنت عازماً على أن أنتظر حتى يخلو الشارع قليلاً... رحت أراقب حركة المرور، من مكمني... لفت نظري، على الأخص، تلك الباصات الحديثة، والتاكسيات الجديدة التي كان عددها يفوق عدد عربات الخيول... كانت تطلق هديراً فظيعاً... كنت قد فقدت عادة التآلف مع حركة المرور الكثيفة... كان ذلك يصيبني بالدوار.. كنت مشبطاً أيضاً، خائر القوى... كنت قد

اشتريت رقاقة صغيرة بالزبدة، وقطعة من الشوكولا... كان هذا وقتها... ثم وضعتها في جيبي على الفور... كان الهواء يبدو رطباً منذ عودتي من الريف...ولكن الريح لم تكن تتنفس... سألت نفسي إذا ما كنت سأعود إلى الباساج؟.... مباشرة؟... إذا ما كانت الشرطة تنتظرني هناك؟... شرطة المزأزئ...

في أعلى بوليفار ماجنتا، يصادفني شارع لافاييت... علي أن أعبره نزولاً لألتقي بشارع ريشيليو، وبعده البورصة... ليس علي بعد ذلك سوى أن أتبع صف الأضواء.. آه! كنت أعرف هذا الطريق!... ثم أنعطف إلى اليسار لأصل إلى شاتليه، حيث يقف بائعو الطيور... وبعدها رصيف الزهور.. ثم الأوديون... ذلك هو الاتجاه الذي يقودني إلى خالي... ليست مسألة العثور على سرير في مكان ما، هي الأخطر الآن... كان بوسعي أن أقرر دائماً في اللحظة الأخيرة... ولكن كيف لي أن أعثر على وظيفة؟ كان هذا دونه الأهوال... ما الذي علي أن أفعله حتى أكسو جسدي؟... كنت أسمع ضجة الشارع من حولي!... إلى أين سأتوجه الآن؟... خرجت قليلاً من مخبئي... ولكن بدلاً من أن أتخذ طريق البوليفار، انعطفت عبر شارع صغير... توقفت أمام حانوت صغير.. شاهدت بيضة مسلوقة.. حمراء تماماً!... قلت: «سأشتريها!...» عددت ما معي من نقود على ضوء مصباح... كان ما يزال في جيبي أكثر من خمسة وثلاثين فرنكاً. كنت قد دفعت أجرة ركوبي في القطار، وأجرة ركوب الخوري.. قشرت البيضة على طرف طاولة الحانوت، عضضت قطعة منها.. ثم بصقتها على الفور.. ما عاد بمقدوري أن أبتلع شيئاً!... تباً! لم تدخل داخل بلعومي.. تباً! قلت لنفسي، أنا مريض.. كنت أشعر بالدوار.. سرت ثانية.. كل شيء يموج في الشارع، وعلى الرصيف... مصابيح الغاز... والحوانيت...

وأنا أيضاً... كنت أسير متمايلاً مترنحاً... هو ذا شرطي يقترب.. حثثت خطاي قليلاً.. انحرفت.. اختبأت في أحد المداخل... ما عدت راغباً في أن أتحرك على الإطلاق... جلست على ممسحة الأرجل.. شعرت ببعض التحسن!... قلت لنفسي: «ماذا دهاك يا توتو؟.. أصبحت رخواً إلى هذا الحد؟ ما عدت قادراً على المشي؟...» وهذا الغثيان المتواصل... كان الشارع يشعرني بالهلع... حينما كنت أراه هكذا أمامي... بجانبيه كليهما... من اليمين.. ومن الشمال... وواجهات المخازن مغلقة بالكامل، سوداء بالكامل! تباً!... متجهمة بالكامل. كان هذا أسوأ من بليم!... ولكن لا مجال للتراجع... كان الخوف يشل جسدي.. ويعتصر أحشائي على الأخص... ورأسي أيضاً! كنت سأتقيأ كل شيء.. آه! ما عاد بإمكاني التحرك أبداً... كنت متكوماً عند المدخل... صار بمقدوري أن أدرك هناك حقاً!.. عند أسفل الجدار!... كيف كانت العجوز الشقية تكد وتكدح. عادت الذاكرة بي فجأة، كي لا نهلك جميعا. كان ذلك وأيّم الحق عبثاً لا يصدق!... تباً! صرت الآن وحيداً! رحلت هونورين!... تباً!... كانت عجوزاً طيبة!... شجاعة بالتأكيد.. أنقذتنا من الهلاك!... كنا جميعاً مهرجين بائسين!... كنت متأكداً من أنني لن أراها قط!... كنت على يقين من ذلك.. غدا وضعي مزرياً دفعة واحدة!... مقرزاً كلياً!... وافاني الغثيان مرة أخرى.. فتقيأت في خندق صغير بالقرب من الرصيف.. انتبه إلي بعض المارة.. فقررت السير قدما مع ذلك..

توقفت ثانية عند ناصية شارع سانت دينس... فقدت الرغبة بالتقدم أبعد من ذلك، اكتشفت ركناً محتجباً، فجلست فيه. ما عدت أرى أي شيء من هناك.. شعرت بالتحسن بعد أن جلست... كان السير هو الذي يهد قواي، ويثير فيّ الغثيان... كنت أرفع وجهي

إلى الأعلى، كلما شعرت بالدوار.. لأحدِّق في السماء بالأحرى... كان ذلك يفرِّج عني، ويخفف من ضيقي... كانت السماء شفافة صافية إلى حد لا يوصف... ما رأيتها قط بمثل هذا الصفاء في يوم من الأيام.. لشد ما كان ذلك المساء مكشوفا أمام عيني.. عرفت كل النجوم!... كلها تقريباً في النهاية.. كنت أعرف أسماءها واحداً واحداً، أضجرني ذلك الكوكب المتغطرس «أوليبريوس» بمداراته النائية!... كان من الغريب أن يجتذب أنظاري دون رغبة مني.. كان «الكانيوب» و«الاندروميد» ثابتين هناك فوق شارع سانت دينس... فوق السقف المقابل لي بالضبط... وإلى اليمين منهما قليلاً كان «الكوشير» يومض على مقربة من «الميزان».. تعرفت عليها جميعاً بدقة... كدت أنخدع بـ«اوفيوشوس» الذي يُنظر إليه عادة على أنه عطارد.. وكان «بيرسو» و«شوفيلور» متشابهين حتى ليلتبس الأمر بينهما... ولكن «بيلياس» هو الذي يخدع الناظر إليه دائماً! أما في ذلك المساء، فما كان ثمة خطأ!... كان هذا «بيلياس» ذاته.. على يسار «باكشو»... رأيت أيضاً بوضوح «السديم النجمي الكبير أوريون»... بين «تريانكل» و«آريان» ليس من الممكن أن تضيِّعه العين المبصرة!... أما في بليم فلم أر أوريون سوى مرة واحدة في السنة... كنت أبحث عنه كل مساء... كان مما يفتن ولداً مثلي أن يتمكن بعد سنة من رؤيته بمثل هذا الوضوح.. أما كورتيال الذي كان يراقبه باستمرار، وهو يدمدم، فقد نشر دليلاً من أجل «الاستدلال على النجوم السيَّارة»... كان مفاجئاً لي أن أرى هذا السديم النجمي الكبير من باريس، والتي تشتهر سماؤها بكمودها الملوث بالأدران... كنت كما لو أنني أسمع كورتيال، يهتف إلى جانبي متهللاً في ليلة كهذه، أسمعه وهو يهذر بالقرب مني:

ـ أنت ترى، يا صغيري، ذلك الضوء الذي يـرتعش؟.. لـيس هـذا كوكباً... إنه خادع مضلل!... ليس حـتى علامـة للاسـتدلال!... لـيس هذا سوى متشرد جوال!... أنت تسمعني؟.. انتبه!.. إنه متشرد! ولكنه سيتلألأ ربما بنور ساطع بعد مليوني عام...أما الآن فليس سوى مزحـة عابرة، سرعان ما تضيعها كمرتك!... النجوم يا صغيري أشبه بأسمـاك المورة!... فليداخلك الشك قبل أن تبدأ بإلقاء أحكامـك! كـان يخيـل إلي بأنني أسمع من جديـد كـل ذلـك الخلـيط المـشوش!... «حينمـا تشاهد شيئاً مرة واحدة.. عليك أن لا تنـساه أبـداً... العقـل هـو الـذي يسد أمامنا كل الدروب.. عليك بالغريزة في البدايـة.... وحينمـا تـشير لك الغريزة تكون قد اهتديت!.... ولن تضل بعـد ذلـك أبـداً!...» مـا عاد لدي عقل الآن... وكانت ساقاي أشبه بـشحم الخنزيـر الـذائب... مشيت من جديد مع ذلك... عثرت على مقعـد آخـر.. تكومـت فوقـه متكئاً على مسنده... لم يعد الجو حاراً جداً في الحقيقـة... وخيـل إلي بأنه كان موجوداً هنا، بالقرب مني... على الجانب الآخر من المقعـد، مديراً لي ظهره، المعلم العجوز... كنـت أرى سـراباً خادعـاً لا ينفـك يلوح لي... وأردد بلاهات بدلاً منه.. تعابيره المطلقة ذاتها... كان علي أن أسمعه يتكلم... وشرعت كلماته تطرق أبـواب ذاكـرتي.. خيـل إلي أنه واقف أمامي على إسفلت الطريق!... «فرديناند! فرديناند! المهـارة هي الإنسان.. لا تفكر دائماً إلا في العيـوب والنـواقص..» كـان يلقـي على مسامعي كـل أضـاليله... كنـت أتـذكرها كلـها دفعـة واحـدة!... صرت أتكلم الآن بصوت مرتفع!... كان الناس يتوقفون لـيسمعوني... كانوا يظنونني ثملاً على الأرجح.. حينئذ أغلقـت فمـي.. غـير أن تلـك الخيـالات كانـت تلـح علـي.. تحتـل كـل رأسـي، كانـت الـذكريات تجتاحني دون رحمة... ما كان بوسعي أن أصدّق بأن عجـوزي الـداعر قد مات... ومع ذلك، كنت أرى رأسـه أشبـه بـالمربى... وأرى سـائر

لحمه وهو يختلج دون توقف.. كل هذا كان يعج وسط الطريق. وتذكرت ابن القحبة ارتون... والسكين التي انتزعنا بها الأذن من بركة الدم المتجمدة؟ وأمه جان؟ وعربتها اليدوية؟ وكل ذلك الوقت الذي أمضيناه ونحن نكرجها أنا والعجوز! آه! يا للقسوة الفظيعة! لشد ما كان ذلك مريعاً!.. وما برح يكتسح ذاكرتي!...كنت أفكر ثانية بكل الأشياء... بحانة الإيموت... بفتى الرهان ناجير!... بمفوض البون آنفان.. بموجات الأشعة الخبيثة!... بكل البطاطا المتعفنة... آه! كان ذلك مقززاً في النهاية... كم استطاع أن يكذب علينا... وها هو ذا يعود الآن، المنكوح!... ليقف أمامي بالضبط.. على مقربة من مقعدي... كنت أشم رائحة لحمه.. وهي تعبق في أنفي... ذلكم هو حضور الموت.. حينما كنت أتكلم بدلاً عنه... نهضت دفعة واحدة.. ما عدت أملك أية مقاومة... كنت على وشك أن أطلق صرخة رهيبة... كي يحملوني من هنا دون تأخير... رفعت عيني نحو السماء... كي لا أرى واجهات الحوانيت... كانت تبعث فيّ كآبة ممضة... كنت أرى رأسه على الجدران أينما تلفت... وعلى كل النوافذ... ووسط العتمة السوداء... كان أوريون، الذي كان فوقي، قد رحل... ما عدت أرى أية علامة وسط الغيوم... ولكنني تبينت، مع ذلك... موقع الأندروميد... كنت أعاند بإلحاح، باحثاً عن كانيوب... ذلك النجم الذي يومض دائماً مقابل الدب... كان قد اكتنفني ذهول شديد بلا جدال... انطلقت من جديد، مع ذلك.. سرت بمحاذاة البولفارات العريضة.. عائداً إلى سانت مارتين... لم تعد قدماي تحملانني!... كنت أمشي على نحو متعرج! ما كان ذلك قطُّ غائباً عن وعيي!... كنت أشعر بالخوف من الشرطة!... فهم أيضاً سيظنونني سكراناً!... وأمام تمثال الزنجي قلت: «بست! بست!» لعربة من عربات الخيول!... ثم صعدت فوقها...

ـ إلى بيت الخال إدوارد!... قلت للحوذي...

ـ وأين هو بيت الحال إدوارد؟...

ـ شارع الكونفاسيون! رقم 14! سيلقى علي القبض بالتأكيد، إن تابعت تجوالي... مع ذلك الدوار الفاجر... كان ذلك قد غدا مجازفة خطيرة، حينما سيسألني الشرطة.. فكيف سيكون بإمكاني أن أجيبهم، في مثل حالي تلك... ومع سير العربة شعرت ببعض الراحة... استعدت بعض قواي فعلاً... كان الخال إدوارد في بيته.. لم يبد عليه أنه تفاجأ كثيراً... كان فرحاً بلقائي.. جلست أمام طاولته.. خلعت معطفي المضحك.. لم يعد فوق ضلوعي سوى الصدرة المخملية الصغيرة.

ـ ثيابك مضحكة.. علق الخال.. ثم سألني إن كنت قد أكلت؟.

ـ لا! ولكني لست جائعاً... أجبته...

ـ إذن فشهيتك ليست على ما يرام؟..

فجأة، استأنف حديثه... كان هو من روى لي أخباره.. كان مشغولاً غاية الانشغال!... فقد عاد لتوه من بلجيكا، وتخلص من إحدى متاعبه!... عرض أخيراً منفاخه الصغير «القابل للطي والتفكيك» على اتحاد الفبارك.. بشروط غير مجزية.... وخاض غمار منازعات وجدالات لا قبل له بها.. للحصول على جميع البراءات... التي لا تحصى... كان قد فاض به الكيل!... لم يكن هذا نسيجه،، الصداع والمحامون... لقاء ذلك المبلغ الزهيد!... كان على وشك إنشاء مشروع مثمر.. مشروع ميكانيكي حقيقي.. عمل تجاري ناجح... لإصلاح السيارات الصغيرة المستعملة... وهو عمل رائج دوماً... فضلاً عن ذلك كان يتسلم قناديل السيارات وأبواقها من جميع

زبائنه... ويعيدها إليهم على نحو ملائم للذوق الدارج... كان هذا من جملة اختصاصه... كان هناك طلب دائم على قطع الغيار من النيكل والنحاس... يكفي مراقبة حركة السوق الرائجة... حتى يصيب المرء نجاحاً بصورة من الصور... كان يجني من بعض الهواة ربحاً يصل إلى ثلاثمئة بالمئة!... تلكم هي التجارة!... لم يكن هيَّاباً ولا متردداً... كان يعرف جميع أسرار التجارة وفنونها... وإذا ما تكدر أحياناً فبسبب السلطات المحلية... كان يريد أن يمعن التفكير في مشروعه الميكانيكي... لم تكن شروط العقد واضحة وضوحاً كافياً... كان هناك بدل خلو باهظ للمأجور... لذا فقد تردد بعض التردد!... امتدت المفاوضات وقتاً طويلاً... لقد تعلم الدرس جيداً... كان موشكا على الإمضاء بالموافقة على نوع من شركة لإنشاء مرآبه الميكانيكي... على مسافة مئة متر من بورت فانف... ولكنه أحجم عن ذلك أخيراً... كانوا يعتصرونه في العقد... وكان هو مرتاباً بجميع الشركاء... لم يكن مخطئاً في ذلك!... كان يفكر دائماً... وكان أولئك طغمة من الجشعين التافهين!... لم يكن عليه أن يأسف كثيراً... كان لديه بالتأكيد فكرة ثابتة عن أمثال هؤلاء الغانغستر... هكذا راح الخال يثرثر حول كل شيء... يبسط أمامي جميع ما حدث له، موغلاً في التفاصيل، منذ مغادرتنا إلى بليم وحتى اليوم الذي اجتمعت به... ثم جاء دوري لأروي له وقائع ما جرى لي خلال تلك الفترة... بدأت الحديث بهدوء كامل... وأصغى إليَّ باهتمام شديد.

ـ آه! هكذا! إذن! آه! ولكن يا صديقي الصغير! آه! هذا عنيف جداً!... وران عليه الذهول!... إيه! قل إذن، هذا لا يصدق.. آه! ما عدت أدهش إذن أن أراك منهكاً بهذه الصورة.. آه! لقد عانيت كل صنوف العذاب!... تباً!... هذا درس! أنت ترى يا صديقي

الصغير!... لطالما كان الريف على هذا النحو.. حينما يكون المرء من باريس عليه أن لا يبارحها... ينبغي أن يولد المرء في الريف، في زرائب أولئك الفلاحين، كي يعرفهم على حقيقتهم... ها أنتذا ذهبت إلى هناك.. سقطت في قلب الريف! تصور!... مندفعاً جداً، متحمساً جداً... وما إن وطئت قدماك الأرض... حتى امتلكوك!... كنت كالبيضة! كالبيضة تماماً!... الجميع ينهشونك.. يتلذذون بالتهامك.. كيف تستطيع أن تدافع عن نفسك؟.. فأنت لا تملك أن تقاوم لحظة واحدة.. خليق أن يعيش المرء بينهم منذ أن توضع في فمه رضاعة الحليب... خلاف ذلك ستكون أحمق كيفما فعلت يا صديقي.. ليس لك فرصة من مئة ألف فرصة... ومن ثم فقد ذهبتم أنتم إلى هناك!... من أجل زراعاتكم بواسطة الأشعة... هكذا إذن.. يا لها من نوغا!.. كنتم تسعون إلى ورطة شنيعة... وعدتم مفلسين مثلما ذهبتم!... كان هذا لا مندوحة منه!... ولكن قل لي إذن يا صديقي الصغير، لشد ما أنت هزيل وأيّم الحق! ولكن هذا لا يصدق!... هل تحب حساء التايبوكا؟... قام إلى المطبخ، وقلب بعض الآنية... كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة... ينبغي أن تأكل هنا بشهية! هذا ما سوف أتكفل به!... عليك أن لا تخفي عني أي شيء... ثم نظر إلي ثانية بطرف عينه... إلى زيي الجميل... وجعله هذا يبتسم، إلى بنطالي الكيلوت وصدرتي المخملية المهذبة...

ــ لا يمكنك البقاء بهذه الأسمال!.. سأبحث لك عن بنطال صغير... إنتظر... سأبحث عن شيء ما.. وعاد إلي ببدلة كاملة من بدلاته... من خزانة ثيابه... كانت في حالة جيدة، وبمعطف مبطن بجلد الدب.. بوبر غزير مدهش... «سترتدي هذا مؤقتاً!...» وقبعة

ذات طيات، وثياب داخلية من الفلانيلا... تجهزت من جديد على نحو لائق...

ـ أنت لست جائعاً إذن؟.. أبداً؟... ما كان بوسعي أن أبتلع شيئاً... كنت أشعر بانحطاط شديد.. بوجع ما مبرِّح... كانت أمعائي تقرقر دون توقف وكان مزاجي بالغ السوء!.

ـ مم تشكو إذن يا صغيري؟... كنت قد بدأت أقلقه.

ـ لا أشكو من شيء!... لا أشكو من شيء!... كنت أقاوم..

ـ هل أصبت بالبرد إذن؟ ولكنك مصاب بالأنفلونزا!.

ـ أوه! لا.. لا أعتقد ذلك.. أجبته... ولكن من فضلك يا خالي، هل يمكننا ربما أن نقوم بجولة صغيرة، بعد أن تنهي طعامك.

ـ آه! هل تعتقد بأن هذا سيريحك؟...

ـ آه! نعم! يا خالي!... نعم! أعتقد ذلك!...

ـ ألا تشعر بالغثيان إذن؟..

ـ نعم! قليلاً جداً، يا خالي!...

ـ إيه حسناً! أنت على حق! فلننزل فوراً!.. سآكل فيما بعد!... أنت تعلم، أنا أشبه أمك قليلاً.. انطلقنا على مهل حتى ناصية مقهى الأفينو.. وهناك، رغب أن نجلس في مقهى رصيف... وأن أرتشف كوباً من منقوع النعناع!... حدثني أيضاً عن أشياء وأشياء!... سألته عن أخبار والديّ... إن كان قد رآهما.

ـ قبيل سفري إلى بلجيكا.. مضى شهران على ذلك!... مررت بهما مروراً عابراً... ولم أرهما بعد ذلك!... كانا قلقين، أضاف خالي... بسبب رسائلك!... كانا يدققان فيها، إن شئت القول... ما

عادا يعرفان إلام آلت أمورك... كانت أمك عازمة على الذهاب لرؤيتك... آه! ولكنني ثنيتها عن عزمها.. قلت لها بأن لدي أخباراً عنك... وأنك تتدبر أمورك على أحسن وجه... وأنه لم يكن لديك دقيقة واحدة بسبب انشغالك بأعمال الزراعة!... ترهات في النهاية.. لذا فقد أرجأت سفرها إلى وقت آخر.. أما والدك فما يزال مريضاً.. غاب عن عمله مرات عديدة في هذا الشتاء.. كانا قلقين جداً من أن يطردوه من العمل.. ولكنهم أعادوه في نهاية المطاف... وحسموا بالمقابل أجرته عن أيام غيابه!... تصور! حسموا أيام مرضه... أليس هذا عاراً؟.. أليس هذا مريعاً؟... شركة تتصرف بمئة مليون، ولها مكاتب في كل مكان تقريباً! تلك هي قاعدتهم الذهبية أساساً.. كلما زاد وزنهم واغتنوا أكثر، كلما رغبوا بالمزيد.. نهم لا يمكن إرواؤه! ولا حدود له على الإطلاق.. كلما زادت ثرواتهم تضاعفت قذاراتهم أضعافاً مضاعفة!... لشد ما هي فظيعة تلك الشركات!.. هذا ما أراه بوضوح خلال عملي في محترفي الصغير!... إنهم يمتصون كل شيء، متى شاؤوا!... جشعون! مضخات لنزح الأرباح والأوراح!.. آه! هذا عصي على التصور.. على هذا النحو يغدون أغنياء.. على هذا النحو تماماً!...

ـ نعم يا خالي!...

ـ أما من يمرض فيمكنه أن يموت!...

ـ نعم يا خالي!..

ـ تلك هي الأغنية النهائية، أيها الرجل الصغير، عليك أن تعرفها جيداً!.. مباشرة! وعلى الفور! لا تثق بالمليارديرات!.. آه! ومن ثم فقد نسيت أن أخبرك.. هناك أيضاً ما هو جديد بخصوص مرضهما..

لم يعد والدك يرغب برؤية طبيب!... حتى كابرون الذي لم يكن سيئاً! ولا عديم الاستقامة في النهاية، ما عاد يزوره... وأمك أيضاً، ما عادت تريد أن تراه أو تسمعه.. فهي تداوي نفسها بنفسها كلياً.. أؤكد لك بأنها تعرج في سيرها.. لا أدري كيف تتدبر أمورها.. لزقات خردل! لزقات خردل!... الشيء نفسه دائماً مع الخردل! من دون خردل! حار! بارد! حار! بارد! إنها لا تتوقف عن العمل!.. تبذل قصارى جهدها!.. للبحث عن زبائن جدد... تجلب أشياء جديدة لحانوت مطرزاتها.. ومخرماتها البلغارية.. أنت تدرك ذلك! أما أبوك فهو لا يدري شيئاً عن ذلك بالطبع... وهي تعرض بضاعتها على امتداد الضفة اليمنى للنهر.. وهذا يتطلب منها السير مسافات طويلة.. لو أنك ترى وجهها حين تعود من جولاتها.. آه! ينبغي رؤية سحنتها حينئذ!.. هذا لا يصدق أبداً!.. يخيل إلى من يراها بأنها جثة حقيقية.. لقد شعرت بالرعب حينما صادفتها ذات مرة في أحد الشوارع.. كانت عائدة وهي تحمل علبتها الكرتونية. كانت تزن عشرين كيلو غراماً، على الأقل، أنا متأكد من ذلك! أنت تسمعني، عشرين كيلو غراماً... لشد ما كانت ثقيلة تلك القذارات!... حتى أنها لم تلاحظني.. من المؤكد أن التعب سيقتلها ذات يوم... وأنت أيضاً ستفعل هذا بنفسك إن لم تحترس أكثر! هذا ما أقوله لك يا صديقي! في البداية، أنت تأكل طعامك بسرعة شديدة... لطالما نبهك والداك إلى ذلك.. وهما ليسا على خطأ، من هذه الناحية...

كل هذا كان في الواقع محتملاً... ولكنه لم يكن مهماً في النهاية، ما كان مهماً كثيراً.. لم أكن أريد أن أخالفه.. لم أكن راغباً في النقاش... ما كان يضايقني أثناء حديثه.. هو أنني لم أكن أصغي إليه بانتباه.. كان ذلك بسبب المغص.. الذي يعتصر أمعائي.. وتابع حديثه لي:

ـ ما الـذي تريـد أن تفعلـه الآن؟.. هـل تفكـر في شـيء مـا؟ بعد أن تستعيد قواك؟.. كان هو أيضاً يشعر بـبعض القلـق بـشأن مستقبلي...

ـ آه! يا صديقي الصغير! كـل مـا أقولـه لـك، لـيس مـن أجـل أن تتعجـل الأمـور!.. أوه! ولكـن لا!.. خـذ وقتـك كلـه في مـساعيك! اعرف أولاً أين تضع قدميك... لا تندفع إلى أي مكـان يلـوح لـك!... فسيطوح ذلك بك في مهاوي الخيبـة والإخفـاق!... خليـق أن تتحـرك بكل تمهل... خليق أن تنتبـه.. العمـل مثـل الطعـام.. ينبغـي أن يكـون مفيداً بادئ بدء.. فكر! قدر العواقـب! اسـألني! حـاول! دقـق!.. إلى اليمين، إلى اليسار.. ثم قـرر حينمـا تجـد نفـسك واثقـاً متيقنـاً!.. في تلك اللحظة بالذات، ستخبرني.. لـيس هنـاك معـرض ينتظـرك فـوق الجسر.. ليس هناك أيضاً... هيه؟... لا تقدم على شـيء دون تبـصر... كي ترضيني وحسب.. لا تقدم على عمل لخمسة عـشر يومـاً!.. لا!.. لا!... ما عدت صبياً.. فسوف لن تنتهي من إيذاء نفسك! ولـن تحظـى بأية سمعة.

عـدنا إلى بيتـه.. درنـا دورة حـول اللكـسمبورغ... كـان مـا يـزال يحدثني عن الأعمـال والوظـائف.. كـان مفعمـاً بـالقلق حـول مـسألة كيف سأتدبر أموري؟.. متسائلاً، ربما في قرارة نفـسه العـامرة بالرقـة واللطف، عما إذا كنت سأتخلص يوماً من غرائزي المـشؤومة.. ومـن أوضاعي الغارقة في الخيبة الأبدية؟.. تركته قليلاً لشكوكه الـتي تعـتلج داخله.. ما عدت أعرف بماذا أحدثـه... لم أجبـه علـى الفـور.. كنـت مكدوداً للغاية في الحقيقة، شاعراً بـصداع ثقيـل في صـدغيّ.. حينمـا وصلنا إلى بوليفار راسبيل لم يعد بوسعي السير بنحـو مـستقيم.. كنـت أنحرف متجهاً إلى الرصيف... لاحظ هو ذلك.. توقفنـا قلـيلاً.. كنـت

أفكر بشيء آخر مختلف كلياً.. ولكن الخال إدوارد كان يقطعه بجميع آفاقه المستقبلية.. نظرت إلى الفضاء أيضاً، وقلت له: «هل تعرفها، يا خالي «غلالات فينوس» و«خلايا فيلانتس» كانت كلها تبرز من بين السحب.. كانت غباراً من النجوم... وآمارين؟.. وبروليسيرب؟... وقع نظري عليها واحدة بعد الأخرى.. البيضاء والوردية.. ألا تريد أن أريكها؟..» كان الخال إدوارد يعرف فيما مضى الكواكب والثريات.. ويعرف مداراتها عن ظهر قلب!... ولكنه نسي كل شيء عنها... ما عاد يتذكر نجمة واحدة.. ما عاد يجد حتى «الميزان»!.

ـ آه يا علجومي البائس، لقد ضعف بصري الآن، حتى لأكاد أفقد عينيّ!... أنا أصدقك بالتأكيد! أنظر إليها كلها بدلاً مني!.. لم أعد أقرأ حتى صحيفتي! غدوت حسير البصر إلى حد كبير في هذه الأيام، بحيث سأخطئ بأي كوكب على بعد متر واحد! ما عدت أرى السماء حتى لو كنت داخلها! أنظر إلى الشمس على أنها القمر!... آه! ما قولك إذن! كان يقول هذا مازحاً...

ـ آه! ولكن هذا لا أهمية له.... أضاف الخال.. ولكنني أجدك عالماً بحق! آه! ولكنك حاذق فعلاً! لقد حققت تقدماً كبيراً، قل إذن!... لم يكن كل هذا فشلاً ذريعاً! صحيح أنك لم تأكل كثيراً هناك!... ولكنك هضمت الكثير من المعارف.. وتعلمت جيداًدروس الحياة!... آه! لقد غدوت ضليعاً في المعرفة يا صديقي!.. ملأت رأسك الضخم! أليس كذلك، قل يا صغيري؟ ولكن هذا هو العلم وأيّم الحق!... آه! ما من خطأ!.. آه! جعلته يضحك طويلاً.. عدنا إلى الحديث عن كورتيال.. أراد أن يعرف أكثر عن نهايته.. سألني بعض

الأسئلة... آه! ما عاد بإمكاني أن أتماسك وهو يحدثني!... اجتاحني خوف شديد.. نوبة ثقيلة على غرار نوبة العجوز أمام الدرك.. ما عدت أستطيع أن أكبح نفسي عن النحيب!... تباً!... كان ذلك كريهاً!.. كانت كل عظامي ترتج.. رغم أنني كنت صلباً! كان هذا بسبب الإعياء الشديد، بالتأكيد..

ـ ولكن ما بك يا سلطعوني البائس!.. ولكنك بالغ الشحوب! ولكن هيا، ينبغي أن لا يهزك التأثر والانفعال.. ما قلته لك قبل قليل، بشأن العمل، إنما كان بقصد أن نتبادل الحديث وحسب.. لم أكن أحمل ذلك على محمل الجد! وعليك أن لا تأخذه أنت كذلك! خليق أن لا يفزعك مثل هذا الهذر الفارغ!... أنت تعرفني حق المعرفة مع ذلك!... أليس لديك ثقة بخالك؟... لم أقل ذلك كي أطردك!.. هيا أيها الأحمق الكبير!.. أنت لم تفهمني؟ أمسك عليك حالاً كل هذا الدموع!.. لأنت تبدو أشبه بطفلة صغيرة الآن!... الرجل الحقيقي لا يعرف النحيب!... ستبقى عندي ما دام ذلك ضرورياً!.. هنا! هيا مع ذلك!... لا بد أولاً من أن ينبت ريشك من جديد.. أريد أن أراك منتفحاً! حيوياً! ضخماً! عظيم البطن! لا أريد لك أن تذهب إلى أي مكان! لا تفكر بالأمر، على هذا النحو لن تستطيع أن تحمي نفسك وأنت على هذه الحال! لا بد أولاً أن يزايلك الشحوب! أن تغدو قوياً قبل أن تغادر بيتي! ستلقي بكل هذا من رأسك!... بوم!.. أركل هذا!.. ركلة باليمين! بانغ! ركلة باليسار!.. أيها الولد! أيها السيد؟ كان يواسيني ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ولكنني لم أفلح في أن أرقأ دموعي.. تحولت كلي إلى نبع من الدموع.

ـ أريد يا خالي أن أذهب!... أريد أن أرحل!... أريد أن أرحل بعيدا!...

ـ كيف تذهب؟... إلى أين ترحل؟... إلى الصين؟... بعيداً؟؟ إلى أين؟...

ـ لا أعرف يا خالي!.. لا أعرف!.. كانت دموعي تهمي بغزارة أكثر فأكثر... نهضت.. اختنقت!.. ولكنني ترنحت حينما وقفت على قدمي.. كان عليه أن يسندني... وحينما وصلنا إلى بيته، لم يعرف حقاً، ما عسى أن يفعل!... وما عسى أن يقول.

ـ إيه حسناً، يا كبيري!.. حسناً يا توتو.. ينبغي، مع ذلك أن تنسى كل ما قلته!.. لنفترض بأنني لم أقل شيئاً قط!.. ليست هذه غلطتك يا عزيزي البائس! هيا! لم يكن لك يد في الأمر!... كورتيال.. أنت تعرف كيف كان!.. كان رجلاً استثنائياً!.. عالماً حقيقياً!... أنا متأكد تماماً من هذا!... قلته مراراً... أعتقد بأنه كان يملك قلباً كبيراً!.. ولكنه كان رجل مغامرة!... مثقفاً ثقافة رفيعة، هذا لا مراء فيه! حاذقاً جداً، وكل شيء! وقد عانى من ألف جور!.. هذا لا جدال فيه أيضاً!.. ولكنها لم تكن المرة الأولى التي يقف فيها على شفير الهاوية!.. آه كان هاوياً للمخاطرات!.. حليفاً للكوارث.. خذ أولاً الأشخاص الذين يراهنون في السباقات؟... فهؤلاء يتوقون إلى تدمير ذواتهم!.. وهم لا يملكون أن يتغيروا!... ما من أحد يستطيع أن يمنعهم... لا مفرَّ من أن يحصدوا الكارثة!.. أجل!.. حسن جداً!... إنه الميل إلى المخاطرة! هذا يؤلمني كثيراً مع ذلك! آه! يمكنك أن تصدقني، هذا يصدعني من الداخل! كنت أكن له الإعجاب.. وحتى المودة الخالصة!.. كان دماغاً فريداً!... أنا متيقن من ذلك! قيمة حقيقية!... ورغم أنني أبدو كأحمق، فأنا

أدرك هذا كل الإدراك.. ولكن موته الآن ليس سبباً يجعلك تتخلى عن الطعام والشراب!.. وتضوي حتى النخاع!.. آه! كلا إذن! آه! اللعنة! لا!... لن تستطيع أن تؤمن عيشك في الحالة التي أنت فيها!... هيا، ليس في مثل سنك، يدمر المرء صحته على هذا النحو، لأنه واجه عثرة في طريقه!... لن تجتر هذا على الدوام! ولكنك لم تنته يا صديقي!.. فسوف تواجه عثرات أخرى، يا صغيري البائس! دع النواح للعجائز! كل هذا لا يمنعهن من أن يبلن في ثيابهن!.. فهو يوفر لهن متعة بالغة!... أما أنت فرجل صلب القناة؟ هل ستغرق نفسك في بحر من الدموع؟.. هئ! هئ! كان يربت على كتفي بيده بضربات خفيفة.. محاولاً أن يجعلني أكف على النحيب!...

ـ آه! أيتها الصفصافة الشقية الباكية!.. أهكذا تعود إلينا من الريف؟ مهدماً!.. ذائباً!... خائر القوى! هيا يا عزيزي!.. فلتتسلح بالشجاعة! هل تسمعني؟ لن أحدثك بعد عن مبارحتك لمنزلي! ستظل معي!.. لن تذهب إلى أي مكان آخر!... هذا أمر محسوم قطعاً! هذا مؤكد!... ألست هنا أكثر اطمئناناً؟.. لن تبحث لنفسك إذن عن مكان آخر أبداً! ألست سعيداً هنا؟.. هيا! سآخذك للعمل معي في المرآب! ليس من الممتع جداً ربما أن يتمرن المرء عند خاله.. ولكن بئس الأمر!.. الصحة أولاً! أما العمل، فلست أبالي به!.. كل ما عدا الصحة يمكن تسويته دائماً! الصحة! هو ذاك! هو ذاك!.. سأدربك بنفسي، هل سمعت يا صديقي الصغير!.. أريد أن تخلد أولاً إلى الهدوء والراحة! آه! نعم! فالبحث عن العمل سيضنيك ويفت عضدك.. رأيت ذلك بوضوح حينما كنت عند والديك.. ليس لديك وسيلة سهلة، ولا تتقبل طبيعتك ذلك... لن تطيق قط القسر والإكراه.. وما دام هذا يقلقك!...

فستبقى دائماً معي... لن تدق باب أحد.. ولن تعمل كوسيط تجاري..آه هذا لا! هيه؟ ماذا عسى أن أقول لك! أنت لا تطيق أن تذهب لتعرض نفسك.. حسناً! هذا ما يملأ قلبك بالخوف؟.. حسن!.

ـ لا، يا خالي! ليس الأمر على هذا النحو!.. ولكنني أريد أن أذهب..

ـ تذهب! تذهب! ولكن أين تذهب؟.. ولكن ذلك يقض مضجعك يا سلطعوني الصغير!... ولكنني لا أفهمك أبداً!.. هل تريد أن تعود إلى قريتك؟.. هل تريد أن تزرع الجزر؟.

ـ أوه! لا! يا خالي.. هذا ما لا أريده أبداً! اريد أن أذهب لأتجند في الجيش...

ـ أية فكرة ناضجة تجول في رأسك؟.. أوه! حسن إذن!.. ستذهب إذن، لتتجند؟... أين؟ ولكن لماذا تفعل ذلك الآن؟... لديك الوقت كله يا عزيزي!.. ستذهب مع أندادك في العمر! من الذي يستعجلك؟.. هل أنت مدعو للخدمة العسكرية؟.. هذا مضحك مع ذلك!.. كان يتفحصني بعناية.. يجدني غريباً تماماً.. وما برح يتفرس بي...

ـ تلكم نزوة يا أرنبي الصغير.. نزوة تستحوذ عليك مثل رغبتك بالتبول!.. ولكن هذا يفوق طاقتك!.. هل ستغدو مثل كورتيال؟ هل تريد أن تتصرف مثل أحمق؟ آه! قل إذن، ووالداك؟.. أما فكرت قليلاً؟.. كيف سيصدحان إذن؟ آه! أغنية السيريناد (أغنية ليلية يغنيها العاشق تحت نافذة محبوبته)! آه! لن أخلص من سماع لومهما! سيقولان بأنني المسؤول؟... آه! مهلاً إذن!.. كي أسمعك أفكاراً غريبة!.. أنت مجنون مثل والدك!...

لم يكن مسروراً ألبتة.. أردت أن أبوح له بكل شيء!.. هكـذا دفعـة واحدة.. بأي شيء!.. وبأي طريقة.

ـ ولكني لا أستطيع أن أعمل أي شيء يا خالي.. أنا لـست جـاداً!.. لست متعقلاً...

ـ ولكن بلى! أنت جاد يا قـربتي الكـبيرةَ! أعرفـك جيـداً.. ولكـن بلى! أنت في غاية التعقل! لم أستطع أن أكبح دموعي...

ـ لا! لست سوى مهرج يا خالي!...

ـ ولكن لا! ولكن لا! يا عزيزي!.. أنت مغفل صغير وحسب! لك طلعة حسنة، أقول لك!... لـيس عنـدك ظل مـن المكـر! أنـت بـالغ الطيبة!.. لقد هيمن عليك العجوز اللئيم! ألا ترى إذن مـا لـديك مـن ذخيرة؟ ذلك ما تعجز عن هضمه وتمثله!.. لقد صنعك بيديه!.

ـ آه لا! آه لا! كانت الوساوس تستحوذ علي.. لم أكن أرغـب بـأي تفسيرات منه. توسلت إليه أن يصغي إلي.. «أنا لم أجلب سوى الـشقاء للجميع!» قلت هذا وكررت.. آه! وداهمني الغثيان.. قلت له وكـررت القول بأنني لم أجلب سـوى الـشقاء للجميـع!.. كانـت تلـك قنـاعتي المخيفة!..

ـ هل فكرت جيداً؟

ـ نعم يا خالي!.. نعم!، أقسم لك، لقد فكرت بعمق!... أريـد أن أذهب!.. غداً.. نعم... غداً...

ـ ولكـن النـار لم تـشتعل بـالمنزل!.. آه لا!.. اسـترح بعـض الوقت! ما من أحد يذهب بهذا النحو!.. بقرار غـير متبـصر.. أنـت لن تذهب إلى الخدمة مـن أجـل يـوم واحـد!... ولكـن مـن أجـل

ثلاث سنوات يا صديقي.. من أجل ألـف وخمـسة وثمـانين يومـاً.. وربما لخدمة إضافية.

ـ نعم يا خالي.

ـ أنت لـست شـريراً هيـا! مـا مـن أحـد يطـردك!.. مـا مـن أحـد يتهمك!.. هنا، لن يكون وضعك سيئاً؟... أنا لم أعاملك بخشونة؟...

ـ بل إنني شرير يـا خـالي.. وأفتقـر إلى الجـد والرصـانة، أنـت لا تعرف يا خالي!.. أنت لا تعرف!...

ـ ولكن هذا قد استحوذ عليك! ولكن هـذه لوثـة، يـا صـديقي البائس، أن تربك نفسك إلى هذا الحد!.. ولكنك ستـسقط مريـضاً بالتأكيد...

ـ ولكنني ما عدت أحتمل يا خالي! مـا عـدت أحتمـل!... وقـد صار سني مناسباً!.. أريد أن أذهب!... سـأذهب غـداً يـا خـالي!.. هل تسمح لي؟...

ـ ليس غداً يا صديقي! ليس غداً! بل على الفور! اسمعـني! علـى الفور! ثارت أعصابه.. آه! لـشدما أنـت عنيـد! ولكنـك سـتنتظر هنـا خمسة عشر يوماً! وحتى شهراً! أسـبوعين مـن أجـل إسـعادي، علـى الأقل! سنرى.. وفوق ذلك، لن يرغبوا بـك في مثـل حالتـك هـذه!.. يمكنني أن أقسم لك سلفاً.. ستثير الخوف لدى جميع الرقباء!.. ينبغي في البداية أن تأكل جيداً! ذلـك هـو الأمـر الجـوهري!.. سـيطردونك كشخص قذر!.. أنـت لا تتخيـل؟... فهـم لا يجنـدون ذوي الأجـسام الهزيلة.. ينبغي أن يزداد وزنك!.. عشرة كيلـو غرامـات علـى الأقـل! هل تسمعني؟ أؤكد لك هذا!.. عشرة كيلو غرامات في البدايـة! وإلا! فلا فائدة!.. هـل ترغـب في الـذهاب إلى الحـرب؟.. آه! ولكـن! آه!

ولكن! لن تكون سوى كقشة في مهب الريح!... هيا! هيا! فيما بعد!... هيا! يا دبوسي العزيز! أمسك عليك آهاتك إذن!... آه! حسناً! سيكون لديهم ما يضحكهم!... حتى ينقلبوا على قفاهم! سلاماً أيها الجندي البكَّاء!.. كيف ستذهب الآن لتتطوع يا صديقي؟.. أنت لا تعرف شيئاً بعد.. فكيف تقرر إذن؟..

كان الأمر سيان بالنسبة إلي، في الواقع..

ـ لا أدري يا خالي!..

ـ أنت لا تعرف شيئاً!.. أنت لا تعرف شيئاً على الإطلاق!..

ـ أنا أحبك كثيراً يا خالي، أنت تعلم!.. ولكنني لا أستطيع البقاء عندك! ما عاد بمقدوري!... أنت طيب جداً معي!.. انا لا أستحق يا خالي!... أنا لا أستحق!..

ـ لماذا أنت لا تستحق؟.. قل لي أيها المغفل الصغير؟...

ـ لا أعرف يا خالي!... أنا أسبِّب لك الحزن أيضاً!.. أريد الذهاب يا خالي!.. سأذهب للتجنيد غداً.

ـ آه! حسن إذن، اتفقنا!.. أنا موافق! جيد جداً! ولكنك لم تقل لنا ما هو الفوج الذي اخترته؟.. آه! ولكن لديك الوقت الكافي لتختار!.. كان يسخر مني في سره.

ـ ألا ترغب في الدخول إلى فوج المظلات؟ لا؟.. أرى ذلك!... فأنت لا تريد أن تحمل شيئاً!.. الاثنين والثلاثين كيلو غراماً؟.. ولكنك تريد يا صغيري! تريد أن يحملوك هم! أن تختبئ أقسم لك!... لن تستطيع أن تشد قامتك بالتأكيد؟.. وأنت تسمع ذلك الإيعاز القذر! إلى اليسار!.. إلى اليمين!.. إلى الصف!

واحد! اثنان! واحد! اثنان!.. أنت لا تريد هذه التمرينات الجميلة!... آه! آه! يا مقدامي!.. عد إذن لتعمل في أرضك!.. لا ريب في أنك صرت خبيراً بالعمل في الزراعة؟ هل تعلمت ذلك بما يكفي؟.. هل تعرف الآن كيف تزرع الكراث؟ هيه؟... ولكنك تفضل النجوم أكثر!.... آه! هل غيرت رأيك؟ فلكيّ إذن؟... فلكيّ.. ستذهب إذن إلى «التلسكوب الكبير»! إلى فوج القمر!..لا لا؟ فأنت إذن لا تريد شيئاً مما اقترحه؟ ليس من اليسير إرضاؤك؟ أرى بأنك تفضِّل فوج «المشاة» مع ذلك!... ستكون جندياً ممتازاً من جنود المشاة؟ سيتفقع جلدك يا يسوعي!.. فالأحذية ثقيلة في رجليك! الأحذية ثقيلة!.. ولكن هل تفضل الدمامل في إليتيك؟.. إذن حسناً! عليك بفوج الخيالة!.. تباً!... فأنت لا تريد أن تقول شيئاً؟..

قطرة للشرب في السماء

قطرة للشرب!..

كان يبوق بفمه! «تا را تا تا تا! تا تا تا!...»

ـ آه! دعك من هذا يا خالي!.. دعك من هذا!.. كان يذكرني بالمجنون الآخر صاحب بوق الصيد.

ـ كم أنت حساس يا قربتي البائسة!... ولكن ماذا ستفعل حين تدور رحى المعركة؟.. انتظر!.. أنت لا تفكر في كل شيء؟.. إبق هنا! إبق معي بعض الوقت أيضاً.. أسبوعان أو ثلاثة!.. ما يكفي لتتوضح الأمور!.. ولنفترض شهراً، ما قولك!..

ـ لا يا خالي.. أفضّل الذهاب على الفور!..

ـ آه! حسناً! أنت عنيد مثل أمك!.. حينما يكون هناك موسيقا في رأسك، فلن تستمع إلى ما عداها!.. آه! ما عدت أعرف ما أقوله لك.. ألا تريد أن تنتسب إلى سلاح الدروع؟ وتغدو ملطخاً بالشحم مثلما أنت الآن... سوف تكون خفيفاً جداً فوق حصان! وهم لن يروك قط داخل المدرعة!.. ستكون شبحاً في الفوج!.. لن تجازف بتلقي طعنة من رمح! هذا مستحيل!.. آه! تلك فكرة رائعة! ولكن عليك أن تسمن أيضاً هناك!.. ولكنك تبدو كشبح يا أبلهي البائس، ينقصك عشرة كيلو غرامات. على الأقل!.. لا أبالغ!.. عشرة كيلو غرامات بالتأكيد!.. هل تحب كثيراً هذه البزة؟ وأراني بزته العسكرية..

ـ نعم يا خالي!..

ـ أنا أراك من هنا لحظة الهجوم!.. أما أنا فلم أكن أرى شيئاً على الإطلاق!.

ـ نعم يا خالي!.. نعم! أريد فعلاً أن انتظر...

ـ لقد خدمت أنا في سلاح الطيران يا فرديناند! «الأخوة الكبار»! حماية الأجواء! الرعب من المدفعية! سيكون لدينا كلُّ الاختصاصات في العائلة!.. أنت لن تذهب إلى البحرية بالطبع.. ستصاب بدوار البحر!.. إذن هل تفهم؟.. ووالدك الذي أمضى خمس سنوات؟ ما الذي سيقوله لنا؟.. هو الذي خدم في سلاح المدفعية!.. سيكون لدينا كلُّ الاختصاصات داخل العائلة!.. كل الجيش يا صديقي!... أليس كذلك؟ تا را تا تا! تا تا تا!

كان يحاول كل ما في وسعه أن يفرِّج عني.. بحث عن قبعته العسكرية. كانت معلقة فوق المدخنة! رأيت شرابة كتفه الصفراء، برتبة مرشح ضابط في مدرسة الطيران...

وضعها على كتفه كما لو أنَّه مستعد للقتال.

ـ هو ذا يا فرديناند! هو ذا الجيش.. كان سعيداً بهذه النتيجة.

ـ آه! اذهب إذن! غير موقفه.. كل هذا كان مزاحاً!.. أنت لا تبرح تغير رأيك!.. ألم تستلم أوراقك بعد.. وسجلك؟ يا صديقي؟ إذهب إذن أيها الجندي الصغير!.. لديك المزيد من الوقت!.. ثم أطلق آهة عميقة.. ليست الوظيفة هي ما يحتاجه المرء كي يرتكب الحماقات! أنت حالياً مشوش للغاية.. هذا مفهوم جداً!... تنتحب مثل مادلين.. لا شك أنك تعاني من ظمأ شديد!.. لا؟.. ألا تريد قدحاً من الجينغلارد؟... لدي كالفادوس من النوع الجيد!.. سأضع لك فيه قليلاً من السكر.. ألا تريد قليلاً منه؟... أنت تفضِّل النبيذ الأحمر، ببساطة، هل تحب أن أسخنه لك؟ أم أنك تريد كاموميل؟ ألا تريد قدحاً من الأنيسون؟... أنت تفضل جرعة من البولوشون!.. أنا أعرف ما تحتاج إليه!.. غفوة صغيرة في البداية!.. تلك هي الحكمة عينها!... أنت ترى بأنني أهذر دونما توقف.. أنت بحاجة إلى عشر ساعات من الرقاد.. هيا بسرعة!.. يا ابن أختي العزيز! فلنخرج مهدا المسيح!... بالتأكيد! أقسم لك على هذا يا صغيري.. إبق معي دائماً إذن!...

ـ أريد فعلاً أن أبقى معك يا خالي.. أريد ذلك بالتأكيد!.. ولكن هذا ليس ممكناً، أقسم لك!.. فيما بعد يا خالي!.. فيما بعد؟ ألا تريد؟ لن أعمل أي شيء مفيد الآن.. لا أستطيع أبداً!.. قل إذن يا خالي، هل تريد فعلاً أن أذهب؟.. قل بأنك ستسأل والدي؟.. أنا متأكد بأنه يريد ذلك فعلاً!..

ـ ولكن لا! ولكن لا!.. أنا لا أريد.. أخرجه كلامي عن طوره.. آه! لشد ما أنت عنيد مع ذلك! كم أنت قادر على أن تكون متصلباً

برأيك!.. مثل كليمانس تماماً!.. قسماً بالرب! أنت لست من دون عائلة!.. ولكنك تدمّر نفسك من دون داعٍ!.. ولكن الجيش يا رفيقي الصغير!.. ولكنه ليس كما تتخيله!... إنه أشد قسوة من أي عمل!.. أنت لا تدرك ذلك.. ولا سيما في سنك!.. الآخرون يتطوعون في الواحدة والعشرين من عمرهم! وهذه مزية بالتأكيد. لن يكون بمقدورك أن تتحمل.. ستنهار لا محالة..

ـ لا أعرف يا خالي.. ولكن سيكون من الأفضل أن أجرِّب!...

ـ آه! قال فجأة! هذا لعمري هو الوسواس!.. هيا! ستذهب إلى السرير! أنت الآن لا تتفوه إلا بحماقات. سنتحدث غداً في ذلك.. أعتقد، على الأخص، بأنك خائر القوى تماماً!... تلك فكرة أشبه بالحمى. أنت تغمغم دون توقف، وهذا يكفي.. آه! لقد عاملوك جيداً!... اعتنوا بك عناية شديدة، أولئك الفلاحون!.. آه! وهذا هو الأهم!.. أنت لا تتلفظ الآن إلا بالحماقات! إيه حسناً يا ضيفي!.. آه! إذن، سأعمل على ترميم قواك.. وأنت ستكتم عني كل ما في ذهنك!.. هذا ما يمكنني الآن أن أخبرك به!.. في كل يوم، وجبات من الدقيق!.. والزبدة! واللحم! ومن أفضل الأنواع!.. ليس ضلوعاً صغيرة بالتأكيد!... وكمية من الشوكلاته كل صباح!.. وقدحاً صغيراً من زيت كبد الحوت! آه! ولكنني أعرف ما ينبغي عمله!.. لقد انتهت أيام الجوع الآن! وصلصة الهواء الطلق!.. ولكن نعم يا دبي الصغير!.. انتهت رقصة الكلاكيت!... هيا بسرعة! إلى السرير الآن!... ليس كل ما تقوله سوى هراء!... أنت مثقل بالانفعال ببساطة!.. هذا ما أراه.. لقد انقلبت رأساً على عقب!.. ففي سنك يتخم المرء بالأطعمة!..

حسبك التفكير بذلك! فكِّر بشيء آخر!.. فكر بأن تلتهم من الطعام قدر أربعة!.. قدر ستة وثلاثين!.. وخلال ثمانية أيام سيزول عنك كل هذا الهزال! بضمانة بنك فرنسا!.

أخرجنا السرير من الخزانة الجدارية.. السرير المطوي الذي يطلق صريراً من كل جوانبه.. لقد غدا صغيراً جداً بالقياس إلي.. فحينما حاولت أن أتمدد، دخلت قدماي بين قضبان عوارضه. فضلت أن أفرش فراشي على الأرض... وضع لي فرشتين فوق بعضهما.. كنت أرتعش كورقة شجر صفراء.. غطاني بحرامات صوفية.. ولكنني كنت ما أزال أرتعد.. غمرني بالأغطية تماماً، حتى بتُّ مدفوناً تحت كومة من المعاطف... ومن جلود الدببة التي تراكمت فوقي.. لم يترك شيئاً داخل الخزانة!.. كنت أرتجف مع ذلك.. كنت أنظر إلى جدران الغرفة، كانت مرقعة هنا وهناك!.. كنت نائماً في الغرفة الوسطى، غرفة انجيلوس.

ـ لا أستطيع أن أدثرك أكثر؟.. قل يا تمساحي العجوز لا يمكنني أن أخنق أنفاسك، مع ذلك؟ ما رأيك أنت؟ ما عدت أعثر عليك؟ آه حسناً! سيكون ذلك مهزلة حقيقية! شيئاً مستهجناً إذا ما اختنقت!.. آه حسناً! هذا سيصنع لي منك جندياً جميلاً!.. صريعاً تحت كومة من الأغطية!.. أية أغنية سأسمعها حينذاك!.. إيه حسناً! سأقع في ورطة! سينهال علي والداك بالتهم والإدانة! أوه حسناً نعم! الولد الغالي، كنزنا الثمين! كم سأكون ظريفاً حين أشرح لهم!.. بأن ولدهم الغول قد هلك غارقاً بعصيره تحت الأغطية! بفدواك! أوه! مهلاً! أية مكيدة!.. لقد هلك إمبراطوري.. سيمتلئ فنائي بالناس!.. كنت أرتج وأنا أضحك.. ثم اتجه إلى غرفته.. ونبهني من بعيد...

ـ قل إذن، سأترك بابي مفتوحاً!.. إذا احتجت إلى أي شيء، فلا تتهيب من أن تناديني!.. ليس عيباً أن يمرض الإنسان.. سأكون بجانبك فوراً!.. إذا شعرت بمغص فأنت تعرف باب المرحاض؟.. إنه في الممر إلى اليسار!.. لا تخطئ في الدرج!.. هناك سراج فوق إفريز الجدار، لا ضرورة لأن تطفئه!.. وإن رغبت في التقيؤ! هل تحب أن أحضر لك المبولة.

ـ أوه! لا يا خالي.. سأذهب إلى هناك..

ـ حسن! ولكن إن نهضت إذن من فراشك فالبس المعطف على الفور! اختر ما تشاء من الكومة! أي شيء... ستهلك من البرد في الممر.. ليست المعاطف هي ما ينقصنا..

ـ لا يا خالي.